

القيم الحضارية في السنة النبوية

ندوة علمية دولية ثالثة

عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

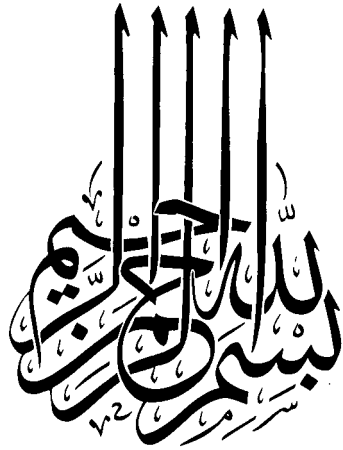
4 - 7 / 4 / 1428 هـ - 22 - 25 / 4 / 2007 م

بحوث هذه الندوة العلمية محكمة

الجزء الثالث

القيم الحضارية في السنة النبوية

**القيم الحضارية
في السنة النبوية**
ندوة علمية دولية ثالثة



القيم الحضارية في السنة النبوية

ندوة علمية دولية ثالثة

الجزء الثالث

(الجلسة الخامسة و السادسة)

عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

2007 / 4 / 25 - 22 م

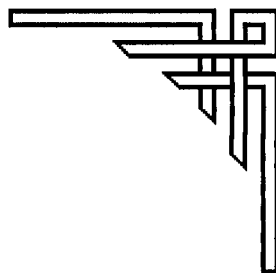
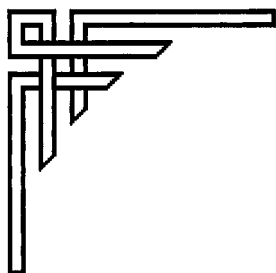
1428 / 4 / 7 - 4 هـ

كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي، الإمارات العربية المتحدة

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

٥١٤٢٨ - ٢٠٠٧ هـ

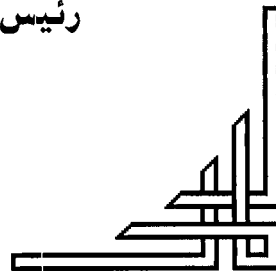
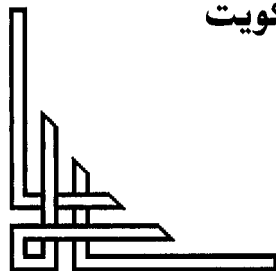


ركائز التنمية المستدامة
وحماية البيئة
في السُّنَّة النَّبَوِيَّة

د. محمد عبد القادر الفقي

رئيس تحرير مجلة البيئة البحرية - الكويت

دكتوراه في الهندسة الكيميائية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد فإن من الدراسات المهمة التي تفتقر إليها البحوث العلمية تلکم الدراسات التي تزوج بين القضايا الكونية المعاصرة وبين الشريعة الإسلامية، وهي دراسات تتطلب الجمع بين تخصصات مختلفة، بالإضافة إلى الإمام بمصادر التشريع الإسلامي، والقدرة على الربط بين النواحي العلمية والشريعة وفق منهجية محددة وضوابط عامة. وهذا النمط من الدراسات ذو أهمية بالغة في معالجة القضايا المعاصرة والتفكير لها، استنادا لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية. وفي الوقت نفسه، فإن هذه الدراسات خير دليل لغير المسلمين على مرونة الشريعة الإسلامية، وملاءمتها لحل المشكلات المستعصية التي باتت تئن من ويلاتها المجتمعات البشرية المعاصرة.

وهذا البحث هو محاولة لدراسة موضوع من الموضوعات التي لها صلة مباشرة بالاقتصاد العالمي، وعلوم البيئة، والتشريعات المختلفة، بما فيها التشريع الإسلامي، وهو موضوع التنمية المستدامة. ومن المعروف أن هذا النمط من أنماط التنمية يُعدّ إحدى الغايات التي تسعى دول العالم قاطبة في القرن الحادي والعشرين الميلادي إلى الوصول إليها، واتخاذ كل التدابير اللازمة لتحقيقها، باعتبار أنها الوسيلة المثلى لتحقيق التقدم الحضاري المنشود بشتى صورته (اقتصادياً، واجتماعياً، وبشرياً)، مع المحافظة في الوقت نفسه على الموارد والثروات الطبيعية من الاستنزاف والتلوث، بحيث يظل كوكب الأرض قادراً على الوفاء بمعطيات التنمية وضمنان ديمومتها للأجيال القادمة، انطلاقاً من كون هذه الموارد ليست حكرًا على جيل بعينه، بل هي ملكية عامة للبشر جميعاً في كل زمان ومكان. كما أن التنمية المستدامة تمثل في الوقت نفسه إحدى القيم الحضارية المرتبطة بأخلاقيات التعامل مع البيئة، والتعامل الرشيد مع عناصرها ونظمها ومواردها.

ويعرض هذا البحث لقضية التنمية المستدامة من منظور علمي وإسلامي، استناداً إلى ما ورد في السنة النبوية من أحاديث شريفة ذات صلة بهذه القضية، وما ورد في المراجع العلمية الحديثة المتعلقة بهذه القضية. وقد كان سبب اختياري لهذا البحث هو ندرة الدراسات التي تطرقت إلى تلك القضية، والحاجة الماسة إلى إبراز موقف الإسلام من هذا النمط من أنماط التنمية.

منهج البحث:

يقوم البحث على المنهج العلمي الاستقرائي الاستنباطي المقارن. فقد عنيت فيه ببيان مفهوم التنمية المستدامة في العلم الحديث، وقارنت بين ذلك المفهوم والمفهوم الإسلامي الذي تم استنباطه من خلال استقراء آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة المرتبطة بعناصر التنمية المستدامة. وقمت بتأصيل المفاهيم الواردة في البحث تأصيلاً علمياً استناداً إلى ما ورد في المعاجم اللغوية. كما قمت بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من السور الكريمة، وتخريج الأحاديث الواردة في البحث من غير الصحيحين، مع شرح معاني الكلمات الغريبة.

تقسيم البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وستة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: المفهوم العلمي للتنمية المستدامة والاصطلاحات ذات الصلة.

المبحث الثاني: حماية البيئة والتنمية المستدامة باعتبارهما قيمتين حضاريتين.

المبحث الثالث: العناصر الأساسية للتنمية المستدامة.

المبحث الرابع: مفهوم التنمية المستدامة في الإسلام.

المبحث الخامس: ركائز التنمية المستدامة في السنة النبوية.

المبحث السادس: القواعد الفقهية المتعلقة برعاية البيئة.

وقد تضمنت الخاتمة أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: المفهوم العلمي للتنمية المستدامة والاصطلاحات ذات الصلة:

أولاً: مفهوم التنمية المستدامة:

يتكون اصطلاح التنمية المستدامة من لفظتين، هما: التنمية، والمستدامة. والتنمية في اللغة مصدر من الفعل (نَمَى). يقال: أُنميت الشيء ونَمَيْته: جعلته نامياً^(١). أما كلمة (المستدامة) فمأخوذة من استدامة الشيء، أي: طلب دوامه^(٢). ومن الناحية الاصطلاحية يراد بالتنمية زيادة الموارد والقدرات والإنتاجية. وهذا المصطلح - برغم حداثة - يستعمل للدلالة على أنماط مختلفة من الأنشطة البشرية، مثل: التنمية الاقتصادية، والتنمية الاجتماعية، والتنمية البشرية، الخ. وفي الاصطلاح يُراد بالتنمية الاقتصادية: الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية والبشرية، لغرض تحقيق زيادات مستمرة في الدخل تفوق معدلات النمو السكاني. أما التنمية الاجتماعية فالمراد منها هو إصلاح الأحوال الاجتماعية للسكان عن طريق زيادة قدرة الأفراد على استغلال الطاقة المتاحة إلى أقصى حد ممكن، وبتحصيل أكبر قدر من الحرية والرفاهية. وتعني التنمية البشرية: تخويل البشر سلطة انتقاء خياراتهم بأنفسهم، سواء فيما يتصل بموارد الكسب، أو بالأمن الشخصي، أو بالوضع السياسي. ويلاحظ أن ثمة تداخلاً بين كل هذه الأنماط التنموية، إذ يرتبط كل نمط منها مع سائر الأنماط الأخرى ارتباطاً وثيقاً من حيث التأثير المتبادل بينهما. ولذلك وجدنا من يدمج كل هذه الأنماط المختلفة من التنمية تحت مسمى واحد هو التنمية المتكاملة.

ولما كانت التنمية المتكاملة تقتصر دلالاتها الاصطلاحية على العمليات التي تجرى في الوقت الحاضر فقط لتلبية احتياجات أفراد المجتمع الموجودين حالياً، دون مراعاة لاحتياجات الأجيال القادمة، فقد قام كاتبو تقرير لجنة (برونتلاند)

١- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الجزء الخامس عشر، صفحة ٣٤١.

٢- المرجع السابق، الجزء الثاني عشر، صفحة ٢١٣.

المعنون: (مستقبلنا المشترك) في عام ١٩٨٧ بوضع مصطلح (التنمية المستدامة) للدلالة على التنمية التي تلبي احتياجات الحاضر دون أن تؤثر في قدرة الأجيال المقبلة على تلبية احتياجاتها. وعلى هذا فقد عرفت التنمية المستدامة بأنها: الأعمال التي تهدف إلى استثمار الموارد البيئية بالقدر الذي يحقق التنمية، ويحد من التلوث، ويصون الموارد الطبيعية ويطورها، بدلاً من استنزافها ومحاولة السيطرة عليها. وهي تنمية تراعي حق الأجيال القادمة في الثروات الطبيعية للمجال الحيوي لكوكب الأرض، كما أنها تضع الاحتياجات الأساسية للإنسان في المقام الأول، فأولوياتها هي تلبية احتياجات المرء من الغذاء والمسكن والملبس وحق العمل والتعليم والحصول على الخدمات الصحية وكل ما يتصل بتحسين نوعية حياته المادية والاجتماعية. وهي تنمية تشترط ألا نأخذ من الأرض أكثر مما نعطي^(٣)، أي إنها تتطلب تضامناً بين الجيل الحالي والجيل المستقبلي، وتضمن حقوق الأجيال المقبلة في الموارد البيئية. وتتمثل أهداف التنمية المستدامة في تحسين ظروف المعيشة لجميع سكان العالم، وتوفير أسباب الرفاهية والصحة والاستقرار لكل فرد.

ثانياً: مفهوم البيئة:

تدل كلمة (البيئة) في معاجم اللغة العربية على (النزول والحلول في المكان)، ثم أطلقت الكلمة مجازاً على المكان الذي يتخذه الإنسان (مستقراً لنزوله وحلوله)، أي على: المنزل، والموطن والموضع الذي يرجع إليه الإنسان فيتخذ فيه منزله وعيشه^(٤).

و(البيئة) في العلم هي: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما

٣- البيئة والتنمية المستدامة، سعاد عبد الله العوضي، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، صفحة ٧.

٤- لسان العرب، ابن منظور، الجزء الأول، صفحة ٣٦:٣٧.

يضم من ظواهر طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها^(٥). وقد عرفتها موسوعة Van Nostrands Scientific Encyclopedia بأنها: مجموعة الظروف والعوامل المادية المحيطة بالكائن الحي ومكوناته^(٦).

وعلى هذا يمكننا القول بأن البيئة (في إطارها العام) هي كل ما هو خارج جسم الإنسان ويؤثر فيه، ويتأثر بالأنشطة التي يمارسها الإنسان نفسه.

الثالث: حماية البيئة ورعايتها:

الحماية في اللغة: المنع والدفع. يقال: حمى فلانا، أي: منعه ودفع عنه^(٧). وعلى هذا فإن اصطلاح (حماية البيئة) يدل على المحافظة على البيئة من كل ما يفسدها أو يضر بها ويلوثها. أما الرعاية فإنها تعني: حفظ الشيء وتولي أمره^(٨)، قال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^(٩)، أي: ما حفظوها وصانوها حق المحافظة والصيانة^(١٠) وعلى هذا فرعاية البيئة تعني: إحاطتها بالحفظ والعناية والصيانة.

المبحث الثاني: حماية البيئة والتنمية المستدامة باعتبارهما قيمتين حضاريتين

مع كثرة المشكلات التي تعرضت لها البيئة منذ عهد الثورة الصناعية، ومع الزيادة المطردة في حجم هذه المشكلات، نشأ ما يعرف بالأفكار الخضراء، وهي الأفكار التي تنادي بحماية البيئة من أجل الحفاظ على كوكب الأرض وما فيه من أحياء، والحيلولة دون تردي جودة كل من الماء والهواء والتربة. وصارت المحافظة على البيئة قيمة من قيم الحضارة المعاصرة يتبناها السياسيون في برامجهم

٥- البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية)، محمد عبد القادر الفقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، صفحة ٨: ١٠.

٦- Van Nostrands Scientific Encyclopedia Edited by Douglas M. Considine, Van Nostrand - ٦ Reinhold Company, New York, U.S.A, Page ٩٦١.

٧- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، صفحة ١٧٣.

٨- المرجع السابق، صفحة ٢٦٩.

٩- الحديد / ٢٧.

١٠- معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، الجزء الأول، صفحة ٥٠٦.

الانتخابية، والمخططون في إستراتيجياتهم التنموية، والإعلاميون في دعاواهم الحضارية. وانتشرت الأفكار الخضراء في العديد من البلدان، مثل تلك الأفكار التي تنادي بإنقاذ الطبيعة والمحافظة على الأشجار وعدم قطع الغابات والمحافظة على التنوع الحيوي^(١١) وحماية طبقة الأوزون... إلخ.

ونتيجة لانتشار الفساد البيئي وتفاقم المشكلات البيئية (المتتمثلة في التلوث، والاضطرابات الكبيرة في النظم البيئية، والاحتباس الحراري، والتصحر، وكثرة الأحياء المهددة بالانقراض) فقد أصاب الهلع الكثيرين من سوء المآل والمنحدر الخطير الذي ستهوي فيه الحضارة الحديثة إذا استمرت القضايا البيئية بلا علاج ناجع. وارتفعت أصوات الدعوة إلى تبني القيم الخضراء وإلى إعادة النظر في علاقة الإنسان بالبيئة. ونشطت الجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية التي تنادي بالمحافظة على البيئة. وفي العقدين الأخيرين وصل المدّ البيئي إلى مدى كبير، فحفلت أدبيات السياسة الخضراء برؤى جديدة تضع البشر على مستوى متكافئ مع جميع الكائنات الحية الأخرى^(١٢).

وفي قمة الأرض الأولى التي عقدت في ريودي جانيرو بالبرازيل في عام ١٩٩٢، وهي القمة التي حضرها معظم ملوك دول العالم ورؤسائه، تم تبني مفهوم التنمية المستدامة باعتباره قيمة حضارية. وصار تحقيق هذه التنمية أحد الطموحات والأهداف الكبرى للعديد من دول العالم المعاصر، وبخاصة بعد ما تعرضت له كثير من موارد الأرض وثرواتها غير المتجددة لخطر الاستنزاف، حتى صار بعضها على شفا النضوب. ومع مطلع الألفية الميلادية الثالثة ازداد الاهتمام

١١- يقصد بالتنوع الحيوي: جميع أنواع النباتات والحيوانات، والكائنات الحية الدقيقة، والنظم البيئية والآلية التي تعمل بها هذه الأنواع. ويمكن تقسيم هذا التنوع إلى ثلاثة مستويات: التنوع الوراثي (الجيني) وتنوع الأنواع الحية وتنوع النظم البيئية. والتنوع الوراثي هو مجموع المعلومات الوراثية المتضمنة في مورثات النباتات والحيوانات. انظر: التنوع الأحيائي، د. عبد الحكيم بدران، سلسلة قضايا بيئية، الكتاب رقم ٤٤، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، صفحة ٩: ١٠.

١٢- بعيدا عن اليسار واليمين، أنطوني جيدنز، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب رقم ٢٨٦، صفحة ٢٦٩.

بتأصيل القيم الأخلاقية في مجال التعامل مع البيئة، والربط بين هذه القيم وبين أهداف التنمية المستدامة التي تسعى إلى تنفيذها الوكالات والبرامج المتخصصة بحماية البيئة. وبادرت الهيئات المتخصصة في حماية البيئة إلى توظيف القيم الدينية المرتبطة بحماية البيئة لتفعيل برامجها الخاصة بتحقيق التنمية المستدامة التي توازن بين الاستغلال الرشيد للموارد البيئية وبين توفير متطلبات التنمية الصناعية والزراعية والعمرانية والبشرية.

المبحث الثالث: العناصر الأساسية للتنمية المستدامة:

تقوم التنمية المستدامة على ثلاثة عناصر أساسية، هي: الاقتصاد والمجتمع والبيئة.

ومن الملاحظ أن هذه العناصر يرتبط بعضها ببعض، وتتداخل فيما بينها تداخلا كبيرا. فالاقتصاد أحد المحركات الرئيسية للمجتمع، وأحد العوامل الرئيسية المحددة لماهيته (مجتمع صناعي أو زراعي أو رعوي، إلخ). والمجتمع هو صانع الاقتصاد، والمشكل الأساسي للأنماط الاقتصادية التي تسود فيه، اعتمادا على نوع الفكر الاقتصادي الذي يتبناه المجتمع (الرأسمالي، الاشتراكي، الإسلامي).

والبيئة هي الإطار العام الذي يتأثر بالأنشطة الاقتصادية ويؤثر فيها. كما تتأثر البيئة بسلوكيات أفراد المجتمع وتؤثر في أحوالهم الصحية وأنشطتهم المختلفة. ولذلك فإن أي برنامج ناجح للتنمية المستدامة لا بد له أن يحقق التوافق والانسجام بين هذه العناصر الثلاثة، وأن يصهرها كلها في بوتقة واحدة تستهدف الارتقاء بمستويات الجودة لتلك العناصر معا: أي تحقيق النمو الاقتصادي، وتلبية متطلبات أفراد المجتمع، وضمان السلامة البيئية، مع المحافظة في الوقت نفسه على حقوق الأجيال القادمة من الموارد الطبيعية وعلى التمتع ببيئة نظيفة. والعلاقة بين التنمية المستدامة وحماية البيئة علاقة وثيقة. وفي هذا الصدد تمثل حماية البيئة الهدف الأول في برامج التنمية المستدامة، ويرجع ذلك

إلى أن البيئة هي المصدر الأساسي لجميع الموارد التي تتطلبها برامج التنمية المستدامة ومشروعاتها. والإخلال بالتوازن البيئي يؤدي إلى تدمير النظم البيئية وتدهور حالة الموارد الطبيعية (الحية وغير الحية) والتعجيل بنفاد بعضها أو إفسادها بحيث يتعذر استخدامها بشكل مناسب اقتصاديا. ولهذا فإن حماية البيئة تتطلب وضع ضوابط خاصة لبرامج التنمية المستدامة بحيث تكفل هذه الضوابط عدم تدهور النظم البيئية الطبيعية. وتتضمن هذه الضوابط ما يلي:

١- المحافظة على سلامة البيئة (خصوبة التربة، تدوير عناصر الغذاء، نظافة المياه، جودة الهواء).

٢- المحافظة على الموارد الوراثية للأحياء الحيوانية والنباتات، والحد من فقدان التنوع الحيوي.

٣- ترشيد الاستخدام المتواصل للموارد الطبيعية (وبخاصة الموارد النباتية والحيوانية)، بحيث لا يكون الاستهلاك أكبر من قدرة هذه الموارد على التكاثر والإنتاج.

وتقضي التنمية المستدامة بأن يراعي الإنسان هذه الضوابط، ويراعي أهمية صون النظم البيئية، وأن يخطط معدلات استهلاكه بحيث يحافظ على التوازن بين احتياجاته وبين طاقة تلك النظم وقدرتها على الاستمرارية والعطاء.

المبحث الرابع: مفهوم التنمية المستدامة في الإسلام:

على الرغم من حداثة مصطلح (التنمية المستدامة) فإن مفهومه ليس بجديد على الإسلام والمسلمين. فقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالعديد من النصوص التي تمثل الركائز الأساسية للتنمية المستدامة، وتضع الضوابط التي تحكم علاقة الإنسان بالبيئة من أجل ضمان استمراريتها صالحة للحياة إلى أن يأتي أمر الله. ومن الجدير بالذكر أن مفهوم التنمية المستدامة في الإسلام أكثر شمولاً، بل إنه أكثر إلزاماً من المفهوم المناظر الذي تم تبنيه في أجندة القرن الحادي

والعشرين المنبثقة عن قمة (ريو). فالنظرة الإسلامية الشاملة للتنمية المستدامة توجب ألا تتم هذه التنمية بمعزل عن الضوابط الدينية والأخلاقية، لأن هذه الضوابط هي التي تحول دون أية تجاوزات تفقد التنمية المستدامة مبررات استمراريتها. وفي الوقت نفسه فإن النظرة الإسلامية الشاملة للتنمية المستدامة تعنى بالنواحي المادية، جنباً إلى جنب مع النواحي الروحية والخلقية، فلا تقتصر التنمية المستدامة على الأنشطة المرتبطة بالحياة الدنيا وحدها، وإنما تمتد إلى الحياة الآخرة، بشكل يضمن تحقيق التوافق بين الحياتين، ويجعل صلاحية الأولى جسر عبور إلى النعيم في الحياة الآخروية التي هي الحيوان، أي الحياة الحقيقية المستمرة بلا انقطاع وبلا منغصات.

وهكذا، فإن مهمة التنمية المستدامة في المنظور الإسلامي هي توفير متطلبات البشرية حالياً ومستقبلاً، سواء أكانت مادية أو روحية، بما في ذلك حق الإنسان في كل عصر ومصر في أن يكون له نصيب من التنمية الخلقية والثقافية والاجتماعية. وهذا بُعد مهم تختلف فيه التنمية المستدامة في المنظور الإسلامي عن التنمية المستدامة في النظم والأفكار الأخرى، لأنه يعتمد على مبدأ التوازن والاعتدال في تحقيق متطلبات الجنس البشري بشكل يتفق مع طبيعة الخلقة الإلهية لهذا الكائن. والتنمية المستدامة في المنظور الإسلامي لا تجعل الإنسان ندا للطبيعة، ولا متسلطاً عليها، بل تجعله أميناً بها، محسناً لها، رفيقاً بها وبعناصرها، يأخذ منها بقدر حاجته وحاجة من يعولهم، بدون إسراف، وبلا إفراط ولا تفريط. كما أنها تُعدّ لونا من ألوان شكر المنعم على ما أنعم به على خلقه، انطلاقاً من كون العمل في الأرض نمطاً من أنماط الشكر لله، كما قال تعالى: ﴿ أَعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾^(١٣) والتنمية المستدامة من هذا المنظور توجب على الأغنياء مساعدة الفقراء، فالمال مال الله، وهم مستخلفون فيه، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَوْهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ

الَّذِي ءَاتَكُمْ ﴿١٤﴾ وقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ ﴿١٥﴾؛ ولأن الأغنياء إن لم يفعلوا قد يضطرون الفقراء إلى الضغط على الموارد الطبيعية واستنزافها من أجل الحصول على قوتهم وقوت أولادهم. وما تقوم به الدول الفقيرة من قطع جائر لغاباتها، وإقامة للصناعات الملوثة للبيئة على أراضيها يُعدّ مثالا لما يمكن أن يفعله الفقر من دمار بيئي.

المبحث الخامس: ركائز التنمية المستدامة في السنة النبوية:

يمكن تقسيم ركائز التنمية المستدامة في السنة النبوية إلى ثلاث ركائز أساسية، كما يلي:

أولا عمارة الأرض:

ذكرنا من قبل أن الاقتصاد يُعدّ أحد العناصر الرئيسية للتنمية المستدامة. ولكننا هنا نؤثر استعمال المصطلح الإسلامي (عمارة الأرض) لأن دلالات هذا المصطلح تتضمن معاني الوسيلة التي تتحقق بها التنمية المستدامة، كما تتضمن - في الوقت نفسه - الهدف من هذه التنمية^(١١). وتتمثل عمارة الأرض في الإسلام في كل الوسائل التي يمكن من خلالها إحداث مختلف أنواع التنمية، سواء أكانت اقتصادية (صناعية / زراعية) أم حضرية أم اجتماعية أم صحية أم روحية... إلخ. كما أن عمارة الأرض تمثل الهدف الرئيسي للتنمية المستدامة، فضلا عن كونها غاية دينية ومقصدا شرعيا. فالله خلق الإنسان لكي يضطلع بثلاث مهام رئيسية، هي: عبادة الله لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿١٧﴾ وخلافته في الأرض لقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي

١٤- النور / ٣٣.

١٥- الحديد / ٧.

١٦- العمارة في اللغة: نقيض الخراب. يقال: عمّر أرضه يعمرها عمارة. انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، صفحة ٣٨٨.

١٧- الذاريات / ٥٦.

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ ﴿١٨﴾، وعمارتها استنادا إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ﴿١٩﴾. ومن الناحية اللغوية فإن معنى ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ هو: فوّض إليكم أن تعمروها ﴿٢٠﴾.

ومن الملاحظ أن ثمة ارتباطا وثيقا بين هذه المهام الثلاث، وتداخلا أيضا. فعبادة الله هي من الخلافة في الأرض ومن عمارتها. والخلافة هي من عبادة الله، ومن عمارة الأرض كذلك.

وتحفل السنة النبوية بالعديد من الأحاديث الشريفة التي تحث على عمارة الأرض.

١- ففي الحث على الغرس والتشجير والزرع: روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها» ﴿٢١﴾. وليس هناك تحريض على الغرس إلى آخر رمق في حياة الإنسان أقوى من هذا الحديث، لأنه يدل على الطبيعة المنتجة والخيرة التي يجب أن يتحلى بها الإنسان المسلم. والعمل هنا يجب أن يؤدي لذات العمل، لأنه ضروري للقيام بحق خلافة لله في الأرض.

وقد رغبت السنة النبوية في الغرس والتشجير وفلاحة الأرض، وجعلت ثواب ذلك أجرا عظيما، فكل ما يصاب من ثمار الأشجار والزرورع هو صدقة

١٨٧- البقرة / ٣٠.

١٩- هود / ٦١.

٢٠- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، صفحة ٣٨٨.

٢١- رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في مسنده، والبخاري، ورواية أحمد: إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها. انظر: الأدب المفرد، الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، (باب اصطناع المال، الحديث رقم ٤٧٩)، الجزء الأول، صفحة ٢٤٢. وانظر: مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم الحديث ١٢٩٢٥، الجزء الثالث، صفحة ١٨٣. وجاء في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله أثبات ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث / دار الكتاب العربي، القاهرة / بيروت، الجزء الرابع، صفحة ٦٣. والفسيلة: الصغيرة من النخل. والفسل: قضبان الكرم للغرس، وهو ما أخذ من أمهاته ثم غرس، حكاه أبو حنيفة. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الحادي عشر، صفحة ٥١٩.

ينميها الله عز وجل لصاحبها إلى يوم القيامة، بما في ذلك ما تصيبه أحياء البيئة من طير وسباع وحيوان ودواب وحشرات. فعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلاَّ كان له به صدقة» ^(٢٢) وعن خلاد بن السائب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زرع زرعاً فأكل منه الطير أو العافية كان له به صدقة» ^(٢٣).

ومن الملاحظ أن هذه الأحاديث تحث المسلم من طرف خفي على أن يدع أحياء البيئة (من طير وحشرات وغيرها) تأكل من زرعه غير آسف على ذلك. فالله هو الرزاق، وهو يرزق كل ما خلق، وليس على الإنسان أن يمنع مخلوقات الله من أن تحصل على طعامها مما أنبته الله، وعليه أن يطمئن إلى عظم الجزاء الذي سيكون له عند مولاه نظير ما أخذته هذه المخلوقات من ثماره وحبوبه وزروعه. ولما كان حفر الأنهار والقنوات من مستلزمات الزراعة حثت السنة النبوية على ذلك، وجعلت شق الأنهار من الأعمال التي يلحق ثوابها المؤمن بعد موته. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله

٢٢- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مراجعة وضبط: الشيخ محمد علي القطب والشيخ هشام البخاري، المكتبة العصرية، صيدا / بيروت، كتاب الحرث والمزراعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، الحديث رقم ٢٣٢٠، صفحة ٣٩٧. وانظر: صحيح مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، مكتبة الإيمان، المنصورة بمصر، كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، الحديث رقم ٨٩ (١٥٣٤)، الجزء الخامس، صفحة ٣٦٤.

٢٣- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حديث السائب بن خلاد أبي سهلة رضي الله تعالى عنه، الحديث رقم ١٦٦٠٧، الجزء الرابع، صفحة ٥٥. وقال المنذري: رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن. انظر: الترغيب والترهيب، الحافظ المنذري، الحديث رقم ٣٩٢٧، الجزء الثالث، صفحة ٢٨٧. وقال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد، باب إتخاذ الشجر وغير ذلك، نص رقم ٦٢٩٥، صفحة ١١٧. والعافية: طلاب الرزق من الإنس والدواب والطيور. والواحد من العافية: عاف، وهو كل من جاءك يطلب فضلاً أو رزقاً. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الخامس عشر، صفحة ٧٤.

في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته»^(٢٤).

وإذا عجز المرء عن زراعة أرضه لأي سبب كان (لعذر جسماني أو مادي مثلا) فإن عليه ألا يترك الأرض لتبور، بل عليه أن يعطيها للقادر على زراعتها. فعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنْ أَبِي فَلْيَمْسِكْ أَرْضَهُ»^(٢٥). وعن أبي النجاشي مولى رافع بن خديج، قال: سمعت رافع بن خديج بن رافع عن عمه ظهير بن رافع، قال ظهير: «لقد نهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان بنا رافقا». قلت: ما قال رسول الله ﷺ فهو حق. قال: دعاني رسول الله ﷺ، قال: «ما تصنعون بمحاقلكم؟» قلت: نؤاجرها على الربيع وعلى الأوسق من التمر والشعير. قال: (لا تفعلوا. ازرعوها، أو أزرعوها، أو أمسكوها). قال رافع: قلت سمعا وطاعة^(٢٦).

٢٤- رواه ابن ماجه. وفي سند الحديث مرزوق بن الهذيل. ومرزوق مختلف فيه. ونُقِلَ عَنِ ابْنِ الْمُنْذِرِ أَنَّهُ قَالَ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ. وَفِي الزَّوَائِدِ: إِسْنَادُهُ غَرِيبٌ. انظر: سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، كتاب اتباع السنة، باب: ثواب معلم الناس الخير، الحديث رقم ٣٦٠٥، الجزء الأول، صفحة ٨٨. ورواه البيهقي عن أنس، وفي سننه محمد بن عبيد الله العزرمي. ومثني الحديث عند البيهقي هكذا: (سبعة يجزي للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علم علما، أو كرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته). فجعل غرس النخل مما يستمر ثوابه وأجره بعد موت صاحبه. وقال البيهقي: محمد بن عبد الله العزرمي ضعيف، غير أنه قد تندمه ما يشهد لبعضه والله أعلم. انظر: شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الباب الثاني والعشرين من شعب الإيمان وهو باب في الزكاة، فصل: في الاختيار في صدقة التطوع، الحديث رقم ٣٤٤٩، الجزء الثالث، صفحة ٢٤٨. وانظر أيضا: الترغيب والترهيب، الحافظ المنذري، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، القاهرة، الحديث رقم ٣٩٢٧، الجزء الثالث، صفحة ٢٨٧.

٢٥- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الحرت والمزارعة، باب: ما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يواسي بعضهم بعضا في الزراعة والثمرة، الحديث رقم: ٢٤٣٢، صفحة ٤٠١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البيوع، باب: كراء الأرض، الحديث رقم ١٢- (١٥٥٣)، الجزء الخامس، صفحة ٣٧٩.

٢٦- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الحرت والمزارعة، باب: ما كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يواسي بعضهم بعضا في الزراعة والثمرة، الحديث رقم ٢٣٣٩، صفحة ٤٠٠. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البيوع، باب: كراء الأرض بالطعام، الحديث رقم ١١٤- (١٥٨٤)، الجزء الخامس، صفحة ٣٧٠: ٣٧١. وقوله: (رافقا) أي ذا رفق. وقوله: (بمحاقلكم) أي بمزارعكم. (وعلى الربيع): النهر الصغير. والمعنى أنهم كانوا يكرون الأرض ويشترطون لأنفسهم ما ينبت على الأنهار. قوله: (وعلى الأوسق) الواو بمعنى أو. قوله: (ازرعوها أو أزرعوها) الأول بكسر الألف وهي ألف وصل والراء

بل إن رسول الله ﷺ ترك خير لليهود (قبل إجلائهم منها) ليزرعوا أرضها مقابل شطر ما تغله أرض تلك البلدة، وهذا يعني أنه لا فرق في جواز هذه المعاملة بين المسلمين وأهل الذمة^(٢٧). فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ أعطى خير اليهود، على أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما خرج منها»^(٢٨). وعن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على خير أراد إخراج اليهود منها، وكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله ﷺ ولللمسلمين، فسألت اليهود رسول الله ﷺ ليقرهم بها أن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر، فقال لهم رسول الله ﷺ: «نقركم بها على ذلك ما شئنا، فقرّوا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء»^(٢٩).

مفتوحة، والثاني بألف قطع والراء مكسورة وأو للتخيير لا للشك، والمراد ازرعوها أنتم أو أعطوها لغيركم يزرعها بغير أجره. قوله: (أو أمسكوها) أي اتركوها معطلة. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الجزء الخامس، صفحة ٢٩. وقال الإمام النووي: قوله في هذا الحديث: (نؤاجرها يا رسول الله على الربيع أو الأوسق) هكذا هو في معظم النسخ. (الربيع) وهي الساقية والنهر الصغير، وحكى القاضي عن رواية ابن ماهان (الربيع) بضم الراء وبحدف الياء، وهو أيضا صحيح. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، الجزء الخامس، صفحة ٣٧١. والأوسق: جمع وسق. والوسقُ والوسقُ: مِكِيلَةٌ معلومة، وقيل: هو حمل بغير وهو ستون صاعاً بصاع النبي صلى الله عليه وسلم وهو خمسة أرتال وثلاث، فالوسقُ على هذا الحساب مائة وستون مناً. وفي التهذيب: الوسقُ، بالفتح، ستون صاعاً وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز، وأربعمائة وثمانون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمد، والأصل في الوسقِ الحمل؛ وكل شيء وسقته، فقد حملته. وقال الخليل: الوسقُ هو حمل البعير، والوقرُ حمل البغل أو الحمار. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء العاشر، صفحة ٣٧٨:٣٧٩.

٢٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الخامس، صفحة ١٩.
 ٢٨- صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب: المزارعة مع اليهود، الحديث رقم: ١٣٣٢، صفحة ٣٩٩.
 ٢٩- صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب: إذا قال رب الأرض: اترك ما أفرك الله ولم يذكر أجلا معلوماً فهما على تراضيهما، الحديث رقم: ٨٣٣٢، صفحة ٤٠٠. قال ابن حجر: فقرّوا (بفتح القاف) أي: سكنوا. وتيماء (بفتح المثناة وسكون التحتانية والمد)، وأريحاء (بفتح الهمزة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ثم مهملة والمد أيضاً): هما موضعان مشهوران بقرب بلاد طيء على البحر في أول طريق الشام من المدينة. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الخامس، صفحة ٢٦.

٢- في مجال إحياء الأرض الموات^(٣١) حث السنة النبوية على إصلاح تلك الأرض وزراعتها وجلب الماء إليها. فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «من أعمار أرضا ليست لأحد فهو أحق»^(٣٢)، أي أحق بها^(٣٣). وقال عمر رضي الله عنه: «من أحيأ أرضا ميتة فهي له»^(٣٤). ولا يخفى أثر إحياء الأرض في زيادة الإنتاج الزراعي والحيواني، فضلا عن دوره في المحافظة على التربة ومنع تفككها وتعرضها للتصحّر.

٣- في مجال العمل والصناعة^(٣٥)، حث السنة على العمل اليدوي للاستغناء به عن سؤال الناس. فعن المقدام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاما

٣٠- قال القزاز: الموات الأرض التي لم تعمر، شبهت العمارة بالحياة وتعطيلها بفقد الحياة. وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم مالك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء، فتصير بذلك ملكه، سواء أكانت فيما قرب من العمران أم بعد، سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن، وهذا قول الجمهور. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الخامس، صفحة ٢٣.

٣١- صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزراعة، باب: من أحيأ أرضا مواتا، الحديث رقم: ٦٣٣٢، صفحة ٤٠٠. ٣٢- قال ابن حجر: قوله: (من أعمار) بفتح الهمزة والميم من الرباعي، قال عياض كذا وقع، والصواب: (عمر) ثلاثيا. قال تعالى: (وعمروها أكثر مما عمروها)، إلا أن يريد أنه جعل فيها عمارة، قال ابن بطال: ويمكن أن يكون أصله من اعتمر أرضا أي اتخذها، وسقطت التاء من الأصل، وقال غيره قد سمع فيه الرباعي، يقال أعمار الله بك منزلك. فالمراد من أعمار أرضا بالإحياء فهو أحق به من غيره، وحذف متعلق أحق للعلم به،... ووجه آخر عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه. قوله: (فهو أحق) زاد الإسماعيلي: (فهو أحق بها) أي من غيره... انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الخامس، صفحة ٢٣.

٣٣- رواه البخاري في عنوان باب: من أحيأ أرضا مواتا، ولم يذكر سند الحديث، وإنما قال: ويروى عن عمر وابن عوف عن النبي ﷺ. ويروى فيه عن جابر عن النبي ﷺ. انظر: صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزراعة، باب: من أحيأ أرضا مواتا، صفحة ٤٠٠. وقال ابن حجر: قوله - أي: البخاري -: (وقال عمر من أحيأ أرضا ميتة فهي له) وصله مالك في (الموطأ) عن ابن شهاب عن سالم عن أبيه مثله. وروينا في (الخراج ليحيى بن آدم) سبب ذلك فقال: حدثنا سفيان عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: كان الناس يتحجرون - يعني الأرض - على عهد عمر، قال: من أحيأ أرضا فهي له. قال يحيى: كأنه لم يجعلها له بمجرد التحجير حتى يحييها. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الخامس، صفحة ٢٣.

٣٤- من الجدير بالذكر أن تعريف الصناعة عند العرب يختلف كثيرا عن تعريفنا لها، فقد جاء في (لسان العرب): صنعه يصنعه صنعا، فهو مصنوع، وصُنِعَ: عَمِلَ... والصناعة: حرفة الصانع... والصناعة: ما تستصنع من أمر. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الثامن، صفحة ٢٠٨ ٢٠٩. أما الصناعة في عالمنا المعاصر فتعني: كل عمل من شأنه تحويل مادة خام، أو منتج نصف مصنوع إلى منتج آخر تتوافر فيه المواصفات الفنية التي تجعله صالحا للاستخدام، بواسطة المستهلك النهائي، أو لاستكمالها بمرحلة أو بعدة مراحل إنتاجية بواسطة صناعة أو صناعات أخرى. انظر: عناية الاقتصاد الإسلامي بالصناعة على المستويين النظري والعملي، د. بيلي إبراهيم أحمد العليمي، بدون ناشر، صفحة ١١.

قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٣٥). ومن المعروف أن نبي الله داود كان يصنع الحديد كما أخبرنا القرآن الكريم عنه في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾^(٣٦) وقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُولَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ۗ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَاقْتِدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٣٧). فعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ الْجَنَّةِ: صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَالْمِدَّ بِهِ...»^(٣٨).

وإذا لم يتمكن الإنسان من الحصول على عمل، فإن على أولي أمر المسلمين أن يهيئوا له عملا مناسباً. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا من الأنصار أتى إلى النبي

٣٥- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، الحديث رقم ٢٠٧٢، صفحة ٣٥٤.

٣٦- الأنبياء / ٨٠.

٣٧- سبأ / ١٠: ١١.

٣٨- رواه الترمذي، وقال عنه أبو عيسى: هذا حديث حسن. انظر: سنن الترمذي، الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ضبط وفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، الحديث رقم ١٦٣٧، صفحة ٣٨٥. وقد ورد هذا الحديث في سنن أبي داود برواية أخرى عن طريق عقبه بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله..). انظر: سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ضبط وفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، كتاب الجهاد، باب: في الرمي، الحديث رقم ٢٥١٣، صفحة ٣٨١: ٣٨٢. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سويد بن عبد العزيز، قال أحمد: متروك، وضعفه الجمهور، ووثقه دحيم، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، الجزء الخامس، صفحة ٢٦٩. وجاء في تحفة الأحوذى: قوله (أي: الترمذي): (هذا حديث حسن صحيح) الظاهر أن الترمذي أشار بقوله هذا إلى حديث عقبه بن عامر لا إلى حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين فإنه مرسل، وفي سننه محمد بن إسحاق وهو مدلس، ورواه عنه بالنعنة. وأما حديث عقبه فرواه أبو داود والنسائي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي من طريق الحاكم وغيرها. وفي لفظ أبي داود: (ومنبله) مكان، (والمد به)... قال البغوي: هو الذي يناول الرامي النبل، وهو يكون على وجهين: أحدهما: أن يقوم بجانب الرامي أو خلفه يناوله النبل واحداً بعد واحد حتى يرمي. والآخر أن يرد عليه النبل الرمي به... قال المنذري: ويحتمل أن يكون المراد بقوله: (منبله) أي: الذي يعطيه للمجاهد، ويجهز به من ماله إمداداً له وتقوية. ورواية البيهقي تدل على هذا. انتهى. انظر: تحفة الأحوذى، المباركفوري (أبو العلا)، دار الفكر، الجزء الخامس، صفحة ٢١٣. وجاء في (عون المعبود): والسهم: واحد من النبل، وقيل: السهم نفس النصل... والنبل: السهام العربية. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي (أبو الطيب)، دار الفكر، الجزء السابع، صفحة ١٨٩.

ﷺ فسأله، فقال: «أما في بيتك شيء؟». قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء. قال: «اتنني بهما». فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «من يشتري هذين؟». قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال رسول الله ﷺ: «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثا. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به». فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً»، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا، وبيع بعضها طعاما. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة. إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجه»^(٣٩).

ويستفاد من هذا الحديث أن على صاحب الحاجة والمتعطل عن العمل مع قدرته عليه رفع شكواه إلى أولي الأمر لكي يدبروا له أمره، وعلى أولي الأمر

٣٩- رواه أبو داود. انظر: سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب: ما تجوز فيه المسألة، الحديث رقم ١٦٤١، صفحة ٢٥٤. وفي سند الحديث الأخضر بن عجلان. جاء في (تاريخ أسماء الثقات) أن عبد الله بن أحمد (بن حنبل) قال: قال أبي: الأخضر بن عجلان، ما أرى بأسا. وفي رواية العباس عن يحيى أخضر بن عجلان: ليس به بأس. وفي رواية إسحاق عنه: صالح. انظر: تاريخ أسماء الثقات، عمر بن أحمد أبو حفص الواعظ، تحقيق: صبحي السامرائي، الدار السلفية، الكويت، الجزء الأول، صفحة ٤٠. وجاء في (عون المعبود): والأخضر بن عجلان، قال يحيى بن معين: صالح، وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه... والحلس: كساء غليظ يلي ظهر البعير تحت القتب. (نلبس): يفتح الباء (بعضه): أي بالتغطية لدفع البرد، (ونبسط بعضه): أي بالفرش. (والقعب): قدح ويستخدم للفرش والغطاء. والقعب: إناء من الفخار. (بأحدهما): أي أحد الدرهمين. (فانبذه): أي اطرحه. (إلى أهلك): أي ممن يلزمك مؤنته. (قدوماً): بفتح القاف وضم الدال أي فأسا. (فشدّ فيه رسول الله ﷺ عودا بيده) المعنى: أن النبي ﷺ أحكم في القدوم مقبضاً من العود والخشب ليمسك به القدوم لأن القدوم بغير المقبض لا يستطيع الرجل به قطع الحطب وغيره بلا كلفة، فلذلك فعله ﷺ تفضلا وامتنانا عليه. (فاحتطب): أي اطلب الحطب واجمع. (ولا أرينك خمسة عشر يوماً): أي لا تكن هنا هذه المدة حتى لا أراك... والمراد نهي الرجل عن ترك الاكتساب في هذه المدة لا نهي نفسه عن الروية. والنكتة: أثر كالنقطة، أي حال كونها علامة قبيحة أو أثراً من العيب. (لا تصلح): أي لا تحل ولا تجوز. (فقر مدقع): أي شديد يفضي بصاحبه إلى الدقعاء وهو التراب. (أو لذي غرم): أي غرامة أو دين. (مقطع): أي فظيع وثقيل وفضيخ. (دم موجه): أي مؤلم، والمراد دم يوجع القاتل أو أوليائه بأن تلزمه الدية وليس لهم ما يؤدي به الدية، ويطلب أولياء المقتول منهم وتنبعث الفتنة والمخاصمة بينهم، وقيل هو أن يتحمل الدية فيسعى فيها ويسأل حتى يؤديها إلى أولياء المقتول لتقطع الخصومة وليس له ولأوليائه مال، ولا يؤدي أيضاً من بيت المال فإن لم يؤدها قتلوا المتحمل عنه وهو أخوه أو حميمه فيوجعه قتله. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء الخامس، صفحة ٥٤:٥١.

العمل على توفير العمل المناسب للشاكي تبعا لظروف المجتمع واحتياجات المتعطلين فيه^(٤٠). ولا يفهم مما سبق أن الإسلام ضد التكافل الاجتماعي وضد إعانة الفقراء والمساكين. فالإسلام هو الدين الوحيد الذي جعل أداء الزكاة ركنا من أركان العبادة، وجعل إطعام المسكين من لوازم الإيمان، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۗ إِلَّا الْأَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٩﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ مَا سَأَلَكُمُ فِي سَقَرٍ ﴿٣١﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٣﴾﴾^(٤١).

ثانيا: الاهتمام بالإنسان

لما كان الإنسان هو أساس برامج التنمية المستدامة، وهو غايتها، والقائم بها، لذلك أعلت السنة النبوية قيمة الإنسان واهتمت به وبتنمية قدراته، باعتباره أهم عنصر من عناصر البيئة، بل إن البيئة نفسها مسخرة لخدمته، وهو خليفة الله في الأرض دون غيره من سائر المخلوقات.

١- ففي مجال المحافظة على النفس شددت السنة النبوية على حرمة الدماء حتى لغير المسلمين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ألا من قتل نفسا معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا»^(٤٢). وإذا كان الإسلام قد نهى عن قتل نفس الآخر إلا بحقها، فإنه نهى أيضا عن قتل الإنسان لنفسه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة

٤٠- د. إسماعيل إبراهيم البدوي، عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي: دراسة مقارنة، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت، صفحة ١٨١ ١٨٢.

٤١- المدثر / ٨٣: ٤٤.

٤٢- رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي بكرة. حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح. انظر: سنن الترمذي، كتاب الديات عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء فيمن يقتل نفسا معاهدة، الحديث رقم ١٤٠٣، صفحة ٣٣١. وجاء في تحفة الأحوذى: قوله: (ألا): حرف التنبيه. (من قتل نفسا معاهدة): أي رجلا معاهداً. (له ذمة الله وذمة رسوله): الذمة والذمام وهما بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة

فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا»^(٤٣). وقد علل الفقهاء ذلك بأن النفس ملك لله عز وجل، فهو المالك الحقيقي لها وجودا وعدما وتصرفا، وليس الإنسان إلا حارسا وأمينا عليها، وهذه الأمانة تقتضي منه وجوب حفظها، ومن ذلك تناول الأكل والشرب لما فيه من قوامها. فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عجبت للمسلم إذا أصابه خير حمد الله وشكر، وإذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه»^(٤٤). وانظر إلى رحمة المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمسلمين وأبنائهم، حتى ولو كان المسلم قد عصي ربه، وجاء ولده من حرام. فعن بريدة قال: جاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زينت فطهرني، وأنه ردّها. فلما كان من الغد قالت يا رسول الله: لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزا؟ فوالله إني لحبلى. قال: أما لا، فاذهبي حتى تلدي. فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة. قالت: هذا قد ولدته. قال: اذهبي فأرضعيه حتى تظميه. فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين... إلخ

والحق. وسمي أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم. (فقد أخفر بذمة الله): خفرتة أجزته وحفظته، والخفارة بالكسر والضم الذمام، وأخفرتة إذا أنقضت عهده وذمامه، وهمزته للسلب. (فلا يرح رائحة الجنة) أي لم يشم ريحها... (وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين خريفاً) أي عاماً. انظر: تحفة الأحوذى، المباركفوري، الجزء الرابع، صفحة ٥٥١: ٥٥٢.

٤٣- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث، الحديث رقم ٥٤٤٢، صفحة ١٠٥٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، الحديث رقم ١٧٥ (٩٠١)، الجزء الأول، صفحة ٣١٧. تردى، أي: رمى بنفسه من الجبل أو غيره فهلك. يجأ (وفي رواية مسلم: يتوجأ) أي: يضرب بها نفسه. ويتحساه: يشربه في تمهل ويتجرعه. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، الجزء الأول، صفحة ٣٢١. وانظر أيضاً: الترغيب والترهيب، الحافظ المنذري، كتاب الحدود وغيرها، باب: الترهيب من قتل الإنسان نفسه، الحديث رقم ٣٦٩٧، الجزء الثالث، صفحة ٢٣٩.

٤٤- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الحديث رقم ١٥٣١، الجزء الأول، صفحة ١٧٧. وجاء في مجمع الزوائد: رواه أحمد بأسانيد... وأسانيد أحمد رجالها رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، الجزء العاشر، صفحة ٩٥.

٢- في مجال توفير الأمن الغذائي والكسائي، حثت السنة النبوية على إطعام الجائع، وجعلت ذلك ركناً من أركان الإيمان. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به»^(٤٦). وجاء في الحديث القدسي ما يؤكد ذلك ويجعل ثواب هذا العمل عظيماً، بما في ذلك كسوة العاري. فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا. يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي: كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم...»^(٤٧). فالإنسان الذي به عوز إلى الطعام والشراب والكساء لا يستطيع أن ينتج، وينعكس عجزه هذا على البيئة الطبيعية فتدهور. وخير مثال على ذلك ما نراه في المجتمعات الفقيرة اليوم في إفريقيا. فالفقر يقف حجر عثرة أمام استغلال ثروات البيئة في هذه المجتمعات، في حين أن الدول الغنية تنتج ما يفيض عنها فتلجأ إلى إغراق فائض الحبوب في البحر، حفاظاً على الأسعار.

٣- في مجال تحقيق الأمن النفسي نجد أن الرسول الكريم ﷺ يحرم ترويع المسلم، حتى لو كان ذلك مقصده المزح، كأن يجرّ أحدهم حبلاً فوق نائم فيفزعها لاعتقاده أن الحبل أفعى. فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: حدثنا أصحاب

٤٥- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى، الحديث رقم ٢٣ (٥٩٦١)، الجزء السادس، صفحة ١٧٤ ١٧٥.

٤٦- رواه الطبراني، انظر: المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، باب: وما أسند أنس بن مالك رضي الله عنه، الجزء الأول، صفحة ٢٥٩. وقال عنه المنذري: رواه الطبراني والبخاري، وإسناده حسن. انظر: الترغيب والترهيب، الحافظ المنذري، كتاب البر والصلة وغيرهما، باب الترهيب من أذى الجار وما جاء في تأكيد حقه، الحديث رقم ٣٨٧٤، الجزء الثالث، صفحة ٢٧٦.

٤٧- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، الحديث رقم ٥٥ (٧٧٥٢)، الجزء الثامن، صفحة ٣٠٨.

محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً»^(٤٨).

ويندرج تحت حماية الإنسان وعدم ترويعه أن يشير امرؤ إلى آخر بالسلاح. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ قال: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»^(٤٩). وقد اعتبرت الإشارة بحديدة أيضا من وسائل الترويع المنهي عنها. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي، وإن كان أخاه لأبيه وأمه»^(٥٠).

٤- وفي مجال المحافظة على سلامة عقل الإنسان، نهت السنة النبوية المسلم عن كل ما يذهب بالعقل أو يتسبب في تغييب الوعي وفتور البدن، بما في ذلك الخمور بمسمياتها المختلفة والمخدرات بأنواعها المتعددة. فعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الخمر من العصير والزبيب والتمر

٤٨- رواه أبو داود. انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب: من يأخذ الشيء على المزاح، الحديث رقم ٥٠٠٤، صفحة ٧٤٩. وجاء في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط. ورجال الكبير ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، باب فيمن أخاف مسلما، الجزء السادس، صفحة ٢٥٦. وجاء في عون المعبود: والحديث سكت عنه المنذري... (ففزع): من الفزع: الذعر والفرق. (يروّع مسلماً): أي يخوفه. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء الثالث عشر، صفحة ٣٤٦.

٤٩- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من حمل علينا السلاح فليس منا)، الحديث رقم ٧٠٧٢، صفحة ١٢٥٨. وقال النووي: (لعل الشيطان ينزع) ومعناه: يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب: النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، الحديث رقم ١٢٦ (٢٦١٧)، الجزء الثامن، صفحة ٣٤٢. ونزع في القوس ينزع نزعا: مد بالوتر، وقيل: جذب الوتر بالسهم. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الثامن، صفحة ٣٥١.

٥٠- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب: النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم، الحديث رقم ١٢٥ (٢٦١٦)، الجزء الثامن، صفحة ٣٤١.

والحنطة والشعير والذرة، وإني أنهاكم عن كل مسكر»^(٥١). وعن أم سلمة رضي الله عنها «أن رسول الله نهى عن كل مسكر ومفتّر»^(٥٢). ومن المعروف أن الإنسان المدمن لا يمكنه أن يشارك في الإنتاج وبرامج التنمية بالشكل المناسب.

٥- في مجال تغيير سلوكيات الناس وتحويل الأيدي العاطلة إلى أيدي عاملة، ثمة أحاديث كثيرة لرسول الله ﷺ عالجت مشكلة التكسب بسؤال الناس، عن طريق تحويل من يمارسون المسألة من عاطلين إلى عاملين. وهي أحاديث تقدم لنا نموذجا عمليا يمكننا الاقتداء به لتغيير سلوكيات هذه الفئة التي تستمرئ التسول والسؤال، وجعلها توظف طاقاتها وقدراتها لخدمة المجتمع وخدمة أهلها. ومن ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير من أن يسأل أحدا، فيعطيه أو يمنعه»^(٥٣). وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم أحبله خير له من أن يسأل الناس»^(٥٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به، ويستغني به من الناس، خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا

٥١- رواه أبو داود. انظر: سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب: الخمر: ما هو؟، الحديث رقم ٣٦٧٧، صفحة ٥٥٦ ٥٥٧. جاء في (عون المعبود): قال المنذري: في إسناده أبو حريز عبد الله بن الحسين الأزدي الكوفي قاضي سجستان، وثقه يحيى بن معين وأبو زرعة الرازي، واستشهد به البخاري، وتكلم فيه غير واحد). الجزء العاشر، صفحة ١١٤.

٥٢- رواه أبو داود. انظر: سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب: النهي عن المسكر، الحديث رقم ٣٦٨٦، صفحة ٥٥٨. والحديث فيه شهر بن حوشب. جاء في (عون المعبود): «قال الإمام المنذري: فيه شهر بن حوشب، وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وتكلم فيه غير واحد»، والترمذي يصحح حديثه. وقال الشوكاني في بعض فتاواه: هذا حديث صالح للاحتجاج به لأن أبا داود سكت عنه، وقد روي عنه أنه لا يسكت إلا عما هو صالح للاحتجاج به، وصرح بمثل ذلك جماعة من الحفاظ مثل ابن الصلاح، وزين الدين العراقي، والنووي وغيرهم. وإذا أردنا الكشف عن حقيقة رجال إسناده فليس منهم من هو متكلم فيه إلا شهر بن حوشب، وقد اختلف في شأنه أئمة الجرح والتعديل، فوثقه الإمام أحمد ويحيى بن معين وهما إماما الجرح والتعديل ما اجتماعا على توثيق رجل إلا وكان ثقة، ولا على تضعيف رجل إلا وكان ضعيفا، فأقل أحوال حديث شهر المذكور أن يكون حسنا، والترمذي يصحح حديثه كما يعرف ذلك من له ممارسة بجامعه... والمفتر هو الذي إذا شرب أحمى الجسد وصار فيه فتور وهو ضعف وانكسار، الجزء العاشر، صفحة ١٢٣، ١٣٥، ١٣٦.

٥٣- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، الحديث رقم ٢٠٧٤، صفحة ٣٥٤.

٥٤- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، الحديث رقم ٢٠٧٥، صفحة ٣٥٤.

أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٥٥). وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر - وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، والسفلى السائلة»^(٥٦).
 وثمة أحاديث نبوية أخرى تنهي عن المسألة إلحافاً، وتحذّر من يفعل ذلك من فقدان البركة مما يُعطى له. فعن معاوية رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلحفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته»^(٥٧). كما أن السنة النبوية تحذّر من مغبة المسألة يوم القيامة. فعن حمزة بن عبد الله عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مزعة لحم»^(٥٨).

وتنظر المجتمعات الغربية (ومن سار سيرها في المشرق) إلى العمل باعتباره قيمة اقتصادية في الزمن الحالي، حتى أننا نرى أن مقياس تقدم الفرد في الدول الكبرى حالياً هو: ماذا يعمل؟، وكم يكسب؟ ونرى في المقابل أن من لا يعمل يفقد احترامه كبشر، فإن لم يكن له مال تحول إلى إنسان بلا مأوى أو لص أو قاطع طريق. أما في الإسلام، فإنه عني برعاية الفقراء وذوي الحاجة والضعف، وطلب منا أن نعلمهم عملاً يتكسبون به، أو نساعدهم في أدائه إذا كانت ملكاتهم الذهنية أو البدنية لا تمكنهم من ذلك، انطلاقاً من مبدأ الأخوة الإسلامية التي يجسدها ما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم

٥٥- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب: كراهة المسألة للناس، الحديث رقم ١٠٦ (١٠٤٢)، الجزء الرابع، صفحة ١٣٣.

٥٦- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد العليا هي المنفقة وأن اليد السفلى هي الأخذ، الحديث رقم ٩٤ (١٠٣٣)، الجزء الرابع، صفحة ١٢٧ ١٢٨.

٥٧- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب: النهي عن المسألة، الحديث رقم ٩٩ (١٠٣٨)، الجزء الرابع، صفحة ١٣٠.

٥٨- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب: كراهة المسألة، الحديث رقم ١٠٣ (١٠٤٠)، الجزء الرابع، صفحة ١٣٢.

أخو المسلم...»^(٥٩)، والحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه، وفيه أنه قال: قلت: يا رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله، والجهاد في سبيله». قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا». قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعا أو تصنع لأخرق...»^(٦٠).

٦- في مجال الحث على طلب العلم والأخذ به، عنيت السنة النبوية بهذا الموضوع. ولا يخفى دور العلم والتعلم في تنفيذ برامج التنمية المستدامة. فمن دون العلم لا يكون هناك بحث أو تطوير أو إدراك لأسس أداء العمل بشكل صحيح وبدون حدوث مشكلات تؤثر في مستوى السلامة الصناعية والصحة المهنية والبيئة. ونكتفي هنا بحديث نبوي في الدعوة إلى طلب العلم والتماس أي طريق له. فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء ومن في الأرض حتى الخيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا

٥٩- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، الحديث رقم ٣٢ (٤٦٥٢)، الجزء الثامن، صفحة ٢٩٧.

٦٠- رواه الشيخان. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، الحديث رقم ١٣٦ (٤٨)، الجزء الأول، صفحة ٢٧٨. وانظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، كتاب العتق، باب: أي الرقاب أفضل، الحديث رقم ٢٥١٨، الجزء الخامس، صفحة ١٧٦. قوله: (وأنفسها عند أهلها) أي ما اغتباطهم بها أشد، فإن عتق مثل ذلك ما يقع غالبا إلا خالصا. الأخرق: هو الذي ليس بصانع ولا يحسن العمل... قال أهل اللغة: رجل أخرق لا صنعة له والجمع خرق بضم ثم سكون، وامرأة خرقاء كذلك. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الجزء الخامس، صفحة ١٧٧: ١٧٨.

درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٦١).

٧- في مجال مكافحة الفقر نجد أن الإسلام ينظر إلى الفقر فيراه خطرا على العقيدة والأخلاق والمجتمع والأسرة، ويعدّه بلاء يستعاذ منه. فعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ، فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر»^(٦٢). وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى»^(٦٣).

ولما كان الفقر أحد أسباب التدهور البيئي، فالجائع لا يستطيع أن يفلح أرضا، وكانت مكافحة الفقر أحد عناصر برامج تحقيق التنمية المستدامة فقد دعا الرسول ﷺ إلى مكافحة الفقر بتوفير أدوات الإنتاج وتحقيق التكافل الاجتماعي والإحسان إلى الفقراء. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز، ما

٦١- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، الحديث رقم ٢٢٣، الجزء الأول، صفحة ٨١. وقال المنذري: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، وقال الترمذي: لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس إسناده عندي بمتصل، وإنما يروي عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ وهذا أصح. قال المملي رحمه الله: ومن هذه الطريق رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب وغيرها. وقد روي عن الأوزاعي عن كثير بن قيس عن يزيد بن سمرة عنه وعن الأوزاعي عن عبد السلام بن سليم عن يزيد بن سمرة عن كثير بن قيس عنه... ورؤي غير ذلك. وقد اختلف في هذا الحديث اختلافا كثيرا... انظر: الترغيب والترهيب، الحافظ المنذري، كتاب العلم، باب: الترغيب في العلم وطلبه وتعلمه وتعليمه وما جاء في فضل العلماء والمتعلمين، الحديث رقم ١٠٦، الجزء الأول، صفحة ٤٧.

٦٢- صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب: التعوذ من المأثم والمغرم، الحديث رقم ٦٣٨٦، صفحة ١١٣٩. والمأثم: الأمر الذي يأثم به الإنسان، أو هو الإثم نفسه. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الثاني عشر، صفحة ٦. والمغرم: الغرامة، وهي ما يلزم الشخص أداءه كالدين. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الجزء الحادي عشر، صفحة ١٨١.

٦٣- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، الحديث رقم ٧٢ (٢٧٢١)، الجزء التاسع، صفحة ٣٥. وقال النووي: العفاف والعفة: التنزه عما يباح، والكف عنه. والغنى هنا: غنى النفس، والاستغناء عن الناس، وعمّا في أيديهم. انظر: المرجع السابق، الجزء التاسع، صفحة ٣٨.

من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق مواعدها، إلا أدخله الله بها الجنة»^(٦٤). وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمين، لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فرسن شاة»^(٦٥).

كما حث الرسول ﷺ على الصدقة، ودفعها إلى الفقراء والمساكين، وبخاصة إلى المتعفين الذين لا يسألون الناس إلخافاً. فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بالذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف، اقرءوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾»^{(٦٦) (٦٧)}. ولم يبح الإسلام المسألة إلا لمن هم في أمس الحاجة إلى المال، ويوضح ذلك الحديث الذي رواه قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحملت حمالة، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً»^(٦٨).

٦٤- صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب: فضل المنيحة، الحديث رقم ٢٦٣١، صفحة ٤٥٣. والمنيحة: منحة اللبن كالناقة أو الشاة، تعطىها غيرك يحتلها، ثم يردّها إليك.

٦٥- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب: فضلها والتحريض عليها، الحديث رقم ٢٥٦٦، صفحة ٤٤٣. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بالقليل ولا تمتنع من القليل لاحتقاره، الحديث رقم ٩٠ (١٠٣٠)، الجزء الرابع، صفحة ١٢٣. والفرسن من البعير: بمنزلة الخافر من الدابة، وربما استعير في الشاة. انظر: لسان العرب.

٦٦- البقرة / ٣٧٢. والإلخاف: شدة الإلخاح في المسألة. انظر: لسان العرب، الجزء التاسع، صفحة ٣١٤.

٦٧- صحيح مسلم بشرح النووي، الجزء الرابع، كتاب الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفتن له فيصدق عليه، الحديث رقم ١٠١ (١٠٣٩)، صفحة ١٣١: ١٣٢.

٦٨- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، باب: من تحل له المسألة، الحديث رقم ١٠٩ (٤٤٠١)، الجزء الرابع، صفحة ١٣٥. والحمالة: الدية والغرامة التي يحملها قوم عن قوم. وتحمل الحمالة أي: حملها. والجائحة: المصيبة تحل بالرجل في ماله فتحتاحه كله. والقوام من العيش: ما يقوم بحاجته الضرورية. وقوام العيش: عماده الذي يقوم به. والسداد: ما سد به. وسداد من عيش: أي ما تسد به الحاجة. والسحت: كل حرام قبيح الذكر؛ وقيل: هو ما حبت من المكاسب وحرم فلزيم عنه العار وقبيح الذكر كثمن الكلب والخمر والخنزير. انظر: لسان العرب

ثالثاً: حماية الموارد الطبيعية وصيانتها وحماية البيئة

تحتاج التنمية المستدامة إلى حماية الموارد الطبيعية اللازمة لإنتاج المواد الغذائية وتوفير مصادر الطاقة ومواد البناء. وتتمثل هذه الموارد في التربة الصالحة للزراعة، ومصادر المياه اللازمة للري، والثروة الحيوانية (بما فيها مصائد الأسماك)، ومختلف أنواع الوقود، والمعادن.

والإخفاق في صيانة الموارد الطبيعية التي تعتمد عليها الزراعة كفيل بحدوث نقص في الأغذية في المستقبل. كما أن الإخفاق في صيانة الموارد اللازمة للصناعة كفيل بحدوث نقص في توفير متطلبات الحياة والحضارة من معدات وآلات وإنشاءات... إلخ. ولهذا فإن ترشيد استهلاك الموارد والثروات الطبيعية يُعدُّ إحدى الآليات الأساسية لتحقيق التنمية المستدامة. كما أن ترشيد استهلاك الموارد الطبيعية يُعدُّ من أهم الوسائل العملية لحماية البيئة، والمحافظة عليها.

وقد اهتم الإسلام بهذه القضية، فحث الأفراد على الاعتدال في شؤون الحياة كافة، فلا إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا تقتير. وقد جعل الله عز وجل قضية الترشيد في الإنفاق والاستهلاك من صفات المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٦٩) وقال تعالى أيضاً: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٧٠) ويكون الترشيد باستخدام أو استهلاك الموارد حسب الحاجة إليها وبشكل منظم ومخطط، إذ إن هناك ثروات وموارد غير متجددة (مثل مصادر الوقود الأحفوري من النفط والفحم) تنفذ بالاستهلاك بشكل تدريجي، ولكي نستفيد من هذه الموارد أطول فترة ممكنة يجب علينا ترشيد استهلاكها.

والإسراف في استنزاف الموارد واستهلاكها يمثل نوعاً من الأنانية المذمومة، إذ

٦٩- الفرقان / ٧٦. والقوام: العدل.

٧٠- الأعراف / ١٣.

إنه يؤدي إلى حرمان الآخرين من هذه الموارد، كما أنه يؤدي إلى قصور وسائل الإنتاج بشتى صورها عن توفير المتطلبات الأساسية للمجتمع . وعلاوة على ذلك، فإن في الإسراف إهدارا لنعم الله عز وجل، ومضیعة لها، على النقيض من الترشيذ والاعتدال، فهما يعنیان المحافظة على هذه النعم والعمل على استدامتها والانتفاع بها. ويندرج تحت هذه الركیزة أيضا عدم الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وتجنب الإسراف في استخدام الموارد، أو في استخدام المواد التي تؤثر في جودة هذه الموارد ونوعيتها، كالإسراف في استخدام الأسمدة الكیمیائية والمبيدات، مما يؤدي إلى تدهور نوعية مياه الأنهر والبحيرات، وتهديد الحياة البرية، وتلويث غذاء الإنسان والحيوان والطيور.

وقد ربطت السنة النبوية الشريفة بين التنمية المستدامة والمحافظة على البيئة ورعايتها، كما ربطت بينهما وبين الإيمان، فجعلت إمطة الأذى من الطريق شعبة من شعب الإيمان، والإحسان إلى أحياء البيئة مدعاة إلى الفوز برضوان الله وجنته، والإساءة إليها توجب دخول المسيء النار.

وتحمل السنة النبوية بالعديد من النصوص التي تحث على حماية الموارد الطبيعية وصيانتها. ١- ففي مجال المحافظة على الحياة الفطرية نجد أن السنة النبوية نهت عن قطع السدر. فعن عبد الله بن حبشي أن رسول الله ﷺ قال: من قطع سدره صوب الله رأسه في النار^(٧١). ومن المعروف أن السدر ينبت في الصحارى، ويصبر على العطش، ويقاوم الحر، وينتفع الناس بتفيؤ ظلاله والأكل من ثماره إذا

٧١- رواه أبو داود في سننه. وقد سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهايم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار. انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب: في قطع السدر، الحديث رقم ٥٢٣٩، صفحة ٧٨٤. وجاء في مجمع الزوائد: رواه أبو داود خلا من قوله: من سدر الحرم. ورواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، باب: في حرمة مكة والنهي عن استحلالها، الجزء الثالث، صفحة ٢٨٤. وجاء في (عون المعبود): قال المنذري: والحديث أخرجه النسائي وقال: فيه عبد الله الخثعمي... وقوله: (من قطع سدره): أي شجرة نبق، زاد في رواية للطبراني (من سدر الحرم)... وقال في النهاية: قيل أراد به سدر مكة لأنها حرم. وقيل: سدر المدينة، نهى عن قطعه ليكون أنسا وظلا لمن يهاجر إليها. وقيل: أراد السدر الذي يكون في الفلاة يستظل به أبناء السبيل والحيوان، أو في ملك إنسان فيتحمّل عليه ظالم، فيقطعه بغير حق. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء الرابع عشر، صفحة ١٥٢:١٥٣.

اجتازوا الفيافي في سفر أو في رحلة أو في بحثهم عن الكلاء والمرعى . والوعيد بالنار لمن قطع سدره يدلّ على تأكيد المحافظة على مقومات البيئة الطبيعية، لما توفّره من حفظ التوازن بين المخلوقات، وما يمثّله الاعتداء عليها من فقدان بعض العناصر الضرورية لسلامة الحياة والإنسان.

ويتسع نطاق المحافظة على الحياة ليشمل أزمته الحروب وأراضي الأعداء والخصوم. وإذا عدنا إلى غزوات الرسول ﷺ وسراياه نرى أنه كان حريصاً على الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ. فعن نافع أن عبد الله أخبره (أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان)^(٧٢). وعن بُريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»^(٧٣). وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله، وباللّه، وعلى ملّة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا،

٧٢- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: قتل الصبيان في الحرب، الحديث رقم ٣٠١٤، صفحة ٥٢٨. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب: تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، الحديث رقم ٢٤ (١٧٤٤)، الجزء السادس، صفحة ٢٤٣. وقد جاء هذا الحديث برواية أخرى عند الشيخين أيضاً. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (وُجِدَت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان). انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: قتل النساء في الحرب، الحديث رقم ٣٠١٥، صفحة ٥٢٨. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب: تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، الحديث رقم ٢٥ (١٧٤٤)، الجزء السادس، صفحة ٢٤٣.

٧٣- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصية إياهم بأداب الغزو وغيرها، الحديث رقم ٣ (١٧٣١)، الجزء السادس، صفحة ٢٣٣. والسرية: قطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه. قال إبراهيم الحربي: هي الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها. قالوا: سميت سرية لأنها تسري في الليل. انظر: المرجع السابق، الجزء السادس، صفحة ٢٣٤. وقوله: (باسم الله): أي مستعينين بذكر اسمه. (ولا تغدروا): أي لا تنقضوا عهدكم. (ولا تغلوا): أي لا تخونوا في الغنيمه. (ولا تمثلوا): من مثل به يمثل كقتل إذا قطع أطرافه. (وليداً): أي صبياً. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء السابع، صفحة ٢٧٢.

وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» (٧٤).

٢- في مجال المحافظة على المصادر المائية من التلوث، نهى النبي ﷺ عن التبول في الماء الراكد حفاظاً على سلامة الماء من التلوث؛ حيث إن الماء النجس لا يستفاد منه في طهارة أو شرب أو غير ذلك. ومثل البول تلويث الماء بأي ملوث (من المخلفات الصناعية أو المواد الكيماوية مثلاً). فعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه (نهى أن يُبال في الماء الراكد) (٧٥). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه» (٧٦). وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل» (٧٧). ولا يخفى وجه النهي في ذلك؛ حيث إن مثل هذه التصرفات تحرم الآخرين من الاستفادة من كميات كبيرة من الماء. كما أن ممارسة هذه السلوكيات (أي: التبول والتبرز في

٧٤- رواه أبو داود في سننه. انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: في دعاء المشركين، الحديث رقم ٢٦١٤، صفحة ٣٩٦. والحديث فيه خالد بن الفزر، قال عنه يحيى ابن معين: ليس بذلك. انظر: نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، جمال الدين عبد الله بن يوسف أبو محمد الزيلعي، تحقيق: محمد يوسف البنوري، دار الحديث، القاهرة، الجزء الثالث، صفحة ٣٨٦. وجاء في (تهذيب الكمال): روى عنه الحسن بن صالح بن حي الهمداني. قال عباس الدوري: وسألته، يعني يحيى بن معين عن خالد بن الفزر فقال: يروي عنه حسن بن صالح، ما سمعت أحدا يروي عنه غيره، ولم أر له فيه رأياً. وقيل عن عباس عن يحيى: ليس بذلك. وقال أبو حاتم: شيخ روى له أبو داود حديثاً واحداً. انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الجزء الثامن، صفحة ١٥٠ ١٥١. وقوله: (لا تقتلوا شيخاً فانياً): أي: إلا إذا كان مقاتلاً أو ذا رأي. (وضموا): أي اجمعوا. (وأصلحوا): أي أموركم. (وأحسنوا): أي فيما بينكم. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء السابع، صفحة ٢٧٢.

٧٥- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، الحديث رقم ٩٤ (٢٨١)، الجزء الثاني، صفحة ١٦٢.

٧٦- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: البول في الماء الدائم، الحديث رقم ٢٣٩، صفحة ٥٨:٥٩. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، الحديث رقم ٩٥ (٢٨٢)، الجزء الثاني، صفحة ١٦٢.

٧٧- رواه أبو داود، وقال: هذا مرسل. انظر: سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب: المواضع التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن البول فيها، الحديث رقم ٢٦، صفحة ٩. و(الملاعن): جمع ملعنة، وهي مواضع اللعن. والمراد بالموارد: المجاري، والطرق إلى الماء، واحدها مورد، يقال: وردت الماء إذا حضرته لتشرب. والورد: الماء الذي ترد عليه. (وقارعة الطريق): أي الطريقة التي يقرعها الناس بأرجلهم ونعالهم، أي يدقونها ويمرون عليها... وهي وسط الطريق. (والظل): أي ظل الشجرة وغيرها. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء الأول، صفحة ٤٧.

الموارد) تتسبب في إفساد تلك الموارد. فالتبول أو التبرز في الماء الراكد يجعله بيئة خصبة لتكاثر الميكروبات والفيروسات التي تساعد على انتشار الأمراض المعدية. ونحن نعلم حالياً أن هناك أمراضاً كثيرة تنتج من الاستحمام في الماء الراكد الذي سبق أن تبول فيه شخص ما، من ذلك: البلهارسيا البولية، والكوليرا، والسيلان، ومرض ريترز. كما أن الماء الراكد يعد وسطاً ملائماً لنمو الكثير من البكتيريا (مثل: السالمونيلا، والشيغلا، والليبتوسايرا، وغيرها). ويحتاج كثير من الديدان والطفيليات (مثل: الزحار الأميبي، والديدان المستديرة، والبلهارسيا) إلى إكمال دورة الحياة خارج جسم الإنسان. ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها^(٧٨). ومما يؤسف له أن بعض مرافق الخدمات البلدية تقوم بتصريف مياه المجاري الصحية دون معالجة إلى البحار والأنهار والبحيرات. ومما يزيد من حجم الأذى الناتج عن هذا السلوك أن هذه المياه لا تحتوي على البراز فقط، بل تحتوي أيضاً على كميات كبيرة من المواد الكيميائية والعضوية والجراثيم الضارة. وتمارس الشركات الصناعية سلوكاً يضر بالبيئة والبشر والأحياء المائية عندما تقوم بضخ مخلفاتها من المياه العادمة الناتجة من الصناعات المختلفة في المسطحات المائية، متجاهلة أخطارها.

٣- في مجال المحافظة على المصادر المائية من الهدر؛ لنا في رسول الله ﷺ خير قدوة يحتذى بها في هذا المجال. فعن ابن جبر قال: سمعت أنسا يقول: «كان النبي ﷺ يغسل - أو كان يغتسل - بالصاع إلى خمسة أمداد، ويتوضأ

٧٨- المبادئ الإسلامية المتعلقة بالتحكم في الأمراض السارية وأثرها في الوقاية من هذه الأمراض، د. عدنان أحمد البار و د. جتن ليو، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد الحادي عشر، السنة الثالثة، ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤١٢هـ / أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٩١م، صفحة ١٠٤:١٠٥.

بالمدة^(٧٩). فهذا الحديث يدل على كراهة الإسراف في الماء للغسل والوضوء، واستحباب الاقتصاد. وقد علم الرسول ﷺ أتباعه هذا اللون من الاقتصاد في استخدام الماء. فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: كيف الطهور؟ فدعا بماء في إناء، فغسل كفيه ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل ذراعيه ثلاثاً، ثم مسح برأسه، فأدخل إصبعيه السباحتين في أذنيه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه، وبالسباحتين باطن أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: (هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا أو نقص، فقد أساء وظلم)، أو (ظلم وأساء)^(٨٠).

ومن خلال الفهم الواعي لمقاصد الأحاديث النبوية التي تتعلق باستخدام الماء أجمع علماء الفقه على ضرورة الاقتصاد في الماء، وعدم الإسراف في استهلاكه، ولو كان المرء على شاطئ النهر. وقال بعض أصحاب الشافعي: إن

٧٩- صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: الوضوء بالماء، الحديث رقم ٢٠١، صفحة ٥٤. والصاع: مكيالٌ لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد، يذكر ويؤنث... وصاع النبي صلى الله عليه وسلم الذي بالمدينة أربعة أمداد بمُدِّهم المعروف عندهم... وأهل الكوفة يقولون عيار الصاع عندهم أربعة أمناء، والمُدُّ رُبْعُه. وصاعهم هذا هو الفقيز الحجازي، ولا يعرفه أهل المدينة. قال ابن الأثير: والمُدُّ مختلف فيه، فقبيل: هو رطل وثلاث بالعراقي، وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز، فيكون الصاع خمسة أُرطال وثلاثاً على رأيهم. وقيل: هو رطلان، وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق، فيكون الصاع ثمانية أُرطال على رأيهم. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الثامن، صفحة ٢١٥. وجاء في فتح الباري: الصاع: إناء يسع خمسة أُرطال وثلاثاً بالبغدادي، وقال بعض الحنفية ثمانية. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الأول، صفحة ٣٦٥. وجاء في الموسوعة الفقهية: والمد: كيل مقداره رطل وثلاث عند أهل الحجاز، وهو ربع صاع. انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الجزء السادس والثلاثون، صفحة ٢٨٤.

٨٠- رواه أبو داود. انظر: سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب: الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، الحديث رقم ١٣٥، صفحة ٢٥. والحديث فيه عمرو بن شعيب. جاء في (عون المعبود): قال المنذري: وعمرو بن شعيب ترك الاحتجاج بحديثه جماعة من الأئمة، ووثقه بعضهم. وقال القطان: إذا روى عن الثقات فهو ثقة حجة يحتج به. وقال الترمذي في جامعه: ومن تكلم في حديث عمرو بن شعيب إنما ضعفه لأنه يحدث عن صحيفة جده، كأنهم رأوا أنه لم يسمع هذه الأحاديث من جده... وفي شرح ألفية العراقي للمصنف: وقد اختلف في الاحتجاج برواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأصح الأقوال أنها حجة مطلقاً إذا صح السند إليه... ومحصل الكلام أن الأكثر على توثيقه وعلى الاحتجاج بروايته عن أبيه عن جده... و(الطهور): - بضم الطاء - لفعل التطهر، وفتح الطاء للماء. (فدعا): أي النبي ﷺ. و(السباحتين): تثنية سباحة، وأراد بهما مسبحتي اليد اليمنى واليسرى، وسميت سباحة لأنه يشار بها عند التسبيح. (على هذا): أي على الثلاث. (أو نقص): عن الثلاث. (فقد أساء وظلم): أي علي نفسه بترك متابعة ﷺ أو بمخالفته، أو لأنه أتعب نفسه فيما زاد على الثلاثة من غير حصول ثواب له، أو لأنه أتلف الماء بلا فائدة. وأما في النقص فأساء الأدب بترك السنة، وظلم نفسه بتقص ثوابها بتزداد المرات في الوضوء. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء الأول، صفحة ٢٢٥:٢٢٨.

هذا الإسراف حرام، وقال بعضهم: إنه مكروه كراهة تنزيه^(٨١).

٤- في مجال المحافظة على الموارد الطبيعية الأساسية (مثل المياه والمراعي) نهت السنة النبوية عن الاحتكار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلاً^(٨٢). كما نهت السنة النبوية عن بيع الموارد المائية. فعن إياس بن عبد المزنبي رضي الله عنه، قال: نهى النبي ﷺ عن بيع الماء^(٨٣). وقال أبو يوسف: وتفسير هذا عندنا، والله أعلم، أنه نهى عن بيعه قبل أن يحرز. والإحراز لا يكون إلا في الأوعية والآنية، فأما الآبار والأحواض فلا^(٨٤). وفي حديث آخر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع فضل الماء^(٨٥).

٥- في مجال المحافظة على سلامة الطرق وأماكن الظل (بما فيها الحدائق والمنتزهات العامة وما يماثلها)، روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللعانين». قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»^(٨٦).

٦- في مجال زرع السلوكيات الإيجابية المسئولة لدى الأفراد تجاه حماية الموارد وصيانتها نجد أن السنة النبوية جعلت كل فرد في الأمة مسئولاً عن رعيته،

٨١- نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، دار الجليل، بيروت، الجزء الأول، صفحة ٢٥٠.
٨٢- صحيح البخاري، كتاب المساقاة (الشرب)، باب: من قال: إن صاحب الماء أحق بالماء حتى يروى، لقول النبي ﷺ: (لا يمنع فضل الماء)، الحديث رقم ٢٢٥٣، صفحة ٤٠٣.
٨٣- رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: قال أبو عيسى: حديث إياس حديث حسن صحيح. انظر: سنن الترمذي، كتاب البيوع عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في بيع فضل الماء، الحديث رقم ١٢٧١، صفحة ٣٠٢. وجاء في تحفة الأحوذى: وقوله: (نهى النبي ﷺ عن بيع الماء) وفي رواية غير الترمذي عن بيع فضل الماء، وفيه دليل على تحريم بيع فضل الماء، والظاهر أنه لا فرق بين الماء الكائن في أرض مباحة أو في أرض مملوكة، وسواء كان للشرب أو لغيره، وسواء كان لحاجة المشية أو الزرع، وسواء كان في فلاة أو في غيرها. وقد خصص من عموم أحاديث المنع من البيع للماء ما كان منه محرزاً في الآنية لأنه يجوز بيعه قياساً. انظر: تحفة الأحوذى، المباركفوري، الجزء الرابع، صفحة ٤٠١:٤٠٢.
٨٤- الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، القاهرة، صفحة ٩٧.
٨٥- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع فضل الماء الذي يكون بالفلاة ويحتاج إليه لرعي الكلاً وتحريم منع بذله وتحريم بيع ضراب الفحل، الحديث رقم ٣٤ (١٥٦٥)، الجزء الخامس، صفحة ٣٩٠.
٨٦- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال، الحديث رقم ٦٨ (٢٦٩)، الجزء الثاني، صفحة ١٤٠.

وهذا يعني أن يكون قدوة لغيره في أعماله. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، ومسؤول عن رعيته...»^(٨٧).

٧- في مجال الإحسان إلى البيئة، نجد أن السنة النبوية جعلت ذلك الإحسان مدعاة إلى اكتساب الثواب. فقد جعل رسول الله ﷺ تنظيف الشوارع من القاذورات والقمامة (وما يشابهها مثل: عوادم وسائل النقل الضارة)، وإمطة الأذى عنها، مما يحصل به الثواب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يميط الأذى عن الطريق صدقة»^(٨٨). وإمطة الأذى كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس ممن يستعملون الشوارع والطرق. وقد أوضحت السنة النبوية ذلك. فعن المستنير بن أخضر قال: حدثني معاوية بن قررة قال: كنت مع معقل المزني، فأماط أذى عن الطريق، فرأيت شيئاً فبادرته، فقال: ما حملك على ما صنعت يا ابن أخي؟ قال: رأيتك تصنع شيئاً فصنعت. فقال: أحسنت يا ابن أخي! سمعت النبي ﷺ يقول: «من أماط أذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة، ومن تقبلت له حسنة دخل الجنة»^(٨٩). بل إن الرسول ﷺ جعل إمطة الأذى شعبة من شعب الإيمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٩٠). والإحسان إلى البيئة

٨٧- صحيح البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب: العبد راعٍ في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه، الحديث رقم ٢٤٠٩، صفحة ٤١٢.

٨٨- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب: إمطة الأذى، الحديث رقم ٢٨٢٧، صفحة ٤٢٣.

٨٩- رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الكبير. انظر: الأدب المفرد، الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري، (باب البغي، الحديث رقم ٥٩٣)، الجزء الأول، صفحة ٣٠٦. وانظر أيضاً: المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، باب: ما أسند معقل بن يسار الحسن بن أبي الحسن، الحديث رقم ٥٠٢، الجزء العشرون، صفحة ٢١٦. وجاء في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير. وقال المزي صوابه عن المستنير بن أخضر بن معاوية بن قررة عن جده كما رواه البخاري في كتاب الأدب، فإن كان كما قال المزي فإسناده حسن إن شاء الله، وإن كان فيه عن أبيه أخضر فلم أجد من ذكر أخضر. والله أعلم. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، باب: عزل الأذى عن الطريق، الجزء الثالث، صفحة ١٣٦.

٩٠- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، الحديث رقم ٥٨ (٥٣)، الجزء الأول، صفحة ٢١٨.

أيضا وسيلة لنوال مغفرة الله والفوز بالجنة. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجرا»^(٩١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «بينما كلب يطيف بركية، كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها، فسقته فغفر لها به»^(٩٢). وفي مقابل ذلك فإن الإساءة إلى البيئته وما فيها من أحياء مدعاة إلى التعذيب في نار جهنم والعياذ بالله. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عُذبت امرأة في هرة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٩٣).

وما من شك في أن تحقيق مبدأ التنمية المستدامة يتطلب من الإنسان أن يتعامل مع البيئته برفق وإحسان، فيأخذ منها ويعطيها، ويرعى لها حقها لتؤتي له حقه. فعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل

٩١- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب: الأبار على الطرق إذا لم يتأذ بها، الحديث رقم ٢٤٦٦، صفحة ٤٢٣. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب: فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، الحديث رقم ١٥٣ (٢٢٤٤)، الجزء السابع، صفحة ٤٠٨.

٩٢- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب: (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم الكهف / ٩، الحديث رقم ٣٢٦٧، صفحة ٦١٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب: فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، الحديث رقم ١٥٤ (٢٢٤٥)، الجزء السابع، صفحة ٤٠٨. وجاء في رواية أن المرأة كانت بغيًا. فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر، قد ادّلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها فسقته، فغفر لها به. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب: فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، الحديث رقم ١٥٥ (٢٢٤٥)، الجزء السابع، صفحة ٤٠٨.

٩٣- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، الباب رقم ٥٤، الحديث رقم ٣٤٨٢، صفحة ٦١٦. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب: تحريم قتل الهرة، الحديث رقم ١٥١ (٢٢٤٢)، الجزء السابع، صفحة ٤٠٦.

شيء...»^(٩٤). والإحسان يعني: الإحكام والإتقان، والرفق والإسفاق. ويتضمن ذلك الإحسان: المحافظة على الموارد الزراعية والبيئة الطبيعية وبخاصة أن في ذلك منافع اقتصادية ضخمة للإنسان. فعلى سبيل المثال، فإن المحافظة طويلة الأمد على الغابات، أو السياحة البيئية بشكل عام، تتفوق على أي مكسب قصير الأجل ينتج من استغلال الحياة البرية والموارد الطبيعية. والحفاظ على الشعاب المرجانية يمكن أن يجلب المزيد من السياحة أكثر مما يجلبه الصيد على مستوى واسع في مثل هذه الأماكن البيئية الهشة.

٨- في مجال حماية البيئة والأماكن العامة من الروائح الكريهة نجد أن السنة النبوية نهت من أكل ثوما عن مجرد الاقتراب من المسجد حتى لا يؤدي المصلين برائحة الثوم التي تنبعث من فمه. فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال في غزوة خيبر: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي الثُّومَ - فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»^(٩٥). وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، وَلَا يُؤْذِينَنَا بِرِيحِ الثُّومِ»^(٩٦). وتندرج تحت قائمة الروائح الكريهة أية روائح مماثلة لرائحة الثوم (مثل رائحة البصل والكراث، أو رائحة حرق التبغ، أو روائح الغازات الكبريتية المنبعثة من محطات معالجة مياه المجاري، ومن المصافي النفطية)، أو تلك الروائح التي تسبب ضررا للإنسان كما تفعله رائحة الثوم.

٩- في مجال الصحة الوقائية نهت السنة النبوية عن مخالطة الإنسان المريض بمرض معدٍ لآخر صحيح، وذلك درءا للضرر الذي قد يلحق الإنسان الصحيح من هذا المصاب. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوردن

٩٤- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، الحديث رقم ٥٧ (٥٥٩١)، الجزء السابع، صفحة ٩٤.

٩٥- صحيح البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب: ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، الحديث رقم ٨٥٣، صفحة ١٥٣.

٩٦- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها، الحديث رقم ٧١ (٢٦٥)، الجزء السابع، صفحة ٤٢.

ممرض على مصح»^(٩٧). وإذا كان ورود الصحيح ممنوعا على المريض، فكيف الأمر بمن يتسبب، بغيا وعدوانا، في نشر التلوث الكيميائي أو الإشعاعي أو الميكروبي. إن دفع مثل هذا الأذى له أولية وألوية. فعن إبراهيم بن سعد قال: سمعت أسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»^(٩٨). ويفهم من هذا الحديث الشريف أنه إذا ظهر مرض معدٍ في بلد ما، فيجب أن يضرب حوله حصار شديد، فيمنع الدخول إليه والخروج منه، وذلك حتى تنكمش رقعة الداء في أضيق نطاق. وقياسا على ذلك، إذا حدث طاعون بيئي معاصر (مثل: انفجار معمل للغازات السامة، أو مفاعل نووي) فيجب حظر الدخول إلى منطقة هذا الطاعون، ولا يسمح بذلك إلا بعد تبدُّد أثر الملوثات، أو اتخاذ الاحتياطات الكفيلة بعدم تعرض الداخلين للأذى (مثل: ارتداء معدات الوقاية الشخصية، واستعمال الأقنعة الواقية من الغازات السامة... إلخ).

١٠- في مجال تنظيم استخدام الموارد الطبيعية كان رسول الله ﷺ هو أول من قضى بين المتخاصمين في حقوق استغلال الماء في دولة الإسلام. فعن عروة بن الزبير أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه حدثه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر. فأبى عليه. فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمك؟، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر. فقال الزبير: والله إنى لأحسب أن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

٩٧- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: لا هامة، الحديث رقم ٥٧٧٠، صفحة ١٠٥١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، ولا نوء ولا غول، ولا يورد ممرض على مصح، الحديث رقم ١٠٤ (٢٢٢١)، الجزء السابع، صفحة ٣٨٤.
٩٨- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: ما يذكر في الطاعون، الحديث رقم ٥٧٢٨، صفحة ١٠٤٤.

١١- في مجال المحافظة على التوازن البيئي، دعا الإسلام إلى المحافظة على هذا التوازن. ومن المعروف أن الله خلق كل شيء بقدر، وجعل التوازن ينتظم كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ (١٠١). وقال عز وجل: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (١٠٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (١٠٣).

ولتحقيق مقصد المحافظة على التوازن البيئي دعت الشريعة الإسلامية إلى نبذ الإسراف بثتى صورته، بمعنى أن تستغل النظم البيئية استغلالاً علمياً رشيداً ومستداماً، وفقاً لمنهج الوسطية، فلا إفراط أو تفريط. فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا، ما

٩٩- النساء / ٥٦.

١٠٠- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب: سكر الأنهار، الحديث رقم ٢٣٥٩، ٢٣٦٠، صفحة ٤٠٤. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، باب: وجوب اتباعه ﷺ، الحديث رقم ١٢٩ (٢٣٧٥)، الجزء الثامن، صفحة ٩٥، ٩٦. وجاء في فتح الباري: قوله: (في شِراجِ الحرة) جمع شَرَجٍ، وحكى القرطبي: شرجة، والمراد بها هنا مسيل الماء، وإنما أضيفت إلى الحرة لكونها فيها، والحرة موضع معروف بالمدينة...، وهي في خمسة مواضع: المشهور منها اثنتان: حرة واقم، وحرة ليلي... (سرح) فعل أمر من التسريح أي أطلقه... قوله: (أن كان ابن عمك) بفتح همزة أن وهي للتعليل، كأنه قال: حكمت له بالتقديم لأجل أنه ابن عمك... قوله: (فتلون) أي تغير، وهو كناية عن الغضب... قوله: (حتى يرجع إلى الجدر) أي يصير إليه، والجدر هو المسناة، وهو ما وضع بين شربات النخل كالجدار، وقيل: المراد الخواجز التي تحبس الماء، وجزم به السهيلي. ويروى الجدار بضم الدال، حكاه أبو موسى، وهو جمع جدار. وقال ابن التين: ضبط في أكثر الروايات بفتح الدال وفي بعضها بالسكون، وهو الذي في اللغة، وهو أصل الحائط. وقال القرطبي: لم يقع في الرواية إلا بالسكون، والمعنى أن يصل الماء إلى أصول النخل، قال: ويروى بكسر الجيم، وهو الجدار والمراد به جدران الشربات التي في أصول النخل فإنها ترفع حتى تصير تشبه الجدار. والشربات بمعجمة وفتحات هي الحفر التي تحفر في أصول النخل. وحكى الخطابي: الجدر بسكون الدال المعجمة، وهو جذر الحساب، والمعنى حتى يبلغ تمام الشرب. قال الكرماني: المراد بقوله (أمسك) أي أمسك نفسك عن السقي، ولو كان المراد أمسك الماء لقال بعد ذلك أرسل الماء إلى جارك. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الخامس، صفحة ٤٤: ٤٦.

١٠١- الحجر / ١٩.

١٠٢- الرعد / ٨.

١٠٣- القمر / ٤٩.

لم يخالطه إسراف أو مخيلة»^(١٠٤).

١٢- في مجال المحافظة على التنوع الحيوي دعت السنة النبوية إلى عدم إفناء أم الطير والحيوان، نظرا لأهمية ذلك في تحقيق التوازن البيئي، إذ إن التنوع الحيوي يوفّر القاعدة الأساسية للحياة على الأرض. وتعدّ الحياة الفطرية مصدرا رئيسيا لتزويد الإنسان بالغذاء والمواد الخام اللازمة لصناعة ملابسه، وتتيح له المجال لممارسة هواياته في الصيد أو في التريض والترويح عن النفس. ولعل ما هو أهمّ من ذلك أن لكثير من الأنواع الحية دوراً أساسيا في استقرار المناخ وحماية موارد المياه والتربة. كما أن كثرة الأنواع الحية توفر مخزونا غنيا للمعلومات عن السمات الوراثية (الشفيرات) التي ترشدنا إلى اختيار محاصيل جديدة وتساعدنا على تحسين الأنواع الموجودة حاليا. وتُفقد بعض هذه المعلومات نهائيا عندما يختفي نوع رئيسي أو فرعي من أنواع الكائنات الفطرية^(١٠٥)، حتى لو كان هذا النوع من الكلاب أو النمل. فعن عبد الله بن مغفل قال: قال النبي ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم»^(١٠٦). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته غملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر

١٠٤- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، كتاب اللباس، باب: الصفرة للرجال، الحديث رقم ٣٦٠٥، الجزء الثاني، صفحة ١١٩٢. والمخيلة: الكبر. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الحادي عشر، صفحة ٢٢٨. وقال المنذري: ورواته إلى عمر ثقات يحتج بهم في الصحيح. انظر: الترغيب والترهيب، الحافظ المنذري، كتاب الطعام وغيره، باب الترهيب من الإمعان في الشيع والتوسع في المأكول والمشرب بطرا، الجزء الثالث، صفحة ١٤٧.

١٠٥- التنوع الأحيائي، د. عبد الحكيم بدران، صفحة ١٠:١١.

١٠٦- رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغْفَلٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. انظر: سنن الترمذي، كتاب الصيد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في قتل الكلاب، الحديث رقم ١٤٨٦، صفحة ٣٥٢. وجاء في تحفة الأحوذبي: وقوله: (لولا أن الكلاب) أي جنسها. (أمة) أي جماعة. (بهيم) أي خالص السواد. قال الخطابي: معنى هذا الكلام أنه ﷺ كره إفناء أمة من الأمم وإعدام جيل من الخلق، لأنه ما من خلق لله إلا وفيه نوع من الحكمة وضرب من المصلحة. يقول: إذا كان الأمر على هذا ولا سبيل إلى قتلهم، فاقتلوا شرارهم، وهي السود البهيم. انظر: تحفة الأحوذبي، المباركفوري، الجزء الخامس، صفحة ٣١، ٣٣:٣٤.

بيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة؟^(١١٧). وما ينطبق على أمتي الكلاب والنمل ينطبق على سائر أم الحيوان والطيور والحشرات.

١٣- في مجال المحميات الطبيعية ألغى رسول الله ﷺ نظام المحميات القبلية التي كانت مصدراً للحروب والنزاعات البيئية في الجاهلية. فقد كانت ندرة الموارد الطبيعية بسبب ظروف الجفاف وقلة المسطحات الخضرة سبباً في نشأة نظام المحميات في بلاد العرب وشيوعه في الجاهلية. وكان الشريف من العرب إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً، فحمى خاصته مدى عواء الكلب، فلا يرعى في هذه المنطقة أحد غيره. وعلى الرغم من الفوائد التي جناها أصحاب هذه المحميات منها، فإن محمياتهم كانت سبباً في العديد من النزاعات البيئية التي احتدمت حدتها بينهم وبين الآخرين. فكان من الطبيعي أن تحدث تجاوزات لنظام الحمى في الجاهلية، إذ كانت المحميات عرضة للمطامع دائماً، ومحلاً للصراع بين القبائل. وجاء الإسلام فوضع حداً لهذه النزاعات من خلال ما سنته الشريعة الإسلامية من قواعد تنظم أسس التعامل مع البيئة، وتحفظ حقوقها، وتمنع الاعتداء عليها. كما وضع الإسلام حداً للحروب التي كانت تقوم بين القبائل بسبب المراعي وآبار المياه. فعن الصعب بن جثامة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا حمى إلا لله ولرسوله»، وقال: بلغنا أن النبي ﷺ حمى النقيع، وأن عمر حمى الشرف والربذة^(١١٨). ويرى السهمودي أن

١٠٧- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، الحديث رقم ٣٣١٩، صفحة ٥٨١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ، الأحاديث أرقام ١٤٨ (٢٢٤١)، ١٤٩ (٢٢٤٢)، ١٥٠ (٢٢٤٣)، الجزء السابع، صفحة ٤٠٥. وجاء في فتح الباري: قوله: (فأمر بجهازه) أي متاعه. قوله: (ثم أمر ببيتها فأحرق) أي بيت النمل. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء السادس، صفحة ٤١٢.

١٠٨- صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب: لا حمى إلا لله ورسوله ﷺ، الحديث رقم ٢٣٧٠، صفحة ٤٠٥. (والنقيع): هو بالنون موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء، أي يجتمع. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء الثامن، صفحة ٣٣٩. (والشرف): كبد نجد. (والربذة): من قرى المدينة على ثلاثة أيام من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والربذة: هي الحمى الأيمن. انظر: معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت، الجزء الثالث، صفحة ٢٤.

قوله ﷺ: «لا حمى إلا لله ورسوله» يعني: أنه لا حمى على هذا المعنى الخاص، ولكن رسول الله ﷺ إنما كان يحمي لمصالح عامة المسلمين، لا لما حمى له غيره من خاصة نفسه، وذلك أنه لم يملك إلا ما لا غنى به وبعباله عنه... وقال: «وقد حمى بعده (عمر) ﷺ أرضاً لم يعلم أن رسول الله ﷺ حماها»^(١٠٩). وعن ابن عمر - رضي الله عنهما «أن النبي ﷺ حمى النقيع لخيله»^(١١٠). وقد حمى رسول الله ﷺ المدينة المنورة كما حمى إبراهيم عليه الصلاة والسلام منطقة الحرم في مكة، فلا يمس فيهما حيوان إلا المؤذي، ولا نبات إلا ما اقتضته الضرورة. وحددت السنة النبوية حمى كل من المدينة المنورة ومكة المكرمة الذي لا يجوز انتهاكه عن طريق العدوان على الإنسان أو صيد الحيوان أو قطع الأشجار. فعن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال علي رضي الله عنه: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة، قال: فأخرجها، فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل. قال: وفيها: المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين...^(١١١). وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: «هذا

١٠٩- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، السمهودي (نور الدين علي بن أحمد)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الثالث، صفحة ١٠٨٦ ١٠٨٧.

١١٠- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، الحديث رقم ٥٦٥٥، الجزء الثاني، صفحة ٩١. وثمة رواية أخرى في (مسند أحمد) أيضاً توضح ملكية الخيل التي خصص حمى النقيع لها. فعن ابن عمر رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ حمى النقيع للخيل. قال حماد: فقلت له: لخيله؟ قال: لا، لخييل المسلمين). انظر: مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، الحديث رقم ٦٢٣٨، الجزء الثاني، صفحة ١٥٥.

١١١- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب: إثم من تبرأ من مواليه، الحديث رقم ٦٣٧٤، صفحة ١٢٠٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحریم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، الحديث رقم ٤٦٧ - (١٣٧٠)، الجزء الخامس، صفحة ١١٥:١١٤. وعير وثور: جبلان بالمدينة. انظر: لسان العرب.

جبل يحبنا ونحبه. اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها»^(١١٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها، قال رسول الله ﷺ: «ما بين لابتيها حرام»، وزاد في رواية بعد قول أبي هريرة: ما ذعرتها: وجعل اثني عشر ميلا حول المدينة حمى^(١١٣). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال: «إلا الإذخر»^(١١٤).

وحظرت الشريعة الإسلامية على كل من أحرم بالحج أو العمرة أن يقتل صيدا أو يقطع شجرة في الحرم أو يكسرها أو يحرقها، أو يزيل نباتا إلا ما كان منه يابسا ولحاجته. ولو تصورنا أن الأعداد الكبيرة من الحجيج سُمح لها بقطع الأشجار في

١١٢- رواه الترمذي. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انظر: سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في فضل المدينة، الحديث رقم ٣٩٢٢، صفحة ٨٨٠. وجاء في تحفة الأحوذى: قوله: (كطلع له أحد) أي ظهر. (هذا جبل يحبنا) قال النووي: الصحيح المختار أن معناه أن أحدا يحبنا حقيقة، جعل الله فيه تمييزاً يحب به كما قال سبحانه وتعالى: (وإن منها لما يهبط من خشية الله) (البقرة/ ٤٧)، وكما حن الجذع اليابس، وكما سبح الحصى... وقيل المراد: يحبنا أهله فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. انتهى. انظر: تحفة الأحوذى، المباركفوري، الجزء العاشر، صفحة ٣٢٠. و(لابتيها) مثنى لابتها. واللابة: الحرة. وقال الأصمعي: هي الأرض التي قد ألبستها حجارة سود. ولابتنا المدينة: حرتان تكتنفانها. انظر: لسان العرب.

١١٣- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب أبواب فضائل المدينة، باب: لابتي المدينة، الحديث رقم ١٨٧٣، صفحة ٣٢١:٣٢٢. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، باب: وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم، الأحاديث أرقام ٤٧٢ (٢٧٣١)، الجزء السابع، صفحة ٤٠٥.

١١٤- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إثم الغادر للبر والفاجر، الحديث رقم ٣١٨٩، صفحة ٥٦١. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلهاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، الأحاديث أرقام ٤٤٥ (٣٥٣١)، ٤٤٦ (٤٥٣١)، ٤٤٧ (٥٥٣١)، ٤٤٥ (٥٥٣١)، الجزء الخامس، صفحة ١٠٤:١٠٣. و(يعضد): يقطع. ولا يختلى خلاها: أي لا يحترق حشيشها. والخلى: الرطب من الحشيش. والقين: الحداد، وقيل: كل صانع قين. والإذخر: حشيشة طبية الرائحة يسقف بها البيوت فوق الحشيش. انظر: لسان العرب.

موسم الحج وحده (الذي يتغير مواعده عاما بعد عام) فإن النتيجة النهائية لذلك هي استئصال مظاهر الحياة النباتية جميعها في مكة المكرمة، وستختفي مع ذلك الأحياء الحيوانية التي تعتمد على هذه النباتات في غذائها ومأواها.

١٤- في مجال القدوة الحسنة في السلوكيات الإيجابية المرتبطة بالتنمية المستدامة ورعاية البيئة كانت أفعال الرسول ﷺ نفسه خير مثال يحتذى بها في هذا المضمار. ففي الاقتصاد في استخدام الماء حتى في غرض ديني مثل الوضوء، قال أنس رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يغسل - أو كان يغتسل - بالصاع إلى خمسة أمداد ويتوضأ بالمد»^(١١٥). وعن عائشة رضي الله عنها (كانت تغتسل هي والنبي ﷺ من إناء واحد يسع ثلاثة أمداد، أو قريبا من ذلك)^(١١٦). وكان أبو جعفر عند جابر بن عبد الله هو وأبوه وعنده قوم فسألوه عن الغسل، فقال: يكفيك صاع، فقال رجل: ما يكفيني. فقال جابر: «كان يكفي من هو أوفى منك شعرا، وخير منك»^(١١٧)، يعني النبي ﷺ.

وفي تحمل الجوع والاقتصاد في تناول الطعام، قال جابر رضي الله عنه: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كيدة شديدة، فجاءوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: (أنا نازل). ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا

١١٥- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: الوضوء بالمد، الحديث رقم ٢٠١، صفحة ٥٤. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحيض، باب: القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد في حالة واحدة، وغسل أحدهما بفضل الآخر، الأحاديث أرقام ٥١ (٥٢٣)، ٥٢ (٦٢٣)، ٥٣ (٦٢٣)، الجزء الثاني، صفحة ٢٠٣. وجاء في فتح الباري: قوله: (بالصاع) هو إناء يسع خمسة أرتال وثلاثا بالبغدادي، وقال بعض الحنفية ثمانية. قوله: (إلى خمسة أمداد) أي كان ربما اقتصر على الصاع وهو أربعة أمداد، وربما زاد عليها إلى خمسة. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الجزء الأول، صفحة ٣٦٥.

١١٦- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحيض، باب: القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد في حالة واحدة، وغسل أحدهما بفضل الآخر، الحديث رقم ٤٤ (١٢٣)، الجزء الثاني، صفحة ٢٠٢.

١١٧- صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب الغسل بالصاع ونحوه، الحديث رقم ٢٥٢، صفحة ٦١:٦٢. وجاء في فتح الباري: قوله: (أوفى) يحتمل الصفة والمقدار، أي أطول وأكثر. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء الأول، صفحة ٤٣٦.

ندوق ذواقا... الحديث^(١١٨). وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض»^(١١٩) وفي رواية لمسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير، يومين متتابعين، حتى قبض»^(١٢٠). وعن عروة عن عائشة أنها قالت لعروة: «والله يا ابن أختي: إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قال: قلت: يا خالة: فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها، فيسقيها»^(١٢١). وقالت عائشة رضي الله عنها أيضا: «ما أكل آل محمد ﷺ أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر»^(١٢٢). وعن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه، فأبى أن يأكل. وقال: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا، ولم يشبع من خبز الشعير»^(١٢٣). وكان ﷺ يكثر من الصيام في غير رمضان، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس»^(١٢٤).

- ١١٨- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، الحديث رقم ٤١٠٢، صفحة ٧١٨. وجاء في فتح الباري: قوله: (فعرضت كيدة)... قيل: هي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض... وفي رواية الإسماعيلي (فعرضت كدية)... وهي القطعة الصلبة الصماء... قوله: (ولبنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقا) هي جملة معترضة أوردتها لبيان السبب في ربطه ﷺ الحجر على بطنه. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الجزء السابع، صفحة ٤٥٧:٤٥٨.
- ١١٩- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، الحديث رقم ٦٤٥٤، صفحة ١١٥٤. والبُر: الخنطة. انظر: لسان العرب، الجزء الرابع، صفحة ٥٥.
- ١٢٠- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزهد والرفاق، باب: شدة عيش النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم ٢٢ - (٢٩٧٠)، الجزء التاسع، صفحة ٢٥٨.
- ١٢١- رواه الشيخان. انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا، الحديث رقم ٦٠٥٩، صفحة ١١٥٤. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزهد والرفاق، الحديث رقم ٢٨ - (٢٩٧٢)، الجزء التاسع، صفحة ٢٦٠:٢٦١.
- ١٢٢- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، الحديث رقم ٦٤٥٥، صفحة ١١٥٤.
- ١٢٣- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب: ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، الحديث رقم ٥٤١٤، صفحة ٩٩٤. وقوله (مصلية) أي: مشوية. والصلاء بالمد والكسر: الشواء لأنه يصلى بالنار. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الرابع عشر، صفحة ٤٦٧.
- ١٢٤- رواه الترمذي، وقال أبو عيسى: حديث عائشة حديث حسن غريب من هذا الوجه. انظر: سنن الترمذي، كتاب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في صوم يوم الاثنين والخميس، الحديث رقم ٧٤٥، صفحة ١٨٤. وفي الحديث ربيعة الجرشي. جاء في تحفة الأحوذى: قوله: (عن ربيعة الجرشي) مختلف في صحبته وثقه الدارقطني وغيره كذا في التقريب. وقوله: (يتحرى صوم الاثنين والخميس) أي: يقصده ويطلبه. والتحرى طلب الأحرى والأولى، وقيل التحري طلب الثواب والمبالغة في طلب شيء... وقوله: (حديث عائشة حديث حسن غريب من هذا الوجه) وأعله ابن القطان بالراوي عنها وأنه مجهول، وأخطأ في ذلك فهو صحابي، كذا في التلخيص. انظر: تحفة الأحوذى، المباركفوري، الجزء الثالث، صفحة ٣٨٩.

وعن معاذة العدوية أنها سألت عائشة: «أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم. فقلت: من أي الشهر كان يصوم؟ قالت: لم يكن يبالي من أي الشهر يصوم»^(١٢٥).

وفي الرفق بالحيوان روى ابن عباس (رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر عليه حمار قد وُسم في وجهه، فقال: لعن الله الذي وسمه^(١٢٦). وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرّ إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش النخل، فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكن، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟! فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدبّه»^(١٢٧). وعن سهل بن الحنظلية قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»^(١٢٨).

١٢٥- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيام، باب: استحباب ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثني عشر والخميس، الحديث رقم ١٩٤ - (١١٦٠)، الجزء الرابع، صفحة ٢٦٣.

١٢٦- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب اللباس والزينة، باب: النهي عن ضرب الحيوان في وجهه، ووسمه فيه، الحديث رقم ١٠٧ - (٢١١٧)، الجزء السابع، صفحة ٢٨١. وقوله (وُسم) أي: أثر فيه بسمة وكى. انظر: لسان العرب، ابن منظور، الجزء الثاني عشر، صفحة ٦٣٥.

١٢٧- رواه أبو داود. انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، الحديث رقم ٢٥٤٩، صفحة ٣٨٧. جاء في (عون المعبود): قال المنذري: وأخرجه مسلم وابن ماجه وليس في حديثهما قصة الجمل... (فأسر): من إسرار أي الكلام على وجه لا يطلع عليه غيره. (لحاجته): أي الحاجة الإنسانية. (هدفاً): كل بناء مرتفع مشرف. (حائش نخل): هو النخل الملتف. (حائطاً): أي بستاناً. (حن): أي رجيع صوته وبكى. (وذرفت عيناه): جرت. (ذفراه): الذفرى من البعير مؤخر رأسه وهو الموضوع الذي يعرف من قفاه، وهما ذفريان. (وتدبّه): أي تكرهه وتتعبه. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، الجزء السابع، صفحة ٢٢٠.

١٢٨- رواه أبو داود. انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، الحديث رقم ٢٥٤٨، صفحة ٣٨٧. جاء في (عون المعبود): والحديث سكت عنه المنذري... (قد لحق ظهره ببطنه): أي من الجوع. (البهائم): جمع بهيمة وهي كل ذات أربع قوائم ولو في الماء، وكل حي لا يميز. (المعجمة): أي التي لا تقدر على النطق... (وكلوها صالحة): أي حال كونها صالحة للأكل، أي سمينة. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء السابع، صفحة ٢٢٠.

المبحث السادس: القواعد الفقهية المتعلقة برعاية البيئة:

ثمة قواعد فقهية عامة استنبطها علماء المسلمين من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي قواعد تعدّ مفخرة للمسلمين، لكونها قد سبقت التشريعات البيئية المعاصرة وتفوقت عليها. وعلينا أن نسعى إلى تفعيلها في مجال دفع الضرر بكل صوره وألوانه، بما في ذلك الضرر الذي قد يحيق بالبيئة من جراء تصرفات الإنسان وسلوكياته غير الحميدة. وعلينا أيضا أن نعمل على إحيائها والاحتكام إليها لحل النزاعات البيئية التي تواجهها البشرية حاليا، سواء على المستوى الدولي أو الإقليمي أو الأفراد.

وهذه القواعد هي:

أ- قاعدة (الضرر يزال). وتستند هذه القاعدة إلى الحديث الذي رواه عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قضى أن (لا ضرر ولا ضرار)^(١٢٩). وتعني هذه القاعدة أن لكل فرد مطلق الحرية في أن يتصرف فيما يملك إذا انعدم الضرر، فإذا حدث ضرر للغير فلولي الأمر الحق في التدخل واتخاذ كل ما من شأنه أن يحول دون وقوع الضرر الذي قد يلحق ببعض مكونات البيئة أو التخفيف منه أو حتى إزالة مصدر هذا الضرر، لسد الذرائع المؤدية إلى الفساد. وعلى سبيل المثال، من غير الجائز لأحد أن يفسد على الجماعة حقها في الانتفاع بأحد مواردها. كما أنه ليس من حق أحد أن يسيء استخدام ممتلكاته بحيث يلحق الضرر بالآخرين. فإذا وضع رجل في بيته آلة تصدر اهتزازات تؤثر في سلامة

١٢٩- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، كتاب الأحكام، باب: من بنى في حقه ما يضرّ بجاره، الحديث رقم ٢٣٤٠، الجزء الثاني، صفحة ٧٤٨. وانظر أيضا: موطأ مالك، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، كتاب الأفضية، باب القضاء في أمهات الأولاد، الحديث رقم ١٤٢٩، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، الجزء الثاني، صفحة ٧٤٥. وجاء في مجمع الزوائد: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه ابن إسحاق وهو ثقة ولكنه مدلس. وعن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله ﷺ قال: (لا ضرر ولا ضرار) رواه الطبراني في الأوسط، وسمر بن أحمد بن رشددين، وهو ابن محمد بن الحجاج بن رشددين، وقال ابن عدي: كذبوه. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، باب لا ضرر ولا ضرار، الجزء الرابع، صفحة ١١٠.

حائط الجار، كان للقاضي أن يحكم بإزالة هذه الآلة، وكان على السلطة التنفيذية تحقيق ذلك^(١٣٠). وما ينطبق على الفرد ينطبق على الدول أيضا، فليس من حق دولة أن تتصرف في مياها الإقليمية بالشكل الذي يلحق أضرارا بيئية بجاراتها أو بدول أخرى يمكن أن ينتقل إليها التلوث البحري الذي يتصف بأنه لا يعترف بالحدود الجغرافية. ويمتد دفع الضرر ليشمل الطير والحيوان. فعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: (من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها). ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: (من حرق هذه؟) قلنا: نحن. قال: (إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)^(١٣١).

ب- قاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح: وقد استنبط الفقهاء هذه القاعدة من الحديث الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه. وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم. فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم»^(١٣٢). فإذا كان استغلال موارد البيئة لتحقيق منفعة ذاتية ومؤقتة سوف يتسبب في الإضرار بهذه الموارد وإفسادها، ويتسبب في استنزافها، فلا يُسمح بها، إذ إن منع الضرر والفساد يجب أن

١٣٠- عمارة الأرض في الإسلام، جميل أكبر، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن، صفحة ٢٠١.

١٣١- سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: في كراهية حرق العدو بالنار، الحديث رقم ٢٦٧٥، صفحة ٤٠٥. وجاء في (عون المعبود): قال المنذري: ذكر البخاري وعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي أن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وصحح الترمذي حديث عبد الرحمن عن أبيه في جامع. (حمرة): طائر صغير كالعصفور. (فرخان): ثنية الفرخ. والفرخ ولد الطائر. (تفرش): بفتح التاء وضم الراء من فرش الطائر إذا فرش جناحيه، وفتحها وتشديد الراء أي تفرش فحذف إحدى التائين أي تفرفت بجناحيها وتقربت من الأرض انتهى. (فجع): أوجعه... (قرية نمل): أي موضع نمل. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي، الجزء السابع، صفحة ٢٢٠.

١٣٢- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، باب: توفيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك، الحديث رقم ١٣٠ - (٢٣٧٥)، الجزء الثامن، صفحة ٩٧.

يقدم على أي منفعة عند استغلال البيئة.

ج- قاعدة الضرر يزال بقدر الإمكان (ولاسيما الضرر الفاحش). ولولاة الأمور الحق في إجبار من يحدث ضررا في البيوت أو الشوارع أو الأسواق أو البيئة بوجه عام بإزالة الأضرار الناتجة عن أعمالهم وتصرفاتهم، والتي قد يترتب عليها الإضرار بالناس أو بالحيوانات أو بجودة البيئة.

د- قاعدة الضرر لا يزال بضرر مثله (بله بما هو أكبر منه). فإذا تساوى الضرر الذي يلحق بالبيئة بالضرر الذي ينتج منه حرمان صاحب حق الملكية لمشروع ما من استعمال حقه، فإنه لا يجوز لإزالة الضرر الذي يلحق بالبيئة حرمان صاحب الحق من استعمال حقه. وإذا كان هناك مصدر لتلويث الهواء في منطقة معينة (مصنع مثلا)، فلا يزال المصنع لتنشأ مكانه محرقة قمامة.

هـ- قاعدة الضرر الأشد يزال بالأخف: حينما تتعارض المصالح المتعلقة بالبيئة مع مصالح الفرد تطبق هذه القاعدة. ويتفرع من هذه القاعدة قاعدتان أخريان هما:

١- يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام: ومثال ذلك: تقييد استعمال حق المالك في إقامة فرن خبز في سوق البزازين^(١٣٣)؛ حتى لا يتسبب الشرر الناتج من الفرن في احتراق المنتجات الحريرية المعروضة في السوق. وانطلاقا من هذه القاعدة نجد الكثير من الفقهاء يجيزون انتزاع ملكية عقار خاص إذا ضاق الطريق على المارة^(١٣٤). وقياسا على ذلك، يمنع إقامة مصنع للأسمت مثلا وسط حي سكني، منعا للضرر الذي يعود على أهل هذا الحي^(١٣٥).

٢- يختار أهون الشرين أو أخف الضررين. فمثلا إذا تعذر نقل النفايات المنزلية

١٣٣- غمز عيون البصائر على الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي، الحموي (أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد مكّي الحسيني)، دار الطباعة العامرة، الأستانة، الجزء الثاني، صفحة ١٢٢.

١٣٤- عمارة الأرض في الإسلام، جميل أكبر، صفحة ٢٠١.

١٣٥- الإسلام وحماية البيئة، د. محمود صالح العادلي، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، الرياض، العدد ٢٣، السنة السادسة، صفحة ٣٤.

إلى مناطق غير مأهولة بالسكان، وأريد حرقها للتخلص منها، فيمكن أن يجرى ذلك قرب المناطق البعيدة نسبياً ذات التعداد السكاني الأقل، بدلا من حرقها في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية^(١٣٦).

و- قاعدة الموازنة بين المصالح: وتعني هذه القاعدة أن المصالح إذا تعددت وتعارضت فإنه يعمل بالترجيح بينها، وتغليب الأهم منها على ما دونها. ومثال ذلك أن يقدم المرء شراء المنتجات الصديقة للبيئة على المواد الضارة بها أو المستنزفة لطبقة الأوزون مثلا.

ز- ما جاز بعذر بطل بزواله: من حق ولي الأمر وقف بعض الأعمال إذا كان ضررها على بيئة الإنسان أكثر من نفعها، لأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح. وإذا كانت الجماعة تحتاج إلى الأعمال التي يترتب عليها ضرر فإن حاجتها تنزل منزلة الضرورة في إباحة المحظور، على أن يدفع الضرر بقدر الإمكان، وأن تقدر الضرورة بقدرها. وبمجرد زوال الحاجة إلى تلك الأعمال، فعلي ولي الأمر وقفها لأن ما جاز بعذر بطل بزواله.

ح- ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام: يقع تحت طائلة الحرام هنا كل ما يضر الناس، ومن ثم فإن أي مصدر يضر الناس في صحتهم أو راحتهم، مثل ابتعاث غازات تؤذيهم، أو إحداث ضوضاء تقلق راحتهم، يعدّ أمرا غير مقبول.

ط- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب: فمثلا، إذا كان من مقتضيات الحد من تلوث البيئة في بلد ما ضرورة استصدار مرسوم أو وضع معايير تحدد مواصفات الملوثات التي تقذف بها عوادم المصانع والسيارات في بيئة هذا البلد، فإن استصدار مثل هذا المرسوم يصبح واجبا، لأن الواجب الأصلي (حماية الناس من أضرار التلوث) لا يتم إلا به^(١٣٧).

١٣٦- منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث، د. عدنان أحمد الصمادي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة السابعة عشرة، العدد الحادي والخمسون، صفحة ٣٣١.

١٣٧- تلوث الهواء: المشكلة والحل، د. صبري الدمرداش، الأمانة العامة للأوقاف، الصندوق الوقفي للمحافظة على البيئة، الكويت، ٢٠٠٠م، صفحة ٩٣.

ي- ولي الأمر في خدمة الرعية: وهذا يقتضي أن تعمل السلطات جميعها بما يحمي المجتمع من خطر يحدث به أو يتهدهه، أي التوقي من الضرر حتى لا يقع، واتخاذ الإجراءات التصحيحية لعلاج هذا الخطر في حالة وقوعه. فمثلا، إذا تعرض الناس لخطر تلوث الهواء في منطقة معينة بسبب سوء الصيانة في مصنع معين فيها، فعلى ولي الأمر العمل على إزالة مصدر هذا الخطر.

ك- تدخل ولي الأمر منوط بالمصلحة: من واجب ولي الأمر رعاية مصالح الرعية والمحافظة على تنفيذ الأحكام. وولي الأمر نائب عن الأمة في تنفيذ شرع الله، ولهذا فتدخله في شئون الرعية منوط بتحقيق مصالحهم ورعاية شئونهم^(١٣٨). فإذا وقعت مفسدة كان على ولي الأمر التدخل لدرئها، ولكن هذا التدخل ليس مطلقا، وإنما هو مقيد فقط في حدود ما يجلب النفع ويبعد الضرر.

١٣٨- الأشباه والنظائر، السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن علي)، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الأول، صفحة ٤١. وانظر أيضا: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية، السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن)، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، بدون تاريخ، صفحة ٨٦.

من استقراء السنة النبوية يجد الباحث أنها وضعت قواعد وقيما عظمت لتحقيق التنمية المستدامة وحماية البيئة، وأنها حثت على العمل وتحقيق التنمية المتكاملة بمختلف صورها، وعملت على حماية المخلوقات التي تعيش على الأرض والإحسان إليها، بما في ذلك حماية الإنسان من شرور نفسه ومن ظلم أخيه الإنسان، مع الاستفادة مما في الأرض من موارد ومقدرات وفق ضوابط خاصة من غير إفراط ولا تفريط. ولم تقتصر السنة النبوية في هذا المجال على تحديد أساليب الثواب للمحسنين للبيئة والعقاب للمسيئين لها، بل تعدت ذلك إلى جعل أخلاقيات التعامل مع البيئة سلوكا حميدا يجب أن يلتزم به المسلم ويراقب في أدائه ربه.

أهم نتائج الدراسة

- ١- إن طبيعة القضايا البيئية المستجدة تقتضي المعالجة الشرعية لها، حتى نحافظ على الكوكب الذي نعيش فيه ونتركه سالما لأبنائنا والأجيال القادمة.
- ٢- إن نجاح برامج التنمية المستدامة يعتمد بصورة أساسية على مراعاة القيم الأخلاقية في مجال التعامل مع البيئة واستغلال الموارد الطبيعية.
- ٣- إن العمل والإنفاق لعمارة البيئة والكون من فروض الكفاية التي إذا قام بها بعضهم سقطت عن الآخرين.
- ٤- يجب أن ننظر إلى عمارة الأرض على أنها نوع من العبادة التي كلف بها الإنسان في الإسلام.
- ٥- إن المقصد العام لرعاية البيئة والمحافظة عليها في الإسلام هو توفير الحياة الآمنة للإنسان، وحماية مصالحه الاقتصادية، وتوفير حاجاته المعيشية وغيرها، وحماية سائر الأحياء والمخلوقات الأخرى التي هي مسخرة لخدمته.

أهم التوصيات:

١- ضرورة التأصيل للقيم الحضارية المعاصرة استنادا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية.

٢- إعادة قراءة السنة النبوية من منظور عصري لاستخلاص المبادئ والأفكار التي تفيد في حل قضايا التنمية المستدامة المعاصرة والمحافظة على البيئة وثرواتها، وضرورة ترجمة هذه المبادئ إلى اللغات الأخرى لتعريف غير المسلمين بالدور العظيم لنبي الإسلام في هذا الموضوع، وكيف أنه كان رحيما بالبيئة محسنا لها على النقيض من أولئك الزعماء الذين يتشدقون الآن ببرامجهم البيئية وفي الوقت نفسه لا يتورعون عن تدمير البيئة باستخدام أسلحة الدمار الشامل في حروبهم.

٣- يجب دراسة قضايا التنمية المستدامة وحماية البيئة من منظور إسلامي، وتعريف الآخرين بذلك، نظرا لأهمية ذلك في التصدي للمشكلات البيئية التي يعاني منها العالم حاليا.

٤- التأكيد على أهمية التعاون بين الباحثين الشرعيين والبيئيين لمعالجة قضايا التنمية المستدامة والبيئة.

٥- يجب أن تراعى القيم الأخلاقية المتعلقة بحماية البيئة في برامج التنمية المستدامة ومشروعاتها التي يجري تنفيذها في دول العالم الإسلامي.

٦- تضمين مناهج التعليم في المراحل المختلفة منهج الإسلام في حل قضايا التنمية المستدامة والتعامل مع البيئة والمحافظة عليها، ووضع الحلول لمشكلاتها وفق الشريعة الإسلامية.

٧- دعوة المفكرين والفقهاء والباحثين وخبراء التنمية المستدامة إلى التعاون فيما بينهم لعرض الرؤية الإسلامية الشاملة للتنمية المستدامة وسبل تحقيقها في دول العالم الإسلامي، والعمل على تصحيح المسار وبيان مواطن الخلل كلما أتيحت لهم الفرصة في المحافل العلمية والفكرية.

فهرس المصادر والمراجع

أ- القرآن الكريم

ب- الكتب:

- ١- الأدب المفرد، الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- ٢- الأشباه والنظائر، السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن علي)، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ٣- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية، السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن)، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، بدون تاريخ.
- ٤- بعيدا عن اليسار واليمين، أنطوني جيدنز، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب رقم ٢٨٦، رجب ١٤٢٣هـ / أكتوبر ٢٠٠٢م.
- ٥- البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية)، محمد عبد القادر الفقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٣.
- ٦- البيئة والتنمية المستدامة، سعاد عبد الله العوضي، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- ٧- تاريخ أسماء الثقات، عمر بن أحمد أبو حفص الواعظ، تحقيق: صبحي السامرائي، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٩٤م.
- ٨- تحفة الأحوزي، المباركفوري (أبو العلا)، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الخامس، صفحة ٢١٣.
- ٩- تلوث الهواء: المشكلة والحل، د. صبري الدمرداش، الأمانة العامة للأوقاف، الصندوق الوقفي للمحافظة على البيئة، الكويت، ٢٠٠٠م.
- ١٠- التنوع الأحيائي، د. عبد الحكيم بدران، سلسلة قضايا بيئية، الكتاب رقم ٤٤، الجمعية الكويتية لحماية البيئة، الكويت، ربيع الآخر ١٤١٦هـ / سبتمبر ١٩٩٥م.

- ١١- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- ١٢- الخراج، أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم)، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨١.
- ١٣- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٤- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ضبط وفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.
- ١٥- سنن الترمذي، الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الضبط والفهرسة: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧ هـ.
- ١٦- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ.
- ١٧- صحيح البخاري، الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مراجعة وضبط: الشيخ محمد علي القطب والشيخ هشام البخاري، المكتبة العصرية، صيدا / بيروت، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م.
- ١٨- صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، اختيار وتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- ١٩- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت / دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨.

- ٢٠- صحيح مسلم بشرح النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، مكتبة الإيمان، المنصورة بمصر، بدون تاريخ.
- ٢١- عمارة الأرض في الإسلام، جميل عبد القادر أكبر، دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة ومؤسسة علوم القرآن ببيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م.
- ٢٢- عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي والنظم الاقتصادية المعاصرة: دراسة مقارنة، الدكتور صالح حميد العلي، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق / بيروت، بدون تاريخ.
- ٢٣- عناية الاقتصاد الإسلامي بالصناعة على المستويين النظري والعملي، د. بيلي إبراهيم أحمد العليمي، بدون ناشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م.
- ٢٤- عون المعبود في شرح سنن أبي داود، العظيم آبادي (أبو الطيب)، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢٥- غمز عيون البصائر على الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي، الحموي (أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد مكّي الحسيني)، دار الطباعة العامرة، الأستانة، ١٢٩٠هـ.
- ٢٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م.
- ٢٧- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م.
- ٢٨- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي (علي بن أبي بكر)، دار الريان للتراث / دار الكتاب العربي، القاهرة / بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ٢٩- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٣٠- معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات

- وإحياء التراث، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- ٣١- معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٣٢- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٩م.
- ٣٣- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، ضبطه وصححه وخرج آياته وشواهد: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- ٣٤- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- ٣٥- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الأمواج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٣٦- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- ٣٧- موطأ مالك، مالك بن أنس (أبو عبد الله الأصبغي)، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٣٨- نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، جمال الدين عبد الله بن يوسف أبو محمد الزيلعي، تحقيق: محمد يوسف البنوري، دار الحديث، القاهرة، ١٣٥٧هـ.
- ٣٩- نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
- ٤٠- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، السمهودي (نور الدين علي بن أحمد)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة

الرابعة، ١٩٨٤ م.

Van Nostrand Scientific Encyclopedia, Edited by Douglas M. Considine, Van - ٤١

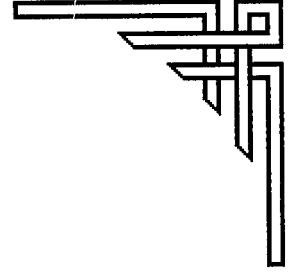
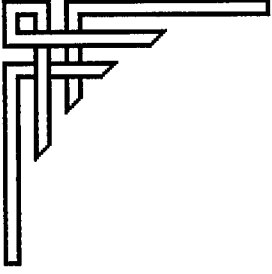
. ١٩٧٦ Nostrand Reinhold Company, New York, U.S.A

ج- الدوريات:

١- الإسلام وحماية البيئة، د. محمود صالح العادلي، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، الرياض، العدد ٢٣، السنة السادسة، ربيع الآخر - جمادى الآخرة ١٤١٥هـ / أكتوبر - ديسمبر ١٩٩٤ م.

٢- المبادئ الإسلامية المتعلقة بالتحكم في الأمراض السارية وأثرها في الوقاية من هذه الأمراض، د. عدنان أحمد البار و د. جنتق ليو، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد الحادي عشر، السنة الثالثة، ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤١٢هـ / أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٩١ م.

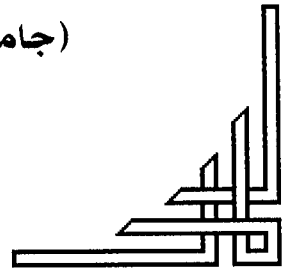
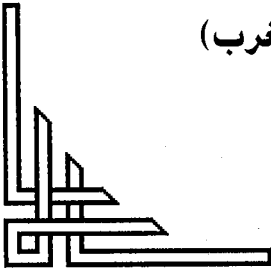
٣- منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث، د. عدنان أحمد الصمادي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة السابعة عشرة، العدد الحادي والخمسون، شوال ١٤٢٣هـ / ديسمبر ٢٠٠٢ م.



القيم الحضارية
في التوجيهات النبوية الشريفة
المعنية بالبيئة

أ.د. ميمون باريش

(جامعة القاضي عياض / مراكش / المغرب)



مباحث البحث:

مقدمة

المبحث الأول: التوجيهات النبوية الشريفة لحماية الماء من التلوث

المطلب الأول: الأمر بتخمير الأواني وإيكاء السقاء

المطلب الثاني: النهي عن اختناث الأسقية

المطلب الثالث: النهي عن التنفس في الآنية

المطلب الرابع: النهي عن التبول في الماء

المبحث الثاني: التوجيهات النبوية الشريفة لتقوية المجال الأخضر والاعتناء به

المطلب الأول: الترغيب في إحياء الأرض الميتة

المطلب الثاني: الترغيب في الغرس عموماً

المطلب الثالث: الترهيب من إتلاف الغرس

المبحث الثالث: التوجيهات النبوية الشريفة لضمان سلامة المحيط من التلوث

المطلب الأول: التوجيهات النبوية الشريفة لتطهير الأماكن العمومية وتطهيرها

١،١ الأمر بتطهير المساجد

٢،١ التنصيص على إيجاد الساحات العمومية والأمر بتطهيرها وتطهيرها

المطلب الثاني: التوجيهات النبوية الشريفة لصيانة الطرقات والمجالس

١،٢ النهي عن التخلي في الطرقات والمجالس

٢،٢ الترغيب في إزالة الأذى من الطرقات

المبحث الرابع: التوجيهات النبوية الشريفة للحفاظ على التوازن الصوتي

خاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القيم الحضارية في التوجيهات النبوية الشريفة المعنية بالبيئة

إعداد: أ.د. ميمون باريش

جامعة القاضي عياض / مراكش / المغرب

مقدمة: تعد قضية البيئة ومشكلة تلوثها من أعقد المشاكل التي تواجه البشرية في زماننا، وأضححت تصدر جدول اهتمامات النظام البيئي العالمي، وإنما كان الأمر كذلك لأن الواقع يكشف باستمرار عن أن صحة البيئة تتدهور بشكل مثير للانتباه؛ وتؤكد أغلب التوقعات أن الكرة الأرضية التي تحتضن الحضارات الإنسانية المختلفة ستصبح في المستقبل القريب في خطر عظيم إذا لم تُسَطَّر برامج عملية وواقعية لإيقاف استمرار تدهور قدرات البيئة وإمكانياتها، ولاسيما أن مشكلة البيئة هي مشكلة متعددة الأبعاد ومتشعبة الأركان ومتداخلة مع مجالات حياتية عدة، منها: التطور الصناعي المذهل، والنمو الديموغرافي، والزيادة في الاستهلاك، والسباق نحو التسلح، وغيرها...

كل هذا فرض على المجتمع الدولي بكل مكوناته: السياسية والحكومية والمدنية ضرورة التصدي للمشكلة البيئية، ولا أدل على ذلك من أن مؤتمر قمة الأرض الذي انعقد في ريو دي جانيرو بدولة البرازيل عام اثنين وتسعين وتسعمائة وألف للميلاد (١٩٩٢م)، كان بمثابة أكبر تجمع سياسي وشعبي في تاريخ البشرية للتعبير الجماعي عن القلق العالمي المشترك حول مصير الحياة على كوكب الأرض.

وإذا كان الاهتمام العالمي بالبيئة وليد القرون المتأخرة، فإن السنة النبوية الشريفة كان لها سبق واقعي مبكر في معالجة موضوعاتها، حيث دعت إلى

المحافظة على مصلحة النفس والعقل والمال من جانب الوجود ومن جانب العدم، ونهت في المقابل عن كل ما من شأنه أن يسيء إلى إحدى هذه الضروريات، أو إلى العناصر التي بها قيام حياة الإنسان، بما في الكون من شمس وقمر ونجوم ومياه وهواء ومجالات خضراء وحيوانات وغيرها، ليكون هذا الكون في خدمة الإنسان وفي صالحه لا ضده.

وحري بالذكر أن هذا الكون المتضمن للعناصر التي بها قيام حياة المخلوقات - على شجاعته وترامي أرجائه الممتدة على نطاق واسع - يمتاز بدقة صنعته، وبراعة تنظيمه، إذ كل شيء فيه مقدر ومدبر وخاضع لحكمة ربانية جليظة، فقد أحكم الله تعالى خلق الكون وأتقن صنعه: كما ونوعاً ووظيفة؛ فهو مخلوق بما فيه وبمن عليه وفقاً لموازين القسط، وللمقادير المحددة، من غير اضطراب فيه ولا خلل، ولا طغيان لعنصر من عناصره على آخر، مصداقاً لقوله جل شأنه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ^(١) وقوله جل جلاله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ^(٢)، وقوله جل وعلا ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ^(٣). فلا شيء في هذا الكون خلق اتفاقاً، أو عبثاً، ولا شيء وجد للاشياء، بل كل ما في هذا الكون خلق بمقدار دقيق خاضع لعلم إلهي كامل وإرادة ربانية شاملة، فالله تعالى - وهو الخالق العظيم - خلق الكون بجميع مكوناته وعناصره، ورسم لكل منها دوراً محدداً لصناعة الحياة والمحافظة على سلامتها في توافق دقيق غاية في الدقة، وانسجام متين غاية في المثانة، كما أخضع كل ما في الكون لدورة حيوية متمسكة بالانتظام والالتزان حتى تجري الحياة في هذا الكون على نحو مستمر من خلال سلسلة من عمليات التولد والتحول

١- سورة القمر / ٤٩.

٢- سورة الفرقان / ٢.

٣- سورة الحجر / ١٩، ٢٠، ٢١.

والتطور والموت، فإذا حصل خلل ما في هذه النواميس الدقيقة تعذرت الحياة في هذا الكون، أو على الأقل عسرت ونكدت بدرجة تناسب حجم الاضطراب والخلل، قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٤)، وإنما تعسر الحياة، وتصير ضنكا ونكدا في هذا الكون الفسيح، إذا اختل فيه النظام، واضطرب توازنه، ولا يحصل الاختلال والاضطراب إلا إذا فسدت بعض عناصره ومكوناته أو كلها... ومن أوجه الاختلال البيئي بمفهومه الواسع تلوث المحيط، وما يترتب عليه من مشاكل متنوعة في العاجل والآجل^(٥)...

فإذا كانت صحة المحيط من الأسباب التي تتوقف عليها صحة الأبدان والعقول والأموال، وفساده مما يتسبب في سقم الأبدان والعقول وإتلاف الأموال، فإن الشرع الحكيم دعا دعوة صريحة في نصوص قرآنية وحديثية كثيرة إلى حفظ عناصر البيئة وصيانتها، وعدم تدنيس عذرية الطبيعة بأي شكل من أشكال الفساد، فأمر ونهى، ورغب ورهب، فقال عز من قائل ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٦)، وقال جل شأنه ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٧)، وقال جل جلاله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^(٨).

فبتأمل هذه النصوص الشرعية وتدبرها، يمكن الوقوف على حقيقتين اثنتين

هامتين:

أولاهما: أن هذا الخطاب، خطاب قرآني صريح في بيان حقيقة البيئة،

٤- سورة الروم / ٤١.

٥- البيئة: مشكلاتها وقضاياها وحمايتها من التلوث، تأليف المهندس محمد عبد القادر الفقي، ص ٢٠.

٦- سورة الأعراف / ٨٤.

٧- سورة البقرة / ٦٠.

٨- سورة الأعراف / ٥٦.

والتنصيب على أهم عناصرها، من حيث هو خطاب يتضمن حمولة معرفية تعبر عنها جملة من الألفاظ التي صارت فيما بعد أهم المصطلحات العلمية المتداولة في المعاجم البيئية، مثل: بؤآكم (من البيئية)، الأرض، السهول، القصور، الجبال، البيوت، الأكل، الشرب، الرزق، الفساد، الصلاح... وهي مصطلحات تعبر عن أهم العناصر البيئية تماما كما عبّرت عنها الدراسات العلمية والفكرية المعاصرة^(٩).

وثانيتها، أن الخطاب القرآني، خطاب صريح في النهي عن العيث في الأرض فسادا، ومن مظاهر الفساد في الأرض الإساءة إلى البيئة والاعتداء عليها بأي وجه من وجوه الإساءة والاعتداء، فالله تعالى لا يحب عمل المفسد - كائنا من كان - ولا يرضى صنععه مهما كان مبرره^(١٠).

فالنهي عن الإفساد في الأرض، خطاب قرآني مجمل، وعام، ومطلق، تولت السنة النبوية الشريفة أمر بيان مجمله، وتخصيص عامه، وتقييد مطلقه، وإغناؤه بإضافة معاني جديدة، لتشكل مجملها ضوابط قانونية، ومبادئ أخلاقية، وتوجيهات تربوية سديدة لحماية البيئة من التلوث، فمن ذلك مثلا ما جاء في رواية سراقه بن مالك رضي الله عنه أنه كان يجالس الرسول ﷺ فيسمع منه، وإذا عاد إلى قومهم حدثهم بما سمع - كالمعلم لهم - فقال له رجل من المشركين يوما - كأنه يلعب - ما بقي لسراقه إلا أن يعلمكم كيف التغوط؟ فتبسم سراقه، وقال: نعم سمعت

٩- من التعريفات المعاصرة للبيئة قولهم: إنها «الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويؤثر فيه ويتأثر به، وتمثل البيئة فيما يحيط بالإنسان من هواء وماء وتربة وضوء الشمس والمعادن في باطن الأرض والنبات والحيوان على سطحها وفي بحارها ومحيطاتها وأنهارها»، ينظر: كتاب العمارة الإسلامية والبيئة، لمؤلفه الدكتور المهندس يحيى وزيري، ص ٧. وعرفوا البيئة بأنها «الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها» ينظر: كتاب البيئة: مشكلاتها وقضاياها وحمايتها من التلوث، لمؤلفه محمد الفقي، ص ١٠.

١٠- يدل على ذلك قول الله عز وجل ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة / ٢٠٥]، إذ تذكر كتب التفسير أن هذا النص نزل في رجل من المنافقين مر بزرع وحمر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع، وعقر الحمر. ينظر: تفسير الإمام الطبري ٢ / ٣١٣.

رسول الله ﷺ يقول: «إذا ذهبتم إلى الغائط، فاتقوا المجالس على الظل، والطريق، خذوا التُّبَل، واستنشبوها على سوقكم، واستجمروا وترا»^(١١)، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»^(١٢)، وفي رواية ابن عباس: «اتقوا الملاعن الثلاث. قيل ما الملاعن يا رسول الله؟ قال أن يقعد أحدكم في ظل يُستظل فيه، أو في طريق، أو في نقع ماء»^(١٣).

ففي الخطاب النبوي السابق، نهي صريح عن إلقاء القاذورات والنفائات في مجاري الماء والطرقات، وفي مجالس الناس، ويلحق بهذه العناصر الثلاثة كل المواطن التي تشترك معها في الوظيفة كالأسواق والشواطئ والمنتزهات، وكل الأماكن التي يحتاج إليها الناس في مختلف الأوقات... وباستقراء ما صحَّ من نصوص السنة الشريفة يتبين أن الهدى النبوي تضمن النهي عن الإساءة إلى البيئة الطبيعية ذات العناصر الأساسية والضرورية في حياة الإنسان، وهي: الماء، والمجال الأخضر، والهواء، والمجالس والطرقات وغيرها... وإليكم - في المباحث الآتية - تفصيل للقول في بيان الهدى النبوي الشريف لحماية بعض هذه العناصر^(١٤) من الفساد:

المبحث الأول: التوجيهات النبوية الشريفة لحماية الماء من التلوث:

يعد الماء معجزة طبيعية عظيمة، وعنصرا بيئيا مهما، إذ عليه مدار جميع

١١- أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٥ / ٢٤٠، حديث رقم ٥١٩٤؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١ / ٢٠٤. «رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن».

١٢- أخرجه الحاكم في المستدرک ١ / ٢٧٣، بهذا اللفظ تحت رقم ٥٩٤ وفي آخره «للخراة»، ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأقره الذهبي في التلخيص؛ وأخرجه البيهقي في الكبرى ١ / ٩٧، في جماع أبواب الاستطابة، باب النهي عن التحلي في طريق الناس وظلمهم، حديث رقم ٤٧٤، وأخرجه أبو داود في سننه ١ / ٧، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، حديث رقم ٢٦، وأخرجه ابن ماجة في سننه ١ / ١١٩، كتاب الطهارة وسننها، باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق، حديث رقم ٣٢٨. والحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحديث الحسن.

١٣- أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده ١ / ٢٩٩، تحت رقم ٢٧١٥، وهو حديث حسن.

١٤- البحث لن يتناول كل عناصر البيئة، بل بعضها في حدود ما يسمح به حجمه.

العناصر البيئية الأخرى، فهو سر الوجود، والمورد الطبيعي الأساس للحياة، وبه تبنى الحضارات، وبدونه تتدهور الاقتصاديات، ومن ثمة فعليه تتوقف حياة جميع المخلوقات، مصداقاً لقوله جل شأنه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١٥) ولقوله جل جلاله ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٦﴾ وَالنَّخْلَ بَاسْقِنَاتٍ هَاهَا طَلْعُ نَضِيدٍ ﴿١٧﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾^(١٦)، فالماء مادة ضرورية ومهمة للكائنات الحية، وهو سر حياة الإنسان، ذلكم المخلوق العاجز عن الاستغناء عن الماء ولو لأيام قليلة، كيف لا والماء يؤلف ثلثي خلايا بدنه، ونسبة كبيرة من سوائله، ومن خلاله تجري جميع التفاعلات الحيوية في جسمه، زيادة على إسهام الماء في تنظيم حرارة بدنه..^(١٧) فهو إذن سر حياة الإنسان والحيوان، وهو غذاء رئيس للنباتات، وهو سبب لإحياء الأرض الموت^(١٨)؛ والأصل في الماء الطهارة ما لم يخالطه غيره، فالماء الشروب مثلاً خال من المواد والغازات السامة كالأمونية، وأملاح النتريت والنترات، وغير ذلك من المواد العضوية التي تدل على تلوثه، كما أنه خال من الطفيليات أو بيوضها أو صغارها، ومن الجراثيم المرضية مطلقاً، ونسبة الجراثيم غير المرضية فيه ضئيلة جداً..^(١٩) وقد دلت نصوص شرعية على طهارته، منها قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾^(٢٠)، وقول النبي ﷺ في الماء عموماً: «إن الماء

١٥- سورة الأنبياء / ٣٠

١٦- سورة ق / ١١.١٠.٩

١٧- الماء والإصحاح في الإسلام، للدكتور عبد الفتاح الحسيني، ص ١.

١٨- يقول الحق سبحانه وتعالى - في بيان الأثر الذي يحدثه الماء في الأرض القاحلة - ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج / ٥٠].

١٩- الماء والإصحاح في الإسلام، للدكتور عبد الفتاح الحسيني، ص ١.

٢٠- سورة الفرقان / ٤٨.

ظهور لا ينجسه شيء»^(٢١)، وقوله عليه الصلاة والسلام في شأن البحر خصوصا «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»^(٢٢)؛ والأصل فيه أيضا الإسهام المباشر في عملية التطهير، مصداقا لقوله جلّ شأنه ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾^(٢٣).

هذا هو الماء، وتلكم هي خصائصه في ضوء الخطاب الشرعي، وعنصر هذا شأنه، جدير بأن تشمله الرعاية الربانية: تحصيلا على سبيل الابتداء وإبقاء على سبيل الدوام، لذلك جاءت نصوص القرآن الكريم مبينة لحقيقة الماء فيما يزيد عن ستين نصا، كما جاءت السنة الشريفة أيضا داعية - بمنهجها الوقائي - إلى حفظ الماء من الضياع، وحمايته من التلوث، ومما جاء فيها ما يأتي:

المطلب الأول: الأمر بتخمير الأواني وإيكاء السقاء:

جاءت السنة النبوية الشريفة أمرة بتخمير الأواني وإيكاء السقاء، وتخمير الأواني يعني تغطيتها^(٢٤)، وإيكاء السقاء يعني شد رأسها وربطه بالوكاء، والوكاء هو ما يشد به الكيس وغيره^(٢٥)، قال المباركفوري: «وأوكوا... السقاء... أي

٢١- أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٤٨ / ١، جماع أبواب ذكر الماء الذي لا ينجس والذي ينجس، إذا خالطه نجاسة، باب ذكر خبر روي عن النبي ﷺ في نفي تنجيس الماء...، وابن حبان في صحيحه ٧٤ / ٤، باب المياه، حديث رقم ١٢٤١، والحاكم في مستدرکه ٢٦٢ / ١، حديث رقم ٥٦٥ ثم قال عقبه: «قد احتج البخاري بأحاديث عكرمة، واحتج مسلم بأحاديث سمك بن حرب، وهذا حديث صحيح في الطهارة ولم يخرجاه، ولا يحفظ له علة»، ووافقه الذهبي في التلخيص؛ وأخرجه الترمذي في سننه ٩٦ / ١، باب ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء، حديث رقم ٦٦، ثم قال: «هذا حديث حسن، وقد جود أبو أسامة هذا الحديث، فلم يرو حديث أبي سعيد في بئر بضاعة أحسن مما روى أبو أسامة»؛ والحديث أخرجه أيضا أصحاب السنن كالبيهقي وأبي داود، والنسائي وغيرهم... وهو حديث صحيح.

٢٢- أخرجه مالك في موطنه ٢٢ / ١، باب الطهور للوضوء، حديث رقم ٤١؛ وابن خزيمة في صحيحه، جماع أبواب الاستنجاء بالماء، باب الرخصة في الغسل والوضوء، حديث رقم ١١١؛ ابن حبان في صحيحه، باب المياه، ذكر الخبر المدحض قول من نفى جواز الوضوء بماء البحر، حديث رقم ١٢٤٣، والنسائي في سننه ٥٠ / ١، باب ماء البحر، حديث رقم ٥٩؛ وأبو داود في الكبرى ٧٥ / ١، أبواب المياه، ذكر ما ينجس الماء وما لا ينجسه، حديث رقم ٥٨؛ والترمذي في سننه ١٠٠ / ١، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور حديث رقم ٦٩، ثم قال: «هذا حديث حسن صحيح».

٢٣- سورة الأنفال / ١١.

٢٤- ينظر: لسان العرب ٤ / ٢٥٨ (مادة خمر)؛ ينظر أيضا: شرح النووي على مسلم ١٣ / ١٨٣.

٢٥- ينظر: لسان العرب ١ / ٢٠٠، (مادة وكأ).

شدوا واربطوا رأس السقاء بالوكاء، وهو ما يشد به القرية»^(٢٦).

إذن نحن أمام معنيين اثنين هما: تغطية الأواني، وربط السقاء، وقد تضمنهما معا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا، ولا يكشف إناء، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عودا ويذكر اسم الله فليفعل، فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيّتهم»^(٢٧)، ووردت في هذه المعاني روايات أخرى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه وأرضاه^(٢٨)، ومنها رواية بلفظ «وأكفؤا الإناء»، وأخرى بلفظ «وخمروا الآنية»، وثالثة بلفظ «وأوكوا قربكم، واذكروا اسم الله، وخمروا آئيتكم، واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئا»...

ففي هذا الحديث - برواياته المختلفة - إشارة واضحة إلى أن الله تعالى قد أطلع نبيه الكريم على ما يكون في هذه الأوقات من المضار من جهة الشياطين، والفأر والوباء، وقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يتقى به ذلك؛ وفيه أيضا جملة من الآداب الشرعية أرشدنا إليها نبينا عليه الصلاة والسلام، وهي بمثابة توجيهات شريفة إلى ما فيه سلامة أرواحنا من الإصابة، وصحة أجسامنا من الأذى، فهذا الخطاب يندرج تحت باب الإرشاد إلى المصلحة الدنيوية، بحيث إن من امتثل لم يصبه شيء من ذلك الضرر بحول الله وقوته، وبركة امتثال أوامره صلى الله عليه وسلم^(٢٩)، وقد بينت السنة النبوية الشريفة وجه المصلحة في ذلك، حين قال عليه الصلاة والسلام:

٢٦ - تحفة الأحوذى ٥ / ٤٣٢.

٢٧ - أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣١، كتاب الأشربة، باب تغطية الإناء، حديث رقم ٥٣٠٠، ومسلم في صحيحه ٣ / ١٥٩٤، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإغلاق الأبواب، وذكر اسم الله عليها، حديث رقم ٢٠١٢، ومالك في موطنه، كتاب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، باب جامع ما جاء في الطعام والشراب، حديث رقم ١٦٥٩.

٢٨ - تنظر هذه الروايات في صحيح مسلم ٣ / ١٥٩٤ وما بعدها، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإغلاق الأبواب، وذكر اسم الله عليهما.

٢٩ - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للحافظ أبي العباس القرطبي ٥ / ٢٨١ وما بعدها.

«غطوا الإناء وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء»^(٣٠)؛ وهذا التعليل منه عليه الصلاة والسلام يشعر بأن شرعية التخمير والإيكاء للوقاية من التلوث الذي من شأنه أن يتسبب في الوباء^(٣١)، وطبعي أن التلوث قد ينتقل إلى الماء من خلال الهواء، أو من خلال الحشرات الناقلة للجراثيم والطفيليات كالصراصير مثلاً والفئران والنمل والبعوض، وهذا خطر يتقى بمجرد التخمير والإيكاء، وهو في الأصل عمل بسيط وتكلفته يسيرة، غير أن فائدته عظيمة، وفي بيان ما سبق ذكره إجمالاً، يقول الإمام النووي: «وذكر العلماء للأمر بالتغطية فوائد، منها: الفائدةان اللتان وردتا في هذه الأحاديث، وهما صيانته من الشيطان، فإن الشيطان لا يكشف غطاء، ولا يحل سقاء؛ وصيانته من الوباء الذي ينزل في ليلة من السنة؛ والفائدة الثالثة، صيانته من النجاسة والقذارة؛ والرابعة صيانته من الحشرات والهوام؛ فربما وقع شيء منها فيه فشربه وهو غافل، أو في الليل فيتضرر به، والله أعلم»^(٣٢).

هكذا ترشدنا سنة نبينا إلى ضرورة حماية المياه السطحية من التلوث^(٣٣)، ومن كل ما من شأنه أن يسيء إليها من حيث هو مادة ضرورية تقوم عليها حياة الإنسان والحيوان والنبات، وهي إرشادات تستدعي ضرورة المبادرة في الامتثال شكراً لله تعالى على نعمه، واعترافاً له بفضله.

٣٠- أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٥٩٦، كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وذكر اسم الله تعالى عليهما، حديث رقم ٢٠١٤.

٣١- نيل الأوطار للشوكاني ١/ ٨٥ وما بعدها.

٣٢- شرح النووي على مسلم ١٣/ ١٨٣ وما بعدها.

٣٣- المياه العذبة على ثلاثة أنواع، وهي الآتية: المياه الجوية، والمياه السطحية، والمياه الغائرة أو الجوفية... فالمياه السطحية هي المياه التي على سطح الأرض، وتكون إما جارية: كالأودية والأنهار، أو راكدة كالبحيرات، والمياه الغائرة أو الجوفية فهي مياه تغيض في التربة التي يكون فيها من المسام ما يساعد على النفوذ. ينظر كتاب الماء والإصحاح في الإسلام، ص ٢ وما بعدها.

المطلب الثاني: النهي عن اختناث الأسقية:

الاختناث، والاختناث، معناه: التثني والتكسر، نقول انخنت القربة: إذا تثنت؛ ونقول خنتها يخنتها خنتا فانخنت، وخنتها، واختنتها: إذا ثنى فاهاً إلى خارج فشرب منه، أما إذا كسره إلى داخل، فقد قبعه^(٣٤)، يستفاد من هذا الاستعمال اللغوي أن النهي عن الاختناث يتضمن نهياً للمكلف عن مباشرة باطن السقاء بضمه... ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اختناث الأسقية^(٣٥)، ومعنى اختناث الأسقية في رواية: «أن تكسر أفواهها، فيشرب منها»^(٣٦)، وفي رواية أخرى: «هو الشرب من أفواهها»^(٣٧)، ومما يؤيد هذا المعنى، ويؤكد حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب من فم القربة أو السقاء، وأن يمنع جاره أن يغرز خشبه في داره^(٣٨)، وفي رواية أخرى عن أبي هريرة، وابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يشرب من في السقاء^(٣٩).

وقد علل العلماء هذا النهي بعلّة الإفساد المتسبب في نتن الماء، من حيث إنه واحد من العلل التي روعيت في النهي عن الشرب في السقاء، إذ الماء إذا انتن تغيرت ريحه، وقد يتغير لونه فيصير أسناً وأجناً وإن كان شروباً^(٤٠)، ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يشرب من في السقاء، لأن ذلك

٣٤- ينظر: لسان العرب لابن منظور ٢ / ١٤٤ (مادة خنت).

٣٥- أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١٦٠٠، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم ٢٠٢٣.

٣٦- أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣٢، كتاب الأشربة، باب اختناث الأسقية، حديث رقم ٥٣٠٢.

٣٧- أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣٢، كتاب الأشربة، باب الشرب من فم السقاء، حديث رقم ٥٣٠٣.

٣٨- أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣٢، كتاب الأشربة، باب الشرب من فم السقاء، حديث رقم ٥٣٠٤.

٣٩- أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣٢، كتاب الأشربة، باب الشرب من فم السقاء، حديث رقم ٥٣٠٥ ورقم ٥٣٠٦.

٤٠- وإلى ذلك يشير قول تلکم الأعرابية التي أنشدت تشكو زوجها قائلة:
فمنهن من تسقى بماء مبرد نقاخ، فتكلم عند ذلك قرّت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن أجاج، ولولا خشية الله فرت
ومعنى الماء المبرد النقاخ أي الماء العذب؛ والماء الآجن والأسن بمعنى واحد، وهو الماء المتغير الطعم واللون، غير أنه شروب. ينظر لسان العرب ١٣ / ١٦ (مادة أسن).

ينتنه^(٤١)، وفي هذا السياق نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - ملخصاً لكلام الشيخ محمد بن أبي جمرة حيث قال: «اختلف في علة النهي، فقيل: يخشى أن يكون في الوعاء حيوان، أو ينصبّ بقوة فيشرق به، أو يقطع العروق الضعيفة التي يإزاء القلب، وربما كان سبب الهلاك، أو بما يتعلق بضم السقاء من بخار النفس، أو بما يخالط الماء من ريق الشارب فيتقذره غيره، أو لأن الوعاء يفسد بذلك في العادة، فيكون من إضاعة المال»^(٤٢)، وبعد هذا النقل الأمين، قال: «والذي يقتضيه الفقه أنه لا يبعد أن يكون النهي لمجموع هذه الأمور، وفيها ما يقتضي الكراهة، وفيها ما يقتضي التحريم؛ والقاعدة في مثل ذلك، ترجيح القول بالتحريم، وقد جزم ابن حزم بالتحريم لثبوت النهي»^(٤٣)، وزاد المباركفوري هذا التعليل توضيحاً فقال: «إنما نهى عنه لأنه ينتنها، فإن إدامة الشرب هكذا، مما يغير ريحها»^(٤٤). فإن قيل ألم يثبت عن النبي ﷺ أنه كان يباشر الشرب من الإناء رغم ما ذكر من التعليل؟ أجيب أن النبي ﷺ كان مأموناً من كل ما ذكر لأمرين اثنين هما: عصمته وطيب نكهته^(٤٥).

المطلب الثالث: النهي عن التنفس في الأنية:

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسخ ذكره بيمينه، وإذا تمسخ أحدكم فلا يتمسخ بيمينه»^(٤٦)؛ وثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً، ويقول:

٤١- أخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، حديث رقم ٧٢١١، وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط مسلم».

٤٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٩١ / ١٠.

٤٣- فتح الباري ٩١ / ١٠. وذهب بعض العلماء إلى أن النهي هنا للتنزيه لا للتحريم.

٤٤- تحفة الأحوذى ١١ / ٦.

٤٥- فتح الباري ٩١ / ١٠.

٤٦- أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣٣، كتاب الأشربة، باب النهي عن التنفس في الإناء، حديث رقم

«إنه أروى وأبرأ وأمرأ»^(٧٧)، فمعنى قوله أروى أي أشد رياء، وأبلغه وأنفعه، وقوله أبرأ من البرء، وهو الشفاء، ومعنى قوله أمرأ أي أكثر لذة ومنفعة...

فهذان الحديثان الشريفان يتضمنان معاني جليلة، ومنها كراهية التنفس في الإناء، أي التنفس المباشر في الإناء أثناء الشرب منه، ومن معانيه الحرص على الانتفاع من الماء وتوخي السلامة من الأمراض التي قد يتسبب فيها الشرب بغير انقطاع؛ فنظرا إلى خطورة التنفس في الإناء، وما يتسبب فيه من الإفساد للماء، تولى النبي ﷺ -

وهو معلم الأمة على الإطلاق - أمر توجيه الشارب إلى أمثل الطرق لتناول الماء من غير الإساءة إليه، إذ روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يتنفس أحدكم في الإناء إذا كان يشرب منه، ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه، ثم يتنفس»^(٧٨)، وفي رواية أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب، فقال له رجل: يا رسول الله، إنني لا أروى من نفس واحد، فقال له رسول الله ﷺ: «فأبِنِ القَدَحَ عن فيك، ثم تنفس». قال الرجل: فإني أرى القذاة فيه، قال عليه السلام: «فأهرقها»^(٧٩).

كل هذا يدل على أن التنفس في الماء، والنفخ فيه من الأفعال المؤثرة في سلامة الماء، ومن ثمة كانت من الأسباب المؤثرة في صحة تناوله، فنهى عليه الصلاة والسلام عن ذلك حماية للماء من التلوث، وحرصا على سلامة صحة الشارب.

المطلب الرابع: النهي عن التبول في الماء:

إذا كان النبي ﷺ قد نهى عن الشرب من السقاء مباشرة، وعن النفخ المباشر في الإناء، لما يتوقع أن ينتج عنه ذلك من فساد الماء الشروب ونتاجه، فإنه من باب أولى أن ينهى عن التبول في الماء الذي يرجى استعماله لتحقيق حصول تلوثه

٤٧- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب كراهة التنفس في نفس الإناء واستحباب التنفس ثلاثا خارج الإناء، حديث رقم ٢٠٢٨.

٤٨- أخرجه الحاكم في مستدرکه ١٥٥/٤، حديث رقم ٧٢٠٧، ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: «حديث صحيح».

٤٩- أخرجه مالك في موطئه ٩٢٥/٢، كتاب صفة النبي ﷺ، باب النهي عن الشرب في آنية الفضة والنفخ في الشراب، حديث رقم ١٦٥٠.

بالتبول، ولحوق الفساد به، ففي حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد^(٥١)، وروى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم، ثم يغتسل منه»^(٥١)، وفي رواية أخرى: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه»^(٥٢)، وفي رواية جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد^(٥٣).

فهذا الحديث برواياته المختلفة، يتضمن نهيا صريحا عن التبول في الماء الدائم، وعن الاغتسال فيه، وإنما نهى عن التبول فيه احترازا من استقذاره وتنجيسه، مثلما نهى عن الاغتسال فيه لثلاث سلب بهذا الصنيع طهارته، بحيث إذا نجسه المكلف ببوله أو سلبه الطهورية بالاغتسال فيه، فقد يحتاج إليه هو نفسه فيمتنع عليه استعماله ثانية، وقد يحتاج إليه غيره فيتعذر عليه تناوله، فيحرم الناس من الانتفاع به^(٥٤).

وذكر الإمام النووي أن مذهب المحققين من العلماء النهي عن التغوط في الماء، إذ التغوط في الماء كالبول فيه وأقبح، ومذهبهم أيضا أن البول بقرب النهر والتغوط بقرب الماء كالبول والتغوط فيه، فكل ذلك منهي عنه لعموم نهى النبي ﷺ عن البراز في الموارد، ولما فيه من إيذاء المارين بالماء، ولما يخاف من وصوله إلى الماء، فإن الإسهام في إفساد تربة الماء إفساد للماء نفسه^(٥٥)، ويلحق بهذا أيضا أنه إذا بال المرء في إناء ثم صبه في الماء، فهو أيضا مذموم، وقبيح، ومنهي عنه شرعا^(٥٦). فالسنة الشريفة تنهى بصريح العبارة عن التبول مباشرة في الماء الذي يحتاج إلى استعماله لعله النجاسة والاستقذار؛ واستحضارا للعلة نفسها نهى العلماء عن التغوط فيه، وعن التبول والتغوط بالقرب منه، وعن صب البول أو

٥٣ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١ / ٢٣٥، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، حديث رقم ٢٨١.

٥٤ - فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١ / ٣٤٧.

٥٥ - وفي هذا المعنى ورد قول أحدكم نظما: وأول خبث الماء خبث ترابه * وأول خبث النجل خبث الحلائل

٥٦ - شرح النووي على مسلم ١ / ١٨٨ وما بعدها.

إلقاء الخراً فيه، فالنهي في الشرع جاء صريحا عن التبول والتغوط في الماء، أو قريب من الماء تفاديا لاختلاطه بما يترشح في المجاري من عفونة الفضلات والأقذار... وإذا كانت هذه من الصور التقليدية للتخلص من النفايات بإلقائها في المياه النافعة، وهذه الصور التقليدية فإنه في زماننا قد أحدثت طرق منظمة، ومنها: إحداث مزبلات ومراحيض قريبة من المجاري المائية، وإلقاء الأشلاء وفضلات البيوت والمصانع في الأنهار والترع والمصارف، وغسل الملابس الملوثة بالجراثيم في مياهها، وصب القاذورات بتصريف مياه المجاري الصحية المستعملة في المياه النافعة، وكل ما يؤدي إلى إفساد الماء وتلويثه؛ والواقع أن هذا النوع من التصريف لا يؤدي إلى تلوث المياه بالطفيليات والروائح الكريهة فحسب، بل يتسبب في استهلاك الأكسجين الذائب في المياه مما يؤثر على حياة الكائنات التي تعيش فيه، كما أن المواد العضوية الموجودة في المجاري تؤدي إلى ازدهار أنواع عديدة من البكتيريا والطفيليات والكائنات الأولية التي تسبب تلوث المياه السطحية^(٥٧)، فإذا تلوثت المياه، اختل نظامها الإيكولوجي، فتصير غير قادرة على الحفاظ على وظيفتها الصحية والحياتية وعلى أداء أدوارها الطبيعية، وغير صالحة للإنسان أو الحيوان أو النبات أو الأحياء التي تعيش في المسطحات المائية، بل إنها تصبح ضارة ومؤذية عند استعمالها^(٥٨)، ولا أدل على ذلك أن الماء إذا تلوث وتنجس، تكاثرت الأمراض الناتجة عنه، وصار مصدرا للعدوى، وللأمراض القاتلة كالكوليرا، والإسهال، وحمى التيفوئيد^(٥٩)، والنزلات المعوية، وداء البلهارسيا، وداء الديدان الشصية^(٦٠) وسائر الديدان، وغيرها من الأوبئة،

٥٧- الماء والإصحاح في الإسلام، للدكتور عبد الفتاح الحسيني، ص ٨ وما بعدها.
 ٥٨- البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، للمهندس محمد عبد القادر الفقي، ص ٥٨.
 ٥٩- حمى التيفوئيد، أو الحمى التيفية هو مرض يتكون بسبب وجود جراثيم في أمعاء الإنسان ودمه وبوله، مما يسهل نقله إلى الماء...
 ٦٠- الديدان الشصية، هي ديدان تكون في الأمعاء وتحدث في المصاب بها ألما بطنيا موجعا، وهذه الديدان تنطرح مع البراز...

والأمراض المؤثرة في حياة الإنسان والحيوان والنباتات^(١١)، وتؤكد منظمة الصحة العالمية أن أربعة أخماس الأمراض تصيب الناس عن طريق الماء الملوث، وأنه بتوفير الماء النقي وحمايته من التلوث سيتم القضاء على خمسين في المائة (٥٠٪) من الأمراض الخطيرة.

فهذه الخطورة الناتجة عن تلوث المياه، وإن لم تكن معروفة بهذه الدقة على عهد النبوة، فإن النبي ﷺ نهى عن التبول في الماء الراكد، وعن الاستحمام فيه مباشرة، وعن كل ما من شأنه أن ينجس الماء لتجنب الأضرار الناجمة عن التبول، مما كان معروفا في زمن النبوة، وقد كشف العلم الحديث عن دليل من دلائل النبوة، ووجه من أوجه المعجزات النبوية... وبالإضافة إلى النهي عن التبول، فقد نهى النبي ﷺ المستيقظ من النوم عن غسل اليدين في الإناء مباشرة، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده»^(١٢). وهو نهى صريح عن مباشرة الإناء، تفاديا لما قد تتسبب فيه اليد من تنجيس للماء، ولما قد يترتب على ذلك من أضرار خطيرة^(١٣)؛ ومن مظاهر هذا الاحتراز أيضا، تشديده عليه

٦١- عن كيفية تكوّن مرض البلهارسيا مثلا، فيقول الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحسيني: «وأما مرض البلهارسيا: (أو داء المنشقات)، فهو مرض يتصف بالتهاب في المثانة، أو التهاب في القلون، بحيث تنطرح بيوض الطفيلي مع البول في النوع الأول، ومع البراز في النوع الثاني، حتى إذا ما بلغت الماء، ولاسيما الماء الراكد القليل الحركة، فإنها تنفقس عن يرقة صغيرة، لا تلبث أن تدخل أحد أنواع الحلزون أو ذوات القواقع حيث تتخلق فيه خلقا بعد خلق، حتى تتحول إلى يرقة ذات ذنب، تدعى الذنابية، وهذه الذنائب تسبح في الماء، حتى تصادف إنسانا يغتسل في الماء أو يسبح فيه، أو يغسل فيه ثيابه، أو يشرب منه، أو يخوض في ماء الري، فإذا ذاك تخترق بشرة الجلد، بأن تدرس نهايتها الأمامية في الجلد وتستغني عن ذيلها، وفي غضون أربع وعشرين ساعة، تكون الذنائب قد وصلت إلى الدم، فتجول في الدوران الدموي، ثم ينتهي بها المطاف إلى داخل الكبد، حيث تكبر وتبلغ وتتراوح، ثم تهجر إلى جدران المثانة أو الأمعاء لتبيض»، ينظر: كتاب الماء والإصحاح في الإسلام، ص ٦.

٦٢- أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ٧٢، كتاب الوضوء، باب الاستجمار وترا، حديث رقم ١٦٠، ومسلم في صحيحه ١ / ٢٣٣، كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإناء قبل غسلها ثلاثا، حديث رقم ٢٧٨، ومالك في موطئه ١ / ٢١، كتاب الطهارة، باب وضوء النائم إذا قام إلى الصلاة، حديث رقم ٣٧.

٦٣- فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١ / ٢٦٥.

الصلاة والسلام في الأمر بالتخلص من الماء الذي شرب منه الكلب، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه، ثم ليغسله سبع مرات»^(٦٤).

فهذه جملة من التوجيهات النبوية الشريفة لحماية الماء من التلوث، وهي توجيهات واقعية إذ هي في مقدور كل أحد، وهي توجيهات تتغىي الحرص على عدم تعطيل وظيفة الماء الحقيقية من حيث هو عنصر نقي مفيد لضمان استمرارية حياة المخلوقات... وهذا الاحتراز الذي دعت إليه السنة الشريفة في وقت مبكر من تاريخ البشرية، لم تنتبه إليه القوانين الوضعية إلا في القرون المتأخرة، حيث انشغلت البشرية باستصدار قوانين تحذر من إفساد المياه بإلقاء الفضلات المنزلية والصناعية في البحار والمجاري المائية، وبصب المياه المستعملة استعمالاً منزلياً أو صناعياً في المجاري، من غير أن تخضع للتنقية الكاملة، رغم حملتها الملوثة، وبالتنبيه إلى خطورة التصريفات الصناعية السائلة، وغيرها من الملوثات المرئية وغير المرئية، والتي تتسبب في تلوث الماء بالمواد العضوية، والمواد الكيميائية، والمكروبات الضارة بالأحماض والقلويات والأصبغ والمركبات الهيدروكربونية والأملاح السامة والدهون والبكتيريا... فقد جاء في وثيقة إنجليزية - ترجع إلى بداية القرن السابع عشر للميلاد (١٦١٢ م) - تُقنن لحماية النهر الجديد من التلوث - بصفته أول قناة مائية بُنيت لتزويد لندن بالماء - ومما جاء فيها: «إننا نصدر هذا الأمر إلى حلفائنا وورثتنا، فنحظر على أي شخص منهم، أن يلقي أو يضع في هذا النهر المسمى بالنهر الجديد أي نوع من القاذورات، أو القمامة، أو الطين، أو الحجارة، أو الكلاب، أو القطط، أو الماشية، أو أي شيء قذر، أو غير صحي، أو أن يغسل، أو ينظف الملابس، أو الأصواف، أو أي شيء آخر في هذا النهر... كما يحظر

٦٤- أخرجه البخاري في صحيحه ٧٥١، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان... حديث رقم ١٧٠، ومسلم في صحيحه ٢٣٤١، كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، حديث رقم ٢٧٩، ومالك في موطئه ٣٤١، كتاب الطهارة، باب جامع الوضوء، حديث رقم ٦٥.

على أي شخص أن يتخذ منه مغسلا، أو يلقي فيه بمواد مصبوغة، أو بحصان ميت، أو يدفع، أو يقذف بأي شيء كهذا في النهر»^(٦٥).

المبحث الثاني: التوجيهات النبوية الشريفة لتقوية المجال الأخضر والاعتناء به:

يعد المجال الأخضر جزءا مهما من أجزاء الطبيعة الحية، وهو الجزء الذي يضمن استمرار حياة الإنسان والحيوان وسلامتها، مصداقا لقول الله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٦٥﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٦٦﴾﴾. فقله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾، إشارة واضحة إلى أدوار المجال الأخضر: ومنها الدور الغذائي، بما فيه من ألوان الأطعمة والأشربة... والدور الصحي بما فيه من الأدوية الطبيعية والمصطنعة... والدور الرعوي بما فيه من حشائش يابسة وخضراء... والدور الجمالي بما يحققه من متعة بصرية... هذا فضلا عن أدواره المناخية والهوائية وغيرها، بحيث لا يمكن تصور الحياة من دون الطبيعة، أو الأشجار، أو الهواء النقي، أو ضوء الشمس... هذا في الأراضي الفلاحية، والضيعات المزروعة، ويزداد مسيس الحاجة إلى هذه العناصر الطبيعية إذا تعلق الأمر بالمناطق العمرانية، بحيث كلما تقوت هذه العناصر، وكانت هي المسيطرة، تحقق مستوى عال من البيئة الصحية داخل المدن والمناطق المعمرة بالبناء، والمأهولة بالسكان^(٦٧). لهذه الخدمات البيئية وغيرها، جاءت سنة رسول الله ﷺ طافحة بالنصوص الداعية إلى الاعتناء بالمجال الأخضر من حيث إيجاده ابتداء، والعمل على إبقائه واستمرار حياته، ومن هذه التوجيهات ما يأتي:

٦٥- ينظر النص الكامل لهذه الوثيقة في كتاب: الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، للأستاذ محمد بن عبد العزيز ٢ / ١٩٥.

٦٦- سورة طه / ٥٣-٥٤.

٦٧- العمارة الإسلامية والبيئة، للدكتور المهندس يحيى وزيري، ص ٢٠٨.

المطلب الأول: الترغيب في إحياء الأرض الميتة:

الأرض الميتة أو الأرض الموات، هي الأرض الخراب التي لم تعمر قط، أو عمّرت قديما ثم خُربَت. وقد وردت أحاديث كثيرة ترغّب المكلفين في إحياء الأرض الموات، ومنها مثلا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أحيى أرضا ميتة، فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة»^(٦٨)؛ ولم يقتصر الأمر على الترغيب المقترن بالأجر والثواب، وإنما أكدت السنة النبوية الشريفة تملك كل من اجتهد لإحياء الأرض الموات، إذا لم يثبت تقدم ملك لأحد عليها، وبما يؤكد ذلك حديث هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أحيى أرضا ميتة فهي له»^(٦٩)، وفي رواية: «من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق»^(٧٠)، وإحياء الأرض إنما يكون بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء، أو بها جميعا، إذ بعد أن كانت هذه الأرض في حكم فاقد الحياة، وبعد أن تعطلت وظيفتها الطبيعية صارت بمباشرة العمل فيها مخضرة، منتجة تنبت من كل زوج بهيج، لينتفع منها الإنسان والحيوان وكل الكائنات الحية..^(٧١)

غير أن الأمر لا يتعلق بالأرض الموات فحسب، بل بعموم الأرض التي لا يعذر أحد بتعطيل وظيفتها البيئية أو الإسهام في ذلك، فعن الصحابة الكرام جابر وأبي هريرة ورافع رضي الله عنهم أجمعين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كانت له أرض

٦٨- أخرجه ابن حبان في صحيحه ١١/٦١٣، كتاب إحياء الموات، ذكر كتب الله عز وجل الأجر لمحيي الموات من أرض الله جل وعلا، حديث رقم ٥٢٠٢، وأخرجه أحمد في مسنده ٣/٣٢٦، حديث رقم ١٤٥٤٠، والبيهقي في الكبرى ٦/١٤٨، كتاب إحياء الموات، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، حديث رقم ١١٥٩٤. وهو حديث صحيح.

٦٩- أخرجه مالك في موطنه، كتاب الأفضية، باب القضاء في عمارة الموات، حديث رقم ١٤٢٤؛ قال مالك: «والعرق الظالم، كل ما احتفر أو أخذ أو غرس بغير حق»، وقال: «وعلى ذلك الأمر عندنا»؛ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١١/٦١٦، كتاب ذكر الخير الدال أن الذمي إذا أحيى أرضا ميتة لم تكن له، حديث رقم ٥٢٠٥، وأخرجه الترمذي في سننه ٦٦٢٣، كتاب الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما ذكر في إحياء أرض الموات، حديث رقم ١٣٧٨، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب»

٧٠- أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٨٢٣، كتاب المزارعة، باب من أعمر أرضا مواتا...، حديث رقم ٢٢١٠.
٧١- ينظر: كتاب فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥/١٩، وكتاب فيض القدير للمناوي ٦/٤٠.

فليزرعها، أو ليمنحها أخاه فإن أبي فليمسك أرضه»^(٧٢).

فالسنة الشريفة دعت إلى إحياء الأرض الموات بتهيئتها للإنتاج، وإعدادها للانتفاع بها، وبمفهوم المخالفة، فإن في هذه الدعوة تحذيرا واضحا من الإسهام في قتل الأرض بإلقاء النفايات الناجمة عن الأنشطة البشرية المتعددة في مجالات التصنيع والزراعة والتعدين والخدمات والسياحة، وما يرتبط بهذه الأنشطة أو ينتج عنها من الفضلات الصلبة، والنفايات، ومبيدات الحشرات، والإفراط في استعمال الأسمدة الكيماوية... فكل ذلك يؤثر في سلامة التربة الزراعية وصحتها.

المطلب الثاني: الترغيب في الغرس عموما:

وردت في السنة النبوية الشريفة نصوص كثيرة في بيان فضل الغرس والزرع، وفي الحض على عمارة الأرض بالزراعة والتشجير، ومما ثبت عن النبي ﷺ في ذلك، حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ينميه «ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة. ولا يرزؤه أحد إلا كانت له صدقة»^(٧٣)، وفي الباب رواية بلفظ «إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة»^(٧٤)، وعن جابر أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أم مبشر الأنصارية في نخل لها، فقال لها عليه الصلاة والسلام: من غرس هذا النخل؟ أم مسلم أم كافر؟ فقالت: بل مسلم. فقال: «لا

٧٢- أخرجه البخاري في صحيحه ٢ / ٨٢٥، كتاب المزارعة، باب ما كان أصحاب النبي ﷺ يواسي بعضهم بعضا في الزراعة والتمرة، حديث رقم ٢٢١٥، وأخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١١٧٦، كتاب البيوع، باب كراء الأرض، حديث رقم ١٥٣٦.

٧٣- أخرجه البخاري في صحيحه ٢ / ٨١٧، (عن أنس بن مالك)، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، حديث رقم ٢٣٢٠، وأخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١١٨٨، كتاب المساقاة، فضل الغرس والزرع، حديث رقم ١٥٥٢، واللفظ لمسلم.

وفي بيان معنى قوله ﷺ: «ولا يرزؤه أحد»، يقول أبو العباس القرطبي: «أي لا يتقصه. يقال: مارزأته زبالا، أي ما نقصته. والزبال: ما تحملته النملة في فيها»؛ ينظر: كتاب المفهم لما أشكل من كتاب مسلم ٤ / ٤٢٢.

٧٤- أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١١٨٩، كتاب المساقاة، فضل الغرس والزرع، حديث رقم ١٥٥٢

يغرس مسلم غرسا، ولا يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان، ولا دابة، ولا شيء، إلا كانت له صدقة»^(٧٥)؛ وفي رواية عن جابر بن عبد الله أيضاً، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يغرس رجل مسلم غرسا، ولا زرعاً، فيأكل منه سبع، أو طائر، أو شيء، إلا كان له فيه أجر»^(٧٦). وعند الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»^(٧٧).

فانطلاقاً من هذه النصوص الحديثية الشريفة، يتبين أن الغارس مأجور في كل الأحوال: فهو مأجور لأنه قام بجهد عضلي أثناء الغرس، وهو مأجور لأنه ساهم في تعمير الأرض، وهو مأجور لأنه نفع بغرسه جميع المخلوقات من الأناسي والطيور والبهائم والحشرات... فهو مأجور ما دام الغرس مأكولاً منه ومنفعة به، سواء أكان الغارس رجلاً أم امرأة، حراً أم عبداً، مطيعاً أم عاصياً، مكلفاً أو غير مكلف، وسواء تصدق بالمأكول أم لم يتصدق، وسواء أبقى الغرس في ملك غارسه أم صار ملكاً لغيره، وسواء غرس لنفسه أم غرس لعياله ونفقته، أم غرس لغيره، فالإنسان في كل الأحوال مُثاب على غرسه مأجور عليه، وإن لم ينو ثوابه، بل إن حصول الثواب لا يختص بمن يباشر الغراس، وإنما يشمل من استأجر لعمل ذلك مقابل أجر دنيوي معين^(٧٨)؛ فصاحب الغرس إذن مأجور عن صنيعه إذا صحت نيته، فيجري له أجر الغرس وثوابه في حياته، ويجري له الأجر والثواب بعد مماته، وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علم علماً، أو كرى نهراً»^(٧٩)، أو حفر بئراً، أو غرس

٧٥- أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١١٨٩، كتاب المساقاة، فضل الغرس والزرع، حديث رقم ١٥٥٢.

٧٦- ينظر: صحيح مسلم ٣/ ١١٨٩، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، حديث رقم ١٥٥٢.

٧٧- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، وقوله تعالى: ﴿أفأنتم ما تحرثون أنتم تزرعون أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾، حديث رقم ٢١٩٥.

٧٨- ينظر: كتاب فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥/ ٤، وكتاب فيض القدير للمناوي ٥/ ٤٨٠.

٧٩- يقال: كرى نهراً، إذا حفره وأخرج طينه.

نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته»^(٨٠).
وتعليقا على النصوص الحديثية السالفة الذكر يقول الإمام النووي: «في هذه الأحاديث فضيلة الغرس، وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر مادام الغراس والزرع، وما تولد منه إلى يوم القيامة»^(٨١)، وهذا في الحقيقة يرغب الإنسان في التكاثر من الغرس للانتفاع به حيا وميتا. ويروى أن رجلا مر بأبي الدرداء رضي الله عنه، وهو يغرس جوزة، فقال له: أتغرس هذه، وأنت شيخ كبير، وهذه لا تطعم إلا في كذا وكذا عاما؟ فقال: ما عليّ أن يأكل منها غيري، ويكون لي أجرها»^(٨٢).

واستحضارا لما سبق ذكره، أكد العلماء حكم جواز اتخاذ الضيعة، والقيام عليها إذا كان ذلك في حدود المعقول، وبنية الانتفاع بها، ونفع المسلمين بفوائدها في العاجل والآجل، وتحصيل ثوابها في الدنيا والآخرة...

وانطلاقا منه يظهر أن السنة الشريفة لها عناية عظيمة بمجال الغرس، أو قل بالمجال الأخضر، وهي عناية تهدف إلى إعداد المحيط وتنميته وتأهيله لأداء أدواره البيئية المختلفة في العاجل والآجل، وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»^(٨٣)، ومعنى الحديث، أنه إذا قامت الساعة، وفي يد أحد

٨٠- أورده الهيتمي في مجمع الزوائد ١ / ١٦٧، ثم قال: «رواه البزار، وفيه محمد بن عبيد الله العزمي، وهو ضعيف». قال المنذري: «رواه البزار وأبو نعيم في الحلية، وقال: «هذا حديث غريب من حديث قتادة، تفرد به أبو نعيم عن العزمي»، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٣ / ٢٤٨، ثم قال: «محمد بن عبد الله العزمي ضعيف، غير أنه قد تقدم ما يشهد لبعضه والله أعلم، وهما - (يعني هذا الحديث والحديث الذي ذكره قبله) - لا يخالفان الحديث الصحيح، فقد قال فيه: «إلا من صدقة جارية»، وهو يجمع ما جاء به من الزيادة». قال الحافظ عبد العظيم المنذري: «وقد رواه ابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه بنحوه من حديث أبي هريرة»؛ والحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحديث الحسن.

٨١- شرح النووي على مسلم ١٠ / ٢١٣؛ وبناء على أحاديث هذا الباب رجح قول من قال من أهل العلم إن أطيب المكاسب وأفضلها الزراعة.

٨٢- ينظر: فيض القدير ٥ / ٤٨٠.

٨٣- أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١ / ١٦٨، باب التسكين، حديث رقم ٤٧٩، وأخرجه أحمد في المسند ٣ / ١٩١، حديث رقم ١٣٠٠٤؛ وعلق عليه أحمد شاكر بقوله: «إسناده صحيح»، وقال الهيتمي عن حديث أنس: «رواه البزار، ورجاله أثبات ثقات»، ينظر: مجمع الزوائد ٤ / ٦٣.

من الناس، من المكلفين وغيرهم، فسيلة - أي نخلة صغيرة - فإن استطاع أن لا يقوم من محله الذي هو جالس فيه حتى يغرسها فليفعل، ولا شك أن لهذا الصنيع حكما جليلة، منها ما يمكن أن يدرك بعد التأمل والتدبر، ومنها ما استأثر الله تعالى بإدراكه؛ غير أن الذي يثير الانتباه في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، ذلكم البعد البيئي الذي يقضي بضرورة الاعتناء بالمجال الأخضر حتى في أصعب الأوقات، وهو وقت قيام الساعة، أو على الأقل وقت ظهور أماراتها، وفي بيان ذلك يقول المناوي - رحمه الله تعالى - : «والحاصل أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار، وحفر الأنهار، لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدّها المحدود المعدود المعلوم، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع، وإن لم يبق من الدنيا إلا صباية»^(٨٤)، وإنما كان الغرس سببا من أسباب إعمار الأرض، لأن الغرس عموما يستدعي ضرورة استصلاح الأرض، وتهيئة التربة، وحفر الآبار، وشق العيون، وإعداد العدة لذلك، وفي ذلك ما فيه من مظاهر إحياء الأرض، وأداء رسالة الاستخلاف والإعمار...

وجدير بالذكر، أن ما صحّ عن رسولنا الكريم من دعوة صريحة إلى الإسهام في عملية الغرس إغناء للبيئة، لم يكن ليمر دون أن يجسد عمليا من خلال سنته الفعلية، فقد روي عن النبي ﷺ أنه أثر المشاركة في غرس النخل بيديه الشريفتين، ففي رواية عن سلمان رضي الله عنه قال: كتبت أهلي على أن أغرس لهم خمسمائة فسيلة، فإذا علقت فأنا حر، فأتيت النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: اغرس، واشترط لهم، فإذا أردت أن تغرس فأذني؛ فجاء - يعني النبي ﷺ - فجعل يغرس إلا واحدة غرستها بيدي، فعلقت جميعا إلا الواحدة»^(٨٥).

٨٤- فيض القدير ٣ / ٣٠.

٨٥- أخرجه الحاكم في مستدرکه ٢ / ٢٣٧، باب من قال: لا يعتق المكاتب حتى يكون في الكتابة، فإذا أدت هذا أو يصفه، فأنت حر، حديث رقم ٢٨٦٢، ثم قال: «هذا حديث صحيح، من حديث عاصم بن سليمان الأحول على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص؛ وأخرجه أحمد في المسند ٥ / ٤٤٠، حديث رقم ٢٣٧٨١، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤ / ٢٤٦، ثم قال: «رواه أحمد، وفيه علي بن زيد، وفيه ضعف، وحديثه حسن، وبقيّة رجاله رجال الصحيح، ولهذا الحديث طرق مطولة في مناقبه، وغير ذلك».

المطلب الثالث: الترهيب من إتلاف الغرس:

وردت في السنة الشريفة أحاديث تنهى عن الإساءة إلى الأشجار خصوصا والغرس عموما، ومن ذلك: حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار»^(٨٦)؛ فقد سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: «هذا الحديث مختصر، يعني من قطع سدرة في فلاة، يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها، صوب الله رأسه في النار»^(٨٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة، قام في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، فإنها لا تحل لأحد كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لا تحل لأحد بعدي، فلا يُتفرَّ صيدها، ولا يختلى شوكتها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يفدى، وإما أن يقيد، فقال العباس: إلا الإذخر، فإننا نجعله لقبورنا، وبيوتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إلا الإذخر»^(٨٨)، وفي رواية «ولا يُعصَّد شجرها»^(٨٩)، وفي حديث آخر عند الإمام مسلم عن عامر بن

٨٦- أخرجه البيهقي في الكبرى ١٣٩ / ٦، باب ما جاء في قطع السدرة ١١٥٣٨، وأبو داود في سننه ٤ / ٣٦١، باب في قطع السدر، حديث رقم ٥٢٣٩، والنسائي في الكبرى ١٨٢ / ٥، تأويل قوله جل ثناؤه: «ما قطعتم من لينة» حديث رقم ٨٦١١؛ وأخرجه الطبراني في الأوسط ٣ / ٥٠ تحت رقم ٢٤٤١، وقال: «ثم لا يروى هذا الحديث عن عبد الله بن حبشي إلا بهذا الإسناد، تفرد به ابن جريج»^(١٠١)، وعلق عليه الهيثمي مجمع الزوائد ٣ / ٢٨٤، ٨ / ١١٥ بقوله: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

٨٧- ينظر: سنن أبي داود ٤ / ٣٦١.

٨٨- أخرجه البخاري في صحيحه ٢ / ٨٥٧، كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، حديث رقم ٢٣٠٢، وأخرجه مسلم في صحيحه ٢ / ٩٨٨، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاتها، وشجرها ولقطةها، حديث رقم ١٣٥٥.

= ومعنى: لا ينفر صيدها أي لا يزعج بصيد أو غيره؛ ولا يختلى شوكتها، أي لا يحتش حشيشها؛ والساقطة الأشياء التي لا يعرف لها مالك؛ والإذخرُ بكسر الهمزة: حشيشة طيبة الرائحة تُسَقَفُ بها البيوت فوق الخشب.

٨٩- أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ٤٥٢، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر، حديث رقم ١٢٨٤.

= ومعنى: ولا يعصد شجرها، أي لا يقطع.

سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع
عضاها، أو يقتل صيدها»^(٩٠).

فهذه جملة من الروايات الحديثية تحذر من قطع الأشجار المنتفع بها، سواء
أكانت مثمرة أم لم تكن كذلك، بحيث يكفي أن تتحقق منفعتها ولو بغلبة الظن
لترتفع عنها أيدي العابثين، إلا أن يكون القطع لضرورة راجحة محققة كما بينت
ذلك الروايات السالفة... ذلك أن منفعة الغرس لا تنحصر في إعطاء الثمار
فحسب، بل إن لها أدوارا مناخية صحية، وأدوارا بيئية مفيدة في حماية التربة،
بحيث إن الإسهام في إتلاف الأشجار والمزروعات، يعني القضاء على الغطاء
الأخضر، والقضاء عليه يعني بضرورة البرهان الإسهام الفعلي في تيسير عملية
التصحّر، وانتقال الرمال لتمتد المناطق الصحراوية على نطاق واسع، ومن ثمة
الإسهام المباشر في تدمير البيئة الطبيعية.

هكذا تحذر سنة المصطفى ﷺ من المساس بحقوق الأرض في إطار برنامج
تعليمي هادف لحماية البيئة الطبيعية من التدهور والفساد، وهو برنامج يدل على
تميز مدرسة النبوة بتوجيهات يغلب عليها البعد الروحي، وقد تخرج من مدرسة
النبوة هذه، علماء ربانيون أجلاء تناقلوا وصايا رسول الله ﷺ وتوجيهاته، ومنهم
مثلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي أوصى لقائد جيشه إلى الشام بقوله: وإني
موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا،
ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة، ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا، ولا
تفرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن^(٩١). بهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو ما نفذ

٩٠- أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ٩٩٢، كتاب الحج، باب فضل المدينة، حديث رقم ١٣٦٣.
= واللابة، الحرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها. والعِضُّ، ما صغر من شجر
الشوك.

٩١- أخرجه مالك في موطنه ٢/ ٤٤٧، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، حديث
رقم ٩٦٥.

قائده في الحرب ، وبه عمل المسلمون في زمانه ومن بعده ... إذ في أسوأ الأحوال - وهي حال الحرب - ينبغي أن تراعى حرمة الأشجار، فلا تقطع عبثاً، ولا تضيع الثمار انتقاماً، ولا يخرب العامر تنكيلاً بالعدو إلا لضرورة محققة..^(٩٢). فأين هذا مما نراه في أوطاننا الآمنة المطمئنة من مجازر بيئية منظمة تأتي على الأخضر واليابس من غاباتنا، وحقولنا، وأغراسنا...

المبحث الثالث: التوجيهات النبوية الشريفة لضمان سلامة المحيط من التلوث:

لقد كان من نتائج حرص النبي ﷺ على تعليم الصحابة ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، صقلُ أذهان أصحابه، وإغناء ملكاتهم العقلية، وهذا ما يشهد به خرَّجوا هذه المدرسة بأقوالهم وأفعالهم وصنيع كلِّ منهم؛ فمن مظاهر تعليم النبي ﷺ لأُمَّته، توجيهها التوجيه السديد في مختلف مجالات الحياة، ومن ذلك مثلاً توجيهاته عليه الصلاة والسلام الواقعية والعملية لضمان سلامة المحيط من التلوث، وهو مما سأيّنه من خلال الآتي:

المطلب الأول: التوجيهات النبوية الشريفة لتطهير الأماكن العمومية وتطهيرها:

لقد جاءت السنة النبوية الشريفة طافحة بالنصوص الداعية إلى تطهير الأماكن العمومية المستعملة للعبادة أو للراحة أو للنزهة، وذلك حماية للبيئة الهوائية من التلوث، ومما ورد فيها ما يأتي:

١،١ الأمر بتطهير المساجد:

لقد ورد الأمر بتطهير المساجد، لأنها تعد بيوتاً مفتوحة يتردد عليها عامة

٩٢- ينظر: كتاب سنن الترمذي ٤/ ١٢٢.

الناس، وخاصتهم في كل حين وأن، إما لأداء الصلاة، أو للذكر، أو لطلب العلم النافع، وهذه المهمات تستدعي ضرورة تعظيم هذه البيوت، وذلك بصيانتها، وتنزيهها عن الأنجاس والأقذار، وتطهيرها من كل ما من شأنه أن يفتن المصلين، أو يشغل حواس الخاشعين، وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب»^(٩٣)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقيم المسجد، ففقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها بعد أيام، فقيل له: إنها ماتت. فقال: «أفلا كنتم أذنتموني» - قال الراوي: فكأنهم صغروا أمرها - فقال عليه الصلاة والسلام: «دلوني على قبرها»، فدلوه، فصلى عليها^(٩٤)؛ وإنما فعل ذلك ليكسب المرأة السوداء خادمة المسجد قدرا عظيما، مكافأة لها على صنيعها ذلك، وهو صنيع يرمي إلى تنزيه المساجد عن النجاسات، وصيانتها من الأذى، باعتبارها أماكن عمومية لا يمكن لأحد من المكلفين أن يستغني عنها كائنا من كان... ليس هذا فحسب، بل إن الشرع الحنيف أمر المترددين على بيوت الله بضرورة الاعتناء بالطهارة والتزین واستعمال الطيب، فقال تعالى ﴿يَبْنِيْٓ أَدَمَ حُدُوْدَ زَيْنَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٩٥)؛ وفي مقابل هذا الأمر، ورد النهي الصريح عن الإدخال إلى المسجد كل ما من شأنه أن يؤذي الغير بنجسه، أو رائحته، أو سوء منظره، ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: ما حملكم على إلقاءكم نعالكم؟ قالوا رأيناك ألقى نعليك فألقينا نعالنا. فقال

٩٣- أخرجه الترمذي في سننه ٤٨٩ / ٢، باب ما ذكر في تطيب المساجد، حديث رقم ٥٩٤، وأبو داود في سننه ١ / ١٢٤، باب اتخاذ المساجد في الدور، حديث رقم ٤٥٥، وأحمد في المسند ٦ / ٢٧٩، حديث رقم ٢٦٤٢٩؛ وصححه ابن القطان الفاسي في كتابه بيان الوهم والإيهام ٥ / ١٣٧، حديث رقم ٢٣٧٨.
 ٩٤- أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ١٧٦، كتاب أبواب المسجد، باب الخدم للمسجد، حديث رقم ٤٤٦، ومسلم في صحيحه ٢ / ٦٥٩، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر.
 ٩٥- سورة الأعراف / ٣١.

رسول الله ﷺ إن جبريل ﷺ أتاني فأخبرني أن فيهما قدرا أو قال: أذى، وقال: إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر، فإن رأى في نعليه قدرا أو أذى فليمسحه بالأرض، وليصل فيهما»^(٩٦)؛ مثلما نهى النبي ﷺ أن يأتي المسجد من أكل الثوم والبصل ولاسيما من تفوح منه رائحتهما، وعلل ذلك بما يلحقه آكلهما من الأذى بالمصلين والملائكة؛ وفي خطبة بليغة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء قوله: «إنكم أيها الناس، تأكلون شجرتين، ولا أراهما إلا خبيثتين: هذا البصل والثوم، لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من رجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخا»^(٩٧).

فرغم أن ريح أكل الثوم والبصل - وهي مجرد تنفس إنساني رديء - لا يشكل ما يترتب عنها من إيذاء تهديدا لحياة المخلوقات، إلا ما يصدر منه من ريح مزعجة تزكم أنوف جالسيه، ومع ذلك شدد النبي ﷺ على أكل الثوم والبصل لعله الإزعاج، ويلحق بأكل الثوم والبصل كل من تفوح منه رائحة مؤذية: كروائح التبغ المحروق النتنة، وروائح الصناعة الكريهة، والعاهات المؤذية، وغيرها من المؤذيات التي يتأذى به العباد، مما يشترك في العلة نفسها، ففي حديث عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: كان الناس يتتابون الجمعة من منازلهم من العوالي، فيأتون في العباء، ويصيبهم الغبار، فتخرج منهم الريح، فأتى رسول الله ﷺ

٩٦- أدي هذا الحديث بروايات عدة وقد أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١ / ٣٨٤، باب ذكر الدليل على أن المصلي إذا أصاب ثوبه نجاسة، وهو في الصلاة لا يعلم بها، لم تفسد صلاته، حديث رقم ٧٨٦، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٥ / ٥٦٠، ذكر الأمر لمن أتى المسجد للصلاة أن ينظر في نعليه ويمسح الأذى عنهما إن كان بهما، حديث رقم ٢١٨٥، وأخرجه الحاكم في المستدرک ١٥ / ٣٩، حديث رقم ٩٥٥، ثم قال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص؛ وعنه قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥٦٢ «رجال رجال الصحيح»؛ وأخرجه أبو داود في سننه ١ / ١٧٥، كتاب الطهارة، باب الصلاة، حديث رقم ٦٥٠؛ والبيهقي في سننه الكبرى ٢ / ٤٣١، باب طهارة الخف والنعل، حديث رقم ٤٠٤٨، والدارمي في سننه ١ / ٣٧٠، باب الصلاة في النعلين، حديث رقم ١٣٧٧، وأحمد في مسنده ٣ / ٩٢، حديث رقم ١١٨٩٥.

٩٧- أخرجه مسلم في صحيحه ١ / ٣٩٦، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي من أكل توما أو بصلا أو كراثا أو نحوهما حديث رقم ٥٦٧.

إنسان منهم وهو عندي، فقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تطهروا ليومكم هذا»^(٩٨) وفي رواية: «لو اغتسلتم يوم الجمعة»^(٩٩).

يستفاد من هذه النازلة أنه يستحب لمن قصد المسجد أن يجتنب - ما استطاع - الروائح الكريهة في بدنه وثوبه، وهو ما ينطبق أيضا عن كل من يريد مجالسة الناس، فإنه ينزل منزلة من أراد المسجد...^(١٠٠). فدل هذا على أن الإنسان إذا لم يجد إلا أن يجالس الناس بريح طيبة فليحرص، ليجدوا منه هذه الريح، وإلا فليجتنب مجالسهم حتى لا يؤذيهم بريحه الخبيثة النتنة، حتى لا ينطبق عليه ما ينطبق عليه الجليس السوء من إذاية للغير... فعن أبي موسى رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة»...^(١٠١).

بهذه التوجيهات اللطيفة يعودنا نبينا عليه الصلاة والسلام على قيم الإسهام في حماية البيئة الهوائية من التلوث، تلوث قد يبدو طبيعيا بالنظر إلى حجم خطورته، فماذا نقول عن الأنواع المختلفة للأنشطة الصناعية والاقتصادية والاجتماعية التي تلوث الهواء باستمرار وبكميات لا تطاق في أماكن العمل، وقرب الأحياء السكنية، والمؤسسات التربوية... وماذا عن الملوثات الناتجة عن احتراق الوقود العضوي، وماذا عن المخلفات الصناعية، وماذا عن الملوثات الناتجة عن حرق القمامة، أو إعادة استخدام النفايات والمخلفات الصناعية...

-
- ٩٨- أخرجه البخاري في صحيحه ٣٠٦ / ١، كتاب الجمعة، باب من أين تؤتى الجمعة، حديث رقم ٨٦٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب وجوب غسل الجمعة، حديث رقم ٨٤٧.
- ٩٩- أخرجه البخاري في صحيحه ٣٠٦ / ١، كتاب الجمعة، باب من أين تؤتى الجمعة، حديث رقم ٨٦٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب وجوب غسل الجمعة، حديث رقم ٨٤٧.
- ١٠٠- شرح النووي على مسلم ١٣٤ / ٦.
- ١٠١- أخرجه البخاري في صحيحه ٧٤١ / ٢، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، حديث رقم ١٩٩٥، وأخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٢٦ / ٤، كتاب البر والصلة والآداب، باب إستحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، حديث رقم ٢٦٢٦.

أليست هذه من الملوثات التي يزداد حجمها يوماً بعد يوم حتى أضحت تشكل تهديداً مباشراً لصحة الناس في العصر الراهن.

٢,١ التنصيص على إيجاد الساحات العمومية والأمر بتطهيرها وتطهيرها:

الساحات والساح والسوح، جمع ساحة، والساحة: الناحية، وهي: المتسع أمام الدار، وساحة الدار باحتها، والساحة فضاء يكون بين دور الحي^(١١٢)، وسواء أعلق الأمر بساحة الدار، أم بالفضاء الذي يكون بين الدور، فإن السنة النبوية الشريفة نصت على إيجاد الأفنية داخل المساكن، وتوسيع المجالات المفتوحة أو الساحات بين المباني السكنية، مثلما دعت إلى تنزيه هذه الساحات عن النفايات والقاذورات وإلى تطهيرها، وتطبيها بما يضمن راحة مستعمليها، ففي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «طيبوا ساحاتكم فإن أتنن الساحات ساحات اليهود»^(١١٣)، وفي رواية «طهروا أفنيتكم، فإن اليهود لا تطهر أفنيتها»^(١١٤)، وهذا الخطاب يدل بمنطوقه ومفهومه على أن السلامة الصحية تقتضي الحرص على إيجاد الساحات بين المباني السكنية، والعمل على حماية نظافتها، ومن ثمة فإن أمة القرآن والسنة ينبغي أن تكون أمة النظافة والطهارة، طهارة تعم جميع الأرجاء بما في ذلك الأحياء السكنية، والفضاءات التجارية، وحدائق التنزه، والشواطئ، والطرق، وغيرها، فمدينة مزروعة الشوارع بالأشجار المظلة،

١٠٢- لسان العرب ٢/ ٤٩٢، (مادة سوح).

١٠٣- ينظر: الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤٦٠، حديث رقم ٣٩٦٩، وصحيح الجامع الصغير وزيادته ٢/ ٧٣٠، حديث رقم ٣٩٤١.

١٠٤- أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٤/ ٢٣١، حديث رقم ٤٠٥٧، وذكر أن هذا الحديث لم يروه عن الزهري إلا إبراهيم، ولا عن إبراهيم إلا أبو داود، تفرد به زيد بن أكرم. قلت: زيد بن أكرم الطائي، من رجال البخاري، وثقه أبو حاتم، والنسائي، وابن حبان، والدارقطني، ومسلمة بن القاسم، وعليه، فلا يضر تفرده، وله شاهد مرسل عن سعيد بن المسيب بلفظ: إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود، أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١١١، كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة، ثم قال: حديث غريب، وخالد بن إلياس يضعف؛ وبه أخرجه البزار في مسنده ٣/ ٣٢٠، تحت رقم ١١١٤، ثم قال: «وهذا الحديث، لا نعلم يروى عن سعد، إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد»؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٨٦ عن حديث سعد: «رجال رجال الصحيح خلا شيخ البخاري»، قلت: وهو على أقل أحواله، حديث حسن.

ومزروعة الممرات بالأزهار ذات الروائح الطيبة، مدينة اجتماعية بمسطحاتها الخضراء، مدينة صحية بروائحها العطرة... وقد دلت الدراسات البيئية المعاصرة على أن تنسيق الأفنية الداخلية في المساكن والمباني العامة، والعناية بالمجال الأخضر وسط المباني السكنية إجراء وقائي فعال لتنقية الهواء من التلوث... وهو إجراء كفيل بأن يسهم في تيسير سبل التواصل السعيد بين الناس، وإيجاد التقارب الإيجابي بينهم^(١٠٥).

المطلب الثاني: التوجيهات النبوية الشريفة لصيانة الطرقات والمجالس:

١،٢ النهي عن التخلي في الطرقات والمجالس:

ثبت في السنة الشريفة أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى في أكثر من نص حديثي عن التخلي في مجالس الناس وطرقهم، وأماكن راحتهم، وكان عليه الصلاة والسلام أول من بادر إلى الامتثال في هذا الشأن، ففي حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم «كان إذا ذهب المذهب أبعد»^(١٠٦)، وفي رواية «كان إذا تبرز تباعد»^(١٠٧). بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج إلى الخلاء وأراد الحاجة انطلق بعيدا حيث لا يؤدي أحدا، وهذا الصنيع من رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعد تفسيرا عمليا لسنته القولية، إذ جاءت السنة النبوية الشريفة غنية بالنصوص التي لا تخلو من التخويف والترهيب: ترهيب يصل إلى حدّ الإخراج من رحمة الله تعالى لكل من آذى المسلمين في طرقهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا اللعانين. قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس، أو في

١٠٥- العمارة الإسلامية والبيئة للمهندس محمد عبد القادر الفقي، ص ٢١٠.

١٠٦- أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣٠١، باب التباعد للغائط في الصحاري عن الناس، حديث رقم ٥٠، وأخرجه الحاكم في المستدرک ١ / ٢٣٦، حديث رقم ٤٨٨، ثم قال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وشاهده حديث إسماعيل بن عبد الملك عن أبي الزبير»، ووافقه الذهبي في التلخيص.

١٠٧- أخرجه الدارمي في سننه ١ / ١٧٧، حديث رقم ٦٦٠، وحديث رقم ٦٦١، ينظر صحيح الجامع الصغير ٢ / ٨٦١، حديث رقم ٤٧٢٤.

ظلمهم»^(١٠٨)؛ وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»^(١٠٩)؛ وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم»^(١١٠)؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله يقول: «من سل سخيمته على طريق عامر من طرق المسلمين، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(١١١).

فعموما يبدو أن النصوص متضافرة في التحذير من الإساءة إلى طرق المسلمين، وهي الطرق المستعملة في الذهاب، والإياب، والأسفار، والرحلات، ومختلف التقلات، والنصوص أيضا متضافرة في التحذير من الإساءة إلى الظل، ولاسيما مستظل الناس الذي اتخذوه مقبلا ومناخا ينزلونه ويقعدون فيه^(١١٢). وقد نصت السنة الشريفة على لعن كل من لم يتورع عن الإساءة إلى نظافة الطرقات والمجالس، وإنما استحق اللعنة «لأن من عادة الناس لعن وشم كل متسبب في إذايتهم بنتنه واستقذاره»^(١١٣).

٢,٢ الترغيب في إزالة الأذى من الطرقات:

إذا كانت السنة الشريفة قد اعتمدت منهج الوقاية لحماية البيئة من التلوث، فإنها لم تغفل مبدأ العلاج، حتى صار علاج المشكل البيئي جزءا من الدين، ومظهرا من مظاهره، ويتضح ذلك من خلال الآتي:

١٠٨- أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٢٢٦، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال، حديث رقم ٢٦٩.

١٠٩- سبق تخريجه، وهو حديث حسن.

١١٠- أخرجه الطبراني في الكبير ٣/ ١٧٩، حديث رقم ٣٠٥٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٠٤ «إسناده حسن».

١١١- أخرجه الحاكم في مستدرکه ١/ ٢٩٦، حديث رقم ٦٦٥، ثم قال: «ومحمد بن عمرو الأنصاري ممن يجمع حديثه في البصريين، وهو عزيز الحديث جدا»، وسكت عنه الذهبي؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٠٤ «قلت: رواه الطبراني في الأوسط، وله في الصحيح: اتقوا اللعائين، وفيه محمد بن عمرو الأنصاري ضعفه يحيى بن معين، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات»...

١١٢- ينظر: كتاب الترغيب والترهيب ١/ ٨٠.

١١٣- سبل السلام للصنعاني ١/ ٧٥.

أولاً: أن الإسهام في إزالة الأذى من الطرقات علامة من علامات تمام الإيمان وكماله، ويدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون باباً، وأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(١١٤). وذكر الإمام النووي، أن الخطاب الذي يتضمنه هذا الحديث، وغيره من الأحاديث المذكورة في الباب، ظاهر في فضل إزالة الأذى عن الطريق، سواء أكان الأذى شجرة تؤذي، أم غصن شوك، أم حجراً يعثر به، أم قدراً، أم جيفة، أم غير ذلك^(١١٥).

ثانياً: أن الإسهام في إزالة الأذى من الطرقات خصلة عظيمة من الخصال المحمودة، يؤكد ذلك ويؤيده حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أربعون خصلة: أعلاهن منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة»، قال حسان: فعددنا ما دون منيحة العنز من رد السلام، وتشميت العاطس، وإمطة الأذى عن الطريق، ونحوه فما استطعنا أن نبلغ خمس عشرة خصلة»^(١١٦).

ثالثاً: أن الإسهام في إزالة الأذى من الطرقات من محاسن الأعمال: يشهد لذلك حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «عرضت علي أعمال أمتي: حسنها، وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن»^(١١٧).

رابعاً: أن الإسهام في إزالة الأذى من الطرقات صنيع يستحق جزاءً كجزاء الصدقة، وأن إمطة الأذى عمل جليل ينتفع به في العاجل والأجل، كما ينتفع

١١٤- أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٦٣، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وفضلها وأدناها، حديث رقم ٣٥.

١١٥- شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٧١.

١١٦- أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٩٢٧، كتاب الهبة وفضلها، باب فضل المنيحة، حديث رقم ٢٤٨٨ = ومعنى منيحة العنز، أي عطية لبن الشاة.

١١٧- أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٣٩٠، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد، حديث رقم ٥٥٣.

بالصدقة الجارية آجلا وعاجلا، فعن أبي برزة الأسلمي قال: قلت يا رسول الله: مُرني بعمل أعمله، فقال عليه الصلاة والسلام: «أمت الأذى عن الطريق، فإنه لك صدقة»^(١١٨)، وفي رواية أخرى قال: قلت: يا نبي الله علمني شيئا أنتفع به. قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»^(١١٩)، وفي رواية أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تسبك في وجه أخيك، لك صدقة، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإمطتك الحجر، والشوكة، والعظم عن الطريق، لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك، لك صدقة»^(١٢٠).

وتأملا في هذه الأحاديث الشريفة يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : «ومعنى كون الإمطة صدقة، أنه تسبب إلى سلامة من يمر به من الأذى، فكأنه تصدق عليه بذلك فحصل له أجر الصدقة»^(١٢١)؛ ليس هذا فحسب، بل إن سنة رسول الله ﷺ بينت أن المحافظة على نظافة الطرق عمل يعد بمثابة زكاة للأبدان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ سُلَامَى من الناس عليه صدقة، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس، قال: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة. - قال: - والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(١٢٢)، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على

١١٨- أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١ / ٨٩، وأحمد في المسند ٤ / ٤٢٣، وهو حديث صحيح.
١١٩- أخرجه مسلم في صحيحه ١٤ / ٢٠٢، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، حديث رقم ٢٦١٨.

١٢٠- أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١ / ٣٠٧، باب من هدى زقاق أو طريقا، حديث رقم ٨٩١، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٢ / ٢٨٧، باب ذكر بيان الصدقة للمرء بإرشاد الضال البصير، حديث رقم ٥٢٩، وأخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٣٣٩، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صنائع المعروف، ثم قال: «وفي الباب عن ابن مسعود وجابر وحذيفة وعائشة وأبي هريرة»، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب».

١٢١- فتح الباري ٥ / ١١٤.

١٢٢- أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٠٥٩، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، حديث رقم ٢٧٣٤، وأيضا باب من أخذ بالركاب ونحوه، حديث رقم ٢٨٢٧، وأخرجه مسلم في صحيحه ٢ / ٦٩٩، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ١٠٠٩.

ستين وثلاث مائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجرا عن طريق الناس، أو شوكة، أو عظما عن طريق الناس، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامي فإنه يمشي - أو قال: يمسي - يومئذ، وقد زحزح نفسه عن النار»^(١٢٣).

وقد دلت روايات حديثية كثيرة على أن من أمار الأذى عن طريق المسلمين ظفر برضا رب العالمين، ففي حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له، فغفر له»^(١٢٤). واستنباطا من ألفاظ هذا الحديث، يقول الحافظ ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه، أن نزع الأذى من الطرق من أعمال البر، وأن أعمال البر تكفر السيئات، وتوجب الغفران والحسنات، ولا ينبغي للعاقل المؤمن أن يحتقر شيئا من أعمال البر، فرمما غفر له بأقلها، ألا ترى إلى ما في هذا الحديث من أن الله شكر له إذ نزع غصن الشوك عن الطريق فغفر له ذنوبه»^(١٢٥)؛ فتأخير الشوك على طريق المسلمين عمل بسيط لا يستدعي جهدا كبيرا، ومع ذلك فقد نتج عنه أجر عظيم، وفي هذا دليل على «أن قليل الخير يحصل به كثير الأجر»^(١٢٦)، وأن حماية المحيط، وإن كانت - من حيث ما يبذل فيها من الجهد - عملا حقيرا، فإنه من حيث ما يترتب عليه من الخير، يعد عملا جليلا يستحق جزاء كبيرا، ولا أدل على ذلك أنه يستوجب رضا الله عز وجل، وهو معنى من معاني شكر الله تعالى للعبد إذ «الله جل وعلا أجل من أن يشكر عبده، إذ هو البادئ بالإحسان إليهم، والمتفضل بإتمامها عليهم، ولكن رضا الله جل وعلا

١٢٣- أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ٦٩٨، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، تحت رقم ١٠٠٧.

١٢٤- أخرجه البخاري في صحيحه، باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به، حديث رقم ٢٣٤٠؛ ومسلم في صحيحه، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، حديث رقم ١٩١٤.

١٢٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢٢/ ١٢.

١٢٦- فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥/ ١١٨.

بعمل العبد عنه يكون شكرا من الله جل وعلا على ذلك الفعل»^(١٢٧). وقد دلت روايات حديثة كثيرة على أن من أطاق الأذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة، ومن تُقبّلت له حسنة دخل الجنة، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن شجرة كانت تؤذي الناس فأتاها رجل فعزلها عن طريقهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت يتقلب في ظلها في الجنة»^(١٢٨)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مرّ رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحسّن هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»، وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال «لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»^(١٢٩). ومعنى هذا النص أن النبي ﷺ رأى رجلا يتنعم في الجنة بملاذها، ويتفنن في نعيمها مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، بسبب سعيه إلى ضمان سلامة المارة بالليل والنهار... وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون على أن ينتفعوا بمثل هذه المكرمات، إذ يذكر عن الصحابي الجليل عائذ بن عمرو المزني أنه كان لا يخرج من داره ماء، لا من مطر، ولا من غيره، فسئل عن ذلك، فقال: «لأن أصب طستي في حجرتي، أحب إليّ من أن أصب في طريق المسلمين»^(١٣٠)، وبكفه الأذى عن المسلمين فقد رئي له أنه من أهل الجنة، إذ روى البيهقي رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا رأى في النوم قائلا يقول له: بشّر عائذ بن عمرو المزني بالجنة، فلم يفعل، فأتاه في الثانية فلم يفعل، فأتاه في الثالثة فلم يفعل، فأتاه في الرابعة، فقال له: لِمَ

١٢٧ ينظر: صحيح ابن حبان ٢/ ٢٩٤.

١٢٨ - أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ١٥٤، حديث رقم ١٣٤٣٤، و٣/ ٢٣٠، حديث رقم ١٢٢٨٥، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣٥ «وفيه أبو هلال، وهو ثقة، وفيه كلام»، وهو في كل الأحوال يتقوى بالحديث الذي يليه.

١٢٩ - أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٢١، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، حديث رقم ١٩١٤.

١٣٠ - كتاب الزهد لابن أبي عاصم ١/ ١٥٢. وينظر أيضا: كتاب شعب الإيمان للبيهقي ٧/ ٥١٩، وكتاب تهذيب التهذيب لابن حجر ٥/ ٧٧، وكتاب الإصابة في تمييز الصحابة له أيضا ٣/ ٦٠٩.

ذلك؟ قال: إنه لا يلقي أذاه في طريق المسلمين^(١٣١).

ويروى أيضا عن شريح أن مرازيبه كانت في داره، وأنه كان إذا مات له سنور - أي قط - دفنه في داره كراهية أن يؤذي به أحدا من الناس أو الحيوان^(١٣٢).

وبالجمله فإن الشرع الحكيم يجمع بين الأمر والنهي: أمر بإزالة الأذى عن طريق المسلمين، ونهي عن إلقائه فيها؛ والأمر المجرد - على أرجح الأقوال - يقتضي الفور والوجوب، والنهي يقتضي الفساد...

هذه بعض التوجيهات النبوية الشريفة لتنقية المحيط من التلوث، وهي غيض من فيض، وفي السنة المطهرة توجيهات كثيرة أخرى، كلها خطاب شرعي عاكس لحقيقة عقيدة التوحيد، تلکم العقيدة التي تجعل الجزاء الأخروي امتدادا للعمل الدنيوي، وثمرة من ثمراته، مصداقا لقوله تعالى ﴿ وَأَبْتَغِ فِيْمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾^{(١٣٣) (١٣٤)}.

المبحث الرابع: التوجيهات النبوية الشريفة للحفاظ على التوازن الصوتي:

المقصود بالتوازن الصوتي سلامته من التلوث، ومن مظاهر تلوثه خروجه عن المألوف إذا تجاوزت شدة موجاته المعدل الطبيعي الذي تقوى الأذن على التقاطه وتوصيله إلى الجهاز العصبي، وهو على نوعين: التلوث المزمّن، والتلوث المؤقت، والتلوث المؤقت نوعان: نوع لا تنتج عنه أضرار فسيولوجية ظاهرة، ونوع تنتج عنه أضرار فسيولوجية دائمة، ومن آثار التلوث الصوتي عموما، حصول الضعف في حاسة السمع: إما بصفة مستديمة، أو لفترة محدودة؛ وقد ينتج عنه صمم كامل مستديم، هذا فضلا عما يترتب عنه من آثار صحية سيئة على

١٣١ - كتاب شعب الإيمان ٥١٩ / ٧.

١٣٢ - مكارم الأخلاق لأبي بكر القرشي ١٠٦ / ١.

١٣٣ - سورة القصص ٧٧.

١٣٤ البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، للدكتور عبد الحكم الصعيدي، ص ٩٩.

القلب والدورة الدموية، والجهاز العصبي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفسي، وغيرها من أجهزة الجسد^(١٣٥).

ولأن هذا النوع من التلوث له علاقة تلازم وطيدة بالسمع والأصوات والكلام والعلاقات الاجتماعية، فإنه يجدر بي أن أفق عند الحقائق الآتية:

أولاً: أن حاسة السمع - كغيرها من الحواس - نعمة ربانية فاضلة تستوجب الشكر والعرفان، مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(١٣٦)، وأن من مظاهر شكر هذه النعمة توظيفها توظيفاً سليماً لإرضاء الخالق، قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾^(١٣٧)، ومن لم يفعل كانت هذه النعمة حجة عليه يوم القيامة أمام الباري جلّت عظمته، قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مَسْئُولًا ﴾^(١٣٨).

ثانياً: أن سنة نبينا الكريم عدّت الصمت مظهراً من مظاهر الإيمان، وأسلوباً حضارياً متميزاً تتجمل به الخلائق، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي أبا ذر فقال: «يا أبا ذر، ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فو الذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما»^(١٣٩). وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو

١٣٥- البيهقي: مشكلاتها وقضاياها وحمايتها من التلوث، ص ٨٠ وما بعدها.

١٣٦ - سورة النحل / ٧٨.

١٣٧ - سورة ق / ٣٧.

١٣٨ - سورة الإسراء / ٣٦.

١٣٩ - أخرجه الطبراني في الأوسط / ٧ / ١٤١، حديث رقم ٧١٠٣، وأبو يعلى في مسنده ٥٣ / ٦، حديث رقم ٣٢٩٨؛ وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ٢٢ «رواه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط، ورجال أبي يعلى ثقات»، وقال: المنذري في الترغيب ٣ / ٢٧٤ «رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والبزار، وأبو يعلى بإسناد جيد، رواه ثقات، واللفظ له؛ قلت: وهو حديث حسن.

ليصمت»^(١٤٠)، وبيانا لمضمن هذا النهي يرى الإمام النووي أن هذا حديث صريح في أنه ينبغي للمكلف أن لا يتكلم قبل أن يتدبر كلامه في نفسه، فإذا تأكد من ارتباط كلامه بالمصلحة تكلم، ومتى شك في ظهورها أمسك عن الكلام^(١٤١).

ثالثا: أن الوحي قرآنا وسنة عالج التلوث الصوتي في ضوء قوانين البيئة الاجتماعية التي تعد الإطار العام الذي يحكم العادات والسلوك والقيم، ويضبط العلاقات الإنسانية ضبطا محكما، بهدف تحقيق سعادة الدارين في العاجل والآجل؛ بحيث إذا كانت النفس الإنسانية بطبعها المدني ميّالة إلى الاندماج الإيجابي في المحيط الاجتماعي، وإلى التساكن المثمر والانسجام مع الآخرين، والاختلاط بهم، والتعايش معهم تأثيرا وتأثرا^(١٤٢)، وإذا كان الصوت الصاحب أحد الأسباب المدمرة للعلاقات الإنسانية لما تتسبب فيه من إزعاج، وتغيص للحياة، فإن شرعنا الحنيف عمل على ضبط هذا المجال، فحث على ضرورة الاقتصاد في الكلام، والتوسط فيه بين الإفراط والتفريط، حتى وإن تعلق الأمر بأوقات الابتهالات والمناجاة، فقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(١٤٣)؛ وقال عز من قائل - على لسان لقمان وهو يوصي ابنه بوصيته الخالدة -: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(١٤٤)،

١٤٠- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كله من الإيمان، حديث رقم ٤٧. وفي الحديث الشريف أن عقبة بن عامر رضي الله عنه سأل النبي ﷺ عن النجاة من الفتنة: فقال له: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك». ينظر: مسند الروياني، مرويات أبي أمامة، حديث رقم ١٥٧، وشعب الإيمان للبيهقي، فصل في فضل السكوت عن كل ما لا يعنيه، وترك الخوض فيه، حديث رقم ٤٩٣٠، وكتاب الزهد للإمام أحمد، كتاب فيه شيء من ذكر الدنيا، وفي حفظ اللسان، والصمت والعزلة، حديث رقم ٣.

١٤١- شرح النووي على مسلم ١٨ / ١١٧.

١٤٢ ينظر التفصيل في بحث أعدته تحت عنوان: قواعد قرآنية في تربية الناشئة؛ منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة القاضي عياض، مراكش، العدد المزدوج ١٦ / ١٧ سنة ٢٠٠٢ للميلاد.

١٤٣ - سورة الإسراء / ١١٠.

١٤٤ - سورة لقمان / ١٩.

ومعنى القصد في الكلام، أن يصدر من المتكلم صوت يُسمع ولا يزعج، وينبغي أن لا يكون إلاّ فيما تحته فائدة تعود بالنفع على الأمة، ويرمي إلى غرض محقق، ويسعى إلى تحقيق غاية سامية منشودة... وإنما حث الشرع على الاقتصاد في الكلام، لأنّ غض الصوت أوفر للمتكلم، وهو أبسط لنفس السامع وفهمه^(١٤٥)، وإلاّ فإن الحمار لا يفتر عن النهيق، وصوته يُعد - بنص القرآن الكريم - من أنكر الأصوات وأقبحها، لخشونته وعدم تعلق المعاني به.

فالشرع الحنيف دعا دعوة صريحة إلى الاقتصاد في النطق، حتى لا تنحرف الأصوات عن وظيفتها الطبيعية، إذ بخروجها ذاك يتم الخروج عن المألوف والتمرد على المعهود، وقد جاء في السنة الشريفة ما يؤكد ذلك وينبه على خطورته، ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة»^(١٤٦)، والمقصود بالمزمار عند النعمة، الآلة التي يزمر بها، وفي هذا ذمّ واضح لكل ما في شاكلة هذه الآلة المزعجة، وأما الصيحة عند المصيبة فالمراد بها نوح الباكي عند الفاجعة، ومفهوم الخطاب يقتضي أن الصوت إذا خرج عن حده كان مذموماً في كل الأحوال^(١٤٧)، فسواء تعلق الأمر بالمسرات أو غيرها، فإن الأصوات المزعجة مذمومة شرعاً بنص السنة الشريفة، لا لشيء إلاّ لأن هذه الأصوات أشبه ما تكون بمزامير الشيطان: مزامير تغضب الرحمن، وتسيء إلى الجيران، وتؤذي المرضى وتزعج الصبيان، ولا تحترم إقامة ولا أذان... لذلك كله وردت أحاديث كثيرة تحذر من الأصوات المزعجة التي لا معنى لها، ومنها حديث أبي مالك الأشعري

١٤٥ - ينظر: تفسير ابن عطية ٤ / ٣٥١.

١٤٦ - أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده ١ / ٢٤٩، باب المحرمات، وقال عنه المنذري في الترغيب والترهيب ٤ / ١٨٤ «رواه البزار ورواته ثقات»، وينظر الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع ٢ / ٤٠٠، حديث رقم

٣٧٧٧؛ وهو حديث حسن.

١٤٧ - فيض القدير للمناوي ٤ / ٢١٠.

أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»^(١٤٨). وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»^(١٤٩)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تصلي الملائكة على نائحة، ولا مُرْتَنَةٍ»^(١٥٠)، وروي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن الله يبغض كل جعظري، جوّاض، صخاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة»^(١٥١).

فهذه الأحاديث الشريفة وإن كان في أسانيد بعض مفرداتها مقال ما، فمجموعها يقوي بعضها بعضا، ومتونها تتضمن تحذيرا صريحا من صرف الأصوات عن وظيفتها الحقيقية، إذ الأصل في الأصوات أن تدل على معاني مفيدة، وحكم بليغة، وأحكام جليلة، بمعنى أنها تدل على حمولة معرفية يستفيد منها السامع، وتتحرك لها أحاسيسه، وتطمئن لها نفسه، وتهدأ لها جوارحه... أما إذا خرجت الأصوات عن أصلها حتى تصير صخبا، قد لا يتعلق بها معنى، ولا تترتب عليها فائدة، فإنها تصبح حينئذ عنصرا مهددا لراحة الإنسان واطمئنانه وسكينته... ومن ثمة تصير تلوثا كباقي أنواع التلوث البيئي.

١٤٨- أخرجه مسلم في صحيحه ٢ / ٦٤٤، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، حديث رقم ٩٣٤.
 ١٤٩- أخرجه مسلم في صحيحه ٢ / ٦٤٤، باب التشديد في النياحة، حديث رقم ٩٣٤ = ومعنى: سربال من قطران أي قميص، أو درع من النحاس المذاب؛ ومعنى قوله درع من جرب أي يصير جسدها أجرب، والجرب داء جلدي يصيب الحيوان بكثرة.
 ١٥٠- رواه أحمد في مسنده ٢ / ٣٦٢، حديث رقم ٨٧٣١، وأبو يعلى في مسنده ١٠ / ٥٢١، حديث رقم ٦١٣٧، وقال عنه المنذري في الترغيب ٤ / ١٨٤ «إسناده حسن، إن شاء الله»؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣ / ١٣ «رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه أبو مرانة، ولم أجد من وثقه ولا جرحه، وبقية رجاله ثقات».
 ١٥١- أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر ١ / ٢٧٣، ذكر الزجر عن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها والجهل بأمر الآخرة وجانبه أسبابها، حديث رقم ٧٢، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١ / ١٢٩، حديث رقم ٢٠٢، ثم قال: «هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». والجعظري هو الفظ الغليظ المتكبر، والجوّاط: الكثير اللحم المختال في مشيته، والصخاب: الصياح.

خاتمة:

بعد هذه الجولة العلمية الماتعة في رياض السنة النبوية الشريفة، أرى أنه من المفيد جدا أن أقول في الختام : إن ما جمعته من نصوص، وما وقفت عليه من أقوال في هذا الموضوع الهام، ما هو إلا نقطة من بحر، أو ورقة من قمطر، وإلا فالتوجيهات النبوية الشريفة أوسع من أن تحصر في هذه الحدود الضيقة، من حيث هي جزء لا يتجزأ من التصور الإسلامي الشامل للخالق والمخلوق، ولباقي المظاهر الكونية العامة...

وبالتأمل في النصوص الحديثة التي وقع الاستدلال بها في ثنايا البحث، لا يملك الباحث المصنف إلا أن يستنتج: أن التوجيهات النبوية الشريفة، لحماية البيئة من التدهور، توجيهات واقعية، تحظى بقبالية كبيرة للتطبيق، ومن ثمة تحقيق غايتها البيئية في كل الأزمنة والأمكنة؛ وهذا هو جوهر الخلاف بينها وبين التشريعات الوضعية المتضمنة في الدساتير البيئية، التي لم تستطع أن تضع حدا لتدهور البيئة، رغم توالي صدورها، لا لشيء إلا لأنها اكتست طابعا مثاليا يتجاوز طاقة المكلف...

ومما يؤيد القول بواقعية التوجيهات النبوية، الحقائق الآتية:

- أن في السنة النبوية الشريفة من القيم والتوجيهات، ما يكفي لتسطير برنامج حضاري شامل، وجدول أعمال واقعي للإسهام إلى جانب الحلول السياسية والقانونية في التغلب على المآزق البيئي المتدهور.
- أنها توجيهات تمتاز بالمرونة، وفي مقدور الناس عموما من مكلفين وغيرهم، لكونها تأمر بما يستطاع، وتكلف بما يطاق.
- أنها تمتاز بالشمول والتكامل، بحيث إن الخطاب النبوي الشريف، يكاد لا يميز بين مكونات البيئة الأساسية كالماء والهواء والتربة والزرور ...
- أنها ترمي إلى تفعيل خيار الوقاية خير من العلاج، لحل كثير من المشاكل البيئية.
- أن الخطاب النبوي الشريف يجمع جمعا محمودا بين النقيضين لحماية البيئة من

التدهور، كالجمع مثلا بين الأمر والنهي، بمعنى الأمر بالشيء، والنهي عن ضده، وبين الترغيب والترهيب، أي الترغيب في الشيء، والترهيب من ضده، وبين الجلب والدرء، بمعنى جلب المصالح، ودرء المفسد...
وأخيرا أقول: إذا كانت سنة نبينا الحبيب، بهذا المستوى من التكامل، والشمول، والمصداقية، والواقعية، فالمطلوب من أبناء أمتنا عموما ما يأتي:

١. تخصيص حصة تعليمية لمادة التربية البيئية من خلال نصوص السنة الشريفة.
٢. استحضار مفاهيم السنة النبوية الشريفة استئناسا بها لصياغة القوانين البيئية.
٣. فتح موقع إلكتروني لتصنيف أحاديث نبوية شريفة في البيئة مع شرحها، وجمع أقوال العلماء في الكشف عن مضامينها...
٣. الحرص على الانتقال بسنة نبينا من الحيز النظري إلى التطبيقات العملية، وربطها بواقع الأمة.

هذا هو القدر الذي تيسر لي جمعه وتحريره وتحقيقه، ولا أدعي أنني قدمت شيئا يشفي الغليل، غير أنني لا أعدم الرجاء في أن تحصل فائدته وأن يعم نفعه، وقد اعتمدت على الله تعالى في جمعه، سائلا إياه المدد في تحريره، مخلصا له في القصد لنيل رضاه، والله تعالى أسأل أن يوفقني لبلوغ بغيتي من هذا البحث، وأن يتجاوز عني ما اعتراه من نقص أو خلل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث

يتصدرها تعظيماً وتشريفاً: القرآن الكريم برواية حفص

- الأدب المفرد، تأليف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- بيان الوهم والإيهام الواقعيين في كتاب الأحكام، تأليف الحافظ أبي الحسن علي بن محمد بن القطان الفاسي (ت ٦٢٨هـ)، تحقيق الدكتور الحسين أيت سعيد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، تأليف الدكتور عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ / ١٩٩٣م.
- البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية)، تأليف المهندس محمد عبد القادر الفقي، مكتبة ابن سينا، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
- تحفة الأحوزي شرح سنن الترمذي، تأليف أبي العلاء محمد عبد الرحمن المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تأليف الحافظ ابن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق خيرى سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- تلخيص المستدرک، تأليف الإمام أبي عبد الله شمس الدين

- الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، مطبوع بهامش المستدرك.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تأليف أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي بمشاركة محمد عبد الكريم البكري، نشرة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، طبعة ١٣٨٧هـ.
- تهذيب التهذيب، تأليف أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، مطبعة محمد البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.
- الزهد، تأليف أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ.
- سبل السلام شرح بلوغ المرام، تأليف محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق حازم علي بهجة القاضي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- سنن ابن ماجة، تأليف أبي عبد الله محمد بن ماجة بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، تأليف أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- سنن الترمذي المسمى: الجامع الصحيح، تأليف أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي السلمي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد محمد شاکر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن الدارقطني، تأليف أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

- سنن الدارمي، أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٥٥٢هـ)، تحقيق فواز أحمد زمرلي بمشاركة خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- السنن الكبرى، تأليف أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٨٥٤هـ)، تحقيق محمد عبد القادر الباز، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، طبعة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- سنن النسائي المسمى: المجتبي، تأليف أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- شرح النووي على صحيح مسلم، تأليف أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- شعب الإيمان، تأليف أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٨٥٤هـ)، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- صحيح ابن حبان، تأليف أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٣٥٤هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- صحيح ابن خزيمة، تأليف أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (٣١١هـ)، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- صحيح البخاري، الموسوم بالجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تأليف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (٢٥٦هـ)، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته للإمام السيوطي، تأليف محمد ناصر الدين

- الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م.
- صحيح مسلم، تأليف أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- العمارة الإسلامية والبيئة: الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، تأليف الدكتور المهندس يحيى وزيري، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٠٤، يونيو ٢٠٠٤.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، طبعة جديدة منقحة ومصححة عن الطبعة التي حقق أصلها عبد العزيز بن عبد الله بن باز ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م.
- الفردوس بمأثور الخطاب، تأليف أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمداني (ت ٥٠٩هـ)، تحقيق سعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٦٨ م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، تأليف عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ.
- قواعد قرآنية في تربية الناشئة، إعداد الدكتور ميمون باريش، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة القاضي عياض، مراكش، العدد المزدوج ١٧١٦، سنة ٢٠٠٢.
- لسان العرب، تأليف أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ / ٤٩٩٦ م.
- الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، تأليف الأستاذ محمد بن عبد العزيز

بن عبد الله، نشرة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، مطبعة فضالة، المغرب، الطبعة الأولى ١٢١٤هـ / ١٩٩٦م.

- الماء والإصحاح في الإسلام، تأليف الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحسيني، نشرة منظمة الصحة العالمية لإقليم شرق البحر المتوسط، سلسلة الهدى الصحي، العدد ٢ سنة ١٩٨٨.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الفكر العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

- المستدرک علی الصحیحین، تألیف أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

- مسند أبي يعلى، تأليف أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلی التميمي (ت ٣٠٧هـ)، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- مسند أحمد، تأليف أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، مصر.

- مسند البزار، تأليف أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، بيروت / المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

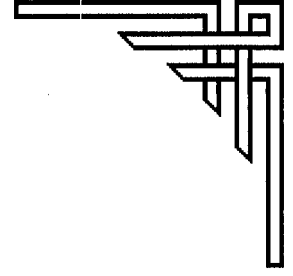
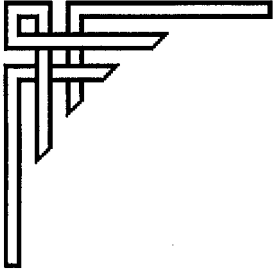
- مسند الربيع، تأليف الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، تحقيق محمد إدريس، وعاشور يوسف، دار الحكمة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

- مسند الروياني، تأليف أبي بكر محمد بن هارون الروياني (ت ٣٠٧هـ)، تحقيق

- أيمن علي أبي يماني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- المعجم الأوسط، تأليف أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد بمشاركة عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- المعجم الكبير، تأليف أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تأليف أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم محي الدين ديب ستو بمشاركة أحمد محمد السيد ويوسف علي بدوي ومحمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- مكارم الأخلاق، تأليف أبي بكر عبد الله بن محمد القرشي (ت ٢٨١هـ)، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- المنتقى، تأليف أبي محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري (ت ٣٠٧هـ)، تحقيق عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- الموطأ، تأليف إمام دار الهجرة وعالم المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثانية.
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار الجليل، بيروت، طبعة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- انتهى، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله رب العالمين.

الجلسة الخامسة

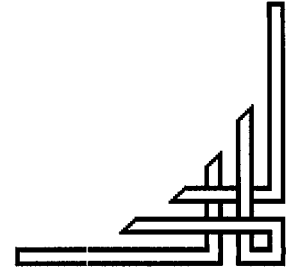
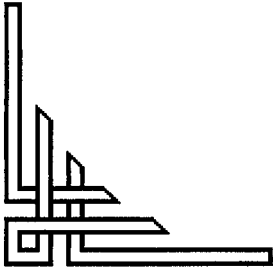
- الإيمان والعمران دراسة فى علاقة الإيمان بالتنمية البشرية كما يصورها الحديث النبوي الشريف:
د. حسام أحمد قاسم، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- الاستثمار الزراعي من خلال السُّنة النبويَّة - دراسة حديثية تأصيلية - :
د. نذير حمَّادو، جامعة الأمير عبدالقادر، قسنطينة، الجزائر.
- أخلاقيَّات العمل الاقتصادي في ضوء السُّنة النبويَّة المطهَّرة:
إعداد الباحثين - د. أحمد مصطفى عفيفي، المعهد العلمي الإسلامي، العين - د. عدنان بن عبد الرزاق الحموي العُلي، كلية الشريعة والقانون، جامعة الإمارات.
- اهتمام السُّنة النبويَّة بترابط المجتمع:
د. إكرام الله إمداد الحق عبد الرحمن، معهد الحرم المكي الشريف.
- حرية التعبير وضوابطها في السُّنة النبويَّة:
د. عبد الرحمن بن محمد العمراني، جامعة القاضي عياض - المغرب.
- حرية التعبير في السُّنة النبويَّة: (ضوابطها وصورها):
د. مستورة رجا المطيري، جامعة الكويت.



الإيمان والعمران
دراسة فى علاقة الإيمان
بالتنمية البشرية
كما يصورها الحديث النبوي الشريف

د. حسام أحمد قاسم

كلية الآداب - جامعة القاهرة



مدخل:

تستهدف هذه الدراسة عرض التصور الإسلامي لكيفية إعمار الكون والمحافظة على دوام هذا الإعمار كما يقدمه الحديث النبوي الشريف الذي يطرح تصورا متكاملا للعلاقة بين الإيمان والتنمية البشرية بمعناها الواسع، وهو تصور شديد الخصوصية يجعل التنمية واجبا دينيا؛ حين يجعلها لازمة للإيمان، ونتاجة عنه، ومصدرا لتقويته واستمراره في الوقت ذاته. والحق أن كثيرا من عناصر هذا التصور تغيب عن تصورات المسلمين الآن، رغم وضوحها وتأكيداتها في السنة النبوية الشريفة: القولية والعملية على السواء، ويمثل غياب هذه المكونات جانبا مهما من أسباب الوضع الحضاري السيء الذي تعيشه الأمة في الظرف التاريخي المعاصر، وهو وضع تجاوز مرحلة كونه خطرا على المسلمين من حيث إن ضعفهم يغرى بالاعتداء عليهم، إلى أن أصبح خطرا على الإسلام نفسه، وذلك لأن الناس لا يفرقون عادة بين الإنسان وما يدين به، ومن ثم تتأثر صورة الإسلام بصورة المسلمين، بل إن هذا الضعف يؤثر على علاقة عامة المسلمين بدينهم؛ إذ إن كثرة الهزائم وتوالي الكوارث تخرج الإنسان من حالة التوازن النفسي، وتبعده عن جذوره، وتشككه في ثوابته، والمغلوب كما قال ابن خلدون: مولع بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله.

إن هذا البحث يعالج التصور النبوي للعلاقة بين الإيمان والعمران، ويحدد كيفية مساهمته في إحداث التنمية من خلال مبحثين: يخصص المبحث الأول لدراسة مفهوم الإيمان شارحا العلاقة بين مكونات هذا المفهوم من خلال تحديد العلاقات التي يقدمها الحديث النبوي الشريف بين الإيمان والعمل حيث يعد العمل جزءاً من الإيمان، ودليلاً عليه، ونتاجاً عنه، ومصدراً لاستمراره في الوقت ذاته. ويحدد هذا المبحث أنواع العمل التي انتظمت في ثلاثة أقسام كبرى هي: الأعمال العبادية، والأعمال السلوكية الأخلاقية، والأعمال الإعمارية، كما يحاول أن يحدد

العلاقات القائمة بينها، والكيفية التي ترتبط بها .

أما المبحث الثاني فإنه يضطلع بدراسة علاقة كل نوع من هذه الأنواع بالإيمان موضحا كيف يؤثر الإيمان في كل منها ويتأثر به . ومن ثم ينقسم هذا المبحث إلى ثلاث فقرات: تفسر الفقرة الأولى علاقة الإيمان بالعبادة ، وتُعنى الفقرة الثانية بتفسير علاقة الإيمان بالأخلاق ، بينما تخصص الفقرة الثالثة لدراسة أوجه العلاقة بين الإيمان والإعمار التي تحددت في ست علاقات هي : أن الإيمان يتطلب التنمية لأداء الكثير من عباداته، وأنه يأمر بها على نحو مباشر، وأنه يحافظ عليها، وأن الدعوة إلى الإيمان تستلزمها ، وأن تقويته واستمراره يحتاج إلى القدرة والقوة الناشئتين عنها ، وأن الالتزام بمكوناته كلها يؤدي بالضرورة إلى التنمية . ويحاول هذا المبحث أن يشرح كل علاقة من هذه العلاقات ويدل على أنها من خلال الحديث النبوي الشريف .

ولما كان تحقيق أهداف البحث يتطلب استقراء الحديث النبوي الشريف ، فإنه يتخذ من مسند الإمام أحمد رضي الله عنه مادة له ؛ لما هو معروف من أن المسند قد حوى السنة أو كاد ، إذ يوجد في المسند [كما قال ابن كثير] من الأسانيد والمتون شيء كثير مما يوازي كثيرا من أحاديث مسلم ، بل والبخاري أيضا ، وليست عندهما ولا عند أحدهما ، بل ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة بينما يندر وجود حديث صحيح خارج المسند . كما صرح بذلك غير واحد من العلماء . هذا إضافة إلى أن المسند أكثر كتب الحديث تكرارا لروايات الحديث الواحد ، ومعنى هذا أن المسند يستوعب الأحاديث ورواياتها ، وهذا الاستيعاب ضالة من يحاول أن يتوصل إلى التفسير الصحيح . غير أن عدم اقتصار الإمام أحمد على رواية الصحيح كما هو معروف ، يدفع الباحث عند الاستشهاد إلى اختيار الروايات التي وردت في كتب الصحاح أو حكّم أحد علماء الحديث أو أحد المحققين بصحتها . وقد أفدت كثيرا من تخريجات محققي المسند لأحاديثه ومن الطبعات الإلكترونية لموسوعة الحديث النبوي الشريف .

ويتيح هذا النهج درجة جيدة من الاستقراء ، دون التفريط في شروط الصحة

عند الاحتجاج ، كما يتيح درجة طيبة من الملاءمة بين الرغبة في أن يكون الاستقراء تاما ، وهو أمر تفرضه طبيعة البحث ، والرغبة في تحقيق الشروط الأكاديمية للدراسة العلمية التي تتطلب وجود مادة مناسبة يتم استيعابها والعودة دائما إليها لاختبار فروض الدراسة ونتائجها . غير أن كون المسند قد مثل المادة الأساسية للبحث لا يعني اقتصار الدراسة عليه ، وإنما يعني التزامها باستقراء ما جاء به متصلا بموضوعها ، مع إمكانية توسيع مادة الدراسة كلما تطلب الأمر ذلك ، وبشكل عام فقد أفدت من أحاديث باب الإيمان في دواوين السنة كلها . ونظرا لأن هذا البحث يطمح لأن يكون جزءا من الثقافة العامة للمسلمين فقد كان طبعيا أن يسهب في الاستدلال بما كان صحيحا صريحا ، كما كان طبعيا أن يكون للقرآن الكريم حضور واضح .

المبحث الأول: مفهوم الإيمان وأنواع العمل :

١- مفهوم الإيمان :

فيما يتصل بمفهوم الإيمان أو قانون الإيمان استقر بشكل تام بين المسلمين أن الإيمان ما قر في القلب وصدقه العمل ، وأنه عبارة عن أبواب أو أجزاء أو شعب ، أو هو مجموعة من الخصال أو الصفات^(١) ، منها ما هو قلبي كالتصديق بأنه لا إله إلا الله ، والتصديق بالبعث والحساب ، ومنها ما هو من عمل الجوارح كإمارة الأذى عن الطريق ، ومنها ما هو من الأخلاق وطبائع النفوس كالحياء ، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون بابا أفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إمارة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان»^(٢) . ومن ثم فقد استقر كذلك أن الإيمان يزيد وينقص . وتحدد درجة الإنسان على سلم الإيمان بمقدار ما لديه من

١- انظر في تقرير هذه المعاني: صحيح البخاري، أول باب الإيمان، وحول آراء العلماء في معنى الإيمان وأنه يزيد وينقص، انظر: فتح الباري ١ / ٦٦ . وقد قدم النووي في شرحه على صحيح مسلم بحثا مستوعبا في المسألة ج ١ ص ١٢٣ وما بعدها.

٢- الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان وكذلك رواه النسائي والترمذي، وروايته المشهورة (بضع وسبعون شعبة): في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم ٣٥، واللفظ لأحمد، الحديث رقم ٩٣٣٢ .

شعبه وأقسامه، بل إنه قد ينقص حتى يتلاشى بعد وجوده ورسوخ الإنسان فيه إذا لم يثبته بالعمل، أو إذا عمل شيئاً من الأعمال المناقضة له مثل استخدام الحلف في الغدر والخديعة قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ بَعْدٍ تُبْوِيهَا ﴾ (٣) ؛ ومن ثم كانت هذه الآية فيما أزعج من أخوف آيات القرآن للمؤمنين ؛ حيث تشير إلى إمكانية أن تؤدي بعض الأعمال إلى أن يخسر الإنسان إيمانه ، فتزل قدمه بعد رسوخها؛ إذ بالذنوب ينقص الإيمان، وبعدها قد يفقد الإنسان التوفيق والتثبيت . وهو المعنى الذي يشرحه الحديث النبوي الشريف: بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل^(٤) . أما لماذا يبادر الإنسان بالأعمال الفتن ؟ فلأن الأعمال تزيده إيماناً وتكسبه توفيقاً ومناعة وتثبيتاً، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴾ (٥) وقال: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيثًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ (٦) بينما تمكن الذنوب الشيطان منه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ يَوْمِ التَّقَى أَلْتَمَعَانِ إِنَّمَا أَسْرَأَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ (٧) .

وتأسيساً على ما سبق فإن أي صياغة لقانون الإيمان في الإسلام تتمسك بالنصوص الثابتة النقل الصريحة الدلالة، لا يمكنها إلا أن تهتم اهتماماً كبيراً بتحديد العلاقة بين الإيمان والعمل، وتحديد دلالة العمل الذي هو جزء من الإيمان ؛ ذلك أن العلاقة بين الإيمان والعمل علاقة متداخلة متعددة الجوانب، تغيب بعض جوانبها عن الخطاب الديني منذ فترة طويلة ، ولذلك أصبحت تغيب عن تصورات عامة المسلمين .

وإذا أردنا أن نحدد أوجه العلاقة بين الإيمان والعمل في التصور الإسلامي فإننا

٣- سورة النحل الآية رقم (٩٤) .

٤- الحديث رواه مسلم والترمذي، وهو في المسند ، رقم ٩٣٣٢ .

٥- سورة النساء الآية رقم (٦٦) .

٦- سورة البقرة الآية رقم (٢٦٥) .

٧- سورة آل عمران الآية رقم (١٥٥)

نستطيع أن نحددها على الأقل - فى أربع علاقات هى :

أ - أن العمل جزء من الإيمان ، وهذا أمر بدهي مادام الإيمان ينقسم إلى أجزاء وشعب ، ومادام الإيمان يزيد وينقص ، وما دامت نواقض الإيمان عبارة عن مجموعة من الأعمال كما جاء فى آيات وأحاديث كثيرة .

ب - أن العمل دليل على الإيمان ، وعلامة على وجوده ، ومصدر للشهادة به ، كما قال ﷺ : « إذا رأيتم رجلا يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »^(٨) .

ج - أن العمل نتيجة للإيمان ، وثمره من ثماره ؛ إذ إن الإيمان يدعو أهله إلى عمل الطاعات ويدفعهم إليها ، وينهاهم عن عمل المعاصي ، وتصديقاً لهذا المعنى فقد قال ﷺ لأصحابه عندما ذكروا له أن ثقيفاً تشتت فى بيعتها ألا تجاهد: إن إيمانهم سيدعوهم إلى الجهاد ، وقال لهم عندما قالوا له: إن فلاناً يصلى بالليل فإذا أصبح سرق : « إنه سينهاه ما يقول »^(٩) .

د - أن العمل مصدر للإيمان ووسيلة لاستمراره ، ويعنى هذا أن العلاقة بين الإيمان والعمل ليست ذات اتجاه واحد ، وإنما ذات اتجاهين ، فكما أن العمل ينتج عن الإيمان ، فإنه يسهم فى صنعه وثباته واستمراره ، فالطاعات كما يقول النووي ثمرات للتصديق الذى هو أصل الإيمان ، ومقويات ومتممات وحافظات له^(١٠) فى الوقت ذاته . وبهذه العلاقة الرابعة يتأكد أن الإسلام لا يفصل بين الجوانب المادية والجوانب القلبية الروحية المتصلة بالتصديق ، ومن هنا جاء فى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أنبئكم بشيء إن فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم »^(١١) ، فجعل لإفشاء السلام - وهو عمل مادي - أثراً قلبياً إيمانياً مباشراً ، وقد روى عن أبى هريرة رضي الله عنه « أن رجلاً شكأ إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فمقال

٨- رواه ابن ماجة: كتاب المساجد رقم ٨٠٢ ، والدا روى فى كتاب الصلاة رقم ٢٠٣ ، والبيهقى رقم ٥٠٩٣ .

٩- المسند الحديث رقم: ٩٧٣٠ بإسناد صحيح ، وقد رواه البيهقى فى الشعب ، الهيثمى وقال : رجاله رجال الصحيح ، ورواه ابن حبان رقم ٢٥٦٠ .

١٠- شرح النووي عن صحيح مسلم ١/ ١٢٦ .

١١- الحديث رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة والترمذي ، وهو فى المسند بروايات كثيرة جداً ، منها رقم: ٩٠٦١ بإسناد صحيح ، كما ذكر المحقق .

له: إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين ، وامسح على رأس اليتيم»^(١٢) فنسب إلى العمل المادي أثراً إيمانياً مباشراً ، وجعله مصدرًا له. وعكس ذلك أيضًا صحيح فثمة أعمال تضعف الإيمان، وتؤثر في القلب تأثيرًا عكسيًا ، قال عليه السلام: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»^(١٣) فجعل من عدم تسوية الصفوف مصدرًا لاختلاف القلوب.

إن هذه العلاقة الرابعة هي التي توضح كيف أن التصديق نفسه يزيد وينقص، ومرد ذلك إلى العمل، فالطاعات يجلب بعضها بعضًا، عن طريق جلبها لرضا الله وتوفيقه الذي ييسر الطاعة ، ويبعد عن المعصية، وعن طريق جلبها لحب الله : «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»^(١٤) وحب الله يعنى هداه وبركته ، «وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١٥) وكذلك عن طريق جلب الطاعات للتثبيت والرسوخ إزاء المحن : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾^(١٦). ومن هنا جاء الأمر النبوي بمبادرة الفتن بالأعمال الصالحة ، حتى إذا ما جاءت الفتن يكون لدى الإنسان من التثبيت والتوفيق ما يعصمه الله به.

وعكس ذلك أيضًا صحيح فالمعاصي يجلب بعضها بعضًا، وكلما عمل الإنسان معصية صار أيسر على الشيطان أن يقوده إلى غيرها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ

١٢- المسند، الحديث رقم ٧٥٦٦، والحديث رواه المنذرى فى مجمع الزوائد ، وقال رجاله رجال الصحيح: ١٦٠ / ٨ وكذلك قال الهيثمى فى الترغيب، غير أن الشيخ شاكر رحمه الله حقق انقطاعه، وإنما صلح [فيما أزعج] للاستئناس به لنصح المنذرى له ، ولأن الضعف إنما جاءه من الانقطاع لا من تأكيد ضعف بعض رواته ، ولصحة معناه .

١٣- الحديث رواه مسلم رقم ٤٣٢ ، وأبو داود رقم: ٦٤٧ والنسائي رقم: ٨٠٧ ، والترمذي رقم: ٢٢٨ ، وقال: حسن صحيح ، وهو فى المسند رقم: ١٧٠٣٩ بإسناد صحيح .

١٤- رواه البخارى فى كتاب الرقاق رقم: ٦١٣٧ .

١٥- الحديث رواه مسلم فى القدر رقم: ٢٦٥٤ ، وابن ماجة فى الدعاء، ورواه الترمذي رقم : ٢١٤٠ وصححه، وهو فى المسند رقم: ١٢٢٠٤ بإسناد صحيح، كما ذكر المحقق .

١٦- سورة البقرة / ٢٦٥ .

التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴿١٧﴾ ، وكل معصية تمثل . كما جاء في الحديث الشريف . نكتة سوداء في القلب ، تطرد ما يساويها من الإيمان فيه ، حتى يسود القلب كله ، فلا يكون أرضاً صالحة ينبت فيها الخير والإيمان ، وهذا هو معنى قوله جل شأنه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٨) جاء في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تعلق قلبه، فذلك الران. (١٩) . إن المعاصي تورث اللعن كما تورث قسوة القلب: ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ بِئِنَّهُمْ لَعْنُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (٢٠) وقسوة القلب تبعد الإنسان عن الإيمان، فلا يكون قابلاً لأن يفعل بالآيات أو يستجيب للأدلة، بل يحال بينها وبين لوازمها: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (٢١) إذ «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» وهو سبحانه لا يصرف عن الهدى مستحقاً له، وإنما يصرف مسرفاً ساء عمله .

٢- أنواع العمل والعلاقات بينها:

يستطيع المتأمل للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن يقسم العمل المأمور به فيها تقسيماً أولياً إجرائياً إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، تدخل تحتها تفرعات كثيرة ، هي: العمل العبادي ، والعمل الأخلاقي، والعمل الإعماري . وجميع هذه الأقسام يمكن أن نتصور فيها التقسيم التقليدي إلى عمل بالقلب ، وعمل باللسان ، وعمل بالجوارح .

أما العمل العبادي فيتمثل في تأدية الشعائر، والفرائض التي تأمر بها الآيات والأحاديث ، مثل الصلاة والصوم والحج والعمرة والزكاة والصدقة ... وأما

١٧- آل عمران / ١٥٥ .

١٨- سورة المطففين الآية رقم (١٤) .

١٩- جامع البيان للطبري ١٥/ ١٠٦ والحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير، وقال: حسن صحيح .

٢٠- المائدة / ١٣ .

٢١- الأنفال / ٢٤ .

العمل الأخلاقي فيتمثل في مجموعة السجايا والخصال المطلوبة دينياً ، والتي تتحول بطبيعة الحال إلى سلوكيات يمارسها المؤمن في حياته، كالإخلاص والصدق والحياء والإيثار والرحمة والأمانة وأما العمل الإيماني فهو كل ما يتصل بسعي الإنسان على معاشه وسعيه من أجل إصلاح الأرض ومنع إفسادها. وهناك نقطتان مهمتان يمكن من خلالهما أن نتعرف على موقف الإسلام من هذه الأعمال جميعاً ، وعلى تصويره للعلاقة بينها ، الأولى: أن كل عمل من هذه الأعمال مأمور به على المستوى العام ، ومأمور ببعض عناصره على المستوى الخاص على نحو مباشر، والثانية : أن علاقة هذه الأنواع من العمل بعضها ببعض علاقة تداخل ، وتبادل تأثير وليست مجرد علاقة تجاور.

أ- شمولية الأمر بأنواع العمل كلها :

أما أن هذه الأقسام مأمور بها على المستويين العام والخاص فأمر لا يخطؤه القارئ العادي للكتاب الكريم والسنة المطهرة، فالعبادة مأمور بها على المستوى العام ، قال جل شأنه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٢٢) وقال ﷺ: «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(٢٣). وعلى المستوى الخاص نجد الكثير من النصوص التي تأمر بالصلاة والزكاة والحج، والصوم، وغيرها من العبادات، وقد جعل الحديث الشريف العبادات الأربعة السابقة من أركان الإسلام الخمس التي بنى عليها^(٢٤)، ولا قوام للبناء بدون أركانه.

وأما الأعمال الأخلاقية فمأمور بها كذلك بشكل عام ، ومأمور بالكثير من عناصرها بشكل خاص، فبشكل عام جعل الحديث النبوي الشريف الأخلاق درة الإسلام ، وأعلى ثماره ، وأعلاها كما نجد في أحاديثه ﷺ :

٢٢- سورة النساء: (٣٦) .

٢٣- رواه البخاري، باب الارتداد على الدابة في كتاب اللباس ، رقم ٥٢٧٣ .

٢٤- الإحالة على الحديث (بنى الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله . . .) رواه مسلم في باب أركان الإسلام ودعائه من كتاب الإيمان ، شرح النووي على مسلم ج١ ص ١٥٠ / ١٥١ .

- «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٢٥).
- «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً» (٢٦).
- «إن المسلم ليدرك بحسن الخلق درجة الصوام القوام» (٢٧).
- «ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن» (٢٨).
- وعلى المستوى الخاص نجد عشرات الآيات والأحاديث التي تركز على أخلاق بعينها ، كالصدق وأداء الأمانة والرحمة والإيثار:
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٢٩)
- ﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٠)
- ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٣١)
- «دخل رجل الجنة بسماحته قاضياً ومتقاضياً» (٣٢)
- «وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» (٣٣)
- «أربع إذا كن فيك فما عليك ما فاتك من أمر الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة» (٣٤)
- «من لا يرحم لا يرحم» (٣٥)
- «إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» (٣٦)
- وكذلك الحال بالنسبة للأعمال الإيمانية فقد أمر بها بشكل عام ، حتى جعل

-
- ٢٥- رواه الحاكم في المستدرک رقم: ٤٢٢١ و صححه ، قال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وهو في سنن البيهقي الكبرى رقم: ٢١٣٧٩ .
- ٢٦- المسند رقم: ٦٧٣٥ بإسناد صحيح ، والحديث رواه البخاري في الأدب المفرد وابن حبان في صحيحه .
- ٢٧- المسند رقم ٦٦٤٨ بإسناد صحيح ، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ، والطبراني في الكبير والأوسط .
- ٢٨- رواه أحمد مرات عديدة بأسانيد صحيحة كما ذكر المحقق ، أنظر على سبيل المثال أرقام ، ٢٧٣٦٩ ، ٢٧٣٩٠ ، ٢٩- النساء : ٥٨
- ٣٠- التوبة : ١١٩ .
- ٣١- الحشر : ٩ .
- ٣٢- المسند رقم ٦٩٦٣ بإسناد صحيح ، وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله ثقات .
- ٣٣- رواه البخاري في الأدب : رقم ، ٥٧٤٣ ، ومسلم في البر والصلة والأدب : ٢٦٠٧ وللفظ لمسلم .
- ٣٤- المسند رقم: ٦٦٥٢ بإسناد صحيح ، وقد رواه ابن أبي الدنيا والطبراني ، والبيهقي .
- ٣٥- الحديث رواه مسلم في كتاب الفضائل ، رقم : ٢٣١٩ ، ورواه الترمذي بلفظ قريب (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) كتاب الزهد رقم: ، ٢٣٨١ وقال حسن صحيح . وهو في المسند رقم ٧٦٦٣٦ بإسناد صحيح
- ٣٦- الحديث رواه أبو داود وأخرجه النسائي ، وهو في المسند رقم ٦٤٨٧ ، بإسناد صحيح ، كما ذكر المحقق .

الإعمار وظيفة الإنسان فى الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(٣٧) أى وطلب منكم إعمارها، فمن لم يعمرها فهو غير مطيع لأمر ربه ، ومخالف للوظيفة التي خلق من أجلها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣٨) ينوب عن خالقه فى إدارتها وتحسينها وإصلاحها ومنع فسادها ، قال جل شأنه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^(٣٩) وقال: ﴿وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤٠). وقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٤١) وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٤٢).

وتم أحاديث كثيرة جداً تأمر ببعض العناصر التي تعد من قبيل الإعمار ، أو تنهى عن بعض العناصر التي من شأنها أن تفسد أو تمكن المفسدين من الإفساد نحو:

- [اليد العليا خير من اليد السفلى]^(٤٣).
- [إن قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يجرسها فليجرسها]^(٤٤).
- [ما أكل إنسان طعاماً قط أحب إلى الله - عز وجل - من عمل يده] ، [وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده]^(٤٥).
- [إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة]^(٤٦).

-
- ٣٧- هود: ٦١ .
 - ٣٨- البقرة: ٣ .
 - ٣٩- الأعراف: ٥٥ .
 - ٤٠- الأعراف: ١٤٢ .
 - ٤١- هود: ٨٥ ، الشعراء: ١٨٣ .
 - ٤٢- البقرة: ٢٠٥ .
 - ٤٣- الحديث رواه البخاري ومسلم ، وهو عند أحمد بروايات أخرى كثيرة صحيحة، كما ذكر المحقق ، نحو: رقم: ٤٧٤ .
 - ٤٤- المسند رقم: ١٢٨٣٧ بإسناد صحيح، والحديث رواه البخاري فى الأدب المفرد رقم ٤٧٩ ، وهو عند الطيالسى فى مسنده رقم: ٢٠٦٨ .
 - ٤٥- الحديث رواه البخاري فى البيوع رقم: ٢٠٧٢ ، وفى الترمذي أيضاً (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه) ، وهو فى المسند رقم: ١٧١١٥ بإسناد صحيح .
 - ٤٦- المسند بإسناد صحيح رقم: ٢١٨٠٣ .

- [كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف ، إن الله يحب أن ترى نعمته على عبده] ^(٤٧) .
- [الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله] ^(٤٨) .
- [كفى للمرء من الإثم أن يضيع من يقوت] ^(٤٩) .
- [لا يحتكر إلا خاطئ] ^(٥٠) ومنع الاحتكار - كما سيأتي - من أهم شرائط الاستثمار .
- [نعم المال الصالح للمرء الصالح] ^(٥١) .
- [من قطع سدره صوب الله رأسه في النار] ^(٥٢) .
- [من سأل من غير مسألة فكأنما يأكل الجمر] ^(٥٣) حتى يقتصر تدخل الدولة على دعم من يستحق .
- [من زرع زرعاً فأكل منه الطير أو العافية كان له به صدقة] ^(٥٤) .
- [من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرتها صدقة عند الله - عز وجل] ^(٥٥) .
- [إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه] ^(٥٦)

- ٤٧- المسند رقم: ٦٧٠٨ بإسناد صحيح، وقد رواه الحاكم في المستدرک، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى الترمذي آخره، بلفظ: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .
- ٤٨- الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه، وهو في المسند رقم: ٨٧١٧ بإسناد صحيح .
- ٤٩- المسند رقم: ١٥٧٠٠ قال المحقق: إسناده صحيح، رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .
- ٥٠- المسند رقم ١٥٧٠٠ قال المحقق، إسناده صحيح ورجاله أئمة ، وهو في المسند بروايات أخرى صحيحة على شرط مسلم ، نحو: ٢٧١٢٢ .
- ٥١- الحديث رواه البخاري في الأدب ١١٣ رقم: ٣٠٠ ، وهو في المسند رقم: ١٧٦٩٢ بإسناد صحيح ، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي .
- ٥٢- رواه أبوود داود في الأدب رقم: ٥٢٣٩ ، وسئل عنه فقال: هذا الحديث مختصر، يعني من قطع سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل والهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها - صوب الله رأسه في النار .
- ٥٣- المسند رقم: ١٧٤٣٨ بإسناد صحيح، وهو عند مسلم بمعناه رقم: ١٠٤١ .
- ٥٤- المسند بروايات كثيرة بعضها صحيح نحو: ١٣٤٨٨، ١٦٥١١ .
- ٥٥- المسند رقم: ١٦٥٣٩ بإسناد حسن ، والحديث رواه البيهقي في الشعب رقم: ٣٤٩٨ .
- ٥٦- أخرجه أبو يعلى في مسنده عن عائشة رضي الله عنها رقم: ٤٣٨٦ ورواه الطبراني ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة نظراً لكثرة شواهد، وثم رواية: إن الله يحب إذا عمل العامل عملاً أن يحسن ، والحديث يتناول جانباً خاصاً من الحديث الصحيح الجامع: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء) رواه البخاري .

- [من بنى بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء ، أو غرس غرساً من غير ظلم ولا اعتداء كان له أجر جار ما انتفع به من خلق الله تبارك وتعالى] ^(٥٧) .
- [تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد :
الهرم] ^(٥٨)

وأمثال هذه الأحاديث التي تأمر ببعض عناصر الإعمار كثيرة جداً ، وسوف أعرض لنماذج أخرى فيما بعد ، وهكذا نجد جميع أضرب العمل مأموراً بها على المستوى العام وبالكثير من عناصرها الجزئية على المستوى الخاص . وإذا كان العمل بشكل عام جزءاً من الإيمان ، فإن كل أضرب العمل هذه أجزاء من الإيمان يزيد بوجودها وينقص بنقصها ، حتى إنه لا يجتمع مع بعضها ، فيغادر الإنسان إذا وجد بعضها كما جاء في حديث « لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » ^(٥٩) .

وقد نتصور وجود فارق كمي في المقدار الذي يأخذه كل عمل من الأعمال الجزئية من مساحة الإيمان ، غير أن الذي لا ينبغي تصوره هو وجود فرق بين أنواع العمل من حيث إنها أجزاء للإيمان .

واتساقاً مع هذه الروح القرآنية والحديثية فقد حاول بعض شراح الحديث أن يجمع شعب الإيمان ^(٦٠) أثناء شرحه لقوله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة » ، من خلال تتبع الأحاديث والآيات التي تحدثت عن الإيمان وأجزائه ، وعن البر وخصاله فجمع بضعاً وسبعين خصلة ، بعضها ينتمي إلى الأعمال العبادية مثل : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة والصوم والحج ، والعمرة .. وبعضها ينتمي إلى

٥٧- المسند رقم: ١٥٥٥٣ بإسناد حسن ، وقد أورده الهيثمي ٣ / ١٣٤ والأحاديث الثلاثة السابقة يصحح بعضها بعضاً ، ومن ثم أوردها جميعاً رغم تقارب معناها .

٥٨- رواه الترمذي في كتاب الطب رقم: ٢٠٣٨ ، وقال : حسن صحيح ، وكذلك رواه أبو داود في الطب رقم: ٣٨٥٥ وابن ماجه في الطب رقم: ٣٤٣٦ وصححه الحاكم في المستدرک رقم: ٤١٦ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ؛ فقد رواه عشرة من أئمة المسلمين .

٥٩- الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وهو في المسند رقم: ٨٩٨٥ ، ١٩٠٠٣ بأسانيد صحيحة .

٦٠- انظر هذه المحاولات عن ابن حبان وغيره في فتح الباري ص ٦٨ وما بعدها ، وقد أقام البيهقي على أساسها كتابه : شعب الإيمان ..

الأخلاقيات مثل : التواضع ، والجود ، والوفاء ، والرحمة ، والتوكل ، والأمانة ، والشكر والرجاء ، والخوف ، والصبر ، والرضا ، وبعضها ينتمي إلى الأعمال الإيمانية ذات الصلة بالإصلاح مثل : القيام بحقوق العيال ، وحسن تربية الأبناء ، وطاعة أولى الأمر ، وجمع المال من حله ، وإنفاق المال فى حقه ، وترك التبذير والإسراف ، وإمارة الأذى عن الطريق ، وكف الأذى عن الناس .."

وليس يعيننا الحكم على هذه المحاولات ومدى استيعابها لشعب الإيمان بقدر ما يعيننا توضيح أن كل هذه الأنماط من العمل هى أجزاء من الإيمان؛ لأنها أجزاء من العمل الذى جمع القرآن دائماً بينه وبين الإيمان ، فلا نكاد نجد آية قال فيها تعالى (الذين آمنوا) إلا وأردفها بقوله (وعملوا الصالحات) ، بل لقد تقدم العمل على الإيمان فى بعض الآيات كما فى نحو قوله جل شأنه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١١) وقوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ﴿١٢﴾ فَكَ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿١٧﴾ . وحتى يستقر بشكل تام أن العمل المقصود هنا يشمل كل أنماط العمل التى سبقت الإشارة إليها نسوق ما يؤكد أن هذا هو فهم النبي ﷺ لمعنى العمل الصالح أو عمل الخير المذكور فى القرآن ، فقد روى البخاري أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لما حدثهم النبي ﷺ عن الخيل ، وكيف أن فى إطعامها والقيام عليها ورعايتها أجراً كبيراً؛ لأنها يغزى عليها ، سأله عن رعاية الحمر ، وهى لا يغزى عليها وإنما تستخدم فى الزرع ، فقال ﷺ: «ما أنزل عليّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ فجعل ﷺ رعاية الحمر والقيام

٦١- الكهف : ١١٠ .

٦٢- سورة البلد : ١٢-١٧ .

٦٣- الحديث رواه البخاري فى كتب المساقاة والجهاد والمناقب والاستعراض أرقام / ٢٢٤٢ ، ٢٧٠٥ ، ٣٤٤٦ ، ٣٣٦٧ . والآيتان الكرمتان من سورة الزلزلة : ٧-٨ .

عليها لأنها تستخدم في الزرع مما يدخل في الآية الجامعة الفاذة، ومن ثم فعلى المسلم كلما قرأ في القرآن عن عمل الخير أن يعلم أن المقصود هو كل أضرِب العمل السابقة، وإلا كان فهمه مجافياً لفهم النبي ﷺ.

ب- العلاقة بين أنواع العمل علاقة تداخل :

المقصود بأن العلاقة بين أنماط العمل علاقة تداخل هو أن الارتباط بينها ليس ارتباطاً بين مكونات جامدة يأخذ كل منها مقداراً من مساحة الإيمان ، وإنما هو ارتباط مكونات متفاعلة تدخل في مركب بحيث يؤثر كل عنصر في الآخر ويتأثر به، كما يؤثر كل عنصر في المركب النهائي الذي هو الإيمان ويتأثر به، والسطور التالية مخصصة لبيان أثر كل نمط من أنماط العمل في غيره من الأنماط.

١- هناك علاقة وطيدة بين العبادة والأخلاق، فالعبادة الصحيحة المستكملة لشروطها منتجة للأخلاق لا محالة، فإن لم تكن منتجة للأخلاق فهي غير صحيحة وغير مستجمعة لشروطها ، ومن ثم غير مقبولة، كما قررت أحاديث كثيرة نحو : (كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش) ونحو: (من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه) ... ولأن العبادة غير المنتجة للأخلاق على هذا النحو غير مقبولة فقد قيل له ﷺ : إن فلانة يذكر من كثرة صيامها وقيامها غير أنها تؤذى جيرانها فقال : هي في النار^(٦٤).

وعكس ذلك أيضاً صحيح فالأخلاق تنتج الأعمال العبادية كما أن الأعمال العبادية تُنتج الأخلاق، فالرحمة تنتج الصلة، والجفاء ينتج القطيعة، والسماحة والكرم يؤديان إلى الصدقة ، والبخل ينتج الكثير من أعمال الشر ؛ ولذلك قال ﷺ : «إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٦٥) وهكذا يكون الخلق أمراً

٦٤- المسند رقم: ٩٣٣٨ ، بإسناد صحيح والحديث رواه ابن حبان رقم: ٢٥٥٤ ورواه الحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجال أحمد رجال الصحيح.

٦٥- المسند رقم: ٦٤٨٧ بإسناد صحيح والحديث أخرجه النسائي .

وصانعًا للعمل ، كما أمر الشح فاستجابوا لأمره .

٢ - والأمر كذلك في العلاقة بين العبادة والإعمار، فالعبادات تؤثر في الإعمار تأثيرًا حاسمًا، كالزكاة وهي عبادة ذات دور تنموي حاسم ، بعضه مباشر عن طريق مساهمتها في إتاحة رأس المال للفقير القادر على استثماره وتنميته ، وهذا هو الأصل في الزكاة : أن يُعطى منها للفقير القادر على العمل بقدر ما يعينه على القيام بعمله وإدارة حرفته^(٦٦) وبعض أثرها غير مباشر عن طريق تهيئة الأوضاع الاجتماعية للتنمية بإعالة غير القادرين ، وهو الدور الذي تساعدها فيه الصدقة، وكلا الدورين يقوم به نظام الوقف أحسن قيام . وعكس ذلك صحيح أيضًا فالإعمار يؤثر في العبادة، إذ به ترتبط الكثير من العبادات كالزكاة، والصدقة والحج، والجهاد، ومن ثم جاء في الحديث الشريف: (أن الله عز وجل قال: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)^(٦٧) وفي هذا السياق نفهم قوله جل شأنه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾^(٦٨) قال السدي: فإن المال هو قيام الناس وقوام معاشهم أي : عليه تقوم معاشهم كما نقول: (فلان قيام أهل بيته وقوام أهل بيته)^(٦٩). ومن ثم قال ﷺ بادروا بالأعمال ، سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ؟ (٧٠) فجعل الله الفقر منسياً، قال ابن العربي في عارضة الأحوذى : المعنى أنه ينسيه طاعة الله وذكره^(٧٠) .

٣ - وكذلك حال العلاقة بين الأخلاق والإعمار، فللأخلاق آثارها المباشرة على التنمية وللتنمية آثارها المباشرة على الأخلاق ، فالصدق - وهو خلق إسلامي أصيل - له دوره الحاسم في تهيئة المناخ المناسب للاستثمارات والمعاملات

٦٦- انظر : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، يوسف القرضاوى، ص ٩٣.

٦٧- المسند الحديث، رقم: ٢١٨٠٣ بإسناد صحيح.

٦٨- سورة النساء : (٥) .

٦٩- جامع البيان الطبري: ٣٠٢ / ٤.

٧٠- رواه الترمذي، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، رقم: ٢٣٠٦، وقال حسن غريب، ونص ابن العربي في

عارضة الأحوذى ٩ / ١٣٢ .

التجارية والمالية، وإلا فإن الكذب وشهادة الزور تضيع الحقوق ، وتخيف أصحاب الأموال ، كما تفعل الرشوة ذلك ، ومن ثم نص القرآن على تحريمها وبالغ الحديث الشريف في تأكيد حرمتها: (الراشي والمرثسي في النار)^(٧١) وفي رواية والرائش ، وهو الساعي بينهما بالرشوة. وعكس ذلك متصور أيضًا فإن لصعوبة الحياة وشظف العيش أثرًا لا يُنكرُ في أخلاقيات الإنسان وطباعه ، قال ﷺ : (من بدا جفا)^(٧٢) ومن هنا قيل للذي تصدق على سارق وعلى زانية (أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقة ، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها)^(٧٣) يقول الدكتور يوسف القرضاوي تعقيبًا على هذا الحديث الشريف: فظهر بهذا أثر الغنى في استعفاف الرجل عن السرقة ، واستعفاف المرأة عن الفاحشة^(٧٤) . ولا يشك متابع لتاريخ الأمم والمجتمعات في وجود علاقة وطيدة بين الهزائم العسكرية الكبيرة للدول والمجتمعات وانهيار منظومة القيم السائدة بها. وقد ربط النبي ﷺ بين الفقر المدقع وبعض صفات النفاق المناقضة لأخلاقيات الإيمان، قال ﷺ : « إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ، ووعد فأخلف »^(٧٥).

المبحث الثاني : تفسير علاقة أنماط العمل بالإيمان :

كما ترتبط أنماط العمل السابقة بعضها ببعض بعلاقة تأثير وتأثر، يرتبط كل منها بالإيمان [بمعنى التصديق] بعلاقة تأثير وتأثر فينتج كل نمط من هذه الأنماط عن الإيمان ، ويؤثر كل نمط منها فيه. ينطبق هذا على العبادات بقدر ما ينطبق على الأخلاقيات والإعماريات.

٧١- الحديث بهذا اللفظ في البحر الزخار رقم : ١٠٣٧ والمعجم الصغير رقم ٥٨ ، وباللفظ الغالب: لعن الله ، أو لعن رسول الله الراشي والمرثسي عند أبي داود ، والترمذي ، وصححه ، وابن حبان ، وقد صححه الحاكم والذهبي .

٧٢- المسند ، تمة مسند أبي هريرة أرقام ٩٣٩٠ ، ٨٦١٩ وهو أيضًا في مسند البراء بن عازب ١٨٤٥ .

٧٣- رواه البخاري ومسلم .

٧٤- مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام ، يوسف القرضاوي ص ١٥ وما بعدها ، والمؤلف يحيل على بحث : هل للردائل أسباب اقتصادية ، من كتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، للشيخ : محمد الغزالي رحمه الله .

٧٥- رواه البخاري في كتاب الاستقراض ، باب من استعاذ من الدين ، ورواه مسلم في كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، رقم : ٥٨٩ .

أ - علاقة الإيمان بالعبادة :

في التصور الحديثي ينتج الإيمان العبادة ويتأثر بها، أما أنه ينتج العبادة فأمر بدهى، ذلك أن التصديق بأحدية الخالق سبحانه وبِعظمتِه وقدرته وصفاته الحسنَى، ينتج بالضرورة وجوب طاعته، حياءً من معصية مَنْ هذه صفاته، وخوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه الذي وعده، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾^(٧٦)، ولذلك كثيراً ما يُدكَّرُ القرآن الكريم بهذه القضية عند الأمر بما هو مهم، أو عند النهى عما هو إثم كبير، إذ من غير المتصور أن يجتمع بالإيمان القوي مع الوقوع في المحارم، وقد مرت بنا أحاديث كثيرة في هذا المعنى نحو: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه)^(٧٧) ونحو: (لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)^(٧٨) ...

والحق أن من يحرص الأمور، ويصل بتحليلها إلى متنهاها يدرك كيف أن عدم التصديق الكامل من أهم ما يقف وراء المعصية، فمَنع الزكاة على سبيل المثال لا يتصور ممن يصدق قوله ﷺ: (ما نقص مال من صدقة)^(٧٩)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾^(٨٠). فلو استقر عند إنسان أن ما يؤتى من البركة يعوض ما أنفق من ماله لما بخل به، وبهذا المعنى يتناقض منع الزكاة مع الإيمان، وهو يتناقض معه بمعنى آخر، هو أنه يتناقض مع خلق الحياء، والحياء من الإيمان، ذلك أن من الحياء ألا يغفل الموهوب أمر الواهب في هبته، والمعطى في عطيته، إن من يفعل ذلك يبدو بين أمرين: إما عدم الحياء حيث يستخدم النعم في المعصية، أو عدم التصديق بأنه مستخلف في ماله، وكأنه يقول كلمة قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٨١).

٧٦- التوبة / ١١١.

٧٧- رواه البخاري في كتاب الأدب، رقم: ٥٦٧٠، ورواه مسلم في كتاب الإيمان بلفظ قريب رقم: ٤٩.

٧٨- الحديث رواه البخاري ومسلم، وهو في المسند رقم: ٨٩٨٥ بإسناد صحيح، كما ذكر المحقق.

٧٩- رواه - البزار - في البحر الزخار، مسند عبد الرحمن بن عوف رقم: ١٠٣٢ وهو في المعجم الصغير عن

أم سلمة رضي الله عنها رقم: ١٤٢.

٨٠- سبأ / ٣٩.

٨١- القصص / ٧٨.

وكذلك الأمر عندما يحيف إنسان في وصيته وقسمة ماله بين ورثته، ذلك أنه بفعله هذا يكون كمن لا يصدق بقوله جل شأنه: ﴿أبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ إذ إنه بفعله يكون كمن يقول: بل أنا أدري بمن ينفعني، وهكذا ...

وكما ينتج الإيمان الطاعة، فإنه كذلك ينشأ عنها كما ذكرت من قبل، فالطاعة مصدر لحب الله وتوفيقه وتثيبته وهداه، وهي أمور لازمة لاستمرار الإيمان إزاء المحن التي لا تنفك حياة الإنسان عنها، بقدر ما يمثل عدم الطاعة مصدرًا لأن يترك الإنسان للشيطان وللنفاق يتسلل إليه، ومن هنا كان النبي ﷺ يدعو ويعلم المسلمين أن يدعوا مُثَبِّتِ القلوب أن يثَبِّت قلوبهم على دينه، روى مسلم في صحيحه: «كان النبي يكثر أن يقول: يا مُثَبِّتِ القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا، قال نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها»^(٨٢).

ب. علاقة الأخلاق بالإيمان:

هذه العلاقة بين الإيمان والعبادة متصورة على النحو نفسه بين الإيمان والأخلاق، فالإيمان منتج للأخلاق، تنبع منه سجايا الإسلام التي ترتبط به، وتعد من أركانه، كالصدق والوفاء والأمانة والشكر والكرم [وإن في حده الأدنى الذي يعنى عدم البخل بالحقوق]، فالصدق على سبيل المثال ينبع من الإيمان، من حيث إن الدافع إلى الكذب هو الخوف من غير الله، وإكبار من سواه، ومن ثم جاء في الحديث أن المؤمن لا يكون كذابًا أبدًا^(٨٣). والكرم [وإن في حده الأدنى كما سبق] ينبع من الإيمان؛ إذ إنه يرتبط بالثقة فيما عند الله من الرزق،

٨٢- الحديث رواه مسلم رقم: ٢٦٥٤ ورواه الترمذي رقم: ٢١٤٠ وصححه، وهو في المسند رقم: ١٢٠٤٦ بإسناد صحيح.

٨٣- الإحالة على حديث: (أ يكون المؤمن كذابًا قال لا) رواه مالك في الموطأ رقم: ١٧٩٠ كتاب الكلام، باب ما جاء في الصدق والكذب.

﴿ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٨٤﴾ كما يرتبط بالثقة بأنه ما نقص مال من صدقة، وبالآمان الذي يوفره الإيمان بالله والركون إليه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ ﴿٨٥﴾ . ومن ثم يلفت نظر المهتم بعلم المناسبة بين الآيات أن قصة ضيف إبراهيم المكرمين جاءت مباشرة بعد قوله جل شأنه: ﴿ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٨٦﴾ فقد أقسمت الآيات وأكدت على أن الرزق في السماء تنزيلاً للمخاطب منزلة من يشك ؛ لأن الناس بأفعالها تبدو كأنها لا تصدق ، ومن ثم جاء الحديث عن إبراهيم - عليه السلام - ليعرض الصورة المقابلة ، صورة كرم من يثق فيما عند ربه ، ومن أولى بذلك من شيخ المسلمين المستسلمين الذين لهم الأمان وهم مهتدون .

كذلك يرتبط رسوخ الإيمان بعدم الفرق والفرع والهلع ؛ إذ يعنى رسوخ الإيمان رسوخ العلم بأن ما كتب واقع لا محالة :

أي يومي من الموت أفرُّ يوم لا يقدر أو يوم قُدرُ
يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجى الحذرُ

وكذلك لا يستقيم الهلع مع اليقين بعدم معرفة خيرية الأمر من شره ، إذ العبرة بالمآل ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ﴿٨٧﴾ و«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» ﴿٨٨﴾ . والإيمان بهذه المعاني لا يوصل الإنسان أبدًا إلى الحالات القصوى من

٨٤- الذاريات : ٢٣ .

٨٥- الأنعام / ٨٣ .

٨٦- الذاريات (٢٢-٢٦) .

٨٧- النساء / ١٩ .

٨٨- رواه مسلم في كتاب الزهد ، رقم: ٢٩٩٩ ، وهو في صحيح ابن حبان، كتاب الجنائز رقم: ٢٨٩٦ .

الإحباط والقنوط: ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(٨٩) ولا يوصله
أبدًا إلى الحالات القصوى من الهلع والفرع ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَإِيَّاهُمْ لَمِينُكُمْ وَمَا
هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾^(٩٠). وهكذا مع الصبر والشكر والأمن والأمل
والحياء نستطيع أن نجدها في النهاية أخلاقًا تنبع من الإيمان وترتبط به.

إن العلاقة بين الإيمان والأخلاق بشكل عام علاقة عضوية ومن ثم كانت
نواقص الإيمان مجموعة من الأخلاقيات التي ترتبط بالنفاق، وهو نقيض الإيمان
قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن
خان»^(٩١)، وقال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة
منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر،
وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»^(٩٢).

وكما تنبع الأخلاق من الإيمان ينبع الإيمان من الأخلاق، ينبع من أخلاقيات
التواضع والشكر والرضا والحياء، كما ينبع الكفر من أخلاق الكفر، وأهمها الكبر
وما يجلبه من بغى وحسد. إن التواضع خلق من أخلاق الإسلام: «من تواضع
لله رفعه»^(٩٣) وهو خلق يرتبط ارتباطًا طردياً بحزمة من السجايا نحو: السماح
وعدم الحسد والرضا. وخلق التواضع بهذا المعنى خلق جالب للإيمان، بحيث
نستطيع أن نتوقع أن الدين لا يعرض على من هذه صفاته فيرفضه قال تعالى:
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ
مُودَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصٌ وَرُهْبَانٌ وَأَنَّهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٩٤) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ

٨٩- الحجر / ٥٦.

٩٠- التوبة / ٥٦.

٩١- الحديث رواه البخاري ومسلم، وزاد مسلم وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وهو في المسند
رقم: ٥٧٦٨ بإسناد صحيح، كما ذكر المحقق.

٩٢- رواه الشيخان كسابقه، وهو في المسند رقم: ٦٧٦٨٠ بإسناد صحيح.

٩٣- شعب الإيمان، السابع والخمسون من شعب الإيمان، وهو باب في حسن الخلق، فصل في التواضع،
الحديث رقم: ٨١٤٠، ورقم: ٨٢٢٩، عن عمر ﷺ ولفظة (من تواضع لله رفعه فهو في نفسه صغير وفي
أعين الناس عظيم).

مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴿٩٤﴾. لقد دعاهم تواضعهم إلى الإيمان، لأنه أبعدهم عن دوافع الرفض وعدم الإيمان، وأهمها - كما جاء في القرآن الكريم - البغي والحسد والتعالي، وكلها أعراض أو مرادفات للكبر الذي يدفع الإنسان إلى أن ينكر أن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿٩٥﴾ وأنه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٩٦﴾ للكفر إذ أن أخلاق تدعو إليه وتجلبه، وللإيمان أخلاق تدعو إليه وتجلبه وتعد مصدرًا له، يؤمن صاحبها بمجرد أن تصله الدعوة وبأيسر الطرق. وهذه مسألة يشاهدها كل من له صلة بحقل الدعوة ممارسة أو متابعًا، وقد سجل النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في حديث بالغ الأهمية لا يحتاج من يتأمله إلى شرح أو تعليق، هو قوله ﷺ: «لو كان الإيمان في الثريا لنالته أقوام منهم سلمان» ﴿٩٧﴾ كما سجل في وضوح شديد أن التحاسد والتباغض يحلق الدين ويزيل الإيمان قال: (دب إليكم داء الأم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر) ﴿٩٨﴾.

الأخلاق والإيمان إذن شيء واحد من امتلك هذه يمتلك هذا، ومن امتلك هذا يوصله إلى هذه، وهنا يمكن أن نفهم قوله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ﴿٩٩﴾ فلا نرى فيه مبالغة يقصد بها التأكيد على أهمية الأخلاق، بل نرى فيه حقيقة مؤكدة بالقصر بـ (إنما) التي لا تقال [كما يقول البلاغيون] في ابتداء

٩٤-المائدة / ٨٣.

٩٥- الأنعام / ١٢٤.

٩٦- آل عمران / ٧٤.

٩٧- رواه مسلم بلفظ: لو كان الإيمان عند الثريا لنالته أقوام من هؤلاء، وهو عند الترمذي في كتاب التفسير رقم: ٣٣١٠، وقال حسن غريب، وهو عنده كذلك رقم: ٣٣٦١، ورقم: ٣٩٣٣ وفي صحيح ابن حبان رقم: ٧٣٠٨ بلفظ لو كان الإيمان معلقًا بالثريا لتناوله رجال من قوم هذا، يقصد سلمان ﷺ.

٩٨- رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة رقم: ٢٥١٠، عن الزبير رضي الله عنه، ورواه عن أبي الدرداء، وقال حديث حسن صحيح، ولفظه لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والحديث رواه أحمد في مواضع كثيرة ورواه أبو داود في مسنده، رقم: ٦٦٩ البيهقي في السنن رقم: ٢١٦٦٨ والبراز في البحر رقم: ٢٢٣٣.

٩٩- رواه الحاكم في المستدرک، باب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين رقم: ٤٢٢١ عن أبي هريرة، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه البيهقي في السنن الكبرى رقم: ٣١٣٧٩.

كلام أبدأً: فقولك: ما أنت إلا أخي، وإنما قام أنا، لا يكون هذا ابتداءً أبدأً، وإنما يكون ردًا على آخر، كأنه ادعى أنه أخ ومولى وأشياء آخر، فنفاها وأقر له بالأخوة أو زعم زاعم أنه كانت منك أشياء سوى القيام فنفيها كلها ما خلا القيام^(١٠٠) وعلى هذا فمعنى الحديث: أنني لم أبعث لشيء آخر، ولكنني بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وتفسير ذلك أن من مكارم الأخلاق: العدل والشكر والحياء، والعدل ضده الظلم، وليس من ظلم أكبر من الشرك بالله عز وجل، وقد سمي القرآن الشرك ظلمًا: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١٠١) والشكر ضده الجحود، ولا يكون الكفر إلا عن جحود بنعم الله تعالى، ولذلك كان الكفر ضد الحياء، إذ ليس من الحياء أن يعصى الإنسان خالقه مستخدمًا في عصيانه الأدوات التي وهبها له، فمن أراد عصيانه فلا يشرب من مائه، وليخرج من تحت سمائه، وليلمس قدرات ذاتية غير التي وهبها له، وإلا كان عديم الحياء. وجماع ذلك كله في تعريف النبي للحياء من الله عز وجل، حيث روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال «قال رسول الله ﷺ: استحووا من الله حق الحياء قال: قلنا يا رسول الله إنا نستحي والحمد لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك استحيا من الله حق الحياء»^(١٠٢) وحفظ الرأس وما وعاه [وما وعاه الجوارح والمخ الذي يسيطر عليها] يكون. كما قد ذكر المباركفوري - بالأستعمل هذه النعم في معصية الله الذي وهبها، فلا يكون خير الله للإنسان نازلا، وشره إليه صاعدا، ولا يتقرب الرحمن لعبده بالنعم فيبتعد عنه بالذنوب، ولا يخلقه سبحانه ويعبد المخلوق غيره، ولا يرزقه ويشكر سواه، فمن استكمل مكارم

١٠٠- دلالات التراكيب، محمد محمد أبو موسى ص ٨٣ وما بعدها.

١٠١- لقمان / ١٣

١٠٢- رواه الترمذي عن ابن مسعود، وصححه الحاكم، وانظر شرح المباركفوري له في تحفة الأحوذى . ١٣١ / ٧

الأخلاق لا تكون هذه هي حاله مع ربه أبدًا ، سواء صحت هذه المعاني مرفوعة في الحديث الذي رواه البيهقي في شعب الإيمان والحاكم عن أبي الدرداء: (إني والجن والإنس في نأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي) أو لم تصح إذ ضعفه السيوطي في الجامع الصغير ، إلا أن هذه المعاني في ذاتها صحيحة ، فلا حياء ولا شكر ولا عرفان لمن أشرك بربه أو عصاه .

ج - العلاقة بين الإيمان والعمران :

لا تقل العلاقة بين الإيمان والعمل الإيماني أهمية عن العلاقة بين الإيمان والعبادة ، أو العلاقة بين الإيمان والأخلاق ، وتفسير ذلك أن الإيمان صانع للإعمار ، بمعنى أن الالتزام بمكوناته كلها ينتج بالضرورة إعمارًا وتنمية شاملة ، كما أن التنمية مقوية للإيمان ، لازمة لاستمراره وحمايته وانتشاره ، ومن ثم فإن عدمها يؤثر فيه سلبًا على نطاق واسع ، ومن هنا فهي واجبة دينيًا ، بل لعلها الآن من أوجب الواجبات ، وإن كان هذا المعنى يغيب عن ثقافة عامة المسلمين بل وربما بعض خاصتهم .

ونظرًا لتشعب عناصر هذه العلاقة بين الإيمان والإعمار وتداخلها فسوف تعالجها الصفحات التالية من خلال ستة مبادئ أحسب أنها كافية لشرحها وتأكيداتها ، وإن كنت لا أزمع أنها تحيط بكل أشكال هذه العلاقة الجوهرية ، هذه المبادئ الست هي :

١ - التنمية لازمة للكثير من فرائض الإيمان :

الإيمان يستلزم بالتنمية من حيث إن القدرة والاستطاعة والقوة شروط لتنفيذ الكثير من مكوناته العبادية كالحج والزكاة والصدقة ، والجهاد ، ... ومن هنا قال ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»^(١٠٣) ومن هنا كذلك

١٠٣- رواه مسلم في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، رقم: ٢٦٦٤ ، وهو في صحيح ابن حبان رقم: ٥٧٢٠ ، وهو في مسند أحمد بإسناد صحيح رقم: ٨٧٩٨ .

لاحظ فقراء الصحابة أن بعض العبادات ذات الثواب الكبير مرتبطة بالغنى ، فقالوا لرسول الله ﷺ : «ذهب الأغنياء بالأجر» لأنهم إضافة إلى قيامهم بالعبادات المشتركة يزكون ويتصدقون؛ ومن ثم فإن لديهم فرصة أعلى لإفادة المجتمع . وإفادة المجتمع محدد أساسي من محددات الأجر في الإسلام، فمن يتتبع فلسفة الثواب والعقاب في الإسلام يدرك أن هناك صفات يكون العمل أكثر أجراً في وجودها، ومن أهم هذه الصفات الإخلاص، وتعدى أثر العمل إلى الغير، ولذلك دل النبي ﷺ في الحديث السابق سائله الفقير على مجموعة من الأفعال التي يفيد بها المجتمع ، وكان المسلم - كما يلاحظ الدكتور يوسف القرضاوى - عليه ضريبة اجتماعية يفيد الناس بها، فإن أمكن أداؤها بماله فيها ونعمت ، وإن لم يمكن بماله فبصحته، أو بلسانه، أو بعقله ونصيحته للأئمة المسلمين وعامتهم ، وهل يكون الإعمار إلا بأداء مثل هذه الضرائب الاجتماعية؟

جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، ذهب الأغنياء بالأجر يصلون ويصومون ويحجون، قال: وأنتم تصلون وتصومون وتحجون، قلت يتصدقون ولا نتصدق، قال وأنت فيك صدقة، رفعك العظم عن الطريق صدقة، وهدايتك الطريق صدقة، وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة، وبيانك عن الأرتم [الذي لا يستطيع أن يعرب عن نفسه] صدقة، ومباضعتك امرأتك صدقة، قال : قلت يا رسول الله : نأتي شهوتنا ونؤجر؟ قال : أرايت لو جعلته في حرام أكان تأثم ؟ قال : قلت : نعم، قال : فتحسبون بالشر ولا تحسبون بالخير؟»^(١٠٤) ومعنى هذا أنه يأخذ صدقة على معاشرته زوجته ؛ لأنه يعف نفسه ويعف زوجته عن الحرام . وعنه رضي الله عنه أنه قال: «على كل مؤمن صدقة، قال: أفرأيت إن لم يجد؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قال: أفرأيت إن لم يستطع أن يفعل؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف ، قال أرايت إن لم يفعل؟ قال : يأمر بالخير أو بالعدل، قال أرايت

١٠٤- الحديث رواه أبو داود رقم: ٥٢٣٤ ، وهو في المسند رقم: ٢١٢٦٠ بإسناد صحيح .

إن لم يستطع أن يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنه له صدقة»^(١٠٥).

إن من يتتبع أهمية الصدقة في الإسلام يدرك أن على المسلم كما جاء في الحديث أن يعمل بيده ويتصدق، ولذلك جاء في فضل زينب - رضي الله عنها - تفسيراً لقوله ﷺ «أقربكن لحوقاً بي أطولكن يداً» أنها «كانت امرأة صناع تعمل بيدها وتتصدق»^(١٠٦) أي كانت - رضي الله عنها - تتقن صنعة وحرفة ، فتعمل وتتصدق .

وللصدقة مكانة سامية بين عبادات الإسلام ، ففي الحديث النبوي الشريف: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(١٠٧) ، ويد المعطى العليا «والصدقة تطفى الخطيئة كما تطفى الماء النار»^(١٠٨) ، و«من أحب أن يظله الله - عز وجل - في ظله فلينظر المعسر أو ليضع عنه»^(١٠٩) ولا يكون ذلك إلا لصاحب مال ، وقال ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها»^(١١٠) ، «ولا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن ... ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»^(١١١) «وما من عبد مؤمن تصدق بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله إلا طيباً ، ولا يصعد إلى السماء إلا طيب ، إلا وهو يضعها في كف الرحمن فيريها له ، كما يربي أحدكم فلؤوه أو فصيله ، حتى إن الثمرة لتكون مثل الجب

-
- ١٠٥- الحديث رواه البخاري في الوصايا ، ورواه مسلم رقم: ٢٤١ ، ورواه الترمذي رقم: ١١١٦ ، وقال حسن صحيح ، وهو في المسند رقم: ١٩٤٢٤ بإسناد صحيح .
- ١٠٦- البحر الزخار : مسند البزار ، عن عمر رضي الله عنه رقم: ٢٤١ ، وقد نسب هذا المعنى خطأً في البخاري والنسائي إلى سودة رضي الله عنها ، والصحيح كما حقق ابن حجر أن المقصود زينب رضي الله عنها .
- ١٠٧- الحديث رواه البخاري ومسلم بالفاظ قريبة ، وقد رواه أحمد في مواضع كثيرة جداً بأسانيد صحيحة نحو: ٤٤٧٤ ، ٧١٥٥ ، ٧٣١٥ .
- ١٠٨- رواه الحاكم بهذا اللفظ في كتاب الفتن رقم: ٨٣٠٢ ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وهو بلفظ قريب عند ابن حبان في كتاب الزكاة رقم: ٣٣٠٩ .
- ١٠٩- رواه مسلم رقم: ٣٠٠٦ في الزهد ، والترمذي رقم: ١٣٠٦ وقال حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه في الصدقات رقم: ٢٤١٨ الدارمي في البيوع رقم: ٢٥٨٨ .
- ١١٠- رواه البخاري في مواضع كثيرة منها كتاب الجماعة والإمامة رقم: ٦٢٩ وكتاب الرقاق رقم: ٦١١٤ ورواه مسلم في كتاب الزكاة رقم: ١٠٣١ ، وهو عند الترمذي في كتاب الزهد رقم: ٢٣٩١ وقال حديث حسن صحيح .
- ١١١- رواه البخاري في كتاب العلم رقم: ٧٣ وفي كتاب الزكاة رقم: ١٣٤٣ .
- ١١٢- الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي وصححه ، وهو في المسند ، رقم: ٩٣٨٧ ، بإسناد صحيح .

لا لعظيم»^(١١٢) و«من ستر مسلماً في الدنيا ستره الله عز وجل في الدنيا والآخرة ، ومن نجى مكروباً فك الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله عز وجل في حاجته»^(١١٣) «من نَفَسَ عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة»^(١١٤) ، و«أربعون حسنة أعلاها منيحة العنز، لا يعمل عبد بخصلة منها رجاء ثوابها أو تصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة»^(١١٥) .

- و«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... صدقة جارية»^(١١٦) .
 - و«إن رجلاً كان قبلكم، أتاه ملك ليقبض نفسه، فقال هل عملت من خير قط ؟ فقال ما أعلم، قيل له انظر، قال ما أعلم شيئاً غير أني كنت أبايع الناس وأجازفهم، فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة»^(١١٧) .

ولذلك كان النبي ﷺ دائم الأمر بالصدقة، فعن أبي برزة رضي الله عنه قال: «ما قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً إلا أمرنا بالصدقة»^(١١٨) وجماع ذلك كله أن القرآن جعل الصدقة مصدراً لتطهير النفوس، ﴿ خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(١١٩) وجعلها مصدراً لتثبيتها على الإيمان: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾^(١٢٠) وجعلها مصدراً للوصول إلى البر [الإيمان] بل لا يصل الإنسان إلى البر إلا بها: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾^(١٢١) .

١١٣- رواه مسلم رقم: ٢٦٩٩ .

١١٤- المسند رقم: ٢٢٤٨٥ بإسناد صحيح ورقم: ١٥٤٦٠ ، وهو في سنن الدارمي ، كتاب البيوع رقم: ٣٤٩١ .

١١٥- الحديث رواه البخاري، وقد وردت في المنيحة بشكل عام أحاديث كثيرة صحيحة ، انظر على سبيل المثال المسند رقم: ٧٢٩٩ وهو حديث رواه مسلم أيضاً، ورقم: ٤٤١٥ وهو في البخاري، ورقم: ٨٦٨٦ ، وهو حديث أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ورمز له برمز الصحة .

١١٦- رواه الترمذي في كتاب الأحكام ، رقم: ١٣٧٦ ، وقال حسن صحيح ، ورواه النسائي في كتاب الوصايا ، رقم: ٣٦٥١ .

١١٧- الحديث رواه البخاري في كتاب البيوع ، رقم: ١٩٧١ وفي كتاب الأنبياء رقم: ٣٢٦٦ ، وهو في المسند رقم: ٢٣١٤٦، ٢٣٢٤٦، بإسناد صحيح .

١١٨- رواه أبو داود في الجهاد باب النهي عن المثلة رقم: ٢٦٦٧ ، وهو في المسند رقم: ١٩٨٢٤ بإسناد صحيح .

١١٩- التوبة / ١٠٣ .

١٢٠- البقرة / ٢٦٥ .

١٢١- آل عمران / ٩٢ .

وتلحق بالصدقة صلة الرحم ومنها الصدقة على ذوى الأرحام، ولصلة الرحم مكانة سامقة فى الإسلام قال ﷺ: «الرحم من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعته الله»^(١٢٣)، وقال «من أحب أن يمد له فى عمره، وأن يزداد له فى رزقه، فليبرِّ والديه وليصل رحمه»^(١٢٣) إلى آخر الأحاديث التي تأمر بالصلة وهى كثيرة جدًا.

والارتباط بين الغنى والصدقة والصلة ارتباط قوى، لاسيما أن الحديث الشريف يجعل «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»^(١٢٤) وفى رواية «أفضل الصدقة ما ترك غنى» بل لقد جاء فى الحديث أنه «لا صدقة إلا عن ظهر غنى» تصديقًا لقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(١٢٥).

ومن ثم نستطيع أن نقرر خطأ من فهم أن الأحاديث التي تحذر من أن يطغى الغنى الإنسان أو يدفعه إلى الشح والبخل تفضل الفقر على الغنى، والبون شاسع بين تفضيل الفقر والتخويف من البخل مع الغنى، بل لقد زاد الوهم بالبعض حتى نسب الفقر إلى النبي ﷺ غافلا عن أنه بذلك إنما يعارض القرآن الذي امتن على النبي بأنه تعالى وجده فقيرًا فأغناه: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(١٢٦) وغافلا عن أن هذا الوهم إنما يعنى أن النبي ﷺ لا يُستجاب دعاؤه، إذ كان دائم الاستعاذة من الفقر والدين، وكان يعلم المسلمين أن يستعيذوا منهما، فهل لم يجب الله دعاء نبيه الذي كان يدعو به ليل نهار؟

إن هذا الوهم يعود بشكل أساسي إلى فلسفات غير إسلامية، وربما كان من مصادره ما عرف عنه ﷺ من زهد شديد فى الدنيا، والحق أن الزهد لا يكون إلا مع الغنى والمقدرة، وربما كان مصدره ما عرف عنه ﷺ من أنه كانت تأتى عليه أوقات لا يجد المال فيها، والسبب الحقيقي لهذا أنه لم يكن يمسك المال، ولم يكن

١٢٢- الحديث رواه البخاري فى التفسير رقم: ٤٨٣٠ ورواه مسلم فى البر رقم: ٢٥٥٥، وهو فى المسند

الحديث رقم: ٢٤٢١٧، بإسناد صحيح .

١٢٣- الحديث عند البخاري فى البيوع رقم: ٢١٩١٦١ وفى الأدب أرقام ٥٦٣٩، ٥٦٤٠، ٥٧٨٧ وعند مسلم فى البر والصلة رقم: ٣٥٥٧، وهو فى المسند الحديث رقم: ١٣٣٣٤ بإسناد صحيح، ورقم: ١٢٥٢٦ .

١٢٤- الحديث رواه البخاري، وهو فى المسند رقم: ١٠٧٩٥، ورقم: ١٤٣٢ بإسناد صحيح كما ذكر المحقق .

١٢٥- الإسراء / ٢٩ .

١٢٦- الضحى / ٨ .

يقبل أن يبیت عنده منه شيء ، ومن ثم ينفق كل ما يأتيه منه في اليوم الذي يأتي فيه مهما كان كثيراً^(١٢٧) . وقد أحصى الإمام السيوطي في تفسيره مصادر ثروة النبي ﷺ فظهر أنها كبيرة^(١٢٨) ، وهذا يفسر أنه ﷺ كان في أخريات حياته يسدد ديون كل من مات من المسلمين وعليه دين ، قال عليه السلام : «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؛ فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فلورثته»^(١٢٩) .

وإذا كان التحبيب في الصدقة والصلة يعنيان السعي إلى الغنى ؛ ومن ثم إلى العمل وهو وسيلة الإعمار ، فإن في الحديث الشريف أموراً كثيرة مرتبطة بالفقر مذمومة ذمها هائلاً مما يُخَوِّفُ المسلمَ من الفقر ، من ذلك الدين ، والتقصير في حقوق من يعولهم الإنسان ، وسؤال الناس والاحتياج إليهم . وسوء عاقبة هذه الأمور ينفر المسلم منها تنفيراً كبيراً ، ومن ثم ينفره من كل ما من شأنه أن يؤدي إليها كالفقر والكسل والعجز وغيره مما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الاستعاذة منه : «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»^(١٣٠) .

وسوف أذكر بعض الأحاديث في التحذير من الدين ، وفي التقصير في حق من يعوله الإنسان والمسألة ، ذلك أن هذه الأحاديث توصل المؤمن إلى حالة نفسية لا يمكن أن تحيط بها الصفة ، وتجعل من يتدبرها على درجة هائلة من النفور من العجز والكسل وما يؤديان إليه ، من ذلك :

- من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين

١٢٧- انظر في هذا المعنى صحيح البخاري ، الحديث رقم : ٨١٣ ، باب من صلى بالناس فذكر حاجة فتخطاهم ، حيث يرفض النبي أن يمسي عنده شيء من المال ، فيسرع لإنفاقه ، وحديث ابن حبان في كتاب الرقاق رقم : ٧١٥ ، قال ﷺ : رافضاً أن يبیت عنده شيء من المال : (ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده) ، وسبحان خالق من هذه صفاته .

١٢٨- انظر الدر المنثور للسيوطي ، تفسير سورة الحشر في مواضع متفرقة .

١٢٩- رواه البخاري ، كتاب الفرائض رقم : ٦٣٦٤ واللفظ لمسلم : كتاب الفرائض رقم : ١٦١٩ .

١٣٠- رواه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب في الاستعاذة ، رقم : ١٥٥٥ .

والغلول^(١٣١).

- يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين^(١٣٢).
- جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ما لى يا رسول الله إن قتلت فى سبيل الله قال الجنة، قال فلما ولى قال إلا الدين سارنى به جبريل - عليه السلام - أنفأ^(١٣٣).
- إن من أعظم الذنوب عند الله - عز وجل - أن يلقاه عبد بها بعد الكبائر التي نهى عنها - أن يموت الرجل وعليه دين لا يدع قضاء له^(١٣٤).
- من سأل من غير فقر فكأنما يأكل الجمر^(١٣٥).
- من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً^(١٣٦).
- لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وما فى وجهه مزعة لحم^(١٣٧).
- لا يفتح الإنسان على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر .^(١٣٨)
- إن المسألة حرمت إلا فى ثلاث : رجل تحمل بحمالة حلت له المسألة حتى يؤديها ثم يمسك، ورجل أصابته فاقة أو حاجة حتى يشهد له ثلاثة من ذوى الحجا من قومه أنه قد أصابته حاجة أو فاقة إلا حلت له المسألة ، فيسأل حتى يصيب قواماً من عيش ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله حلت له المسألة فيسأل حتى يصيب قواماً من عيش أو سداداً من عيش ثم يمسك، وما كان سوى ذلك من المسألة سحت^(١٣٩).

-
- ١٣١- رواه الترمذي رقم: ١٥٧٣ ، وابن ماجه رقم: ٢٤١٢، وهو فى المسند رقم: ٢٢٢٦٩ بإسناد صحيح.
 - ١٣٢- المسند رقم: ٧٠٥١ بإسناد صحيح والحديث رواه مسلم.
 - ١٣٣- المسند رقم: ١٨٩٧٨ ، ١٨٩٧٧، بإسناد صحيح والحديث ، رواه النسائي فى كتاب الجهاد رقم: ٣١٥٥ .
 - ١٣٤- رواه أبو داود رقم: ٣٣٤٢ وحكم عليه بالصحة، وكذلك صححه الحاكم ٢ / ١٨٢ ووافقه الذهبي، والحديث فى المسند رقم: ١٩٣٨٧ غير أن إسناده فى المسند ضعيف.
 - ١٣٥- رواه مسلم رقم: ١٠٤١، وهو فى المسند الحديث رقم: ١٧٤٣٨ بإسناد صحيح ، وله فى المسند روايات أخرى كثيرة صحيحة.
 - ١٣٦- المسند الحديث رقم: ١٦٣٦٣ بإسناد صحيح ، وهو عند النسائي فى كتاب الزكاة: ٢٥٩٦ ، وفى سنن أبي داود ، كتاب الزكاة رقم: ١٦٣٧ .
 - ١٣٧- رواه البخاري ، كتاب الزكاة رقم: ١٤٠٥ ، وهو عند مسلم فى كتاب الزكاة رقم: ١٠٤٠، وهو فى المسند الحديث رقم: ٥٦١٦ بإسناد صحيح .
 - ١٣٨- رواه الترمذي رقم: ٢٣٢٥ وقال حديث حسن صحيح.
 - ١٣٩- رواه مسلم فى كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس رقم: ١٠٤٤ ، وهو عند أبي داود والنسائي والدارمي وابن حبان جميعهم فى كتاب الزكاة، وهو فى المسند رقم: ١٥٨٥٩ بإسناد صحيح.

- لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به^(١٤٠) .
- عن أبي ذر قال : دعاني رسول الله ﷺ فقال: هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟ قلت
نعم وبسطت يدي ، فقال : رسول الله ﷺ [وهو يشترط عَلَيَّ] : على ألا تسأل
الناس شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال : ولا سوطك أن يسقط منك حتى تنزل إليه
فتأخذه^(١٤١) .

- عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: من يتكفل لى بواحدة وأتكفل له بالجنة قال ثوبان:
أنا ، قال : لا تسأل الناس ، يعنى شيئاً قال نعم ، فكان ثوبان يقع سوطه وهو
راكب فلا يقول لأحد ناولنيه حتى ينزل فيأخذه^(١٤٢) .

- ازهد فيما فى أيدي الناس يحبك الناس^(١٤٣) .
- اليد العليا خير من اليد السفلى ، فاليد العليا هى المنفقة والسفلى هى
السائلة^(١٤٤) .

- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته^(١٤٥) .

- كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت^(١٤٦) .

وما قيل عن الصدقة يقال عن الكثير من تكاليف الإسلام كالحج والزكاة وهما
ركنان من أركان الإسلام ، وكالجهاد وهو ذروة سنامه ، فكل هذه تكاليف لا
يقوم بها إلا المؤمن القوى القادر الغنى ، ومن ثم فإن أهميتها تعنى أهمية
القدرة التي تمكن منها ، ومن ثم أهمية العمل الذي يوصل إليها، والعمل ينتج
الإعمار والتنمية.

١٤٠- الحديث رواه الترمذي رقم: ٦١٤ ، وقال حسن غريب ، وابن حبان رقم: ١٥٦٩ ، وقد صححه الحاكم ،
وهو في المسند رقم: ١٤٣٧٨ بإسناد صحيح.

١٤١- المسند الحديث رقم: ٢١٤٠١ بإسناد صحيح ، وهو حديث انفرد به أحمد ، غير أن رجاله ثقات مشاهير
أجلاء ، وله شواهد كثيرة منها حديث ثوبان الآتي .

١٤٢- المسند رقم: ٢٢٢٦٦ بإسناد حسن ورقم: ٢٢٢٨٥ كذلك والحديث صحيح ، صححه الحاكم ووافقه
الذهبي .

١٤٣- رواه الحاكم فى المستدرک كتاب الرقاق رقم: ٧٨٧٣ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

١٤٤- الحديث رواه البخاري ومسلم ، وهو في المسند أرقام ٤٤٧٤ ، ٧١٥٥ ، ٧٣١٥ بإسناد صحيحة .

١٤٥- رواه مسلم فى الإمارة رقم: ١٨٣٩ ، وأبو داود فى الخراج والإمارة رقم: ٣٩٣٨ ، والترمذي فى الجهاد .

١٤٦- المسند رقم: ٦٨١٩ ، بإسناد صحيح والحديث رواه الحاكم ووافقه الذهبي .

٢- الإيمان يأمر على نحو مباشر بالتنمية :

إذا كان الإيمان ملزماً بالعمران من حيث إن العمران شرط في القيام بكثير من تكاليفه فإنه منتج للعمران من حيث إن العمران مأمور به بشكل مباشر، ومن ثم فالقيام به يعد تعبدًا لأنه تنفيذ لأوامر مباشرة، ولأنه أداء لوظيفة الإنسان في الأرض، ووظيفته في الأرض كما جاء في القرآن الكريم هي إعمارها: قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(١٤٧) ومعنى استعمركم فيها أي: طلب منكم إعمارها وإصلاحها، ونهاكم عن إفسادها: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^(١٤٨). إن إدارة الأرض على نحو يصلحها ويعمرها هو معنى خلافة الإنسان عن رب العزة التي أثبتها له القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١٤٩)، ولذلك فقد منح الإنسان إرادة وقدرة على الفعل، كما منح قدرة على العلم، أو على أن يتوصل إلى العلم الذي تنقاد له به المخلوقات التي سخرها الله له.

ومن شأن وجود هذه القدرة والإرادة وما يتصل بها من الاختيار والحرية أن يتمكن الإنسان من أن يعمر أو يفسد، ولذلك توقعت الملائكة أن يستغل الإنسان إرادته وقدرته في الإفساد: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٥١). ثم برهن الرحمن للملائكة على خصوصية الإنسان: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فلما لم يكن المطلوب منهم جزءًا من فطرتهم لم يجيبوا، ﴿قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، لكن آدم أجاب، وأثبت أن له قدرات علمية مختلفة، ولهذا ذكر أكثر اللغويين أن معنى قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء) هو أنه جعله قادرًا على تعلمها وتسميتها، ولهذا

١٤٧- هود ٦١.

١٤٨- الأعراف ٥٦.

١٤٩- البقرة: (٣٠).

١٥١- البقرة ٣٠.

ذهبوا إلى أن اللغة عرفية اصطلاحية^(١٥٢).

لقد أكثر القرآن من سرد قصة خلق الإنسان، وحكاية الحوار الذي دار ﴿بِالْمَلِ الْأَعْلَىٰ إِذْ تَخْتَصِمُونَ﴾^(١٥٣)، وفي هذا السرد دعوة للإنسان لأن يقف في الموقف الصحيح، وأن يضع نفسه في المكان الصحيح، حيث يريد ربه، فيباهي به الملائكة [ومباهاة الرحمن الملائكة بالطائعين من خلقه ثابتة في الحديث الصحيح^(١٥٤)]، ولا يضعها حيث يصدق عليه إبليس ظنه، حين توقع أن يستغل قدرة الإنسان على الاختيار، وأن يستغل ما لديه من غرائز ليغويه

هذا التصور للإنسان واضح منذ أول آيات نزلت من القرآن الكريم: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفِي ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾. إن هذه الآيات الكريمة توضح التصور الإسلامي خير توضيح، فالآيات تدعو إلى العلم، منبهة إلى أن الله هو الذي جعل الإنسان قادرًا عليه، وأنه ليس صفة ذاتية في الإنسان، رغم أن الإنسان هو الذي حصله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾^(١٥٦) لتدركوا بها الأشياء، ومكنكم من أن تحولوا الإدراك إلى معرفة.

وحين نسأل أنفسنا عن المناسبة بين أمره تعالى بالقراءة والعلم وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي﴾^(١٥٧) سندرك بوضوح أن الآيات تشير إلى أن الإنسان إذا رأى نفسه مستغنياً يطغى، وأن العلم من شأنه أن يجعل الإنسان قادرًا

١٥٢- صرح بعرفية اللغة واصطلاحيتها، وأن معنى قوله تعالى جل شأنه (وعلم آدم) هو مكنه من التعلم عدد كبير من علماء اللغة والمفسرين منهم ابن جنى وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون.

١٥٣- سورة: ص الآية: (٦٩).

١٥٤- انظر في هذا المعنى حديث المسند: (إن الله يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة) رقم: ٧٠٨٩ بإسناد صحيح. وقد رواه أيضًا الطبراني في الصغير والكبير والهيثمى وقال رجال أحمد موثوقون.

١٥٥- العلق ١، ١٠

١٥٦- النحل ٨٧

١٥٧- سورة العلق: (٦، ٧)

، فيظن نفسه مستغنياً . وهنا يأتي دور العقيدة والعبادة لتمنع الطغيان ؛ إذ تذكره العقيدة بأن (إلى ربك الرجعى) حيث لا يتصور الاستغناء ، وحيث يحاسب الإنسان على الحرية التي منحت له، وعلى العلم الذي مكن منه ، كما يأتي دور العبادة فالإنسان إذا صلى ولم يكن مثل من (ينهى عبداً إذا صلى) سيقراً ويتعلم بالقلم ليصلح ولا يفسد، فيثبت على نحو دائم خصوصيته ويباهى ربه ملائكته، إذ إنه امتلك الإرادة والحرية والعلم والقدرة، لكنه أصلح وتعبد لربه، أما إذا نسى أن (إلى ربك الرجعى)، وطغى ونهى (عبداً إذا صلى) وظن أن قدرته ذاتية، وقال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾^(١٥٨) كما قال قارون - فإنه يطغى، ويصدق عليه إبليس ظنه.

إن الإنسان فى التصور الإسلامى مدعو إلى أن يحقق معنى خلافته لله على أرضه بأن يتعلم العلم فيقوى ، ويسيطر ويصلح ، ولا يفسد ولا يطغى ، وقد هُيئ له الكون ليحقق ذلك: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا ﴾^(١٥٩). ولذلك كانت الدعوة إلى العلم فى الإسلام عامة وشاملة، وكان العلماء أكثر الناس خوفاً من ربهم، ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١٦٠) والمقصود هنا بشكل أساس العلماء الكونيين بالظواهر الطبيعية، ومن ثم كان طلب العلم الطبيعى فرض كفاية على الجماعة المؤمنة ، تأثم كلها إذا قصرت فيه ، كما فصل الغزالي فى نظرية فرض الكفاية.

الإعمار إذن فريضة على المسلمين . وإنما يكون الإعمار بالعمل وبمواجهة الفساد، ومعنى هذا أن العمل فريضة ؛ ومن هنا يحفل الحديث النبوى الشريف بنصوص كثيرة تأمر بالعمل كما ذكرت آنفاً، وبنصوص كثيرة تنهى عن الفساد، ولعل من أهم الأوامر بالعمل قوله ﷺ: «إن قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة

١٥٨ - القصص ٧٨ .

١٥٩ - الملك : (١٥) .

١٦٠ - فاطر ٢٨ .

فليغرسها»^(١٦١) وتنبع أهمية الحديث من أنه يجعل العمل كما يلاحظ الدكتور يوسف القرضاوى مطلوبًا لذاته ، ومأمورًا به لذاته، ومثابًا عليه لذاته^(١٦٢)، لأن الفسيلة التي سيغرسها من ستقوم عليه القيامة لن تنتج ولن يفيد منها أحد. ولعل من أهم النواهي عن الإفساد [وهو ضد الإعمار] قوله ﷺ فيما رواه أبو داود: «من قطع سدرة [أى شجرة] صوّب الله رأسه فى النار»^(١٦٣) وهذا وعيد شديد على القيام بأي عمل يفسد فى الأرض ولا يصلحها ويجعلها أفضل مما كانت عليه، وقد سئل أبو داود عن هذا الحديث فقال شارحًا له: هذا الحديث مختصر، يعنى من قطع سدرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثًا وظلمًا بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه فى النار^(١٦٤) ويشهد هذا الحديث لحديث أحمد عن ثوبان رضي الله عنه، وإن كان الراوي عن ثوبان مجهولًا: «من قتل صغيرًا أو كبيرًا، أو أحرق نخلا، أو قطع شجرة مثمرة، أو ذبح شاة لإهابها لم يرجع كفافًا»^(١٦٥).

إن على المسلم أن يبني وأن يعمر وأن يجعل بيئته التي وجد فيها أفضل مما كانت عليه ، لا أن يفسد فى الأرض بعد إصلاحها. ومن هنا يحرم عليه أن يعبث بالبيئة التي يعيش فيها أى نوع من العبث ، وإن قل ، قال ﷺ: «من قتل عصفور عبثًا عجب إلى الله - عز وجل - يوم القيامة منه يقول : يا رب إن فلانًا قتلني عبثًا ، ولم يقتلني لمنفعة»^(١٦٦).

وهكذا نجد الإيمان منتجًا للتنمية ومانعًا للفساد، إذ إن الإيمان يعنى أن يطيع المؤمن هذه الأوامر المباشرة بالإعمار، وهنا يمكن أن نفهم حق الفهم قوله تعالى:

١٦١- المسند رقم: ١٢٨٣٧ بإسناد صحيح والحديث ، رواه البخاري فى الأدب المفرد رقم: ٤٧٩.

١٦٢- السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة ، للدكتور يوسف القرضاوى ص: ٢٤٨ .

١٦٣- رواه أبو داود فى الأدب رقم: ٥٢٣٩.

١٦٤- سنن أبى داود، كتاب الأدب، تعليقه على الحديث السابق رقم: ٥٢٣٩.

١٦٥- المسند الحديث رقم: ٢٢٢٦٨ ، عن ثوبان ، غير أن الراوي عن ثوبان مجهول ، وبقيّة رواة الحديث ثقات، وإنما سقته للاستئناس به، والمعنى ثابت من الحديثين : السابق له واللاحق.

١٦٦- سنن النسائي كتاب الضحايا الحديث رقم: ٤٤٤٦. وهذه رواية المسند فى حديث الشريد بن سويد الثقفي رضي الله عنه الحديث رقم: ١٨٩٧٦ ، الطبعة الإلكترونية من المسند .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١٦٧) ذلك أن العبادة تشمل تنفيذ الأوامر كلها دون الاقتصار على بعضها ، ومنها الأوامر السابقة بالتعمير الذي رأينا أنه وظيفة الإنسان ومصدر خصوصيته ومعنى خلافته. أما أن تقتصر حياة الإنسان على العبادة بالمعنى الضيق فأمر منهى عنه ، فلا رهبانية في الإسلام ، وقد رد النبي على أصحابه التبتل ، وقال لمن أراد أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يتزوج النساء: «إني أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١٦٨) وذُكِرَ له ﷺ رجالٌ يجتهدون في العبادة اجتهادًا شديدًا ، فقال : «تلك ضراوة الإسلام وشرته ، ولكل ضراوة شررة ، ولكل شررة فترة ، فمن كان فترته إلى اقتصاد وسنة فلألم ما هو ، ومن كانت فترته إلى المعاصي فذلك الهالك»^(١٦٩) وإذا كان القانون الذي يحكم طبيعة الإنسان هو أن لكل شررة فترة ، فالعاقل لا يحمل نفسه فوق طاقتها فتغلبه إلى المعاصي ، ومن ثم قال - عليه السلام - «عليكم من الأعمال ما تطيقون»^(١٧٠). فإذا كان استهلاك العمر في العبادة بالمعنى الضيق ممنوعا فإن معنى العبادة يتسع كما رأينا في أحاديث كثيرة ليشمل كل مناحي الحياة ، ولا يجوز الاقتصار على جانب دون آخر .

٣- الإيمان حافظ للتنمية :

المظهر الثالث من مظاهر العلاقة بين الإيمان والعمران أن الإيمان حافظ للعمران ، يصون التنمية ويضمن استمرارها. لقد رأينا في الفقرة السابقة أن الإنسان مأمور بالعلم ، مقدر عليه ، وهو كذلك مشغوف به ، ومن شأن العلم أن

١٦٧- الذاريات: (٥٦) .

١٦٨- رواه البخاري، كتاب النكاح رقم: ٤٧٧٦. ومسلم في كتاب النكاح أيضا رقم: ١٤٠١.

١٦٩- الحديث رواه البخاري والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي بالفاظ متقاربة، وهو في المسند رقم: ١٦٥٩٣ بإسناد صحيح، ونحوه رقم: ٦٤٧٧ بإسناد صحيح أيضا .

١٧٠- الحديث رواه البخاري في الإيمان ، ورواه مسلم رقم: ٧٨٢ ، وهو في المسند رقم: ٢٤١٢٦ بإسناد صحيح، وكذلك رقم: ٢٤٠٧١ بإسناد صحيح .

يعطيه قوة وقدرة بها يستطيع أن يسخر الطبيعة ، وقد وصل الإنسان إلى درجة هائلة من القوة والقدرة، ويبدو أنه سيصل إلى درجات أعلى ، فالقرآن يشير إلى أن الإنسان سيصل إلى مستوى من القوة لم يبلغ حتى الآن معشار معشارها، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيَّآ ﴾^(١٧١) والإنسان لا يظن حتى الآن أنه قادر على الأرض ؛ إذ لا تزال ترعبه الزلازل وتخيفه الأعاصير ، كذلك لم تصل الأرض إلى درجة توصف فيها أنها قد ﴿ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾^(١٧١). ويعني هذا أن الإنسان سيصل إلى أضعاف ما وصل إليه ، وقد أخبرنا تعالى بأن الإنسان من شأنه أن يطغى ﴿ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفَىٰ ﴾^(١٧٢) ، وكما علمنا التاريخ أن هذا الطغيان يتمثل دائماً في عنصرية شديدة ، ورغبة عارمة في السيطرة على الكون كله، فتتوسع الجماعة الطاغية في الصراع مع الآخرين ، ويبدأ قانون التمدد في العمل ، فيدمر الطغيان دولته في نهاية الأمر: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾^(١٧٣). تلك هي خلاصة التجربة التاريخية للمجتمعات، يصنع العلم تنمية وقوة تؤدي إلى طغيان وعنصرية تدمر نفسها، ومن شأن الإيمان أن يصون التنمية، ولذلك قلت: إن سورة العلق تعرض فلسفة الإسلام عن الإعمار حين تدعو إلى العلم: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾^(١٧٤) لكنها تذكر الإنسان أن هذا العلم ليس ذاتياً وأنه ممنوح له: « الذي علم بالقلم » ، ومن ثم فإن عليه أن يراعى حقوق مانحه في طاعته، كما تذكره بأنه راجع إليه فمحاسبه ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْرُجْعَىٰ ﴾ ، لتضعه أمام مسؤولياته، فلا يطغى رغم ما حصل عليه من علم وقوة. وقد لخص النبي ﷺ هذه التجربة الإنسانية حين حذر أصحابه من أن يتنافسوا الدنيا فتهلكهم : « ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على

١٧١- يونس / ٢٤ .

١٧٢- العلق / ٧ .

١٧٣- البقرة / ٢٥١ .

١٧٤- العلق / ١ .

من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم» (١٧٥). فالمطلوب الحصول عليها لا التنافس حولها ، أن تكون في الأيدي لا في القلوب ، فلا تهمل ولا تصبح مصدرا للصراع .

٤ - الدعوة إلى الإيمان تستلزم التنمية :

العنصر الرابع من عناصر العلاقة بين الإيمان والإعمار هو أن الإيمان ملزم بالإعمار من حيث إن الإسلام دين دعوي، يدعو الإيمان به أصحابه إلى دعوة الناس إليه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (١٧٦) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧٧) ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١٧٨) وقال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود» (١٧٩) وقال: «لئن يهدى بك الله رجلا واحداً خير لك من حمر النعم» (١٨٠). وقد صدع النبي ﷺ بما أمر به ، فبلغ دعوته ، وبلغها أصحابه من بعده ، والأمة مأمورة على نحو دائم بإبلاغها.

وتتطلب هذه الوظيفة الإبلاغية أموراً كثيرة، وتصبح هذه المتطلبات واجبة من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ويهمننا من هذه المتطلبات في هذا السياق أمران : الأول : أن الدعوة تتطلب تقديم القدوة والنموذج . والثاني : أن الدعوة تتطلب ألا يكون المدعو مضطراً إلى مخالفتها ، بأي وجه كان من أوجه الاضطرار ، وإلا فإنه سيكون مجبراً على أن لا يستجيب .

وتعنى الدعوة بالنموذج والقدوة تقديم مثال جيد يتطلع الناس إليه؛ ذلك أن الناس غالباً لا يفصلون بين أحوال الإنسان وما يدين به؛ ومن ثم فإن تخلف المجتمعات المسلمة يمثل تنفيراً للناس من الإسلام، وليس مجرد عدم تحبيب فيه. والمسلمون يتفننون الآن في سبّ دينهم حينما يتسببون في سبه، وقد سمي

١٧٥ - رواه البخاري في كتاب المغازي رقم : ٢٩٨٨ ، ومسلم في كتاب الزهد : رقم : ١٦٩٢ .

١٧٦ - سبأ / ٢٨ .

١٧٧ - الأنبياء / ١٠٧ .

١٧٨ - البقرة / ١٤٣ .

١٧٩ - صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ رقم: ٦٤٦٢ ، وسنن الدارمي رقم: ٣٣٧٥

١٨٠ - صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم: ٢٧٨٣ .

النبي - صلى الله عليه وسلم - التسبب في السب سباً قال عليه السلام: (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه، قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه، قال يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه) ^(١٨١) فإذا كان التسبب في سب الأبوين كبيرة فما حكم من يتسبب في سب دينه أو ربه أو رسوله؟ لقد نهى القرآن عن سب آلهة المشركين حتى لا يستعدى ذلك سفاءهم فيسبوا الله جهلاً وسفهاً. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ^(١٨٢) ومن ثم يحرم كل ما يسبب للدين الشتم والسب ، ويكون هذا التسبب الآن عن طريق أمرين: الأول: هو الزج بالشعارات الإسلامية في أمور مذمومة على نطاق واسع حتى بين المسلمين ، كما تفعل الجماعات الثورية المعاصرة ، والأمر الثاني هو أن يترك أتباعه أنفسهم في ذيل الأمم ، وأن يتخلفوا عن ركب الحضارة ، فيظن من يجهل دينهم أن تخلفهم نابع منه ، ويؤكدون بأفعالهم الدعاوى التي تروج لذلك، وهذا ما يصرح به الدكتور ويلفريد هوفمان السفير الألماني الأسبق في المغرب الذي يرى أن العالم الإسلامي قد اشترك في تكوين صورته السلبية، وأصبح الإسلام مقروناً بالاستبداد والطغيان والتخلف والتمسك بالتخلف ، وليس لدى المسلمين دولة يمكن أن يشيروا إليها ، ويقولوا هذا هو النموذج الحقيقي للإسلام ... إن الأمة في كثير من البلاد الإسلامية تزيد على ٥٠ ٪ وهذه فضيحة لأمة يتصدر كتابها الأمر الإلهي اقرأ ^(١٨٣).

إن واقع العالم الإسلامي الآن يمثل المصدر الأساسي للتشويش على الإسلام، والتشويش على الإسلام يمثل الوسيلة الأساسية لمحاربه وإبعاد الناس عنه ، حيث لا يقترب خالي الذهن من الإسلام دون أن يتأثر به وبِعظمتِه على أقل تقدير ، ولذلك قال محاربوه قديماً: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(١٨٤)

١٨١- رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، وهو في المسند رقم: ٦٥٢٩ بإسناد

صحيح.

١٨٢- الأنعام / ١٠٨

١٨٣- المنصفون للإسلام في الغرب - رجب البنا، ص ١٣٥، ١٣٨.

١٨٤- فصلت / ٢٦.

ويفعل هذا محاربوه حديثاً ، ويمكّنهم المسلمون بتخلفهم وبسلوكهم من ذلك؛ ومن ثم فهم السبب الأساسي للتشويش على الإسلام ، وليس تقصير الدعاة وعدم كفاءة خطابهم ، وإن كان السبب الأخير غير مدفوع الأثر .

أما الأمر الثاني الذي يحتاجه الإسلام بوصفه ديناً دعويّاً مما يتصل بموضوع هذه الدراسة فهو أن على أتباعه أن يقاوموا إجبار الناس على رفضه ، وهذا الإجبار هو الفتنة التي كَلَّفَ القرآن الأمة بمنعها ، والإجبار لا يأخذ دائماً شكل الإجبار العسكري المباشر، إذ إنه يأخذ الآن أشكالاً أخرى من قبيل استغلال الحاجة المادية للفقراء الذين يمثلون حتى الآن أكثر سكان المعمورة. إن الحاجة ضرورة ، والضرورة فتنة ، وعلى المسلمين أن يساعدوا الناس على أن يكونوا أحراراً، بأن يجعلوهم في غير حالة ضرورة. عليهم أن يكونوا مقدمين للمعونات لا متقبلين لها، على أن يأخذ تقديمهم للمعونات ما في دينهم من صفات الإنسانية والنبيل، عليهم أن يساعدوا الناس وأن يعلموهم كيف يساعدون أنفسهم، وحينئذ سيكون الناس أحراراً في قبول الإسلام أو رفضه ، لكنهم لن يكونوا مضطرين إلى رفضه. وتتطلب هذه المسألة الوصول بالأمة إلى درجة هائلة من القدرة والتنمية الشاملة.

٥- الإيمان يحتاج إلى التنمية :

العنصر الخامس من العناصر التي تحدد العلاقة بين الإيمان والإعمار هو أن الإيمان مُلزمٌ بالتنمية من حيث إنه يقر بدورها في حمايته واستمراره ، كما يقر بأن عدم التنمية يؤثر سلباً فيه تأثيراً هائلاً. ومن ثم تصبح التنمية واجباً دينياً ، يكون المؤمن بدونه عرضة لأن يفتتن في دينه. وسوف تستطرد الصفحات التالية في إثبات هذه الفكرة نظراً للحاجة الشديدة إلى أن تصبح جزءاً من ثقافة المسلمين ، إذ إنها تعنى في التحليل النهائي أن الأوضاع الإيمانية قد تتأثر بالأوضاع المادية . وهو ما يشيع خلافه استناداً إلى الزعم الشائع بين قطاعات غير قليلة بأن الإيمان لا يتأثر بأحوال الإنسان وظروفه المادية المحيطة به ، وهو أمر لا يصح إلا في حالة الاكتمال الإيماني ، وهي حالة نادرة لا يقاس عليها ، ولا توضع الأفكار والحسابات

القدرة على التحمل، ومن هنا قال عليه السلام: «إن خير دينكم أيسره»^(١٩٠) وروى عنه أنه «ما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما، إلا أن يكون إثماً»^(١٩١) وكان يأمر الصحابة بالألا يتحملوا من العمل إلا ما يطيقون، جاء عن عائشة - رضی اللہ عنہا - أن رسول الله ﷺ كان إذا أمرهم من العمل بما يطيقون، يقولون يا رسول الله إنا لسنا كهيئتك، إن الله - عز وجل - قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه^(١٩٢).

وقد غضب النبي ﷺ من سأله عن الحج: أفي كل عام هو؟ فقال: «لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لم تسمعوا ولم تطيعوا»^(١٩٣) وكان إذا بايع أحداً لقنه أن يقول فيما استطعت^(١٩٤)، وكان يكره أن تتسع دائرة المحرمات، ومن هنا قال ﷺ: «إن من أكبر المسلمين في المسلمين جرماً رجلاً سأل عن شيء ونقر عنه حتى أنزل في ذلك الشيء تحريم من أجل مسألته»^(١٩٥)، ومن هنا كان ﷺ يمتنع عن أعمال كثيرة مخافة أن تُفرضَ، فلا يستطيعها المسلمون^(١٩٦). وقد غضب ﷺ على معاذ لأنه كان يُطوّل في الصلاة، وسمّى ذلك فتنة للناس، لأن بعضهم قد لا يطيق ذلك^(١٩٧).

ويعقب ابن حجر على هذه السياسة الرشيدة من النبي ﷺ بقوله: إن الأولى في العبادة القصد والملازمة، لا المبالغة المفضية إلى الترك، كما جاء في الحديث الآخر: إن المنبت [المسرع] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى^(١٩٨). وكون المبالغة تفضي

-
- ١٩٠- المسند الحديث، رقم: ١٨٨٧٩ بإسناد صحيح، والحديث أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.
 ١٩١- رواه البخاري رقم: ٣٥٦ ومسلم رقم: ٢٣٢٧، وهو في المسند رقم: ٢٣٩١٦ بإسناد صحيح.
 ١٩٢- رواه البخاري في الإيمان ورواه مسلم في الصوم، رقم: ١١١٠، وزاد البخاري في روايته، ويقول: إن اتقاكم وأعلمكم بالله أنا. وهو في المسند رقم: ٢٤١٧٠.
 ١٩٣- الحديث رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وهو في المسند، الحديث رقم: ٣٥١٠ بإسناد صحيح، ورقم: ٢٣٠٤ بإسناد صحيح أيضاً.
 ١٩٤- رواه مسلم، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، جميعهم في كتاب الحج، وهو في المسند رقم: ٤٥٦٥، بإسناد صحيح.
 ١٩٥- الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود، وهو في المسند رقم: ١٥٢٠ بإسناد صحيح.
 ١٩٦- الحديث رواه البخاري في المواقيت رقم: ٥٩٠، وقد ورد هذا المعنى عن عائشة أم المؤمنين كثيراً، انظر على سبيل المثال حديث المسند: (كان يترك العمل وهو يحب أن يعمل خشية أن يستن به الناس فيفرض عليهم) رقم: ٢٤٤٤٠ بإسناد صحيح.
 ١٩٧- حديث (أفتان أنت يا معاذ) رواه البخاري، وهو في المسند، رقم: ١٢١٨٧.
 ١٩٨- فتح الباري ج ١ ص ٩٠.

إلى الترك وربما ما هو أشد من الترك هو معنى قوله ﷺ عندما ذكر له ناس يسرفون في العبادة: (إن لكل عابد شرة، ولكل شرة فترة، فإما إلى سنة وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك) (١٩٩) فإذا كان كل تشدد ينتج فتورًا قد يؤدي إلى رد فعل عكسي، فإن من الأولى ألا يثق الإنسان في قدراته على التحمل، وألا يضع نفسه في ظروف غير مواتية.

وهذا الخوف من أن يضع الإنسان نفسه في ظروف قد لا يتحملها إيمانه يقف وراء أحاديث كثيرة أخرى من قبيل: (لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتم فاثبتوا) (٢٠٠) ونحو قوله: (من سمع بالدجال في أرض فليأمنه، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فلا يزال به لما معه من الشبه حتى يتبعه) (٢٠١) إن على الإنسان ألا يأمن جوانب الضعف فيه.

ويتصل بذلك أيضًا التحذير من أوضاع البدن غير المواتية للعبادة والسلوك، نحو الأحاديث الشريفة التالية:

- لا صلاة بحضرة طعام (٢٠٢).
- لا طلاق ولا عتاق في إغلاق (٢٠٣).
- لا يأتي أحدكم الصلاة وهو حاقن (٢٠٤).
- لا يقضى الحاكم بين اثنين وهو غضبان (٢٠٥).
- إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء (٢٠٦).

١٩٩- رواه البخاري والنسائي والترمذي والدارمي وابن ماجه، وهو في المسند الحديث رقم: ٦٤٧٧ بإسناد صحيح، وقد رواه أحمد بروايات كثيرة جدًا

٢٠٠- رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير رقم: ٢٨٠٤ ومسلم كتاب الجهاد رقم: ١٧٤٣، وأبو داود أول كتاب الجهاد رقم: ٢٦٣١.

٢٠١- المسند رقم: ١٩٧٦١ وقد رواه أبو داود رقم: ٤٣١٩ وصححه الحاكم ٤ / ٥٣١ وبنحوه في المسند رقم: ١٩٨٥٣ بإسناد صحيح.

٢٠٢- رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم: ٥٦٠
٢٠٣- المسند رقم: ٢٦٢٣٨ بإسناد صحيح، والحديث رواه أبو داود رقم: ٢١٩٣ وابن ماجه ٢٠٤٦ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي جميعهم في الطلاق.

٢٠٤- المسند رقم: ٢٢١٤٢ بإسناد صحيح، وهو عند أبي داود في الطهارة.

٢٠٥- الحديث رواه البخاري في الأحكام، ومسلم في الأفضية، وهو في المسند رقم: ٢٠٢٥٨ بإسناد صحيح.

٢٠٦- الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال حديث حسن صحيح، وهو في المسند رقم: ١٢٥٨٢ بإسناد صحيح، وكذلك أرقام ١٢٠١٥ و٢٠٧١١٩١٠.

وتفسير ذلك كما روى البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن من فقه الرجل إقباله على حاجته حتى يقبل على صلاته وقلبه فارغ^(٢٠٧) وأحسب أن أحدا لا يستطيع أن يزعم أنه آمن من عدم الخشوع في الصلاة إذا كانت هناك دواعٍ للانشغال عنها بما يحيط به بعد حديث النبي ﷺ الذي رد فيه خميصة أبي جهم لأن فيها أعلامًا كادت تفتنه عن الصلاة واستبدالها بأناجية لا صور ولا أعلام فيها^(٢٠٨).

وإلى بعض هذه المعاني تعود العبارة المأثورة عن أبي حنيفة رضي الله عنه: «لا تستشر من ليس في بيته دقيق»^(٢٠٩)، وذلك لأن الإنسان في هذه الحالة - كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي - يكون مشتمت الفكر، مشغول البال، فلا يكون حكمه سديداً، وذلك لأن الانفعال الحاد يؤثر على سلامة الإدراك وصحة الرأي، كما يقرر علم النفس، وكما جاء به الحديث الصحيح: «لا يقضى القاضي حين يقضى وهو غضبان»، وقاس الفقهاء على الغضب شدة الجوع وشدة العطش^(٢١٠) ومن ثم فقد قال النبي ﷺ لمن سأله: «علمني شيئاً ولا تكثر عليّ لَعَلِّي أعيه قال: لا تغضب فردد ذلك مراراً كل ذلك يقول لا تغضب»^(٢١١).

ويتصل بهذا السياق التحذير النبوي الشديد من التشاحن والتباغض، حيث إن أجواء التشاحن تفسد على الإنسان دينه الذي يأمره بالعدل، قال ﷺ: «دب إليكم داء الأم قبلكم، الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(٢١٢) ولذلك كان إصلاح ذات البين من أكبر الأعمال أجراً، قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة، قالوا

٢٠٧- هذا الأثر رواه البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

٢٠٨- الحديث رواه البخاري في الإيمان، ورواه مسلم رقم: ٧٨٢، وهو في المسند رقم: ٢٤١٢٦، بإسناد صحيح

٢٠٩- عن: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ١٥.

٢١٠- السابق ص ١٥ وما بعدها.

٢١١- رواه البخاري في كتاب الأدب باب الحذر من الغضب، والترمذي في كتاب البر والصلة رقم: ٢٠٢٠ وصححه.

٢١٢- اللفظ للترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق رقم: ٢٥١٠، والحديث رواه مسلم من حديث أبي هريرة، ورواه البخاري في الأدب المفرد، باب التحاب بين الناس رقم: ٣٦١، وهو عن أحمد في مواضع كثيرة جداً بأسانيد متفاوتة الصحة، ورواه أبو يعلى من مسند الزبير رقم: ٦٦٩.

بلى؛ قال إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الخالقة»^(٢١٣).

ومن الأحاديث التي تمثل أهمية كبيرة في هذا الباب حديث البخاري ومسلم في خطبة علي - كرم الله وجهه - على فاطمة - رضی الله عنها - ، وهي الخطبة التي رفضها النبي ﷺ رفضاً قاطعاً، معللاً ذلك بخشيته من أن تؤدى مشاعر الغيرة إلى أن تفتتن فاطمة في دينها، قال ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني، وأنا أتخوف أن تفتتن في دينها، ثم ذكر صهراً له من عبد شمس فأثنى عليه في مصاهرته إياه فأحسن، قال: حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي»^(٢١٤).

وتفسير هذا الموقف مجده في أحاديث أخرى ذكر فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الغيرة طبع في بنات آدم ، وأن الصبر عليها يصعب عليهن ، كما ذكر فيها أن الغيرة الشديدة قد تشوش على المرأة إدراكها (إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه)^(٢١٥) ؛ ومن ثم فقد تباعد الغيرة بينها وبين العدل ، وتباعد بينها وبين التواد والتراحم فيما بين المؤمنين ، وهما فرض ؛ وهذا هو معنى الفتنة هنا. ويؤكد موقف النبي هذا أن تشريع التعدد إنما جاء للحالات التي يكون فيها هو الأخف ضرراً ، وأنه إنما يصر إليه عند الحاجة ، لا إنكاراً لما فيه من ضرر، حيث تظهر روايات الحديث السابق كلها ، وهي كثيرة جداً أنه - صلى الله عليه وسلم - كان قد طلب من أصهاره ألا يتزوجن على بناته.

وهكذا نجد تصريحاً نبوياً بنسبة الفتنة إلى الإجهاد البدني في العبادة ، ونسبتها إلى وضع الإنسان نفسه في ظروف نفسية غير مواتية. ونسبتها إلى وضع الإنسان نفسه في ظروف مادية واجتماعية ضاغطة ، كما نجد في الحديث الشريف تطبيقات كثيرة تتصل بهذه الفكرة، من ذلك قوله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر

٢١٣- رواه الترمذي وصححه في صفة القيامة ، وأبو داود في الأدب رقم: ٤٩١٩ ، والبخاري في الأدب المفرد رقم: ٢٥٠٩ ، وهو في المسند رقم: ٢٧٣٨١ بإسناد صحيح.

٢١٤- الحديث رواه البخاري: رقم ٣٧٢٩ فتح الباري وهو عند مسلم رقم: ٢٤٤٩ ، وعند أبي داود رقم: ٢٠٦٩ وعند الترمذي رقم: ٣٨٦٧ ، وصححه ، وهو في المسند رقم: ١٨٨١٣ ، ١٨٨١٤ ، ١٨٨١٥ بإسناد صحيح.

٢١٥- رواه أبو يعلى في مسنده ، تابع مسند عائشة - رضی الله عنها - رقم: ٤٦٧٠.

أحدكم من يخالل»^(٢١٦) فالمؤمن الذي يصاحب الفساق حرىّ بأن يناله من غبارهم، ونحو ذلك قوله ﷺ «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن»^(٢١٧)، ونهيه عن كثرة الضحك لأن كثرة الضحك تيمت القلب^(٢١٨)، في إقرار لا لبس فيه بأن الأمور المادية ذات تأثير في السلوك والقلوب؛ ومن ثم في الإيمان، وفق مفهوم الإيمان كما شرحته في المباحث السابقة.

وإلى فكرة حتمية أن يضع المؤمن نفسه في سياق مادي مناسب يساعده في الحفاظ على إيمانه، يعود أمر الشريعة باجتنب بعض الذنوب وعدم الاقتراب منها، وليس مجرد النهى عن الوقوع فيها، إذ ثم أمور لا يسهل على الإنسان ألا يواقعها إذا اقترب منها، ومن هنا على سبيل المثال حرم اختلاء الرجل بامرأة أجنبية، حيث من الممكن - كما ينقل وحيد الدين خان - عن بعض الأطباء الغربيين: أن يصل الرجل والمرأة إلى نقطة يستحيل عندها التحكم في الأعصاب والإحساس بالعواقب، ... وقد نشرت الطيبة المعروفة؛ ماريون هيلارد مقالا عنيّفاً ضد الاختلاط الحرفقالت: إنني لا أستطيع أن أسلم كطبيبة بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ينفردان برضاها وقتاً طويلاً^(٢١٩) ... وإلى هذه الفكرة تعود تطبيقات كثيرة في باب سد الذرائع في الفقه الإسلامي، حيث يعنى سد الذرائع الابتعاد عن أمر لا لأنه حرام، وإنما لأنه قد يفضى إلى ما هو محرم، ومن التطبيقات الفذة في هذا الباب رفض بعض الفقهاء قطع السارق في أرض العدو أثناء الحروب؛ إذ إن السياق قد يفتن المقطوع فتزين له نفسه بسبب الخوف قبل القطع، بسبب أو الغيظ بعده أن يهرب إلى العدو فيضيع دينه، وربما تضيع بسبب ذلك دنيا المسلمين.

٢١٦- رواه أبو داود والترمذى، وقال حسن غريب، وصححه الحاكم، وهو في المسند رقم: ١٨٨١٣ بإسناد صحيح.

٢١٧- رواه الترمذى في كتاب الفتن، وقال حسن صحيح غريب، وأبو داود والنسائي في باب اتباع الصيد.
٢١٨- رواه الترمذى في كتاب الزهد رقم: ٢٣٠٥، وقال حسن غريب، وابن ماجة في كتاب الزهد باب الورع والتقوى ٤٢١٧، ورواه البخاري في الأدب المفرد رقم: ٢٥٣ باب الضحك.

٢١٩- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان ص: ١٤٨.

والذي يتتبع سيرة النبي ﷺ يجد تطبيقات فذة لهذا المبدأ الذي لا يغفل أثر الظروف، ولا يتجاهل قدرة الإنسان على التحمل، ومن أشهر هذه التطبيقات اقتراح النبي ﷺ في غزوة الأحزاب مصالحة (غطفان) على نصف ثمار يثرب حتى يخفف عن المسلمين وطأة اجتماع العرب عليهم، ولما استشار السعديين رضي الله عنهما سألاه هل هذا عن رغبة منه، أو عن وحى إليه، أو عن رغبة في التخفيف عنهم؟ فلما علما أنه بدافع الإشفاق عليهم أيا، وطمأنانه بأن تحمل الأمر في مكنتهم، فلم يعقد الاتفاق^(٢٢٠).

وقد جمع الفاروق رضي الله عنه هذا الفكر في عبارة فريدة قالها حين أصر أن يقتصر من كل أمير ظلم واحداً من عامة المسلمين؛ لأن مرارة الإحساس بالظلم قد تكون فتنة له، وقال في عبارة دستورية جامعة "... ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تجمروهم فتفتنوّهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم"^(٢٢١). وجعل الفاروق إبقاء المسلمين طويلاً في أرض العدو بعيداً عن الأهل فتنة، وأخذ حقوقهم تكفيراً لهم أوضح من أن يحتاج إلى تعليق.

كل هذه التطبيقات والنقول توضح أن الظروف المادية الضاغطة من شأنها أن تصنع حالة تضر بالإيمان وتذل المؤمنين، وقد أكثرت من التطبيقات والاستدلالات عامداً حتى يستقر هذا المعنى لأهميته، وإلا فقد صرح به النبي ﷺ في حديث الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه الذي كان يسأل عن الشر حتى يتجنبه قال، «قال رسول الله ﷺ: لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا وكيف يذل نفسه؟ قال يتعرض من البلاء لما لا يطيق»^(٢٢٢). قال ابن العربي في شرحه للحديث: .. فإن رأى مكروهاً نزل بأخيه من ظلم فخشى من تغييره أن ينزل به من البلاء ما لا يطيق فلا يلزمه نصره، سواء كان الظلم من مسلم أو كافر^(٢٢٣) ولا يصح الاقتصار على مثل هذه

٢٢٠- أصل هذا الخبر عن ابن إسحق في المغازي، وهو يرويه عن عاصم بن عمر بن قتادة عن الزهري .

٢٢١- المسند، الحديث رقم: ٢٨٦ بإسناد حسن، مسند عمر رضي الله عنه.

٢٢٢- رواه الترمذي في كتاب الفتن رقم: ٢٢٥٤، وقال حسن غريب، ورواه ابن ماجة في الفتن كذلك.

٢٢٣- عارضه الأحمدي لابن العربي ج٩ ص ٨٠ وما بعدها.

العبارة فى شرح الحديث فإنها قد تقال فى حق الفرد ، وإنما يشرح الحديث فى حق الجماعة المسلمة هكذا : إذا لم يكن للجماعة المؤمنة أن تتعرض لما لا تطيق ، فإن عليها أن تكون مطيقة لما ينبغى أن تتعرض له من نصرة المظلوم ومنع فتنته ، ولا يكون ذلك إلا بالتنمية الشاملة .

ويبقى بعد كل ذلك أن رأس هذا الباب الذى يبحث فى تأثير الظروف المحيطة بالإنسان على الإيمان هو ربط النبي ﷺ بين الكفر والفقر ، إذ كان كثيراً ما كان يستعيد منهما معاً ، وكذلك من الكفر والدين ، جاء فى مسند أبى سعيد أنه ﷺ كان يقول : «أعوذ بالله من الكفر والدين ، فقال رجل : يا رسول الله أيعدل الدين بالكفر ، فقال رسول الله ﷺ نعم»^(٢٢٤) ، وتفسير ذلك جاء فى حديث آخر يربط بين الدين وبين بعض أخلاقيات النفاق حيث قال ﷺ : «إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف»^(٢٢٥) .

وعند هذه النقطة من البحث نستطيع أن نقرر أن وجود الأمة فى حالة عجز وقلة وضعف وذلة يمثل فتنة لها عن دينها ، إذ إن لهذه الحالة ثلاث نتائج ذات أثر مباشر على الإيمان :

الأولى : فقدان حالة التوازن النفسى ، بسبب كثرة الهزائم على المستويات المادية والثقافية ، ومن شأن فقدان حالة التوازن النفسى أن تشكك الإنسان فى ثوابته ، وأن تقر به من ثقافة المنتصر ؛ إذ إن المغلوب كما يقرر ابن خلدون فى أحد أهم قوانين علم الاجتماع عنده مولع أبداً بالاقتراء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ، والسبب فى ذلك أن النفس تعتقد الكمال فىمن غلبها وانقادت إليه^(٢٢٦) . ولقد خسرت الأمة بسبب هذه الحالة من فقدان التوازن

٢٢٤- رواه النسائي فى الاستعاذة رقم: ٥٤٧٣ وهو فى صحيح ابن حبان ص ٢٤٣٩ ، وهو فى المسند رقم: ١١٢٧٢ بإسناد حسن ، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبى .

٢٢٥- رواه البخارى فى كتاب الاستقراض رقم: ٢٢٦٧ ورواه مسلم فى باب ما يستعاذ منه فى الصلاة رقم: ٥٨٩ ، وهو عند النسائي رقم: ١٣٠٩ ورقم: ٥٤٧٢ وفى سنن أبى داود رقم: ٨٨٠ .

٢٢٦- مقدمة ابن خلدون ص : ١٠٤ .

النفسي قطاعًا من أذكي أبنائها، صاروا أعداءً لحضارتها من أنفسها، رغم أن بعضهم كان مخلصًا، غير أن انبهاره بالآخر المنتصر مثلَ نظارة كثيفة جعلته غير قادر على أن يرى الأشياء على ما هي عليه، والدنيا كما يُروى عن علي - كرم الله وجهه - إذا أقبلت على إنسان منحته محاسن غيره، وإن أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه، وقد جعلنا الدنيا تدبر عن أمتنا، فضاعت محاسنها حتى عند أبنائها .

النتيجة الثانية لحالة الضعف والذلة والقلّة التي يؤدي إليها إهمال الإعمار هي انتشار الفقر المدقع الذي رأينا الحديث الشريف يربط بينه وبين الكفر. وحالة الفقر المدقع تمثل دائمًا مرتعًا خصبًا لفتنة الناس عن دينهم، ومصدرًا للاضطراب السياسي والمشاحنات التي تصاحب غالبًا حالات الفقر العام. وقد صرح المؤتمرون في مؤتمر كوالورادو لتنصير المسلمين الذي نشر وثائقه الدكتور محمد عمارة بأن الحالات المثالية لعمل المبشرين هي استغلال حالات الفقر الشديد، لاسيما أنه مُصاحب غالبًا بالجهل وانتشار الخرافات، واستغلال الجماعات المهمشة واستغلال الكوارث الطبيعية وحالات الحاجة وما ينتج عن ذلك من اضطرابات وقلاقل^(٢٢٧).

أما النتيجة الثالثة لحالة العجز القلة والضعف والذلة، فهي أنها تغري أعداء الأمة بالاعتداء عليها، واحتلالها احتلالًا مباشرًا، وعندئذ يعمل القانون الذي ذكره القرآن: ﴿إِنَّ أَمْلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٢٢٨) وقد ذكر المفسرون أن قوله تعالى: (وكذلك يفعلون) إنما هو من كلام رب العزة تأكيدًا لهذا القانون الاجتماعي^(٢٢٩). ومن أهم وسائل إذلال أهل القرية المحتلة إهانة عقيدتها، وإجبار أهلها على السكوت على هذه الإهانة، حتى تنتشر وترسخ بين أبنائها. بل قد يصل الأمر إلى خد الإجبار المباشر على الخروج من الملة، وليس هذا الأمر بعيد فقد أقر مؤتمر كوالورادو الذي عقد في الولايات

٢٢٧- الغارة الجديدة على الإسلام، ص ٨٢ وما بعدها.

٢٢٨- النمل: ٣٤ .

٢٢٩- انظر تفسير الطبري ١٦٦، وكذلك تفسير الزمخشري ٣ / ٣٦٥.

المتحدة فى عام : ١٩٧٨ استخدام وسائل الإجبـار لتـنصير المسلمين ما أمكن ذلك^(٣٠)، كما أن تاريخ الاحتلال يحوى شواهد على هذا المسلك يستطيع أن يجدها من يتابع حملات التنصير فى البلدان العربية المحتلة على صفحات الجرائد فى بدايات القرن الماضى ، تلك الحملات التى استخدمت الإكراه وسيلة مباشرة ..

وهل تنتج الهزيمة غير ذلك ؟ وهل خسرت تركيا طابعها الإسلامى رغم أنف شعبها إلا بسبب الهزيمة ؟ وهل يُنتجُ الضعف غير الهزيمة ، وهل تتحقق القوة بغير التنمية الشاملة ؟ إن الجهاد يصبح فرض عين على المسلمين فى بعض الظروف ، والجهاد الآن يحتم الإعمار ، إذ لا يتأتى الآن إلا فى إطار تنمية شاملة ، وقدرة هائلة على الإبداع والابتكار ، إن أمة لا تصنع سلاحها ودواءها لا يمكنها أن تواجه أعداءها فهل يبعد عن روح الفقه وأصوله من يذهب إلى أنه إذا جاز الفصل بين أنواع العمل السابقة - فإن العمل الإعمارى يصبح أوجب الواجبات ، ويصبح إهماله محرماً - حرمة الفتنة التى جعلها القرآن أشد من القتل .

٦- الإيمان منتج للتنمية :

العنصر السادس من عناصر العلاقة بين الإيمان والإعمار هو أن الإيمان منتج للإعمار من حيث إنه يحقق الشروط الضرورية التى لا يتم الإعمار إلا بها ، كما أن الإعمار يتحقق بشكل تلقائى فى وجودها ، وتتظم هذه الشروط فى أربعة مجموعات هى : مجموعة الشروط الإدارية للتنمية ، ومجموعة الشروط النفسية ، ومجموعة الشروط الأخلاقية ، ومجموعة الشروط القانونية أو التشريعية لها .

فمن الناحية الإدارية - على سبيل المثال - يؤكد الحديث النبوي الشريف على أهمية اختيار العمال: قال ﷺ: «من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولّى رجلاً ، وهو

٢٣٠- الغارة الجديدة على الإسلام ص ١٦٢ .

يجد من هو أصلح للمؤمنين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»^(٢٣١) وفى رواية: «من قلد رجلا عملا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين، والأصلح هو الأكفأ لا الأكثر ديناً وورعاً، ولذلك لما سئل إمام المحدثين أحمد بن حنبل رحمته الله عن رجلين أحدهما أنكى فى العدو مع شربه الخمر، والآخر أدين [أى أكثر ديناً] فقال يغزى مع الأنكى فى العدو؛ لأنه أنفع للمسلمين^(٢٣٢) ولذلك جاء فى تاريخ الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما طلب للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد^(٢٣٣)، [يقصد الاجتهاد فى العبادة] ومثل هذه العبارات شائعة فى كتب السياسة الشرعية.

ولكى يتم اختيار الأفضل لا بد من تحقيق أمرين: الأول هو تكافؤ الفرص وعدم المحاباة والمجاملة، ولذلك جاء فى المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من ولى أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم محاباة فعليه لعنة الله»^(٢٣٤) والأمر الثانى هو توسيع دائرة الاختيار عن طريق توسيع دائرة المهتمين بالأمور العامة، والحديث النبوى يدعو الجميع إلى ذلك: «فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»^(٢٣٥) كما يقدم مجموعة من المبادئ السياسية التى تكفل توسيع دائرة المشاركة.

وهكذا مع الشروط النفسية للتنمية فالحديث النبوى الشريف يمثل أكبر دعم للأمل حيث تنتشر به المبشرات. والعمران - كما يصرح ابن خلدون - إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط^(٢٣٦) كذلك يدعم الحديث الشريف مشاعر الانتماء والدافعية للإنجاز دعماً هائلاً، والانتماء شرط أساسى من شروط التنمية لا

٢٣١- رواه الحاكم فى المستدرک، وانظر ابن تیمیة، السياسة الشرعية ص ١٥ عن: نظام الدولة فى الإسلام، عبد الله جمال الدين، ص ٣٥٢.

٢٣٢- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ج ١ ص ٨٣.

٢٣٣- تاریخ الرسل والملوک للطبری ج ٤ ص ٢٣١.

٢٣٤- المسند، الحديث رقم: (٢١) مسند أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

٢٣٥- اللفظ لفظ المعجم الصغير الحديث رقم: ٢٩٠٨ والحديث رواه الحاكم فى المستدرک رقم: ٧٨٨٩، ورقم:

٧٩٠٢ بلفظ: (من لم يهتم للمسلمين فليس منهم).

٢٣٦- المقدمة: ١٠٤.

تتم بدونه حيث إنه يمثل البوتقة التي تنصهر فيها إنجازات الأفراد من أجل مصلحة الجماعة ، فتقوى الأمة وتكون أقدر على تقديم المساعدة والحماية لأبنائها ، فيتضاعف انتماءهم وعطاؤهم لها، فتزداد مساهمة العمل الأهلي والتطوعى إلى حدود كبيرة .

أما ضعف الانتماء فإنه يترجم إلى نتائج اقتصادية مدمرة ، فبدون الإحساس بالمسئولية إزاء المجتمع يتفنن الناس دائماً فى التهرب من واجباتهم الاجتماعية ، ويتفننون بشكل عام فى كسر القوانين، حتى إذا لم يكن فى كسرها قيمة مادية تعود على الأفراد ، لكن فيها قيمة نفسية تتمثل فى الانتقام من مؤسسات الدولة، ويتفننون- وهم دوماً قادرون- فى تدمير الممتلكات العامة، رغم أنها فى الحالة النفسية السوية تكون أعز من الممتلكات الخاصة.

وفيما يتصل بالشروط الأخلاقية للتنمية فثمة علاقة عضوية بين الأخلاق والتنمية على نحو يبرر أن نتحدث عن أخلاقيات التنمية ، أو عن الدور الاقتصادي للأخلاق ، ويتمثل هذا الدور الاقتصادي للأخلاق فى أمرين: الأول أن للأخلاق مردوداً اقتصادياً قد يكون مباشراً أو غير مباشر، والثانى أن هناك بعض الأخلاقيات الأساسية للاستثمار بحيث يستحيل بدونها ، إذ لا تنمية ولا استثمار مع انتشار الرشوة والغش وشهادة الزور التي تضيع معها الحقوق ، ولا يأمن معها أحد على نفسه أو ماله، وتحاول الأنظمة المتقدمة أن تحقق أخلاقيات التنمية عن طريق الكفاءة الإدارية، غير أن الإيمان يضيف إلى الكفاءة الإدارية أنه يجعل هذه الأخلاقيات جزءاً من الإيمان الذي يحاسب عليه الإنسان أمام من يعلم السر وأخفى ، مما يعطيها درجة هائلة من القوة والأهمية.

والمردود الاقتصادي للأخلاق تحققه مجموعة من الأخلاقيات التي تؤثر فى الأوضاع الاقتصادية تأثيراً كبيراً مثل خلق إتقان العمل ، وهو - كما سبق - من مكونات الإيمان ، والحق أن تطبيق مبادئ الحديث النبوى يجعل من تحقيق جودة المنتجات أمراً حتمياً، وإلا لما استطاع منتجها بيعها ، حيث ينهى الحديث - كما سبق - عن الغش نهياً قاطعاً كما ينهى عن الخداع وترويج السلعة بالكذب ،

ويعطى المشتري الذي خدع فى مواصفات السلعة الحق فى إعادتها. وفى إطار هذه الأخلاقيات لا مفر أمام من يريد تسويق سلعته إلا أن يجودها. ويعني تجويدها أنه يحسن قدرتها التنافسية .

وللنهي الشديد فى الحديث الشريف عن الترف والإنفاق المظهري والمباهاة بالتملك والكنز أهمية اقتصادية كبيرة ، حيث يعنى ذلك زيادة فى معدلات الادخار ، كما يعنى أن تتحول المدخرات بالضرورة إلى استثمارات متجددة إذ لا يجوز الكنز ، كما يحرم التبذير . وبهذا يقدم الإسلام حلاً لمعضلة الرأسمالية المتمثلة فى الحاجة إلى إعادة تدوير الأرباح للحفاظ على نسبة النمو وعلى مستويات التشغيل، وهى المشكلة التى حاولت الأنظمة الاشتراكية حلها على نحو شديد العنف بمنع الملكية الخاصة ، وبالاستثمار عن طريق الدولة، فأفقدت الاستثمارات عناصر المبادرة والدافعية والإبداع . وهكذا عندما ندرس كل أخلاقيات الإسلام سنجد لها مردودا اقتصاديا مباشرا أو غير مباشر .

أما فيما يتصل بالشروط التشريعية فإن الاقتصاديين يتفقون جميعاً على أن للإطار القانوني الذي ينظم الاقتصاد دوراً حاسماً فى نجاح عملية التنمية، ويتفقون على أنه دون كفاءة هذا الإطار القانوني يستحيل نجاح عملية النمو ودوامها ، وسأشرح بمثال واحد خصوصية الإطار القانوني الإسلامي فى إحداث التنمية ، هذا المثال هو الأثر الاقتصادي لتحريم الربا ؛ حيث يعد التشدد فى تحريم الربا من أهم وسائل التشجيع على الاستثمار، وذلك أن تحريم الربا يضيف بعداً مهما هو بعد الشجاعة فى الاستثمار، إذ إن هناك مجالات كثيرة جداً لا يمكن الاستثمار فيها فى ظل سعر فائدة ثابت مرتفع ، وهذه المجالات فى الحقيقة هى المجالات الصناعية الأساسية التى تمثل جوهر التنمية الحقيقية ، وترتبط بالتشغيل المكثف؛ ففي ظل سعر الفائدة المرتفع تهرب الاستثمارات إلى مشروعات عديمة القيمة من الناحية العملية والاستراتيجية ، وكلما زادت الفائدة زاد اللجوء إلى المشروعات الخدمية أو التجارية أو إنتاج لعب الأطفال، أو مأكولاتهم ، أو مستحضرات التجميل وما شابه ذلك. أما الاستثمارات الضخمة طويلة الأجل،

ذات البنية الأساسية المكلفة فلا تبدأ في ضوء فائدة مرتفعة، ولذلك نلاحظ أن الاقتصاديات الكبرى تلجأ إلى تخفيض الفائدة حتى تصل إلى أن تكون صفراً كلما واجه الاقتصاد أزمة كبيرة.

لقد أدى الظن أن تحريم الربا مرتبط فحسب بعللة الاستغلال، إلى إخراج المعاملات البنكية من باب الربا المحرم، وفي هذا جهل بأن تحريم الربا مرتبط بحزمة المقاصد الإسلامية المالية كلها، وعلى رأسها ما يؤدي إليه من خراب اقتصادي؛ حيث تتوقف الجرأة على الاستثمار في ميادين الإنتاج الأساسية بالنسبة للمجتمع، إضافة إلى ما يؤدي إليه من مشكلات نفسية واجتماعية كبيرة، إضافة إلى إفرازه طبقة ليس لها مهنة سوى أن تكون (صاحبة أموال)، وتلك طبقة غالباً ما تكون ذات خصائص سلوكية مردولة، إضافة إلى أن الربا طريق إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء. فمن شأن انتشار الربا أن يزداد الغنى غنى، دون عمل يؤديه، وأن يتحول مجهود الفقير كله وسعيه في الأرض إلى جيب الغنى. والإسلام حريص على أن يرتبط الغنى بالعمل، فلا يوجد مجهود وكفاءة لا يؤديان إلى الغنى، مع تقليل دائرة الغنى دون عمل إلى الحد الأدنى؛ ولذلك توسعت دائرة المستفيدين من الميراث. وعلى هذا فالربا يتعارض مع المقاصد الإسلامية الاقتصادية كلها.

وهكذا مع جميع المبادئ الاقتصادية في القرآن والسنة حينما تقرأ بعيون اقتصادية نجدتها الأفضل والأكثر قدرة على التطبيق والأكثر اتساقاً مع طبائع النفوس. وقد عرضت في دراسة سابقة عن المبادئ السياسية والاقتصادية في الإسلام^(٢٣٧) لشروط التنمية الإدارية والأخلاقية والنفسية والتشريعية. وفي نيتي إفرادها بدراسة مستقلة تقدم للحديث الشريف قراءة اقتصادية في ضوء المقارنة بالنظريات الاقتصادية المعاصرة، أسأل الرحمن أن يعين على إتمامها.

٢٣٧- الشورى والتنمية دراسة في المبادئ السياسية والاقتصادية في الإسلام للمؤلف، تحت الطبع.

حاولت هذه الدراسة أن تقدم التصور النبوي ، ومن ثم التصور الإسلامي بشكل عام للعلاقة بين الإيمان والعمران ، موضحة أن هذه العلاقة علاقة تداخل وتفاعل بمعنى أن كلا منهما يستلزم الآخر ، ويؤدي إليه ، ويحافظ عليه ، وذلك عبر مبحثين: خصص الأول لدراسة مفهوم الإيمان أو قانون الإيمان كما يقدمه الحديث الشريف ، لِيَخْلُصَ إلى أن العمل مكوّنٌ أساسيٌّ من مكونات الإيمان ، وليحدد العلاقات التي تربط بين الإيمان والعمل ، والتي انتظمت في أربع علاقات هي : أن العمل جزء من الإيمان ، وأن العمل دليل على الإيمان ، وأنه نتيجة للإيمان ، وأنه في الوقت ذاته مصدر للإيمان ووسيلة لتقويته واستمراره . وقد قدمت الدراسة أدلة كثيرة صحيحة صريحة ، على كل علاقة من هذه العلاقات ، لاسيما العلاقة الأخيرة التي تكاد تغيب عن الوعي المعاصر لعامة المسلمين ، ولذلك عدد البحث نتائجها ، شارحا من خلال الحديث الشريف كيف أن ما يترتب على إهمال العمل الإعماري من فاقة للفرد ، وضعف للمجتمع ، يؤثر سلبا على الإيمان ، وقد فصل هذا المبحث كذلك الحديث عن أنواع العمل والعلاقات القائمة بين هذه الأنواع ، منتهيا إلى تقسيم الأعمال إلى ثلاث مجموعات كبرى هي : مجموعة الأعمال العبادية ، ومجموعة الأعمال السلوكية الأخلاقية ، ومجموعة الأعمال الإعمارية التنموية ، ورصد طبيعة العلاقة بين هذه الأنماط من العمل موضحا أنها علاقة تداخل وتفاعل ؛ إذ إن كل نمط من هذه الأعمال يؤثر في الآخر ويتأثر به . وفي هذا السياق يوضح هذا المبحث كيف أن العمل العبادي ثمرته سلوكية ، والعمل الأخلاقي ثمرته تنموية إعمارية ، والعمل الإنمائي الإعماري ثماره عبادية فالرحمة وهي صفة أخلاقية تعنى الصدقة عند الحاجة إليها ، وللصدقة وظائفها التنموية بقدر ما لها من وظائف إنسانية اجتماعية ، والأخلاق تعنى الصدق وعدم شهادة الزور وعدم ضياع الحقوق ، مما يعنى أوضاعا مواتية للاستثمار ، بقدر ما تعنى الرشوة أوضاعا غير مواتية له ، وإتقان العمل يعنى جودة للمنتج تساعد على تسويقه ، بقدر ما يعنى الغش رداءة تؤدى

إلى كساده ، وهكذا

أما المبحث الثاني فقد اضطلع بتفسير العلاقة بين الإيمان بمعنى التصديق وبين أنماط العمل السابقة ، شارحا كيف أن كل نمط من أنماط العمل يؤثر في الإيمان ويتأثر به ، ويفسر هذا المبحث تبادل التأثير من خلال ثلاث فقرات ، خصصت الأولى لتفسير علاقة الإيمان بالعبادة ، موضحة كيف أن الإيمان يستلزم العبادة ، وكيف أن العبادة تدعم الإيمان وتثبته ، وخصصت الفقرة الثانية لشرح الترابط بين الإيمان والأخلاق ، بحيث نفهم كيف تنبع الأخلاق من الإيمان فلا يتصور وجوده دونها ، وكيف تقود الأخلاق عند وجودها إليه ، أما الفقرة الثالثة فقد اضطلعت بتفسير العلاقة بين التنمية والإيمان بمفهومه العام الذي عرضه المبحث الأول ، وقد حددت هذه الفقرة العلاقة بين الإيمان والتنمية من خلال ستة عناصر :

١- أن الإيمان يستلزم التنمية من حيث إن الكثير من مكوناته العبادية والسلوكية يتطلب وجود قوة وقدرة على المستويين الفردي والجماعي .
٢- أن الإيمان يوجب التنمية من حيث إنها تمثل جزءا من الأوامر المباشرة في القرآن والسنة .

٣- أن الإيمان يحافظ على التنمية من حيث إن القوة الناتجة عنها تدمر [بدون الإيمان] نفسها ، إذ تتحول إلى عنصرية واستعلاء ، يصنعان رغبة في السيطرة على الجميع ، وهي رغبة محكوم عليها بالفشل بفعل قانون التدافع ؛ ومن ثم فإن القوة دون الإيمان تدمر نفسها .

٤- أن الإيمان يستلزم التنمية من حيث إنه يوجب على أتباعه الدعوة إليه ، ومن متطلبات الدعوة أن لا يكون أبناء الدين على أوضاع تصنع اتجاهها سلبيا من دينهم ؛ إذ لا يفرق الناس بين الإنسان وما يدين به ، وللدعوة متطلبات أخرى رصدتها البحث ، وأوضح أنها توجب درجة كبيرة من التنمية ، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٤- أن الإيمان يحتاج إلى التنمية لتقويته وتثبته عند أتباعه ؛ إذ من شأن حالة الضعف التي تنشأ عن عدم التنمية أن تفرز أوضاعا نفسية ومادية تؤثر سلبا

على الإيمان . وقد رصد البحث هذه الأوضاع وتتبع نتائجها .
٦- أن الإيمان منتج للتنمية من حيث إنه يهيئ لها جميع متطلباتها الإدارية والنفسية
والأخلاقية والقانونية . وقد شرح البحث كل عنصر من العناصر السابقة
مدللاً على إسهام الحديث النبوي في بيانه ، وعلاجه .

المصادر والمراجع :

أولاً : كتب الحديث النبوي الشريف :

- صحيح البخاري ، (لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري) ط ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .
 - صحيح مسلم بشرح النووي ، للحافظ : (يحيى بن شرف النووي) دار الفتح الإسلامي ، الإسكندرية ، د . ت .
 - عارضة الأحوذى بشح سنن الترمذي لابن العربي المالكي (أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد) ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٧ م .
 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني : (الحافظ أحمد بن علي) قرأه الشيخان : عبد العزيز عبد الله بن باز ، ومحمد فؤاد عبد الباقي ط ٣ ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ .
 - كتاب السنن ، لابن ماجه (أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د . ت .
 - كتاب المعلم بفوائد مسلم ، للمازري : (عبد الله محمد بن علي) تحقيق : متولي خليل عوض الله ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٦ م .
 - المسند : (للإمام أحمد بن محمد بن حنبل) تحقيق الشيخين : أحمد محمد شاكر ، وحمزة أحمد الزين ، ط ١ دار الحديث ، القاهرة : ١٩٩٥ م .
 - الموطأ للإمام مالك بن أنس ، تحقيق الدكتور : عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٥ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ، ١٩٩٦ م .
 - موسوعة الحديث النبوي الشريف : عدد كبير من الطباعات الإلكترونية .
- ثانياً : كتب التفسير وعلوم القرآن والحديث والتاريخ :
- أحكام القرآن ، لابن العربي : (أبي بكر محمد بن عبد الله) ، طبعه : محمد عبد القادر عطا ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، د . ت .

- أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر) ، رتبه وضبطه : محمد عبد السلام إبراهيم ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١ م .
- البحر المحيط ، لأبي حيان: (محمد بن يوسف الأندلسي) : ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ .
- البرهان في علوم القرآن ، الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) : تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٨ م .
- تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : (أبي جعفر محمد بن جرير) : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٤ ، دار المعارف د . ت .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن : للطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) ، ط ١ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ٢٠٠١ م .
- اختصار علوم الحديث ، لابن كثير ، وبحاشيته : الباعث الحثيث للشيخ : أحمد محمد شاكر ، : ، ط ٣ مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، للزمخشري : (محمود بن عمر) : ضبطه وصححه : مصطفى حسين أحمد ، ط ٣ ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .
- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي: (فخر الدين محمد بن عمر) ، ط ١١ ، دار الغد العربي ، القاهرة ، ١٩٩١ م .
- المقدمة ، لابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية د . ت .

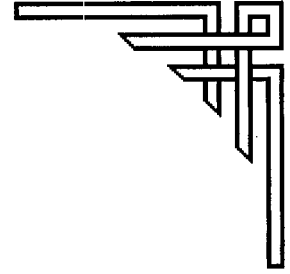
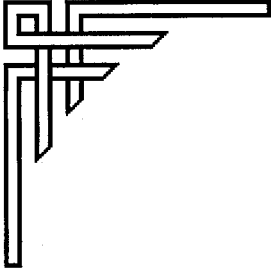
ثالثا : الكتب العربية الحديثة :

- الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان : ط ٨ ، كتاب المختار ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- الإيمان : أركانه ، حقيقته ، نواقضه ، للدكتور محمد نعيم ياسين ، مكتبة الراشدين ، القاهرة ، د . ت .
- تاريخ الفكر الاقتصادي : الماضي صورة للحاضر ، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع ،

- سلسلة عالم المعرفة، الكويت ، سبتمبر: ٢٠٠٠م.
- تحويلات الطلب ومحددات الدلالة ، مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، للدكتور : حسام أحمد قاسم: ط ١ ، دار النصر للتوزيع والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .
- التفسير والمفسرون ، للدكتور : محمد حسين الذهبي ، ط ٧ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .
- دلالات التراكيب : للدكتور : محمد محمد أبو موسى : دراسة بلاغية ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٧م .
- السنة مصدرا للمعرفة والحضارة ، للدكتور : يوسف القرضاوى : ط ٣ ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .
- شارع قوله: للدكتور : طه حسين : تحقيق وتقديم محمد سيد كيلاني ، دار الفرجاني ، (القاهرة- طرابلس ، لندن) ، ١٩٨٤م .
- عقيدة المسلم ، للشيخ محمد الغزالي ، ط ٤ ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٤م .
- الغارة الجديدة على الإسلام : للدكتور محمد عمارة ، ط ٣ ، دار الرشاد ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
- (لا إله إلا الله) عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، للشيخ محمد قطب ، دار الشروق القاهرة ، ١٩٩٥م .
- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، للدكتور : يوسف القرضاوى : ط ٧ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .
- المنصفون للإسلام فى الغرب ، رجب البنا : ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٥م
- نظام الدولة فى الإسلام ، للدكتور : عبد الله محمد جمال الدين : دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
- هل الإسلام هو الحل ، للدكتور : محمد عمارة ، ط ٢ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

رابعاً : الدوريات

- جوانب من التفكير الديني عند العقاد ، للدكتور : عبد الحميد مذكور : بحث منشور بمجلة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة العدد التاسع عشر ، ١٩٩٦ م .
- الزمن في الحديث النبوي الشريف ، للدكتور : حسام أحمد قاسم : مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد الرابع ، ٢٠٠٥ م .



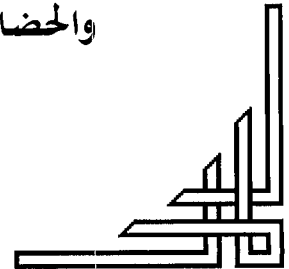
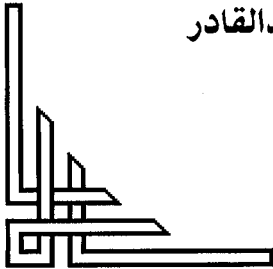
الاستثمار الزراعي
من خلال السُّنة النَّبَوِيَّة
- دراسة حديثة تأصيلية -

الدكتور نذير حمّادو

كلية أصول الدين والشريعة

والحضارة الإسلامية - جامعة الأمير عبدالقادر

قسنطينة - الجزائر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أظهر بدائع مصنوعاته على أحسن نظام، وخصَّ من عباده من شاء بمزيد الطَّوْلِ والإِنعام، ووفقه وهداه إلى دين الإسلام، وأرشده إلى طريق معرفة الاستنباط لقواعد الأحكام؛ لمباشرة الحلال وتجنب الحرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع الأنام صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الغرِّ الكرام. و بعد ...

فإنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن تنظم الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف في كلية الدراسات الإسلامية و العربية بدبي الندوة العلمية الثالثة و المعنونة بـ "القيم الحضارية في السُّنَّة النبوية"
وقد كنتم أيها السادة الأساتذة الأفاضل بحق مُؤَقِّقِينَ في اختياركم عنوانا لندوتكم الكريمة هذه؛ وها نحن نلبي دعوتكم بالمشاركة في ندوتكم الواعدة إن شاء الله تعالى.

مداخلتى ستكون بحول الله وقوته في المحور الرابع: "القيم الاقتصادية في السُّنَّة النبوية"، في المبحث الأول: ركائز التنمية و الاستثمار. و قد عنونتها بـ: الاستثمار الزراعي من خلال السنة النبوية - دراسة حديثة تأصيلية-.

بسم الله أبدأ فأقول: إن الحديث عن الاستثمار الزراعي من خلال السنة النبوية يحتاج مِنَّا في البداية إلى تحديد بعض المفاهيم، كتحديد معنى الاستثمار، وما مدلول هذا المصطلح؟، وهل استعمله علماء الإسلام في إطلاقاتهم؟، ثم حين نتحدَّث عن الاستثمار الزراعي، هل نملك أن نُخْرِجَ الأُغْرَاس؛ لأنها ليست من الزروع؟، وهل صحيح أن السنة النبوية منعت المسلمين من الاشتغال بالزراعة؟، وكيف يمكن فهم بعض النصوص النبوية الشريفة التي يُوجَّهي ظاهرها بذلك؟، وما كان موقف الصحابة الكرام والتابعين من هذا النشاط المُهمِّ؟، وهل وضعت السنة النبوية حدودا للنشاط الزراعي المشروع؟.

هذه بعض الأسئلة والإشكالات التي بدأتُ مداخلتني بها، وقد جعلتها في فصل تمهيدي عنوانته بـ: مفهوم الاستثمار الزراعي، وموقف السنة النبوية من النشاط الزراعي، يضم المباحث الآتية:

المبحث الأول: مفهوم الاستثمار الزراعي، وحُكْمُ الزراعة في السنة النبوية .
المبحث الثاني: هل السنة النبوية وقفت موقفا سلبيا من النشاط الزراعي؟ .
(شبهة والردّ عليها) .

المبحث الثالث: مظاهر الاهتمام بالزراعة في السنة النبوية .
الفصل الأول: وسائل الاستثمار الزراعي من خلال السنة النبوية، ويضم المباحث الآتية:

المبحث الأول: مشروعية ملكية الأرض من السنة النبوية .
المبحث الثاني: إحياء الموات، ومشروعيته من السنة النبوية، وحُكْمُهُ .
المبحث الثالث: نظام الإقطاع والحمى، ودليل مشروعيتها من السنة النبوية، و أهميتهما في الاستثمار الزراعي .

المبحث الرابع: كراء الأرض الزراعية، حُكْمُهُ، وضوابطه من السنة النبوية .
المبحث الخامس: الثروة المائية، وكيفية الإفادة منها .

الفصل الثاني: كيفية الاستثمار الزراعي من خلال السنة النبوية .
بعد تقديمي في الفصل الأول بأن السنة النبوية قد وضعت وسائل للاستثمار الزراعي، سأبين من خلال هذا الفصل كيف هيأت السنة النبوية بعد ذلك سُبُلَ وطرائق الانتفاع من هذه الوسائل، وسأبرزُ في هذا الفصل قدرة التشريع النبوي على تحقيق النماء الزراعي من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: الاستثمار الخاص، مفهومه، مشروعيته، و الحِكمة من تشريعه .

المبحث الثاني: المزارعة، حقيقتها، حكمها، و حِكمة تشريعها .

المبحث الثالث: المساقاة حقيقتها، حكمها، و حِكمة تشريعها .

المبحث الرابع: المغارسة حقيقتها، حُكْمُهَا، و قيمتها في استثمار الأشجار .

الفصل التمهيدي

مفهوم الاستثمار الزراعي، وموقف السنة النبوية الشريفة من النشاط الزراعي

إن الحديث عن الاستثمار الزراعي من خلال نصوص السنة الشريفة يحتاج منا في البداية إلى تحديد بعض المفاهيم و الإطلاقات،

و إبراز موقف السنة النبوية من بعض القضايا المرتبطة بموضوع بحثنا، و يجدر بنا في البداية أن نزيح اللثام عن مدلولات قد تبدو لأول وهلة محدثة وغريبة، وندفع بالشبهات التي يطرحها أعداء هذا الدين الحنيف في موضوع بحثنا؛ إذ لا يليق أن نتحدث عن الاستثمار الزراعي، و نغفل شبهة كبيرة يزعم دعايتها أن السنة النبوية وقفت موقفا سلبيا من العمل الزراعي.

ومن المفاهيم التي يتحتم تحديدها معنى الاستثمار، فما مدلول هذا الاصطلاح؟ و هل استعمله علماء المسلمين في إطلاقاتهم أم لا؟ ثم حين نتحدث عن الاستثمار الزراعي، هل نملك أن نُخرج الأغراس؛ لأنها ليست من الزروع؟ و هل صحيح أن السنة النبوية منعت المسلمين من الاشتغال بالزراعة؟ وكيف يمكن فهم بعض النصوص التي يُوحي ظاهرها بذلك؟ وما كان موقف الصحابة والتابعين من هذا النشاط الاقتصادي المُهم؟، و هل وضعت السنة النبوية حدودا للنشاط الزراعي المشروع؟.

هذه بعض الأسئلة والإشكالات التي يحاول هذا الفصل التمهيدي الإجابة عنها.

المبحث الأول

مفهوم الاستثمار الزراعي، و حكم الزراعة في السنة النبوية

تُعتبر كلمة "الاستثمار" من أكثر الكلمات شيوعا اليوم، فلا يكاد يخلو موضوع اقتصادي أو مشروع تنموي من هذه اللفظة، فهل كانت الكلمة بهذا الشيوع فيما سبق؟ و بعبارة أخرى هل استعمل فقهاء المسلمين كلمة الاستثمار في

إطلاقاتهم؟ وبما كانوا يُعَبَّرُونَ عن مدلولها؟ وما هي دلالاته عند علماء الاقتصاد؟، ثم ما مدلول هذا الفن العتيق الذي عرفته البشرية منذ فجر التاريخ والذي يسمى الزراعة؟، و هل نملك في مثل موضوع بحثنا استبعاد الغرس من المدارس؟، وما حكم النشاط الزراعي في السنة النبوية؟.

مفهوم الاستثمار لغة واصطلاحاً.

١- مفهوم الاستثمار لغة:

الاستثمار على وزن استفعال، و هو مصدر، فعله استثمر، و استثمر المال، و ثَمَّرَهُ - بالتضعيف -، إذا نَمَّاهُ، و أثمر الرجل: إذا كَثُرَ مَالُهُ، و ثَمَرَ اللهُ مَالَهُ إذا كَثَرَهُ، و الثَّمَر: المَالُ المُثَمَّر، و من المجاز: الثَّمَر أنواع المَال، و الثَّمَر: الذهب والفضة على ما حكاه بعض أهل اللغة. ^(١) قال مجاهد: ما كان في القرآن من ثَمَرٍ فهو مال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ (الكهف ٢٤)، وما كان من ثَمَرٍ فهو من الثمار وهي حِمْلُ الشجر ^(٢)؛ و على هذا فإن الاستثمار هو طلب الحصول على الثمرة.

٢- مفهوم الاستثمار اصطلاحاً:

سنعمد إلى تعريف الاستثمار عند علماء الاقتصاد على اعتبار أنه من الألفاظ الاقتصادية، ثم نحاول أن نبث عن مدلولات هذه الكلمة في تاريخ الفقه الإسلامي.

أ- مفهوم الاستثمار عند علماء الاقتصاد:

يعرف الاقتصاديون الاستثمار بتعاريف عدة تتقارب في ألفاظها ومدلولاتها، منها قولهم:

الاستثمار: هو الإنفاق على الأصول الرأسمالية خلال فترة زمنية معينة. ^(٣)

١- انظر: لسان العرب ١٠٦/٢ - ١٠٨، و الصحاح للجوهري ٦٠٥/٢ - ٦٠٦، و تاج العروس للزبيدي ٣٧٧/١٠.

٢- لسان العرب لابن منظور ١٠٦/٢ - ١٠٧.

٣- موسوعة المصطلحات الاقتصادية والإحصائية للدكتور عبد العزيز فهمي هيكل ص ١٧٦.

الاستثمار: هو زيادة إضافية في رأس المال الحقيقي للمجتمع. (٤)

الاستثمار: هو تنمية المال وزيادته. (٥)

وعلى هذا فإن معنى الاستثمار عند علماء الاقتصاد هو: الإضافة التي يمكن أن يقدمها المستثمر على أصل المال، الذي يمكن أن يكون المباني، والآلات، والحيوانات، والأرض... إلخ؛ وذلك بالعمل على تنمية هذا الأصل.

ب- مفهوم الاستثمار في اصطلاح فقهاء الإسلام:

لقد كان استعمال الفقهاء لهذا المصطلح نادرا جدا، وهذا لا يعني أنهم لم يعرفوا معناه، أو لم يقصدوه في إطلاقاتهم، كلاً، فقد استعملوا من ألفاظ اللغة ما يحمل هذا المعنى، ويؤدي مراده، ولا غرابة؛ إذ كثيرا ما ترتبط الاصطلاحات بالأزمان والظروف^(٦)؛ فإذا كان لفظ المواطنة اليوم يدل على معنى يدركه أكثر الناس، فإنه كان لفظا غربيا في مجتمعات سابقة، وإن كانت أطر الحياة التي اصطنعوها لأنفسهم تجعلهم يفهمون بعض هذا المعنى في ذلك الإطار الضيق للقبيلة أو غيرها.

و من الاستعمالات النادرة لهذا المصطلح ما ذكره صاحب الهداية حيث قال: إذا خلط المضارب مال المضاربة بماله أو مال غيره؛ لاستثمارها فلا يدخل ذلك تحت مطلق عقد المضاربة، ولكن بالنظر إلى أنه جهة في التثمين فإنه يملكه. (٧)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إكراء الشجر؛ للاستثمار يجري مجرى إكراء الأرض؛ للزرايع. (٨)

و درج أكثر الفقهاء على التعبير عن معنى الاستثمار بلفظ آخر، وهو لفظ

٤- موسوعة المصطلحات الاقتصادية للدكتور حسين عمر ص ٦٩.

٥ - الاستثمارات المالية الإسلامية للأستاذ علي البديري الشرقاوي ص ١٤.

٦ - موسوعة الفقه الإسلامي وزارة الأوقاف، جمهورية مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧/٥.

٧ - الهداية شرح بداية المبتدي للمرخيني ١٠/٣، وانظر: موسوعة الفقه الإسلامي وزارة الأوقاف، جمهورية مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧/٥.

٨ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٣/٢٩.

النماء، الذي يعني الزيادة، وهذا اللفظ تكرر كثيرا في كلامهم، وهذه نماذج من استعمالاتهم لهذه اللفظة في مختلف المذاهب.

جاء في بدائع الصنائع: لأن المقصود من هذا العقد (المضاربة) استنماء المال.^(٩)

وقال السرخسي في المبسوط: يقصدون به استنماء المال.^(١٠) وجاء في بلغة السالك: إن القراض جائز؛ لأن الضرورة دعت إليه؛ لحاجة الناس إلى التصرف في أموالهم، وليس كل أحد يقدر على التنمية بنفسه.^(١١) وجاء في المهذب: الأثمان في المقارضة لا يتوصل إلى ثنائها... إلا بالعمل فجازت المعاملة عليها ببعض النماء الخارج منها.^(١٢)

وقال صاحب المغني:... ولأن بالناس حاجة إلى المضاربة؛ فإن الدراهم والدنانير لا تُنمى إلا بالتقليب والتجارة، وليس كل من يملكها يحسن التجارة.^(١٣) هذا وقد عقد الفقهاء بابا للمعنى المقصود من الاستثمار وهو التنمية، وهو باب القراض أو المضاربة، وهناك أبواب فقهية أخرى ذُكر فيها هذا المعنى، كبيع المرابحة، والشركة، والمساقاة وغير ذلك.^(١٤)

وعلى هذا فإذا كان تسمير المال هو حسن القيام عليه وتنميته، فإن الفقهاء قد استعملوا هذا اللفظ بهذا المعنى أيضا؛ ولذا لم يكن غريبا بعد ذلك أن يذكر فقهاء الإسلام هذا الاصطلاح بعينه، ويتكرر استعمالهم له، مادام المعنى هو نفسه؛ إذ لا مشاحة في الاصطلاح، ومن أمثلة الاستعمال الفقهي الحديث لهذا المصطلح، ما ذكره الأستاذ الخبير الاقتصادي الإسلامي أبو السعود محمود، فَتَحَتْ عنوان الاستثمار الإسلامي في العصر الراهن، قال:... من أكثر المشكلات التي تواجه الحياة الاقتصادية للمسلمين على اختلاف أوطانهم هي الاستثمار الآمن

٩ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ٦ / ٧٩، ٨٨.

١٠ - المبسوط للسرخسي ٢٢ / ٧٣.

١١ - بلغة السالك لأقرب المسالك للشيخ أحمد الدردير المالكي ٢ / ٢٢٧.

١٢ - المهذب في فقه الشافعي للشيرازي ١ / ١٥٩.

١٣ - المغني لابن قدامة المقدسي ٥ / ١٣٥.

١٤ - موسوعة الفقه الإسلامي ٥ / ١٩٧-١٩٨.

وقد عقد الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي فصلا في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته في الجزء الخامس سماه: عقود استثمار الأرض (المزارعة، المساقاة، المغارسة)^(١٦)، ناهيك عن كتب الاقتصاد الإسلامي الحديث التي تعج بذكر هذا اللفظ، وهذا المعنى .

وعلى هذا؛ فإن عدم شيوع استعمال الكلمة لا يعني أن معناها كان غائبا أو مجهولا عند الناس؛ فإنهم يعيشون معنى تنمية أموالهم في أكثر النشاطات التي يقومون بها، و إذا كانت الأمة الإسلامية وهي أمة حضارة لم تستعمل كلمة حضارة، و تحضر لقرون أعقبت الفتوحات الإسلامية باستثناء العلامة ابن خلدون الذي يُعدُّ أول من عبر عن المعنى في مقدمته على الرغم من أنه كان يستعمل مصطلح العمران البشري كمرادف لمعنى الحضارة^(١٧)، فلا غرو أن لا يظهر مصطلح الاستثمار بشكل جلي إلا في العصر الحديث. وقد استعمل الفقه الإسلامي ألفاظا أخرى ذات صلة بالاستثمار، ونخص بالذكر هنا لَفْظَي الانتفاع والاستغلال، فالانتفاع هو: الحصول على المنفعة، والفرق بينه وبين الاستثمار أنه أعم من الاستثمار؛ لأن الانتفاع قد يكون بالاستثمار وقد يكون بغيره.^(١٨) وأما الاستغلال فإنه طلب الغلة، و الغلة هي: ريع الملك، وهذا هو عين الاستثمار، فما تخرجه الأرض هو ثمرة، وهو غلة، وهو ريع.^(١٩)

مفهوم الزراعة لغة واصطلاحا:

١- مفهوم الزراعة لغة:

زَرَكَ ك "مَنَّع" يزرع زَرْعًا وزراعة، الحب وغيره إذا بذره، غلب على البَرِّ

١٥ - مجلة المسلم المعاصر، العدد ٢٨، السنة ٧، تاريخ ١١ / ١٤٠٥هـ، ص ٦٩-١٤٤.

١٦ - الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ٥ / ٦١٣.

١٧ - أسس مفهوم الحضارة في الإسلام للأستاذ سليمان الخطيب ص ٢٥-٢٦.

١٨ - الموسوعة الفقهية الكويتية ٣ / ١٨٢-١٨٣.

١٩ - المرجع السابق ٣ / ١٨٢-١٨٣.

والشعير، وقيل: هو نبات كل شيء يُحْرَث، وازدرع: احترث، والزرع: الإنبات، يقال: زرع الله أي: أنبت، والله يزرع الزرع: أي: ينميه حتى يبلغ غايته، قال الراغب: وحقيقة ذلك بالأمور الإلهية دون البشرية؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (الواقعة ٦٤)، فنسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه، وإذا نُسِبَ إلى العبد؛ فلكونه فاعلا للأسباب التي هي سبب الزرع...، وعبَّرَ به عن المزرع نحو قوله: ﴿فَنُخْرِجْ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (السجدة ٢٧) (٢٠)، ويطلق على البُرِّ والشعير كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢١﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (الدخان ٢٦٢٥)، والزرَّيعة: ما بذر، والزرَّيعة (بتخفيف الراء) الحب الذي يُزرع (٢١)، وجاء في شرح نهج البلاغة: يقال: زرعت الشجرة، كما يقال: زرعت البُرِّ والشعير (٢٢)، وإن كان الأصل استعمال الغرس في الشجر، تقول: غرس الشجرَ إذا أثبتته في الأرض، والغريسة: النخلة أول ما تنبت، أو الفسيلة ساعة توضع في الأرض. وقد درج الناس على استعمال الزراعة لِلْمَعْنَيْنِ معاً، فحين تطلق عبارة الاستصلاح الزراعي، أو الثورة الزراعية، أو التجربة الزراعية؛ فإنهم يريدون بذلك الزرع و الغرس، ويُذكر الزرع في الغالب؛ لأنه الأكثر و الغرس مراد بالتَّبَعِ قطعاً، وهذا الذي سأدرج عليه في البحث إن شاء الله تعالى.

٢- مفهوم الزراعة اصطلاحاً:

عَرَّفَت الموسوعة العربية الزراعة بمعنيين هما:
 المعنى الأول: فلاحة الأرض، وهذا المعنى الضيق.
 المعنى الثاني: وهو أوسع: فلاحة الأرض، و تربية الماشية و الحراجة، وبعض

٢٠ - مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٧٩ ، و انظر: لسان العرب ٨ / ١٤١، و الصحاح

٣ / ١٢٢٤، و تاج العروس ٥ / ٣٦٧.

٢١ - تاج العروس ٥ / ٣٦٧.

٢٢ - لسان العرب ٦ / ١٥٤، و تاج العروس ٩ / ٣٠١.

صناعات الألبان لعمل الزبدة^(٣٣)،

ومن هنا يتبين أن لعلماء الاقتصاد إطلاقين.

أحدهما: ضيق للغاية ويرى أن الزراعة تقتصر على فلاحة الأرض، وهو أول ما ينصرف إليه الذهن عند الإطلاق.

الثاني: مدلول واسع، توسع في معنى الزراعة؛ فألحق بفلاحة الأرض تربية الماشية وبعض الصناعات البسيطة التي ترتبط بالإنتاج الحيواني.

حكم الزراعة في السنة النبوية الشريفة:

يرى علماء الشريعة أن الزراعة فرض من فروض الكفاية، يجب على مجموع المؤمنين القيام بها، فإذا قام بها البعض أصبحت مندوبة أو مباحة في حق الباقين^(٣٤)، وذهب القرطبي إلى أنه يتوجب على الإمام أن يجبر الناس على الزراعة وما كان في معناها من غرس الأشجار، وبخاصة إذا احتيج إلى صناعتهم؛ فإنهم يلزمون بالعمل ولهم أجره المثل^(٣٥)؛ لأن مصلحة الأمة لا تتم إلا بذلك، وتعين حينها تلك الصناعة في حقهم.

ويذهب بعض الفقهاء إلى أن تعلم الزراعة والصناعة وغيرها فرض على الأمة لحاجة الناس لذلك، شأنها شأن أنواع الولايات^(٣٦)؛ لأن تعلم الصنعة مئة، يمتن الله تعالى بها على الناس، يقول الله عز وجل ممتنا على نبيه داوود عليه السلام:

﴿ كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (الأنبياء ٧٩)، و من تعلم من المسلمين مهنة شريفة، لم يكن له تركها، خاصة إذا كان نفعها عاما؛ أرشدنا إلى ذلك النبي ﷺ، فعن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ،

٢٣ - الموسوعة العربية الميسرة لجنة من الباحثين والعلماء ١ / ٩٢٢

٢٤ - انظر: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ٢٤٧، و المدخل لابن الحاج المجلد الثاني ٢ / ٤.

٢٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٥ / ٦.

٢٦ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ٢٤٧-٢٤٨.

فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى» . (٢٧)

وقد أكثر النبي ﷺ في عديد من الأحاديث الشريفة الصحيحة التذكير بما أنعم الله به من الأجر و الثواب على المسلم إن هو اشتغل بالزراعة و الغراسة .

١- عن جابر بن عبد الله قال: دخل النبي ﷺ على أم مَعْبَدٍ حائطاً فقال: « يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمْسَلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟ »، فَقَالَتْ: بَلْ مُسْلِمٌ، قَالَ: «فَلَا يَغْرَسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا طَيْرٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . (٢٨)

٢- و عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرَسُ غَرْسًا، إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزُؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ» . (٢٩)

٣- و عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لَا يَغْرَسُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ سَبْعٌ، أَوْ طَائِرٌ، أَوْ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ » . (٣٠)

٤- و عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرَسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » . (٣١)

٥- و عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يوماً يُحَدِّثُ، و عنده رجل من أهل البادية: « أَنْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَوْ لَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَ لَكِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَاسْرَعَ وَ بَدَرَ، فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ

٢٧ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب: فضل الرمي و الحث عليه، و ذم من علمه ثم نسيه. رقم الحديث ٤٩٤٩ ص ٨١٧.

٢٨ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٧١ ص ٦٤٦.

٢٩ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٦٨ ص ٦٤٦.

٣٠ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٧٠ ص ٦٤٦.

٣١ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرت و المزارعة، باب: فضل الزرع و الغرس إذا أُكِلَ مِنْهُ، رقم الحديث ٢٣٢٠ ص ٤٦٠، و أخرجه مسلم، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٧٣ ص ٦٤٦.

وَاسْتَوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: دُونَكَ يَا ابْنَ
 آدَمَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ»، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَجِدُ هَذَا إِلَّا
 قُرْشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، فَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ،
 فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. (٣٢)

فإن الزراعة ليست جائزة فحسب، بل هي فوق ذلك؛ لأن الأحاديث النبوية
 رَغِبَتْ فيها ترغيباً عظيماً؛ بيان ما فيها من الأجر العظيم والثواب الجزيل، وفي
 حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوائد منها: دلالة على فضل الزرع، وفيه أن المهاجرين
 والأنصار كانوا مزارعين؛ لقول الأعرابي: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَجِدُ هَذَا إِلَّا قُرْشِيًّا أَوْ
 أَنْصَارِيًّا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وهم أفضل الأمة، وكانوا أهل زرع.

المبحث الثاني

هل السنة النبوية وقفت موقفا سلبيا من النشاط الزراعي؟

(شبهة و الرد عليها)

لقد اعتاد أعداء الإسلام عامة، و السنة النبوية خاصة رَمِيَهُمَا بكل منقصة،
 وَوَصَمَهُمَا بكل ما يسيء إليهما، و من ذلك زعمهم أن السنة النبوية وقفت موقفا
 سلبيا من النشاط الزراعي، و حثت المسلمين على ترك الزراعة وآلاتها.
 فما مدى صدق هذه المزاعم؟، وكيف نَرُدُّ عليها؟، خاصة إذا علمنا أن بعض
 الأحاديث النبوية يُوحى ظاهرها بمثل هذا الموقف، كيف يمكن توجيه هذه
 الأحاديث النبوية بما يناسب حكم الزراعة في السنة النبوية الشريفة الذي سبق
 بيانه في المبحث الأول؟.

٣٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب: كلام الرب مع أهل الجنة، رقم الحديث ٧٥١٩
 ص ١٥١٨.

عرض الشبهة، وأدلة القائلين بها.

محاولة النيل من السنة النبوية الشريفة فكرة قديمة جديدة، فكلما وجد أعداء السنة النبوية خاصة، فرصة للطعن فيها، لم يتوانوا في وصمها بأقبح الصفات؛ رغبة منهم في تشويه صورتها، وسعيًا لإطفاء نور الهدى فيها، ويأبى الله إلا أن يتم نور هدى نبيه ﷺ؛ بما قيض لهذه الأمة المباركة من علماء مخلصين ينفون عن سنة نبينا ﷺ انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، ومن هذه المطاعن التي يحاول هؤلاء رمي السنة الشريفة بها: زعمهم أنها وقفت موقفا سلبيا من النشاط الزراعي.

قالوا: لقد وردت أحاديث تُبين أن النشاط الزراعي مذموم، وأن الاشتغال بالفلاحة عموماً أمر لا يُقبلُ من مسلم كامل؛ لأن ذلك سبب في نزول الدَّلَّةِ و الصغار على الأمة، وقد أنكر الصحابة - رضي الله عنهم - على المشتغلين بالزراعة، بل أحرق عمر بن الخطاب زرع أقوام بعد أن اشتد، وفي كل هذا دليل على أن النشاط الزراعي مرفوض، وغير مرغوب فيه.

و الأحاديث التي استدل بها هؤلاء هي:

- ١- عن أبي أمامة الباهلي قال: وَرَأَى سِكَّةً وَ شَيْئاً مِنْ آلَةِ الْحَرْثِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أُدْخِلَهُ الذُّلَّ» .^(٣٣)
- فهذا نبي الإسلام يرى آلة الزراعة عند أحد أصحابه، فيُنكر عليه تملكه لها، ويبين له أن مثل هذه الآلة إذا دخلت بيت قوم أصابتهم الدَّلَّةُ و المهانة، وفي هذا إشارة كافية إلى ذم الاشتغال بالزراعة؛ إذ لا يُعقل أن يُسْتَعْلَ بالزراعة دون آلتها.
- ٢- و عن عبد الله بن مسعود، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا» .^(٣٤)

٣٣ - أخرجه البخاري، في كتاب الحرث والمزراعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكِلَ منه، رقم الحديث ٢٣٢١ ص ٤٦٠.

٣٤ - أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الهم في الدنيا وحبها، رقم الحديث ٢٣٢٨ ص ٥٢٦. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الشيخ الألباني في حكمه على أحاديث سنن الترمذي ص ٥٢٦ صحيح. وانظر: الصحيحة ص ١٢.

فهذا نهى آخر من نبي الإسلام للمسلم يمنعه من اتخاذ الحقول و البساتين؛ لأنها تربط المسلم بدنيا الناس، وتَجَمَّلُهَا فِي عَيْنِهِ؛ فيقعد عن أداء المعروف، و يصيبه الوهن الذي حَدَّرَ رسول الإسلام أُمَّتَهُ مِنْهُ.

٣- واحتجوا أيضا بما رواه ابن حزم في المحلى من طريق أسد بن موسى عن محمد بن راشد عن مكحول: أن المسلمين زرعوا بالشام، فبلغ عمر بن الخطاب؛ فأمر بإحراقه و قد ابيض، فأحرق، و أن معاوية تولى حرقه. (٣٥) و بما رواه ابن حزم في المحلى أيضاً من طريق أسد بن موسى عن شرحبيل بن عبد الرحمن المرادي: أن عمر بن الخطاب قال لقيس بن عبد يغوث المرادي: لا أذن لك بالزراعة إلا أن تُقَرَّ بالذل، و أمحو اسمك من العطاء، و أن عمر كتب إلى أهل الشام: مَنْ زرع، و اتبع أذناب البقر و رضي بذلك؛ جعلتُ عليه الجزية. (٣٦)

فهذا أمير المؤمنين، و أحد كبار فقهاء صحابة الرسول ﷺ يرى أن الاشتغال بالزراعة نقص في دين المسلم و إقرار بمذلة تحرم المسلم من امتياز يوهب لأمثاله، و تلزمه بغرامة مالية، الأصل أن تطال مَنْ هُمُ دُونَهُ.

الرَّدُّ عَلَى الشَّبْهَةِ

لقد وجه شُرَّاحُ حديث رسول الله ﷺ الآثار الصحيحة الواردة في المسألة بما يتفق و روح هذا الدين الحنيف، و جمعوا بينها و بين الآثار الداعية إلى الزرع و الغرس، و هذا هو الأصل في التعامل مع نصوص الشريعة، و منها أحاديث النبي ﷺ؛ لأن إعمال النصوص أولى من إهمالها، و لا يليق أيضاً أن يُستدل بنص و تُهْمَلُ بقية النصوص الواردة في الموضوع ذاته، و منها:

١- ما ثبت في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بِهِمَةٌ، إِلَّا كَانَ

٣٥ - المحلى شرح المجلى لابن حزم الظاهري ٩/ ٢٩، كتاب: المزارعة و المغارسة.

٣٦ - المحلى شرح المجلى لابن حزم الظاهري ٩/ ٢٩، كتاب: المزارعة و المغارسة.

لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ» . (٣٧)

٢- وعن جابر بن عبد الله قال: دخل النبي ﷺ على أم مَعْبَدٍ حَائِطًا فَقَالَ: « يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّحْلَ؟ أَمْسَلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟ » فَقَالَتْ: بَلْ مُسْلِمٌ، قَالَ: «فَلَا يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا طَيْرٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . (٣٨)

٣- وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرَزُوهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ» . (٣٩)

٤- وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لَا يَغْرِسُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ سَبْعٌ، أَوْ طَائِرٌ، أَوْ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ» . (٤٠)

ففي هذه النصوص النبوية الشريفة الدليل القاطع و الساطع على فضل الزرع و الغرس، و أن كلا من الزارع و الغارس ينال مثوبة عظيمة عند الله تعالى على جميل صنيعه؛ فعلى كل زرع أو غرس أُكِلَ أَجْرٌ، و لا فرق بين الأكلِ إنساناً كان أو حيواناً، بل حتى ما يؤخذ عن طريق النهب و الغصب يؤجر زارعه و غارسه أجراً جزئياً ممتداً في الزمن إلى يوم القيامة، و هذا كله من نعمة الله تعالى على الناس .

قال الحافظ أبو بكر بن العربي معقباً على هذا المعنى: و من تمام النعمة أنه يأجره على من يقتدي به، كما يأجره على من باشره، و من واسع كرمه أنه يأجره على

٣٧ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحوث و المزارعة، باب: فضل الزرع و الغرس إذا أُكِلَ مِنْهُ، رقم الحديث ٢٣٢٠ ص ٤٦٠، و أخرجه مسلم، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٧٣ ص ٦٤٦.

٣٨ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٧١ ص ٦٤٦.

٣٩ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٦٨ ص ٦٤٦.

٤٠ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٧٠ ص ٦٤٦.

ما كان بعد حياته كما يأجره على ما كان فيها؛ وذلك في أشياء صدقة جارية .^(٤١) وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث و حديث أبي أمامة: «لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ الذُّلُّ» وقالوا: إن الذلة الواردة في حديث أبي أمامة إنما يراد بها ما يلزم به العامل من حقوق الأرض التي تطالبهم بها الولاية، و كان العمل في الأراضي أول ما افتتحت على أهل الذمة؛ فكان الصحابة يكرهون تعاطي ذلك، وهذا من إخباره ﷺ بالمغيبات؛ لأن المشاهد الآن أن أكثر الظلم إنما هو على أهل الحرث، و قيل: إن المسلمين إذا اشتغلوا بالزراعة انشغلوا عن العدو، و تركوا الجهاد؛ و في هذا ذل للقوم.^(٤٢)

قال الحافظ ابن حجر: " و قد أشار البخاري بالترجمة " (أي: عنوان الباب: مَا يُحَذَّرُ مِنْ عَوَاقِبِ الاِسْتِغَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ، أَوْ مُجَاوِزَةِ الْحَدِّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ) إلى الجمع بين حديث أبي أمامة - : «لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ الذُّلُّ» - ، و الحديث الماضي في فضل الزرع و الغرس (و هو حديث أنس : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بِهِيْمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ») و ذلك بأحد أمرين: إما أن يُحمل ما ورد من الذم على عاقبة ذلك، و محله ما إذا اشتغل به؛ فيضيع بسببه ما أمر بحفظه، و إما أن يُحمل على ما إذا لم يضع إلا أنه جاوز الحدّ فيه .^(٤٣)

و هذا التوجيه دقيق للغاية، و يجمع بين كلامه ﷺ - الذي لا يتناقض - بتخريج و توفيق بالغ.

قلت: و النبي ﷺ حين يحذر من الاستغلال بآلة الزرع، إنما كان يخشى ركون أصحابه إلى العمل الزراعي، و خشي أن يستجيب المشتغل به إلى إغراءاته الكثيرة، فيتجاوز الحد المطلوب، كما حصل مع أقوام في غزوة تبوك حين امتحنَ

٤١ - عارضة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للقاضي ابن العربي ٦ / ١٧٥ .
 ٤٢ - انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٥٥، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني المجلد السادس، ١٢ / ١٥٧ .
 ٤٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٥ / ٥، و قد نقل القسطلاني كلام الحافظ ابن حجر في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٤ / ١٧٢ .

الزُّرَاعُ امتحاناً عصبياً، فقد طلب منهم أن يخرجوا للغزو في أحبِّ المواسم إليهم، موسم الجنى الذي انتظروه بفارغ الصبر، وبعَدَتِ الشقة على ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب، وبدا واضحاً أن حُبَّ الثمرة قد أخذ بشغاف قلوب القوم، فما عادوا يلتفتون للنداء، فأقبلوا على النبي الكريم ﷺ يعتذرون، أو يصطنعون الأعداء، وأغرتهم دماثة حُلُقِ النبي الكريم ﷺ، الذي كان يسمع كُلَّ عذر ويقبله؛ فجاء القرآن الكريم ففضح نواياهم، وبيّن عميق ارتباطهم بأعراض الدنيا، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة ٢٤)، وقد جاء في الصحيح: «إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ»، قيل: وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ؟ قال: «زَهْرَةُ الدُّنْيَا» (٤٤)، وقال ﷺ أيضاً: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ؛ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتَهُمْ». (٤٥) وبهذا يمكن أن تُردَّ الشبهة على أصحابها، ويجمع بين الأحاديث.

أما ما روي أنه ﷺ نهى عن اتخاذ الضيعة؛ فَيُحْمَلُ عَلَى مَا حُمِلَ عَلَيْهِ حَدِيثُ الاشتغال بألة الزرع السابق، خاصة وأنه ثبت أنه ﷺ قد أقر أقواماً على امتلاكهم للبساتين، بل وشجعهم على حسن العمل والتعمير، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ على أم مَعْبَدٍ حَائِطاً فَقَالَ: «يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّحْلُ؟ أُمُّسَلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟»، فَقَالَتْ: «بَلْ مُسَلِمٌ»، قَالَ: ﷺ فَلَا يَغْرَسُ الْمُسْلِمُ غَرْساً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا طَيْرٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٤٦). قال الحافظ

٤٤ - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم الحديث ٦٤٢٧ ص ١٣٠٩.

٤٥ - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم الحديث ٦٤٢٥ ص ١٣٠٩.

٤٦ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٧١ ص ٦٤٦.

ابن حجر: و في الحديث فضل الغرس و الزرع، و الحض على عمارة الأرض،
و يُستنبط منه اتخاذ الضيعة و القيام عليها. (٤٧)

و من الأمثلة الواضحة و الأدلة الظاهرة على جواز العمل الزراعي، بل
و ضرورته أنه ﷺ أَذِنَ لَامْرَأَةٍ مَعْتَدَةٍ بِالخُرُوجِ لِلْعَمَلِ فِي بَسْتَانِهَا لِحَاجَتِهَا إِلَيْهِ، فَلَوْ
كَانَ الْعَمَلُ الزَّرَاعِي مَذْمُومًا لَمَا أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ لَهَا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهَا لِلْعَمَلِ، وَهِيَ
فِي الْعِدَّةِ؛ فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: طَلَّقْتُ خَالَتِي، فَأَرَادَتْ أَنْ تَجِدَّ نَحْلَهَا،
فَزَجَرَهَا رَجُلٌ أَنْ تَخْرُجَ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «بَلَى، فَجُدِّي نَحْلَكَ؛ فَإِنَّكَ عَسَى
أَنْ تَصَدَّقِي، أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا». (٤٨)

و أما ما روي عن أسد بن موسى عن شرحبيل بن عبد الرحمن المرادي: أن عمر
ابن الخطاب ﷺ قد أمر بحرق زروع أقوام، و هدد العاملين في الزراعة بضرب
الجزية عليهم، فأمر غريب، و قد رده الإمام ابن حزم؛ حيث قال: هذا
مرسل، و أسد ضعيف، و يعيد الله أمير المؤمنين من أن يحرق زروع المسلمين،
و يفسد أموالهم، و مِنْ أَنْ يَضْرِبَ الْجُزْيَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْعَجِيبُ مَنْ يَحْتَجِ
بِهَذَا، وَهُوَ أَيُّ سَيِّدِنَا عَمْرٍو بِنِ الْخُطَابِ ﷺ أَوَّلَ مُخَالَفٍ لَهُ. (٤٩)

و الحقيقة أن هذا الصنيع غريب من مسلم، فكيف بأمر المؤمنين عمر ﷺ،
صاحب رسول الله ﷺ، الذي عايش نزول الوحي، وهو الذي كان يقنن حياة
المسلمين كلها، و يُظهر اهتماما واضحا بالزراعة و بالعمل بوجه عام، و كان يشاهد
الصحابة وهم يغدون و يروحون على حدائقهم و حقولهم، و النبي ﷺ لا ينكر
عليهم، بل كان يدعو لهم بالبركة و سعة الرزق، فكيف يغفل عمر بن
الخطاب ﷺ عن كل هذا؟!، و هو الذي لم يجد و إخوانه المهاجرون أول الأمر

٤٧ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٤٥.

٤٨ - أخرجه مسلم، في كتاب الطلاق، باب: جواز خروج المعتدة البائن، و المتوفى عنها زوجها في النهار
لحاجتها، رقم الحديث ٣٧٢١ ص ٦١١.

٤٩ - المحلى شرح المجلى لابن حزم الظاهري ٣٠٩، كتاب: المزارعة و المغارسة.

عملاً يرتزقون منه في المدينة المنورة، عدا الاشتغال بمزارع الأنصار و بساتينهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصارُ للنبي صلى الله عليه وسلم: اقسِمْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلِ. قال: «لا»، فقالوا: تَكْفُونَا الْمُؤُونَةَ، وَ نُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. (٥٠)

وحين نقرأ في سيرة الفاروق رضي الله عنه أنه أقطع أراضي كثيرة لأقوام رغبوا في استصلاحها، وانتزع من الكسالى والعاجزين أراضي أعطيت لهم بغية استصلاحها^(٥١)، نستغرب أن ينسب إلى الرجل حرقه لزرع المسلمين؛ وإذلاله لهم بفرض الجزية عليهم، خاصة حين يروى عنه تعظيمه لشأن الأقوات، فعن أبي يزيد المدني قال: قدم علينا عمر، وقدم علينا طعام من مصر في البحر، فأدخلناه البيوت من السفر، فأتى عمر فرأى طعاما منثورا في الطريق، فجعل عمر يجمعه بيده ويزحف؛ فيجعله في ثوبه وقال: لا أراكم تصنعون مثل هذا. (٥٢)

إن الذي يزحف؛ لأجل حبات قمح أو شعير يجمعها، و يعُدُّ تضييعها منكراً لا يجوز العود إليه، يستحيل أن يستسيغ حرقها وهي في سنبها، و تزداد دهشتنا مما ينسب إلى رجل كان يقف خطيباً في الناس يدعوهم إلى إعمار الأرض قائلًا: يا أيها الناس من أحيا أرضاً ميتة فهي له (٥٣)، و عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول لأبي: أعزم عليك أن تغرس أرضك، فقال أبي: أنا شيخ كبير، أموت غداً، فقال عمر: أعزم عليك لتغرسنها، فلقد رأيتُ عمر بن الخطاب يغرسها مع أبي. (٥٤)

وإنما أطلتُ في هذا المقام للردِّ على من يشين سنة النبي الكريم (بكونها جاءت

٥٠ - أخرجه البخاري، في كتاب الحرث و المزارعة، باب: إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره، و تشركني في الثمر، رقم الحديث ٢٣٢٥ ص ٤٦١.

٥١ - انظر: خطط المقرئ ١٥٤١، و إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص ٥٥.

٥٢ - انظر: إصلاح المال لابن أبي الدنيا، ص ٥٥، و التراتيب الإدارية للسيد محمد عبد الحي الكتاني ٣٣ / ٢.

٥٣ - انظر: الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص ٢٩٠، و التراتيب الإدارية للسيد محمد عبد الحي الكتاني ٣٢ / ٢ - ٣٨.

٥٤ - انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني ص ٢٢٤.

ناهية عن الزراعة؛ حتى قال لي بعض المستشرقين الفرنسيين: إن في أحاديث نَبِيِّكُمْ -) - لعنَ المحراث و الحارث، فقلتُ له: سُنَّةُ نَبِيِّنا ﷺ جاءت بعكس ما تنسب لها، وأرشدته إلى بعض ما سبق فعجب .

وقد ألف المسلمون في علم الفلاحة، وطُرُق استخراج المياه من الأرض عدة مصنفات: كأبي حنيفة الدينوري له كتاب النبات و الشجر، وأبي زكرياء يحيى بن محمد بن العوام الأندلسي الإشبيلي من أهل المائة السادسة، له كتاب في الفلاحة، طبع بِمَدْرِيد (إسبانيا) في جزأين، استعان في كتابه بَنِيْفٍ و ستين من كتب اليونان و الرومان و العرب، وكان يطبق ما فيه على الفلاحة العملية التي أجراها بأرض بقرب إشبيلية، وللشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة، طبع بدمشق، ولابن وحشية الكلداني كتاب في الفلاحة النبطية، و كان كَلَّفَ المستعين بالله العباسي في بغداد قسطا بن لوقا البعلبكي بترجمة الكتب اليونانية، و له كتاب الفلاحة اليونانية، ترجمه إلى العربية عن ترجمة سريانية، و هو مطبوع بمصر، و لأهل الأندلس الكثير الطيب في هذا العلم.^(٥٥)

المبحث الثالث

مظاهر الاهتمام بالزراعة في السنة النبوية

لقد اهتمت السنة النبوية الشريفة بالزرع و الغرس اهتماماً بالغاً، وتوجهت عناية المسلمين إلى النشاط الزراعي؛ بإرشاد صاحب الرسالة ﷺ، فبرعوا فيه وبلغوا حدّاً من التَّمَرُّسِ في الفلاحة جعلهم نماذج تحتذى، وأمثلة تضرب، ومن أبرز مظاهر عناية السنة النبوية الشريفة بهذا القطاع المهم في حياة الأمة :

٥٥ - انظر: التراثيب الإدارية للسيد محمد عبد الحي الكتاني ٢ / ٣٨.

الدعوة إلى العمل، و محاربة البطالة.

لقد دعا النبي ﷺ إلى العمل، و حث عليه كثيراً، و قد ثبتت عنه ﷺ نصوص صحيحة و صريحة تأمر المسلمين بكل عمل شريف يكفل لهم كريم العيش، و يحفظ لهم مروءتهم، و يصون لهم ماء وجوههم، فلا يراق بسبب السؤال، قال ﷺ: «**طَلَبُ الْحَلَالِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**». (٥٦)

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: «لَكَ فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟»**، قَالَ: بَلَى، **حَلَسْتُ نَلْبَسُ بَعْضَهُ، وَ نَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَ قَدَحُ نَشْرَبُ فِيهِ، قَالَ: «أَتَنِينِي بِهِمَا»**، قَالَ: فَآتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: **أَنَا أَخَذُهُمَا بِدِرْهَمٍ**، قَالَ: «**مَنْ يَزِيدُ عَلَيَّ دِرْهَمٍ؟**»، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: **أَنَا أَخَذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ**، فَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيُّ، وَ قَالَ: «**اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَ اشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا، فَاتْنِي بِهِ**»، فَفَعَلَ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَشَدَّ بِهِ عُوْدًا بِيَدِهِ، وَ قَالَ: «**اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ، وَ لَا أَرَاكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا**»، فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَ قَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ، فَقَالَ: «**اشْتَرِ بَبَعْضِهَا طَعَامًا، وَ بَبَعْضِهَا ثَوْبًا**»، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ وَ الْمَسْأَلَةُ نَكْتَةٌ فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُقْطِعٍ، أَوْ دَمٍ مُوَجِعٍ**». (٥٧)

فدلَّ هذا الحديث النبوي على تقدير الرسول الكريم ﷺ لقيمة العمل، و حثه أصحابه على الاكتساب و الاجتهاد في طلب الرزق.

وإذا كان كلُّ كسبٍ حلالٍ محبوباً؛ فإن الكسب الذي تدركه اليدُ العاملةُ المُخلصَةُ أشدُّ حُبًّا، و أرفعُ شأنًا، و أكرمُ ثبوتًا، عند الله عز و جل، و لا أدلَّ على ذلك من أن صفوة خلق الله ممن امتدَّتْ سلطان ملكهم، و اتسعت رقعة دولتهم،

٥٦ - أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط، رقم الحديث ٨٦١٠، ٨ / ٢٧٢. و قال الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد، المجلد الخامس، في باب: طلب الحلال و البحث عنه ١٠ / ٢٩١: إسناده حسن، و قال الحافظ المنذري في الترغيب و التهيب، في كتاب البيوع، باب: الترغيب في طلب الحلال و الأكل منه ٢ / ٣٤٥: إسناده حسن إن شاء الله.

٥٧ - أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب التجارات، باب: بيع المزايدة، رقم الحديث ٢١٩٨ ص ٣٧٨.

يرفضون أكل الملوك وعيش السلاطين، ويؤثرون كسب اليَد؛ فيستحقون بذلك الذكر الحسن، قال رسول الله ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» (٥٨) وقال عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ» (٥٩) وقال ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنْ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ» (٦٠).

ولم يقبل نبيُّنا عليه الصلاة والسلام القعود غير المثمر، والفراغ من كل عمل، والانطواء على الذات، والبعد عن الناس، والتفكير في الهموم والديون؛ فقد دخل ﷺ ذات مرة المسجد من غير وقت الصلاة، فوجد رجلاً مهموماً، شديد الحزن، قد انزوى بنفسه بعيداً عن الناس، فسأله عليه الصلاة والسلام: «يَا أَبَا أُمَامَةَ مَالِي أَرَأَيْكَ جَالِساً فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ؟»، قال: هُمُومٌ لَزَمْتَنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فأرشده النبي الكريم ﷺ إلى العلاج بأسلوب حكيم؛ حيث قال له: «أَفَلَا أَعَلَّمْتُكَ كَلَاماً إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ!! قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ»، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ؛ فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي» (٦١).

إِنَّ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ ﷺ يَأْبَى عَلَى صَاحِبِ الْهَمِّ أَنْ يَسْتَسَلِمَ لَهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ، وَيَرَى

٥٨ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث ٢٠٧٢ ص ٤١٢.

٥٩ - أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث ٨٣٩٣، ٢ / ٣٣٤، و برقم ٨٦٧٦، ٢ / ٣٥٧.
٦٠ - أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، رقم الحديث ١٣٥٨ ص ٣٢٠ قال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

٦١ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الصلاة، باب: في الاستعاذة، رقم الحديث ١٥٥٥ ص ٢٣٨.

الكسل و البطالة عيباً و منقصة يستعيز منها المسلم كما يستعيز من رذيلتي البخل و الجُبْنِ، فالنبي الكريم ﷺ يرفض القعود، و يُفَبِّحُ الركود، وهو عليه الصلاة و السلام ما فتى يدعو المسلمين إلى الضرب في الأرض؛ يستحثهم على العمل. و قد كان المجتمع الإسلامي الأول ينظر إلى القاعد عن العمل بكثير من الازدراء؛ حيث كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا نظر إلى ذي سيما سأل: أَلَهُ حِرْفَةٌ؟ فإن قيل: لا، سقط من عينه، و مرَّ سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوم، فقال: ما أنتم؟ قالوا: متوكلون، قال: لا، بل أنتم متأكلون؛ إنما المتوكلُ من ألقى حَبَّهُ في الأرض، و توكلَ على رَبِّهِ. (٦٢)

فإن من شأن البطالة و القعود عن العمل يؤديان إلى ارتفاع نسبة الجريمة في المجتمع، و يُقضى على عنصر الطموح و التنافس الشريف، و يترتب على ذلك وجود جيل هزيل، فاتر، متخاذل، لا عزيمة له.

الدعوة إلى الزرع و الغرس.

دعا النبي ﷺ المسلمين إلى الزراعة و الغرس، و تكرر ذلك منه ﷺ بأساليب شتى، و طرق مختلفة أغرت الصحابة الكرام بالإقبال على العمل في النشاط الفلاحي، بل و التفوق فيه على بعض من سبق إليه. و هذه جملة من أحاديث النبي ﷺ تؤكد ذلك:

- ١- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ». (٦٣)
- ٢- و عن جابر بن عبد الله قال: دخل النبي ﷺ على أم مَعْبَدٍ حائطاً فقال: « يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمْسَلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟ » فقالت: بَلْ مُسْلِمٌ، قال: « فَلَا يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا طَيْرٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ »

٦٢- انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٢ / ٢٩٠.

٦٣- أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث و المزارعة، باب: فضل الزرع و الغرس إذا أكل منه، رقم الحديث ٢٣٢٠ ص ٤٦٠، و أخرجه مسلم، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس و الزرع، رقم الحديث ٣٩٧٣ ص ٦٤٦.

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٦٤).

٣- و عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرَسُ غَرْسًا، إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرِزُوهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ». (٦٥)

٤- و عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَغْرَسُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ سَبْعٌ، أَوْ طَائِرٌ، أَوْ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ». (٦٦)

٥- و عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيُزْرِعْهَا، أَوْ لِيُزْرِعْهَا أَخَاهُ، وَلَا يُكْرِهَا». (٦٧)

٦- و عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيُزْرِعْهَا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَغْرِسَهَا، وَعَجَزَ عَنْهَا، فَلْيَمْنَحْهَا أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، وَلَا يُؤَاجِرْهَا إِيَّاهُ». (٦٨)

٧- و عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ فَضْلٌ أَرْضٍ فَلْيُزْرِعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ فَإِنَّ أَبِي فَلْيَمْسِكْ أَرْضَهُ». (٦٩)

فالنبي ﷺ يدعو في هذه الأحاديث إلى زراعة الأرض، يَحْتُ مالِكها على زرعها، فإن عجز عن الزراعة، أو رَغِبَ عنها، فليمنحها أخاه المسلم؛ ليعمرها.

٨- و عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَ فِي يَدِ

٦٤ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٧١ ص ٦٤٦.
٦٥ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٦٨ ص ٦٤٦.

٦٦ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٧٠ ص ٦٤٦.

٦٧ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: كراء الأرض، رقم الحديث ٣٩٢١ ص ٦٣٩.

٦٨ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: كراء الأرض، رقم الحديث ٣٩٢٠ ص ٦٣٩.

٦٩ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الحرث و المزارعة، باب: ما كان من أصحاب النبي ﷺ، يواسي بعضهم بعضاً في الزراعة و الثمر، رقم الحديث ٢٣٤٠ ص ٤٦٤، و في كتاب الهبة و فضلها، باب: فضل المنيحة، رقم الحديث ٢٦٣٢ ص ٥٢٦.

أَحَدِكُمْ فَسَيْلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقْوَمَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسَهَا» .^(٧٠)
وهذا الحديث الشريف يزخر بالمعاني الجليلة والأحكام المفيدة، نذكر منها:
أ- دعوته ﷺ إلى ضرورة العناية بالغرس، وكيف أن العمل في الأرض لا ينبغي أن ينقطع لحظة.

ب- في الحديث إشارة واضحة إلى أن العمل الفلاحي مقدّس؛ لأن المسلم حين يغرس هذه الفسيلة (الشُّجَيْرَةَ) يدرك أنه لن يجني لا هو، ولا غيره ثمرتها؛ لأن الكل سيهلك؛ بقيام الساعة، ولا يبقى إلا وجه الله تعالى، ومع ذلك يحثه النبي الكريم ﷺ على إكمال الغرس؛ وهذا دليلٌ على قدسية العمل في حدّ ذاته.

ج- وفي الحديث الشريف أيضاً رفع من شأن العمل الزراعي إلى مرتبة القربة والطاعة؛ لأن النفس حين يقرب أجلها، وتوقن أن النهاية قد أزفت؛ تتطلّع إلى عمل صالح تختم به عمرها، كأن تلهج بذكر الله تعالى حتى تلقاه، أو تقف متدللة في محراب العبادة؛ تناجي خالقها، لكن النبي الكريم ﷺ يوجه المسلم في هذا الموقف العظيم إلى غرس الشُّجَيْرَةِ التي بين يديه إن استطاع؛ وهذا دليل على أن هذا العمل قربة من القربات، وطاعة من الطاعات.

وقد أدرك صحابة رسول الله ﷺ هذا المعنى؛ فحرصوا جهد استطاعتهم على الاشتغال في هذا الميدان؛ لينالوا المثوبة من عند الله تعالى؛ فقد مرَّ رَجُلٌ بِأبي الدرداء رضي الله عنه وهو يغرس غرساً بدمشق، فقال له: أتفعل هذا، وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟! قال: لا تعجل عليّ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ غَرَسَ غَرْسًا، لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ أَدَمِيٌّ، وَلَا خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ» .^(٧١)

٧٠ - أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث ١٣٠٠٤، ٣/١٩١، ورجال الحديث كلهم ثقات، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني، رقم الحديث ١٢٢٨، ص ٢٢٤.

٧١ - أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث ١٣٠٠٤، ٣/١٩١، والطبراني في الكبير رقم الحديث ١٣٠٠٤، ٣/١٩١، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، المجلد الثاني، ٤/٦٨: «رجاله موثوقون، وفيهم كلام لا يضر».

الفصل الأول

وسائل الاستثمار الزراعي من خلال السنة النبوية.

المبحث الأول

مشروعية ملكية الأرض من السنة النبوية

تعترف السنة النبوية بحق ملكية الأرض ومشروعيتها، وتصونه، وهذا ما أكده النبي ﷺ في أكثر من مناسبة.

فقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ»^(٧٢)، ثم ما هو عليه الصلاة والسلام يخطب في الناس مودعا في حجة الوداع فيقول: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»^(٧٣).

وإذا كان هذان النصان من نصوص السنة الشريفة يعترفان بحق الملكية، ويمنعان الاعتداء على حق الغير، فقد جاءت نصوص أخرى أكثر تخصيصا، تتحدث عن إثم الاعتداء على أرض الغير، وكيف أن عاقبة ذلك تكون وخيمة يوم القيامة؛ فعن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٧٤)، وعن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا بغيرِ حَقِّهِ، حُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٧٥).

وعن أبي سلمة أنه كانت بينه وبين أناس خصومة في أرض، فذكر لعائشة رضي الله عنها، فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ظَلَمَ

٧٢ - أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الفتن، باب: حرمة دم المؤمن وماله، رقم الحديث ٣٩٣٣ ص ٦٤٩، وهو حديث صحيح.

٧٣ - أخرجه مسلم، في كتاب القسامة والمحاربن والقصاص والديات، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم الحديث ٤٣٨٣ ص ٧١١.

٧٤ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المظالم، باب: إثم من ظلم شيئا من الأرض رقم الحديث ٢٤٥٢ ص ٤٨٩.

٧٥ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المظالم، باب: إثم من ظلم شيئا من الأرض رقم الحديث ٢٤٥٤ ص ٤٩٠.

قَيْدَ شَيْبٍ مِنَ الْأَرْضِ طُوقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» . (٧٦)

وقد حاول العلماء تأويل الحديث، فذكروا له أكثر من توجيه، حيث ذهب الإمام الباجي إلى أنه يحتمل أن يكون المعنى جعله ذا روح ثم يطوقه ذلك الظالم عذابا له، كما يفعل بمانعي الزكاة، واستشهد بالحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبَيْبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ» يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ، يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ حَيْرًا هُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران ١٨٠) (٧٧)، فكما يعيد الله تعالى المال الممنوع شجاعا أقرع، فكذلك من ظلم في الأرض وأخذ ما ليس له بحق، وقال الخطابي: له وجهان: أحدهما: أن يكلف نقل ما ظلم من الأرض، يوم القيامة إلى المحشر؛ فيكون كالطوق في عنقه، والثاني: أن يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين. (٧٨)

ويصل الأمر في المحافظة على معالم الأرض، والتحذير من تغييرها، إلى حدّ طرد الظالم من رحمة الله تعالى، فكلُّ مَنْ غَيَّرَ مَعَالِمَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّ مَلْعُونٌ بِنَصِّ الْحَدِيثِ، فَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ حُدُودَ الْأَرْضِ، مَلْعُونٌ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ» . (٧٩)

ويستفاد مما سبق من الأحاديث النبوية أنها اعترفت بحق الملكية بما تحمله هذه الكلمة من دلالة واسعة-؛ فإنها تضع بين يدي المسلم وسيلة من أهم وسائل الاستثمار، ألا وهي: رأس المال الذي يُعَدُّ العِمُودَ الْفِقْرِيَّ لِلتَّنْمِيَةِ فِي كُلِّ مَجْتَمَعٍ .

٧٦ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المظالم، باب: إثم من ظلم شيئا من الأرض رقم الحديث ٢٤٥٣ ص ٤٨٩.

٧٧ - أخرجه البخاري، في كتاب التفسير، باب: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ رقم الحديث ٤٥٦٥ ص ٩٢١.

٧٨ - المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ص ٤٩ - ٥٠.

٧٩ - أخرجه أحمد في مسنده من حديث طويل، رقم الحديث ١٦٢٨، ١٠٧/٣ - ١٠٨.

المبحث الثاني

إحياء الموات، ومشروعيتها من السنة النبوية، وحكمته.

يعتبر إحياء الموات من أبرز التشريعات التي أسهمت بها السنة النبوية في موضوع بحثنا؛ فهو يُعدُّ بحق فلسفة تشريعية إسلامية في تمليك أسباب النماء الزراعي؛ ونظراً لأهميته فسأعالجه معالجة خاصة، تستجيب لحاجتنا العلمية والعملية في هذا البحث.

تعريف إحياء الموات.

إحياء الموات: هو جعل الأرض الميتة التي لا مالك لها مُنتفعاً بها بوجه من وجوه الانتفاع، كالغرس، أو الزرع^(٨٠)

مشروعية إحياء الموات من السنة النبوية.

الأصل في مشروعية إحياء الموات أحاديث نبوية شريفة، منها:

- ١- عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً؛ فَهِيَ لَهُ»^(٨١). قال الإمام الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ، والعملُ على هذا الحديث عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وهو قول أحمد، وإسحاق؛ قالوا: له أن يُحْيِيَ الأرضَ بِغَيْرِ إِذْنِ السُّلْطَانِ، وقد قال بعضهم: ليس له أن يُحْيِيَهَا إِلَّا بِإِذْنِ السُّلْطَانِ، والقول الأولُ أَصَحُّ^(٨٢).
- ٢- وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ»، قال عروة: قضى به عمر رضي الله عنه في خلافته^(٨٣)، وفي رواية عن

٨٠ - معجم لغة الفقهاء ص ٤٨.

٨١ - أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الأحكام، باب: ما ذكر في إحياء أرض الموات، رقم الحديث ١٣٧٩ ص ٣٢٦. وهو حديث صحيح.

٨٢ - انظر: سنن الترمذي، أبواب الأحكام، باب: ما ذكر في إحياء أرض الموات، ص ٣٢٦.

٨٣ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث و المزارعة، باب: مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا، رقم الحديث ٢٣٣٥ ص ٤٦٣.

عائشة، عند النسائي: « مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً لَيْسَتْ لِأَحَدٍ؛ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا »^(٨٤)
 ٣- وعن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَوَاتاً لَيْسَتْ
 لِأَحَدٍ؛ فَهِيَ لَهُ، وَلَا حَقَّ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ ». ^(٨٥)

قال الإمام النسائي: قال محمد: قال عروة: العِرْقُ الظَّالِمُ: الرجلُ يعمرُ الأرضَ
 الحَرَبَةَ، وهي للناس قد عجزوا عنها؛ فتركوها حتى خربت. ^(٨٦)

قال ابن الأثير: قوله: « وَلَا حَقَّ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ »، هو أن يجيء الرجلُ إلى أرضٍ
 قد أحيها رجلٌ قبْلَهُ، فيغرسَ فيها غَرْساً غَضَباً؛ لَيْسَتْ وَجِبَ به الأرضُ. ^(٨٧)

٤- وعن سعيد بن زيد قال، قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً؛ فَهِيَ لَهُ
 وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ ». ^(٨٨)

قال أبو داود السجستاني: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، أخبرنا ابن وهب،
 أخبرني مالك، قال هشام: العِرْقُ الظَّالِمُ: أن يغرس الرجلُ في أرضٍ غيره؛
 فَيَسْتَحِقُّهَا بذلك. قال مالك: والعِرْقُ الظَّالِمُ: كُلُّ مَا أُخِذَ، واحْتَفِرَ، وَغُرِسَ
 بغير حق. ^(٨٩)

الحكمة من تشريع الموات:

لقد شرعت السنة النبوية الشريفة إحياء الموات؛ لجملة من الأحكام، هذه أهمها:
 ١- مما وجهت شريعة الإسلام عناية الناس إليه، السعي في هذه الأرض المذلة

٨٤ - أخرجه النسائي في سننه الكبرى، في كتاب إحياء الموات، باب: مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً لَيْسَتْ لِأَحَدٍ، رقم
 الحديث ٥٧٢٧ / ٥ / ٣٢٤.

٨٥ - أخرجه النسائي في سننه الكبرى، في كتاب إحياء الموات، باب: مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً لَيْسَتْ لِأَحَدٍ، رقم
 الحديث ٥٧٢٨ / ٥ / ٣٢٥. سلف قبله موصولاً من حديث عائشة عند البخاري و النسائي، وسيأتي بعده
 أيضاً من حديث سعيد بن زيد.

٨٦ - السنن الكبرى للنسائي، كتاب إحياء الموات، باب: مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً لَيْسَتْ لِأَحَدٍ، ٥ / ٣٢٥.

٨٧ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣ / ٢١٩.

٨٨ - أخرجه النسائي في سننه الكبرى، في كتاب إحياء الموات، باب: مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً لَيْسَتْ لِأَحَدٍ، رقم
 الحديث ٥٧٢٨ / ٥ / ٣٢٥.

٨٩ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب إحياء الموات، باب: في إحياء الموات، وهو حديث صحيح مقطوع
 ، رقم الحديث ٣٠٧٨ ص ٤٧١.

بأمر ربها، حتى يمكن حفرها وغراستها، فالذي سهل مناكبها وهي: أبعد أجزائها، من فجاج وأطراف، دعا بلا ريب إلى عمارة سائر أجزائها قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَنْشُورُ﴾ (الملك ١٥)، وهذا الربط بين ذلة الأرض وطلب الرزق مقصود، حتى يندفع الناس إلى استخراج الطيبات والخيرات؛ ببث الحياة في دائر الأرض^(٩٠)، وهذا المعنى يتحقق بامثال التوجيه النبوي الشريف: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً، فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ، وَمَا أَكَلَتِ الْعَوَافِي»^(٩١) مِنْهَا، فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ». (٩٢) وقد امتثل سلف هذه الأمة لهذه التوجيهات وغيرها، فراحوا يعمرون الأرض، بعد أن سمعوا مقالته (فوعوها؛ فأول ما يحقق المسلم بإحيائه الأرض، هو امتثال أمر ربّه وطاعة نبيّه ﷺ، ونوال الأجر والثواب عن هذا العمل.

٢- حث النبي الكريم ﷺ أمته على الأخذ بأسباب المناعة الغذائية بشتى السبل، ومنها إحياء الأراضي البور واستصلاحها، واستخراج الغذاء للأمة، التي يفتقر بقاؤها إليه؛ فإنه بذلك لا يحثنا ﷺ على توفير أسباب الحياة الكريمة فحسب، بل يدفعنا إلى بلوغ مرحلة الأمن الغذائي، الذي يجعل منا أمة موفورة الجانب، قوية الساعد، لا تلين ولا تنقاد، فماذا لو أن عالمنا الإسلامي المتنامي الأطراف، الزاخر بالأرض الموات (البور) استصلح أراضيه وأعمرها بأنواع المزروعات، واستخرج منها الخيرات نحسب أنه (إن فعل) لن يمدَّ يداً تسأل، ولن يرسلَ عيناً تتطلع إلى ما في يد الآخرين، وفي تراثه ما يدفعه إلى تجنب مذلة السؤال، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ تَكْفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَاتَّكْفَلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا، فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا»^(٩٣)

٩٠ - التفسير الكبير للفخر الرازي ٦٩١٥.

٩١ - وقوله ﷺ « العَوَافِي »، قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث ٢٦٦/٣: «العافية، والعافي: كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر، وجمعها العوافي».

٩٢ - أخرجه النسائي في سننه الكبرى، في كتاب إحياء الموات، باب: الحث على إحياء الموات، رقم الحديث ٥٧٢٥، ٣٢٤/٥.

٩٣ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة، رقم الحديث ١٦٤٣ ص ٢٥٤. وهو حديث صحيح.

٣- إن الاستصلاح الزراعي من شأنه أن يوفر مصدرا من أهم مصادر الدخل للأمة، ذلك أنه بقدر ما يُفيد المستصلح؛ فإنه يدر على ميزانية الدولة أموالا طائلة، إما عن طريق إخراج الزكاة إذا كان المستصلح مسلما، وإما بفرض الخراج على الأرض إذا كان ذميا، أو كانت الأرض خراجية وأحيائها المسلم؛ لأن الضريبة حينها تكون على الأرض المحيية، ولا تكون على الغلة أو صاحبها.

المبحث الثالث

تعريف الإقطاع، ودليل مشروعيته، وحكمته.

يعتبر الإقطاع - على أهميته - من الأنظمة المغمورة التي جاءت بها السنة النبوية الشريفة، فما مدلول هذا النظام؟ وما هي الآثار النبوية التي أصَلَّتْ له؟، وما هي المرامي التي قصدها الشارع الحكيم من خلال هذا النظام؟، وكيف يُسهم في استثمار الأرض الزراعية؟

تعريف الإقطاع:

عُرِّفَ بتعاريف كثيرة، إلا أن كثيرا من الفقهاء و شراح الحديث اختاروا تعريف القاضي عياض، وهو: تسويغ الإمام من مال الله شيئا لمن يراه أهلا لذلك، وأكثر ما يستعمل في الأرض.^(٩٤)

فالحاكم هنا يعمد إلى اقتطاع جزء من الأرض يجوز له أن يتصرف فيها شرعا؛ لأنه لا يملك التصرف في كل أرض كالتي لها مالك أو الموقوفة، أو التي صولح أهلها.^(٩٥)

مشروعية الإقطاع:

لقد وردت نصوص عديدة من السنة الشريفة تدل على مشروعية الإقطاع،

٩٤ - انظر: فتح الباري لابن حجر ٥/٤٧، وعمدة القاري، المجلد السادس ١٢/٢٢٠، وإرشاد الساري للقسطلاني ٢١٠٤.

٩٥ - انظر: شرح حدود ابن عرفة للرصاص المالكي ٢/٥٣٧-٥٣٨.

هذه أبرزها:

- ١- عن علقمة بن وائل عن أبيه (حُجْر): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْطَعَهُ أَرْضاً بِحَضْرَمَوْتِ .^(٩٦)
- ٢- وَيُرَوَّى : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْطَعَ بِلَالُ بْنُ الْحَارِثِ الْمَزْنِيَّ الْعَقِيقَ أَجْمَعَ ، فَلَمَّا كَانَ عَهْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ : يَا بِلَالُ إِنَّكَ اسْتَقْطَعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيَمْنَعَ شَيْئاً يَسْأَلُهُ ، وَإِنَّكَ لَا تَطِيقُ مَا فِي يَدَيْكَ ، فَقَالَ : أَجَلٌ ، قَالَ : فَانظُرْ مَا قَوِيَتْ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَمْسِكْهُ ، وَمَا لَمْ تَطُقْ فَادْفَعْهُ إِلَيْنَا نَقْسِمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ : لَا أَفْعَلُ وَاللَّهِ ، شَيْءٌ أَقْطَعْتَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّ ، فَأَخَذَ مِنْهُ مَا عَجَزَ عَنْ عِمَارَتِهِ فَقَسَمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .^(٩٧)
- ٣- وَرَوَى أَبُو عُبَيْدٍ بَسْنَدَهُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ : أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَقْطَعَ فِرَاتَ بْنَ حِيَانَ الْعَجَلِيَّ أَرْضاً بِالْإِمَامَةِ .^(٩٨)
- ٤- وَعَنْ ابْنِ وَهَبٍ عَنْ سَبْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الرَّبِيعِ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ فِي مَوْضِعِ الْمَسْجِدِ تَحْتَ دُومَةٍ ، فَأَقَامَ ثَلَاثًا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ ، وَأَنَّ جُهَيْنَةَ لَحِقُوهُ بِالرَّحْبَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ : «مَنْ أَهْلُ ذِي الْمَرْوَةِ؟» ، فَقَالُوا : بَنُو رِفَاعَةَ مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَقَالَ : «قَدْ أَقْطَعْتُهَا لِبَنِي رِفَاعَةَ» ، فَاقْتَسَمُوهَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ بَاعَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَمْسَكَ فَعَمَلَ ، ثُمَّ سَأَلَتْ أَبَاهُ عَبْدِ الْعَزِيزُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ؟ فَحَدَّثَنِي بِبَعْضِهِ وَلَمْ يَحْدِثْنِي بِهِ كَلِمَةً .^(٩٩)
- ٥- وَعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

٩٦ - أخرجه أحمد، في مسنده، رقم الحديث ٢٧٢٨٣ ، ٦ / ٣٩٩ ، وأبو داود في سننه، في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء في إقطاع الأرضين، رقم الحديث ٣٠٥٨ ص ٤٦٨، و الترمذي في سننه، في أبواب الأحكام، باب ما جاء في الإقطاع رقم الحديث ١٣٨١ ص ٣٢٧، وقال: " هذا حديث صحيح " .

٩٧ - أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب: ذكر أخذ الصدقة من المعادن، رقم الحديث ٢٣٢٣ ، ٤ / ٤٤ ، وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، رقم الحديث ١٩٧٥٣ ، ١١ / ٩ - ١٠ ، والطبراني في معجمه الكبير، رقم الحديث ١١٤٠ / ٣٧٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى، في كتاب إحياء الموات، باب: من أقطع قطعة أو محجر أرضاً، ٦ / ١٤٩ .

٩٨ - كتاب الأموال لأبي عبيد، رقم الحديث ٦٧٨ ، ص ٢٧٤ .

٩٩ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء في إقطاع الأرضين، رقم الحديث ٣٠٦٨ ص ٤٧٠ ، وهو حسن الإسناد، والحديث سكت عنه الحافظ المنذري، انظر: عون المعبود: المجلد الرابع ٨ / ٢٢٣ . والبيهقي في سننه الكبرى، في كتاب إحياء الموات، باب من اقتطع قطعة فباعها، ٦ / ١٤٩ .

أَقْطَعَ الزُّبَيْرَ نَحْلًا. (١٠٠)

أشارت هذه الآثار إلى أنه ﷺ كان يقطع الأرض الموات لمن يسأله ذلك، مهما كانت القطيعة كبيرة، إذا رأى أنه قادر على عمارتها، وربما عمد إلى فعل ذلك دون مسألة من أحد؛ ليتألف قلوب أقوام، أو يشيهم على ما قدموه للدولة الفتية من البذل والعطاء، والنتيجة في كل الأحوال هو حصول المنفعة العامة؛ بإعمار الأرض الخربة، وحين نتبع الآثار الواردة عن النبي ﷺ في هذا الباب، نلاحظ أن الإقطاع ليس دائما على صورة واحدة، فأحيانا ينصرف إلى الأرض الموات، وأحيانا ينصرف إلى الأرض العامرة والمعادن، وربما انصرف إلى المرافق، وطبيعي أن يختلف الحكم؛ باختلاف نوع الإقطاع.

أهمية القطائع:

لنظام القطائع أهمية بالغة، وقد حقق للدولة الإسلامية سابقا جملة من الفوائد الجممة، أهمها:

١- إنه يسمح للحاكم بمكافأة الجند، وأولئك المجاهدين الذين قدموا في سبيل قيام الدولة تضحيات كبيرة، كما فعل النبي ﷺ مع بعض أصحابه، خاصة في أعقاب بعض الغزوات كخيبر، وكما حدث مع الأنصار حين أراد أن يقطعهم البحرين. (١٠١)

٢- يسمح هذا النظام أيضا للحاكم بأن يرفع شؤون الفقراء من الرعية؛ إذ يملك أن يخص بعضهم ببعض الأرض، ويحثهم على عمارتها حتى لا يظلوا عبثاً على الدولة الملزومة برعايتهم، وتحقيق حد الكفاف لجميعهم، وقد فعل النبي ﷺ ذلك مع بعض الصحابة الذين كانت الفاقة ظلهم، ثم فتح الله عليهم فملكوا واغتنوا، وتبدل حالهم إلى أحسن حال، فهذا الزبير رضي الله عنه كان

١٠٠ - أخرجه أبو داود، في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء في إقطاع الأرضين، رقم الحديث

٣٠٦٩ ص ٤٧٠، والحديث حسن صحيح

١٠١ - انظر: فتح الباري لابن حجر ٤٧٥، وعمدة القاري، المجلد السادس ٢٢٠١٢، وإرشاد الساري

للقسطلاني ٤/ ٢١٠

يشكو فقرا مدقعا يحمله على أن يسأل القطيعة من الأرض^(١٠٢)؛ يستعين بها في محنته، ثم يتدفق عليه الرزق تَدْفُقًا، مَمَّنٌ يرزق الناس بغير حساب، فيتحول الفقير المعدم إلى ثريٍّ منعم وصدق الله العظيم حين قال ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الروم ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور ٣٨).

٣- يخول هذا النظام للإمام أن يتألف قلوب أقوام، ويشتري ودَّهمُ للدِّينِ الحق؛ بحيث لا يضر بالجماعة ولا يُضَيِّقُ على حقوق الناس، فقد أقطع النبي ﷺ أقواما؛ ليتألف قلوبهم، ويثبت على الدين الجديد معتقدهم، ومن جملة هؤلاء الناس: أبو ثعلبة الخشني، وقيم بن أوس الداري، وأبيض بن حمال المأربي، وغيرهم.^(١٠٣)

٤- يساعد هذا النظام أيضا على عمارة الأرض والموات، ويشجع الاستثمارات الزراعية ما دامت غايته هي الإحياء، وما دام المقطع لا يستحق على مذهب الجمهور من الأرض شيئا حتى يُحييها؛ لأنه كالتحجير عندهم.

٥- فضلا عن كل هذا، فقد كانت الاستثمارات الزراعية التي يجلبها الإقطاع سببا في حصول العمران، فقد تكونت مدن وحوضر في خراب من البلاد، وعجت الأرض بالناس وملأتها الغلال والدواب بعد أن كانت خرابا لا تدب فيها الحياة، ومن ذلك هذه التجربة الواقعة في عهد بني أمية؛ فقد أرسل والي هشام بن عبد الملك على مصر عبيد الله بن الحباب، يسأل حاكم الدولة أن يأذن له باستقدام أحياء من قبيلة قيس إلى مصر؛ لتنزل أراضي خربة؛ فتعمرها بالزراعة، فأذن له، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني سليم، فأنزلهم بـ(بلييس)، وأمرهم بالزرع، وصرف عليهم الصدقة من العشر، فاشتروا بها إبلًا وخيلاً ونعما؛ فتيسر حالهم، وتبدلت عيشتهم راضية هنيئة؛ فلما بلغ ذلك قومهم ركبوا وخرجوا إليهم

١٠٢ - انظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٢٥٤، و ٩/ ٢٢٣.
١٠٣ - انظر: كتاب الأموال لأبي عبيد، رقم الحديث ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ص ٢٧٤.

ولحقوا بهم، وراح عددهم يتضاعف حتى بلغ ألفاً وخمسمائة أهل بيت، ولم يأت زمن مروان بن محمد، حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف بيت، ثم توالدوا وظل الناس من البادية يقدمون عليهم تباعاً^(١٠٤)، وهكذا كانت القطاعات مظهراً من مظاهر استقرار المسلمين.

المبحث الرابع

تعريف نظام الحمى، ومشروعيته، وأهميته

جاءت السنة المطهرة بتصوير جديد للحمى، وهو نظام للأرض البور تختص الدولة بجزء منه لمصلحة جماعة المسلمين، والذي جعلنا نسوق هذا المبحث في معرض الحديث عن الاستثمار الزراعي هو أن طبيعة هذا النظام يبين أن السنة النبوية تتحيز إلى عمارة الأرض. فما هو الحمى؟ وما هي الآثار التي وردت بخصوصه؟، وما هي أهميته؟.

تعريف الحمى: هو: منع الحاكم الناس إحياء موات، أو رعي كلئه؛ ليختص به غيرهم.^(١٠٥)

فالحمى بهذا المعنى هو أن يحوز الإمام أرضاً مواتاً، ثم يمنح عموم الناس من إحيائها، أو رعي كلئها؛ وبذلك يتوفر فيها الكلاً، فترعاها نَعْمٌ مخصوصة، وتُمنع غيرها، وتتصور أن الإمام سيحدد هذا الحمى بمعالِم تدلُّ عليه، كتحجيرها حتى يتميز، أو بإحاطته بجدار أو سياج.

مشروعيته، وأهميته: قد جاءت نصوص من السنة النبوية صريحة تؤصل لهذا النظام، فقد أخرج البخاري وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ قَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ» وَقَالَ

١٠٤ - انظر: خطط المقرئزي ١/١٤٣-١٤٤.
١٠٥ - انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٤/٦٩، والمغني لابن قدامة ٦/١٦٦، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٠٦، يذكر الفقهاء تعريفات متشابهة هذا أجمعها.

أبو عبد الله: بَلَّغْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ ^(١٠٦) وَأَنَّ عُمَرَ حَمَى الشَّرَفَ ،
^(١٠٧) وَالرَّبِذَةَ ^(١٠٨) . ^(١٠٩)

و هذا الحديث الشريف يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه ليس لأحد أن يحمي للمسلمين إلا ما حماه النبي ﷺ، وعلى هذا المعنى ليس لأحد من الولاة بعده ﷺ أن يحمي من الأرض شيئاً، وهذا المعنى لا يترجح؛ لأن أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ لم يفهموا هذا المعنى، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمي الشَّرَفَ و الرِّبْذَةَ، وقد ذهب هذا المذهب كل من الإمامين الشافعي و ابن حزم. ^(١١٠)

والثاني: أن الحمى لا يكون إلا على مثل ما حماه النبي ﷺ؛ فيختص بالحمى على هذا المعنى من قام مقام النبي ﷺ، وهو الخليفة، فلا يحمي لخاصة نفسه؛ أو على مثل فعل أهل الجاهلية، بل يحمي لمصلحة المسلمين، وقد كان للنبي ﷺ أن يحمي لخاصة نفسه، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يفعل ذلك، وحمى لمجموع الأمة، وقد ذهب هذا المذهب جمهور فقهاء المسلمين بما فيهم فقهاء الشافعية،

١٠٦ - التَّقِيعُ: بالنون (وقيل بالباء، وهي لغة ضعيفة، وقيل: هو تصحيف) وهو من ديار مُزينة يقع على بعد عشرين ميلاً من المدينة، وطوله ثمانية أميال وعرضه ميل، وسمي بالنقيع؛ لأنه منتقع الماء؛ إذ كان الماء يجتمع فيه، وهو من أشرف الأحماء وأفضلها، طيب التربة، يغيب فيها الركاب من كثرة الكلال، وقد حماه الصحابيُّان أيضاً بعد وفاته ﷺ. انظر: فتح الباري لابن حجر ٤٥ / ٥، و الأموال لأبي عبيد ص ٢٩٨.

١٠٧ - الشَّرَفُ: اختلف في ضبطه فقليل: بفتح المعجمة والراء، وقال عياض: إنه عند البخاري بفتح المهملة وكسر الراء، قال: وفي الموطأ برواية ابن وهب، بفتح المعجمة والراء، كما رواه بعض رواة البخاري أو أصلحه وهو الصواب، وأما سرف) (بالسين) فموضع بقرب مكة ولا تدخله الألف واللام. انظر: فتح الباري لابن حجر ٤٥ / ٥، وإرشاد الساري للقسطاني ٤ / ٢٠٦، وعمدة القاري للعيني المجلد السادس ٢١٤ / ١٢.

١٠٨ - الرِّبْذَةُ: بفتح الراء والموحدة، موضع معروف بين مكة والمدينة، وهي قرية قرب المدينة، بها قبر أبي ذر الغفاري ﷺ. إرشاد الساري للقسطاني ٤ / ٢٠٦، وعمدة القاري للعيني المجلد السادس ٢١٤ / ١٢.

١٠٩ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: لا حَمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، رقم الحديث ٢٣٧٠ ص ٤٧٠، وأبو داود في سننه، في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: في الأرض يحميها الإمام أو الرجل، رقم الحديث ٣٠٨٣، ورقم ٣٠٨٤ ص ٤٧٢.

١١٠ - انظر: كتاب الأم للإمام الشافعي المجلد الثاني ٢، ٤ / ٤٧، والمحلى لابن حزم ٩ / ٤٨، فتح الباري لابن حجر ٤ / ٤٤، وإرشاد الساري للقسطاني ٤ / ٢٠٦، وعمدة القاري للعيني المجلد السادس ٢١٣ / ١٢.

وهو الراجح في نظري والله أعلم؛ يشهد لهم صنيع الخلفاء الراشدين .^(١١١)

فقد أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له يدعى هُتَيْبًا على الحمى، فقال: يا هُتَيْبُ اضمم جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم؛ فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل رَبَّ الصُّرَيْمَةَ^(١١٢)

وَرَبَّ الْغَنِيمَةِ^(١١٣)، وإيَّايَ وَنَعَمَ ابْنِ عَوْفٍ وَنَعَمَ ابْنَ عَفَّانَ؛ فَإِنِهُمَا إِنْ تَهَلَّكَ مَاشَيْتُهُمَا يَرْجِعَا إِلَى نَخْلٍ وَزَرْعٍ، وَإِنْ رَبَّ الصُّرَيْمَةَ وَرَبَّ الْغَنِيمَةَ إِنْ تَهَلَّكَ مَاشَيْتُهُمَا يَأْتِنِي بَنِيهِ، فيقول: يا أمير المؤمنين، أَفَتَارَكُهُمْ أَنَا لَا أَبَا لَكَ؟ فإلماءُ والكلاءُ أيسرُ عليَّ من الذهب والورق، وإيمُ الله إنَّهُمْ لَيَرَوْنَ أَنِّي قد ظلمتهم، إنها بلادهم فقاتلوا عليها في الجاهلية، وأسلموا عليها في الإسلام، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحملُ عليه في سبيل الله ما حميتُ عليهم من بلادهم شبراً .^(١١٤)

فالحمى بهذا المنطق جاء راعيا لمصلحة جماعة المسلمين العامة، فمال الأمة مالهم، وربما امتد نفع الحمى ليطال الفقراء الذين لا طاقة لهم على رعاية نعمهم، خاصة إذا شحت الأقوات وأجدبت الأرض، فكلاً الحمى يوفر عن هؤلاء البؤساء عناء ومشقة هم في غنى عنها، وما يحظى به هؤلاء لا يعطاه الأغنياء؛ وبهذا ترعى مصلحة الجميع الغني بما حباه الله من الخير يرعى شؤونه بنفسه، ويخفف على ميزانية الدولة أعباء رعاية نعمه، والفقير والمحتاج تمتد إليه يد العون، بأقل التكاليف الممكنة، وقد سارت الخلافة الراشدة بهذه الروح الطاهرة، والعقلية النافذة تستشعر رقابة الله - عز وجل - وهي تسوس، وترعى مصلحة الأمة في كل

١١١ - انظر: فتح الباري لابن حجر ٥ / ٤٤، وإرشاد الساري للقسطلاني ٤ / ٢٠٦، وعمدة القاري للعيني المجلد

السادس ١٢ / ٢١٣، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٠٧-٢٠٨

١١٢ - صُرَيْمَةٌ: تصغير صرمة، وهي ما بين العشرين إلى الثلاثين من الإبل، أو من العشر إلى الأربعين.

انظر: فتح الباري لابن حجر ٦ / ١٧٦، ونيل الأوطار للشوكاني ٦ / ٣٠٩.

١١٣ - الْغَنِيمَةُ: تصغير للغنم، يريد صاحب الغنم القليلة، انظر: فتح الباري لابن حجر ٦ / ١٧٦، الأموال لأبي عبيد ص ٢٩٨.

١١٤ - أخرجه البخاري، في كتاب الجهاد والسير، باب: إذا أسلم قوم في دار الحرب، ولهم مال وأرضون فهي لهم رقم الحديث ٣٠٥٩ ص ٦٢٠.

سعيها، تمنع الظلم والحيف بل وحتى أبسط ألوان المحاباة التي تعج بها دنيا الناس، لا يسمح لها بالوجود، فليس للحاكم ولا لخاصته أو لأهله، أن يتميزوا عن سائر الرعية بشيء.

ولا يجب أن نتصور أن دور الحمى في اقتصاديات الأمة - خاصة فيما مضى - دور ثانوي، كلاً، لقد كان ضرباً من الاستثمار المربح، يُسهم في تربية النعم، فأموال الصدقة، و ضوال الأنعام، وما ملكه ضعاف المسلمين، وما تملكه الدولة من ظهور تركيبها للجهاد، كل ذلك كان يجد له في أحماء الأمة مرتعا ومأوى؛ وما يدل على هذه الأهمية ما بلغ مالكا: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحمل في كل عام على أربعين ألفاً من الظهر.^(١١٥)

لقد كان الحمى يُوفَّر لكل تلك الظهور الغذاء والماء والمأوى، و يُوفَّر على خزينة الدولة أموالاً طائلة، كانت سَتُنْفَقُ في هذا الباب؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبيِّن حين يُعْتَرَضُ عليه في أمر الأحماء أن مصلحة الأمة هي التي تلزمه ذلك؛ أخرج أبو عبيد عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه فيما ظن أبو عبيد - قال: أتى أعرابيُّ عمرَ، فقال: يا أمير المؤمنين بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية، وأسلمنا عليها في الإسلام، فَعَلَّامَ تَحْمِيهَا؟ قال: فأطرق عمر، وجعل ينفخ ويفتل شاربه - وكان إذا كربه أمر فتل شاربه ونفخ - فلما رأى الأعرابي ما به جعل يردُّ ذلك عليه، فقال عمر: المال مال الله، والعباد عباد الله، والله لولا ما أَحْمِلُ عليه في سبيل الله ما حَمَيْتُ من الأرض شِبْرًا في شِبْرٍ.^(١١٦)

١١٥ - انظر: الأموال لأبي عبيد رقم الحديث ٧٤٢، ص ٢٩٩.

١١٦ - انظر: الأموال لأبي عبيد رقم الحديث ٧٤١، ص ٢٩٩.

المبحث الخامس

كراء الأرض الزراعية، ومشروعيتها من السنة النبوية، وأهميته في الاستثمار الزراعي إن جعل الأرض - وهي من أهم وسائل الاستثمار الزراعي - بيد القائم على عملية النماء أمر في غاية الأهمية، وقد التفتت السنة إلى هذه الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها؛ فسهلت الوصول إلى الأرض إما بتملك عينها - كما مر في المباحث السابقة - وإما بتملك منفعتها، ومن هنا كانت مسألة كراء الأرض الزراعية ذات أهمية في الاستثمار الزراعي.

تعريف كراء الأرض الزراعية: هو: أن يملك الرجل منفعة الأرض؛ بما يبذله من مال عوضاً لصاحبها. (١١٧)

مشروعيتها: وردت نصوصٌ عدة تُبين مشروعية هذا العقد ومنها:

١- عن رافع بن خديج قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمُحَاقَلَةِ وَالْمُرَابَنَةِ، وَقَالَ: «إِنَّمَا يَزْرَعُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ لَهُ أَرْضٌ فَهُوَ يَزْرَعُهَا، وَرَجُلٌ مُنِحَ أَرْضاً فَهُوَ يَزْرَعُ مَا مُنِحَ، وَرَجُلٌ اسْتَكْرَى أَرْضاً بِذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ». (١١٨)

فالحديث نص صريح على أن الأرض إنما يزرعها أحد ثلاثة، إما صاحبها؛ لأنه يتصرف في ملكه، وإما أن يكون قد وهب الأرض؛ لينتفع بها دون مقابل، وإما أن يملك منفعتها بما يبذله من مال (ذهب أو فضة) عوضاً لصاحبها، والحديث بهذا مُفَصَّلٌ مُبَيَّنٌ، فلا يُتْرَكُ المُبَيَّنُّ وَيُنْتَقَلُ إِلَى المُجْمَلِ؛ إذ الواجب حمل المُجْمَلِ عَلَى المُبَيَّنِّ.

ويزيد أبو داود المسألة وضوحاً؛ حيث روى بسنده إلى حنظلة بن قيس الأنصاري قال: سَأَلْتُ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ عَنِ كِرَاءِ الْأَرْضِ بِالذَّهَبِ وَالوَرِقِ؟،

١١٧ - انظر: بلغة السالك ٢/ ٢٦٤، ومنتهى الإيرادات ٢/ ٣٥١، ومغني المحتاج ٢/ ٣٣٢، والهداية شرح بداية المبتدئ ٣/ ٢٣١.

١١٨ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب البيوع، باب: في التشدد في ذلك، رقم الحديث ٣٤٠٠ ص ٥١٩، والحديث صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الرهون، باب: المزارعة بالثلث والرابع، رقم الحديث ٢٤٤٩ ص ٤١٨، والحديث حسن صحيح.

فقال: لا بأس بها؛ إنما كان الناس يؤاجرون على عهد النبي ﷺ بما على الماديّات، وأقبال الجداول، وأشياء من الزرع؛ فيهلك هذا ويسلم هذا، ويسلم هذا ويهلك هذا، ولم يكن للناس كراء إلا هذا؛ فلذلك زجر عنه؛ فأما بشيء مضمون معلوم فلا بأس به. (١١٩)

٢- وعن سعد بن أبي وقاص قال: كَانَ أَصْحَابُ الْمَزَارِعِ يُكْرُونَ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَزَارِعَهُمْ بِمَا يَكُونُ عَلَى السَّاقِي مِنَ الزَّرْعِ، فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَصَمُوا فِي بَعْضِ ذَلِكَ؟ فَنَهَاهُمْ أَنْ يُكْرُوا بِذَلِكَ وَقَالَ: «أَكْرُوا بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» (١٢٠)

فهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يُحَدِّثُ أَنَّ النَّاسَ عَرَفُوا أَلْوَانَ مِنَ الْكِرَاءِ، أَفْضَى بَعْضُهَا إِلَى الْاِخْتِلَافِ وَالْاِخْتِصَامِ، فَلَمَّا عَرَضُوا أَمْرَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَجَّهَهُمْ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ، وَمَا يَقْطَعُ دَابِرَ الْخِصُومَةِ بَيْنَهُمْ، فَأَمْرَهُمْ أَنْ يُكْرُوا بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.

٣- روى ثابت بن الضحاك: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْمَزَارَعَةِ، وَأَمَرَ بِالْمُؤَاجِرَةِ، وَقَالَ: (لَا بَأْسَ بِهَا) (١٢١)

فالحديث الشريف ينص على جواز المؤاجرة، ولا يرى بها بأساً، وهذا نص عام يدل على مشروعية الكراء ما دام عوض المنفعة معلوما لا غرر فيه.

أهميته في الاستثمار الزراعي:

لقد شرعت السنة النبوية هذا الحكم؛ وذلك لأنه يحقق جملة من الحكم والغايات، أبرزها:

١١٩ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب البيوع، باب: في المزارعة، رقم الحديث ٣٣٩٢ ص ٥١٨، والحديث صحيح.

١٢٠ - أخرجه النسائي في سننه، في كتاب المزارعة، باب: النهي عن كراء الأرض بالثلث والرُّبْع، رقم الحديث ٣٨٩٤ ص ٥٩٩، والحديث حسن بشواهد في الباب. وأخرجه أبو داود في سننه، في كتاب البيوع، باب: في المزارعة، رقم الحديث ٣٣٩١ ص ٥١٨، والحديث حسن.

١٢١ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: في المزارعة والمؤاجرة، رقم الحديث ٣٩٥٦ ص ٦٤٤.

١- تحقيق المصلحة لكل من المؤجر والمستأجر، فمن الناس من يملك الأرض والآلة والدار، وغيرها من الأعيان التي لا غنى للناس عنها، وأصحاب هذه الأعيان لا يُعطونها غالبا إلا بالمقابل، وتشريع الإجارة يحقق المنفعة المشتركة لكل منهما بأيسر الطرق، فمن أراد المنفعة بذل العوض عنها.

٢- توفير اليد العاملة المتخصصة؛ ذلك أن من الصناعات ما لا يتأهل له إلا العارفون بها من أهل ذلك الفن، خاصة في عصر تخصصت فيه العلوم والمعارف تخصصا دقيقا، وأهل هذه التخصصات لا يُستفاد من علمهم وخبرتهم إلا بعقد الإيجار، وقد التفت نبيُّنا ﷺ إلى هذا المعنى؛ حيث استأجر حين أراد الهجرة هاديا خريتا، وهو عبد الله بن أُريقط.

٣- توفير سُبُل الارتزاق للناس، ومحاربة البطالة داخل المجتمع، فأكثر المكاسب بالصنائع، فالإدارة والزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من الوظائف، تمتص جيوشا من العاطلين عن العمل.

المبحث الخامس

الثروة المائية وكيفية الاستفادة منها

الماء مادة الحياة هكذا شاءت إرادة الله تعالى، وهو بهذا رهان استراتيجي مستقبلي، وهذه القيمة الفريدة تزداد أهميتها كل يوم، والحديث عن الاستثمار الزراعي يفقد كل معناه في غياب هذه المادة الحيوية، فكيف نظرت السنة النبوية إلى الماء؟، وما هي أهميته؟ وكيف نعمل على تنميته بعد المحافظة عليه؟، ونظرا لأهمية هذا المادة الحيوية في عملية الاستثمار الزراعي؛ ولكونها أحد أهم أسباب النماء الزراعي، فإنني سأقف في هذا المبحث عند جملة من المعاني والحكم التي جاءت بها السنة النبوية في هذا المقام.

أهمية الماء وفضل سقيه والمحافظة عليه.

أشارت نصوص من السنة النبوية إلى أهمية هذه المادة الحيوية، ودعت

المؤمنين إلى التأمل في أنعم الله تعالى، وحثهم على أداء فريضة الشكر للخالق المنعم سبحانه، وهذه بعض الأحاديث في ذلك:

١- عن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قدم على النبي ﷺ وقد ماتت أمه، يريد أن يصنع لها معروفًا، فقال: إن تصدقتُ عنها ترجو لها شيئًا؟ قال ﷺ: نعم، قال: يا رسول الله دلني على صدقة، قال: (اسْقِ الْمَاءَ)، وفي رواية: فأبي الصدقة أفضل؟ قال: (سَقِي الْمَاءَ) أو (اسْقِ الْمَاءَ)، قال الحسن: فما زالت جرار سعد بالمدينة بعد. (١٢٢)

وهذا الحديث الشريف يبين أن بذل الماء لطالبيه من أجلّ الصدقات عند الله تعالى، حتى أنه ﷺ أشار على سَعْدٍ أن يتصدق بالماء؛ لأنه عمل يرجى به جزيل الثواب لصاحبه.

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا عَلَى ظَمِيمٍ سَقَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ...» (١٢٣) فالنبي ﷺ يعد سقي المؤمن من ظمياً فضيلة، يستحق صاحبها أجراً عظيماً هو أنه يُسقى من الرحيق المختوم ويُدخَل جنة الخلد؛ فإن كان السقي على غير ظمياً، كان ذلك عملاً من أعظم أعمال البر.

٣- ولا يرتبط الأجر بسقي المؤمن، بل بسقي كل كائن حي، كما بين ذلك ﷺ من خلال قصة عجيبة بينت أن رجلاً أدخله الله عز وجل الجنة؛ لأنه سقى كلباً أَوْشَكَ عَلَى الْهَلَاكِ شُرْبَةَ مَاءٍ، وإنها لمثوبة عظيمة على عمل هين قليل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بئراً فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ التُّرَى

١٢٢- أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث ٢٣٨٩٦، ٧/٦، وابن خزيمة في صحيحه، رقم الحديث ٢٤٩٦، ٤/١٢٣، والطبراني في المعجم الكبير، رقم الحديث ٥٣٨٣، ٢١/٦، والحاكم في المستدرک رقم الحديث ١٥١٢، ١/٥٧٤، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وروايته: أي الصدقة أعجب إليك؟»

١٢٣- أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب (١٨)، رقم الحديث ٢٤٤٩، ص ٥٥٢، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوفاً، وهو أصح عندنا وأشبهه.

مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ
 الْبُئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا
 رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟!، قَالَ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ» (١٢٤)
 وهذا الجزاء الجزيل الذي ناله هذا الرجل يدل على أن سقي الماء لمخلوقات
 الله عز وجل باب من أبواب الخير، التي قد تدخل صاحبها إلى جنة الرضوان،
 ولا زال التاريخ الإسلامي يحفظ لذلك الرجل الفاضل والخليفة الحبي الراشد
 سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه جميل صنيعه مع المسلمين حين احتاج الناس إلى ماء
 بئر عذبة، حيث استجاب لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم القائل لأصحابه: «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ
 فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ». (١٢٥)

وقد حَاجَّ الخليفة الراشدُ الثَّائرينَ عليه بهذه الفضيلة التي حازها ووعد لأجلها
 جنة النعيم؛ فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي عبد الرحمن: أن عثمان بن
 عفان رضي الله عنه حيث حُوصِرَ، أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: أَنْشِدْكُمْ، وَلَا أَنْشِدُ إِلَّا أَصْحَابَ
 النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ»
 فَحَفَرْتُهَا، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ» فَجَهَّزْتُه،
 قَالَ: فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ (١٢٦)

وإذا كانت الآثار السابقة بَيَّنَّتْ أَنَّ سَقْيَ الْمَاءِ لِلنَّاسِ وَالدَّوَابِّ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي
 يُثَابُ أَصْحَابُهَا، فَإِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَطْرَحُ فِي مَقَامِنَا هَذَا، هُوَ هَلْ يُثَابُ مَنْ يَسْقِي
 الزرع والغرس أم لا؟.

والظاهر أن الزرع والغرس لا يَقِلُّ شَأْنًا فِي حَيَاةِ النَّاسِ عَنِ الْبَهَائِمِ؛ إِذْ أَنَّهَا
 جَمِيعًا مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَتَخْدُمَ الْإِنْسَانَ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجمالية ١٣)،

١٢٤ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث ٦٠٠٩ ص ١٢٣٤.
 ١٢٥ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المساقاة، ١ / ١ باب: في الشرب ومن رأى صدقة الماء وهبته
 ووصيته جائزة...، ص ٤٦٧.
 ١٢٦ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الوصايا، باب: إذا أوقف أرضاً أو بئراً...، رقم الحديث ٢٧٧٨
 ص ٥٦٦.

وتعلمنا آيات الذكر الحكيم أن النبات مخلوق حي يسبح بحمد ربه قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمن ٦)، ثم إن الغذاء وهو سبب الحياة لا يمكن أن يوجد إذا لم يُسَقَّ الزرع والغرس وقد بشر النبي ﷺ الزارع والغارس المسلم بالأجر الجزيل عن كل ما أُكِلَ من زرعه أو غرسه، وكل ذلك لا يتأتى إلا إذا وجد السقي، وكما أن كل ذات كبد رطبة تهلك إذا ما اشتد عليها العطش ولم تُسَقَّ، فكذلك يهلك الناس والدواب إذا لم تطعم، ووجود الطعام يتوقف على سقيه، فالعلة واحدة؛ ومن هنا يظهر - والله أعلم - أن الإنسان يُؤَجَّرُ على بذل الماء للمحتاج إليه مطلقاً.

وجوب المحافظة على الماء:

دعا النبي الكريم ﷺ المسلمين إلى ضرورة المحافظة على الماء؛ باعتباره مادة حيوية، والنصوص النبوية التي ساقت هذا المعنى عديدة وأهم مظاهر هذه الدعوة:

١- أنه عليه الصلاة والسلام حرم على المسلم إضاعة المال، والماء من أعظم الأموال، فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا... وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ» (١٢٧)

فالمسلم مطالب شرعاً بالمحافظة على الماء؛ لأنه ماله، وهو قوام حياته، بل هو سبب كل حياة.

٢- وأنه عليه الصلاة والسلام حث المسلمين على عدم الإسراف في الماء وتبديده، ولم يُجَزَّ لهم وَهُمْ يَتَهَيَّؤُونَ لإقامة الصلاة مجاوزة الحد المطلوب في الاستعمال، وَعَدَّ الفقهاء كُلَّ إسرافٍ أو مجاوزة للحد بإضافة عُضْوٍ كالرقبة في الوضوء قِلَّةً فِقْهٍ، وخداجاً يصيب طاعة المتوضىء، ولم يحمّل النبي الكريم ﷺ ذلك على وفرة ماء أو قلته، بل جعل التبديد والزيادة مرفوضة وإن

١٢٧ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الأفضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة...، رقم الحديث ٤٤٨١ ص ٧٢٩.

كان المسلم جالسا على حافة نهر جار، وقد نقل بعض العلماء إجماع الأمة على النهي عن الإسراف في الماء ولو في شاطئ البحر^(١٢٨)، ولنستمع إلى التوجيه النبوي الكريم، فقد مرَّ رسول الله ﷺ بسعدٍ وهو يتوضأ فقال: «مَا هَذَا السَّرَفُ؟» فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»^(١٢٩)

وهذا الذي فقهه الصحابة الكرام فحكموا به حياتهم؛ فعن عبد الله بن محمد ابن عقيل بن أبي طالب، عن أبيه عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجْزَى مِنْ الْوُضُوءِ مُدٌّ، وَمِنْ الْغُسْلِ صَاعٌ»، فقال رجلٌ: لا يجزئنا، فقال: قد كان يُجْزَى مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَأَكْثَرُ شَعْرًا، يعني: النبي ﷺ. ^(١٣٠)

أنواع المياه وكيفية الإفادة منها: «أنواعها بالنظر إلى حق الشرب و الشفعة»

- المياه أنواع عديدة ، ستحدث عنها مبينين كيفية الإفادة منها :
- ١- الماء المحرز في أواني خاصة: وهو ما حازه صاحبه في آنية أو ظروف خاصة ، كالصهاريج و الأحواض، و منه مياه الشركات المتخصصة في تأمين ماء الدور بالمدن ، و هذا الماء ملك خاص لمن أحرزه ، بالاستلاء عليه ككل مباح ، فليس لأحد حق الانتفاع إلا بإذن صاحبه .
- و يجوز للمضطر إذا خاف على نفسه الهلاك من العطش أن يشرب منه أو يأخذ منه حاجته ولو عنوة؛ ليدفع الهلاك عن نفسه، ما دام الماء فاضلا عن حاجة صاحبه و عليه أن يدفع قيمة الماء؛ لأن الاضطرار لا يبطل حق الغير؛ ولأن حلَّ الأخذ للاضطرار لا يمنع الضمان.^(١٣١)
- ٢- ماء الأنهار: وهذه الأنهار على ضربين:

١٢٨ - انظر: عون المعبود، المجلد الأول، ١/ ١١٨ .

١٢٩ - أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الطهارة، باب: ما جاء في القصد في الوضوء و كراهية التعدي فيه، رقم الحديث ٤٢٥ ص ٩٠، وأحمد في مسنده، رقم الحديث ٧٠٦٥، ٢/ ٢٢١، والبيهقي في شعب الإيمان رقم الحديث ٢٧٨٨، ٣/ ٣٠ .

١٣٠ - أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الطهارة، باب: ما جاء في مقدار الماء للوضوء والغسل من الجنابة، رقم الحديث ٢٧٠ ص ٦٥٦٤، و الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث ٢٦٢٨، ١/ ٢٨٩ . وهو حديث صحيح .

١٣١ - انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ٢/ ٢٧٤، والفقهاء الإسلامي وأدلته ٥/ ٥٩٣-٥٩٤ .

النهر الكبير: وهي الأنهار العظيمة التي أجزاها الله تعالى، كنهر دجلة والفرات، ومثل هذه الأنهار ليست ملكاً لأحد، لا في مائها ولا في مجراها^(١٣٢)؛ إذ هي حق للجماعة لكل واحد من أفرادها حق الشفة والشرب، وللأفراد شق الجداول منها لأراضيهم، ونصب الآلات عليها؛ لِحِرِّ الماء.

وليس للحاكم منعهم، إلا إذا خيف الإضرار بالنهر أو بالغير؛ فمصلحة الآخرين لا يمكن تجاهلها، ذلك أن الحق إنما أشيع في هذه الأنهار عملاً بحديث النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْكَلْبِ، وَالْمَاءِ، وَالنَّارِ»^(١٣٣) والاشترار هنا شركة إباحة لا شركة ملك؛ إذ لا يتصور هنا قصور عن كفاية، ولا معني للتنازع والمشاحة.^(١٣٤)

النهر الصغير: وهي تلك الأنهار الصغيرة التي أجزاها الله تعالى، ويفرق الفقهاء بين أنواع منها:

أ- أن يكون في هذا النهر من الماء ما يكفي لسقاية الأراضي المجاورة دون حاجة إلى حبسه، وفي هذه الحالة يأخذ كل واحد من المجاورين له حاجتهم متى شاءوا دون أن يعارض بعضهم بعضاً، ومن أراد منهم أن يستخرج ساقية، أو نهراً صغيراً أذن له ما لم يكن في ذلك إضرار بالنهر أو المحيطين به، فإن كانت هناك خطورة منع من ذلك^(١٣٥)، وذلك إعمالاً لمعنى الاشتراك الذي جاء به الحديث الشريف «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْكَلْبِ، وَالْمَاءِ، وَالنَّارِ».

ب- أن يكون ماء هذا النهر قليلاً ولا يكفي الجميع إلا بحبسه، وفي هذه الحالة لا مفر من تناوبهم على السقي، ويكون ذلك بأن يحبس الأول (أي: الأعلى) من هذا النهر الماء، ويسقي أرضه حتى يأخذ كفايته ثم بعد ذلك يرسل الماء إلى

١٣٢ - انظر: الأحكام السلطانية ص ١٩٧، والقوانين الفقهية ص ٣٣٩، ونيل الأوطار ٥/ ٣٠٤.
١٣٣ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب البيوع، باب: في منع الماء، رقم الحديث ٣٤٧٧، ص ٥٢٩. وهو حديث صحيح.

١٣٤ - انظر: الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية للشيخ أبي زهرة ص ٨٠.

١٣٥ - انظر: الأحكام السلطانية ص ١٩٨.

الذي يليه وهكذا، حتى ينال كل واحد شربه^(١٣٦) ودليل هذا العمل: أن رسول الله ﷺ قضى في السيل المَهْزُور أن يُمَسَكَ حتى يبلغ الكعبين، ثم يُرْسَلِ الأَعْلَى عَلَى الأَسْفَلِ^(١٣٧)، وهذا هو قضاء النبي ﷺ لما اختصم عنده الزبير ورجل من الأنصار وكان جارا له، فقد طلب ﷺ من الزبير أن يسقي زرعه حتى يبلغ الكعبين، ثم يرسل الماء إلى جاره، فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمّتك؟، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رسول الله ﷺ ثم قال: «اسْقِ ثُمَّ احْبَسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ»^(١٣٨) وكان ذلك المقدار هو مبلغ المفصل من الساق في الأسفل.

وكان النبي ﷺ قد أمر الزبير بالفضل على جاره بأن يسقي أرضه أولاً؛ لأن رسول الله ﷺ قضى بذلك، ثم يرسل الماء إلى جاره؛ فلما أساء الأنصاري الأدب مع رسول الله ﷺ ولم يدرك أن رسول الله ﷺ قد تَكَرَّمَ عليه في قضائه، أمر الزبير بأن يأخذ حَقَّهُ كاملاً غير منقوص.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن تحديد الشرب ببلوغ الماء إلى الكعبين أو إلى الجَدْرِ، ليس على عمومته، وهو ليس نصاً يجب التزامه؛ إذ أن السقي يختلف من زمان إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، فَمِنْ الأرض ما يرتوي باليسير، ومنها ما لا يرتوي إلا بالكثير، والسقي يختلف باختلاف الصيف والشتاء؛ فلذلك فصل قدر، ويختلف الشرب باختلاف المزروع والمغروس فلكل منهما قدر، ويختلف الحكم؛ باختلاف حال الماء في بقائه وانقطاعه، ومن هنا قال بعض الفقهاء: إن كان قليلاً فَحَدُّهُ أن يعم أرض الأعلى إلى الكعبين في النخيل وإلى الشراك في الزرع؛ لقضائه ﷺ بذلك، وقيل: العبرة بالكفاية، وقيل: بل يمسك لكل أرض ما يكفيها.

١٣٦ - انظر: المصدر السابق ص ١٩٨.

١٣٧ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الأفضية، ٣١- أبواب من القضاء، رقم الحديث ٣٦٣٩ ص ٥٥١. وهو حديث حسن صحيح.

١٣٨ - أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الأفضية، ٣١- أبواب من القضاء، رقم الحديث ٣٦٣٧ ص ٥٥١. وهو حديث صحيح.

وهذا هو القول الذي يجب أن يصار إليه؛ لأن النبي ﷺ عَلَّمَ المسلمِينَ أَنَّهُمْ
 أَعْلَمُ بِشُؤْنِ دِنْيَاهُمْ، وهذا من شُؤْنِ دِنْيَاهُمْ ومن معارفهم التجريبية. (١٣٩)
 ج- ما احتفروه الناس: والمراد هنا تلك الجداول أو الأنهار الصغيرة التي يحتفروها
 الناس في أرضهم، ويكون مثل هذا النهر الصغير ملكا مشتركا بينهم جميعا،
 كالزقاق لا يختص به أحد، ولا حق لغير أربابه الذين احتفروه في الشرب
 بخلاف حق الشفة، ولا يجوز لواحد من الشركاء أن ينفرد بمنفعة إلا بموافقة
 بقية الشركاء. (١٤٠)

وأما حال شربهم فلا يخلو من ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتناوبوا عليه بالزمن، لكل واحد نوبته من يوم أو ساعات، ولهم أن
 يقترعوا إن هم تنازعوا في الترتيب؛ حتى يستقر ترتيب الأول ومن يأتي بعده.
 الثاني: أن يقتسموا فم النهر بخشبة ونحوها، بحيث تأخذ جانبي النهر،
 ويقسم فيها حفور مقدره بحقوقهم من الماء، بحيث يدخل الماء في كل حفرة منها
 قدر ما استحقه صاحبها من خمس أو عُشر يأخذه إلى أرضه على الأدوار؛ ويمكن
 استعمال وسائل حديثة في الري تضبط تدفق الماء لكل شريك بحسب المقدار
 المخصص له.

الثالث: أن يحفر كل واحد منهم في وجه أرضه شربا مقدارا لهم باتفاقهم، أو
 على مساحة أملاكهم؛ ليأخذ من ماء النهر قدر حقه، ويساوي فيه جميع شركائه،
 ثم ليس له أن يزيد فيه، ولا لهم أن يُنقصوا منه.

٣- ماء الآبار والعيون: وهي تلك الآبار أو العيون التي يستخرجها الإنسان،
 وهي على ثلاثة أقسام:

أ- أن يحفرها صاحبها للسابلة، وهذه ماؤها مشترك، وحافرها كواحد من الناس،
 ومثالها في تاريخ المسلمين ما صنعه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وَقَفَ بئر
 رومة، فقد كان يضرب بدلوه مع الناس، وهذه البئر أو العين إذا اتسع ماؤها،

١٣٩ - انظر: الأحكام السلطانية ص ١٩٩-٢٠٠، و الفقه الإسلامي وأدلته ٥ / ٥٩٥.
 ١٤٠ - انظر: الأحكام السلطانية ص ٢٠٠.

للناس حق الشفة والشرب، وإن ضاق ماؤها عنهما كان شرب الناس والدواب أولى. (١٤١)

ب- أن يحفرها لارتفاعه بمائها: وهذه البئر هي التي يحفرها أهل البوادي الرَّحَّل، وهذه يثبت لأهلها الحق عن غيرهم، تكون لهم ابتداء ماداموا مقيمين بأرض البئر، وعليهم بذل ما يفضل عن حاجتهم، فإذا ارتحلوا كانوا هم وغيرهم سواء، ومن سبق إليها كان أحق. (١٤٢)

ج- أن يحفرها لنفسه ملكاً: وهي التي يحفرها صاحبها في أرض مملوكة أو في الموات؛ بقصد الإحياء، واختلف العلماء في حكم هذه البئر، فذهب الشافعية إلى أن صاحبها ملزم ببذل فضل الماء مطلقاً، سواء أكان حفرها في ملكية خاصة أم في أرض موات، فبعد أن يستوفي حاجته وحاجة دوابه وزرعه عليه بذل فضلها، وفرّق الفقهاء المالكية بين المحفورة في المِلْك وهذه لا يلزم صاحبها ببذل فضلها إلا للضرورة، بخلاف التي تحفر في أرض الموات؛ فإنه يطلب ببذل فضلها.

ودليل الفقهاء في ذلك، هو قوله ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا فَضْلَ الْمَاءِ؛ لِيَتَمَنَعُوا بِهِ فَضْلَ الْكَلْبِ» (١٤٣)، والمراد بالفضل ما زاد عن الحاجة، وجمهور الفقهاء على أن المقصود هنا ماء البئر المحفورة في الأرض المملوكة، أو في الموات إذا كان يقصد التملك. (١٤٤)

٤- مياه الأمطار: تعتبر المساقط من أهم مصادر المياه، وأيسرها مؤنة للبشر، وهي منة الله تعالى على عباده فمنها يشرب الناس والأنعام، وهي تتسبب في خروج النبات كله، وما يزرعون ويغرسون، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

١٤١- المصدر السابق ص ٢٠٠.

١٤٢- المصدر السابق ص ٢٠٠.

١٤٣- أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: مَنْ قَالَ: إِنَّ صَاحِبَ الْمَاءِ أَحَقُّ بِالْمَاءِ حَتَّى يَرَوْى...، رقم الحديث ٢٣٥٤ ص ٤٦٨، = ومسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: تحريم فصل بيع الماء الذي يكون بالفلاة، ويحتاج إليه؛ لرعي الكلب، رقم الحديث ٤٠٠٦ ص ٦٥١.

١٤٤- انظر: فتح الباري ٣٢/٥، ونيل الأوطار ٣٠٥/٥.

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظِرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾ (النحل ١٠-١١). وتعدّ مياه الأمطار والثلوج من المصادر الرئيسة التي تعتمد عليها الزراعة في الوطن العربي والإسلامي؛ ولذا يجب الاهتمام بتنمية الموارد المائية، ثم العمل على المحافظة عليها من خلال إقامة السدود، ووقف هدرها، والتخفيف من تبخُّرها و تلويثها، ثم الاهتمام بترشيد الاستخدام ورفع كفاءته.

الفصل الثاني

كيفية الاستثمار الزراعي من خلال السنة النبوية

بعد تقديمي في الفصل الأول أن السنة النبوية قد وضعت وسائل للاستثمار الزراعي، سائبين من خلال هذا الفصل كيف هيَّأت السنة النبوية بعد ذلك سُبُلَ وطرائق الانتفاع من هذه الوسائل؟، و سَابُرُز في هذا الفصل قدرة التشريع النبوي على تحقيق النماء الزراعي من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول

الاستثمار الخاص، مفهومه، مشروعيته، مظاهر تشجيعه، والحكمة من تشريعه.

لقد دعا النبي ﷺ - أول ما دعا- المسلم أن يباشر عملية الاستثمار الزراعي بنفسه؛ فيكون المسلم هو مالك الأصل والمستثمر في آن واحد، ويسمى النماء حينها استثمارا شخصيا أو خاصا.

فما مدلول هذا الاستثمار؟ وما هي الآثار التي تشهد له؟ وما هي مظاهر تشجيعه؟ وما هي الحكمة من تشريعه؟ هذه التساؤلات هي التي سنحاول في هذا المبحث الإجابة عنها.

١- مفهوم الاستثمار الخاص:

المراد بهذا اللون من الاستثمار قيام مالك الأصل، سواء أكانت ملكيته تامة أم ناقصة، وسواء أكان فردا من عموم الناس أم كانت الدولة نفسها بتنمية الأرض؛ وذلك بزراعتها أو بتنمية الأشجار، وذلك بالقيام عليها سقيا ورعاية حتى تثمر. إن عبارة الاستثمار الخاص تردُّ هنا؛ لتقابل الاستثمارات القائمة على الشراكة بين رب الأصل والعامل؛ فهو استثمار شخصي يقوم به المالك ويشرف على جميع أعماله، إما بالأصالة وإما بالتوكيل.

وهذا النوع من التنمية يحتل في كل المجتمعات مكانة رفيعة وأهمية بالغة؛ لأن العمل الزراعي يستوعب أعدادا كبيرة من العاملين خاصة في الوطن العربي والإسلامي؛ لذا شجعت السنة النبوية على تنمية العمل الزراعي الذي يشرف عليه رب الأصل، فردا من عموم الناس أو حاكما؛ باعتباره راعيا لأموال الأمة ومكلفا بنمائها.

٢- مشروعية هذا النوع من الاستثمار:

لقد جاءت آثار عديدة تبين أن السنة النبوية حريصة كل الحرص على تحقيق الرخاء للأمة؛ وذلك بدفع المُلَّاكِ والقائمين على الأموال ببذل الجهد واستفراغ الوسع في استخراج طيبات الرزق، من هذه الآثار:

أ- فقد قال ﷺ لأتباعه: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيُزْرِعْهَا...»^(١٤٥)، فهذه دعوة إلى ملاك الأرض بزراعة ما يملكون من أراضٍ، وهذه الدعوة بعمومها تشمل الحاكم على اعتبار ملكيته المجازية لأموال الدولة؛ فهو ناظر على أراضي الأمة ومطالب بتنميتها

ب- قوله ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى

١٤٥- أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: كراء الأرض، رقم الحديث ٣٩٢١ ص ٦٣٩.

يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسَهَا» (١٤٦).

وهذا تحفيز كبير للعمل في الأرض بزرعها وغرسها؛ لأن العمل فيها بلغ حدا من التكريم جعلها مقاما رفيعا يلقي به الإنسان ربه، فهي بذلك لا تقل شأنًا عن ذكر الله تعالى؛ لأن من عَلَّمَنَا أن أفضل خاتمة للمسلم أن يلقي ربه ولسانه رطب بذكر الله، يُعَلِّمُنَا ألا نذر الغرس حتى لو كان ذلك آخر عمل نُقْبَلُ به على الله تعالى.

ج - لقد حدثتنا السيرة النبوية الشريفة أن النبي ﷺ كان يشجع أصحاب المزارع على العمل فيها، وقد كان كثير من أصحابه ممن يشتغل بزراعة الأرض وسقي الشجر، حتى أنه ﷺ لَمَّا حَدَّثَهُمْ أن من أهل الجنة من يتمنى على الله تعالى أن يَأْذَنَ له بالزرع يوم القيامة في جنة الخلد، لم يتصور أحد أعراب البادية الجلوس أن يكون ذلك الشخص إلا قُرَشِيًّا أو أنصاريًّا؛ لأنهم أصحاب زرع كما قال؛ فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يوما يحدث، وعنده رجل من أهل البادية: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَوْ لَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَ لَكِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَزْرِعَ، فَأَسْرَعَ وَ بَدَرَ، فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَ اسْتَوَأْوَهُ وَ اسْتَحْصَادُهُ وَ تَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ»، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَجِدْ هَذَا إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، فَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. (١٤٧)

٣- مظاهر تشجيع هذا الاستثمار:

و تتجلى مظاهر تشجيع المزارعين على العمل في الأرض من خلال عدة مواقف لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أبرزها:

١٤٦ - أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث ١٣٠٠٤، ١٩١/٣، و رجال الحديث كلهم ثقات، و انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني، رقم الحديث ١٢٢٨، ص ٢٢٤.
١٤٧ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب: كلام الرب مع أهل الجنة، رقم الحديث ٧٥١٩ ص ١٥١٨.

أ- كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يخرج بالناس لصلاة الاستسقاء إذا أصاب القوم قحط، وخافوا هلاك مزارعهم، وكانت صلواته ﷺ سَكَنًا للقوم، وسَبَبًا لحلُول الخير بالناس، فالسما تجود بالوابل والطل كلما جأر النبي الكريم ﷺ إلى الله تعالى؛ فعن أنس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هَلَكَتِ الْمَوَاشِي، وَتَقَطَّعَتِ السُّبُلُ، فَدَعَا؛ فَمُطِرْنَا مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: تَهَدَّمَتِ الْبُيُوتُ، وَتَقَطَّعَتِ السُّبُلُ، وَهَلَكَتِ الْمَوَاشِي، فَادْعُ اللَّهَ يُمَسِّكْهَا فَقَامَ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَى الْأَكَامِ وَالظَّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ» فَانْجَابَتْ عَنِ الْمَدِينَةِ أَنْجِيَابِ الثَّوْبِ. (١٤٨)

ب- وكان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْجِبُ بالزرع النامي، ويتهلل وَجْهَهُ الكَرِيمَ بالبشر، وهو يرى الغرس الباسق؛ فعن جابر قال: دخل النبي ﷺ على أمِّ مَعْبَدٍ حَائِطًا فَقَالَ: «يَا أُمَّ مَعْبَدٍ، مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمْ مُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟»، فَقَالَتْ: بَلْ مُسْلِمٌ، قَالَ: «فَلَا يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا طَيْرٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». (١٤٩)

و دخل ﷺ بستان أمِّ مَبَشَّرٍ؛ فَسَرَّهُ مَا رَأَى؛ فعن جابر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ مَبَشَّرِ الْأَنْصَارِيَّةِ فِي نَخْلٍ لَهَا فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمْ مُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟»، فَقَالَتْ: بَلْ مُسْلِمٌ، فَقَالَ: «لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ». (١٥٠)

وحين ترى الأمة التي تسمع فُتُطِيعُ نَبِيَّهَا ﷺ يبارك عمل الزراعة والغرس وبثني على القائمين عليه؛ فإنها بلا ريب تتوثب إلى الاستزادة منه.

ج - وما يدل على تشجيعه ﷺ للمزارعين على تنمية مزارعهم، سعيه ﷺ لِحَلِّ

١٤٨ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الاستسقاء، باب: مَنْ اِكْتَفَى بِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ فِي الْاِسْتِسْقَاءِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ ١٠١٦ ص ٢٠٧، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، فِي كِتَابِ صَلَاةِ الْاِسْتِسْقَاءِ، بَابُ: الدَّعَاءِ فِي الْاِسْتِسْقَاءِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ ٢٠٧٨ ص ٣٤٧.

١٤٩ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فَضْلُ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ ٣٩٧١ ص ٦٤٦.

١٥٠ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فَضْلُ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ ٣٩٦٩ ص ٦٤٦.

خلافاتهم التي قد تنشأ عن الاشتراك في الأرض أو مورد السقي، فيقضي بينهم ﷺ بما أراه الله من الحق، ولا يلتفت - كما منه ﷺ - إلى ما يصدر من الْمُقْضِيِّ عليه من عبارات لا تليق بمقام القاضي، فكيف بمقام النبوة (١٥١)؟ ولكنها دماثة خُلِقَ مَنْ أَدَبَهُ رَبُّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ ﷺ.

د- ومن أمارات تشجيع عملية الاستثمار في عالم الزراعة، أن السنة النبوية قد أجازت بعض العقود التي ترد على الثمار استثناء من قواعد البيع المعروفة؛ وذلك لتحقيق حاجات الناس، وبخاصة المشتغل بالأرض؛ فإنه يحتاج أحيانا إلى المال الذي يقوى به على إنهاء أعمال الزراعة، ولا يجد من وسيلة إلا بيع ثمره الذي لم يظهر بعد، وتسمي السنة النبوية هذا التعاقد عقد السَّلَم، وهو بيع شيء موصوف في الذمة بثمن معجل، ويسميه الفقهاء بيع المحاويج، وقد كان هذا التعامل موجودا قبل الإسلام بغير ضوابط، فلما هاجر النبي ﷺ ضبط هذه المعاملة حتى تَسَلَّمَ من الغرر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قدم المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين فقال: « مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَفِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزَنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ ». (١٥٢)

ومثل هذه العقود من شأنها أن تشجع مُلَّاكَ الأرض على تنمية مزارعهم بأنفسهم؛ لأن الحاجة إلى المال يمكن تجاوزها بمثل عقد السَّلَم، الذي يضمن فَضْلاً على المال بيع السلعة قبل خلقها.

١٥١ - إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الأفضية، ٣١- أبواب من القضاء، رقم الحديث ٣٦٣٧ ص ٥٥١، وهو لما اختصم عند رسول الله ﷺ الزبير ورجل من الأنصار وكان جارا له، طلب ﷺ من الزبير أن يسقي زرعه حتى يبلغ الكعبين، ثم يرسل الماء إلى جاره، فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله؛ أن كان ابن عمّك؟، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: « اسقِ نَمَّ أَحْبَسَ الْمَاءَ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ »، وكان النبي ﷺ قد أمر الزبير بالتفضل على جاره بأن يسقي أرضه أولاً؛ لأن رسول الله ﷺ قضى بذلك، ثم يرسل الماء إلى جاره؛ فلما أساء الأنصاري الأدب مع رسول الله ﷺ ولم يدرك أن رسول الله ﷺ قد تَكَرَّم عليه في قضائه، أمر الزبير بأن يأخذ حَقَّهُ كاملاً غير منقوص.

١٥٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب السَّلَم، باب: السَّلَم في وزن معلوم، رقم الحديث ٢٢٤٠ ص ٤٤١، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: السَّلَم، رقم الحديث ٤١١٨ ص ٦٦٧.

الحكمة من تشريع هذا الاستثمار:

لقد شرعت السنة النبوية هذا اللون من الاستثمار؛ وذلك لأنه يحقق جملة من الحكم أبرزها:

١- الامتثال لأمر الله عز وجل، واتباع هدي النبي ﷺ القائل: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا...» (١٥٣)، وقد مرَّ معنا أن الزراعة فرض كفاية، وكثير من فروض الكفاية قد تصبح فروضا عينية.

٢- إن الذي يستثمر أرضه ويعمل فيها ينال الأجر والثوبة على صنيعه، فقد بشر النبي (الزَّارِعَ) بذلك فقال: «لَا يَغْرَسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ.» (١٥٤).

٣- إن الذي يستثمر أرضه ويرتزق منها، يكون قد أخذ بواحد من خير الأعمال كما بين ذلك النبي ﷺ، ويكون قد رُزِقَ أطيب أنواع الرزق؛ لأنه كسبه بيده، وقد كان نبي الله داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده.

٤- إن استثمار الأرض الزراعية من شأنه -فضلا على ما سبق- أن يعود على المستثمر بالمال الوفير، وقد رأينا أن بعض أصحاب النبي ﷺ الفقراء حين عملوا على تنمية الأراضي التي وُضعت بين أيديهم قد تيسرت أحوالهم وأصبحوا أصحاب أموال وضياع.

٥- المساهمة في تنمية اقتصاد الأمة؛ بتوفير الغذاء لها خاصة حين يكون النظام الاقتصادي بها يمازج بين الملكية الفردية والجماعية لوسائل الإنتاج مما يستوجب تظافر جهود الأمة ووسائلها كلها خاصة أو عامة؛ لتحقيق أهداف النمو، وتحسين المستوى المعيشي للأفراد.

٦- إيجاد فرص عمل لعدد كبير من أفراد الأمة بدءاً بصاحب الاستثمار وأهله،

١٥٣ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: كراء الأرض، رقم الحديث ٣٩٢١ ص ٦٣٩.
١٥٤ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٦٩ ص ٦٤٦.

مُرُوراً بالعمال الذين تطلب خدمتهم، وُصُولاً إلى كل المستفيدين من العمل الزراعي بعد ذلك.

المبحث الثاني

المُزَارَعَة، حقيقتها، حكمها ودليل مشروعيتها، وحكمة تشريعها

تعريف المُزَارَعَة: هي دَفْعُ الأَرْضِ إلى مَنْ يزرعها لِمُدَّةٍ معلومة، على أن يكون الزرعُ بينهما^(١٥٥).

حُكْمُهَا: اختلف الفقهاء في حُكْمِ المُزَارَعَةِ، فذهب الجمهور إلى القول بجوازها، وذهب أبو حنيفة وبعض أصحابه وبعض الشافعية إلى القول بعدم جوازها، وذهب جماعة من الفقهاء إلى القول بجوازها؛ شريطة أن تكون تابعة لِعَقْدِ المساقاة^(١٥٦)، ورأى في هذه المسألة الفقهية الجواز، وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء؛ لقوة دليل الجواز من السنة النبوية؛ ولأنها تحقق مقصد الشرع في الخَلْقِ.

دليل مشروعيتها من السنة النبوية:

١- عن نافع: أَنَّ عبدَ الله بنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أخبره عن النَّبِيِّ ﷺ عَامَلَ خَيْبَرَ بِسَطْرٍ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ، فَكَانَ يُعْطِي أَزْوَاجَهُ مِئَةَ وَسْقٍ، ثَمَانُونَ وَسْقَ تَمْرٍ، وَعِشْرُونَ وَسْقَ شَعِيرٍ، وَقَسَمَ عُمَرُ خَيْبَرَ فَخَيْرَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُقْطَعَ لَهُنَّ مِنَ الْمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَوْ يُمْضِيَ لَهُنَّ؟ فَمِنْهُنَّ مَنْ اخْتَارَ الْأَرْضَ، وَمِنْهُنَّ مَنْ اخْتَارَ الْوَسْقَ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ^(١٥٧).....
اخْتَارَتِ الْأَرْضَ.^(١٥٨) وأخرج البخاري أيضا طرفا عن ابن عمر رضي الله عنهما

١٥٥ - معجم لغة الفقهاء ص ٤٢٣.

١٥٦ - المغني لابن قدامة المقدسي ٥٨٢/٦، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني ٣٣٢/٢، وبدائع الصنائع ١٧٥٦.

١٥٧ - في لفظ مسلم "فكانت عائشة وحفصة عن اختارتا الأرض والماء"، كتاب المساقاة، باب: المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، رقم حديث = ٣٦٩٣ ص ٦٤٥.

١٥٨ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث والمزارعة، باب: المزارعة بالشرط ونحوه رقم الحديث ٢٣٢٨ ص ٤٦١، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب: المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، رقم حديث ٣٩٦٣ ص ٦٤٥.

قال: **عَامَلَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ بِسَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ** ^(١٥٩)، وهذا الحديث الشريف هو عمدة جواز المزارعة؛ وذلك لأن العمل بها ثبت زمن النبي ﷺ وحتى مع أهل الذمة، واستمر زمن خلافة الصديق أبي بكر وزمن الفاروق عمر رضي الله عنهما؛ فدل ذلك على جواز هذه المعاملة. ^(١٦٠)

٢- قد حدثنا السيرة العطرة أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لما دخل خَيْبَرَ فاتحاً في السنة السابعة للهجرة، سأله يهود أن يذرهم في الأرض على أن يقوموا بالعمل فيها، ويقتسموا ثمرتها وزرعها مع النبي ﷺ فأقرهم إلى أجل لم يُسمَّه. عن عبد الله بن عمر قال: **لَمَّا افْتَتِحَتْ خَيْبَرُ، سَأَلْتُ يَهُودَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقِرَّهُمْ فِيهَا عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا عَلَى نِصْفِ مَا خَرَجَ مِنْهَا مِنَ الثَّمَرِ وَالزَّرْعِ**، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **« أَقْرِكُمْ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا »** ^(١٦١)، وفي الموطأ: **« أَقْرِكُمْ فِيهَا مَا أَقْرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »** ^(١٦٢)

وأراد النبي ﷺ أن يفهم يهود أن مدة العهد بأيدي المسلمين، فلهم أن يكونهم من المقام في خَيْبَرَ ما شَاءُوا، ولهم أن يخرجوهم منها متى شَاءُوا، وقد كان ﷺ عازماً على إخراج الكفار من جزيرة العرب، وذلك ما أمر به في آخر حياته ﷺ. ^(١٦٣)

٣- وعن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إِلَى خَيْبَرَ؛ فَيَحْرِصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حَلِيًّا مِنْ حَلِيِّ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ؛ وَخَفُّ عَنَّا، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسَمِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَمَا ذَاكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنَ الرَّشْوَةِ؛ فَإِنَّهَا سُحْتُ، وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا،**

١٥٩ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث والمزارعة، باب: إذا لم يشتترط السنين في المزارعة، رقم حديث ٢٣٣٩ ص ٤٦٢.

١٦٠ - انظر: فتح الباري ٥/ ١١، وعمدة القاري ١١/ ١٦٧، وإرشاد الساري ٤/ ١٧٨.

١٦١ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، رقم الحديث ٣٩٦٥ ص ٦٤٥.

١٦٢ - أخرجه مالك في الموطأ، في كتاب المساقاة، باب: ما جاء في المساقاة، رقم الحديث ١٣٨٧، ص ٤٩٤.

١٦٣ - انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ١٠/ ٢١١، وشرح الزرقاني على الموطأ ٣/ ٥٤٠.

فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ^(١٦٤)

الْحِكْمَةُ مِنْ تَشْرِيعِ الْمُرَارَعَةِ:

إِنَّ الْحِكْمَةَ الَّتِي قَصَدَهَا التَّشْرِيعُ النَّبَوِيُّ مِنَ الْمُرَارَعَةِ، تَتِمُّثَلُ فِي الْآتِي:

١- إن المزارعة ليست جائزة فحسب، بل إنها مطلوبة شرعا، وقد جاء الترغيب في

ممارسة هذه المهنة في أكثر من مناسبة، ويكفي أن نذكر بقوله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرُسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرِزُوهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(١٦٥)، وهذه البشرية بعمومها تعم كل من عمل في الأرض زارعا أو

غارسا، سواء أكانت ملكا له، أم كان مزارعا أم أجيورا، فالذي يعمل في

المزارعة إنما يطرق بابا من أبواب الخير، ينال صاحبه الثواب.^(١٦٦)

٢- إن المزارعة مشاركة بين رب الأرض والمزارع، و الاشتراك بين الناس من شأنه

إذا أُقِيمَ عَلَى أُسُسٍ مَتِينَةٍ - كما هو الشأن بالنسبة للمزارعة الصحيحة - أن

يثمر على الصعيد الاجتماعي آثاراً طيبة، على رأسها حصول التوادد بين أفراد

المجتمع، وتعميق صلة الأخوة بينهم - إذا كانت بين مسلمين -، ثم ترسي هذه

المعاملة الأمانة بين الناس؛ لأنهم يعهدون بأموالهم لبعضهم ويسعون متكاتفين

إلى تحقيق المنفعة المشتركة، ولا يمكن الاحتجاج ببُعْيِ بعض الخلطاء على بعض

في واقع الناس؛ لأنهم لا يقيمون شَرَائِكَتَهُمْ عَلَى أُسُسٍ مَتِينَةٍ.

٣- وفضلا عن كل هذا؛ فإن المزارعة مصدر للثروة، و باب لاستثمار الأموال،

ومن شأنها أن توظف اليد العاملة الكثيرة، وتقلل من البطالة في المجتمعات

العربية و الإسلامية، وتسهم في توفير الغذاء للأمة.

١٦٤ - أخرجه مالك في الموطأ، في كتاب المساقاة، باب: ما جاء في المساقاة، رقم الحديث ١٣٨٨، ص ٤٩٤.

رواه هكذا مرسلًا، ووصله أبو داود في سننه، عن جابر ابن عبد الله، في كتاب البيوع، باب: في المساقاة،

رقم الحديث ٣٤١٠، ص ٥٢٠، وهو حديث حسن صحيح، ووصله ابن ماجه في سننه، عن ابن عباس،

في كتاب الزكاة، باب: في خرص النخل والعنب رقم الحديث ١٨٢٠، ص ٣١٧. وهو حديث حسن.

١٦٥ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٦٨، ص ٦٤٦.

١٦٦ - انظر: فتح الباري ٥/ ٣-٤.

المبحث الثالث

المُسَاقَاةُ: حقيقتها، حكمها ودليل مشروعيتها، وحكمة تشريعها.

تعريف المُسَاقَاةِ: هي: أن يدفع الرجل شجره إلى آخر؛ ليقوم بسقيه و عمَلٍ سائر ما يحتاج إليه، بجزء معلوم له من ثَمَرِهِ^(١٦٧).
حُكْمُهَا: اختلف الفقهاء في حُكْمِ المُسَاقَاةِ، فذهب الجمهور إلى القول بجوازها، وذهب أبو حنيفة وزُفَرٌ إلى القول بعدم جوازها،
و نُقِلَ عن الحسن البصري وإبراهيم النخعي القول بالكراهة^(١٦٨)، ورأيي في هذه المسألة الفقهية الجواز، وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء؛ لقوة دليل الجواز من السنة النبوية؛ ولأنها تحقق مقصد الشرع في الخَلْقِ.

دليل مشروعيتها من السنة النبوية:

١- عن نافع: أَنَّ عبد الله بن عمر أخبره عن النَّبِيِّ ﷺ عَامِلَ خَيْبَرَ بِسَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ^(١٦٩).
وأخرج البخاري أيضاً طرفاً عن ابن عمر قال: عَامِلَ النَّبِيِّ ﷺ خَيْبَرَ بِسَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ^(١٧٠).
فظاهر هذا الحديث الشريف أن النبي ﷺ؛ أعطى خَيْبَرَ لليهود بعد أن فتحها؛ ليعملوا فيها، ويكون الخارج بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ثَمَرًا كَانَ أَوْ زَرْعًا، وهذا هو معنى المساقاة.

١٦٧ - معجم لغة الفقهاء ص ٤٢٥.

١٦٨ - انظر: المغني لابن قدامة ٥ / ٣٩٢، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني ٢ / ٣٣٢، تكملة شرح فتح القدير ٦ / ١٧٥، والذخيرة للقرافي ٦ / ٩٤.

١٦٩ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث والمزارعة، باب: المزارعة بالشرط ونحوه رقم الحديث ٢٣٢٨ ص ٤٦١، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب: المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، رقم حديث ٣٩٦٣ ص ٦٤٥.

١٧٠ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث والمزارعة، باب: إذا لم يَشْتَرِ السِّنِينَ فِي المزارعة، رقم حديث ٢٣٣٩ ص ٤٦٢.

٢- لما دخل رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ فاتحاً في السنة السابعة للهجرة، سألته يهود أن يذرهم في الأرض على أن يقوموا بالعمل فيها، ويقتسموا ثمرتها وزرعها مع النبي ﷺ فأقرهم إلى أجل لم يُسمَّه؛ فعن عبد الله بن عمر قال: لَمَّا افْتَتِحَتْ خَيْبَرُ، سَأَلْتُ يَهُودَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقَرَّهُمْ فِيهَا عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا عَلَيَّ نِصْفَ مَا خَرَجَ مِنْهَا مِنَ الثَّمَرِ وَالزَّرْعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُفِرُّكُمْ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا»^(١٧١)، وفي الموطأ: «أُفِرُّكُمْ فِيهَا مَا أَفَرُّكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١٧٢)، و دلالة هذا الحديث على مشروعية المساقاة واضحة وجليّة، فقد أقر رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اليهود في خَيْبَرَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الثَّمَرُ قِسْمَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بَعْدَ نَضْجِهِ، وهذه المعاملة هي عين المساقاة.

٣- وعن أبي هريرة قال: قَالَتِ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلِ، قَالَ: «لَا»، فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمُؤُونَةَ، وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.^(١٧٣)

وهذا الحديث هو المساقاة بعينها؛ فإن الأنصار كانوا أصحاب الأرض و النخيل، فسألوا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَقْسِمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمُ الْمُهَاجِرِينَ أَمْوَالَهُمْ؛ مواساة لهم، فأبي عليه الصلاة والسلام أَنْ يُخْرِجَ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَقَارِهِمْ؛ لأنه عَلِمَ أَنْ الْفَتْوحَ سَتُفْتَحُ عَلَيْهِمْ، و لكنه أجاز المعاملة بجزء من الثمر، وهو معنى المساقاة.^(١٧٤)

الحكمة من تشريع المساقاة:

لقد شرعت السنة النبوية المساقاة لِحُجْمَلَةٍ مِنَ الْحِكْمِ أَهْمُهَا:

١٧١ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: المساقاة و المعاملة بجزء من الثمر و الزرع، رقم الحديث ٣٩٦٥ ص ٦٤٥.

١٧٢ - أخرجه مالك في الموطأ، في كتاب المساقاة، باب: ما جاء في المساقاة، رقم الحديث ١٣٨٧ و ص ٤٩٤.

١٧٣ - أخرجه البخاري، في كتاب الحرث و المزارعة، باب: إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره، و تشركني في الثمر، رقم حديث ٢٣٢٥ ص ٤٦٢.

١٧٤ - انظر: فتح الباري ٥ / ٨-٩، وعمدة القاري ١٢ / ١٦١-١٦٢، و إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ١٧٥ / ٤

١- يتحقق بواسطة هذا العقد التعاون بين أفراد المجتمع ، وهو واحد من المقاصد المرعية في ديننا الإسلامي ، ووجه التعاون في المساقاة جَلِيٌّ؛ فإن من الناس من يملك الأشجار ولكنه لا يملك القدرة على العمل أو تأجير العمال ، ومنهم من يستطيع العمل ويبحث عنه ولكنه لا يملك الأشجار ، و أفضل طريقة لتحقيق التعاون بين الناس هو إيجاد وسيلة للاشتراك بين الجانبين ، وهكذا يتبادل الناس المنافع فيما بينهم .

٢- المساهمة في محاربة ظاهرة الفقر أو التقليل منها؛ وذلك بتوفير مناصب للعمل؛ فتكون سُبُلًا للاستزاق .

٣- وفضلا عن الحِكْمَتَيْنِ المذكورتَيْنِ؛ فإن للمساقاة حِكْمًا أخرى كالبُعْدِ الْجَمَالِيِّ، والمُحَافَظَةِ عَلَى الْبَيْتَةِ، ومُحَارَبَةِ زحف الرمال على المناطق الصالحة للزراعة (مُكَافَحَةِ التَّصَحُّرِ)، وغيرها، وقد سبقت الإشارة إلى بعض هذه المعاني في المباحث السابقة، فلا حاجة لتكرارها هنا.

المبحث الرابع

المُغَارَسَةُ: حقيقتها، حكمها، ومشروعيتها، وقيمتها في استثمار الأشجار.

تَعْرِيفُ الْمُغَارَسَةِ: هي: دفع الأرض لمن يغرستها، على نسبة معينة من ثمار هذا الغرس . (١٧٥)

الحُكْمُ العام لِلغَرَسِ: إن القيام بعملية الغرس أمر مندوب في الإسلام، حَثَّ على ذلك النبي ﷺ في أكثر من مناسبة، وأغرى الغارس بالثواب الجزيل الذي سيناله على صنيعه، سواء في ذلك أكان مَالِكًا للغرس أم أَحِيرًا، تشير إلى هذا المعنى النصوص النبوية الشريفة الآتية:

١- عن جابر قال: قال رسولُ الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ

مِنْهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرَزُوهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ. (١٧٦)

٢- وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَغْرِسُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ سَبْعٌ، أَوْ طَائِرٌ، أَوْ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ». (١٧٧)

٣- وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ». (١٧٨)

ومما يدل على أن الغرس لا يقل شأنًا عن الطاعات والقربات، الدعوة إلى عدم تركه والتمسك بالعمل فيه، وإن كانت الساعة قائمة والناس والشجر إلى هلاك، وفي هذا دليل على أن الغرس في حد ذاته حسنة يُحَبِّدُ إدراكها، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدٍ أَحَدِكُمْ فَسَيْلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا تَقَوْمَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا». (١٧٩)

حُكْمُ الْمُغَارَسَةِ:

الأصل في الْمُغَارَسَةِ الجواز، إلا في صورة واحدة، وهي: أن يتردد العمل بين الإجارة والجعل، كأن يقول رب الأرض للعامل: أُسَلِّمُكَ أَرْضِي عَلَى أَنْ تَغْرِسَهَا عِنْبًا أَوْ تَفَاحًا، وَ لَكَ نِصْفُ الْأَرْضِ وَالشَّجَرِ، فيقول الآخر: قَبِلْتُ. فقد ذهب الجمهور من حنفية وشافعية وحنابلة إلى القول بعدم جواز هذه المعاملة، وخالفهم المالكية وقالوا بجوازها، إذا اجتمعت لهم جملة من الشروط. (١٨٠)

١٧٦ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٦٨ ص ٦٤٦.

١٧٧ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٧٠ ص ٦٤٦.

١٧٨ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث والمزراعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكِلَ مِنْهُ، رقم الحديث ٢٣٢٠ ص ٤٦٠، وأخرجه مسلم، في كتاب المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، رقم الحديث ٣٩٧٣ ص ٦٤٦.

مشروعية الْمُغَارَسَةِ: ما كان من الْمُغَارَسَةِ إجارة أو جعالة، فحكمها حكم الإجارة المعلومة و الجعالة.

١- حُكْمُ الْإِجَارَةِ الْمَعْلُومَةِ: الإجارة جائزة شرعاً دل على جوازها الكتاب والسنة النبوية.

من الكتاب العزيز: قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَوَسِّئْنَ أَرْضَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ (الطلاق ٦)، وقال الله تعالى على لسان ابنة شعيب رضي الله عنه: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص ٢٦).

ومن السنة الشريفة: عن عائشة رضي الله عنها: وَاسْتَأْجَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ... هَادِيًا... وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ فُرَيْشٍ. (١٨١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا، فَاسْتَوَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ». (١٨٢)

٢- حُكْمُ الْجَعَالَةِ: الْجَعَالَةُ جائزة شرعاً دل على جوازها الكتاب والسنة النبوية.

من الكتاب العزيز: قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِه حَمَلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِه زَعِيمٌ﴾ (يوسف ٧٢).

ومن السنة الشريفة: عن أبي قتادة قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيْتَةٌ؛ فَلَهُ سَلْبُهُ». (١٨٣)

١٧٩ - أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث ١٣٠٠٤، ٣/١٩١، و رجال الحديث كلهم ثقات، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني، رقم الحديث ١٢٢٨، ص ٢٢٤.

١٨٠ - انظر اختلاف الفقهاء في هذه المسألة في: تكملة فتح القدير ٤٩/٨، و مغني المحتاج ٣٢٤/٢، و المغني ٣٨٠/٥. وانظر أدلة المالكية في: الذخيرة للقرافي ١٣٧/٦-١٣٨، و شرح منح الجليل للشيخ عليش ٨٢٦/٣، و الفقه الإسلامي وأدلته ٦٥١/٥-٢٥٦.

١٨١ - أخرجه البخاري، في كتاب الإجارة، باب: استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام، رقم الحديث ٢٢٦٣ ص ٤٤٥.

١٨٢ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: إثم من باع حُرًّا، رقم الحديث ٢٢٢٧ ص ٤٣٧.

١٨٣ - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب، و من قتل قتيلاً؛ فَلَهُ سَلْبُهُ من غير أن يخمس، و حكم الإمام فيه، رقم الحديث ٣١٤٢ ص ٦٣٨.

و ما كان من المغارسة على هيئة المشاركة في الغرس و الأرض، فقد أجازها المالكية قياساً على ما جَوَزَتْهُ السُّنَّةُ النبوية من المساقاة في حَدِيثِ خَيْبَرَ. (١٨٤)

قِيَمَةُ الْمَغَارَسَةِ فِي اسْتِثْمَارِ الْأَشْجَارِ:

١- يتحقق بواسطة الْمَغَارَسَةِ التعاون بين الناس؛ فإن من الناس من يملك الأشجار ولكنه لا يملك القدرة على العمل، أو تأجير العمال، ومنهم من يستطيع العمل ويبحث عنه ولكنه لا يملك الأشجار، و أفضل طريقة لتحقيق هذا التعاون بين الناس هو إيجاد وسيلة للاشتراك بين الجانبين، وهكذا يتبادل الناس المنافع فيما بينهم.

٢- المساهمة في محاربة البطالة؛ وذلك بتوفير مناصب للعمل؛ فتكون سُبُلًا للاستزاق.

٣- وفضلاً عن الْحِكْمَتَيْنِ المذكورتَيْنِ؛ فإن لِلْمَغَارَسَةِ حِكْمًا أُخْرَى كَالْبُعْدِ الْجَمَالِيِّ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْبَيْئَةِ، وَمُحَارَبَةِ زحف الرمال على المناطق الصالحة للزراعة (مُكَافَحَةِ التَّصَحُّرِ)، و بالغراسة تحصل المنافع الكثيرة، والارتفاقات الخطيرة الدالة على موقع هذه النعمة العظيمة، كالتفكُّه بشمارها، وابتهاج النفوس بأزهارها، و تمتع الأبصار باخضرارها، والارتياح في الاستظللال بوارف ظلالها، و الارتفاق بخشبها، و استنشاق الهواء النقي بسببها، و نشر السحب أجنتها عليها؛ لتمطر مغانيها؛ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ٩٩).

١٨٤ - انظر: المقدمات المهدات لابن رشد الجَدِّ ٢٣٢٢، وانظر: دليل مشروعية الْمَسَاقَاةِ مِنَ السُّنَّةِ النبوية.

الذي نخلص إليه في ختام هذا البحث جملة نتائج أهمها:

١- إن كثيراً من حملات التشويه المسعورة التي يقود كبرها أعداء هذا الدين، انطلاقاً من بعض النصوص الشرعية المبتورة من سياقها الموضوعي، والبعيدة عن روح هذا الدين الحنيف في معالجة المشكلات يمكنها أن تدحض بما هو الحق، وذلك بردها إلى سياقها وجمعها مع غيرها؛ لأن الاختلاف لا يكون مما كان مصدره الحق عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢)، والذين يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مواضعه؛ فإنهم يُقَرِّعُونَ بالحجة والبرهان، والزعم بأن السنة الشريفة وقفت موقفاً سلبياً من الزراعة، كلام مردود على أصحابه؛ لأن السنة المطهرة حافلة بما ينقض كلامهم، وما تشبثوا به من دليل انبرى له علماء الأمة وَجَهَّوهُ بما يتفق وروح الشريعة الإسلامية.

٢- وَصَعَتِ السنة النبوية كل وسائل النماء الزراعي بيد المسلم، وحثته على حسن الاستغلال؛ ليحقق الغايات المرجوة، ومن ذلك:

أ- أَنْ حَثَّتِ السنة النبوية المسلم على تحصيل المال؛ لأنه توأم الحياة وعصبها عكس ما يرفجف به بعض الغافلين الذين سقطوا في شرك الوضاع، فرفعوا شأن كلام الناس فمدحوا الفقر وأهله، وذموا المال وأصحابه، وذلك كله إتكاءً على أحاديث موضوعة، أو لا يعمل بها مع ضعفها؛ لوجود المحكم من النصوص الصحيحة.

ب- أن السنة النبوية الشريفة حسمت مسألة ملكية الأرض الزراعية؛ فبينت ألوان الأراضي وأسباب ملكيتها، خاصة أو عامة، وبذلك أنهت مشكلة من أهم مشاكل الاستثمار الزراعي ألا وهي مسألة العقار الذي لازل بعض التقنيات تتخبط بخصوصه، والعقار الفلاحي في وطننا (الجزائر) من أبرز النماذج التي يمكن أن يستشهد بها في هذا المقام.

ج- لقد جاءت السنة الشريفة بنظام رائد في التشجيع على الاستثمار الزراعي،

هو إحياء الموات، ويخول هذا النظام للأفراد حق ملكية الأرض البور وفق شروط محددة؛ حتى تكون العمارة حقيقية لا صورية.

د- يَسَّرَتِ السَّنةَ الْمُطَهَّرَةَ سُبُلَ الْإِنْتِفَاعِ بِالْأَرْضِ الزَّرَاعِيَّةِ، سِوَاءَ تَعَلُّقِ ذَلِكَ بِالْعَيْنِ وَالْمَنْفَعَةِ، أَوْ بِالْمَنْفَعَةِ فَحَسَبِ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ تَشْرِيْعُ كِرَاءِ الْأَرْضِ الزَّرَاعِيَّةِ.

هـ- أَوْجَدَ النَّبِيُّ ﷺ نِظَامًا فِي الْعَطَاءِ أَسْهَمَ بِقِسْطٍ وَافِرٍ فِي تَوْجِيهِ النَّاسِ إِلَى الزَّرَاعَةِ وَعَالِمَهَا، هُوَ نِظَامُ الْقَطَائِعِ - أَوْ الْأَقْطَاعِ - وَيُقْضَى هَذَا النِّظَامُ بِأَنْ يَخْصُ الْحَاكِمُ بَعْضَ رِعِيَّتِهِ بِبَعْضِ الْأَرْضِ؛ لِيَتَمَلَّكُوهَا - إِنْ كَانَتْ مِنَ الْبُورِ -، أَوْ لِيَسْتَغْلُوهَا إِنْ كَانَتْ عَامِرَةً -، وَقَدْ أَعْنَى هَذَا النِّظَامُ بِيُوتَا بَعْدَ عِزِّ وَأَكْرَمٍ بِهِ النَّبِيُّ (كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَدْ سَارَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ عَلَى هَدْيِ النَّبِيِّ فِي عَدَمِ إِعْطَاءِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ مَا لَا يَسْتَحِقُّ، إِلَى أَنْ جَاءَتْ عَصُورُ الْجَوْرِ فَانْحَرَفَتْ بِالْإِقْطَاعِ عَنْ غَايَاتِهِ.

و- لَقَدْ ضَبَطَتِ السَّنةُ الشَّرِيفَةُ نِظَامَ الْحِمَى، الَّذِي كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقْنَنُ لظلم الحكام للرعية، وجعلت الأرض المحمية لغايات تحتاجها الدولة؛ حكرًا على المال العام، وبعض فقراء المسلمين، وقيدت الأحماء بما يخدم فلسفة الاستثمار الزراعي؛ لأنها أثقلت هذا النظام بجملة من الشروط، حتى لا يكون تواجهه على حساب الأراضي الزراعية، ومن هنا وجدنا اتجاهًا قويًا في الفقه الإسلامي يذهب أصحابه إلى جواز إحياء الحمى؛ لكونه سببًا قويًا في الاستثمار الفلاحي.

ط- لما كان الماء أهم أسباب نماء الزروع والأغراس، فقد اهتمت السنة المطهرة بهذه المادة الحيوية في حياة الناس عامة، وفي تملكها، وبذلها، وكيفية الإفادة منها بوجه خاص، فشرعت بذل فضلها، ونظمت طرق سقي الناس منها، وحملت على بائعها بغير وجه حق، غير أن مشكلة الماء في واقع الأمة الإسلامية تعتبر معضلة يجب حلها وتداركها، حتى لا تستعصي على العلاج بعد اليوم.

٣- لقد حدد الحديث الشريف طريقين لتحقيق عملية النماء الزراعي بعد تحصيل

وسائلها فقال ﷺ: « مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيُزْرِعْهَا، أَوْ لِيُزْرِعْهَا أَحَاهُ »^(١٨٥) ومن هنا

تحدثنا عن أسلوبيين في تحقيق الاستثمار الزراعي هما:

أ- الاستثمار الخاص: وهو أن ينمي صاحب الوسيلة أرضه وبعد أن ذكرت بعض الآثار التي تشرع له وتشجع عليه، تحدثت على الدوافع التي شحذت بها السنة النبوية الناس؛ لتحقيق هذا الاستثمار، ثم وقفت على بعض الضوابط الأخلاقية التي تحكم عمل المسلم.

ب- عقود الاستثمار: وهي المزارعة والمساقاة وتلحق بها المغارسة، وإذا كانت المزارعة عقداً على تنمية الزرع؛ فإن المساقاة عقد على تنمية الغرس، والمغارسة عقد غايته إيجاد أصول ينتفع بثمارها وتكون ملكية الأصل بعد مناصفة بين المتعاقدين. هذا ما توصلتُ إليه من نتائج في هذا البحث. وفي الأخير أتمنى لندوتكم الكريمة التوفيق والنجاح. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٨٥ - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البيوع، باب: كراء الأرض، رقم الحديث ٣٩٢١ ص ٦٣٩.

مصادر ومراجع البحث

القرآن الكريم وعلومه:

- القرآن الكريم.

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة.

- روائع البيان تفسير آيات الأحكام، للصابوني، مكتبة رحاب، الجزائر، الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني الطبعة الثانية ١٣١٨ هـ / ١٩٩٨ م، دار القلم دمشق، ودار الشامية بيروت.

الحديث الشريف وعلومه:

- الأدب المفرد للبخاري، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

- الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني، اعتنى به أبو عبيدة مشهور بن حسن آل الراشد، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

- سنن أبي داود، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

- سنن الترمذي، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

- السنن الصغرى للنسائي، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

- السنن الكبرى للنسائي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ١٠٠٢م.

- سنن ابن ماجه، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

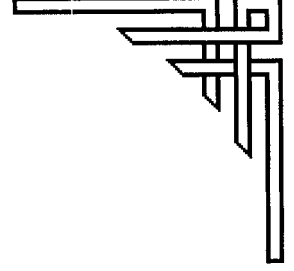
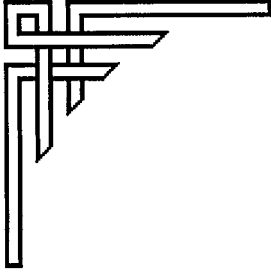
- صحيح البخاري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

- صحيح ابن خزيمة، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- صحيح مسلم بن الحجاج القشيري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م
- عارضة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للقاضي ابن العربي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، دار الفكر.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي، و بهامشه شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة ١٤٠٧هـ - ١٩٦٨م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى، مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٦٨م .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة، و دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٩م.
- مسند أبي يعلى الموصلي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ٢٩٩١م، دار المعرفة العربية دمشق، و بيروت.
- مصنف عبد الرزاق، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان. طبعة ١٤٠٣هـ.
- المعتصر من المختصر من مشكل الآثار، عالم الكتب، بيروت لبنان.
- المعجم الأوسط للطبراني، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، دار المعارف- الرياض -.
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع .
- كتب الفقه الإسلامي و الوضعي:
- الاستثمارات المالية الإسلامية، علي البدري الشرقاوي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٥م.

- إصلاح المال لابن أبي الدنيا، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م، بيروت - لبنان.
- الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني، دار الكاتب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٢ م.
- بلغة السالك لأقرب المسالك، لأحمد الدردير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان.
- شرح حدود ابن عرفة للرصاص المالكي، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٩٣ م.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزجيلي، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٩٥ م، سورية، دمشق.
- المبسوط للسرخسي، دار المعرفة، بيروت طبعة ١٤٠٦هـ.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة المعارف، الرباط - المغرب.
- المحلى شرح المجلى لابن حزم الظاهري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م.
- المدخل لابن الحاج، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩ م.
- معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعة جي، وحامد صادق قنبي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م دار النفائس - بيروت لبنان.
- المغني لابن قدامة المقدسي، دار الكتاب العربي، ١٩٨٣ م.
- موسوعة الفقه الإسلامي، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ووزارة الأوقاف، جمهورية مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م.
- الموسوعة الفقهية، لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الكويت،

١٤٠٣هـ / ١٩٥٢م .

- موسوعة المصطلحات الاقتصادية والإحصائية، د. عبد العزيز فهمي هيكل، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ١٩٨٠م .
 - موسوعة المصطلحات الاقتصادية، د. حسين عمر، دار الشروق جدة، الطبعة الثالثة، ٩٩٣١هـ / ١٩٧٩م .
 - المذهب في فقه الشافعي، للشيرازي، دار الفكر، ١٤١٤هـ / ١٩٩٦م .
 - الهداية للمرغيناني، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- كتب اللغة والتاريخ و الثقافة العامة:
- أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، سليمان الخطيب، ديوان المطبوعات الجامعية، ابن عكنون الجزائر.
 - تاج العروس للزبيدي، المطبعة الخيرية مصر، الطبعة الأولى سنة ١٣٠٦هـ.
 - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
 - التراتيب الإدارية للسيد محمد عبد الحي الكتاني. دار الأرقم، الكويت.
 - خطط المقرئزي، دار العرفان، مطبعة الساحل الجنوبي، لبنان ١٩٥٩م .
 - الصحاح للجوهري، مطابع دار الكتاب العربي مصر، طبعة ١٣٧٧هـ.
 - لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت لبنان، طبعة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .
 - مجلة المسلم المعاصر، العدد ٢٨، السنة ٧، تاريخ ١١ / ١٤٠٥هـ.
 - الموسوعة العربية الميسرة، لجنة الباحثين والعلماء، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت لبنان.



أخلاقيات العمل الاقتصادي في ضوء السُّنة النبوية المطهرة

إعداد الباحثين

الدكتور

عدنان بن عبد الرزاق الحموي الغلبي

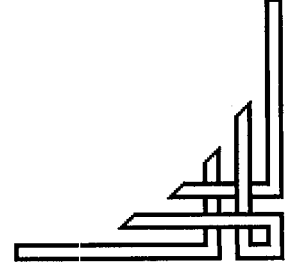
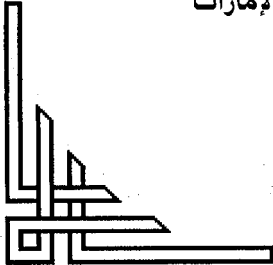
كلية الشريعة والقانون

جامعة الإمارات

الدكتور

أحمد مصطفى عفيفي

المعهد العلمي الإسلامي - العين



خطة البحث

وتتكون من: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.
أما المقدمة: فتتكلّم عن أهمية الموضوع، والباعث عليه، وسبب اختياره.
وتتجلى أهمية الموضوع من خلال تناول المباحث التالية:
المبحث الأول: ويتضمن بيان مفهوم المال في السنة النبوية مفصلاً: وقد قُدِّم للمبحث بتمهيد استعرض اهتمام الرسالات السماوية بالمال ونظرتها إليه، وكذلك موقف الإسلام منه، بعد ذلك تم استعراض مدلول المال لغة، ومدلوله في القرآن الكريم، والسنة المطهّرة، ومدلوله عند فقهاء المذاهب الأربعة، وعدد من الفقهاء المحدثين.
وفي نهاية المبحث استُخْلِصتُ بعضُ النتائج الهامة، من خلال معرفة مفهوم مدلول المال.

وجاء المبحث الثاني: وقد وُضِّحَتْ فيه معاييرُ الكسب في السنة النبوية، من خلال بيان مدلول الكسب لغة، ومدلوله في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومدلوله عند الفقهاء، والأسس التي تحكم الكسب في السنة النبوية المطهّرة، موجزة في مجموعة من الضوابط والقواعد التي أرساها الإسلام لمجالات الكسب.

كذلك تضمن المبحث في نهايته استنباطاً لمجموعة من النتائج المستفادة منه.
أما المبحث الثالث: وهو المستهدف بحثاً وتركيزاً، فقد تناول ضوابط وأخلاقيات العمل في السنة النبوية. وقد افْتُحَ بتمهيد يتضمن المفهوم الإسلامي للعمل والعامل، وبعضاً من الأحاديث النبوية الدالة على مكانة العمل، وحكمه، وفضله، وبيان سيرة الأنبياء عليهم السلام في التفاعل مع العمل كظاهرة اجتماعية صحية، تفرضها طبيعة المجتمعات، وقد سبق عدد من النماذج، واستعرضت بعض الأمثلة مع التحليل لها، ومن ثم حُدِّدَتْ أهمُّ ضوابط وأخلاقيات المهن

والعمل في السنّة النبويّة المطهّرة. وقد جاءت في خمسة عشر ضابطاً، تم الاستدلال عليها من السنّة النبوية المطهّرة أصولاً.
وتوّجت نهاية البحث بالتركيز على أهم النقاط المستنتجة.
أما الخاتمة: فتناولت أهم النتائج المستفادة، والتوصيات المقترحة، ومراجع البحث.

وقد توخّى الباحثان الدقة في الاستعراض، والتقيد بمنهجية علمية مجردة في مناقشة الأفكار، مع الالتزام بقواعد وأصول البحث العلمي، من حيث الاستشهاد بالأدلة الثابتة الصحيحة.
ويبقى الكمال لله تعالى، والعصمة لرسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وما نستعرضه هو محاولة متواضعة في هذه المشاركة العلمية المباركة. نسأل الله تعالى دوام التوفيق والسداد.

المقدمة: أهمية الموضوع، والباعث عليه، وسبب اختياره.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أهمية الموضوع:

يعدُّ العمل حجراً أساساً في عملية البناء الاقتصادي للمجتمعات الإنسانية، وأحد أهم المؤشرات الهامة لدفع عجلة النمو والازدهار للأمم، لما يثمره من إنتاج وغناء يعود بالخير والنفعة على شتى شرائح المجتمع، وينهض بمستوى الأفراد والجماعات ازدهاراً وانتعاشاً، ويحقق للدول السبق في مضمار النمو الاقتصادي، حين يقضي على البطالة، ويؤمّن فرص العمل والكسب لسائر الأفراد، فيصونهم عن الحاجة، ويعفّهم عن المسألة.

بيد أن السنّة النبويّة المطهّرة بما حوته من شمولية في الأحكام، وعمومية في استيعاب قضايا المجتمعات، وتوازن بين نوازع المادة وهدايات الروح، قد تناولت موضوع العمل توجيهاً وإرشاداً، ضمن منظومة الأخلاقيات التي بعث بها النبي الكريم ﷺ، حين وصفه ربه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤). وتبرز أهمية الموضوع في تناول الجانب الأخلاقي للعمل الاقتصادي في ضوء السنّة النبويّة من خلال استعراض ثلّة طيّبة من توجيهاً النبي الكريم (في تحديد هذه الأخلاقيات للتذكير بها والتنبيه عليها أولاً، ثم للدعوة إلى تفعيلها في سوق العمل ثانياً، لما لها من الأثر الطيب، والنتائج المثمرة في رفع البناء الاقتصادي للأمة.

الباعث عليه:

ولعل الباعث على اختيار هذا الموضوع ما يلاحظ من تراجع في أدبيات هذه الأخلاقيات في ساحة العمل بين المسلمين، وذلك حين غلب بعضهم الجانب المادي حصراً، وفصل بينه وبين الجانب الأخلاقي للعمل، إن لم يكن قد أهمل أو

عطل الجانب الثاني بالكليّة، فانتشرت سلبيات ما كان للمسلم أن يتمثلها في سلوكه العملي؛ من طمع في جني المال، وحب للدنيا، وتهافت على تحصيل حطامها الفاني، بعيداً عن أخلاقيات العمل إن لم يكن على حسابها، وعلى وجه مخالف ومحذور لضوابط العمل الشرعية، والتي أرشدنا إليها نبينا الكريم ﷺ في سنّته المطهّرة، وتمثلها عملياً في سلوكه وهديه الشريف.

من هنا كانت الحاجة ماسة إلى تناول الموضوع دراسة وبحثاً، وإظهار الكنوز الخيرة في الهدى النبوي الشريف، والتي حضّت على هذه الأخلاقيات، وأرشدت إلى هذه الضوابط.

سبب اختياره:

تزخر السنّة النبويّة بكمّ مبارك من الهدى النبوي في تحديد أخلاقيات العمل الاقتصادي، من واقع سيرة الرسول الكريم ﷺ العملية، وتوجيهاته القولية، وشمائله السلوكية، بما ينير للمسلم العامل درباً مضيئاً من الأدبيات الإيمانية، يستضيء بها في تعامله مع فئات المجتمع المتنوعة، فيتلافى كل خطأ، ويعالج كل خلل، ويقضي على كل سلبية من خلال تمثّل هذه الأخلاقيات النبويّة في واقعه العملي، واحتكاكه بالآخرين.

والله من وراء القصد..

المبحث الأول: مفهوم المال في السنّة النبويّة

تمهيد:

اهتمت الرسائل السماوية بالمال باعتباره عصب الحياة الاقتصادية، ومن أهم مقومات تعمير الأرض، وقد وردت النصوص التي تؤكد ذلك حين وصفه الله تعالى بزينة الحياة الدنيا. فقال سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ (الكهف: ٤٦).

فاليهود أكثر الناس حرصاً على جمع المال وكنزه، وكان أغنياؤهم على جانب

كبير من قسوة القلب وموت الضمير، بسبب حرصهم الكبير على المال وحبهم الشديد له، حتى إنهم اجتهدوا في تحريف أحكام شريعتهم لتحقيق ذلك، وآل الأمر إلى أن قامت في المجتمع اليهودي مادية رهيبة، وساد الظلم والاستغلال والفساد، وعاش المحرومون فيه عيشة من الذل والهوان، فحرّموا أخذ الربا بين اليهودي وأخيه، لكنهم أباحوا أكله من الغرباء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦١).

أما في المسيحية فقد فرّقوا بين المال والدين، وقالوا: (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، أي لم يلتزموا بالقواعد الدينية في مجال المعاملات، ولذلك لم يحرموا التعامل بالربا، علماً بأن قوانين الكنيسة تحرّم ذلك.

بيد أن للإسلام نظرتة الموضوعية والخاصة إلى المال، فهو وسيلة يُتقوّى به على طاعة الله تعالى وعمارة الأرض، وليس غاية في ذاته. قال تعالى: ﴿ وَأَتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ (القصص: ٧٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١). ويقول ابن تيمية رحمه الله: «إن الأصل أن الله تعالى إنما خلق الأموال إعانة على عبادته، لأنه إنما خلق الخلق لعبادته»^(٢).

مدلول المال لغة:

وردت مادة (المال) في معاجم اللغة العربية بمدلولات متشابهة، وتعني: أي شيء يمتلكه الفرد. فقد عرّف ابن منظور المال بأنه: «ما ملكته من جميع

١- صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم الحديث: ٤٦٥١.

٢- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية: ص: ٣٤.

الأشياء»^(٣). وعند الفيروزآبادي: «المال ما ملكته من كل شيء»^(٤).

مدلول المال في القرآن الكريم:

وردت كلمة المال ومشتقاتها في آيات عديدة من القرآن الكريم، ولها مدلولات مختلفة بحسب وضعها في الآية المناسبة التي نزلت بشأنها؛ فعلى سبيل المثال يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف: ٤٣).

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ قيل المراد به المال، ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ، أي أكثر خدماً وحشماً وولداً^(٥). ويلاحظ أن كلمة (ثمر) جاءت مرادفة للمال، أما كلمة (مال) فقصد بها الخدم والحشم، ولفظ (وكان) يشير إلى الحيازة. كما بين الله سبحانه وتعالى أن من ضمن غرائز العنصر البشري حبّ المال، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ٢٠).

مدلول المال في السنّة المطهّرة:

وردت في السنّة المطهّرة أحاديث كثيرة لمدلول المال؛ منها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قلب الشيخ شاب على حبّ اثنتين: طول الحياة، وحبّ المال»^(٦). وهذا يشير إلى غريزة حبّ المال للإنسان، وفيه أيضاً كراهة الحرص عليه.

كما ورد أن المال فتنة لهذه الأمة، وقد عنون البخاري لذلك باباً في قول النبي صلى الله عليه وآله هذا المال خَصْرَةٌ حُلْوَةٌ: (وقوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ

٣- لسان العرب: ١٤ / ١٥٢.

٤- القاموس المحيط: ص: ١٣٦٨.

٥- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣ / ٨٦.

٦- صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة الحصول على الدنيا، رقم الحديث: ١٧٣٥.

ذَلِكَ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١٤﴾ (آل عمران: ١٤)، قال عمر رضي الله عنه: «اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه»^(٧).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، قيل: وما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا، فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا، قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع ذلك، قال: لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطًا، أو يَلْمُ، إلا آكلة الخضرة، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت الشمس، فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوة، مَنْ أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، وَمَنْ أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»^(٨).

كما ورد مدلول المال في السنة المطهرة على أنه الحَسَبُ، فعن سمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحَسَبُ المال، والكرم التقوى»^(٩).

٧- وفي الباب عن حكيم بن حزام قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: هذا المال، وربما قال سفيان: قال لي: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، وَمَنْ أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى). صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «هذا المال خضرة حلوة»، رقم الحديث: ٥٩٦٠.

٨- صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم الحديث: ٥٩٤٧ ومعنى (خضرة): أي غضة ناعمة طرية، و(الحبط): الهلاك، ومعنى (يلم): يقرب ويدنو من الهلاك، و(الخضرة): نوع من البقول، ومعنى (اجترت): أخرجت ما في بطنها وأعدت مضغه لتبتلعه، و(ثلط) البعير: إذا ألقى رجيعة سهلاً رقيقاً. وقد ضرب في هذا الحديث مثلين: أحدهما للمفرط في جمع الدنيا، والمنع من حقها، والآخر للمقتصد في أخذها والنفع بها. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/ ٢٥٩ و ٤٠/ ٢.

٩- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ٣٣/ ٢٩٤ رقم الحديث: ٢٠١٠٢، وهو حسن لغيره، ورواه الترمذي في سننه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات، رقم الحديث: ٣١٩٤ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث سمرة لا نعرفه إلا من حديث سلام بن أبي مطيع، وأخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم الحديث: ٤٢٠٩ وحسنه البغوي، وصححه الحاكم. و(الحسب) في الأصل: الشرف بالأباء، وما يعده الناس من مفاخرهم، وقيل: الحسب والكرم يكونان في الرجل، وإن لم يكن لهم آباء لهم شرف. والشرف والمجد لا يكونان إلا بالأباء، فجعل المال بمنزلة شرف النفس أو الآباء، والمعنى: أن الفقير ذا الحسب لا يؤثر ولا يُحتفل به، والغني الذي لا حسب له يؤثر ويحل في العيون. النهاية في الغريب الحديث والأثر: ١/ ٣٨١

مدلول المال عند فقهاء المسلمين:

في ضوء القرآن الكريم، وفي ظلّ السنّة النبويّة الشريفة استنبط الفقهاء شرح وتفصيل مدلول المال، وتحديد القواعد التي تحكم تشغيله، ليكون بذلك مرجعاً في مجال المعاملات الاقتصادية، وفيما يلي أقوال بعض الفقهاء في المدلول التطبيقي للمال، وهو أهم عناصر الإنتاج.

أولاً: مدلول المال عند الحنفية:

عرّف فقهاء المذهب الحنفي المال بتعريفات كثيرة؛ منها:

- ١- (ما يميل إليه الطبع، ويمكن ادّخاره لوقت الحاجة، والمالية تثبت بتموّل الناس كافة أو بعضهم)^(١٠)
- ٢- (موجودٌ يميل إليه الطبع، ويجري فيه البذل والمنع)^(١١).
- ٣- (ما خلُق لصالح الأدمي، ويجري فيه الشحُّ والضنّة)^(١٢).

ثانياً: مدلول المال عند الشافعية:

عرّف الزركشي المال بأنه: (ما كان منتفعاً به، أي مستعداً لأن يُنتفع به)^(١٣).
وحكى السيوطي عن الشافعي أنه قال: (لا يقع اسم مال إلا على ما له قيمة يُباع بها، وتلزم متلفه، وإن قلّت، وما لا يطرحه الناس مثل الفلّس وما أشبه ذلك)^(١٤).

ثالثاً: مدلول المال عند الحنابلة:

المال شرعاً: (ما يباح نفعه مطلقاً، أي في كل الأحوال، أو يباح اقتناؤه بلا حاجة)^(١٥).

١٠- رد المحتار على الدر المختار: ٣ / ٤

١١- حاشية ابن عابدين نقلاً عن الدر المختار شرح تنوير الأبصار: ١٠٠ / ٤

١٢- التلويح على التوضيح لمّن التنقيح: ٢ / ٢٣٠

١٣- المنثور في القواعد للزركشي: ٢٢٢ / ٣

١٤- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية للسيوطي: ص: ٣٢٧

١٥- شرح منتهى الإرادات: ١٤٢ / ٢

عرّف الخرقى المال أنه: (ما فيه منفعة، أو لغير حاجة ضرورة)^(١٦).

رابعاً: مدلول المال عند المالكية:

عرّفه ابن العربي بقوله: (المال هو ما تمتدُّ إليه الأطماع، ويصلح عادة وشرعاً للانتفاع به)^(١٧).

وعرّفه الشاطبي بقوله: (المال ما يقع عليه الملك، ويستبدُّ به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه)^(١٨).

خامساً: مدلول المال عند الفقهاء المحدثين:

المال: هو كل عين ذات قيمة مادية بين الناس.

وقد عرّفه الشيخ علي الخفيف بأنه: (ما يمكن حيازته، وإحرازه، والانتفاع به انتفاعاً معتاداً)^(١٩).

كما عرّفه الشيخ محمد أبو زهرة بأنه: (اسم لغير الأدمي، خلق لمصالح الأدمي، وأمكن إحرازه، والتصرف فيه على وجه الاختيار)^(٢٠).

وفي نهاية البحث الأول في مدلول المال يمكن استخلاص النتائج التالية:

- ١- المال هو شيء مرغوب فيه، قابل للإحراز والادخار لإشباع الحاجات.
- ٢- مفهوم المال يشمل متاع الحياة الدنيا.
- ٣- المال هو ما يُستفاد به على وجه مشروع.
- ٤- يشترط في المال التملك الشخصي والحيازة.
- ٥- جني المال وسيلة شريفة لتحقيق غاية نبيلة.

١٦- كشاف القناع على متن الإقناع: ٢ / ١٥٠

١٧- أحكام القرآن لابن العربي: ٢ / ٦٠٧

١٨- الموافقات: ٢ / ١٠

١٩- مختصر أحكام المعاملات الشرعية، الشيخ علي الخفيف: ص: ٢٥

٢٠- الملكية ونظرية العقد، الشيخ محمد أبو زهرة: ص: ٤٤

المبحث الثاني: معايير الكسب في السنّة النبويّة

تمهيد:

اهتمت السنّة النبويّة بالعمل من أجل الكسب الطيب الذي يعين الإنسان على عمارة الأرض، وعبادة الله سبحانه وتعالى، ومن حكمته سبحانه أن جعل زيادة الكسب من الغرائز البشرية، بيد أن الله تعالى قد حذّرنا من أن تطغى شهوة الكسب على العبادة، لأنها إن تحكّمت في النفس البشرية سلكت في سبيل الحصول عليه كل طريق، ونتج عن ذلك كثير من المشكلات الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية.

وسوف نناقش في هذا المبحث مدلول الكسب لغة واصطلاحاً، ثم ننتقل إلى استنباط الأسس التي تحكم الكسب في السنّة النبويّة المطهّرة.
مدلول الكسب لغة:

ورد في لسان العرب: (الكسب: طلب الرزق، وأصله الجمع. قال سيبويه: كسب أصاب، واكتسب: تصرّف واجتهد. والكسب: هو الطلب والسعي في طلب الرزق والمعيشة)^(٢١).

وجاء في القاموس المحيط: (تكسّب واكتسب: طلب الرزق، أو كسب أصاب، واكتسب: تصرّف واجتهد، وكسبه: جمعه)^(٢٢).

وفي المصباح المنير: (كسب مالا، أي: ربحه، واكتسب كذلك، وكسب لأهله واكتسب: طلب المعيشة، وكسب الإثم واكتسبه: تحمّله)^(٢٣).

وفي تعريفات الجرجاني: (الكسب: هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع، أو دفع ضرر، ولا يوصف فعلُ الله تعالى بأنه كسب، لكونه منزّهاً عن جلب نفع، أو

٢١- انظر: لسان العرب: ١٣ / ٦٢

٢٢- انظر: القاموس المحيط: ص: ١٦٦

٢٣- المصباح المنير: ص: ٣٢

دفع ضرراً^(٢٤).

وفي كليات الكفوي: (الكسب: الجمع والتحصيل)^(٢٥).

نستنبط معنى الكسب مما سبق: أنه نتيجة السعي في طلب الرزق. ومن الألفاظ ذات الصلة بالكسب: الحرفة، والريح، والغنى. فالصلة بين الحرفة والكسب أن الكسب أعم من الحرفة، لأن الكسب قد يكون حرفة وقد لا يكون، والصلة بين الريح والكسب أن الريح ثمرة الكسب، كما أن الصلة بين الغنى والكسب أن الكسب وسيلة من وسائل الغنى^(٢٦).

مدلول الكسب في القرآن الكريم:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وميَّزه على الملائكة بأن حمَّله مسؤولية عمارة الأرض، وطلب السعي والعمل لأجل الحصول على الكسب الطيب، للقيام بأعباء الحياة، وعبادة الله تعالى، وأساس ذلك قول الحق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَنْشُورُ﴾ (الملك: ١٥). تشير هذه الآية الكريمة إلى فرضية العمل من أجل الكسب مع الإيمان بأن الكسب الناتج عن بذل الجهد ومشقة العمل إنما هو مصدر رزق من عند الله تعالى، ولا يتعارض السعي والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، كما تشير الآية إلى قضية الإيمان بالرجوع إلى الله تعالى، والمحاسبة على العمل والكسب، كما تعتبر معياراً أخلاقياً في العمل سنفضله في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى من خلال أخلاقيات العمل في السنة المطهرة.

ولقد أمر الحق سبحانه الرسل بالعمل والسعي والكد الحلال، والأكل من الطيبات، ليكون عوناً لهم على العمل الصالح، وأصل ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون: ٥١).

٢٤ - التعريفات: ص: ٢٣٦

٢٥ - الكليات: ص: ٧٧٠.

٢٦ - الموسوعة الفقهية الكويتية: ٣٤ / ٢٣٤

كما نادى المؤمنين بضرورة السعي والعمل الصالح، والأكل من الطيبات، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧١).

كما يحفل القرآن الكريم بالآيات الكريمة التي ذكرت فيها كلمة (الكسب) ومشتقاتها، حيث بلغت (٦٧) آية قرآنية، ولها مدلولات مختلفة بحسب وضعها في الآية، والمناسبة التي نزلت بشأنها، وجميعها لا يتجاوز المعنى اللغوي السابق في أصل الكسب والاكْتِسَاب، نستشهد بآية منها في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، تشير هذه الآية إلى أن الحق سبحانه وتعالى عبّر عن الحسنه بكسبت، أي: من خير، وعن السيئة باكتسبت، أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف^(٢٧)، لأن معنى (كسب) دون معنى (اكتسب)، لما فيها من الزيادة. ومن قواعد أهل اللغة أن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى. قال ابن جني: (وذلك أن كسب الحسنه بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر. وذلك لقوله عز اسمه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (النحل: ١٦٠).

أفلا ترى أن الحسنه تصغر بإضافتها إلى جزائها، صغر الواحد إلى العشرة، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنه، ولذا قال تبارك وتعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (١) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (مریم: ٩١-٩٠)، فإذا كان فعل السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية، عظم قدرها وفحّم لفظ العبارة عنها، فقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، فزيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنه^(٢٨).

ويفهم من هذا التفسير أن الكسب يعني زيادة في الرزق، وعلى ذلك فالكسب عند التجار يرادف الزيادة على أصل المال، أي: الربح.

٢٧- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١ / ٣٥٢

٢٨- انظر: الخصائص، لابن جني: ٣ / ٢٦٥

مدلول الكسب في السنّة المطهّرة:

تناولت السنّة النبويّة المطهّرة مدلول الكسب في عديد من الأحاديث الشريفة، نذكر منها على سبيل المثال:

مارواه جُميع بن عمير عن خاله قال: سئل النبي ﷺ عن أفضل الكسب، فقال: «بيع مبرور، وعمل الرجل بيده»^(٢٩).

يشير هذا الحديث إلى أن الكسب هو عائد البيع المبرور بالربح الحلال، وفي الشقّ الثاني من الحديث يشير إلى أن الكسب هو نتاج العمل اليدوي، وهو كسب مادي ملحوظ.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»^(٣٠).

وعن المقدم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٣١).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة له بها أجر، وما أكلت منه العافية فله به أجر»^(٣٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو، أحسبه قال: إلى الجبل، فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خيراً من أن يسأل الناس»^(٣٣).

وفي رواية عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لأن

٢٩- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ١٥٧ / ٢٥، رقم الحديث: ١٥٨٣٦، وهو حسن لغيره. والبيع المبرور: الذي لا يخالطه شيء من المأثم. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ١١٧

٣٠- صحيح البخاري: كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل معه: رقم الحديث: ٢١٥٢

٣١- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده: رقم الحديث: ١٩٣٠

٣٢- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ٢٢ / ٢٦٢ رقم الحديث: ١٤٣٦١ والحديث صحيح، وأخرجه النسائي في الكبرى: رقم الحديث: ٥٧٥٦ وابن حبان: ٥٢٠٣ والعافية: هي كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر، وجمعها العوافي. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣ / ٢٦٦

٣٣- صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾: رقم الحديث: ١٣٨٦

يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه، أو منعه» (٣٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئاً» (٣٥).

وقد عنون البخاري في صحيحه أبواباً في الكسب، تضمّنت عدداً من الأحاديث النبوية منها:

١- باب لا يقبل الله صدقةً من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب؛ لقوله:

﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٢) (٣٦).

٢- باب الصدقة من كسب طيب؛ لقوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٣٧) «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَأَتَوُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة: ٢٧٦-٢٧٧).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبه، كما يربّي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل» (٣٧).

٣- باب كسب الرجل وعمله بيده؛ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما استخلف

أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال: لقد علم قومي أن حِرْفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي، وشغلتُ بأمر المسلمين، فسيأكل آلُ أبي بكر من هذا المال، ويحترفُ للمسلمين فيه» (٣٨).

يستنبط من الأحاديث السابقة أن الكسب في السنة النبوية المطهرة يعني عائد

٣٤- صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة: رقم الحديث: ١٣٧٧

٣٥- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب قول الله تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، رقم الحديث: ١٩٢٣

٣٦- صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب.

٣٧- صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب.

٣٨- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث: ١٩٢٨

المال، سواء أكان أجراً، أو إنتاجاً طيباً، كما يعني الربح الناتج من عمليات التجارة، وهو لا يختلف عن مدلوله في القرآن الكريم.

مدلول الكسب عند فقهاء المسلمين:

اهتم فقهاء المسلمين بشرعية الكسب وفرضيته. فعلى سبيل المثال: قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني: (المذهب عند الفقهاء من السلف والخلف رحمهم الله أن الكسب مباح على الإطلاق، بل هو فرض عند الحاجة). وقال أيضاً: (المذهب عند جمهور الفقهاء رحمهم الله من أهل السنة والجماعة أن الكسب بقدر ما لا بد منه فريضة)^(٣٩).

وقال القابسي في الحاوي القدسي: (كسب الحلال بقدر الكفاية من الفرائض)^(٤٠).

والكسب أنواع: فيكون فرضاً؛ وهو بقدر الكفاية في النفقة على نفسه وعياله، وقضاء ديونه، ونفقة مَنْ تجب عليه نفقته. ويكون مستحباً؛ فيما زاد على أقل الكفاية لمواساة الأرحام والفقراء، وهو أفضل من التخلّي لنوافل العبادات البدنية؛ كالصلاة والصوم والحج. ويكون مباحاً؛ للتجمل والتزيّن لإظهار نعم الله تعالى عليه، والتوسعة على العيال، مع سلامة الدين والعرض والمروءة وبراءة الذمة، حيث لا مفسدة فيه. ويكون مكروهاً؛ حين يجمع المال للتفاخر والتكاثر^(٤١).

وهذا كله إذا كان من الحلال، فإذا كان من الحرام فهو السحت المفضي إلى النار. فعن أبي الجويرية قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن الباذق، فقال: سبق محمدٌ ﷺ الباذق: «فما أسكر فهو حرام، قال: الشراب الحلال الطيب، قال: ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث»^(٤٢). وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

٣٩- انظر: الاكتساب في الرزق المستطاب، محمد بن الحسن الشيباني: ص: ١٨ و ٤٢

٤٠- الحاوي القدسي، أحمد بن نوح القابسي، مخطوطة في دار الكتب المصرية، ورقة: ١٥٩/ب - ١٦٠/أ.

٤١- انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية: ٣٤ / ٢٣٥

٤٢- صحيح البخاري: كتاب الأشربة، باب الباذق، ومن نهى عن كل مسكر من الأشربة، رقم الحديث: ٥١٦٩

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عزَّ وجلَّ يعطي الدنيا مَنْ يُحب ومَنْ لا يُحب، ولا يعطي الدين إلا لِمَنْ أحب، فَمَنْ أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يُسلم عبداً حتى يَسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جأره بوأثقه، قالوا: وما بوأثقه يا نبي الله؟ قال: غشمه، وظلمه، ولا يكسب عبداً مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله عزَّ وجلَّ لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(٤٣).

الأسس التي تحكم الكسب في السنَّة النبويَّة المطهَّرة:

لقد أرسى الإسلام مجموعة من الأسس والضوابط لمجالات الكسب نوجزها في القواعد الثلاث التالية:

القاعدة الأولى: قاعدة العمل من أجل الكسب الطيب:

أساس هذه القاعدة قول الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠).
 وقوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).
 وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»^(٤٤).

٤٣- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ١٨٩ / ٦ رقم الحديث: ٣٦٧٢ ورجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات، والصحيح أنه موقوف، وأخرجه الحاكم: ١ / ٣٤ وقال: صحيح الإسناد وصحَّحه، ووافقه الذهبي. وبوأثقه: أي غوائله وشروبه، واحده: باثقة، وهي الداهية. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٦٢ / ١

٤٤- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ١٣٦ / ١٤ رقم الحديث: ٨٤١٢، وإسناده حسن، ورجاله ثقات رجال الشيخين. ومعنى (إذا نصح): أي أخلص في عمله.

وعن صفوان بن سليم يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار، ويقوم الليل»^(٤٥).
وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وأحسبه قال - يشك القعني -: كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»^(٤٦).

القاعدة الثانية: ربط الكسب بالمخاطر والمشقة:

أساس هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو، أحسبه قال: إلى الجبل، فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس»^(٤٧).

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله؛ أعطاه، أو منعه»^(٤٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعدل تمره من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فلَّوه، حتى تكون مثل الجبل»^(٤٩).

٤٥- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة، رقم الحديث: ٥٥٤٧
٤٦- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الساعي على المسكين، رقم الحديث: ٥٥٤٨
٤٧- صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَتَقَلَّبُ أَكْفَانًا﴾: رقم الحديث: ١٣٨٦
٤٨- صحيح البخاري: كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة: رقم الحديث: ١٣٧٧
٤٩- أخرجه أحمد في الموسوعة الحديثية: ١٤ / ١١٥ رقم الحديث: ٨٣٨١ وإسناده صحيح على شرط الشيخين. و(العِدَل) بفتح العين وكسرها: بمعنى المثل، و(الفَلْو) المهر الصغير، وقيل: العظيم من أولاد ذوات الحافر. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣ / ٤٧٤ و ٣ / ١٩١

القاعدة الثالثة: ربط الكسب بالجهد:

أساس هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٣).

وعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألناه عن ذلك فقال: «إني ساببت رجلاً، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: أغيرته بأمه؟ ثم قال: إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»^(٥٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة؛ رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يُعطِ أجره»^(٥١).

وعن المقدم رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٥٢).

في نهاية المبحث الثاني في معايير الكسب نخلص إلى استنباط النتائج التالية:
١- الكسب هو مطلق الطلب والسعي للخير والنماء، والاكْتساب يحمل معنى السعي مشوباً بالإثم والخطيئة. والكسب ملازم للجهد، محفوف بالمخاطر والمشقة.

٢- حرصت السنّة المطهّرة على السعي في الأرض بالكدّ والعمل لعمارته، وتحقيق خلافة الله تعالى في أرضه.

٣- لا تعارض بين السعي لكسب الرزق والأخذ بالأسباب، وبين الإيمان بالله تعالى والتوكّل عليه.

٥٠- صحيح البخاري: كتاب العتق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «العبيد إخوانكم»: رقم الحديث: ٢٣٥٩

٥١- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب إثم من باع حراً: رقم الحديث: ٢٠٧٥.

٥٢- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده: رقم الحديث: ١٩٣٠

- ٤- تعتري الكسب جميع الأحكام التكليفية الشرعية، وهو في الأصل فرضٌ بقدر ما لا بدَّ منه، ويتغيَّر الحكم بتغيُّر الحال.
- ٥- اهتمام السنَّة النبويَّة بالكسب الطيب، إذ هو الأفضل، وتغييرها من الكسب الخبيث.

المبحث الثالث: ضوابط وأخلاقيات العمل في السنَّة النبويَّة

تمهيد:

إن العمل هو كل مجهود بدني، أو ذهني، أو بدني وذهني معاً من أجل إضافة المنفعة لمادة العمل. أما العامل في المفهوم الإسلامي فهو كل من يرتزق من عمل مشروع، وعلى ذلك يكون الحرفيون والمهنيون وشاغلو الوظائف العامة؛ كالعاملين على الصدقة، وولاة الحسبة والبريد، والقضاة، والجنود، وحتى الوزراء والأمراء ذاتهم عمالاً، لأن الجميع بهذه الصفة يعملون بطريقة مباشرة في خدمة المجتمع، ويستوفون منه أجورهم.

وقد أمر الإسلام بالعمل، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥). وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).

كما صنّفه ضمن وسائل التقرب إلى الله تعالى، ونيل محبّته وغفرانه، وعدّه مظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعي.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أخوان على عهد النبي صلى الله عليه وآله، فكان أحدهما يأتي النبي صلى الله عليه وآله، والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: لعلك ترزق به» ^(٥٣).

٥٣- سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم الحديث: ٢٢٦٧ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

واعتبر النبي ﷺ ثمرة الغرس الدائم من الصدقة الجارية، فعن جابر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ دخل على أم مبشر الأنصارية في نخل لها، فقال لها النبي ﷺ: من غرس هذا النخل؟ أم مسلم، أم كافر؟ فقالت: بل مسلم، فقال: لا يغرس مسلم غرساً، ولا يزرع زرعاً، يأكل منه إنسان، ولا دابة، ولا شيء إلا كانت له صدقة»^(٥٤).

ولم تكتف السنّة النبويّة بحث الناس على تنمية أموالهم الخاصة فحسب، وإنما أوصتهم أيضاً في الاتجار بمال اليتيم، فعن مالك أنه بلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «اتجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة»^(٥٥).

وعن مالك أيضاً أنه بلغه أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ «كانت تعطي أموال اليتامى الذين في حجرها من يتجر لهم فيها»^(٥٦).

ذلك أن مال اليتيم يصير إلى النقصان من وجهين: هما الصدقة، والغلاء. كما أنه يصير إلى الزيادة والنماء حال التجارة والاستثمار.

ويعدّ العمل في السنّة النبوية غاية في ذاته، فالإنسان مكلف بالعمل، ولو لم يكن في حاجة شخصية إلى المردود المادي لعمله، أو تزامن وقت أدائه مع وقت نهاية العالم. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»^(٥٧).

وقد تعوّد النبي الكريم ﷺ من معوّقات العمل، فقد كان من دعائه ﷺ ما رواه زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها»^(٥٨).

٥٤- صحيح مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم الحديث: ٢٩٠١

٥٥- موطأ مالك: كتاب الزكاة، باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها، رقم الحديث: ١٢

٥٦- موطأ مالك: كتاب الزكاة، باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها، رقم الحديث: ١٤

٥٧- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ٢٠ / ٢٩٦ رقم الحديث: ١٢٩٨١ وإسناده صحيح على شرط مسلم. والفسيلة: النخلة الصغيرة. القاموس المحيط: ص: ١٣٤٧

٥٨- صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوّد من شرّ ما عمل وشرّ ما لم يعمل، رقم الحديث: ٤٨٩٩

ومما يشرف العمل أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يعملون ويشترون ويبيعون، يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠).

فقد كان نوح عليه السلام نجاراً، بنى أول سفينة عملاقة في التاريخ. قال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّ﴾ (هود: ٣٨).

وكان زكريا عليه السلام نجاراً أيضاً. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكرياء نجاراً» (٥٩).

وتولّى يوسف عليه السلام ما يشبه وزير التموين في أيامنا، فكان أعظم وزراء التموين على مرّ العصور. قال الله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ (يوسف: ٥٥).

كما عمل موسى عليه السلام أجيراً عند شيخ صالح من أهل مدين، وهو النبي شعيب عليه السلام في أشهر أقوال العلماء.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُتَّخَذَ بَيْتُكَ مَسْجُودًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٧﴾ (القصص: ٢٧-٢٨).

أما إدريس عليه السلام فكان حائكاً، وقيل: إنه أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب وحاكها، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، واتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة (١٠).

وكان داود عليه السلام أمهر حداد، وصانعاً للدروع. قال الله تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغًا وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا﴾ (سبا: ١٠-١١).

٥٩- صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب في فضائل زكريا عليه السلام، رقم الحديث: ٤٣٨٤
٦٠- انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١/١١٧ وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/١٣٠ وتفسير النسفي: ٣/٣٨

وقد عمل النبي ﷺ بالتجارة مع عمه أبي طالب، ووكّلتها السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ببعض تجارتها قبل زواجهما، كما رعى الغنم في مكة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرها على قراريط لأهل مكة»^(١).

كما تشهد سيرة الصحابة الكرام، وتاريخ السلف الصالح من هذه الأمة، أنهم كانوا يحترفون شتى أنواع المهن النافعة، ويأكلون من عمل أيديهم، وكان منهم التجار والصنّاع والأجراء.

ويتّسق الأمر مع اتجاه الإسلام إلى تمجيد العمل والحثّ عليه وفق أخلاقيّاته، فينبذ العجز والكسل، ولا يقرر حصة الزكاة لمستحقيها إلا بعد أن تستنفذ طوائف المستفيدين لوسائلها الخاصة في طلب الرزق، فلا يتيسر لها، أو أن تجد ما دون حدّ الكفاية.

وذلك حرصاً منه على تطهير المجتمع من طوائف الكسالى العاطلين عن العمل، العالة على الناس، ورفعهم إلى مصافّ الطبقة العاملة المنتجة.

أخرج الترمذي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ باع حلساً وقدحاً، وقال: مَنْ يشتري هذا الحلس والقدح؟ فقال رجل: أخذتهما بدرهم، فقال النبي ﷺ: مَنْ يزيد على درهم، من يزيد على درهم؟ فأعطاه رجل درهمين فباعهما منه». وفي رواية ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ يسأله، فقال: لك في بيتك شيء؟ قال: بلى، حِلْسٌ نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقدحٌ نشرب فيه الماء. قال: اتنني بهما، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ثم قال: مَنْ يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا أخذهما بدرهم. قال: مَنْ يزيد على درهم؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر

٦١- صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب رعى الغنم على قراريط، رقم الحديث: ٢١٠٢ والقراريط جمع قيراط؛ وهو جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/٤٢ والمصباح المنير: ٢/٦٨٣

بأحدهما طعاماً فأنبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به، ففعل فأخذه رسول الله ﷺ فشدَّ فيه عوداً بيده، وقال: اذهب فاحتطب، ولا أراك خمسة عشر يوماً، فجعل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فقال: اشتر ببعضها طعاماً، وبيعها ثوباً، ثم قال: هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة. إن المسألة لا تصلح إلا للذي فقر مدقع، أو للذي غرم مفضع، أو دم موجه» (١٢).

ولعل من المفيد دراسة هذا الحديث وتحليله، للوقوف على بعض الأخلاقيات التي حثَّ عليها النبي ﷺ واستنباطها:

١- إن على ولي الأمر أن لا يكتفي بإعالة الفقراء، وإنما ينبغي عليه أن يجتهد في توفير فرص العمل للملائمة لهم، ودلائتهم عليها.

٢- إن المسألة لا تحلُّ إلا مع الضرورة الملحة. وواضح أن النبي ﷺ لو تصدَّق على السائل لكفاه زمناً يعود بعده للسؤال. ولو قال له: اذهب وبعْ حِلْسَكَ وقدحك، فإن الأمر لم يكن ليخلو من أحد وجهين:

الأول: ألا يبيعهما بالمرة، لشدة حاجته إليهما.

الثاني: أن يبيعهما بدرهم واحد ينفقه على أهله، ثم يعود للمسألة.

ولكنَّ فِعْلَ النبي ﷺ مع الأنصاري قد حقق ما يلي:

١- توجيهه إلى ما تحت يده من متاع، يمكن الاستغناء عنه مؤقتاً.

٢- عرض هذا المتاع للبيع بالمزايدة، لتحقيق أعلى سعر ممكن للبيع.

٣- تقسيم حصيلة البيع بين متطلبات الاستهلاك والاستثمار. وواضح أن رأس المال المستثمر عند بدء النشاط، وهو درهم واحد، قد أغلَّ بالمجهود البشري

٦٢- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب البيوع، باب ما جاء في بيع من يزيد، رقم الحديث: ١١٣٩ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، لا نعرفه إلا من حديث الأخضر بن عجلان، وعبد الله الحنفي الذي روى عن أنس هو أبو بكر الحنفي، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، لم يروا بأساً ببيع من يزيد في الغنائم والموارث. وقد روى هذا الحديث المعتمر بن سليمان، وغير واحد من كبار الناس، عن الأخضر بن عجلان (و. وأخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب التجارات، باب المزايدة، رقم الحديث: ٢١٩٨ والجلس: الكساء الذي يلي ظهر الدابة تحت القتب. فأنبذه: ألقه، نكتة: نقطة، ومدقع: شديد يقضي بصاحبه إلى الدقعاء، وهو التراب، وقيل: هو سوء احتمال الفقر. والمفضع: الشديد الشنيع. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٥٩/٣.

قيمة زائدة قدرها عشرة دراهم خلال مدة الاستثمار، وهي خمسة عشر يوماً. وهذه القيمة الزائدة ينفق المستثمر الرشيد عادة بعضها فقط لسدّ حاجاته الاستهلاكية، وإنما يحتجز جزءاً منها لتجديد وتوسيع نشاطه، وشيئاً فشيئاً ينشأ ما يطلق عليه في المصطلح الاقتصادي اسم (التراكم الرأسمالي)، ولكنه ليس كمثلته في الاقتصاد الوضعي، لأنه ينبغي أن ينشأ من حلال، وأن ينفق في الحلال، فهو تراكم للخيرات، وليس تراكماً لأسباب الطغيان والفساد.

٤. معالجة الرجل بالعودة بعد شراء آلة العمل، ليتأكد من تنفيذ وصيته، ويوجهه إلى العمل الذي يناسبه، ثم إعطاؤه الزمن الكافي لظهور ثمرة العمل.

٥. مطالبة الرجل بالعودة بعد فترة من بدء نشاطه العملي، لحفزه على بذل المزيد من الجهد في عمله، ومتابعة أحواله، وتوجيهه إن لزم الأمر، وإثبات جدوى العمل لجماعة المسلمين.

إن الاقتداء بهذه الواقعة الباهرة يحقق الكرامة لأفراد المجتمع بكفهم عن المسألة، ورفعهم إلى مصافّ العاملين الشرفاء.

وقد اشتهر في الأمثال الحديثة قولهم: (إذا أعطيت رجلاً سمكة فقد ضمنت له قوت يومه، أما إذا علّمته كيف يصطاد فإنك تضمن له القوت طول حياته).

بعد هذا الاستعراض العام لمكانة العمل وحكمه وفضله ورتبته في السنّة النبويّة، يمكننا تحديد أهمّ ضوابط وأخلاقيّات المهن والعمل في السنّة النبويّة المطهّرة:

١- حلُّ المكسب:

فيجتهد المسلم في سعيه وكده أن يرتزق الحلال، ويتحرّى الكسب منه، ويتجنب كلّ ما فيه شبهة، فضلاً عن اكتساب الحرام وجنيه. إذ أن اكتساب الحرام وجنيه سبيلٌ إلى النار وجحيمها.

وفي أمر الشبهة وولوجها وجه النبي ﷺ في سنّته وهديه الشريف المسلمين إلى اتقائها، والبعد عنها، براءة للدين، وحماية للذمّة.

ففي الحديث الصحيح عن الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعته يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: - وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه - «إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام؛ كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٦٣).

إضافة إلى أن حِلَّ المكسب من أهم ما يُقرب العبد من ربه، فيجعله مقبولاً عنده، مُجاب الدعوة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ . ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأني يُستجاب لذلك»^(٦٤).

وقد عدَّ النبي صلى الله عليه وسلم التساهل في تحري الحلال، وعدم المبالاة في ذلك من علامات آخر الزمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يأتي على الناس زمان، لا يبالي المرء ما أخذ منه؛ أمن الحلال، أم من الحرام»^(٦٥).

٢- تجنّب أكل الحرام بكلِّ أشكاله:

ومن أهم ما حذرت منه السنّة النبويّة أكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل بأي نوع من المكاسب الباطلة؛ من قمار، ورشوة، وغش، وغرر، ونجش، وغيره . وقد عدَّ أكل الربا مرتكباً لكبيرة من الكبائر، وجاء التحريم القاطع له صريحاً،

٦٣- صحيح مسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث: ٢٩٩٦
٦٤- صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وترتيبها، رقم الحديث: ١٦٨٦
٦٥- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب من لم يبالي من حيث كسب المال، رقم الحديث: ١٩١٨

ومحذراً منه، ومنفراً. فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ (البقرة: ٢٧٥-٢٧٦).

كما أذن الله تعالى المرابي بحرب في قرآنه، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٦﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِمَّ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾ (البقرة: ٢٧٦-٢٧٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(٦٦).

كما شارك في الإثم واللعن والطرده من رحمة الله تعالى كل مساهم في العملية الربوية. فعن جابر رضي الله عنه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»^(٦٧).

٣- عدم الغش والغرر والاحتكار:

فبيتعد المسلم في عمله عن كل ما يلوّث لقمته من جنبي للحرام، فلا يخدع البائع المشتري، ولا يتحايل عليه بأساليب يظن أنها من فنون التجارة، إنما يسعى جهده لكي يخدمه بنصحه إلى الأصلاح، ويقدم الحاجة بعيوبها إن كانت فيها، بعيداً عن كل ألوان الغش والخداع، متذكراً أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعلن البراءة من الغاش لقومه.

٦٦- صحيح البخاري: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتِنِمْ ظُلْمًا﴾ رقم الحديث: ٢٥٦٠.

٦٧- صحيح مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن أكل الربا وموكله، رقم الحديث: ٢٩٩٥.

وقد جاءت السنة النبوية المطهرة صريحة في النهي عن الغرر والنجش. فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ «نهى عن النجش»^(٦٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ «عن بيع الحصاة، وعن بيع الغرر»^(٦٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: « ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام، كي يراه الناس! مَنْ غَشَّ فليس مني»^(٧٠).

كما يسعى المسلم في عمله إلى عدم استغلال ظروف المحتاجين، وذلك باحتكار السلعة طمعاً في شحها في السوق ليتحكّم بسعرها، فذاك خلق ينأى المسلم بنفسه عنه، إذ هو محض الضرر بالآخرين، والخطأ في التصرف معهم. فعن معمر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يحتكر إلا خاطيء»^(٧١).

وعن سعيد بن المسيب عن معمر بن عبد الله بن نضلة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحتكر إلا خاطيء، فقلت لسعيد: يا أبا محمد إنك تحتكر! قال:

٦٨- صحيح البخاري: كتاب الخيل، باب ما يكره من التناجش، رقم الحديث: ٢٧٨٣ والنجش: أن يمدح السلعة لينفقها ويروجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢١ / ٥

٦٩- صحيح مسلم: كتاب البيوع، باب بطلان بيع الحصاة والبيع الذي فيه غرر، رقم الحديث: ٢٧٨٣ وبيع الغرر: ما كان له ظاهر يغر المشتري، وباطن مجهول. وقال الأزهري: بيع الغرر ما كان على غير عهدة ولا ثقة، وتدخل فيه البيوع التي لا يحيط بكنهها المتبايعان من كل مجهول. وبيع الحصاة: أن يقول البائع أو المشتري: إذا نبذت إليك الحصاة فقد وجب البيع. وقيل: هو أن يقول: بعثك من السلع ما تقع عليه حصاتك إذا رميت بها، أو بعثك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك، والكل فاسد لأنه من بيوع الجاهلية، وكلها غرر لما فيها من الجهالة. وجمع الحصاة: حصى. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٥٥ / ٣ و ٣٩٨ / ١

٧٠- صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا، رقم الحديث: ١٤٧. والصبرة: الطعام المجتمع كالكومة، وجمعها: صبر. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٩ / ٣

٧١- صحيح مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، رقم الحديث: ٣٠١٣

ومعمر قد كان يحتكر»^(٧٢).

٤- البكور والتنجيز:

وقد حثَّ السَّنةُ المطهَّرة على اغتنام الوقت والفراغ فيه، باعتباره أحد نعمتين قلَّ مَنْ يُثْمَنُ قيمتهما، إلى جانب نعمة الصحة والعافية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»^(٧٣). وخير الأوقات بركة وإنتاجاً هو البكور وأول النهار، إذ هو القمة في النشاط، والذروة في الإنتاج. لذا فقد دعا رسول الله ﷺ لأُمَّته بالبركة فيه، لما له من بالغ الأثر في النفع والخير والعطاء.

فعن صخر الغامدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»، قال: وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم أول النهار، وكان صخر رجلاً تاجراً، وكان إذا بعث تجارة بعثهم أول النهار، فأثرى وكثر ماله»^(٧٤). وجاء فيما كتبه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تؤخر عمل اليوم، فتنهال عليك الأعمال فتضيع»^(٧٥).

٧٢- سنن الترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في الاحتكار، رقم الحديث: ١١٨٨. قال أبو عيسى: وإنما روي عن سعيد بن المسيب أنه كان يحتكر الزيت والحنطة ونحو هذا. قال أبو عيسى: وفي الباب عن عمر وعلي وأبي أمامة وابن عمر، وحديث معمر حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم؛ كرهوا احتكار الطعام، ورخص بعضهم في الاحتكار في غير الطعام، وقال ابن المبارك: لا بأس بالاحتكار في القطن والسختيان ونحو ذلك. قال النووي: الاحتكار المحرَّم هو في الأقوات خاصة، بأن يشتري الطعام في وقت الغلاء، ولا يبيعه في الحال، بل يدخره ليُغْلُو، فأما إذا جاء من قرية، أو اشتراه في وقت الرُّخْص وأدخره وباعه في وقت الغلاء، فليس باحتكار، ولا تحريم فيه، وأما غير الأقوات فلا يحرم الاحتكار فيه بكل حال. انتهى. انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: ٤ / ٤٠٤.

٧٣- صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم الحديث: ٥٩٣٣.

٧٤- أخرجه أحمد في المسند بروايات عدة، وفيها: (وكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضعه). الموسوعة الحديثية: ٢ / ٤٣٩ رقم الحديث: ١٣٢ وإسناده حسن لغيره. وأخرجه الترمذي في سننه: كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير في التجارة، رقم الحديث: ١١٣٣ قال أبو عيسى: حديث صخر الغامدي حديث حسن، ولا نعرف لصخر الغامدي عن النبي ﷺ غير هذا الحديث، وقد روى سفيان الثوري عن شعبة عن يعلى بن عطاء هذا الحديث. قال: وفي الباب عن علي وابن مسعود وبريدة وأنس وابن عمر وابن عباس وجابر. وأخرجه أبو داود في سننه: كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، رقم الحديث: ٢٢٣٩ وابن ماجه في سننه: كتاب التجارات، باب ما يُرجى من البركة في البكور، رقم الحديث: ٢٢٢٧. و(البكور): أول الوقت. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ١٤٨.

٧٥- تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي: ص: ١٥١

ومن وصايا أبي بكر رضي الله عنه إلى عمر رضي الله عنه عندما حضرته الوفاة: «إن لله حقاً بالنهار لا يقبله في الليل، وله حقٌ بالليل لا يقبله بالنهار»^(٧٦).

٥- الأمر بإتقان العمل:

فمن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبوح، وليُحَدِّدْ أحدكم شفرته، فليُريحْ ذبيحته»^(٧٧). ولا يترك الإسلام أمره بالإحسان وإتقان العمل تابعاً للهوى والأريحية الشخصية، وإنما يخضعه لثلاث رقابات متوازية؛ بمعنى أنها تتم في نفس الوقت بتوازن وتكامل وتساوٍ، وهذه الرقابات هي:

أ- رقابة ذاتية:

وتتأتى هذه الرقابة من قبل النفس اللوامة على ذاتها، والنفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها لوماً شديداً على ارتكاب الشر، أو التقصير في عمل الخير، وربما تكون هي الضمير في المصطلحات المعاصرة. ولا ارتفاع مكانة هذه النفس عند بارئها، فقد أقسم الله تعالى بها قسماً مؤكداً، فقال عز وجل: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ أَلْقَيْتَهُ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ ۗ﴾ (القيامة: ١-٢). ويقول صلى الله عليه وسلم: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»^(٧٨).

٧٦- المرجع السابق: ص: ٧١

٧٧- صحيح مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبوح والقتل وتحديد الشفرة: ٣٦١٥

٧٨- سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث: ٢٢٨٣ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. قال: ومعنى قوله: (مَنْ دَانَ نَفْسَهُ) يقول: حَاسِبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَحَاسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحَاسِبُوا، وَتَزِينُوا لِلْعُرْضِ الْأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخْفَى الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسِبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا. وَيُرْوَى عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: لَا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ، كَمَا يَحَاسِبُ شَرِيكَه: مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ؟. وَمَعْنَى (أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا): جَعَلَ نَفْسَهُ تَابِعَةً لِهَوَاهَا يَعْطِيهَا كُلَّ مَا تَهْوَى وَتَشْتَهِي. (وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ): أَي كَرِيمٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ غَنِيٌّ عَنْهُ وَعَنْ عَمَلِهِ فَلَا يَعْاقِبُهُ، بَلْ يَدْخُلُهُ الْجَنَّةَ، وَيَعْطِيهِ مَا يَشْتَهِي. وَمَعْنَى (الْكَيْسُ): الْعَاقِلُ. النَّهَابَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ: ٢١٧ / ٤

وهذه الرقابة هي أشدُّ الرقابات الإسلامية فعالية، لأنها تنبع من يقين النفس المؤمنة برقابة خالقها عزَّ وجلَّ، وأن هذه الرقابة لا تدانيها رقابة بشر، لأنها تكشف خفايا الأعمال، والنوايا الكامنة وراء كل عمل.

ب - رقابة حكومية:

لقد برزت أولى معالم نظام الحسبة منذ عصر النبوة، ثم تطور فيما بعد، حتى صار نظاماً دقيقاً متكاملًا، له أصوله العلمية والشرعية. وقد ظلَّ والي الحسبة يمارس عمله في مصر حتى أيام محمد علي باشا الكبير في القرن الثالث عشر الهجري، كما استمرَّ وبقي إلى يومنا هذا في المغرب، كذلك أخذه ملوك أسبانيا المسيحية من مسلمي الأندلس، وما زال يمارس نشاطه في أسواق المدن الأسبانية إلى الآن، ويعرف باسم (الموتائن)^(٧٩).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالمعروف، وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر، وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى»^(٨٠).
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»^(٨١).

ج - رقابة شعبية:

وتكون من قبل عموم المؤمنين بعضهم على بعض، وعلى من ولي من أمرهم شيئاً، امثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤). وما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده،

٧٩- المسجد والحياة الإسلامية، بحث للدكتور محمد توفيق بليغ، مجلة عالم الفكر الكويتية، عدد إبريل، يونيو ١٩٨٠ ص: ٢٢.

٨٠- صحيح البخاري: كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته، رقم الحديث: ٦٦٥٩

٨١- سنن الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم الحديث: ٢١٠٠ قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي أمامة، وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان»^(٨٢).

٦- بيان أجر العامل، وتعيين حقوقه:

وتهتمُّ السنَّة النبويَّة بهذا الجانب، وتوليه مزيد العناية في دعوتها إلى حفظ حق العامل المادي والنفسي، والحضُّ على التعامل معه من منظور إنساني أخلاقي، ينمُّ عن إيمان وخوف من الله تعالى، وبُعدٍ عن أخلاق الجاهلية من استعلاء وغرور وظلم. فجاءت السنَّة المطهَّرة تحضُّ على بيان حق العامل، وإعطائه أجره المستحق ابتداءً، أو على الأقل في أثناء العمل، بعيداً عن بخسه حقّه، أو تجاهله لمستحقّه.

وقد عنون البخاري في كتاب الإجارة من صحيحه لبابين؛ أحدهما: باب إثم مَنْ منع أجر الأجير^(٨٣)، والثاني: باب من استأجر أجيراً فترك أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد، أو مَنْ عمل في مال غيره فاستفضل^(٨٤).

كما عقد في ذات الكتاب من صحيحه باباً لأجر السمسرة، وروى فيه عن النبي ﷺ قوله: «المسلمون عند شروطهم»^(٨٥).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «نَهَى عَنِ اسْتِئْجَارِ الْأَجِيرِ حَتَّى يَبِينَ لَهُ أَجْرُهُ، وَعَنِ النَّجْشِ، وَاللَّمْسِ، وَالِقَاءِ الْحَجَرِ»^(٨٦).

٨٢- صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم الحديث: ٧٠

٨٣- سيأتي الحديث بتمامه في نهاية هذه الفقرة.

٨٤- الحديث هو حديث الثلاثة الذين سدَّت الصخرة عليهم باب الغار، وهو طويل، والشاهد فيه: (وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراً، فأعطيتهم أجراً غير رجل واحد ترك الذي له وذبح، فتمتَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله، أذليَّ أجزري، فقلت له: كلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرفيق، فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذته كله فاستأقّه، فلم يترك منه شيئاً. اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون). صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب مَنْ استأجر أجيراً فترك أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد، أو مَنْ عمل في مال غيره فاستفضل. رقم الحديث: ٢١١١

٨٥- صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب أجر السمسرة.

٨٦- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ١١٦/١٨ رقم الحديث: ١١٥٦٥. وهو صحيح لغيره. (والنجش): أن يمدح السلعة لينفقها ويروجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها. (واللمس): أن يقول: إذا لمست ثوبي أو لمست ثوبك فقد وجب البيع. وقيل: أن يلمس المتاع من وراء ثوب، ولا ينظر إليه، ثم يوقع البيع عليه، ونهى عنه لأنه غرر. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٦٩/٤ و ٢١/٥

وتذكرنا هذه التوجيهات بما كانت عليه أخلاق الأنبياء العملية في هذا الجانب من خلال حوار النبي شعيب والنبي موسى عليهما السلام حول الإجارة ومردودها المادي كمهر يقدم لعقد نكاح الابنة؛ فبين له شروط العمل، ومدته، والأجر المستحق، وطريقة السداد، وفتح المجال للاستزادة من الخير والإنتاج، مع بالغ العطف والرحمة والشفقة في التكليف، ثم جعل الله رقيباً ووكيلاً على إكمال العقد وإمضائه، ليربِّي عند المتعاقدين الشعور بالرقابة الإيمانية، والتي يقضي توافرها على كل خصام وخلاف، حين يستشعر الجميع عظمة الله تعالى وخشيته في سائر التصرفات. قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ إِحَدَثُهَا يَتَأْتِ اسْتَفْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَنِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ (القصص: ٢٦-٢٨).

وعن عمر بن حفص قال: حدثنا أبي حدثنا الأعمش عن المعرور هو ابن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأيت عليه برداً، وعلى غلامه برداً، فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوباً آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: «أسأبت فلاناً؟ قلت: نعم، قال: أفنلت من أمه؟ قلت: نعم، قال: إنك امرؤ فيك جاهلية، قلت: على حين ساعتني هذه من كبر السن؟ قال: نعم، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه»^(٨٧).

وقد حذرت السنة النبوية المطهرة من هضم حق العامل، وجاء التحذير بتغليظ العقوبة يوم القيامة.

٨٧- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن، رقم الحديث: ٥٥٩٠

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعْطِه أجره»^(٨٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَطْلُ الغني ظُلمٌ، فإذا أُتبع أحدكم على مليٍّ فليتبّع»^(٨٩).

ولا شك أن التقيد بهذه الأخلاقيات في استئجار الأجراء سبيل إلى كسب الثقة بين الخدم والمخدومين، وطريق لزيادة الإنتاج، وباب لاغتنام ودّ الطرفين في الحرص على الاستمرارية والعطاء، فيُقضى بذلك على البطالة، ويعمُّ الاستقرار النفسي للطرفين، وينافس العامل على التفاني في العمل حرصاً عليه، بدافع المحبة والوفاء، حين يعلم حفظ حقه، واحترام جهده، وتقدير عطائه.

٧- الرفق والأمانة:

وتزخر السنّة المطهّرة بنماذج رائعة في هذا الباب، ويكفي أن النبي ﷺ قد دعا لولائه بالخير حين يرفقون برعيّتهم، كما دعاهم إلى الرفق بالرعية في تعاملهم معهم، وجعل الراعي مؤتمناً على رعيته يسوسهم بالرحمة، ويرعى مصالحهم بكل لين ومودة.

فعن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة رضي الله عنها أسألها عن شيء، فقالت: بمن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمينني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمّتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق

٨٨- صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب إثم من منع الأجير أجره، رقم الحديث: ٢١٠٩
٨٩- صحيح البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم الحديث: ٢١٢٥ و(المطل):
التسوية بالعدّة والدين. القاموس المحيط: ص: ١٣٦٦

عليه، ومَنْ ولي من أمر أمتي شيئاً ففرق بهم فارفق به»^(٩٠).
وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(٩١).
وعن جرير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ يُحَرِّمَ الرَّفْقَ يُحَرِّمَ الْخَيْرَ»^(٩٢).
وقد عنون البخاري في كتاب الإجارة من صحيحه باب استئجار الرجل الصالح: وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، والخازن الأمين، ومَنْ لم يستعمل مَنْ أَرَادَهُ^(٩٣).
وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «الخازن الأمين الذي يؤدي ما أُمر به طيبةً نفسه أحدُ المتصدقين»^(٩٤).

٨- الوسطية والاعتدال في الإنفاق:

وتمثل الوسطية والاعتدال سمة المسلم في منهج حياته كلها، حتى في أموره اليومية؛ من وضوء وطعام وشراب ومتع الحياة الدنيا، فنجد أن الإسلام يدعو المسلم إلى التمتع بها في حدود الاعتدال، بعيداً عن التبذير والإسراف.
وقد أخرج البخاري في صحيحه: قال النبي ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة». وقال ابن عباس: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مخيلة»^(٩٥).
وهذا التوجيه النبوي الشريف يتوافق مع منهج القرآن الكريم ويعضده في مبدأ الاقتصاد والاعتدال، حين وجّه الإنسانية كلها إلى التمتع بالطيبات في

٩٠- صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم الحديث: ٣٤٠٧
٩١- صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم الحديث: ٤٦٩٨ ومعنى (شانه) من (السَّيْنِ)، وهو العيب. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢ / ٥٢١
٩٢- صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم الحديث: ٤٦٩٤
٩٣- صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب استئجار الرجل الصالح.
٩٤- صحيح البخاري: كتاب الإجارة، باب استئجار الرجل الصالح، رقم الحديث: ٢١٠٠
٩٥- صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب وقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾

وسطية وتوازن، فقال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ (الأعراف: ٣١-٣٢).

حتى إن النبي ﷺ رخص لولي اليتيم الأكل من ماله حين الضرورة، بشرط الاقتصاد وعدم التبذير. فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم، فقال: «كُلْ من مال يتيمك غير مسرف، ولا مبذّر، ولا متأنثل مالا، ومن غير أن تقي مالك، أو قال: تفدي مالك بماله»، شكّ حسين^(٩٦).

٩- صدق المعاملة، وسماحة المتعاملين:

فقد جاءت السنة النبوية تحضُّ على السماحة واللين بين المتعاملين بيعاً وشراءً واقتضاءً، وتحثهم على البرِّ، وتدعو لهم بالرحمة والخير، كما تعلن حبَّ الله لهم، وأعظمُ بها من منقبة؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً، سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»^(٩٧).

كما حضت السنة المطهرة على استشعار ظروف المتعاملين، والرفق بهم في أحوالهم الخاصة؛ فيُنظَرُ الموسر، ويُتجاوز عن المعسر، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، قالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: كنت أمر فتياي أن يُنظروا ويتجاوزوا عن الموسر، قال: فتجاوزوا عنه. قال أبو عبد الله وقال أبو مالك عن ربعي: كنت أيسرُّ على الموسر، وأنظرُ المعسر. وتابعه شعبة عن عبد الملك عن ربعي، وقال أبو عوانة عن عبد الملك عن ربعي: أنظرُ الموسر، وأتجاوز عن المعسر. وقال نعيم بن أبي هند عن ربعي: فأقبلُ من

٩٦- أخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ١١ / ٥٩٤ رقم الحديث: ٧٠٢٢، وإسناده حسن. والمبذّر: المسرف في النفقة. والمتأنثل مالا: أي غير جامع، يقال: مال مؤنثل، ومجد مؤنثل: أي مجموع ذو أصل، وأثلة الشيء أصله. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ٢٣ و ١ / ١١٠
٩٧- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع: رقم الحديث: ١٩٣٤

الموسر، وأتجاوز عن المعسر»^(٩٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان الرجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال: فلقى الله فتجاوز عنه»^(٩٩).

ويبلغ الأمر من أهمية التزام التاجر في تعاملاته المالية اليومية، والمتمثلة لمنهج السنة النبوية؛ من صدق وأمانة واستقامة، وبُعد عن كل معاني الكذب والمكر والخداع أن رفع النبي الكريم ﷺ مقام هذا التاجر إلى رتبة الأنبياء يوم القيامة، رغم أنه يسعى لتحصيل دنياه، وما ذاك إلا توجيه وترغيب في هذا المقام، لما للأخلاق الإسلامية من اعتبار في تمييز المسلم عن غيره، حين يجعل من حياته الدنيوية سبيلاً للتقرب إلى الله تعالى بالسلوك الإيماني الخالص، والأخلاق الإسلامية الرفيعة. فعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»^(١٠٠).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً ذكر للنبي ﷺ أنه يخدع في البيوع، فقال: «إذا بايعت فقل: لا خلافة»^(١٠١).

١٠- المساءلة عن العمل يوم القيامة:

ولا بدّ للمسلم من مراجعة حساب ووقفه مساءلة بينه وبين نفسه بين الحين والآخر، تهيؤاً للحساب الأكبر، يسائل نفسه ويراجعها، فيصحح من أخطائه، ويعزز من إيجابياته، ويتلافى قصوره في كل ما قدّم لنفسه أو آخر، وهذا في شتى أموره الحياتية والسلوكية، وبالأخص فيما يتعلق بعلاقاته مع الآخرين، وتعاملاته

٩٨- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب من أنظر موسراً، رقم الحديث: ١٩٣٥

٩٩- صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث: ٣٢٢١

١٠٠- سنن الترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار، رقم الحديث: ١١٣٠ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الثوري عن أبي حمزة، وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر، وهو شيخ بصري، حدثنا سويد بن نصر أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سفیان الثوري عن أبي حمزة بهذا الإسناد نحوه.

١٠١- صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب ما يكره من الخداع في البيوع، رقم الحديث: ١٩٧٤، ومعنى الخلافة: الخداع. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٥٨/٢

الدنيوية والمادية معهم؛ فيرد الظلامه، ويعيد الحق لأهله، ويتنازل عن حقه في سبيل حفظ حق أخيه، ويعفو عن ظلمه تسامحاً في سبيل الله تعالى، وطلباً لرحمته يوم القيامة.

فعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»^(١٠٢).

وقد وعد الله تعالى بالحساب، ووعدّه سبحانه حقّ لا يُخلف في يوم الحساب الأكبر، حيث قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عذب. فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ تُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: ٨)، فقال: ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نُوقِش الحساب يوم القيامة عذب»^(١٠٣).

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»^(١٠٤).

وقد بَوَّب البخاري لذلك باباً، فقال: باب من قال: إن الإيمان هو العمل، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الزخرف: ٧٢).

وقال عدّة من أهل العلم في قول الله تعالى: ﴿فَوَرَتِكَ لِنَسَلَكْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٩٢-٩٣)، عن قول لا إله إلا الله، وقال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات: ٦١)^(١٠٥).

١٠٢- سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث: ٢٢٨٣. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. وقد سبق شرحه في الفقرة الخامسة من المبحث.
 ١٠٣- صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، رقم الحديث: ٥١٣٢.
 ١٠٤- سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم الحديث: ٢٣٤١. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
 ١٠٥- صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل.

١١- احترام حقوق الجوار والآخرين:

ونجد في السنّة المطهّرة أيضاً من التوجيهات في الحرص على حق الآخر؛ سواء كان جاراً، أو زميل عمل، أو شريك تجارة، أو صديق سفر، أو أي شخص تربطك به علاقة اجتماعية ما، فتأتي السنّة النبويّة تؤكد حق الآخر، وتحضُّ على احترامه وحفظه ورعايته؛ من ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»^(١٠٦).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب بعضكم على خطبة بعض»^(١٠٧).

وقد شرع الإسلام حقّ الشفعة، واعتبره حقاً شرعياً للجار في أولويته على الغريب البعيد ببيع أو شراء أو إيجار أو استحقاق أي منفعة، وما ذاك إلا من باب الحرص على الحقوق، واحترام الصلات الاجتماعية، تجنّباً لأي منازعات متوقّعة. فعن عمرو بن الشريد، قال: جاء المسور بن مخرمة، فوضع يده على منكبي، فانطلقت معه إلى سعد، فقال أبو رافع للمسور: ألا تأمر هذا أن يشتري مني بيتي الذي في داري؟ فقال: لا أزيد على أربع مائة؛ إما مقطّعة، وإما منجمّة، قال: أعطيت خمس مائة نقداً فمنعته، ولولا أنني سمعت النبي ﷺ يقول: «الجار أحق بصقبة ما بعثته، أو قال: ما أعطيتكه. قلت لسفيان إن معمرأ لم يقل هكذا، قال: لكنه قال لي هكذا. وقال بعض الناس: إذا أراد أن يبيع الشفعة فله أن يحتال حتى يبطل الشفعة، فيهب البائع للمشتري الدار، ويحدها ويدفعها إليه، ويعوضه المشتري ألف درهم، فلا يكون للشفيع فيها شفعة»^(١٠٨).

وهكذا نجد أن السنّة النبويّة قد حافظت على حقوق الآخرين، وأمرت باحترامها، وحذّرت من التعدي عليها، وجعلت التراضي أساس التعامل، فقال

١٠٦- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم الحديث: ٥٥٥٦
١٠٧- صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن، رقم الحديث: ٢٥٣٠.
١٠٨- صحيح البخاري: كتاب الحيل، باب في الهبة والشفعة، رقم الحديث: ٦٤٦٢ والصقّب: القرب والملاصقة، ويروى بالسین، والمراد به الشفعة. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤١/٣

تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً
عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩).

١٢- توأمة الأخذ بالأسباب، والتوكل على الله تعالى:

مما تميزت به الشريعة الإسلامية أن نظرت إلى الحياة الدنيا من منظور عقدي قائم على الإيمان بالله تعالى، والتوكل والاعتماد عليه، مع الأخذ بالأسباب المادية. وتتجلى هذه العقيدة واقعاً ملموساً في أمر العمل، فقد جاءت السنة النبوية تدعو إلى العمل وتحث عليه، وتأمراً بالأخذ بالأسباب الظاهرة، مع كامل التفويض بالنتائج إلى الله تعالى توكلأً واعتماداً عليه سبحانه، وترفض بالمقابل السلبية في هذا الجانب من تواكل وتقاعس، وترك للأسباب، والاعتماد على الحظ والصدفة، والتلوُّم على ما فات.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يُرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»^(١٠٩).
وعن علي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة، ومقعده من النار، فقلنا: يا رسول الله! أفلا نتكل؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٦٠﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦١﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ١٠٥-١١٠)^(١١٠).

١٣- خفض الصوت، وعدم السخب في السوق:

فقد جاء النهي في السنة النبوية عن رفع الصوت بالسوق، لما في ذلك من الخروج عن الأدب العام، إذ أن سمة المسلم في حياته هي خفض الصوت

١٠٩- أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم الحديث: ٢٢٦٦ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو تميم الجيشاني اسمه عبد الله بن مالك. وأخرجه أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ١/ ٤٣٨ رقم الحديث: ٣٧٠ والحديث صحيح. وأخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم الحديث: ٤١٥٤ والمعنى: تغدو بكرة وهي جياح، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ٨٠.
١١٠- صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿وَأَمَّا مَنْ يَحِلُّ وَأَسْتَفْتَىٰ﴾، رقم الحديث: ٤٥٦٦.

والجناح للمسلمين . كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان: ١٩) . ويتعين هذا التوجيه في الأسواق عامة، إذ هي مواطن يكثر فيها هذا الهرج والسخب والخصام، فلزم التنبيه عليه. فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم ثلاثاً، وإياكم وهيئات الأسواق»^(١١١).

وفي صفة النبي ﷺ في التوراة: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٥٤) . قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأمم، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكّل، ليس بفظاً، ولا غليظاً، ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عمياً، وأذناً صماً، وقلوباً غلفاً»^(١١٢).

١٤- الإنتاجية: (العمل، وعدم التكاثر):

إن من أشهر شعار هذا الدين أنه دين العمل والإنتاج، ينبذ الكسل، ويرفض السلبية، بل يعدّ العمل أيّاً كانت صفته شرفاً لصاحبه، طالما أنه يقدم خيراً، ويمنع شراً، ويدفع إثمًا، ويضيف منفعة، ويزيد كسباً، ويحقق إنتاجاً، ويعفّ عن المسألة، ويقضي على البطالة، وهو بهذه المفاهيم السامية عبادة يؤجر المسلم عليها، وطاعة يثاب عليها، وذلك إن حرّرت النية، وصدق في الطلب، وأخلص القصد لوجه الله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥) .

١١١- صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، رقم الحديث: ٦٥٥. (هيشات الأسواق): المنازعة والخصومات وارتفاع الأصوات. ومنه الحديث: (ليس في الهيشات قود) يريد القتل يُقتل في الفتنة لا يدرى من قتله، ويقال بالواو أيضاً. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٨٧ / ٥
١١٢- صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ، رقم الحديث: ٤٤٦١. (السخب) والصخب بمعنى الصياح والضجة واضطراب الأصوات للخصام. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢ / ٣٤٩، و٣٤١.

وفي السنّة النبويّة نماذج من هذه الصفة؛ فهذا رسول الله ﷺ في هديه كان أبعد ما يكون عن الكسل، حتى في مشيه وقصده.
فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ «كان إذا مشى مشى مجتمعاً، ليس فيه كسل»^(١١٣).

١٥- الالتزام بالقوانين الإجرائية والتقييد بالنظام:

ومما لا شك فيه أن كل ميدان من ميادين الحياة لا يؤتي ثماره إلا إذا كان رؤّاداً منضبطين بقواعده وضوابطه ونظامه العام. وميدان التجارة فسيح كثير التشعبات، لا يمكن لِرِوَالِحِ النجاح إلا إذا التزم قوانين التجارة، وقواعدها الإجرائية، وإلا أصبحت الأمور فوضى تنذر بشؤم الفشل لمرتابيها. وقد جاءت السنّة المطهّرة بأحكام قائمة على قواعد تشريعية أصولية؛ أهمها قاعدة: (درء المفسد مقدّم على جلب المصالح).

في نهاية المبحث الثالث في ضوابط وأخلاقيات العمل يمكن استخلاص النتائج التالية:
١- تحظى السنّة النبويّة المطهّرة باهتمام بالغ في احترام حقوق الآخرين وحفظها، وحذرت من تجاوزها، معتبرة ذلك من الإثم الكبير. فالعمل شراكة مع الآخرين بعقد وضوابط والتزام، من هنا حرّمت السنّة المطهّرة البخس والغش والظلم والنجش والاحتكار، وسائر المخالفات المتجاوزة للحقوق الإنسانية.

٢- تدعو السنّة الشريفة إلى أخلاقيّات المهن والعمل من خلال هدي النبي الكريم ﷺ في قوله وفعله وتقريره، بما ينيّر الطريق لكل عامل في مزاولة مهنته أن يجعل من هدي السنّة النبويّة نبراساً يحقق فيه البركة والخير والسعادة، لنفسه ومجتمعه على حد سواء.

٣- تسعى السنّة النبويّة المطهّرة إلى تعميق الصلة بالله تعالى من خلال أخلاقيّات

١١٣- أخرجه الإمام أحمد في المسند: الموسوعة الحديثية: ٥ / ١٦٠ رقم الحديث: ٣٠٣٣ وهو صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. ومعنى (مجتمعاً): أي شديد الحركة، قوي الأعضاء، غير مسترخ في المشي. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ٢٩٧

المهن، بحيث تربّي في قلب المسلم رقابة الله تعالى الذاتية في أداء العمل، وتدعوه إلى اعتبار العمل عبادة وطاعة يتقرب العامل فيه إلى الله سبحانه وتعالى من خلال إتقانه العمل، والتزامه أحكام الشرع فيه، طلباً للأجر والثواب من الله تعالى يوم القيامة.

٤- تحثُّ السُّنة النبويّة على العمل، فالإسلام دين العمل، فلا حجة للكسول، ولا مكان للمتواكل، ولا مجال للمتقاعس في المجتمع الإسلامي، إذ هو مجتمع الجدِّ والنشاط، وميدان التنافس في الخيرات.

الخاتمة؛ وفيها:

أهم نتائج البحث:

١- المال عصب الحياة وزينتها، والسعي لتحصيله مطلب شرعي، وسبيل لتحقيق غايات نبيلة؛ من استعفاف، وكفاف، وسدّ الحاجة. وهو في حدّ ذاته وسيلة لا غاية، فهو غادٍ ورائح، وهو مال الله تعالى وهو سبحانه وتعالى مالكة الحقيقي، وإنما يسعى المسلم لجنيه سداً لحاجاته الأصلية، وينفق منه فيما استُخلف فيه، سعياً لعمارة الأرض، وتحقيق مراد الله تعالى في هذه الخلافة.

٢- العمل قرين الإيمان، ويعدُّ عبادة وطاعة وقربة من أعظم العبادات، وأجلّ الطاعات، وأعزّ القربات، إذا كان صالحاً، وقُصد به وجه الله تعالى، وتمثّل صاحبه هدي الإسلام، وأحكام الدين ومنهجه في التزامه بأخلاقيّات المهن في سوق العمل.

٣- ظفرت السنّة النبويّة برصيد وافر من التوجيهات النبويّة، والإرشادات السنّيّة، في تحديد ضوابط وأخلاقيّات المهن والعمل، بما يرسم للمتعاملين منهجاً عملياً فريداً، ويضع لهم دستوراً سديداً من الهدي النبوي الشريف، يبصّرهم الصراط المستقيم كي يتّبعوه، ويحذّرهم وعورة السبل المتعرّجة.

٤- تغلب على الكسب النظرة المادية الربحية، وهو مقصد شرعي عزيز حين يُتوّج بأخلاقيّات العمل التي حثّت عليها السنّة النبويّة وأرشدت إليها، فيكون بهذا المفهوم قد تجاوز النظرة المادية الضيقة ارتقاءً إلى مقام العبادة، وتحقيق الأجر الأخروي، حين يجعل العامل من عمله وجهده وكسبه وسعيه وإنتاجه مجالاً لنفع الآخرين، وفرصة لخدمة المجتمع، وسبيلاً لتعميم الخير، وطريقاً للازدهار والتنمية.

أهم التوصيات:

١- حيث بات للإعلام بكافة أطرافه المرئي والمقروء والمسموع الدور الفاعل في

توجيه المجتمعات، فإن من الفائدة بمكان أن يوصى بإنشاء قنوات فضائية إسلامية هادفة، ومميزة بمادتها العلمية والإعلامية والتوجيهية، تُروّج لأخلاقيات العمل بالتوعية المسؤولة، والتوجيه الإعلامي. كما يوصى بتفعيل دور المسجد في تنمية الوعي الديني، وتفقيه العامة بأحكام المعاملات من خلال دروس العلم، والتوجيه الديني الذي يؤدّيه الواعظ والخطيب والفقهاء، مع التركيز على تنمية الجانب الروحي في هذا المجال، من حيث إخلاص النية لله تعالى، وإرادة الخير للنفس بإعفافها عن الحرام، وللآخرين ببذل المعروف لهم.

٢- وحيث بات التخصص سمة العصر في كل الميادين والمجالات، فإن من الفائدة أن يوصى بعمل دورات شرعية تثقيفية لكل مهنة من المهن العملية التي يتطلبها سوق العمل، بحيث يُمنح صاحبها شهادة تخوّله فتح المنشأة التي يرغب مزاولةها، بموجب تصريح عمل. وتتضمن الدورة خلاصة الأحكام الشرعية اللازمة، وأدبيات المهن وأخلاقياتها، بما يمكنه من خلال معرفتها مزاولة المهنة بتبصرة وهدى ونور، حيث مما لا يخفى أهمية هذه التبصرة الشرعية في مزاولة المهن لما يترتب على الجهل بها من خوف وحذر في ولوج سبل ربحية مشبوهة، أو وقوع في المكروه، وربما في الحرام، من خلال كسب خبيث، أو ارتكاب محظور شرعي. ونضرب على هذا أمثلة في مهنة: الجزار، والصراف، والحلاق، وبائع المجوهرات والسلع والعقارات، والسمسار، وغيرها كثير من المهن الشائعة.

٣- إحياء ما يعرف قديماً بشيخ الكار، كنوع من المرجعية الوجيهة في سوق العمل، ويتمثل دوره في حل الخلافات القائمة في السوق، ويكون بمثابة العمدة والحجة وقول الفصل، يوجّه المتعاملين لأخلاقيات العمل، ويرعى كل بادرة طيبة فيعززها ويثريها، ويرصد كل سلبية فيرفضها ويمنع التماذي فيها. ويكون له من الهيبة والمكانة ما يؤهله لمركز الصدارة والأسوة الحسنة لسائر المتعاملين.

٤- تفعيل دور القضاء الشرعي، وتبسيط الإجراءات القضائية في فضّ المنازعات بين المتخاصمين، وسرعة البتّ فيها، بما يقضي على الظواهر السلبية في هذا

المجال من تعقيد وتباطؤ، إذ إن عامل الزمن مهمٌ في الأمر، سعياً لتحقيق العدالة، وإنصاف المظلومين، والقضاء على المحسوبية، وردع المخالفين، حيث بات تسوية الفصل في قضايا المحاكم فرصة للتمادي في هضم الحقوق، والتفُّلت من أدائها، والتنصُّل من الالتزام بها تجاه أصحابها.

هذا وبالله تعالى التوفيق

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله ربِّ العالمين.

ثبت المصادر

أولاً: القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

ثانياً:

١. أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٨ م.

٢. الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط / أولى: ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

٣. الاكتساب في الرزق المستطاب، محمد بن الحسن الشيباني، تلخيص محمد بن سماعة، تحقيق محمود عنونس، نشره عزت العطار، مطبعة الأنوار، الطبعة الأولى: ١٩٨٣ م.

٤. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، الحافظ أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٥. تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٦. تفسير النسفي، الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٧. التلويح على التوضيح لمتن التنقيح، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، مع حواشي الفترى وملا خسرو وعبد الحكيم، ثلاثة أجزاء، المطبعة الخيرية: ١٣٢٢ هـ.

٨. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٩. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.
١٠. رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار (حاشية ابن عابدين)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١. سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، بيروت.
١٢. سنن أبي داود السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجنان، بيروت: ١٩٨٨ م.
١٣. سنن الترمذي، المكتبة التجارية، مصطفى الباز، دار الفكر، بيروت: ١٩٤٤ م.
١٤. السنن الكبرى، أحمد بن حسين البيهقي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند: ١٣٤٧ هـ.
١٥. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية: طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية، الرياض، عام: ١٤١٩ هـ.
١٦. شرح منتهى الإرادات، منصور بن إدريس البهوتي، المطبعة العامرة الشرقية: ١٣١٩ هـ، مطبوع بهامش كشاف القناع.
١٧. صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
١٨. صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
١٩. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٢٠. قصص الأنبياء، الإمام إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
٢١. كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار

- الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
٢٢. كشف القناع على متن الإقناع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، راجعه الشيخ هلال مصيلحي مصطفى هلال، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٢٣. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق د / عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٢٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار بيروت للطباعة والنشر: ١٩٥٦ م.
٢٥. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
٢٦. مختصر أحكام المعاملات الشرعية، الشيخ علي الخفيف، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٤ م.
٢٧. مسند أبي داود الطيالسي، طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، دار التوفيق، بيروت.
٢٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن علي الفيومي، دار القلم، بيروت.
٢٩. المصنّف، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، نشر دار الفكر، بيروت، ط / أولى: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
٣٠. المعجم الصغير، سليمان بن أحمد الطبراني، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت: ١٩٨٦ م.
٣١. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تأليف شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، صححه وعلق حواشيه عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٧ م.
٣٢. الملكية ونظرية العقد، الشيخ محمد أبو زهرة، الطبعة الأولى: ١٩٣٩ م.

٣٣. مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق زينب إبراهيم القاروط، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٠ م.

٣٤. الموافقات في أصول الأحكام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تعليق محمد الخضر حسين التونسي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء: ١٩٧٠ م.

٣٥. الموسوعة الحديثة لمسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإخوانه، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٦. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
٣٧. موطأ مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، موسوعة السنة، دار سحنون، تونس.

٣٨. النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير الجزري، تحقيق محمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٨٥ هـ.

ثالثاً: الأبحاث والدوريات:

١- المسجد والحياة الإسلامية، بحث للدكتور محمد توفيق بليغ. بحث في مجلة عالم الفكر الكويتية: عدد إبريل - يونيو ١٩٨٠ م.

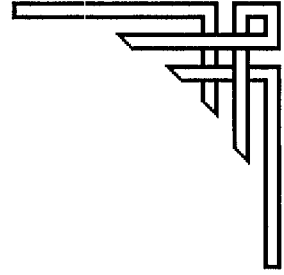
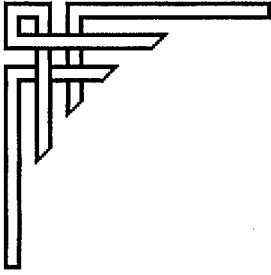
رابعاً: المخطوطات:

١- الحاوي القدسي، أحمد بن محمد بن نوح القابسي، مخطوطة في دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة: ١٠٩٩ م.

خامساً: الأقراص المدمجة:

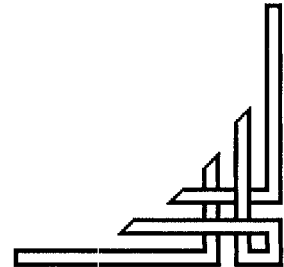
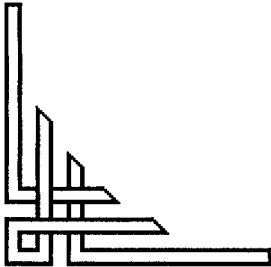
١- المصحف للنشر المكتبي، إنتاج شركة حرف، الإصدار: ١،٠.

٢- موسوعة الحديث الشريف، إنتاج شركة حرف، الإصدار: ٢،١.



اهتمام السُّنَّة النَّبَوِيَّة
بترابط المجتمع

الدكتور/ إكرام الله إمداد الحق عبد الرحمن
معهد الحرم المكي الشريف



إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فإن الله تعالى أرسل نبيه المصطفى ورسوله المجتبي محمداً ﷺ؛ ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أنزل إليه أفضل كتبه الذي هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، وميزه عن سائر كتبه، بحفظه وصيافته أن تصل إليه أيدي العابثين على مر العصور والدهور، ثم شرف الله حبيبه المصطفى ﷺ بإعطائه مع القرآن السنة النبوية المطهرة، قال ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» الحديث^(١)، وجعل الله السنة أصلاً ثانياً للدين الإسلامي الحنيف بعد كتاب الله العزيز، فكانت مبينة لما في القرآن الكريم، مفصلة لمجمل أحكامه، شارحة لما يحتاج منه إلى الشرح، وكما أوجب الله علينا طاعته أوجب علينا طاعة رسوله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الآية^(٢) وجعل سبحانه وتعالى طاعة رسوله من طاعته، قال جل وعلا: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ الآية^(٣)، والرسول ﷺ دعانا إلى الأخذ بهديه واتباع سنته حيث قال: «دعوتي ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٤)

١ - سنن أبي داود ٥ / ١٨٥ في السنة باب في لزوم السنة رقم ٤٥٩٤، المسند للإمام أحمد ٢٨ / ٤١٠ رجاله ثقات.
٢ - سورة الحشر آية ٧.
٣ - سورة النساء آية ٨٠.

وقال ﷺ: «... عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ» الحديث^(٥)، فالأخذ بالسنة أمر محتّم على المسلمين لا محيد عنه البتة، وهو ﷺ صاحب الخلق العظيم وهو الرائد الكريم، والقدوة المثلى، والأسوة الحسنة في القيم النبيلة والسيرة السامية الرفيعة، وإن موضوع الحفاظ على القيم الحضارية والمبادئ العليا في المجتمعات الإسلامية هو موضوع الساعة؛ لأن هذه القيم باتت مهددة في ظل الصراع بين تلك المثل وبين الانحلال الخلقي المتواصل.

ألا وإن مما اهتمت به السنة النبوية الشريفة اهتماماً بالغاً، وعنيت به عناية فائقة، موضوع ترابط المجتمع الإسلامي بين أفرادهِ، فرسّمت للمسلمين إطاراً عاماً ومنهجاً تاماً، فإن ساروا عليه واتخذوه مسلكاً متبعاً لهم، سادوا العالم وقادوا الأمم، وعادوا- بإذن الله- إلى ما كان عليه أسلافنا من العزة والكرامة والسؤدد، وزال عنهم ما وقعوا فيه من التفكك والتخلف والتخاصم والتخاذل، فبينت السنة بياناً شافياً كافياً كيفية التعامل الصحيح السليم بين جميع أطراف المجتمع، من أعلى مسئول في الدولة إلى أدنى خادم في البيت، والحديث النبوي الشريف اشتمل على بيان صفات إسلامية فاضلة محمودة، حث على الأخذ والتمسك بها، ووضح فوائدها ومنافعها، واشتمل أيضاً على بيان صفات أخرى قبيحة سافلة مذمومة، نهى عنها وحذّر منها، وبيّن مفسادها ومخاطرها، وبتطبيق هذه التوجيهات النبوية الكريمة في واقع حياة الناس تسود المحبة والألفة والإخاء، ويعم التسامح والترابط والوفاء، وتضمحل الفرقة والإحن والمحن، ويزول التفكك والبغضاء والشحناء.

ولهذه الأهمية البالغة في هذا الجانب الحيوي المهم للمجتمع الإسلامي، ولا سيما بعد ما تبدل كثير من القيم والمثل العليا التي أرساها الإسلام، وتغير النظر إليها تأثراً بقيم واردة زائفة وأفكار وافدة على المسلمين، اخترت موضوع اهتمام

٤ - صحيح البخاري ٦ / ٢٦٥٨ في الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ رقم ٦٨٥٨، صحيح مسلم ٢ / ٩٧٥ في الحج باب فرض الحج مرة في العمر رقم ١٣٣٧ / ٤١٢.

السنة النبوية بترابط المجتمع ،، وهو موضوع مطروح للبحث والكتابة فيه - مشكوراً مقدراً مأجوراً إن شاء الله - من قبل الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف التابعة لكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، ضمن محاور الندوة العلمية الدولية الثالثة بعنوان " القيم الحضارية في السنة النبوية " والندوة تقوم بجهود عظيمة مباركة في إبراز محاسن الإسلام المشرقة من خلال نشر السنة، وطرح مواضيع هامة للبحث والدراسة، النابعة عن روح السنة النبوية المطهرة، فيها الدواء الشافي والعلاج الناجع لواقع المسلمين اليوم إن شاء الله .

وبما أن الموضوع كبير، ومحدد الصفحات من قبل الندوة، حاولت أن أختصر البحث قدر الإمكان، فجعلته في مقدمة وفصلين وخاتمة وقائمة للمصادر، وفهرس للمواضيع :

المقدمة : في بيان أهمية الموضوع، وعناية الإسلام بترابط المجتمع المسلم، والحرص على تماسكه وتوثيق عراه، وتجنب تفككه وتقطيع أوصاله، وبيان خطة البحث .

الفصل الأول: الترابط بين مختلف أطراف المجتمع كما وضحته السنة النبوية .
وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول: التعامل مع ولي الأمر .

وفيه ثلاثة مطالب .

المبحث الثاني: التعامل مع الأهل والأولاد .

وفيه مطلبان .

المبحث الثالث: التعامل مع الوالدين وذوي القربى .

وفيه مطلبان .

المبحث الرابع : التعامل مع الجيران والخلان .

وفيه مطلبان .

المبحث الخامس: التعامل مع الخدم وذوي الحاجات .

وفيه مطلبان .

المبحث السادس: التعامل مع غير المسلم.
وفيه مطلبان.

الفصل الثاني: العوامل التي تساعد على ترابط المجتمع والعوامل التي تساعد على تفككه كما وضحتها السنة النبوية.
وفيه مبحثان:

المبحث الأول: صفات حميدة تعمل على تقوية ترابط المجتمع.
وفيه خمسة مطالب.

المبحث الثاني: صفات ذميمة تعمل على تفكك ترابط المجتمع.
وفيه أربعة مطالب.

الخاتمة: خلاصة البحث وبيان أهم النتائج.
وقد اتبعت في كتابة البحث المنهج التالي:

- ١- عزوت الآيات القرآنية إلى القرآن الكريم، بذكر اسم السورة ورقم الآية.
- ٢- عزوت الأحاديث النبوية إلى مواضعها في كتب السنة، بذكر رقم الجزء والصفحة، والكتاب والباب ورقم الحديث إن وجد، وقدمت الأمهات الست على غيرها، ولكثرة ورودها استعملت لها - بعد الموضع الأول في الذكر - الرموز التي اعتمدها الحافظ ابن حجر في التهذيب والتقريب.
- ٣- قدمت المصدر المنقول منه النص على المصادر الأخرى ولم أبين فوارق الألفاظ للاختصار.

٤- عند تكرار المصدر قريباً أكتفي بذكر رمز المصدر ورقم الحديث أو مع ذكر الباب إذا اختلف.

٥- فسّرت الكلمات التي رأيتها غريبة، ورتبت المصادر في الفهرس ترتيباً هجائياً باسم الكتاب، وأغفلت أداة التعريف في الترتيب.

وأخيراً أرى من الواجب عليّ - اعترافاً بالفضل لأصحابه وعملاً بقوله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(١) أن أتقدم بخالص الشكر الجزيل

٦ - ت ٢٢٨ / ٣ في البر والصلة باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك رقم ٢٠٢٠، وقال: هذا حديث صحيح.

وعظيم العرفان الجميل، للمشائخ الفضلاء والسادة الكرماء القائمين على ندوة الحديث الشريف، وعلى رأسهم أمينها العام صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور / حمزة عبد الله المليباري حفظه الله ورعاه ووفقه وسدد خطاه، على تفضلهم بقبول الترشيح والملخص المبدئي لهذا البحث المتواضع الذي قمت به خدمة للسنة النبوية المطهرة، وهو جهد المقل، وحسبي أنني بذلت فيه قصارى جهدي وقصوى طاقتي، أسأل الله العلي القدير أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به وجميع المسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

الترابط بين مختلف أطراف المجتمع كما وضحتة السنة النبوية

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: التعامل مع ولي الأمر

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وجوب طاعة الإمام.

لقد اهتم الإسلام والسنة المشرفة ببيان القيم الحضارية في حسن تعامل الناس مع السلطان وولي أمر المسلمين، الذي هو صاحب التصرف في شأن الأمة، وبيده زمام أمور الدولة وقيادة الأمة، فقد أمر الله عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ الآية (٧)، فلا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، بشرط أن لا يأمر الولاية بمعصية الله فإذا أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة^(٨)، فطاعة أولي الأمر أصل عظيم من أصول الدين، وهي معدودة في جملة العقائد الإيمانية فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني^(٩)، وعدم طاعتهم يترتب عليه مفسد جمة من زوال الأمن وحصول الفوضى والفتن، ومما يدل على وجوب طاعة الإمام حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك،

٧ - سورة النساء آية ٥٩.

٨ - انظر خ ٣ / ١٠٨٠ في الجهاد باب السمع والطاعة للإمام رقم ٢٧٩٦، م ٣ / ١٤٦٩ في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء رقم ١٨٤٠ / ٣٩.

٩ - خ باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به رقم ٢٧٩٧، م ٣ / ١٤٦٦ في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية رقم ١٨٣٥ / ٣٢.

ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك»^(١٠)، فالسمع والطاعة للإمام واجبان في كل الأحوال حرصاً على اجتماع كلمة المسلمين، وعدم فساد أحوالهم في دينهم وديناهم، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف) أي مقطوع الأعضاء»^(١١)، فالعبرة بالصلاح وأهلية القيادة، ويؤيده حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» والزبيبة واحدة الزبيب المأكول المعروف وهو تمثيل في الحقارة وبشاعة الصورة^(١٢).

المطلب الثاني: وجوب الطاعة في المعروف

الطاعة الواجبة لأمراء المسلمين وولاتهم، مقيدة بأن تكون في المعروف سواء وافق غرضه أم خالفه، فإذا أمر بمخالفة شرعية فلا سمع ولا طاعة، هذا ما جاء به حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(١٣)، وطاعة الأمراء في معصية الله جريمة كبيرة ومنكر عظيم، لأنها تؤدي إلى اختلال الأمن في المجتمع ونشر الفساد في الأرض، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: وفي الحديث دليل على أن من أطاع ولادة الأمور في معصية الله كان عاصياً، وإن ذلك لا يمهده له عذراً عند الله بل إثم المعصية لاحق له،^(١٤).

المطلب الثالث: الصبر على أذى السلطان.

لا شك أن ولي الأمر بشر قد تصدر منه مخالفات وإيذاء لبعض الرعية فلا بد

١٠ - م نفس الباب ٣ / ١٤٦٧ رقم ١٨٣٦ / ٣٥. ومعنى أثرة عليك: أنه يستأثر عليكم فيفضل غيركم. النهاية لابن الأثير ١ / ٢٢.

١١ - م نفس الباب رقم ١٨٣٧ / ٣٦، ق ٢ / ٩٥٥ في الجهاد باب طاعة الإمام رقم ٢٨٦٢. وانظر النهاية ١ / ٢٤٧.

١٢ - خ ٦ / ٢٦١٢ في الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية رقم ٦٧٢٣، ق ٢ / ٩٥٥ في الجهاد باب طاعة الإمام رقم ٢٨٦٠. وانظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٣ / ١٢٢.

١٣ - خ ٦ / ٢٦١٢ في الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية رقم ٦٧٢٥، ٦٧٢٦، م ٣ / ١٤٦٩ في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية رقم ١٨٣٩ / ٣٨، ١٧٤٠ / ٣٩، ٤٠.

١٤ - شرح سنن أبي داود لابن القيم الجوزية مع عون المعبود ٧ / ٢٩٠ رقم الحديث ٢٦٠٩.

له من تحمل أذى السلطان، وعدم الخروج عليه، حفاظاً على ترابط المجتمع من الشقاق والفرقة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»^(١٥)، وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ قال: "ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"^(١٦)، فالحديث يدل على تحريم الخروج على الإمام بأي وجه من الوجوه بأفكار منحرفة وتأويلات فاسدة، إلا عند ظهور الكفر الصريح، فقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»، وفي رواية «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» أي كفراً ظاهراً جهاراً^(١٧)، ويؤيده ما روت أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع»^(١٨)، قال: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلوا»^(١٩) فالحديث صريح في تحريم مواجهة ولاية الأمر وخطورتها، حرصاً على استتباب الأمن في المجتمع، وحصول الترابط بين أفرادها.

١٥ - خ ٦ / ٢٦١٢ في الأحكام باب السمع والطاعة للإمام رقم ٦٧٢٤، م ٣ / ١٤٧٧ في الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين رقم ١٨٤٩ / ٥٥.

١٦ - خ ٣ / ١٣٨١ في فضائل الصحابة باب قول النبي للأَنْصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض رقم ٣٥٨١، م ٣ / ١٤٧٤ في الإمارة باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة رقم ١٨٤٥ / ٤٨.

١٧ - م ٣ / ١٤٧٠ في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية رقم ١٧٠٩ / ٤١، ٤٢.

١٨ - ومعناه: ولكن الأئمة والعقوبة على من رضي بوجود المنكر وأقره وأعان عليه بقول أو فعل أو متابعة. وأما قوله: فمن عرف برئ ومن أنكر سلم فمعناه: فمن عرف المنكر ولم يشتهه عليه وأنكر فقد صارت له طريق إلى البراءة من أئمة وعقوبته. وفي الحديث دليل على أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم والفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام. شرح صحيح مسلم للنووي ١٢ / ٢٤٥.

١٩ - م ٣ / ١٤٨٠ باب وجوب الإنكار على الأمراء وترك قتالهم ما صلوا رقم ١٨٥٤ / ٦٢.

المبحث الثاني: التعامل مع الأهل والأولاد

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: التعامل مع الأهل.

إن الحصول على زوجة صالحة هو مطلب كل رجل يريد إقامة بيت صالح وأسرة سعيدة مستقيمة ، والزوجة الصالحة هي خير متاع الدنيا للرجل كما صح الخبر بذلك^(٢٠). ولقد كرّم الإسلام المرأة أيّما تكريم وأعطاهما حقوقها كاملة ، بخلاف ما كان وضعها في الجاهلية ، حيث كانت مهضومة الحقوق مظلومة ، مسلوّبة الإرادة مسحوبة الحرية وفي ديننا الحنيف اختلف وضعها تماماً ، حيث أصبحت شقيقة الرجل ، لها مكانتها اللائقة بها ، تتمتع بكامل حقوقها وحرّيتها ، والإسلام قد أقام الرابطة بين الزوجين على أسس سليمة واضحة وفق مبدأ شرعي ، وحدد الإسلام أطر هذه العلاقة المقدسة ، وجعل لكل منهما حقوقاً على الآخر ، فأوجب على الزوج النفقة لزوجته وتوفير احتياجاتها من مسكن ومأكل ومشرب وملبس وغيرها ، مراعيّاً في ذلك قدرته وظروفه المادية ، وله في ذلك أجر من الله فقد جاء عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة »^(٢١).

ومن حقوقها عليه أيضاً حسن معاشرتها والرفق بها والصبر عليها وتحمل ما قد يبدو منها مما لا يرغبه ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله قال: « إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وإن ذهب تقيمها كسرته وكسرها طلاقها ». وفي رواية (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر)^(٢٢) . لذا لا يجوز للزوج ضرب زوجته بغير مبرر

٢٠ - انظر م ٢ / ١٠٩٠ في الرضاع باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة رقم ١٤٦٧ / ٥٩ .
٢١ - م ٢ / ٦٩٥ في الزكاة باب النفقة والصدقة على الأقرين رقم ١٠٠٢ / ٤٨ ، المسند ٢٨ / ٣١٢ .
٢٢ - م ٢ / ١٠٩١ في الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ١٤٦٨ / ٦١ ، ٦٢ / ١٤٦٩ .

شرعي قال ﷺ: (بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ثم لعله يعانقها) (٢٣). فإذا كانت العلاقة بين الزوجين ودية، والمعاشرة بينهما حسنة، تكون أجواء الأسرة موحية بالأمن والراحة لهما وللأبناء ولجميع أفراد الأسرة.

ومن حسن عشرتها التبسط معها وتمكينها من بعض اللهو البريء المباح ما تروّح به عن نفسها، فعند ما نهر أبو بكر الصديق رضي الله عنه الجاريتين اللتين تضربان بالدف في أيام منى عند عائشة رضي الله عنها قال عليه السلام مبيحاً هذا العمل: «يا أبا بكر فإنها أيام عيد» (٢٤) وعن عائشة قالت: والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله يسترنني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي أنصرف،، (٢٥).

ولاستمرار هذه العلاقة الحسنة الوطيدة، ولحصول الطمأنينة النفسية بين الزوجين، أكد الإسلام مراعاة حق الفراش للطرفين فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يصوم ولا يفطر ويصلي ولا ينام، أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالصوم والفطر والنوم وقيام الليل وقال: «فإن لعينك عليك حظاً، وإن لنفسك وأهلك عليك حظاً»، (٢٦) ولا يجوز لها أن تصوم صيام التطوع وزوجها شاهد إلا برضاه (٢٧)، وما ذلك إلا لأجل دوام العشرة بينهما على أحسن وجه.

وبتطبيق هذه الآداب الشرعية في التعامل مع الزوجة يسود الحب ويستتب الأمن ويحصل الترابط بين أفراد الأسرة.

المطلب الثاني: التعامل مع الأولاد.

لاشك أن الأولاد من بنين وبنات هم زينة حياة الإنسان وهو مسئول

٢٣ - خ ٥ / ٢٢٤٦ في الأدب باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾ الآية رقم ٥٦٩٥.

٢٤ - خ ٣ / ١٢٩٨ في المناقب باب قصة الحبشة رقم ٣٣٣٧.

٢٥ - م ٢ / ٦٠٩ في صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه رقم ١٨ / ٨٩٢.

٢٦ - خ ٢ / ٦٩٨ في الصوم باب حق الأهل في الصوم رقم ١٨٧٦.

٢٧ - انظر خ ٥ / ١٩٩٣ في النكاح باب صوم المرأة بإذن زوجها تطوعاً رقم ٤٨٩٦، م ٢ / ٧١١ في الزكاة باب ما أنفق العبد من مال مولاه رقم ١٠٢٦ / ٨٤.

عنهم^(٢٨) وعن تربيتهم وتأديبهم وتعليمهم، والنفقة عليهم، وله في ذلك أجر ومثوبة من الله تعالى قال ﷺ « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله » الحديث.^(٢٩) وهم يستحقون الرحمة والحنان من الوالدين فقد قالت عائشة رضي الله عنها : جاءني امرأة ومعها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمر واحدة ، فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ فحدثته فقال: «من يلي هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار»^(٣٠) فانظر ما أعظم هذا الأجر العظيم دخول الجنة والوقاية من عذاب جهنم بسبب الإحسان إلى الأولاد وخاصة البنات، والناس غالباً لا يرغبون في البنات. وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»، وفي رواية لعائشة رضي الله عنها: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»^(٣١) ولكي يستمر الوفاق والوثام والمحبة بين الأولاد والوالدين لا بد من العدل بينهم في كل شيء ورعاية حقوقهم وعدم التفرقة بينهم في التعامل والنفقات والعطايا ونحو ذلك فقد قال النعمان بن بشير رضي الله عنهما: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة : لا أَرْضِي حتى تشهد رسول الله ﷺ ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله قال: « أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ » قال : لا ، قال: « فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » قال : فرجع فرد عطيته.^(٣٢) فعدم التساوي بين الأولاد في العطية والهبة يؤدي إلى التنافر وحصول الخلاف بينهم ، والزوجة

٢٨- انظر الحديث في م ٣ / ١٤٥٩ في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٩ / ٢٠.
 ٢٩ - م ٢ / ٦٩٢ في الزكاة باب فضل النفقة على العيال رقم ٣٨ / ٩٩٤. ت ٣ / ٢٣٢ في البر والصلة باب النفقة على الأهل رقم ٢٠٣٢.
 ٣٠ - خ ٥ / ٢٢٣٤ في الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته رقم ٥٦٤٩، م ٤ / ٢٠٢٧ في البر والصلة والأداب باب فضل الإحسان إلى البنات رقم ١٤٧ / ٢٦٢٩.
 ٣١ - خ ٥ / ٢٢٣٥ في الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته رقم ٥٦٥٢، ٥٦٥١، م ٤ / ١٨٠٨ في الفضائل، باب رحمته (الصبيان والعيال رقم ٢٣١٧ / ٦٣ ، ٢٣١٨ / ٦٤ .
 ٣٢ - خ ٢ / ٩١٤ في الهبة باب الإسهاد في الهبة رقم ٢٤٤٧، م ٣ / ١٢٤١ في الهبات باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة رقم ١٦٢٣ / ٩.

والأولاد هم أفراد كل أسرة في كل بيت، وبصلاحهم تصلح أمور البيت وتستقيم شئونه، وصلاح البيت هو صلاح المجتمع، وصلاح المجتمع هو صلاح الأمة. والله أعلم.

المبحث الثالث: التعامل مع الوالدين وذوي القربى

وفيه مطلبان

المطلب الأول: التعامل مع الوالدين.

إن من المبادئ الحضارية العليا في السنة النبوية حسن التعامل مع الوالدين اللذين هما العمودان الأساسان للبيت، لهما تأثيرهما الخطير إيجاباً وسلباً، فالأب هو القائد الذي تقع في عهده مسئولية توجيه الأسرة، والوقوف بوجه كل ما من شأنه تهديد كيان الأسرة، وأعظم الحقوق على الإطلاق هو حق الله تعالى في عبادته وتوحيده، وهو المستحق للحمد والشكر على نعمه، ثم يأتي بعد حق الله سبحانه حق الوالدين فلهما نعمة الإيلاء والتربية والرعاية والعناية، وقد قرن الله حق الوالدين بحقه سبحانه في غير آية^(٣٣)، فقد أمر الله تعالى الإنسان بشكر والديه وما ذاك إلا لعظم حقهما وكريم فضلهما، إذ هما السبب في وجوده والمهتمان به في مراحل عمره منذ أن كان نطفة إلى أن أصبح رجلاً، ولا يمكن مكافأتهما ولا مجازاتهما مهما بذل وعمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه »^(٣٤)، وبر الوالدين من أعظم الطاعات وأحب الأعمال إلى الله تعالى فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: « الصلاة على وقتها » قال: ثم أي؟ قال « بر الوالدين »، الحديث،،^(٣٥)، وحق الأم أعظم من حق

٣٣ - انظر سورة النساء آية ٣٦، سورة الأنعام آية ١٥١، سورة الإسراء آية ٢٣، سورة لقمان آية ١٤.
٣٤ - م ٢ / ١١٤٨ في العتق باب فضل الوالد رقم ٢٥ / ١٥١٠، د ٥ / ٤١٠ في الأدب باب في بر الوالدين رقم ٥٠٩٤.

٣٥ - خ ٥ / ٢٢٢٧ في الأدب باب البر والصلة رقم ٥٦٢٥.

الأب فهي تستحق من الولد الحظ الأوفر من البر فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك»^(٣٦)، قدم أمه على أبيه لأنها تنفرد بالحمل ثم الوضع ثم الرضاع، وتقاسي المعاناة والشقاء في ذلك، هذا وإن بر الوالدين لا ينقطع بموتهما بل يستمر إلى ما بعد وفاتهما أيضاً فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»^(٣٧)، وإكرام أصحاب الوالدين وصلة أقاربهما وأصدقائهما بر لهما، فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان بطريق مكة إذ لقيه رجل من الأعراب فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال عبد الله بن دينار^(٣٨): أصلحك الله، إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير، فقال عبد الله بن عمر: إن أبا هذا كان ودّاً لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه»^(٣٩).

وإذا كان هذا هو حق الوالدين وبرهما في ديننا الحنيف فعقوقهما وعصيانهما وإيذائهما بقول أو فعل من كبائر الذنوب وعظائم الآثام ففي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات» الحديث^(٤٠)، وعن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» الحديث^(٤١)، فإذا كان الأولاد مطيعين لأبائهم وأمهاتهم، وابتعدوا

٣٦ - خ ٥ / ٢٢٢٧ في الأدب باب من أحق الناس بحسن الصحبة رقم ٥٦٢٦، م ٤ / ١٩٧٤ في البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق به رقم ٢٥٤٨ / ١.

٣٧ - د ٥ / ٤١١ في أبواب النوم باب في بر الوالدين رقم ٥٠٩٩.

٣٨ - هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن دينار العدوي المدني ثقة مات سنة ١٢٧هـ. تقريب التهذيب لابن حجر ص ٣٠٢.

٣٩ - م ٤ / ١٩٧٩ في البر والصلة باب فضل أصدقاء الأب والأم ونحوها رقم ٢٥٥٢ / ١١.

٤٠ - خ ٥ / ٢٢٢٩ في الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر رقم ٥٦٣٠.

٤١ - خ ٦ / ٢٢٢٩ في الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر، م ١ / ٩١ في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها رقم ١٤٣ / ٨٧.

عن العقوق والعصيان تربّوا على المنهج السليم في مجال التربية والتهذيب، وعاشوا على الفضيلة والكمال، وكانوا - بإذن الله - من الأبناء الذين يساهمون مساهمة فعالة في بناء المجتمع الفاضل.

المطلب الثاني: التعامل مع ذوي القربى.

ذوو القربى هم الذين بينك وبينهم قرابة ونسب من الرجال والنساء، ويدخل فيهم الأرحام حيث قال ابن كثير^(٤٢) رحمه الله في قوله تعالى ﴿وإيتاء ذي القربى﴾^(٤٣): أي يأمر بصلة الأرحام،^(٤٤)، وقال في قوله تعالى ﴿وآت ذا القربى حقه﴾^(٤٥): لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام،^(٤٦)، فالأرحام هم الأنساب والأقارب، وليس الأرحام - كما يفهم بعض الناس أقارب الزوج أو الزوجة، وأقاربهما يسمون الأصهار.

ولاشك أن وجود الترابط والتآلف والتعاون بين الأقرباء والأرحام يكون سبباً رئيساً لحصول الاستقرار الأسري والاطمئنان النفسي لجميع الأفراد، والأقرباء هم أولى الناس بك وببرك وعطائك، وقد أمر الله بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز^(٤٧)، ويجب البر والصلة والإحسان إلى القرابة الأقرب فالأقرب ففي الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إبدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذئ قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا» يقول: فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك.^(٤٨)

٤٢ - هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي، برع في الفقه والتفسير والحديث، وجمع وصنف ودرس، اشتهر بالضبط والتحرير مات سنة ٧٧٤هـ رحمه الله. شذرات الذهب لابن العماد ٦ / ٢٣٦.

٤٣ - سورة النحل ٩٠

٤٤ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٥٩٥.

٤٥ - سورة الإسراء ٢٦.

٤٦ - تفسير القرآن العظيم ٥ / ٦٨.

٤٧ - انظر سورة البقرة ١٧٧، ٨٣، سورة النساء ٣٦، سورة النحل ٩٠، سورة الإسراء ٢٦، سورة النور ٢٢، سورة الروم ٣٨.

٤٨ - م ٢ / ٦٩٣، ٦٩٢ في الزكاة باب الابتداء بالنفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة رقم ٩٩٧ / ٤١

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول الله من أبر؟ قال: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب»^(٤٩)، وعند ما جعل أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه أرضه بريحا^(٥٠) لله تعالى قال له رسول الله ﷺ: «اجعلها في قرابتك» فجعلها في حسان ابن ثابت وأبي بن كعب، وعندما سألت زينب امرأة عبد الله وامرأة أخرى من الأنصار رسول الله ﷺ عن صدقتهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما وهم محتاجون قال ﷺ: «لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة»^(٥١)، وبين النبي ﷺ أن صلة الرحم أعظم أجراً من العتق ففي الصحيح عن ميمونة بنت الحارث أنها أعتقت وليدة في زمان رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أعطيتها أخوالك، كان أعظم لأجرك»^(٥٢)، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنني أصبت ذنباً عظيماً فهل لي توبة؟ قال: «هل لك من أم؟» قال: لا، قال: «هل لك من خالة؟» قال: نعم، قال: «فبرها»^(٥٣)، فصلة الأرحام موجبة لغفران الذنوب، بل إنها سبب لدخول الجنة فقد قال رجل: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»^(٥٤)، كما أن قطع الرحم سبب الحرمان من دخول الجنة ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٥٥) أي قاطع رحم، ففيه زجر ووعيد شديد ولاسيما الذي يستحل القطيعة والله المستعان، وجعل الله لصلة الرحم أجراً عظيماً وفضلاً كبيراً، بل هي

٤٩ - د ٥٥ / ٤١٠ في الأدب باب في بر الوالدين رقم ٥٠٩٦، ت ٣ / ٢٠٦ في البر والصلة باب ما جاء في بر الوالدين رقم ١٩٥٩ قال الترمذي: هذا حديث حسن.

٥٠ - اختلفت ألفاظ المحدثين فيها وهي اسم مال وموضع بالمدينة، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١١٤ / ١.

٥١ - م ٢ / ٦٩٤، ٦٩٥ في الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقرنين رقم ٩٩٨ / ٤٣، ٤٥ / ١٠٠٠.

٥٢ - خ ٢ / ٩١٦ في الهبة باب بمن يبدأ بالهدية رقم ٢٤٥٤، م ٢ / ٦٩٤ في الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقرنين رقم ٩٩٩ / ٤٤.

٥٣ - ت ٣ / ٢٠٩ في البر والصلة باب في بر الخالة رقم ١٩٦٨.

٥٤ - خ ٥ / ٢٣٣١ في الأدب باب فضل صلة الرحم رقم ٥٦٣٧، م ١ / ٤٣ في الإيمان باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة رقم ١٣ / ١٤، الأدب المفرد للبخاري ص ٣٤ رقم ٤٩.

٥٥ - خ ٥ / ٢٣٣١ في الأدب باب إثم القاطع رقم ٥٦٣٧، م ٤ / ١٩٨١ في البر والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها رقم ٢٥٥٦ / ١٨، ١٩.

سبب لطول العمر وكثرة الرزق ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ^(٥٦) له أثره^(٥٧) فليصل رحمه»^(٥٨)، و من يصل الرحم يعظم الله أجره ويحسن إليه ومن يقطعه يحرمه من الإحسان، فإن الجزاء من جنس العمل، ففي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن الرحم شجنة^(٥٩) من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته»^(٦٠).

بعض الناس لا يصل أقاربه إلا إذا وصلوه وهذا ليس بصلة وإنما هو مكافأة له على ما قدم من صلة، وفي الصحيح قوله ﷺ « ليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»^(٦١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملل^(٦٢)، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»،^(٦٣) وقال ابن أبي جمرة^(٦٤): كيفية الوصل للرحم على ضروب مختلفة، منه ما يكون ببذل المال، ومنه ما يكون ببذل العون على ما يحتاجون إليه، ومنه ما يكون بالزيارة لهم، وبالذعاء لهم، وبإكرامهم والبشاشة لهم، وبدفع الضرر عنهم، والمعنى الجامع له: إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفاراً أو فجاراً فمقاطعتهم في الله هي صلّتهم، بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب

٥٧ - الأثر: الأجل، وسمي به لأنه يتبع العمر، وأصله من أثر مشيه في الأرض، فإن من مات لا يرى لأقدامه في الأرض أثراً. انظر النهاية ١ / ٢٣.

٥٨ - خ ٥ / ٢٢٣٢ في الأدب باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم رقم ٥٦٤٠، م ٤ / ١٩٨٢ في البر والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها رقم ٢٥٥٧ / ٢٠.

٥٩ - أي قرابة مشتبكة كاشتباك العروق، شبهه بذلك اتساعاً. النهاية ٢ / ٤٤٧.

٦٠ - خ ٥ / ٢٢٣٢ في الأدب باب من وصل وصله الله رقم ٥٦٤٢، الأدب المفرد ص ٣٦ رقم ٥٥.

٦١ - خ ٥ / ٢٢٣٣ في الأدب باب ليس الواصل بالمكافيء رقم ٥٦٤٥، الأدب المفرد ص ٣٩، رقم ٤٠ رقم ٦٨.

٦٢ - الملل: الرماد الحار، والمراد: إنما تجعل الملة لهم سفوفاً يستفونوه. النهاية ٤ / ٣٦١.

٦٣ - م ٤ / ١٩٨٢ في البر والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها رقم ٢٥٥٨ / ٢٢.

٦٤ - هو أبو محمد عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي من علماء الحديث، له مختصر لصحيح البخاري، توفي بمصر سنة ٦٥٩هـ. البداية والنهاية ١٣ / ٣٤٦، وانظر الأعلام للزركلي ٤ / ٨٩.

تخلفهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهور الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلي،^(٦٥).

المبحث الرابع: التعامل مع الجيران والخلان

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: التعامل مع الجيران.

إن الإسلام قد اهتم بحق الجار اهتماماً كبيراً، وراعاه أيما رعاية وكاد أن يورثه ويجعله كأحد أسرته في النسب لعظم هذا الحق ففي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « ما زال جبريل يوصيني بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه»^(٦٦)، فيجب تفقد حاله والإحسان إليه وإيصال المعروف إليه فقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يا أباذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»^(٦٧)، فبذل المعروف للجار له فضل عظيم ولو بشيء يسير ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: « يا نساء المسلمين، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(٦٨)، وحث الإسلام أيضاً على إكرام الجار ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» الحديث، وفي رواية لمسلم « فليحسن إلى جاره »^(٦٩)، وإذا كان الإحسان إلى الجار هو المشروع المطلوب فيأذاؤه محرم بأي نوع من أنواع الإيذاء فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»^(٧٠)، ومع هذا

٦٥ - بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها لابن أبي جمرة ٤/ ١٤٦ بتصرف ، وانظر الفتح ١٠/ ٤١٨ .
٦٦ - خ / ٢٢٣٩ في الأدب باب الوصاء بالجار رقم ٥٦٦٩، م ٤ / ٢٠٢٥ في البر والصلة باب الوصية بالجار والإحسان إليه رقم ٢٦٢٥ / ١٤١ .

٦٧ - م ٤ / ٢٠٢٥ نفس الباب رقم ٢٦٢٥ / ١٤٢ .

٦٨ - خ / ٥ / ٢٢٤٠ في الأدب باب لا تحقرن جارة لجارتها رقم ٥٦٧١، م ٣ / ٧١٤ في الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بالقليل رقم ١٠٣٠ / ٩٠ . والفرسن عظم قليل اللحم وهو خف البعير كالحافر للدابة . النهاية ٤٢٩ / ٣ .

٦٩ - خ / ٥ / ٢٢٤٠ في الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره رقم ٥٦٧٣، م ١ / ٦٩ في الإيمان باب الحث على إكرام الجار رقم ٤٨ / ٧٧ .

٧٠ - خ / ٥ / ٢٢٤٠ نفس الباب برقم ٥٦٧٢، م ١ / ٦٨ نفس الباب برقم ٧٤ / ٧٥ .

النهي جاء وعيد شديد على الغدر به وخيانتته فعند ما سئل رسول الله ﷺ عن أي الذنب أعظم ، فذكر ذنوباً ثم قال: « أن تزاني حليلة جارك »^(٧١) وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » قيل ومن يارسل الله ؟ قال: « الذي لا يأمن جاره بوائقه »^(٧٢) أي شره ، ما أعظم هذا الإثم بالحرمان من دخول الجنة وعدم الاتصاف بالإيمان الكامل ؛ لأن من خصال الإيمان الصادق أن يحب لأخيه الجار ما يحب لنفسه ، وهذا الذي نطق به الصادق المصدوق ﷺ في قوله : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ما يجب لنفسه »^(٧٣) والجار الذي بابه أقرب الأبواب إليه هو أولى بالمعروف والبر من غيره ؛ لأن الأقرب يرى ما يدخل بيت جاره من طعام وهدية وغيرها ، فيتشوف لها ، بخلاف الأبعد ، سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت : يارسل الله ، إن لي جارتين ، فإلى أيهما أهدي ؟ قال: « إلى أقربهما منك باباً »^(٧٤) فحفظ حق الجار من حسن الإسلام ، ومن كمال الإيمان ، وسبب الترابط وحسن العلاقة بين الجيران ، وإذا ساد بينهم الحب والوثام سعد المجتمع كله .

المطلب الثاني: التعامل مع الخلان .

الخلان جمع خليل وهو الصديق الخالص الناصح،^(٧٥) ولئن كان الحديث هنا عن جميع الإخوة، وليس فقط عن الأصحاب، فإن ذلك للتنبيه على أنه ينبغي للمسلمين جمعاء أن يكونوا كذلك أحياء أصدقاء متكاتفين فيما بينهم، وأذكر هنا جملة من الآداب الإسلامية الحميدة الكريمة يجب على المسلمين جميعاً أن يتحلوا بها، ليكونوا جسداً واحداً وأمة واحدة، على أنني أتناول الحديث عن الإخاء خاصة في فقرة مستقلة إن شاء الله تعالى، وفيما يلي بعض هذه الصفات:

-
- ٧١ - خ ٤ / ١٦٢٦ في التفسير باب قوله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ رقم ٤٢٠٧ ، م ١ / ٩٠ في الإيمان باب كون الشرك أقيح الذنوب وبيان أعظمها بعده رقم ١٤١ / ٨٦ .
٧٢ - خ ٥ / ٢٢٤٠ نفس الباب رقم ٥٦٧٠ ، م ١ / ٦٨ في الإيمان باب تحريم إيذاء الجار رقم ٤٦ / ٧٣ .
٧٣ - م ١ / ٦٨ في الإيمان باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير رقم ٧٢ / ٤٥ .
٧٤ - خ ٥ / ٢٢٤١ نفس الباب رقم ٥٦٧٤ . وانظر الفتوح ١٠ / ٤٤٧ .
٧٥ - المعجم الوسيط ١ / ٢٥٣ .

أولاً: النصيحة:

إن من الأمور الواجبة على المسلم النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولإخوانه المسلمين، وقد جعل النبي ﷺ النصيحة هي الدين كله حيث قال فيما رواه عنه تميم الداري رضي الله عنه: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٧٦)، لذا كان اهتمام النبي ﷺ بهذا الجانب كبيراً حتى كان يبائع أصحابه عليها كما ثبت ذلك في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم،^(٧٧) فهي واجبة بذلها وإن لم يطلبها، وعليه أن ينصحه بإخلاص وابتغاء الأجر والثواب فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم ست» وذكر فيها - وإذا استنصحك فانصح له الحديث^(٧٨)، وينبغي للناصح أن ينصحه مباشرة إذا رأى ذلك مناسباً، وإلا ينصحه بشكل غير مباشر، ويحسن أن يكون ذلك إذا كان منفرداً به وليس على الملأ لما فيها من الإحراج أمام الآخرين، وربما شعر بالتحقير والتنقيص فلا يقبل منه .

ثانياً: حسن الخلق :

الخلق سجية الإنسان وفطرته التي فطره الله تعالى عليها، والخلق إما حسن إذا كانت الأفعال جميلة، وإما سيء إذا كانت الأفعال قبيحة، ووصف عبد الله بن المبارك حسن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى،^(٧٩)، إن حسن الخلق مع الناس والتودد إليهم والانبساط معهم لهو خير ما أعطي الإنسان في هذه الحياة، وكان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، كان خلقه القرآن^(٨٠)،

٧٦ - م ١ / ٧٤ في الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة رقم ٥٥ / ٩٥.

٧٧ - خ ١ / ٣١ في الإيمان باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة رقم ٥٧، م ١ / ٧٥ نفس الباب رقم ٥٦ / ٩٧.

٧٨ - م ٤ / ١٧٠٥ في السلام باب من حق المسلم للمسلم رد السلام رقم ٢١٦٢ / ٥.

٧٩ - ت ٣ / ٢٤٥ في البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق رقم ٢٠٧٣.

٨٠ - م ٤ / ١٨٠٥ في الفضائل باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً رقم ٢٣١٠ / ٥٥، ١ / ٥١٣ في صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل رقم ٧٤٦ / ١٣٩.

وكان يأمر بكمال الأخلاق كما وصفه بذلك صاحبه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ^(٨١)، وقال « فيما رواه عنه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: » إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً « ^(٨٢)، وحسن الخلق هو البر والصلة وحسن الصحبة قال رضي الله عنه عند ما سئل عن البر والإثم: « البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » ^(٨٣)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « إنما بعثت لأتم صالح الأخلاق » ^(٨٤)، ويصف خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه خلقه الكريم وانبساطه إلى الناس وإن كان صغيراً بقوله: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا ، حتى يقول لأخ لي صغير: « يا أبا عمير ما فعل النغير » ^(٨٥) ^(٨٦)، قال له ذلك عند ما رآه حزينا بعد ما مات هذا الطائر الذي كان يلعب به يتلطف به ويخفف عنه ^(٨٧)، ويصفه (صاحبه جرير بن عبد الله رضي الله عنه بقوله: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رأني إلا تبسم في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري وقال: « اللهم ثبته، واجعله هادياً مهدياً » ^(٨٨)، وحسن الخلق وبذل المعروف إلى الناس، خاصة الأهل والأولاد من كمال الإيمان، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم » ^(٨٩)، وإن الذي يعامل الناس معاملة حسنة بلطف وطلاقة وجه يؤجر عند الله سبحانه فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء » ^(٩٠)، فثقل

٨١ - خ ٥ / ٢٢٤٤ معلقاً في الأدب باب حسن الخلق والسخاء .

٨٢ - نفس المصدر ٥ / ٢٢٤٥ رقم ٥٦٨٨

٨٣ - م ٤ / ١٩٨٠ في البر والصلة باب تفسير البر والإثم رقم ٢٥٥٣ / ١٤ .

٨٤ - المسند ١٤ / ٥١٣ ، المستدرک ٢ / ٦١٣ في التاريخ، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي .

٨٥ - النغير تصغير النغر، وهو طائر يشبه العصفور، أحمر المنقار. النهاية ٥ / ٨٦ .

٨٦ - خ ٥ / ٢٢٧٠ في الأدب باب الانبساط إلى الناس رقم ٥٧٧٨ .

٨٧ - انظر الفتح ١٠ / ٥٨٣ .

٨٨ - خ ٥ / ٢٢٦٠ في الأدب باب التبسم والضحك رقم ٥٧٣٩ .

٨٩ - ت ٢ / ٣١٥ في الرضاع باب ما جاء في حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢، قال الترمذي: حديث حسن صحيح .

٩٠ - د ٥ / ٢٧٥ ، ٢٧٦ في الأدب باب في حسن الخلق ، ت ٣ / ٢٤٤ في البر والصلة باب ما جاء في حسن

الخلق رقم ٢٠٧٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح

الميزان يوم القيامة في عيشة راضية، في جنة عالية ، فعن أبي أمامة) قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا زعيم^(٩١) بيت في ربض^(٩٢) الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه^(٩٣)» ألا وإن من فاضل الأخلاق العفو عن أخطاء الناس، والتسامح معهم ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾^(٩٤) قال: ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس،^(٩٥)، ومن صور الخلق الحسن مقابلة الناس بوجه منبسط متهلل ينم عن رضاً وحب فقد روى أبو ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق^(٩٦)» ، فحسن الخلق مع الخلان ومع الناس جميعاً من أفضل القربات إلى الله تعالى ، ومن كمال الإيمان وحسن الإسلام ، وهو سبب تأليف القلوب بين الناس ، ووسيلة السعادة والفلاح في الدارين والله أعلم .

ثالثاً: إفشاء السلام:

إفشاء السلام هو نشر سنة السلام بين المسلمين جميعاً، وهو من الأعمال التي تؤدي إلى الترابط ونشر المحبة والوئام بين أفراد المجتمع المسلم ، وقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة على مشروعيته واستحبابه، وقد حث الإسلام على إفشاء السلام وجعل فيه فضلاً كبيراً وأجرأ عظيماً فقد قال ﷺ: « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم^(٩٧)» ولأهميته أمر به النبي ﷺ حيث قال البراء بن عازب رضي الله عنه

٩١ - الزعيم : الكفيل . النهاية ٢ / ٣٠٣ .

٩٢ - أي ما حولها خارجاً عنها ، تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع . نفس المصدر ٢ / ١٨٥ .

٩٣ - د ه / ٢٧٦ نفس الباب رقم ٤٧٦٧ . وسكت عنه أبو داد .

٩٤ - سورة الأعراف ١٩٩ .

٩٥ - خ ٤ / ١٧٠٢ في التفسير باب ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ رقم ٤٣٧٦ .

٩٦ - م ٤ / ٢٠٢٦ في البر والصلة باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء رقم ٢٦٢٦ / ١٤٤ .

٩٧ - م ١ / ٧٤ في الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون رقم ٥٤ / ٩٣ ، د ه / ٤٣٠ في السلام باب

في إفشاء السلام رقم ٥١٥١ .

: أن النبي ﷺ أمر بسبع ، ونهى عن سبع ، وذكر في الأمور المأمور بها، إفشاء السلام^(٩٨) ، وهو من أفضل الأعمال حيث ذكر عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٩٩) ، فالمشروع هو أن تسلم على كل مسلم عند اللقاء من غير تمييز، والسنة إذا تقابل صغير مع كبير أن يبدأ الصغير بالسلام على الكبير، ويسلم المار على القاعد، والقليل على الكثير، والراكب على الماشي، كما ثبت ذلك في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه^(١٠٠) ، ويجب رد السلام والبدء به أفضل فقد روى أبو أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز»^(١٠١) ، ولا بأس بالمصافحة خاصة إذا قابله بعد فترة أو قدم من سفر، قال قتادة بن دعامة: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبي ﷺ؟ قال: نعم ، وقال كعب بن مالك رضي الله عنه: دخلت المسجد ، فإذا برسول الله ﷺ ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ،^(١٠٢) ، ومن لطف خلقه عليه السلام أيضاً أنه إذا مر بأولاد صغار السن يسلم عليهم تعليماً لهم هذه الشعيرة وتأليفا لقلوبهم ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه رضي الله عنه مر على صبيان فسلم عليهم ، وقال: كان النبي ﷺ يفعلها،^(١٠٣) ، وإفشاء السلام هو طريق المحبة والمودة والتعارف بين أفراد المجتمع المسلم، وبإفشائه يسود الترابط والتعاون والإخاء. والله أعلم.

٩٨ - خ ٢٣٠٢ / ٥ في الاستئذان باب إفشاء السلام رقم ٥٨٨١.

٩٩ - خ ١٩ / ١ في الإيمان باب إفشاء السلام من الإسلام رقم ٢٨ ، ٢٣٠٢ / ٥ في الاستئذان باب السلام للمعرفة وغير المعرفة رقم ٥٨٨٢.

١٠٠ - انظر خ ٢٣٠١ / ٥ في الاستئذان باب تسليم القليل على الكثير، وباب يسلم الراكب على الماشي رقم

٥٨٧٧ ، ٥٨٧٨ ، م ٤ / ١٧٠٣ في السلام باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير رقم ٢١٦٩ / ١

١٠١ - انظر الحديث الأول في د ٥ / ٤٣١ في السلام باب فضل من بدأ بالسلام رقم ٥١٥٥ ، والحديث الثاني

في م ٤ / ١٧٠٤ في السلام باب من حق المسلم للمسلم رد السلام رقم ٢١٦٢ / ٤.

١٠٢ - خ ٢٣١١ / ٥ في الاستئذان باب المصافحة رقم ٥٩٠٨.

١٠٣ - خ ٥ / ٢٣٠٦ في الاستئذان باب التسليم على الصبيان رقم ٥٨٩٣ ، م ٤ / ١٧٠٨ في السلام باب

استحباب السلام على الصبيان رقم ٢١٦٨ / ١٤.

رابعاً: الزيارة:

لاشك أن مبادلة الزيارات بين المسلمين سبب عظيم في زيادة الألفة والمحبة والترابط فيما بينهم ، ولها أثر كبير في توطيد العلاقات وتقوية الصلات بين أفراد المجتمع ، بالإضافة إلى حصول الأجر والثوبة من الله ﷻ على البر والصلة، إذا أخلص الزائر النية الصالحة لله تعالى ، وكان من هدي النبي ﷺ زيارة أصحابه في بيوتهم ، فقد قالت عائشة زوج النبي ﷺ : لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية « الحديث (١٠٤) ، وكان ﷺ أحياناً عندما يزور أحد أصحابه يتناول عندهم الطعام الذي يقدمون له تكريماً له وضيافة، فهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: إن رسول الله ﷺ زار أهل بيت في الأنصار، فطعم عندهم طعاماً، فلما أراد أن يخرج، أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط، فصلى عليه ودعا لهم، (١٠٥) وهذا تكريم منه لأهل هذا البيت ومكافأة لما قدموا له من الاحترام والقري، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبعون هدي النبي ﷺ في كل شيء من التزاور فيما بينهم وتناول ما عندهم من طعام فقد قال أبو جحيفة رضي الله عنه: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاماً، فقال: كُلْ، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بأكل حتى تأكل، قال: فأكل ،، الحديث (١٠٦) ، وزيارة المسلم لأخيه المسلم في الله تعالى فيه أجر عظيم وفضل كبير فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً (١٠٧) ، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها (١٠٨)؟ قال: لا، غير أنني أحببته في الله ، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد

١٠٤ - خ ٥ / ٢٢٥٧ في الأدب باب هل يزور صاحبه كل يوم رقم ٥٧٢٩.

١٠٥ - المصدر نفسه باب الزيارة رقم ٥٧٣٠.

١٠٦ - خ ٢ / ٦٩٥ في الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع رقم ١٨٦٧ . بتصرف .

١٠٧ - أي وكله بحفظ المدرجة، وهي الطريق . النهاية ٢ / ٢٢٦ .

١٠٨ - أي تحفظها وتراعياها وتربها كما يُربى الرجل ولده . النهاية ٢ / ١٨٠ .

أحبك كما أحبته فيه ،،^(١٠٩) ياله من فضل ويا له من جزاء من جنس العمل، وإذا أراد أن يزور أخاً له في الإسلام يستحب أن يعلمه ويستأذنه ولو هاتفياً ، ويختار وقتاً مناسباً ، لا يكون وقت راحة أو شغل أو نحو ذلك، فإذا وصل إلى بيته استأذن ثلاث مرات بقرع الباب برفق أو بالجرس فإن لم يؤذن له رجع ، فقد قال ﷺ: « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع »^(١١٠) ، وينبغي للزائر أو لأي داخل إلى مجلس عام أو خاص أن لا يقيم أحداً من مجلسه ويجلس هو فيه، فإن ذلك مخالف للسنة وقد يكون سبباً للكراهية ، لذا ورد النهي عن ذلك فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، وأمر بالتفسيح والتوسع ، وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه^(١١١) ، ويستحب للزائر أن يدعو لهم خاصة إذا أكل عندهم ، ويتفقد أحوالهم ، ويساعدهم إن كانوا في حاجة إلى ذلك، وبذلك يتم المقصود ويصل إلى الهدف المنشود من الزيارة، ويحصل الترابط والتعاون، والله الموفق .

خامساً: التزام آداب الطرق:

إن شرائع الإسلام استوعبت شتى مناحي الحياة وشؤونها، وتناول كل ما يعرض للمرء من مهده إلى لحده، ولقد جعل الدين الحنيف آداباً للطريق، يستحب للمسلم أن يتبعها ويسير عليها، لينال الأجر والثواب من الله تعالى ويحصل الأمن والطمأنينة للمجتمع ، وقد أجمل النبي ﷺ بعض آداب الطريق وحقوقها فيما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إياكم والجلوس على الطرقات »، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها ، قال: « فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها » قالوا: وما حق الطريق؟ قال: « غض

١٠٩ - م ٤ / ١٩٨٨ في البر والصلة باب في فضل حب الله رقم ٢٥٦٧ / ٣٨ .
 ١١٠ - خ ٥ / ٢٣٠٥ في الاستئذان باب التسليم والاستئذان ثلاثاً رقم ٥٨٩١ ، م ٣ / ١٦٩٤ في الآداب باب الاستئذان رقم ٢١٥٣ / ٣٣ .
 ١١١ - خ ٥ / ٢٣١٣ في الاستئذان باب ﴿ إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا ﴾ الآية رقم ٥٩١٥ .

البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن منكر»^(١١٣)، ويجب على المسلم أن يكف أذاه عن الناس في الطريق، فلا يسبب لهم أي أذى بقول أو بفعل، أو أي تضيق لهم، بوضع القاذورات والمخلفات على قارعة الطرق، وربما تنبعث منها الروائح الكريهة فتؤذي الناس، فذلك محرم، وإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان^(١١٣)، فإزالة الأذى عن الطريق فيه أجر عظيم، من شجر أو حجر أو شوك، أو جيفة أو غير ذلك، فقد روي أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخّره، فشكر الله له، فغفر له» وفي رواية «إن شجرة كانت تؤذي المسلمين، فجاء رجل فقطعها، فدخل الجنة»^(١١٤). وأبشع من ذلك كله التغوط وقضاء الحاجة في الطريق فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللعائين (قالوا: وما اللعائان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهم»^(١١٥).

المبحث الخامس: التعامل مع الخدم وذوي الحاجات

وفيه مطلبان

المطلب الأول: التعامل مع الخدم:

الخدم يشمل العبيد والأرقاء، والذين يخدمون الناس في بيوتهم من الأحرار، فقد جاءت وصية الرسول ﷺ في حسن معاملة هؤلاء وتقدير ظروفهم فيما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم حولكم»^(١١٦)، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس،

١١٢ - خ ٢ / ٨٧٠ في المظالم باب أفنية الدور والجلوس فيها رقم ٢٣٣٣، م ٣ / ١٦٧٥ في اللباس والزينة باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطرق حقه رقم ٢١٢١ / ١١٤.
 ١١٣ - م ١ / ٦٣ في الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان رقم ٣٥ / ٥٨.
 ١١٤ - م ٤ / ٢٠٢١ في البر والصلة باب فضل إزالة الأذى عن الطريق رقم ١٩١٤ / ١٢٧، ١٣٠.
 ١١٥ - م ١ / ٢٢٦ في الطهارة باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال رقم ٢٦٩ / ٦٨.
 ١١٦ - الخول - بفتح المعجمة والواو - الخدم، سموا بذلك لأنهم يتخولون الأمور أي يصلحونها. الفتح ١٧٤ / ٥.

ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»^(١١٧) وصية كريمة واضحة، رائعة لهؤلاء أصحاب الظروف الخاصة، نابعة من مشكاة النبوة، ومن وحي يسر الدين الحنيف، وصية أخرى في هذا الشأن رواها أبو اليسر كعب بن عمر رضي الله عنه قال عن غلامه: بصر عيني هاتين، وسمع أذني هاتين، ووعاه قلبي هذا - وأشار إلى مناط قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول: «أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون»، وكان أن أعطيته من متاع الدنيا أهون عليّ من أن يأخذ من حسناتي يوم القيامة»،^(١١٨)، ووصية ثالثة مشابهة، رواها أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق»^(١١٩)، ثم يفصل هذا الحق للخادم بالتوسعة في مأكله ومشربه في رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين، فإنه ولي علاجه»^(١٢٠) أي تولى صنعه وتجهيزه، فلا يجوز سوء المعاملة مع المستخدمين ولا حرمانهم من حقوقهم، هذا ما نجد فيما يرويه عبد الله بن عمرو) إذ جاءه قهرمان^(١٢١) له، فدخل، فقال: أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم. قال: قال رسول الله ﷺ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته»^(١٢٢)، وإذا كان الخدم من جنس النساء، ففيها التوصية الخاصة من الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له جارية فعالها فأحسن إليها، ثم أعتقها وتزوجها، كان له أجران»^(١٢٣)، أجر التعليم والتأديب والتربية والتنشئة الصالحة، وأجر العتق، ويكره التطاول على الرقيق واستعمال الألفاظ الجارحة لشعورهم، وقد جاء

١١٧ - خ ٢ / ٨٩٩ في العتق باب قول النبي (العبيد إخوانكم رقم ٢٤٠٧، م ٣ / ١٢٨٣ في الأيمان باب إطعام المملوك مما يأكل رقم ٤٠ / ١٦٦١.

١١٨ - م ٤ / ٢٣٠٢ في الزهد والرفاقق باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر رقم ٧٤ / ٣٠٠٦.

١١٩ - م ٣ / ١٢٨٤ في الأيمان باب إطعام المملوك مما يأكل رقم ١٦٦٢ / ٤١. الموطأ للإمام مالك ٢ / ٩٨٠.

١٢٠ - خ ٢ / ٩٠٢ في العتق باب إذا أتاه خادمه بطعامه رقم ٢٤١٨.

١٢١ - هو كالحازن والوكيل والحافظ لما تحت يده، والقائم بأمر الرجل. النهاية ٤ / ١٢٩.

١٢٢ - م ٢ / ٦٩٢ في الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك رقم ٤٠ / ٩٩٦.

١٢٣ - خ ٢ / ٨٩٩ في العتق باب فضل من أدب جاريته وعلمها رقم ٢٤٠٦.

النهي عن مخاطبة المملوك والمملوكة بالعبد والأمة، ومخاطبة السيد بالرب، لأن حقيقة الربوبية لله تعالى دون سواه، والإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله، وترك الإشراك معه، قال ﷺ: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، وليقل: سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي» (١٢٤).

والعبد بدوره مسئول عن استمرار حسن العلاقة بينه وبين سيده، وهو مسئول مسؤولية كاملة على ما وكل إليه من أعمال، وما أودع إليه من أموال قال ﷺ: «والعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه» (١٢٥)، والمملوك الملتزم المحافظ على أداء فرائض الله تعالى وأداء خدمة سيده على الوجه المطلوب له الأجر مرتين من الله تعالى، روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا نصح العبد سيده، وأحسن عبادة ربه، كان له أجره مرتين» (١٢٦)، وتفصيل أكثر من ذلك فيما رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «المملوك الذي يحسن عبادة ربه، ويؤدي إلى سيده الذي له عليه من الحق والنصيحة والطاعة، له أجران» (١٢٧) والله أعلم.

المطلب الثاني: التعامل مع ذوي الحاجات.

إن الإنسان في هذه الحياة معرض لبعض المصائب والنكبات، وما ذلك إلا بقدر الله سبحانه ومشيئته، ومن صفات المؤمن أنه إذا أصابته السراء شكر، وإذا أصابته الضراء صبر واحتسب، ولكن الواجب المطلوب من كل مسلم أن يقف مع أخيه المسلم الذي وقع في مصيبة أو ضائقة، بمساعدته بما يستطيع، وأن يهون عليه ما أصابه، وهذا من التعاون بالمعروف، والتضامن الاجتماعي المطلوب، وأذكر هنا

١٢٤ - خ ٩٠١/٢ في العتق باب كراهية التطاول على الرقيق رقم ٢٤١٤.

١٢٥ - خ ٩٠١/٢ في العتق باب كراهية التطاول على الرقيق رقم ٢٤١٦، م ١٤٥٩/٣ في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٩/٢٠.

١٢٦ - خ نفس الباب رقم ٢٤١٢، م ١٢٨٤/٣ في الأيمان باب ثواب العبد وأجره إذا نصح لسيدته رقم ١٦٦٤/٤٣.

١٢٧ - نفس المصدر برقم ٢٤١٣.

بعض النصوص الدالة على مشروعية الوقوف بجانب المصاب بالحاجة والضيق ونحو ذلك لينال الأجر والعون من الله تعالى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»^(١٢٨)، وفي رواية أخرى: «كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار مالك راوي الحديث بالسبابة والوسطى.^(١٢٩)، فالصدقة على المحتاجين من الأيتام والمسكين ونحوهم من أفضل الأعمال؛ لأن فيها مواساة وتكافلاً، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «بيننا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة، استق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فتنبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: استق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأصدق بثلثه، وأكل وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه»، وفي رواية: «وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل»^(١٣٠)، وربما يصاب الإنسان بحاجة وضائقة مالية فيستدين من الناس ليسد حاجته، ثم قد يعجز عن سداد هذا الدين ولم يتحسن وضعه المالي، فينبغي لصاحب الدين الموسر أن يمهله إلى وقت السعة، أو يضع عنه هذا الدين أو جزءاً منه لوجه الله تعالى، وهذا فيه فضل كبير، يغفر الله له بسبب ذلك ويعفو عنه، كما في حديث حذيفة (مرفوعاً: أن الله سبحانه قد تجاوز وعفا عن تاجر ممن كان قبلنا كان ينظر المعسر الذي ليس لديه ما يسدد به ديونه إلى وقت اليسار)^(١٣١)، فهذا التاجر بهذا

١٢٨ - خ ٢٢٣٧/٥ في الأدب باب الساعي على الأرملة رقم ٥٦٦٠، م ٢٢٨٦/٤ في الزهد باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم رقم ٢٩٨٢/٤١.
 ١٢٩ - م ٢٢٨٧/٤ نفس الباب رقم ٢٩٨٣/٤٢.
 ١٣٠ - م ٢٢٨٨/٤ باب الصدقة في المساكين رقم ٢٩٨٤/٤٥. بتصرف واختصار.
 ١٣١ - خ ٧٣١/٢ في البيوع باب من أنظر موسراً رقم ١٩٧١، م ١١٩٤/٣، في المساقاة باب فضل إنظار المعسر رقم ١٥٦٠/٢٦.

العمل الخيّر استحق العفو والصفح من الله العفوّ الكريم، بل يكون هو في رحمة الله وتحت ظله فعن أبي اليسر كعب بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله»^(١٣٣)، وإذا وقع أحد المسلمين في الأسر لدي الكفار فقد جاء في ذلك التوجيه النبوي الكريم بالسعي لفك أسر أخيه المسلم، ولا شك أن الله يكتب له الحسنات في هذا العمل المبارك، روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فكوا العاني يعني الأسير وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»^(١٣٣)، ومن ذلك قصة الصحابي الفقير الذي وقع على امرأته في نهار رمضان، وليس لديه ما يكفر به بعثت رقبة، ولا يستطيع صيام شهرين متتابعين، ولا يملك ما يطعم به ستين مسكيناً، وجاء رجل من الأنصار بزنبيل من تمر، وقال الرسول ﷺ للرجل الفقير: «اذهب بهذا فتصدق به»، أي كفارة للجماع في نهار رمضان، قال الرجل: على أحوج منا يا رسول الله؟ والذي بعثك بالحق ما بين لابتيها^(١٣٤) أهل بيت أحوج منا، قال: «اذهب فأطعمه أهلك»^(١٣٥).

ومن صور الإحسان إلى أصحاب الحاجات أنه إذا مرّ به المسافر المنقطع عن بلده، يبذل له ما لديه من الخير وخاصة الماء الذي هو ضروري لحياة الإنسان، ولا يستغنى عنه بأي حال، ورد في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزيكهم، ولهم عذاب أليم، رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل» الحديث^(١٣٦)، فمنع الخير عن محتاجه مع يسر صاحبه ذنب كبير، جعل الله له هذا العقاب الشديد، ثم هو يؤدي إلى النفرة والفرقة بين الناس، وبذل الخير لأهل الفاقة والحاجة، نشر للحب والمواساة والترابط بين أفراد المجتمع.

١٣٢ - م ٢٣٠٢/٤ في الزهد والرفائق باب حديث جابر الطويل رقم ٣٠٠٦ / ٧٤.

١٣٣ - خ ١١٠٩/٣ في الجهاد باب فكك الأسير رقم ٢٨٨١.

١٣٤ - اللابة: الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود والمدينة بين لابتين عظيمتين. النهاية ٤/ ٢٧٤.

١٣٥ - خ ٩١٨/٢ في الهبة باب إذا وهب هبة فقبضها آخر ولم يقل قبلت رقم ٢٤٦٠، م ٧٨١/٢ في الصيام باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان رقم ٨١/١١١١.

١٣٦ - انظر الحديث الأول في م ١٣٥٤/٣ في اللقطة باب استحباب المؤاساة بفضول المال رقم ١٧٢٨/١٨، والحديث الثاني في خ ٨٣١/٢ في المساقاة باب إثم من منع ابن السبيل من الماء رقم ٢٢٣٠.

المبحث السادس: التعامل مع غير المسلم

وفيه مطلبان

المطلب الأول: التعامل مع المشركين.

جهاد المشركين في سبيل إعلاء كلمة الله، أمر واجب، ، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا^(١٣٧)، والجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال وهو ذروة سنام الإسلام، وللجهاد في سبيل الله آداب وتعليمات من النبي ﷺ، يجب على المجاهد اتباعها والتقيدها بها ليؤدى العمل على الوجه المطلوب، ويصل إلى الهدف المنشود ولا سيما في حالة الاستنفار، قال ﷺ: « لا هجرة بعد الفتح»، هذه التعليمات أجملها النبي ﷺ فيما رواه عنه بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو صاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: « اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام » الحديث^(١٣٨)، ويقول أبو موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: « بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»^(١٣٩) وهذا ما نجده في سيرته (في قصة إسلام ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة، عند ما أسر وربط بسارية من سواري المسجد ودار حوار بينه وبين النبي ﷺ ثم أمر بإطلاق سراحه بعد ثلاثة أيام، فأسلم بعد ما وجد التيسير وحسن الخلق عند النبي ﷺ^(١٤٠)، انظر ما أعظم نتيجة الحلم والتيسير، وإذا كان المشرك أحد الأبوين أو من الأقرباء فيجوز صلتهم والإحسان إليهم ويكون في ذلك تأليفاً لقلوبهم،

١٣٧ - خ ١٠٢٥ / ٣ في الجهاد باب فضل الجهاد والسير رقم ٢٦٣١.
١٣٨ - م ١٣٥٧ / ٣ في الجهاد باب تأمير الإمام الأمراء رقم ١٧٣١ / ٢.
١٣٩ - م ١٣٥٨ / ٣ باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير رقم ١٧٣٢ / ٦.
١٤٠ - انظر م ١٣٨٦ / ٣ في الجهاد والسير باب ربط الأسير وحبسه رقم ١٧٦٤ / ٥٩.

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : قدمت عليّ أُمي وهي مشركة، في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أُمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أُمي؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(١٤١)، وثبت أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أرسل بهدية حلة إلى أخ له من أهل مكة، قبل أن يسلم.^(١٤١)، وكان من هدي النبي ﷺ قبول الهدية من المشركين تطيباً لخاطرهم وترغيباً لهذا الدين الحق المبين فقد قبل من ملك أيلة بغلة بيضاء، وكساءً برداً^(١٤٣)، وكان حريصاً على إيصال الخير لكل الناس بما فيهم المشركون، فقد دعا لقبيلة دوس عندما عصت وأبت قال: «اللهم اهد دوساً وأت بهم»^(١٤٤) والله أعلم .

المطلب الثاني: التعامل مع أهل الكتاب وأهل الذمة .

عاش المسلمون في المدينة مع طوائف من اليهود، وتوجد طوائف من النصراني في جزيرة العرب، وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، كتب كتاباً مع اليهود، ضبط فيه ما لهم وما عليهم لأن اليهود فيهم خبث ودهاء ونقض العهود والمواثيق، وكان ﷺ في غزواته مع اليهود يطبق نفس الآداب التي تقدمت في المطلب الأول، وقال ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند ما بعثه على اليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله» الحديث في بيان فرائض الإسلام^(١٤٥)، وكان يدعوهم إلى الإسلام قبل مهاجمتهم، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما أرسله إلى يهود خيبر قال: «على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم»^(١٤٦) وبعد فتح

١٤١ - خ ٢ / ٩٢٤ في الهبة باب الهدية للمشركين رقم ٢٤٧٧، م ٢ / ٦٩٦ في الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقرنين رقم ١٠٠٣ / ٤٩.

١٤٢ - خ ٢ / ٩٢٤ في الهبة باب الهدية للمشركين رقم ٢٤٧٦، م ٥ / ٢٢٣٠ في الأدب باب صلة الأخ المشرك رقم ٥٦٣٦.

١٤٣ - انظر خ ٢ / ٥٣٩ في الزكاة باب حرص التمر رقم ١٤١١.

١٤٤ - خ ٣ / ١٠٧٣ في الجهاد باب الدعاء للمشركين رقم ٢٧٧٩، م ٤ / ١٩٧٥ في فضائل الصحابة باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة رقم ٢٥٢٤ / ١٩٧.

١٤٥ - خ ٢ / ٥٢٩ في الزكاة باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس رقم ١٣٨٩، م ١ / ٥٠ في الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين رقم ٢٩ / ٢٩.

١٤٦ - خ ٣ / ١٠٧٧ في الجهاد باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام رقم ٢٧٨٣، م ٤ / ١٨٧٢ في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رقم ٢٤٠٦ / ٣٤.

خيبر وخضوعهم لحكم الرسول ﷺ تعاقد معهم على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها^(١٤٧)، وذلك ليستفيد من خبرتهم في مجال الزراعة، وكان ﷺ يتلطف مع المسلمين والضعفاء من اليهود، روى أنس بن مالك) أن غلاماً ليهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «أسلم» فأسلم^(١٤٨).

وأهل الذمة هم المعاهدون من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم، قد يضطر المسلمون إلى استقدام غير المسلمين في البلدان الإسلامية، للضرورة كالمهريين في تخصصات علمية وتقنيات نادرة، وليس لدى المسلمين من يقومون بهذه الأعمال، ولا بد لنا أن نعامل هؤلاء معاملة خاصة تخدم الدعوة الإسلامية، وترعى المصالح العامة للمسلمين، وقد نهانا النبي ﷺ أن نبدأ أهل الكتاب بالسلام^(١٤٩)، حتى لا يشعروا بالعزة والمنعة واحترام المسلمين لهم، والمسلم أعلى مرتبة عند الله من هؤلاء، ولكن ينبغي الرفق بهم وعدم الفحش معهم، والعدل والإحسان مظهر من مظاهر ديننا الحنيف، وصلة الكافر لا يمنعه الشرع كما تقدم، خاصة إن كان جاراً أو معاهداً، وقد أصدرت اللجنة الدائمة للإفتاء فتوى بهذا الخصوص يجوز أن نطعم الكافر المعاهد والأسير من لحوم الأضاحي، ويجوز إعطاؤه منها لفقره أو قرابته، أو جواره، أو تأليف قلبه، للآية الكريمة، ولقصة أسماء رضي الله عنها^(١٥٠)، ومن هنا ندرك سماحة الإسلام وسمو تعاليمه، فالواجب على المسلم أن لا يظلم غير المسلمين في دم أو مال أو عرض، إذا كان

١٤٧ - خ ٨٢١ / ٢ في المزارعة باب المزارعة مع اليهود رقم ٢٢٠٦.

١٤٨ - خ ٢١٤٢ / ٥ في المرضى باب عيادة المشرك رقم ٥٣٣٣.

١٤٩ - م ١٧٠٦ / ٤، ١٧٠٧ في السلام باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام رقم ٢١٦٥ / ١٠، ١٣ / ٢١٦٧.

* قال الإمام النووي في مسألة النهي عن بدأ أهل الكتاب بالسلام: "اختلف العلماء في رد السلام على الكفار وابتدائهم به، فمذهبنا تحريم ابتدائهم به ووجوب رده عليهم بأن يقول: وعليكم. قال: وبه قال أكثر العلماء وعامة السلف، وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام روي ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة وابن أبي محيريز. قال: وحكى القاضي عن جماعة أنه يجوز ابتدائهم به للضرورة والحاجة أو سبب وهو قول علقمة والنخعي، وعن الأوزاعي أنه قال: إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون،، انظر شرح صحيح مسلم للنووي ١٤ / ١٤٥، وانظر الفتح ١١ / ٤٥.

١٥٠ - فتاوى اللجنة الدائمة ١ / ٩٨.

ذمياً أو مستأمناً أو معاهداً، وجاء وعيد شديد لمن يقتل معاهداً بدون حق ، فقد قال ﷺ: « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»^(١٥١)، والغدر بعد المعاهدة إثم كبير ومن أعمال المنافقين، قال رسول الله ﷺ: « أربع خلال من كن فيه كان منافقاً خالصاً: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» الحديث^(١٥٢)، وفي احترام الذمة والوفاء بها يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ، وأن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم،^(١٥٣)، وما ذلك إلا لعظم حق الجوار والذمة، فلا يجوز الغدر بها البتة ، لذا قال ﷺ في حديث آخر: « ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل» الحديث^(١٥٤)، هكذا راعى الإسلام حقوق جميع فئات المجتمع ، بما فيهم الكفار وأهل الذمة ليستتب الأمن وينتشر الرخاء ويتحقق الترابط بإذن الله تعالى ، والله تعالى أعلم.

١٥١ - خ ٣ / ١١٥٥ في الجزية باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم رقم ٢٩٩٥.
 ١٥٢ - خ ٣ / ١١٦٠ في الجزية باب إثم من عاهد ثم غدر رقم ٣٠٠٧، م ١ / ٧٨ في الإيمان باب بيان خصال المنافق رقم ١٠٦ / ٥٨.
 ١٥٣ - خ ٣ / ١١١١ في الجهاد باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسرقون رقم ٢٨٨٧.
 ١٥٤ - نفس المصدر ٣ / ١١٦٠ باب إثم من عاهد ثم غدر رقم ٣٠٠٨، م ٢ / ٩٩٤، ٩٩٨ في الحج باب فضل المدينة رقم ١٣٧٠ / ٤٦٧.

الفصل الثاني

العوامل التي تساعد على ترابط المجتمع والعوامل التي تساعد على تفككه كما وضحتها السنة النبوية

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: صفات حميدة تعمل على تقوية ترابط المجتمع

إن القيم الحضارية والشيم الإسلامية في السنة النبوية المطهرة واضحة في منهاجها، كاملة في أهدافها ومقاصدها، حيث عنيت السنة أيما عناية ببيان الصفات الكريمة الفاضلة، الدالة على معالي الأخلاق، والمرشدة إلى مبادئ المكارم، والمعينة على تقوية الصلات والروابط بين المسلمين، وتناولت هذا المبحث في خمسة مطالب:

المطلب الأول: الصدق والوفاء والأمانة:

أولاً: الصدق:

الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً، فإذا انخرم شرط لم يكن صدقاً تاماً^(١٥٥)، ولا شك أن الصدق صفة حميدة من صفات المؤمنين الأبرار، والتزام الشخص بالصدق في أقواله وأفعاله، وجميع تصرفاته يجعله موضع احترام الجميع، ويكون محبوباً لدى الناس، ويكون مقرباً عند الله تعالى في الدرجة العليا، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون عند الله صديقاً » الحديث^(١٥٦)، والبر اسم جامع للخيرات كلها، فإذا كان الصدق سجية للشخص بتكراره والتزامه يستحق اسم المبالغة في الصدق وهو الصديق، والصديق

١٥٥ - المفردات للراغب الأصبهاني ص ٢٧٧ وانظر الفتح ١٠ / ٥٠٧ .
١٥٦ - خ ٥ / ٢٢٦١ في الأدب باب قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ رقم ٥٧٤٣ م ٤ / ٢٠١٢ في البر والصلة باب قبح الكذب وحسن الصدق رقم ٢٦٠٧ / ١٠٣ .

درجته بعد النبيين مباشرة وقبل الشهداء والصالحين^(١٥٧) ، والصدق عاقبته طيبة مرضية ، فهذا كعب بن مالك ورفيقاه رضي الله عنهما صدقوا الله ورسوله حين تخلفوا عن الرسول) في غزوة تبوك فرجع الله ذكرهم وأنزل في شأنهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة^(١٥٨) ، ووصف الله عباده المتقين بأنه جعل لهم مدخل صدق ومخرج صدق ، ولسان صدق في الآخرين ، وقدم صدق ومقعد صدق ، والرسول صلى الله عليه وسلم إمام المتقين الصادقين كان يلقب قبل مبعثه بالصادق الأمين ، وقد زحرت السنة ببيان فضل الصدق ، وهو موجب لدخول الجنة ، ويدل عليه ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم ، أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم» الحديث^(١٥٩) ، والصدق منجى من المصائب والنكبات ، وأكبر دليل على ذلك ما جاء في الصحيحين قصة ثلاثة نفر ممن كان قبلنا أصابهم مطر ، فأووا إلى غار فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض: والله لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فدعا كل منهم بدعاء صدق فيه ، ففرج الله عنهم فخرجوا^(١٦٠) ، فالصدق سبب استجابة الدعاء قال صلى الله عليه وسلم: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه»^(١٦١) ، فالصدق طريق الجنة وسبيل النجاة ، ووسيلة الفوز والصفاء والتواد بين الناس . والله أعلم .

ثانياً: الوفاء .

الوفاء ضد الغدر ، وهو إتمام العهد وحفظه ، وهو صدق اللسان والفعل معاً ، والوفاء من صفات الأنبياء والمؤمنين الصادقين ، ومن سمات الإيمان ، والوفاء

١٥٧ - انظر الآية ٦٩ من سورة النساء .

١٥٨ - خ ٤ / ١٧١٨ ، ١٧١٩ في التفسير باب ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ الآية رقم ٤٤٠٠ .

١٥٩ - المستدرک ٤ / ٣٥٨ ، ٣٥٩ في الحدود وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبي: صحيح فيه إرسال .

١٦٠ - خ ٣ / ١٢٧٨ في الأنبياء باب حديث الغار رقم ٣٢٧٨ .

١٦١ - م ٣ / ١٥١٧ في الإمارة باب استحباب طلب الشهادة رقم ١٥٦ / ١٩٠٨ ، ١٥٧ / ١٩٠٩ .

طريق الوصول إلى الأجر العظيم والجنة، وقد تقدم قريباً حديث عبادة رضي الله عنه في الصفات التي يستحقون بها الجنة وفيه (وأوفوا إذا وعدتم)، وإذا كان بين شخص أو قوم آخر عهد وعقد لا بد من الوفاء والالتزام به، فقد قال عمرو بن عبسة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»^(١٦٢)، فالوفاء صفة من الصفات الحميدة الفاضلة وهي صفة أساسية لبناء المجتمع الإسلامي، وكل العلاقات الاجتماعية والعهود تتوقف على الالتزام والوفاء، والمسلم الملتزم بالوفاء يكون في سعادة دائمة، وبالتالي يكون المجتمع في ترابط مستمر وأمن مستتب.

ثالثاً: الأمانة.

الأمانة خلق كريم من الأخلاق الإسلامية الحميدة، ومن السجايا النبيلة، يتصف بها المسلم الملتزم، وتشتمل على أداء جميع العبادات، من صلاة وزكاة وصيام، وأداء الودائع وتسديد الديون، وغير ذلك من الطاعات وجميع التكاليف الشرعية، جاء الأمر الإلهي بتحقيقها ورعايتها^(١٦٣)، وأداء الأمانة من أهم صفات المؤمنين وأكبر دلائل الإيمان ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾^(١٦٤) والنبى ﷺ سيد الأمانة كان يعرف بالصدق والأمانة قبل البعثة، وكانت لديه ودائع الناس وأماناتهم بما فيهم المشركون؛ لأنه كان موضع ثقة ونزاهة وعفة، وصفه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عند النجاشي بقوله: وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار،^(١٦٥) وفي الحديث الشريف قوله ﷺ: «أد

١٦٢ - ٣/ ٣٣٦ في الجهاد باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد رقم ٢٧٥٣. ت ٣/ ٧١ في أبواب السير باب ما جاء في الغدر رقم ١٦٢٩ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
١٦٣ - انظر الآية ٢٨٣ من سورة البقرة، والآية ٥٨ من سورة النساء.
١٦٤ - سورة المؤمنون ٨.
١٦٥ - المسند ٣/ ٢٦٦ رقم ١٧٤٠، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي ٦/ ٢٦ وقال: رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»^(١٦٦)، ومن مجالات الأمانة حفظ أسرار الزوجية بين الزوجين فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»^(١٦٧)، كان هذا من أعظم الأمانة لما فيه من مفسد عظيمة و عواقب وخيمة، ومن ذلك أيضاً حفظ جميع الأسرار فإن الأسرار أمانة وخاصة سر رسول الله ﷺ، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا أَلعب مع الغلمان، قال: فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر. قالت: لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحداً،^(١٦٨) فالأمانة مصدر الفلاح، وينبوع الخير والصلاح، ما ارتفعت الأمة إلا بها، ولا ارتقت إلا لأجلها، ويحفظ بها الدين والأعراض والأموال وغيرها، والمجتمع الذي تفسو فيه الأمانة يسود فيه الحب والإخاء والترابط بين أفراده. والله أعلم.

المطلب الثاني: الرفق والتواضع.

أولاً: الرفق:

إن الله قد بعث نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين بالهداية واليسر والسهولة، وكان أوسع الناس خلقاً، وأكرمهم سجية، وأخصهم ملازمة للفضائل الزاكية والأخلاق العالية، وكان الرفق ديدنه، واتساع الصدر عاداته طول حياته، والرفق هو اللطف ولين الجانب، والأخذ باليسر والسهل من القول والفعل، وهو ضد العنف والتشدد، وهو من الصفات الحميدة، ومن الأخلاق الكريمة، والرفق مطلوب في كل شيء والعكس مكروه ومردود في كل شيء أيضاً، ففي السنة

١٦٦ - د ٤ / ١٩٣ في البيوع باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده رقم ٣٥٢٨، ت ٢ / ٣٦٨ في البيوع باب رقم ١٢٨٢.

١٦٧ - م ٢ / ١٠٦٠ في النكاح باب تحريم إفشاء سر المرأة رقم ١٤٣٧ / ١٢٣.

١٦٨ - م ٤ / ١٩٢٩ في فضائل الصحابة باب من فضائل أنس رقم ٢٤٨٢ / ١٤٥، الأدب المفرد ص ٣٧٧ بلفظ "فاحفظ سر رسول الله ﷺ"، رقم ١١٤٢.

المطهرة ما يدعو إلى التحلي بالرفق ونبذ العنف، فعن جرير بن عبد الله (يقول: قال رسول الله ﷺ « من يحرم الرفق يحرم الخير » فالخير كل الخير والفلاح كل الفلاح في الرفق واللين ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « يا عائشة! إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه » ما أعظم هذه الصفة التي اتصف الله بها ومحبوته لديه ويؤجر على من يتصف بها من عباده ، وعن النبي ﷺ قال: « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه »^(١٦٩)، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « يا أنجشة! رويدك سوقاً بالقوارير »^(١٧٠)، أي سق سوقاً رفيقاً بالنساء، وسمي النساء بالقوارير لضعف عزائمهن تشبيهاً بقارورة الزجاج لضعفها وإسراع الانكسار إليها،^(١٧١) ، وفي حديث سلام اليهود على الرسول ﷺ قوله لعائشة: « مهلاً يا عائشة! عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش »^(١٧٢)، ومن الرفق المطلوب مراعاة الإمام أحوال المصلين والتخفيف عن الضعفاء وكبار السن روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء »^(١٧٣)، وكذا الرفق بصغار السن مطلوب من الأئمة ، روى أبو قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، كراهية أن أشق على أمه »^(١٧٤)، والرفق مطلوب ومشروع أيضاً في الحيوانات ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: « إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا

١٦٩ - انظر هذه الأحاديث في م ٤ / ٢٠٠٣، ٢٠٠٤ في البر والصلة باب فضل الرفق رقم ٢٥٩٢ / ٧٤،

٢٥٩٣ / ٧٧، ٢٥٩٤ / ٧٨، ٥ د ٢٧٨ / ٥٥ في الأدب باب في الرفق رقم ٤٧٧٤.

١٧٠ - م ٤ / ١٨١١ في الفضائل باب رحمة النبي ﷺ للنساء رقم ٢٣١٣ / ٧٠.

١٧١ - شرح صحيح مسلم للنووي ١٥ / ٨١.

١٧٢ - خ ٥ / ٢٢٤٣ في الأدب باب لم يكن النبي (فاحشاً ولا متفحشاً رقم ٥٦٨٣.

١٧٣ - خ ١ / ٢٤٨ في الجماعة والإمامة باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء رقم ٧٦١، م ١ / ٣٤١ في الصلاة

باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام رقم ٤٦٧ / ١٨٣

١٧٤ - خ ١ / ٢٥٠ في الجماعة والإمامة باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي رقم ٦٧٥.

ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»^(١٧٥)، فالرفق والرحمة زينة الحياة، وروح المحبة والترابط والتعاون بين الناس.

ثانياً: التواضع:

التواضع هو إظهار التنزل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه، وقيل هو تعظيم من فوّه لفضله، وعدم الترفع، وترك المباهاة

والمفاخرة، والناس لو استعملوا التواضع لزال عنهم الشحناء والبغضاء، ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة^(١٧٦)، وإذا كان التواضع هو التنزل يجازيه الله تعالى برفع درجته عنده، روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»^(١٧٧)، ويؤيده حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»^(١٧٨)، وقال ﷺ: «... وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»^(١٧٩) والمتواضع والزاهد محبوب عند الله مكرم مجاب الدعوة فقد قال ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»^(١٨٠)، وكان كريم الأخلاق لطيف السجايا، لين الجانب، كانت الأمة من إماء أهل المدينة، لتأخذ بيد رسول الله (الله) فتنتلق به حيث شاءت^(١٨١)، ومن حسن تواضعه ﷺ في اللباس وزهده في الدنيا ما رواه أبو بردة قال: دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً، مما يصنع باليمن، وكساء من التي يسمونها الملبدة أي المرقعة -، قال: فأقسمت بالله

١٧٤ - خ ١ / ٢٥٠ في الجماعة والإمامة باب من أخف الصلاة عند بقاء الصبي رقم ٦٧٥.

١٧٥ - م ٣ / ١٥٤٨ في الصيد والذباح باب الأمر بإحسان الذبح والقتل رقم ١٩٥٥ / ٥٧.

١٧٦ - الفتح ١١ / ٣٤١.

١٧٧ - خ ٥ / ٢٣٨٤ في الرقاق باب التواضع رقم ٦١٣٦.

١٧٨ - م ٤ / ٢٠٠١ في البر والصلة باب استحباب العفو والتواضع رقم ٢٥٨٨ / ٦٩.

١٧٩ - م ٤ / ٢١٩٩ في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار

رقم ٢٨٦٥ / ٦٤، د ٥ / ٣١١ في الأدب باب في التواضع رقم ٤٨٥٩.

١٨٠ - م ٤ / ٢٠٢٤ في البر والصلة باب فضل الضعفاء والخاملين رقم ٢٦٢٢ / ١٣٨.

١٨١ - خ ٥ / ٢٢٥٥ في الأدب باب الكبر رقم ٥٧٢٤.

إن رسول الله ﷺ قبض في هذين الثوبين،^(١٨٢)، ومن حسن تواضعه وكريم أخلاقه أنه كان يقبل من الهدايا ولو كان شيئاً يسيراً قال: «لو دعيت إلى ذراع، أو كراع^(١٨٣) لأجبت، ولو أهدي إلى ذراع أو كراع لقبلت»^(١٨٤)، فالتواضع خلق كريم من شيم المتقين، وهو وسيلة التقرب إلى الله سبحانه، وسبب التآلف والتحاب والترابط بين إخوانه المؤمنين.

المطلب الثالث: الصبر والتحمل والحلم والصفح.

أولاً: الصبر والتحمل:

الصبر هو الاحتمال والتجلد وعدم الجزع، وحبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو يقتضيان حبسها عنه^(١٨٥)، والصبر له أهمية كبيرة في الإسلام، فهو من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لا صبر له، والصبر والمصابرة من أخلاق الأنبياء والمرسلين وآداب الصالحين، وذكره الله في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً، والصابرون دائماً في معية الله بحفظه ورعايته وعونه وتوفيقه وتسديده إياهم، والله سبحانه يحب الصابرين، ويشبههم ويعلي درجتهم، وقال ﷺ في فضيلة الصبر وفائدته: «... من يصبر يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر»^(١٨٦)، والصبر أنواع منها: الصبر عن محارم الله وهو أن يحبس الإنسان نفسه عن الوقوع فيما حرم الله من الأقوال والأفعال، قال ﷺ: «ما يكون عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله ولن تعطوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(١٨٧)، ومن أنواع الصبر احتمال إيذاء الناس إياه، بالقول أو الفعل من

١٨٢ - م ١٦٤٩ / ٣ في اللباس باب التواضع في اللباس رقم ٣٤ / ٢٠٨٠، وانظر النهاية ٤ / ٨٩، ٢٢٤.
١٨٣ - الكراع من الغنم والبقر بمنزلة الوظيف من الفرس وهو مستدق الساعد. المصباح المنير للفيومي ٢ / ٥٣١.

١٨٤ - خ ٩٠٨ / ٢ في الهبة باب القليل من الهبة رقم ٢٤٢٩.

١٨٥ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٧٣.

١٨٦ - م ٧٢٩ / ٢ في الزكاة باب فضل التعفف والصبر رقم ١٠٥٣ / ١٢٤.

١٨٧ - خ ٥ / ٢٣٧٥ في الرقاق باب الصبر عن محارم الله رقم ٦١٠٥.

المخالفين في العقيدة أو من الحاسدين أو غيرهم، ففي ذلك أجر عظيم وفضل كبير، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ليس أحد ، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم» ما أعظم عفو الله عن عباده، وقال عبد الله: قسم النبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار^(١٨٨): والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، قلت: أما لأقولن للنبي ﷺ، فأتيته وهو في أصحابه فساررته، فشق ذلك على النبي ﷺ، وتغير وجهه وغضب، حتى وددت أني لم أكن أخبرته، ثم قال: «قد أؤذي موسى بأكثر من ذلك فصبر»^(١٨٩)، وكذا نراه ﷺ يأمر أصحابه من الأنصار بالصبر والتحمل إذا رأوا تفضيل غيرهم عليهم في النصيب والعطاء، فقال أسيد بن حضير رضي الله عنه: أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ قال: «ستلقون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(١٩٠)، فمن ابتلي بشيء من ولاة الأمر فليصبر وليحتسب ولا يخرج عليهم خوفاً من الفتن والفساد في الأرض قال ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتة جاهلية»^(١٩١) ومن الصبر صبر على أقدار الله فيما يصيبهم من مصائب وكرب، فالمسلم يستسلم لما يقع عليه من البلاء والهموم، ويرضى بقضاء الله وقدره، مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١٩٢)، هذا أمر النبي ﷺ وتوجيهه لهذه المرأة التي أصيبت في ولدها، ووجه نفس التوجيه لإحدى بناته عندما أصيبت بابن لها، حيث

١٨٨ - ورد في رواية الواقدي أنه معتب بن قشير من بني عمرو بن عوف، وكان من المنافقين. انظر الفتح ٥٦/٨.

١٨٩ - خ ٥ / ٢٢٦٢، ٢٢٦٣ في الأدب باب الصبر على الأذى رقم ٥٧٤٨، ٥٧٤٩.

١٩٠ - انظر تخريج الحديث في ص ٦.

١٩١ - تقدم الحديث في ص ٦.

١٩٢ - خ ١ / ٤٣٠، ٤٣١ في الجنائز باب زيارة القبور رقم ١٢٢٣.

أرسل يقرئها السلام ويقول ﷺ إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب»^(١٩٣) ، وقال عطاء بن أبي رباح : قال لي ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت : بلى ، قال : هذه المرأة السوداء ، أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشف ، فادع الله لي ، قال : « إن شئت صبرت فلك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك » ، فقالت : أصبر ، فقالت : إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف ، فدعها ،^(١٩٤) ، وكلما عظم البلاء والشدة كلف البصر مثلاً كلما عظم الأجر والثوبة ، قال أنس بن مالك سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الله قال : إذا ابتليت عبي بحبيتيه عينيه - فصبر ، عوضته منهما الجنة »^(١٩٥) ، فالصبر على مصائب الدنيا جزاؤه الجنة ، ومن أنواع الصبر صبر على الطاعات وما يحصل في أداؤها من مشقة وتضحية وتحمل ، فقد روى عبد الله ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ قال : « أيها الناس ، لا تمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموه فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »^(١٩٦) ، فالجهاد في سبيل الله ومواجهة العدو وجهاً لوجه بإخلاص موجب لكفارة الذنوب ودخول الجنة ، روى أبو قتادة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ ذكر فضل الجهاد ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاي ؟ فقال له رسول الله ﷺ « نعم ، إن قتلت في سبيل الله ، وأنت صابر محتسب »^(١٩٧) ، ففي مثل هذه المواقف يحتاج من المؤمن الجلد والصبر والمصابرة ، لحصول النصر وحلول

١٩٣ - خ ١ / ٤٣١ ، ٤٣٢ في الجنائز باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه وما يرخص من البكاء في غير نوح رقم ١٢٢٤ ، م ٢ / ٦٣٥ في الجنائز باب البكاء على الميت رقم ٩٢٣ / ١١ .
 ١٩٤ - الصرع علة تمنع الأعضاء الرئيسة عن انفعالها منعاً غير تام ، وسببه ريح غليظة تنحبس في منافذ الدماغ ، أو بخار ردي يرتفع إليه من بعض الأعضاء ، وقد يتبعه تشنج في الأعضاء فلا يبقى الشخص معه منتصباً بل يسقط ويقذف بالزبد لغلظ الرطوبة . الفتح ١٠ / ١١٤ .
 ١٩٥ - خ ٥ / ٢١٤٠ في المرضى باب فضل من يصرع من الريح ، وباب فضل من ذهب بصره رقم ٥٣٢٨ ، ٥٣٢٩ ، وانظر الحديث الأول في م ٤ / ١٩٩٤ في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك رقم ٢٥٧٦ / ٥٤ .
 ١٩٦ - خ ٣ / ١١٠١ في الجهاد باب لا تمنوا لقاء العدو رقم ٢٨١٦ ، م ٣ / ١٣٦٢ في الجهاد والسير باب كراهة تمنى لقاء العدو رقم ١٧٤٢ / ٢٠ .
 ١٩٧ - م ٣ / ١٥٠١ في الإمارة باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياهم رقم ١٨٨٥ / ١١٧ .

الفرج ففي حديث ابن عباس رضي الله عنه حين كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «... واعلم أن في الصبر على ما تكره أجراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع اليسر يسراً»^(١٩٨)، فالتحلي بالصبر وضبط النفس عند الغضب، وتحمل المتاعب الجسدية والنفسية، لمن كمال الإيمان، وسبب الفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة، والسعادة في الدنيا، والله أعلم .

ثانياً: الحلم والصفح .

الحلم خلاف الطيش والسفه، وهو الأناة والعقل وترك العجلة، والحلم ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب^(١٩٩)، والصفح هو العفو وترك الذنب، والحلم والعفو والتغاضي عن أخطاء الناس صفات محمودة عند الناس تسبب انتشار روح المودة والوفاق بين الناس، والحلم صفة محبوبة عند الله تعالى، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»^(٢٠٠)، والسهولة والسماح من أخلاق الإسلام الحميدة ومن صفات المسلمين الكريمة، قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «رحم الله رجلاً سمحاً، إذا باع وإذا اشترى، وإذا اقتضى»^(٢٠١) وهذا ما نراه في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس حتى مع الذين يخدمونه من الصغار وهم أدعى الناس إلى معابرتهم ومؤاخذتهم مع احتمال حصول التقصير منهم، يقول أنس رضي الله عنه: خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أف، ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت!،^(٢٠٢) ويظهر حلم النبي صلى الله عليه وسلم جلياً واضحاً فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع

١٩٨ - خ ٥ / ٢١٤٠ في المرضي باب فضل من يصرع من الريح، وباب فضل من ذهب بصره رقم ٥٣٢٨، ٥٣٢٩، وانظر الحديث الأول في م ٤ / ١٩٩٤ في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك رقم ٢٥٧٦ / ٥٤.

١٩٩ - المفردات ص ١٢٩.

٢٠٠ - م ١ / ٤٩ في الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (رقم ١٨ / ٢٦، ت ٣ / ٢٤٧ في البر والصلة باب ما جاء في التأييد والعجلة رقم ٢٠٨٠).

٢٠١ - خ ٢ / ٧٣٠ في البيوع باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع رقم ١٩٧٠.

٢٠٢ - خ ٥ / ٢٢٤٥ في الأدب باب حسن الخلق رقم ٥٦٩١، م ٤ / ١٨٠٤ في الفضائل باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً رقم ٢٣٠٩ / ٥١.

رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعتاء،^(٢٠٣)، ثم ذج رائع من حلم النبي ﷺ وصفحه وتحمله في سبيل الدعوة إلى الله، وفي الحديث الطويل الذي رواه أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرّ بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول وفيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود، فسلم عليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فغلظ ابن سلول عليه القول، فشكا ذلك إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال سعد: أي رسول الله بأبي أنت، اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطاح عليه أهل هذه البحرة^(٢٠٤) على أن يتوجه ويعصبوه بالعصاة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى،^(٢٠٥) اعتذار لطيف من هذا الصحابي الجليل، وقبول كريم من رسول الهدى ﷺ، وصورة رائعة أخرى من هدي المصطفى ﷺ يرويها أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهم به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً»^(٢٠٦)، وليس هذا بغريب عليه عليه السلام فإن دأب إخوانه الأنبياء عليهم السلام الصبر والعفو والتحمل، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كأنني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح الدم عن

٢٠٣ - خ ٢٢٦٠ / ٥ في الأدب باب التيسم والضحك رقم ٥٧٣٨، د ٢٦٥ / ٥ في الأدب باب في الحلم رقم ٤٧٤٢

٢٠٤ - البحرة: البلدة والقرية، والمقصود: مدينة الرسول ﷺ. النهاية ١ / ١٠٠، المعجم الوسيط ١ / ٤٠

٢٠٥ - خ ٢٢٩٢ / ٥ في الأدب باب كنية المشرك رقم ٥٨٥٤.

٢٠٦ - خ ٨٠٩ / ٢ في الوكالة باب الوكالة في قضاء الديون رقم ٨٣ ٢١، م ١٢٢٥ / ٣ في المساقاة باب من استسلف ففضى خيراً منه رقم ١٦٠١ / ١٢٠.

وجهه، ويقول: « رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »^(٢٠٧) والذي يضاد الحلم هو الغضب، لذا جاء النهي الشديد عن هذه الصفة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني قال: « لا تغضب »، فردد مراراً، قال: « لا تغضب »^(٢٠٨)، وعنه أن رسول الله ﷺ قال: « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٢٠٩)، وإرشاد كريم وتوجيه عظيم من رسول الرحمة ﷺ فيما روى سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه، مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: « إني لأعرف كلمة، لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »^(٢١٠)، فالحلم صفة من صفات الرحمن وهي من صفات أصفياؤه، يستحق المرء بها محبة الله ورضوانه، وتعين هذه الصفة على نشر المحبة وتآلف القلوب بين أفراد المجتمع، والحلم من الشخص دليل على سعة الصدر وكمال العقل والرزانة في التصرف.

المطلب الرابع: الإخاء والحياء.

أولاً: الإخاء:

إن الإسلام أرسى دعائم الأخوة الإسلامية بين أبنائها، وهذه الأخوة أقوى من كل رابطة وصلته بين الناس، أخوة مبدأها الدين الحنيف، وأساسها التقوى والعقيدة والإيمان، لا تتغير بتغير الأحداث والأزمان، ولا تختلف باختلاف الأقوام والأقطار، والأمة الإسلامية أمة واحدة، والمسلمون جسد واحد كالبنيان المرصوص، راسخ الدعائم قوي البناء، روى الشيخان عن أبي موسى

٢٠٧ - خ ٢٥٣٩ / ٦ في استتابة المرتدين باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ ولم يصرح رقم ٦٥٣٠، م ١٤١٧ / ٣ في الجهاد والسير باب غزوة أحد رقم ١٧٩٢ / ١٠٥.
 ٢٠٨ - خ ٢٢٦٧ / ٥ في الأدب باب الحذر من الغضب رقم ٥٧٦٥.
 ٢٠٩ - خ نفس الباب رقم ٥٧٦٣، م ٢٠١٤ / ٤ في البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب رقم ٢٦٠٩ / ١٠٧، م ٢٦٧ / ٥٥ في الأدب باب في الحلم رقم ٤٧٤٦.
 ٢١٠ - خ نفس الباب رقم ٥٧٦٤، م ٢٠١٥ / ٤ في البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب رقم ٢٦١٠ / ١٠٩، م ٢٦٨ / ٥٥ في الأدب باب ما يقال عند الغضب رقم ٤٧٤٧.

الأشعري رحمته الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»،
 وشبك بين أصابعه. ^(٢١١) ولهما في هذا المعنى أيضاً حديث النعمان بن بشير رحمته الله
 قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل
 الجسد، إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»، ^(٢١٢)، إن
 المجتمع الإسلامي الأول قام على عقيدة الإيمان الراسخة، وترعرع على شعائر
 الإسلام المتينة، حلت فيه رابطة الإيمان محل الروابط المادية الأخرى، ساد فيه
 محبة المسلم لإخوانه المسلمين، مثل ما يحب لنفسه، من الخير والبعد عن ضده،
 ولا يكمل إيمان المسلم إلا به، كما جاء في حديث أنس رحمته الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «
 لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» بل لا يجد المسلم طعم الإيمان
 ولا حلاوته، إلا بهذه المحبة كما جاء في الرواية الأخرى ثلاث من كن فيه وجد
 طعم الإيمان: من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ^(٢١٣)، وأروع صور المؤاخاة
 والتلاحم بين أبناء الأمة الإسلامية، وأشهرها في التاريخ، مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين
 المهاجرين والأنصار عند ما هاجر إلى المدينة، فكان لكل أنصاري أخ من
 المهاجرين، يحزن لحزنهم ويفرح بفرحهم بكل مودة ومحبة، وانظر إلى صورة
 واحدة من آثار هذا التآخي والتلاحم يحكيها عبد الرحمن بن عوف رحمته الله يقول:
 لما قدمنا المدينة، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن
 الربيع، إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت
 نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، قال: فقال عبداً لرحمن: لا حاجة لي في
 ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع ^(٢١٤)، فأبي إخاء يعدل هذا

٢١١ - خ ٢ / ٨٦٣ في المظالم باب نصر المظلوم رقم ٢٣١٤، م ٤ / ١٩٩٩ في البر والصلوة باب تراحم المؤمنين
 وتعاطفهم وتعاضدهم رقم ٢٥٨٥ / ٦٥.

٢١٢ - خ ٥ / ٢٢٣٨ في الأدب باب رحمة الناس بالبهائم رقم ٥٦٦٥، م نفس الباب رقم ٢٥٨٦ / ٦٦.
 ٢١٣ - خ ١٤ / ١ في الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه رقم ١٣، م ١ / ٦٧ في الإيمان باب
 الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، وانظر الحديث الثاني
 في خ باب حلاوة الإيمان رقم ١٦، وفي م باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان رقم ٤٣ / ٦٧
 واللفظ له.

٢١٤ - خ ٢ / ٧٢٢ في البيوع باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾
 الآية رقم ١٩٤٣.

الإخاء؟، وأي حب يساوي هذا الحب؟ وكيف لا يكونون كذلك وقد سمعوا من النبي ﷺ قوله: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(٢١٥)، ومن مقتضى هذا الترابط لتقويته واستمراره أن لا يتعرض المسلم لأخيه المسلم بأي أذى أو مضايقات قولية أو فعلية، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» الحديث^(٢١٦)، وقد تقدم في الحديث عن التعامل مع الخلان جملة من آداب الأخوة، وأسباب تقويتها^(٢١٧)، وأكمل هنا ذكر ما تقوي هذه الصلة وتستمر هذه الأواصر بين المسلمين، فمن ذلك القيام بواجب الضيافة بما تيسر لديه إذا زاره أخوه المسلم، فقد قال ﷺ: «... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» الحديث^(٢١٨)، وتطبيقاً لهذا نجد صورة رائعة من صور الكرم والضيافة والإيثار، يحكيها أبو هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يضيفه هذه الليلة، يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله لا تدخره شيئاً، قالت: والله ما عندي غير قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى، فأطفتي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «لقد عجب الله» أو: ضحك من فلان وفلانة «فأنزل الله»: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾^(٢١٩). ومن مجالات الإخاء الإصلاح بين أخوين مسلمين نشب بينهما خلاف قد تكون بينهما فرقة ونفرة

٢١٥ - م ٩٨٨ / ٤ في البر والصلة باب فضل الحب في الله رقم ٢٥٦٦ / ٣٧.
 ٢١٦ - خ ١٣ / ١ في الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده رقم ١٠، م ٦٥ / ١ في الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام رقم ٦٤ / ٤٠.
 ٢١٧ - انظر ص ١٣ وما بعدها.
 ٢١٨ - م ١٣٥٢ / ٣ في اللقطة باب الضيافة ونحوها رقم ٤٨ / ١٤.
 ٢١٩ - سورة الحشر ٩، وانظر الحديث في خ ٤ / ١٨٥٤ في التفسير باب ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ الآية رقم ٤٦٠٧، م ١٦٢٤ / ٣ في الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره رقم ١٧٢ / ٢٠٥٤.

بسببه، ففي الإصلاح بينهما فضل كبير وأجر عظيم وله الدرجة العالية عند الله، لما فيه من جمع الشمل وإزالة الفرقة بين المسلمين، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين»^(٢٢١)، ومما ينبغي لكل مسلم إذا استأجر أجيراً أن يعطيه أجرته كاملة بعد الانتهاء من عمله أو حسب الاتفاق، ومنع الأجير حقه أو تأخيره ومما ظلمه ظلم، وجاء فيه وعيد شديد في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى لي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً، فاستوفى ولم يعطه أجره»^(٢٢٢)، ومما يجب على المسلم لأخيه المسلم إذا وقع في خطأ، أو حصل منه ما يعيبه، أن يستر عليه ولا يفضحه ولا ينشر عيبه فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»^(٢٢٣)، وذكر فضل ستر المسلم وصفات أخرى مشابهة في رواية أخرى له: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» الحديث^(٢٢٤)، ومن حقوق المسلم على أخيه المسلم أن يتعد عن تصرف يحزنه ويكدر عليه حياته، فلا يتكلم اثنان سراً ومعهما أخ ثالث، إلا أن يستأذناه، ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما؛ فإن ذلك يحزنه»^(٢٢٥)، وذلك مما يساعد على التآخي والتآلف بين الناس، والابتعاد عن حصول أي تنافر وفرقة

٢٢٠ - د ٣٢١ / ٥ في الأدب باب في إصلاح ذات البين رقم ٤٨٨٣، ت ٤ / ٧٣ في صفة القيامة باب ٢٠ رقم ٢٦٢٧ وقال: حديث صحيح.

٢٢١ - خ ٧٩٢ / ٢ في الإجارة باب إثم من منع أجر الأجير رقم ٢١٥٠.

٢٢٢ - م ٢٠٠٢ / ٤ في البر والصلة باب بشارة من ستر الله عيبه رقم ٢٥٩٠ / ٧٢.

٢٢٣ - م ٢٠٧٤ / ٤ في الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن رقم ٢٦٩٩ / ٣٨. د ٥ / ٣٣٢ في الأدب باب في المعونة للمسلم، رقم ٤٩٠٧.

٢٢٤ - خ ٢٣١٨ / ٥ في الاستئذان باب لا يتناجى اثنان دون الثالث رقم ٥٩٣٠، م ٤ / ١٧١٨ في السلام باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، بغير رضاه رقم ٢١٨٤ / ٣٨ واللفظ له.

بينهم، اتضح لنا مما تقدم من النصوص وغيرها كثير، أن الأخوة الإسلامية لها مكانة سامية في الإسلام، وهي ركيزة أساسية لصلة الرحم القائمة على وحدة العقيدة الدينية، ويتحقق الترابط والتماسك في المجتمع الإسلامي، حيث تنتشر المودة والمحبة بين الأفراد، وتشد من أواصر الصلة والتعاون، وتحقيق الأخوة حماية المجتمع من أشكال الانحراف، وإتاحة الفرصة الطيبة من أجل تحقيق التكافل والتضامن الاجتماعي. والله تعالى الموفق والمعين.

ثانياً: الحياء:

الحياء ضد الوقاحة، وهو من الصفات الحميدة التي تساعد على ترك القبح من الأقوال والأفعال، ومنع التقصير في أداء الحقوق، وهو من أفضل الأخلاق الإسلامية وأعظمها قدراً، وأكثرها نفعاً، والرسول ﷺ كان أشد حياء من العذراء في خدرها^(٢٢٥)، وصحابته رضي الله عنهم كانوا يتصفون بهذه الصفة الحميدة، وكان أشدهم حياء عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان ﷺ يكرمه ويستحيي منه، وقال: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة»،^(٢٢٦) والحياء صفة كلها خير وبركة وإخبات، وصفه بذلك الرسول ﷺ حيث قال: «الحياء خير كله»^(٢٢٧) وكيف لا تكون ملازمة الحياء كذلك وهو شعبة من شعب الإيمان، قال «فيما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه»: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»^(٢٢٨)، والحياء يحمل صاحبه على الوقار، ويقيه عن كثير من الأمور التي لا تليق بأصحاب المروءة، لذلك نرى أن الذي لا يستحيي يفعل ما يشاء من الأفعال ويتفوه بما يشاء من الأقوال، روى أبو مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٢٢٩)، ويحسن أن نشير هنا إلى أن الحياء الشرعي لا يمنع

٢٢٥ - خ ٥ / ٢٢٦٨ في الأدب باب الحياء رقم ٥٧٦٨، م ٤ / ١٨٠٩ في الفضائل باب كثرة حياته ﷺ رقم ٢٣٢٠ / ٦٧.
 ٢٢٦ - م ٤ / ١٨٦٦ في فضائل الصحابة باب من فضائل عثمان رضي الله عنه رقم ٢٤٠١ / ٣٦.
 ٢٢٧ - م ١ / ٦٤ في الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان رقم ٣٧ / ٦٠، ٦١،
 ٢٢٨ - خ ١ / ١٢، ١٣ في الإيمان باب أمور الإيمان رقم ٩، م ١ / ٦٣ في الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان رقم ٥٧ / ٣٥ بلفظ: بضع وسبعون.
 ٢٢٩ - خ ٥ / ٢٢٦٨ في الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت رقم ٥٧٦٩.

من طلب العلم والمعرفة ، وكذا السؤال عما يهمه من أمور الدين ، قالت أم سلمة: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ فقال: « نعم، إذا رأت الماء»، ومما ينبغي أن لا يستحيا منه الإدلاء بما عنده من العلم حياءً من كبار السن، يقول عبد الله بن عمر: قال النبي ﷺ: « مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء، لا يسقط ورقها ولا يتحات»، فقال القوم: هي شجرة كذا، هي شجرة كذا، فأردت أن أقول: هي النخلة، وأنا غلام شاب فاستحييت، فقال ﷺ: هي النخلة، فحدثت به عمر فقال: لو كنت قلتها لكان أحب إليّ من كذا وكذا،^(٢٣٠)، وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من المحيض؟ قال ﷺ خذي فرصة ممسكة، فتوضئي بها ثلاثاً « ثم إن النبي ﷺ استحيا، فأعرض بوجهه، فأخذتها فجدبتها، فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ، وفي رواية عند مسلم فقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين،^(٢٣١)، فالحياء شعبة من شعب الإيمان، وخصلة من خصال الإسلام، وهو يعين على الطاعات ويبعد عن المعاصي، وهو من صفات الأنبياء والصحابة والصالحين، ويكون المتصف به سعيداً في الدارين إن شاء الله .

المطلب الخامس: عيادة المريض.

عيادة المريض: زيارته وتفقد أحواله والسؤال عن علته، ولا شك أن الإنسان في هذه الحياة معرض للمصائب والأمراض والأسقام، بأمر من الله تعالى وحكمته، ولا بد للمسلم أن يصبر على ما يصيبه من ذلك، وله في ذلك أجر وثواب وكفارة للخطايا والذنوب، ففي الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب^(٢٣٢)، ولا هم ولا حزن،

٢٣٠ - خ ٥ / ٢٢٦٨، باب ما لا يسحيا من الحق للفقهاء في الدين رقم ٥٧٧٠.

٢٣١ - خ ١ / ١١٩ في الحيض باب غسل المحيض رقم ٣٠٩، م ١ / ٢٦١ في الحيض باب استحباب استعمال

الغتسل من الحيض فرصة من مسك رقم ٣٣٢ / ٦٠، ٦١.

٢٣٢ - النصب معروف وهو التعب، والوصب هو دوام الوجع ولزومه. النهاية ٥ / ١٩٠.

ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها» (٢٣٣)، ويستحب لكل مسلم أن يزور أخاه المريض، ملتماً للأجر من الله تعالى، وفي عيادته له تخفيف عما أصابه وتطيب لقلبه، وترسيخ للأخوة والمحبة بينهما، ووردت نصوص في فضل عيادة المريض، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الأمور الخمسة الواجبة للمسلم على أخيه، وذكر فيها: عيادة المريض (٢٣٤)، وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني»، وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «... وأمرنا أن نتبع الجنائز، ونعود المريض، ونفسي السلام»، (٢٣٥)، وفي فضل عيادة المريض وإدخال السرور في نفسه والتخفيف عنه حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة»، قيل: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: «جناها» (٢٣٦)، وفي ذلك أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟» (٢٣٧)، ومن هنا كان هدي النبي ﷺ أن يزور أصحابه المرضى مواساةً منه لهم ورحمة بهم، يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من الأنصار فسلم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أخا الأنصار! كيف أخي سعد ابن عباد؟ فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: «من يعود منكم؟» فقال وقمنا معه، ونحن بضعة عشر» (٢٣٨)، ويحكي

٢٣٣ - خ ٢١٣٧/٥ في المرضى باب ما جاء في كفارة المرض رقم ٥٣١٨، م ٤/١٩٩٢ في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك رقم ٢٥٧٣/٥٢.

٢٣٤ - تقدم الحديث في ص ١٥.

٢٣٥ - خ ٢١٣٩/٥ في المرضى باب وجوب عيادة المريض رقم ٥٣٢٥، ٥٣٢٦. وانظر ص ١٤.

٢٣٦ - الخرفة: اسم ما يخترق من النخل، والمخرف حائط نخل، وخرفة الجنة: اجتناء ثمرها. النهاية ٢/٢٤.

٢٣٧ - م ٤/١٩٨٩، ١٩٩٠ في البر والصلة باب فضل عيادة المريض رقم ٢٥٦٨/٤٢، ٢٥٦٩/٤٣.

٢٣٨ - م ٢/٦٣٧ في الجنائز باب في عيادة المرضى رقم ١٣/٩٢٥، وانظر خ ٥/٢١٤٤ في المرضى باب عيادة المريض راكباً وماشياً رقم ٥٣٣٩.

جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن زيارة النبي ﷺ له ومعه أبو بكر حين مرض فقال: مرضت مرضاً، فأتاني النبي ﷺ يعودني، وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني أغمي عليّ، فتوضأ النبي ﷺ ثم صب وضوءه عليّ، فأفقت، فإذا النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، كيف أصنع في مالي، كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء، حتى نزلت آية الميراث،^(٢٣٩)، ومن هديه ﷺ في زيارته للمريض أن يدعو له بالشفاء والطهارة، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض، أو الميت، فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»^(٢٤٠) ومن دعائه ﷺ للمريض إذا زاره ما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضاً، أو أتى به، قال: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»^(٢٤١) وينبغي لعائد المريض أن يدعو له بالشفاء والصحة والعافية والصلاح، وأن يرقيه بالرقية الشرعية، ولا بأس أن يذكره بعظم الأجر على الصبر والرضا بالقضاء والقدر، وحسن الظن بالله تعالى، وعدم إطالة الجلوس عنده، لئلا يضجره أو يشق على أهله، إلا إذا استأنس به فلا بأس، وبالإتيان بهذه الآداب والسنن لعيادة المريض يسود الحب ويتحقق التعاون والتألف والتراحم والترابط بين أفراد المجتمع الإسلامي.

المبحث الثاني : صفات ذميمة تعمل على تفكك ترابط المجتمع

لما كان التحلي بمعالي الأخلاق ومكارمها يستلزم ضرورة التخلي عن مذمومها كان لابد من إبراز هذه الأخلاق السيئة التي تحطم صروح القيم ومكارم الأخلاق، وجعلت الحضارة الإسلامية تهتز من قواعدها، وأصبحت القيم العليا تخني رأسها خجلاً من تفشي هذه العادات في المجتمعات، وتناولت هذا المبحث في أربعة مطالب:

٢٣٩ - خ ٥ / ٢١٣٩ باب عيادة المعنى عليه رقم ٥٣٢٧، م ٣ / ١٢٣٤ في الفرائض باب ميراث الكلاله رقم ١٦١٦ / ٥ وانظر آية الميراث في سورة النساء آية ١١، ١٢، ١٧٦.
 ٢٤٠ - م ٢م / ٦٣٣ في الجنائز باب ما يقال عند المريض والميت رقم ٦ / ٩١٩
 ٢٤١ - خ ٥ / ٢١٤٧، ٢١٤٨ في المرضى باب دعاء العائد للمريض رقم ٥٣٥١، م ٤ / ١٧٢١، ١٧٢٢ في السلام باب استحباب رقية المريض رقم ٤٦ / ٢١٩١.

المطلب الأول: الغيبة والنميمة .

أولاً: الغيبة:

الغيبة تعريفها ما في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(٢٤٢)، إن الغيبة من كبائر الذنوب وهي الخوض في أعراض الناس فهي داء خطير ومرض عضال فتاك، تفرق بين الأحباب، وتبث الشرور والسموم في المجتمعات، قل أن تسلم منها المجالس، إلا من رحم الله، لذا جاء في هذه الصفة الذميمة وعيد شديد، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فيعذب في البول، وأما الآخر فيعذب في الغيبة»^(٢٤٣)، ولا يجوز بأي حال التعرض لعرض مسلم بالقدح والجرح، فإن ذلك ينم عن ضعف الإيمان وحدة اللسان وخبث الجنان، روى أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»^(٢٤٤)، وفي تحريم الغيبة وفضاعتها، والتطاول في أعراض الناس يقول ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس أي يوم هذا؟»، قالوا: يوم حرام، قال: «فأي بلد هذا؟»، قالوا: بلد حرام، قال: «فأي شهر هذا؟» قالوا شهر حرام، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا»^(٢٤٥) و تقول عائشة رضي الله عنها: قلت

٢٤٢ - م ٤ / ٢٠٠١ في البر والصلة باب تحريم الغيبة رقم ٧٠٠ / ٢٥٨٩، د ٣٠٣ / ٥ في الأدب باب في الغيبة رقم ٤٨٤١.

٢٤٣ - ق ١ / ١٢٥ في الطهارة باب التشديد في البول رقم ٣٤٩. وأصل هذا الحديث في الصحيح بلفظ النميمة، وسيأتي.

٢٤٤ - م ٤ / ١٩٨٦ في البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، د ٣٠٦ / ٥ في الأدب باب في الغيبة رقم ٤٨٤٨.

٢٤٥ - خ ٢ / ٦١٩ في الحج باب الخطبة أيام منى رقم ١٦٥٢.

للنبي ﷺ: حسبك من صفة كذا وكذا- تعني قصيرة- فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(٢٤٦) أي أفسدته وغيرت ريحه، وكذا ما روي عن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»^(٢٤٧)، وفي التنفير عن اغتياب الناس والنيل منهم قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي ربي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»^(٢٤٨)، وأسوق هذا الوعيد الشديد لكل من تسول له نفسه أن يقع في أعراض إخوانه المسلمين بالغيبة والتعيير ما رواه أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»^(٢٤٩)، ومن هنا عرفنا شناعة الغيبة وخطورتها، وأن ذلك نابعة عن ضعف الإيمان، وعدم الخوف من الرحمن، وقلة الوازع الديني في الإنسان، وأن ذلك صادر أيضا عن الحسد والضغينة المتأصلة في النفوس المريضة، والغيبة معول هدام وشر مستطير، ومرض اجتماعي خطير، يقطع أوامر المودة.

ثانياً: النميمة:

النميمة: هي نقل الحديث من قوم إلى قوم، على جهة الإفساد والشر^(٢٥٠)، وهي خصلة ذميمة محرمة من كبائر الذنوب بإجماع المسلمين، لما يترتب عليها من المضار الجسيمة، والأحداث الأليمة، والنتائج الوخيمة، وإن من أهم السجايا الحميدة التي ينبغي أن تسود بين أفراد المجتمع، حسن الظن بالمسلمين، والتثبت في نقل الأخبار، والتروي في تصديق كل ما يسمع، قال رضي الله عنه: «إياكم والظن، فإن

٢٤٦ - ٣٠٣ / ٥ د ٣٠٤ في الأدب باب في الغيبة رقم ٤٨٤٢، سكت عنه أبو داود .
 ٢٤٧ - ٣٠٤ / ٥ د في الأدب باب في الغيبة رقم ٤٨٤٣، المسند ٣ / ١٩٠ رقم ١٦٥١، المستدرک ٤ / ١٥٧ رجاله ثقات
 ٢٤٨ - المسند ٢١ / ٥٣ رقم ١٣٣٤٠ إسناده صحيح على شرط مسلم، ٥ د / ٣٠٥ في الأدب باب في الغيبة رقم ٤٨٤٤ .

٢٤٩ - ٣٠٥ / ٥ د في الأدب باب في الغيبة رقم ٤٨٤٦، سكت عنه أبو داود .
 ٢٥٠ - النهاية ٥ / ١٢٠ .

الظن أكذب الحديث» الحديث^(٢٥١)، ولذا جاء تحذير شديد ووعيد أكيد في النميمة ومخاطرها، ففي الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل الجنة قتات»، وفي رواية «نمام»^(٢٥٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما هذا: فكان لا يستتر من بوله، وأما هذا: فكان يمشي بالنميمة» الحديث^(٢٥٣)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن محمداً صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أنبئكم ما العضة؟- أي البهتان والكذب - هي النميمة القالة بين الناس»^(٢٥٤)، وفي هؤلاء أيضاً يقول صلى الله عليه وسلم: «تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»^(٢٥٥)، فالنميمة من عظام المعاصي، وهي رأس الدناءة والجن والكيد والنفاق، وسبب لإزالة كل محبة ومودة وتآخ وتآلف وترابط في المجتمع .

المطلب الثاني: الكذب والخيانة.

أولاً: الكذب:

الكذب خلاف الصدق، وعدم مطابقة الكلام للواقع في الفعال والمقال، والكذب من الصفات الذميمة ومن كبائر الذنوب، بل هو من أعمال المنافقين فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(٢٥٦)، وفي الصحيح: «... وإن الكذب يهدي إلى

٢٥١ - خ ١٩٧٦/٥ في النكاح باب لا يخطب على خطبة أخيه رقم ٤٨٤٩ م ٤ / ١٩٨٥ في البر والصلة باب تحريم الظن رقم ٢٥٦٣ / ٢٨ .

٢٥٢ - خ ٥ / ٢٢٥٠ في الأدب باب ما يكره من النميمة رقم ٥٧٠٩، م ١ / ١٠١ في الإيمان باب بيان غلط تحريم النميمة رقم ١٠٥ / ١٦٨، ١٦٩ .

٢٥٣ - خ ٥ / ٢٢٤٩ باب الغيبة رقم ٥٧٠٥، م ١ / ٢٤٠ في الإيمان باب الدليل على نجاسة البول وجوب الاستبراء منه رقم ٢٩٢ / ١١١، وتقدم الحديث قريباً بلفظ الغيبة في غير الصحيحين .

٢٥٤ - م ٤ / ٢٠١٢ في البر والصلة باب تحريم النميمة رقم ٢٦٠٦ / ١٠٢ . وانظر النهاية ٣ / ٢٥٤ .

٢٥٥ - خ ٥ / ٢٢٥١ باب ما قيل في الوجهين رقم ٢٢٥٠، م ٤ / ٢٠١١ باب ذم ذي الوجهين وتحريم فعله رقم ٩٨ / ٢٥٢٦ .

٢٥٦ - خ ٥ / ٢٢٦٢ باب قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ وما ينهى عن الكذب رقم ٥٧٤٤، م ١ / ٧٨ في الإيمان باب بيان خصال المنافق رقم ٥٩ / ١٠٧ .

الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٢٥٧)، ومن الأسباب المؤدية إلى الكذب أن يحدث بكل ما يسمع من الناس بدون تثبت ولا ترو، فقد قال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»، فمن اتصف بهذه الصفة لم يسلم من الوقوع في الكذب، ومن أكبر أنواع الكذب وأشدّها خطراً الإدلاء بالشهادة زوراً وبهتاناً لما يترتب على ذلك من المفساد العظيمة والمخاطر الجسيمة، وإبطال الحق وإحراق الباطل، فقد قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال: - ألا وقول الزور» قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(٢٥٨)، وأفظع من ذلك كله وأكثرها خطورة وضرراً، الكذب على الرسول فقد قال ﷺ: «من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢٥٩)، ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن هناك ما يشبه الكذب وليس بكذب لما فيه من المصلحة والفائدة، قال ﷺ: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً أو يقول خيراً»، قال ابن شهاب: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها^(٢٦٠)، فالكذب خصلة خسيصة وصفة ذنيئة، ووسيلة للدمار والهلاك في الدنيا والآخرة، ويؤدي إلى تفكك أوصال المجتمع الإسلامي.

ثانياً: الخيانة:

الخيانة ضد الأمانة، أن يفرط الإنسان فيما يؤتمن عليه، وهي صفة ذميمة وقبيحة، تدل على خسة طبع الخائن ودناءته، وتورث الضغائن والبغضاء في

٢٥٧ - خ ٥ / ٢٢٦١ نفس الباب رقم ٥٧٤٣، م ٤ / ٢٠١٢ في البر والصلة باب قبح الكذب رقم ٢٦٠٧ / ١٠٣
 ٢٥٨ - خ ٢ / ٩٣٩ في الشهادات باب ما قيل في شهادة الزور رقم ٢٥١١، وتقدم الحديث باختصار في ص ٩.
 ٢٥٩ - خ ١ / ٥٢ في العلم باب إثم من كذب على النبي ﷺ رقم ١٠٨، م ١ / ١٠ في المقدمة باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ رقم ٢ / ٢.

٢٦٠ - خ ٣ / ٩٥٨ في الصلح باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس رقم ٢٥٤٦، م ٤ / ٢٠١١ في البر والصلة باب تحريم الكذب وبيان المباح منه، د ٥ / ٣٢٢ في الأدب باب في إصلاح ذات البين رقم ٤٨٨٥.

نفوس الإخوان، وتنتشر الفوضى وفقدان الثقة بين الناس، والخيانة من علامات المنافقين، فقد تقدم قريباً حديث أبي هريرة رضي الله عنه في آية المنافق الثلاثة، وذكر فيها: «وإذا ائتمن خان»، وفي حديث طويل أخرجه الإمام مسلم رحمه الله وفيه: «وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له»^(٢٦١)، الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق إلا خانته»^(٢٦٢)، والمجاهدون في سبيل الله لهم قدر عند الله تعالى وحريمهم مصونات محفوظات، والخيانة فيهم جرم كبير قال صلى الله عليه وسلم: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم، إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء»^(٢٦٣)، ومن الخيانة الغدر بعد العهد، فإن ذلك جرم كبير وذنب عظيم، ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في أربع خلال من كن فيه كان منافقاً خالصاً^(٢٦٤)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان»^(٢٦٥)، ومن الخيانة أيضاً الغش والخداع ففيه وعيد شديد فقد قال صلى الله عليه وسلم: «... ومن غشنا فليس منا»، وقال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة»^(٢٦٦)، ومن الخيانة الغلول من الغنيمة، يقول صلى الله عليه وسلم في بيان قبحةه وتحريمه: «من استعملناه منكم على عمل، فكتمنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة»^(٢٦٧)، فالخيانة من خصال المنافقين، وهي أسوأ ما يبطن الإنسان، تدل على خبث الطبع، وتؤدي إلى تفكك أواصر المجتمع والله أعلم.

-
- ٢٦١ - أي لا عقل له. النهاية ٢/ ٢٩٣.
 ٢٦٢ - م ٤ / ٢١٩٨ في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم ٦٣ / ٢٨٦٥.
 ٢٦٣ - م ٣ / ١٥٠٨ في الإمارة باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن رقم ١٨٩٧ / ١٣٩.
 ٢٦٤ - تقدم الحديث في ص ٢١.
 ٢٦٥ - خ ٣ / ١١٦٤ في الجزية باب إثم الغادر للبر والفاجر رقم ٣٠١٦، م ٣ / ١٣٥٩، ١٣٦٠ في الجهاد والسير باب تحريم الغدر رقم ١٧٣٥ / ١٠٩، ١١، واللفظ له.
 ٢٦٦ - م ١ / ٩٩ في الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا رقم ١٠١ / ١٦٤٥.
 ٢٦٧ - م ٣ / ١٤٦٥ في الإمارة باب تحريم هدايا العمال رقم ١٨٣٣ / ٣٠.

المطلب الثالث : الهجر .

الهجر هو الترك والقطيعة والمفارقة، وهو ضد الوصل ويكون بالبدن واللسان والقلب، والهجر صفة ذميمة ينبذها أصحاب الطباع السليمة الراشدة، والمؤمنون إخوة لا يجوز هجر بعضهم لبعض بغير عذر شرعي، وإن كان بينهم شيء فلا تستمر القطيعة أكثر من ثلاثة أيام ، هذا ما جاء في هدي المصطفى ﷺ حيث قال: « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان: فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(٢٦٨)، ويؤكد هذا الحديث ما ذكره الإمام البخاري رحمه الله من قصة عبد الله بن الزبير مع خالته عائشة رضي الله عنها في عطائها لأخيها لأمها عوف بن الحارث، وقول ابن الزبير: والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها، وقطيعتها له ثم شفاعة المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود له عندها وتذكيرهما لها بهذا الحديث إلى أن رضيت به^(٢٦٩)، وإذا حصل بين أخوين مسلمين خلاف وشقاق وهجر، لا بد من

العمل لإزالة هذا الخلاف بالصلح والتراضي، قال ﷺ: « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا ثلاثاً»^(٢٧٠)، فالواجب على كل مسلم إصلاح ذات البين وإعادة الإخاء والصفاء بين الأخوين المتقاطعين، ليسود الحب والتوافق والترابط .

المطلب الرابع : الظلم والاحتقار .

أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به، وهو الاعتداء على حق الآخرين ، بغياً وجوراً، واحتقار الناس وتعييرهم من الظلم، والله سبحانه

٢٦٨ - خ ٢٢٥٦ / ٥ في الأدب باب الهجرة رقم ٥٧٢٧، م ٤ / ١٩٨٤ في البر والصلة باب تحريم الهجر فوق

ثلاث بلا عذر شرعي رقم ٢٥٦٠ / ٢٥

٢٦٩ - خ ٢٢٥٥ / ٥ نفس الباب رقم ٥٧٢٥.

٢٧٠ - م ٤ / ١٩٨٧ في البر والصلة باب النهي عن الشحناء والتهاجر رقم ٢٥٦٥ / ٣٥ / ٥ د ٣١٩ في الأدب

باب فيمن يهجر أخاه المسلم رقم ٤٨٨٠.

وتعالى قد حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره، روى أبوذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» الحديث ^(٢٧١)، وحذر الرسول ﷺ أمته عن الظلم؛ لأن الظالم لا يكون له نور في يوم المحشر وإنما يتخبط في ظلام دامس يقول ﷻ: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» ^(٢٧٢)، والأخوة الإسلامية تقتضي أن لا يكون بينهم أي اعتداء أو احتقار واستخفاف، يقول ﷻ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» ^(٢٧٣)، وقال ﷻ في بيان قبح الظلم والتحقير: «...المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» ^(٢٧٤) والظالم مهما طال أجله لم يفلت من عقاب الله في الدنيا، ولا بد أن ينال جزاءه أجلاً أو عاجلاً فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يولي للظالم فإذا أخذه لم يفلته» ^(٢٧٥)، ومما يدل على وجوب الحذر من الظلم أن الله تعالى جعل دعوة المظلوم مقبولة لا ترد، وأنه سبحانه ينتصر له، ذلك أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب» ^(٢٧٦)، ومن هنا لا بد من منع الظالم من ظلمه وإيقافه عند حده، وتجب مساعدة المظلوم والوقوف معه وأخذ الحق له، يروي أنس بن مالك رضي الله عنه عن

٢٧٢ - خ ٢ / ٨٦٤ في المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة رقم ٢٣١٥ ، م ٤ / ١٩٩٦ في البر والصلة باب تحريم الظلم رقم ٢٥٧٨ / ٥٦ واللفظ له من حديث جابر.

٢٧٣ - خ ٢ / ٨١٢ في المظالم باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه رقم ٢٣١٠ ، م ٤ / ١٩٩٦ في البر والصلة نفس الباب رقم ٢٥٨٠ / ٥٨.

٢٧٤ - م ٤ / ١٩٨٦ في البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره رقم ٢٥٦٤ / ٣٢.

٢٧٥ - م ٤ / ١٩٩٧ في البر والصلة باب تحريم الظلم رقم ٢٥٨٣ / ٦١.

٢٧٦ - خ ٢ / ٨٦٤ باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم رقم ٢٣١٦ . م ١ / ٥٠ في الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين رقم ٢٩ / ١٩.

النبي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، قالوا: يا رسول الله، هذا نصره مظلوماً، فكيف نصره ظالماً؟ قال: «تأخذ فوق يديه»^(٢٧٧)، ويروي جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «...ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينصره فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»^(٢٧٨)، وينبغي لكل أحد أن ينظر هل له مظلمة عند أحد من الناس فيبادر إلى التحلل منها؛ ليبرأ ذمته منها ويخرج من عهدها، وهذا هو مفاد التوجيه النبوي الكريم حين قال: «من كانت له مظلمة لأحد، من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»^(٢٧٩)، فالظلم من الأعمال القبيحة المذمومة يجلب غضب الرب وسخطه، والاحتقار يفسد المودة ويقطع أواصر القربى، وهما يبيتان الكراهية بين الناس ويورثان الحقد والضغائن ويساعد على تفكك المجتمع بأسره. والله المستعان وعليه التكلان، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ونبينا المبعوث إلى الإنس والجان، والحمد لله الرحيم الرحمن.

٢٧٧ - خ ٢ / ٨٦٣ باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً رقم ٢٣١٢، وباب نصر المظلوم رقم ٢٣١٣.
 ٢٧٨ - م ٤ / ١٩٩٨ في البر والصلة باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً رقم ٢٥٨٤ / ٦٢.
 ٢٧٩ - خ ٢ / ٨٦٥ في المظالم باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له رقم ٢٣١٧.

وبعد هذه الجولة السريعة في رحاب السنة النبوية المطهرة، في موضوع هو أكثر المواضيع أهمية في هذا العصر المتلاطم بالفرقة والتفكك بين أفراد المجتمع الإسلامي الكبير، وبعد أن انتهت بعون الله تعالى وتوفيقه من صياغة هذا البحث المختصر المفيد إن شاء الله تعالى أرى أن أسجل هنا أهم النتائج التي توصلت إليها في بحثي هذا المتواضع بفضل الله سبحانه وتعالى ومنه :

١- إن السنة النبوية المطهرة اهتمت اهتماماً منقطع النظير في موضوع ترابط المجتمع المسلم، وتماسكه وتعاضده، وصيانتته من التفكك والتحلل والضياع، فالأحاديث كثيرة ثابتة ماثلة في بيان هذا الجانب المهم.

٢- من هذه المواضيع المهمة اهتمت السنة المشرفة بتعامل الناس مع من يختلط بهم من فئات الناس المختلفة، فأولهم السلطان وولى أمر المسلمين، تجب طاعتهم بالمعروف في غير معصية الله تعالى، ولا يجوز الخروج عليهم بحال، ويجب الصبر على أذاهم، وإن لم يفعل ذلك تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، ويجب التعامل بالحسنى واللطف والحكمة مع أقرب الناس إليه من الوالدين الكريمين وزوجات وأولاد وجميع الأقارب الأقرب فالأقرب، والأقربون أولى بالمعروف، يجب الإحسان إليهم وتفقد أحوالهم يكون ذلك مدعاة للتألف والترابط والتراحم، والسنة أولت اهتماماً بالغاً بحسن التعامل مع الجيران ورعاية حقوقهم والصبر على ما قد ينال منهم، وكذا مع أصدقائه وجميع إخوانه المسلمين، يجب نصحتهم والبحث عن أحوالهم ومحاولة حل مشاكلهم، وقضاء حاجة المعوزين منهم، ولا يغفل حسن التعامل مع غير المسلمين ممن يعيشون بينهم من أهل الذمة والعهد، كل ذلك يعمل على نشر المحبة والمودة ويقوي التوافق والترابط بين أفراد المجتمع.

٣- عنيت السنة النبوية المطهرة عناية فائقة ببيان الصفات الكريمة الفاضلة التي تعين على تقوية الصلات والروابط بين المسلمين، مثل خلق الصدق في الحديث، والاتصاف الدائم بصفة الوفاء والأمانة في كل شيء والعفو

والصفح عند المقدرة، وسهل العريكة ولين الجانب، وحسن التواضع مع المسلمين، والرفق بهم والتحمل والصبر على أذاهم، وبيذل المعروف لهم، ويشكر على إحسانهم، ويعذرهم على أخطائهم، ويعتذر عن خطئه هو إن حصل، ويعود مرضاهم ويتبع جناز موتاهم، ويؤدي لأهليهم وأولادهم واجب العزاء وحسن المواساة، وبهذه الصفات الحميدة والخلق الكريمة يتقوى الإخاء بين الناس، وتنتشر الفضيلة، ويسمو التآلف والترابط بين الإخوة المسلمين.

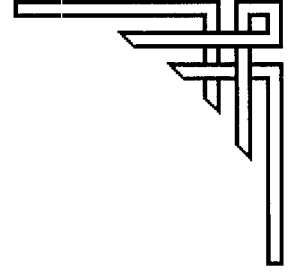
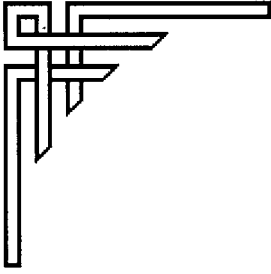
٤- وفي مقابل ذلك أولت السنة النبوية الشريفة عنايتها الكريمة ببيان الصفات الذميمة القبيحة، التي من شأنها تقطيع روابط المجتمع الإسلامي وتماسكه، وتفكك أوصاله وعراه، وقامت السنة بالتنفير من هذه الخصال البغيضة، مثل الغيبة والنميمة فإنهما من الأمراض الاجتماعية التي تقوم على إفساد المجتمع وتخريبه، وكذا خصال الكذب والخيانة، وظلم الناس والاعتداء على حقوقهم المشروعة، كلها أدواء مقيتة بغيضة يجب تجنبها والتنفير منها بل دفنها من المجتمع الإسلامي الكريم؛ ليبقى جوه صافياً مفعماً بالحب والإخاء، والترابط والوفاء.

وفي الختام أسأل الله العليّ القدير أن ينفع بهذا العمل المتواضع في خدمة السنة النبوية المطهرة والحديث النبوي الشريف، وأن يجعله مقبولاً وخالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي زلاتي، وأن يلهمني الرشد والصواب، والتوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبي ومولاي فنعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا ونبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الأدب المفرد للإمام البخاري (٢٥٦هـ)، ترتيب كمال يوسف الحوت، ط. الثانية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، عالم الكتب، بيروت.
- ٣- الأعلام للزركلي ط. الخامسة، ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٤- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٤٧٧هـ)، ط. السابعة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، مكتبة المعارف، بيروت.
- ٥- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي (٦٩٩هـ) ط الأولى ١٣٥٤هـ مطبعة الصدق الخيرية بجوار الأزهر بمصر.
- ٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق سامي محمد السلامة، ط. الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، دار طيبة، الرياض.
- ٧- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني (٢٥٨هـ)، تحقيق محمد عوامة، ط. الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
- ٨- سنن الترمذي (٢٧٩هـ) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، دار الفكر بيروت.
- ٩- سنن الدارمي (٢٥٥هـ) بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية.
- ١٠- سنن أبي داود (٢٧٥هـ) تحقيق محمد عوامة، ط. الأولى ١٤١٩ / ١٩٩٨ مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١١- سنن ابن ماجة (٢٧٥هـ) تحقيق محمد فواد عبد الباقي، ط. الأولى ١٣٩٥ / ١٩٧٥ دار إحياء التراث العربي.
- ١٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (١٠٨٩هـ)، ط. الأولى ١٣٩٩ / ١٩٧٩، دار الفكر بيروت.
- ١٣- شرح سنن أبي داود للعلامة ابن القيم (٧٥١هـ) المطبوع مع عون المعبود، تحقيق عبد الرحمن عثمان، ط. الثانية ١٣٨٩ / ١٩٦٩، مطابع المجد، القاهرة.

- ١٤- شرح صحيح مسلم للنووي (٦٧٦هـ) دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٥- صحيح البخاري تحقيق مصطفى ديب البغا، ط. الثالثة ١٤٠٧ / ١٩٨٧، دار
اليمامة وابن كثير بيروت.
- ١٦- صحيح مسلم (٦٢١هـ) تحقيق محمد فواد عبد الباقي، دار إحياء الكتب
العربية، القاهرة.
- ١٧- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب أحمد
الدويش، ط. الثالثة ١٤١٩ / ١٩٩٩، الإدارة العامة للطبع ، الرياض .
- ١٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر، تحقيق محمد فواد عبد
الباقي ومحب الدين الخطيب، المكتبة السلفية.
- ١٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي (٨٠٧هـ) ط. الثالثة ١٤٠٢ / ١٩٨٢، دار
الكتاب العربي، بيروت.
- ٢٠- المستدرک علی الصحیحین للحاکم (٤٠٥هـ) إشراف: د. يوسف
المرعشلي، دار المعرفة بيروت.
- ٢١- المسند للإمام أحمد (٢٤١هـ) تحقيق شعيب الأرنؤوط ورفاقه، ط. الثانية
١٤٢٠ / ١٩٩٩، مؤسسة الرسالة، بيروت .
- ٢٢- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي (٧٧٠هـ) تحقيق مصطفى
السقا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- ٢٣- المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ط إدارة التراث الإسلامي، قطر.
- ٢٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني (٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد
كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- ٢٥- الموطأ للإمام مالك (١٧٩هـ) تحقيق محمد فواد عبد الباقي، دار إحياء الكتب
العربية، القاهرة.
- ٢٦- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦هـ) تحقيق طاهر أحمد
الزاوي ومحمود الطناحي، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.

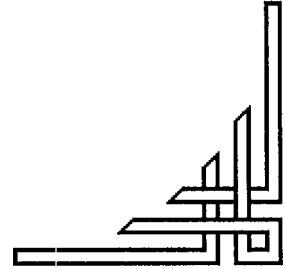
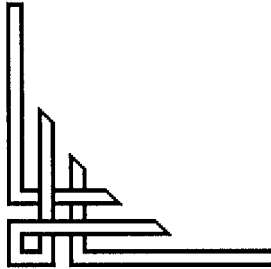


حرية التعبير وضوابطها في السُّنَّة النَّبَوِيَّة

د. عبدالرحمن بن محمد العمراني

شعبة الدراسات الإسلامية

جامعة القاضي عياض - المغرب



توطئة:

يطلق الناس اليوم على نظام بأنه ديمقراطي لما توفره قوانينه من حقوق للمواطنين منها الحق في التعبير عن الرأي... وإن الذين يجهلون دين الإسلام يتهمونه بأنه يكبت حريات الناس، ويضع القيود على تصرفاتهم؛ فالمسلم في تصورهم لا يملك أن يبدي وجهة نظره فيما يهمه، وأن منهجه في التفكير أن يستسلم لما يتلقى من أوامر، وينقاد لها بصورة عمياء، ولا فرصة له في أن يناقش الأفكار أو يعبر عن رأيه بالرفض.

ولئن كانت هذه الادعاءات كلها عارية من الصحة؛ فإن تنفيذها يحتاج إلى أدلة تدحضها، وشواهد من السيرة النبوية تبطلها. وهذا ما سيحاول هذا العرض بحثه ومناقشته انطلاقاً من تحديد المصطلحات الرئيسة فيه لأنه مفتاح العمل، ومثنيا بالاستدلال على ثبوت حرية التعبير وبيان ضوابطها الشرعية التي تحكمها، وكل ذلك انطلاقاً من السنة النبوية باعتبارها محور الندوة المباركة: «القيم الحضارية في السنة النبوية».

– المطلب الأول مدلول "حرية التعبير":

سيتم تحديد هذا المصطلح المركب "حرية التعبير" بدءاً بتفكيك عنصريه "الحرية" و"التعبير" ثم تحديده باعتباره مركباً إضافياً.
أولاً – مدلول لفظ "الحرية":

يدور معنى "الحرية" في اللغة على التخلص من كل قيد يحد من تصرف الإنسان. وأكثر ما يظهر هذا المعنى في العبد إذا أعتقه سيده. جاء في "لسان العرب" أن "العتق خلاف الرق وهو الحرية"^(١). وجاء فيه أيضاً أن «الحر بالضم

١- لسان العرب لابن منظور: باب القاف فصل العين.

نقيض العبد والجمع أحرار ... والحررة نقيض الأمة والجمع حرائر ... وحرره أعتقه^(٢).

واللفظ بهذا المعنى عام في كل شيء يتخلص مما يكدر صفوه؛ وعليه يكون «الحر خيار كل شيء وأعتقه، وحر الفاكهة خيارها ... وحر كل أرض وسطها وأطيبها»^(٣). والحر من الناس أخيارهم وأفاضلهم، لسلامتهم من النقائص المعتبرة في صفات العبيد من ذل وحقارة، وسائر ما يتطبعون به من طباع ذنيئة بسبب القهر المسلط عليهم. وإذا تم تحرير العبد يكون قد تخلص من كل ما يفرضه عليه وضعه مما ذكر من صفات العبودية فيصير حرا. ومن هذا المعنى نأخذ ما نعبر عنه مجازا بتحرير الكتاب؛ فإن المراد به تخليصه من كل ما يشوش عليه من النقائص بتصحيح أخطائه، وإقامة حروفه، وتحسين أسلوبه.

وهكذا استقر في عرف الناس ارتباط كلمة «حرية» بالسيد يملك العبد ويسخره لمصالحه الداخلية في البيت، والخارجية في أعمال الفلاحة والرعي. ولما ولى عهد الاسترقاق أصبح الناس جميعهم يملكون حق التصرف بالأصالة كل بحسب اختياره من غير أمر ولا قيد ولا مانع، اللهم إلا ما صار يحكمهم جميعا من قوانين ينضبطون لها. وهذا المعنى لم يعرف إلا بمجئ الإسلام بنصه على أن الإنسان مخلوق كرمه الله، محترم في ذاته وماله وكل تصرفاته أصالة.

ثانيا - مدلول لفظ "التعبير":

يراد بالتعبير في اللغة الإعراب والبيان أي الإعراب عما في النفس فنقول: "عبر عما في نفسه تعبيرا، أعرب وبين، وعبر عنه غيره: عَيَّيَ فأعرب عنه وتكلم، واللسان يعبر عما في الضمير"^(٤). وإنما ينصرف الأمر إلى التعبير باللسان لغلبته في الاستعمال، لكنه ليس قاصرا عليه؛ بل يكون التعبير بالنطق وبالكتابة والرسوم

٢- المصدر نفسه: باب الرءاء فصل الحاء.

٣- تاج العروس للزبيدي: مادة ح ر ر.

٤- المصدر نفسه: مادة ع ب ر.

والصور وبكل ما يفيد معنى عند المتلقي كالإشارة المفهمة سواء عند العجز عن النطق أو عدمه، فإن ذلك كله من وسائل التعبير. قال ابن حجر: ويمكن أن تشارك اللسان في ذلك الكتابة، وإن أثرها في ذلك عظيم (...). وفي التعبير باللسان دون القول نكتة فيدخل فيه من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء^(٥).

ثالثا - مدلول المركب الإضافي "حرية التعبير":

نستطيع بناء على ما سبق بيانه أن نخلص إلى أن مصطلح "حرية التعبير" باعتباره مركبا إضافيا يعني أن يملك الإنسان حق الإعراب عن رأيه الذي يقنع به من غير خوف من أحد. ويشمل حقه في التوصل إلى المعلومات الصحيحة ومناقشة الأفكار، واقتراح ما يراه مناسبا، وإسماع رأيه لغيره.

- المطلب الثاني - ثبوت "حرية التعبير" في السنة النبوية:

يمكن الاحتجاج لثبوت حرية التعبير في السنة النبوية بثلاثة شواهد أحدها مراجعة الصحابة رسول الله ﷺ في بعض المواطن التي كان لهم فيها رأي يخالف اختياره عليه الصلاة والسلام. والثاني عرض الصحابة أمورهم الخاصة على رسول الله بحثا عن الحكم الفصل فيها. والثالث تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه من صميم حرية التعبير. وتفصيل ذلك فيما يأتي:

أولا - مراجعة الصحابة رسول الله ﷺ في اختياراته:

لا يجد المرء دليلا يستدل به على ثبوت حرية التعبير في مجتمع ما، أكبر من أن يرى كلام ولي الأمر فيه محل مراجعة ونقد من طرف أتباعه، وهم آمنون على نفوسهم من غضبه وبطشه. ذلك حقا هو عين حرية التعبير في أصدق مظاهرها؛ أن يضمن للمواطن حقه في مناقشة رأي ولي الأمر، وأن يكون له رأي مخالف لبعض اختياراته، فيعبر عنه بكل اطمئنان ومسؤولية لا يخاف في ذلك لومة لائم،

٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر: ج ١ / ٦٧ - ٦٨ عند شرح الحديث رقم ١٠ من كتاب الإيمان.

ولا عاقبة سيئة تتبعه وتهدهه .

وقد حصل هذا للصحابة مع رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة يمكن ذكر بعضها فيما يأتي:

- حين وافق رسول الله ﷺ على صلح الحديبية مع مشركي مكة، ووقع على بنوده؛ أحس عمر بن الخطاب بأنها مجحفة في حق المسلمين، فراجعه في ذلك. وشاطر جمع من الصحابة عمر رأيه، ورسول الله يستمع لقوله ويجيبه عن مسأله، فلم يقمعه ولم يصادر حقه في المعرفة، ولم ينهره لموقفه الغاضب من تصرفه الذي بلغ به وبمن يرى رأيه من الصحابة أن لم يستجيبوا له عليه الصلاة والسلام حين قال لهم: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» حتى أشارت عليه أم سلمة بأن يخرج ولا يكلم أحدا حتى ينحر بدنه ويدعو حاله ليحلقه. وقد كان رأيه سديدا في النازلة، عمل به رسول الله ﷺ وأتى ثماره. وهو ما يؤخذ منه حق المرأة في المشاركة في الأمور العامة. أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله حقا؟ قال بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو نصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال بلى، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قال: قلت لا. قال: فإنك آتية ومطوف به»^(٦).

لقد كان موقف عمر بن الخطاب هنا شديدا، وقد جاء في رواية مسلم أنه «انطلق فلم يصبر متغيظا»^(٧). وورد عند البخاري أن عمر قال عند ذلك: «فعملت لذلك أعمالا»^(٨). وهي التي صدرت منه بالمناسبة من كثرة تروده على رسول الله "والسؤال والجواب، ولم يكن ذلك شكاً من عمر، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار لما عرف من قوته في نصرته الدين"^(٩).

٦- صحيح البخاري مع الفتح: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم الحديث ٢٧٣١. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الجهاد والسير؛ باب صلح الحديبية، رقم الحديث ٤٦٠٨.

٧- طرف من الحديث المذكور في صحيح مسلم.

٨- طرف من الحديث المذكور في صحيح البخاري.

٩- ينظر فتح الباري: عند شرح الحديث رقم ٤٧٣١؛ ج ٥ / ٤٠٨.

إن من يقرأ الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب ورسول الله يوم الحديبية، ويتأمل قوة تدخل عمر في مقابل هدوء رسول الله ﷺ في جوابه؛ لا يسعه إلا أن يقر برحابة صدر رسول الله ﷺ في الاستماع إلى رأي من يخالفه، وفي ذلك إقرار بحق الاختلاف في الرأي، وتأكيد لحق الفرد في التعبير عنه.

- وحين أراد عليه الصلاة والسلام أن ينب عنه أبا بكر ليصلي بالناس في مرضه الذي مات فيه؛ راجعته عائشة رضي الله عنها في ذلك مرتين أو ثلاثاً من أجل أن يعدل عن اختيار أبيها إلى اختيار عمر بن الخطاب مكانه؛ فاستمع لرأيها، ولم يتضايق منه، ولم يؤاخذها على مراجعتها إياه في ذلك. وفي ذلك تأكيد حق الفرد - رجلاً كان أو امرأة - في التعبير عن رأيه الذي يقتنع به، والمشاركة به فيما يهم الصالح العام. أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه فحضرت الصلاة فأذن فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فتليل له: إن أبا بكر رجل أسيف^(١١)، إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس. وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»^(١٢).

إن هذه الواقعة دليل قوي على ثبوت حرية التعبير عن الرأي، وعلى ممارستها على عهد النبوة، وعلى ضمان حرية إبدائه؛ فإن الذي لم يكن يعلم من الصحابة سر إقدام رسول الله ﷺ على أمر ما، وكان يرى غير رأيه في ذلك الأمر؛ لم يكن يسكت عنه، بل كان يبيديه ويعبر عنه صراحة أمامه عليه الصلاة والسلام، لا خفية يسر به إلى بعض أقربائه... خوفاً من غضبه عليه وسخطه.

لقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يستمع لرأي كل واحد، ويصغي إلى قوله ولو كان مخالفاً له، لعلمه بصدق صاحبه، وغيرته على دين الله؛ فلم يكن يسعه إلا أن

١٠- الأسيف السريع الحزن والبكاء. ينظر الفائق في غريب الحديث: حرف الهمزة مع السين؛ م ٤ / ٤٤.
١١- صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم الحديث ٦٦٤. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس؛ رقم الحديث ٩٤٠.

يحترمه كما حصل مع عمر بن الخطاب، ومع أم المؤمنين عائشة هنا؛ فقد كان موقفها رضي الله عنها يطبعه التجرد الواضح من التحيز لأبيها أبي بكر حين اختاره رسول الله ﷺ لينوب عنه في الصلاة بالناس؛ فاعترضت عليه ولم تكن معارضتها له سرية تخشى أن يطلع عليها أبوها، بل كانت معارضة في العلن، أخبرت بها حفصة بنت عمر وبلغ ذلك رسول الله، فلم يعب عليها مراجعتها إياه، ولم يسئ إليها في جوابه، وهو موقف يظهر منه قوة شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدرته على استيعاب الرأي المخالف.

وإن في هذا السلوك منه عليه الصلاة والسلام إفادة أن للفرد - ولو امرأة - الحق في مراقبة السلطة، ومراجعتها في مخطئها بما يخدم الصالح العام. وأيضا يفيد أن على المسؤولين في السلطة أن لا تأخذهم العزة بأرائهم فيرموا من يخالفهم فيها بتهمة الخروج على السلطان، ويسنوا القوانين التي تحمي آراءهم من المناقشة والمراجعة، وتهدد من ينتقدها.

وأیضا يكشف هذا الموقف جو الحرية الفكرية الفسيح الذي كان ينعم به الصحابة زمن النبوة، وما تربوا عليه من الحق في إبداء الرأي فيما يهمهم؛ ليتأكد بذلك أن حرية الفكر مع حرية التعبير متلازمان. قال النووي: "وفي مراجعة عائشة جواز مراجعة ولي الأمر على سبيل العرض والمشاورة والإشارة بما يظهر أنه مصلحة"^(١٣).

هكذا كان باب الحوار مفتوحا على عهد النبوة، وكانت حرية التعبير عن الرأي مكفولة لأفراد الأمة؛ فيراجع الصحابة رسول الله ﷺ وهو ولي أمرهم، ومنهم من كان يلح عليه في ذلك ويستمر في مراجعته، غير خائف من أن يصله بذلك أذى؛ ورسول الله يصغي إليه، ويستمع لمقترحه، لا يكره أحدا منهم على العدول عنه ما لم ينزل في ذلك وحي يصححه.. وكل ذلك كان منهم رضي الله عنهم مطبوعا بالاحترام، وحسن الخلق، للدلالة على أن حرية التعبير قرينة الأخلاق الحسنة،

١٢- صحيح مسلم بشرح النووي: عند شرح الحديث رقم ٩٤٠؛ ج ٤ / ٣٦١.

وأنها متى خلت منها تحولت إلى أداة للضعينة ونشر العداوة والأحقاد بين الناس . قال النووي: "وتكون تلك المراجعة بعبارة لطيفة"^(١٣)؛ إذ لم يكن الغرض منها طمعاً في شيء من الدنيا، أو حب الظهور على المسلمين أبداً؛ فهذه عائشة رضي الله عنها حين راجعت رسول الله في اختيار أبيها لينوب عنه في الصلاة عللت اعتراضها على اختياره لذلك المقام بقولها: "لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، وإلا أتي كنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر^(١٤)". ولم يكن يمنع رسول الله من اعتماد رأيهم إلا أنه كان عليه الصلاة والسلام يخضع لما يوحى إليه فيما يراجعونه فيه .

ثانياً - عرض الصحابة أمورهم الخاصة على رسول الله ﷺ:

كان حرص الصحابة كبيراً على أن يتعلموا دينهم؛ فكان الواحد منهم يحدث له أمر خاص في بيته فيبادر إلى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه إما بنفسه أو يرسل من يسأله عنه، فإذا لم يأتيه بجواب شاف لمسأله؛ بادر هو إلى السؤال عنها بنفسه . وأحياناً يكون السؤال يخص النساء في شؤونهن فتبادر المرأة من نساء الصحابة إلى طرحه على رسول الله . ولم يكن يحجزهم عن ذلك شيء، ولم يكن رسول الله ينهاهم عنه . والنماذج في هذا الباب متعددة يمكن الاقتصار على بعضها فيما يلي:

١- ما كان يعرضه الصحابة على رسول الله من خصوصيات العلاقة الزوجية:

يأتي على رأس هذا النموذج ما عرضه الصحابة على رسول الله قصة عويمر العجلاني الذي قذف زوجته، فلم يتسرع في القيام بشيء حتى يعلم حكم الله

١٣- المصدر نفسه.

١٤- صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الصلاة؛ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر... رقم الحديث: ٩٣٨.

في المسألة. ومعلوم أن هذا الأمر فيه مساس بالعرض، ومع ذلك لم يستره، وأتاب عنه عاصم بن عدي الأنصاري لسؤال رسول الله عنه. روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي أن عويمراً العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم! لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فسئل لي عن ذلك يا عاصم رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فكره رسول الله المسائل، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله عليه الصلاة والسلام. فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال له يا عاصم! ماذا قال لك رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ فقال عاصم لعويمر: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله المسائل. قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأله عنها، فأقبل عويمر حتى أتى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وسط الناس فقال يا رسول الله! رأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله: قد نزل فيك وفي صاحبك فاذهب فأت بها^(١٥).

ظاهر هذه النازلة أن عويمراً العجلاني لم يبادر إلى سؤال رسول الله ﷺ عن حكم الرجل يجد مع امرأته رجلاً ماذا يفعل له؟ ولم يصرح لعاصم بأن النازلة وقعت له لقوله: "أرأيت يا عاصم لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً"، فلما لم يأتها عاصم بالجواب الشافي أقسم على أن يسأل رسول الله بنفسه؛ فانطلق إلى مجلس رسول الله، وألقى عليه سؤاله في ملا من الصحابة. ولقد كان بإمكان عويمر أن يعرض مسأله سرا على رسول الله فلا ينتشر خبره، إذ كان فيها هتك ستر وشناعة عليه وعلى أهل بيته؛ لكنه اختار أن يجهر بها، وذلك منتهى الجرأة على كشف الحقيقة ولو على نفسه، وعلى عدم السكوت عن المنكر مهما كانت نتائجه. وإن رسول الله لم يكره المسألة أول الأمر حين عرضها عليه عاصم إلا لفرضيتها، ولكن لما سأله عنها عويمر - وهو المعني بها - أجابه عن مسأله من غير أن

١٥- صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن؛ باب قول الله عز وجل: "والذين يرمون أزواجهم .." رقم الحديث

٤٧٤٥ وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب اللعان، رقم الحديث ٣٧٢٣.

١٦- الفرصة بكسر الفاء قطعة من صوف أو قطن أو خرقة. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر: باب الفاء مع الراء: ج ٣ / ٤٣١.

يعيبتها عليه. وكان جوابه من كتاب الله شأنه في ذلك شأن جوابه خولة بنت حكيم التي أظهر منها زوجها وشكته إلى رسول الله ملتزمة حقها في الحكم على نازلتها، فأنزل الله فيها حكمه في سورة «المجادلة».

- ما كان نساء الصحابة يعرضنه على رسول الله مما يختص بشؤونهن:

تتعدد مسائل النساء، وتتعدد معها الأحكام التي لا يصلح التعبد إلا بمعرفتها والعمل بها. وإن المرأة من الصحابة في البحث عن حكم ما في أمر دينها لم تكن تختلف في ذلك عن الرجل؛ فكانت إذا عرض لها أمر تسارع بنفسها إلى رسول الله لتسأله عنه، وقد يكون من خصوصيات النساء. ويمكن عرض نموذجين لتأكيد ذلك أحدهما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الحيض كيف تغتسل منه؟ قال: تأخذين فرصة^(١٧) ممسكة فتوضئين بها. قالت: كيف أتوضأ بها يا رسول الله؟ قال النبي ﷺ: توضئي. قالت: كيف أتوضأ بها يا رسول الله؟ قال النبي ﷺ: توضئي بها! قالت عائشة: فعرفت الذي يريد رسول الله ﷺ فجذبتها إلي فعلمتها^(١٨).

يظهر من هذا الحديث أن المرأة السائلة لم تكن تعرف كيف تتطهر من الحيض فجاءت بكل حرية واطمئنان بال تسأل رسول الله عنه. ولم يعرض رسول الله عن سؤالها، فإنه المعلم. وإن كان قد استحيى أن يفصل لها في جوابه إذ عجزت عن فهمه. وهو موقف محرج له أن يفصل لها في كيفية تطهرها، وقد وصفته عائشة رضي الله عنها بقولها: "إن النبي ﷺ استحيى فأعرض بوجهه أو قال توضئي بهاس، فلم يكن منها رضي الله عنها إلا أن تتدخل لإفهام السائلة مراد رسول الله فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ".

وإن سؤال المرأة هنا وإن كان من خصوصيات النساء فإنها لم تتحرج ولم

١٧- صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها؛ رقم الحديث ٧٣٥٧. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك، رقم الحديث ٧٤٦.

تتضايق من وضعه على رسول الله. وقد أجابها عنه عليه الصلاة والسلام ولم يعبه عليها، ولم يتهرب من الجواب عنه، ولم يقمعها إذ ألحت عليه فيه ما دام الأمر جداً، والصدق واضحاً في كلامها. وفي ذلك إقرار بحق الفرد في التوصل إلى المعلومات الصحيحة حتى يفهمها.

والنموذج الثاني رواه الشيخان أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله! جئت لأهب لك نفسي. فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست^(١٨). ظاهره أن هذه المرأة لم تجد حرجاً في أن تعبر عن رغبتها في الزواج، وتبديها بنفسها، فعرضت نفسها على رسول الله ليتزوجها بكل اطمئنان في أدب رفيع من الأخلاق، غير آبهة باعتراض من تعترض عليها في ذلك، فقد عرفت ما قصدت، فما ضرها أن تعبر عن رغبتها في ملائمة الصحابة.. إنها نشدت الزواج بخير البرية ﷺ واطمأنت لحقها في ذلك فأفصحت عنه بدون واسطة، وهي راضية بما يجيبها به.

ولم يكن مألوفاً عند الناس أن تعرض المرأة نفسها للزواج بمن تراه يصلح لها، من أجل ذلك عابت عليها النساء ما قامت به، لكنها لم تأبه لقولهن. ولم ينهها رسول الله عن قولها. روى البخاري ومسلم عن هشام بن عمار عن أبيه قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة: "أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟"^(١٩). وأخرج البخاري عن ثابت بن أسلم البناني قال: "كنت عند أنس وعنده ابنة له، قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها؛ قالت يا رسول الله! ألك بي حاجة؟ فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها واسوأته واسوأته! قال: هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه

١٨- صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب النظر إلى المرأة قبل التزويج، رقم الحديث ٥١٢٠. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، رقم الحديث ٣٤٧٢. ١٩ صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد؟ رقم الحديث ٥١١٣، وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضررتها، رقم الحديث ٣٦١٧.

نفسها^(٢٠)". وإن مما يفيد سكوت رسول الله ﷺ وعدم مقاطعته خطابها إقراره عليه الصلاة والسلام بحق المرأة في التعبير عن أمر مباح يهمها، وأنه لا يملك أحد حق مصادرته.

وبهذا تتضح لنا صورة حرية التعبير في زمن النبوة، وتتفند مزاعم بعضهم على أنها مفقودة في دين الإسلام. ولقد ظهر أن الصحابي كان إذا عرض له أمر لا يعلم حكمه؛ يبادر إلى السؤال عنه من دون حرج أو مضايقة من أحد، ويستوي في ذلك الرجال والنساء فإنهم جميعا لم يكونوا يمنعون من طرح مسألتهم على رسول الله في ملائمة الصحابة. وقد مدحت عائشة رضي الله عنها نساء الأنصار بذلك فقالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين^(٢١)". وهذا لم يكن منهم إلا لامتلاكهم الحرية في التعبير عن رأيهم، واقتناعهم بحقهم في الاستماع للجواب عن مسألتهم، والتوصل إلى الخبر الصادق فيها.

ويزيد الصورة وضوحا على ثبوت حرية التعبير في السنة النبوية أنه ورد النهي فيها عن السكوت في بعض المواطن، وأوجبت الكلام فيها؛ فدعت إلى الأمر بالمعروف وإلى النهي عن المنكر وهو عمل من صميم حرية الرأي والتعبير، وهو العنصر الموالي في هذا المطلب .

٣- تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صميم الحق في التعبير:

يتعدى القول بحرية الشخص في التعبير أن يكون مفروضا عليه أن يتكلم؛ لأن الذي يتمتع بحرية التعبير يكون له الخيار بين أن يبدي رأيه وبين أن لا يبديه؛ بينما

٢٠- صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح رقم الحديث ٥١٢٠.
٢١- صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك، رقم الحديث ٧٤٨. وذكره البخاري في ترجمة بقوله: باب الحياء في العلم، من كتاب العلم من صحيحه.

٢٢- سنن الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث ٢١٦٩. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن".

القول بوجوب التعبير فيدل على حرمة السكوت، ولا يترك للمرء خياراً إلا أن يتكلم. ولقد أوجب الشرع أن يتكلم المسلم في بعض المواطن، حين يتم الإخلال بالأخلاق مثلاً، ويستهدف الصالح العام بالسوء؛ فألزمه الجهر بالقول أمراً بالمعروف نشرًا للخير، ونهياً عن المنكر دفعاً للشر، وهو من صميم حرية الرأي والتعبير. ورتب على عدم القيام بذلك العصيان لأمر الله ورسوله. وهذا مما ميز الله به الأمة المسلمة فجعلها خير أمة أخرجت للناس فقال: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران: ١١٠). وقال: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وجاء في السنة بيان خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يترتب شرعاً على ذلك فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»^(٢٢). هكذا بصيغة التهديد لمن سكت فلم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر. وفي المقابل بين رسول الله ﷺ أجر من يقوم بذلك فقال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢٣).

وإنما كان التشديد في هذا الأمر لما يترتب على السكوت من ضرر تستقبه الشريعة الإسلامية؛ فالخير إذا لم يعرفه الناس ليفعلوه؛ والشر إذا استشرى في الناس، وصار في نظرهم أمراً عادياً ولم ينهوا عنه؛ فسدت حياتهم واستحقوا أن يهلكهم الله بعذابه لما ورد في جواب رسول الله على سؤال زينب بنت جحش: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثرت الخبث^(٢٤). من أجل ذلك كان لزاماً على

٢٣- صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم الحديث ٦٧٤٥. وسنن الترمذي: كتاب العلم: باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى، رقم الحديث ٦٧٤.
٢٤- صحيح البخاري: كتاب الأنبياء؛ باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم الحديث ٣٣٤٦. وصحيح مسلم: كتاب الفتن وأشرط الساعة؛ باب اقتراب الفتن، رقم الحديث ٧٤٦

المسلم أن يأمر بالمعروف ونشرا للفضلية، وينهى عن المنكر دفعا للرديلة ولكل ما يسيء إلى البشرية.

وإن الخطاب بذلك موجه إلى كل مسلم كل حسب استطاعته لقوله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٢٥). وإن هذه الخيارات تفرض أن يكون للمرء موقف مما يدور حوله يتماشى مع قدرته واستطاعته؛ فيرتفع إلى أعلى الرتب وهو كلمة حق عند سلطان جائر؛ فإنه.. كما قال ﷺ من أعظم الجهاد^(٢٦). وينزل إلى أدناها وهو أن يتم تغيير المنكر بالقلب بعدم الرضى عليه واستهجانه. ودون ذلك السكوت والتطبع مع المنكر والمشاركة فيه، وذلك يجلب العقاب لصاحبه كما حصل لبني إسرائيل فإنهم ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾^(المائدة: ٨١) فلعنهم الله من أجل ذلك. وأيضا من أجل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد^(٢٧).

وغير خاف أن ممارسة الواجب تهدف إلى تحقيق مصلحة الشرع أولا فينبغي أن تعتمد لذلك آدابا ومنهجاً قويمًا يستتير بالضوابط الشرعية، وإلا كانت النتيجة عكسية، وسببا في إغواء من يأتي المنكر وإصراره عليه. وأيضا يحتاج هذا الأمر إلى علم وصبر على ما قد ينال من يمارسه من أذى؛ إذ طريقه محفوفة بالمخاطر. ونظرا لتعدد صور المنكرات وطبيعتها لم يكن مسؤولية الفرد وحده دائما؛ ولكن أيضا مسؤولية كل هيئة ومؤسسة تنشأ للإصلاح، ومنها المؤسسات الإعلامية فإن من رسالتها إسداء النصح، وتحميس الحكومة بالمسؤولية لمساعدتها على حسن تسيير شؤون الأمة. وإنه على قدر استجابتها لذلك، واتساع صدرها

-
- ٢٥- صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم الحديث ١٧٥. وسنن أبي داود: كتاب الصلاة: باب الخطبة يوم العيد، رقم الحديث ١١٤٠.
- ٢٦- سنن الترمذي: كتاب الفتن؛ باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم الحديث ٢١٧٤. وسنن أبي داود: كتاب الملاحم؛ باب خروج الدجال: رقم الحديث ٤٣٤٤.
- ٢٧- صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: رقم الحديث ٣٤٧٥. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره؛ رقم الحديث ٤٣٨٦.

للنقد، وعدم تضايقها منه؛ تكون قد وضعت رجلها في سلك الأنظمة الديمقراطية على اعتبار أن حرية التعبير من مقومات النظام الديمقراطي ومن أهم ركائزه .

من هنا نخلص إلى القول إن حرية التعبير كانت مؤمنة للفرد على عهد النبوة لثبوتها في دين الله؛ مارسها الصحابة بكل اطمئنان، ولم تكن شعارا للاستهلاك أبدا. لقد ثبت أن الصحابي كان يتمتع بالثبث برأيه الذي يقتنع به، ويأصراره على عرض مسأله على رسول الله، وعلى أن يتلقى منه الجواب عن سؤاله، ويطلع الجميع على ذلك، ولم يكن فرق في ذلك بين الرجل والمرأة. وأحيانا يكون السؤال عن حياة رسول الله ﷺ في بيته، وعلاقته بأهله؛ ومع ذلك لم يثبت أن أحدا منهم منع من طرحه، أو أحس أن هناك خطوطا حمراء لا ينبغي أن يقربها بسؤاله، أو أن حقه في التوصل إلى المعلومات الصحيحة مصادر، أو كان يخشى أن يناله بسبب ذلك مكروه في جسده، أو خسارة في ماله، أو مشاكل يتأذى بها تتبعه وتلاحقه وأهل بيته؛ بل بالعكس من ذلك لم تسق تلك الجرأة على القول لصاحبها وللأمة المسلمة كافة إلا شفاء للنفس بنزول الوحي بالبيان، وخلاصا لها من الحيرة، وراحة للضمير من الوسوس. وجاء تنويع هذا كله بحض السنة كما يحض الكتاب على الدعوة إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة تحقيقا لخير المجتمع، وعلى النهي عن المنكر وعدم السكوت عليه. وإن في ذلك لبيئات على حفظ الشريعة لحقوق الإنسان ومنها حقه في التعبير.

المطلب الثالث: ضوابط حرية التعبير في السنة النبوية:

لقد ظهر لنا مما سبق محل حرية التعبير في السنة النبوية، وثبت أنها حق للناس كافة يشتركون في التمتع به. وإنما لما كانت كذلك لم تكن حقا مطلقا لكل واحد يمارسها كما يشاء؛ ولكن وفق ضوابط تنظمها حتى لا يؤول استعمالها إلى التعسف وبعث الفوضى في المجتمع. وليس في هذا تضيق على ممارستها؛ فإن أي حق حينما يخلو من ضوابط تحصنه يصبح فوضى، وينتج عن استعماله هضم حقوق أفراد آخرين. ومن ثم كان كل حق إلا ويقابله واجب.

وليس الحديث عن ضوابط حرية التعبير جديدا في تاريخ البشرية؛ فالحرية في مختلف الأعصار والأمصار وقع تقييدها من أجل المصلحة العامة، غير أن هذه القيود تتفاوت بتفاوت المستوى الفكري والاجتماعي لأهل كل بلد؛ فتكون خفيفة لا تكاد تلحظ في أمة، وتنقص عن هذا القدر قليلا في أخرى، وتضمحل إلى أدنى درجة في غيرها. وقد تم التنصيص عليها في الفقرة الثانية من المادة (٢٩) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة وأعلنته في العاشر من دجنبر ١٩٤٨م، إذ جاء فيها: "يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقرها القانون فقط لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها، ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي". هذا هو حكم القانون الوضعي فلا توجد حرية في الرأي ولا في غيره في العالم مطلقة؛ ومن ثم لا يكون محل إنكار أن نؤصل لهذه الضوابط في السنة النبوية.

لقد وردت حرية التعبير مقيدة بضوابطها في السنة النبوية لا مطلقة كما ترسمها الغرائز وتهواها العاطفة، وجاء ضبطها اقتناعا بأن لا حرية بدون مسؤولية، فمنعت التعميم الفاسد لمفهومها ولا استعمالها لما يسببه من تصادم بين الأفراد، وراعت في ضبطها المصلحة العامة من غير أن تمس حق الفرد فيها. ومن هذه الضوابط يمكن ذكر ما يلي:

الضابط الأول - احترام أصول الإيمان:

والمراد بهذه الأصول بالنسبة للمسلم أركان الإيمان كلها، فإنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا بتطور الفكر وارتقاء البشرية في عالم الصناعة؛ فهي تمثل بالنسبة إليه هويته وأساس وجوده؛ ومن ثم وجب احترامها، وكان المس بها مسا به. وسيتم التركيز هنا على ثلاثة أصول منها هي:

١- أصل الإيمان بالله:

ويراد باحترام هذا الأصل أن يكون الحديث عن الله منضبطا بما ورد في الكتاب

والسنة غير خارج عنهما، لأن المصدر في ذلك هو النقل، ولا يسلم الكلام عليه بالرأي من الانزلاق إلى المحذور... ولقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يتدخل لتصحيح الأفكار والتعابير التي تتحدث عن هذا الأصل. ومن ذلك تدخله عليه الصلاة والسلام حين سمع جارية تمدحه بما ليس هو أهلا له من الصفات فصحح لها ذلك، ولم يغتر بقولها. أخرج البخاري بسنده إلى الربيع بنت معوذ قالت: دخل علي النبي ﷺ غداة بنى علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني، وجويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: "وفينا نبي يعلم ما في غد". فقال النبي ﷺ: "لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين"^(٢٨) تنبيهها لها ولغيرها أنه لا يعلم الغيب إلا الله.

يظهر من تصحيح رسول الله هنا أن الحديث عن الله مقيد بما أنزله في كتابه وبينه رسوله ﷺ؛ فالله سبحانه سمي نفسه بأسمائه الحسنى ووصف نفسه بصفاته العظيمة، وما كان للمسلمين فيها وفي سائر الآيات المتشابهة في الكتاب إلا أن يؤمنوا بها كما وردت من غير تأويل تجنبنا للقول على الله بغير علم، فإنه منهي عنه بقوله سبحانه: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ (الأعراف: ٣٣). وبهذا يثبت أن لا محل للرأي في حديث الإنسان عن الله، وأنه خوض فيما لم يحط بعلمه، ولم يعرف حقيقته، فيخشى أن ينفي عنه ما أثبتته لنفسه، أو يثبت له ما لم يثبتته لنفسه في كتابه.

ويدخل في هذا الجانب أيضا نهي رسول الله ﷺ المسلم عن إطلاق العنان للنفس في البحث عن الغيب، وعن أن يتبع المرء نفسه هواها في عرض الأسئلة التي لا يجد لها جوابا نحو السؤال عمن خلق الله عز وجل؛ فإنه من استدراج الشيطان له من أجل زعزعة إيمانه، وبعث الاضطراب في نفسه، ودفعه إلى التشكيك في صحة ما هو عليه. أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

٢٨ - صحيح البخاري: كتاب المغازي: رقم الحديث ٤٠٠١

قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليتته»^(٢٩).

هذا في جانب تحقيق التوحيد من طرف المسلمين، وفي جانب حفظ مقام الله عز وجل وإجلاله نهى سبحانه المسلمين عن سب آلهة المشركين، - وهي تستحق أن تنال السب منهم - سدا لذريعة أن يجدها المشركون فرصة ليسبوا الله تعالى عن جهل بحق قدره؛ فيكون سب المؤمنين آلهتهم المهينة الحقيمة سببا لسبهم الله القوي العزيز فقال عز وجل: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ (الأنعام: ١٠٩). وهو ما يؤخذ منه أن سب الإله وارد من المشركين فكان اتقاؤه واجبا على المسلم باجتناب سب آلهتهم.

وبهذا يثبت أن الحديث عن الله - من أجل سلامة المرء في إيمانه - ورد مقيدا بالنصوص المحكمة في الكتاب وفي السنة الصحيحة؛ فهما عمدتا البحث عنه، وبالاعتصار عليهما يتحقق الأمن من الزلل في الفكر، ومن الاضطراب في الإيمان... لذا لا ينبغي تجاوزهما إلى ما يميله على المرء عقله لقصوره عن إدراك كل شيء، وإلى ما يميله عليه هواه فيزيغ إلى اتباع ما تشابه في ذلك، وإلى الخوض فيما ليس له به علم. وأيضا يثبت أن المسلم وإن كان على حق في بغض آلهة الكفار؛ فإنه لم يكن حرا شرعا في التعبير عن ذلك بسبها لما يتسبب فيه من إهانة لمقام رب العزة سبحانه.

٢ - أصل الإيمان برسول الله:

ليس من الإيمان التمييز بين الرسل، فكلهم بعثهم الله عز وجل لتبليغ دينه ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (البقرة: ٢٨٤)، ولكن يختص الإسلام باتباع رسول الله محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. وهذا ما كان يغيظ أعداء الله فكادوا له المكائد

٢٩- صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم الحديث ٣٢٧٦. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب في الأمر بالإيمان والاستعاذة عند وسوسة الشيطان؛ رقم الحديث ٣٤٣.

في حياته؛ فأذوه بألسنتهم وأيديهم كما آذوا سائر الرسل من قبله، محاربة للمسلمين وصدًا للناس عن دين الله. ولا يزالون يؤذونه بعد موته، ويرمونه بشتى ألوان السب والقذف وأنواع الإهانة تحت شعار "حرية التعبير".

ولقد نهى الله عز وجل عن إيذائه فقال: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا﴾ (الأحزاب: ٥٣). وأعلن سبحانه أنه حاميهم وعاصمهم من كل ذلك بقوله: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ (الحجر: ٩٥). وبين أن من يؤذي رسوله كمن يؤذي الله عز وجل فيستحق العقاب من أجل ذلك قال سبحانه: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا﴾ (الأحزاب: ٥٧).

وكان مما لاقاه عليه الصلاة والسلام من أصناف أذى قومه ما لاقاه في عرضه حين رموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالإفك. وأيضا ما لاقاه من كعب بن الأشرف حين نقض العهد، وهجا رسول الله بشعره بعد رجوعه إلى المدينة. وقد تأذى رسول الله بهجائه وتأليب عليه قريشا وإعلانه بذلك حتى ندب عليه الصلاة والسلام إلى قتله بقوله: "اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت". فقال له محمد بن مسلمة: "أنا يارسول الله أقتله"^(٣٠). وذلك لأن في إيذائه عليه الصلاة والسلام عرقلة لدعوته، وإعلانا للحرب عليه، فكان واجبا إمادة أذاه ليتفرغ لواجبه. روى أبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعمى كانت له أمٌ وُلد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، فلما كان ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المعول (سيف رقيق له قفا) فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس فقال: (أنشد رجلاً فعل ما فعل لي، عليه حق إلام) قال: فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتدلل^(٣١) حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال يا رسول الله أنا صاحبها، كانت تشتمك، وتقع

٣٠- ينظر الصارم المسلول على من سب الرسول لابن تيمية: ٧٨.
٣١- الدلدلة: تحريك الرجل رأسه وأعضائه في المشي. ينظر لسان العرب: فصل الدال، باب اللام.

فيك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي فيها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فأخذت المعول فوضعتة في بطنها واتكأت عليه حتى قتلتها. فقال النبي ﷺ: «ألا اشهدوا أن دمها هدر»^(٣٢).

لقد كان الغرض من إيدائه عليه الصلاة والسلام في حياته هو صد الناس عن الدخول في دين الله؛ وهو الغرض نفسه لم يتغير عبر التاريخ إلى يومنا هذا؛ فالأعداء لما فشلوا في القضاء على دين الإسلام بقوة سلاحهم المادي؛ لجأوا إلى استخدام سلاح الكلمة والصورة المشوهة ضده. وهذا السلاح هو الأخطر في معركتهم مع المسلمين اليوم، لأنه يصيب الفرد في بيته، على مقعده بين أهله، لما يختزله التطور التكنولوجي من مسافات، إذ يخترق الحدود فلا يحجزه شيء، ويتجاوز السدود فلا يمنعه شيء. وساعدهم على تحقيق هذا الغرض تخلف المسلمين في مختلف المجالات، فأوذي رسولهم بشتى أنواع التهم والأباطيل تحت يافطة «حرية التعبير»! فهل من حرية التعبير أن ترسم شخصا من خيالك؛ ترسمه على هيئة سيئة وأنت لم تره ولا تعرفه؟ وهل من حرية التعبير أن تشوه صورته وتظهره على خلاف حقيقته؟ وهل من حرية التعبير إهانة أزيد من مليار مسلم بالإساءة إلى رسولهم؟

إن من خصائص المسلم أنه يؤمن بالرسول جميعهم، وهو مأمور باتباع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ومحبته؛ وذلك دليل إيمانه لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٣٣). ومن ثم كان سبه عليه الصلاة والسلام، والحديث عنه بالسوء إهانة لمن يتبعونه، وإعلانا للحرب عليهم. ولقد أظهر المسلمون في العالم - عربهم وعجمهم - مدى حبهم لرسول الله محمد ﷺ، وبرهنوا على أنه حي في قلوبهم، وأنهم امتداد له ﷺ، كل

٣٢- سنن أبي داود: كتاب الحدود، باب الحكم فيمن سب رسول الله ﷺ؛ رقم الحديث ٤٣٦١. وسنن النسائي: كتاب تحريم الدم، رقم الحديث ٤٠٠٢.

٣٣- صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب حب الرسول من الإيمان، رقم الحديث ١٥. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، رقم الحديث: ١٦٦.

واحد منهم له غيرة على شرفه، ويحمل حرقة على رسالته. وذلك من خلال استنكارهم الإساءة إليه ﷺ. ودعوا إلى فرض قوانين تمنع استخدام وسائل الإعلام في إثارة الأحقاد والضغائن بين البشرية جميعها. وأكدوا أن حرية التعبير لا تعني التسبب والتطاول على المقدسات.

٣- أصل الإيمان بالكتب السماوية:

يأتي على رأس الكتب السماوية اليوم القرآن الكريم، لأن غيره من الكتب لم يبق على أصله. إن القرآن الكريم معجزة رسول الله محمد ﷺ، ودستور المسلمين، به وقع التحدي ولا يزال قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد حاول البعض قديما معارضته فلم يفلحوا... واختار خلفهم - لعجزهم وهزيمتهم في معركة التحدي - منهج الضعفاء في كتاباتهم باتخاذ آياته هزواً تحت ذريعة أنه كسائر النصوص الأدبية ليس منزها عن النقد... وإن غرضهم من ذلك أن ينزعوا عنه سمته القدسية الواجبة له عند المسلمين. وهكذا سطوروا لائحة مطالب بتعديل آيات منه، وحذف أخرى لا تروقهم، ولا تسير وفق أهوائهم، كما فعل أسلافهم من الذين كفروا حين تواصوا بقولهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ (فصلت: ٢٥). ومن قبيل هذا ما يرد من دعوات لإعادة قراءته، وما يرد في تصريحات بعض المسؤولين، ينكرون فيها بعض تعاليم الإسلام، وينفون أن تكون من تشريعه، وهذا كله من الطعن في القرآن الكريم.

وليس يخفى أن الطعن في القرآن هو جزء من المعركة ضد الإسلام التي انطلقت ولم تنته منذ مجيئه، وأن الاستهزاء بآياته بدأ منذ نزوله، ولا يكون إلا من عدو حقود، وهو فعل يوجب الحكم على صاحبه بالكفر كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ (التوبة: ٦٦).

ثم إن التقول عليه وعلى المنزل عليه صلى الله عليه وسلم تطاول على دين الله الإسلام، لأن أحكامه نزل بها الكتاب وبينتها السنة النبوية. ومن ثم كان

الاستهزاء بأياته من الاستهزاء بصاحبه الذي نزل عليه وبدينه كله، كما كانت تفعله فئة من يهود. قال تعالى: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين﴾ (النساء: ٤٥). وعليه تكون الإساءة إلى هذا كله إساءة إلى المسلمين كافة؛ إنهم آمنوا به ديناً، والمرء حر في اختياره.؛ فلماذا يؤذون في اختيارهم بالتطاول على قناعتهم تحت شعار حرية التعبير؟

إن حرية التعبير لا تعني وطء أصول إيمان المسلمين بالأقدام، ولا تتحقق باستفزازهم واستعداء الناس عليهم عبر تليفق التهم الباطلة ضدهم. إن حرية التعبير حقاً هي التي تنضبط بضابط احترام المقدسات الدينية أولاً، وفي ذلك اعتراف بحق الآخر في الوجود، وإقرار بالاختلاف، وتنمية لروح التعارف بين الناس والتعايش في سلم وأمان بينهم. ويبقى المتبع حائراً يسأل كيف تنطوي نقمة أحيانا على نعمة لم تكن في الحسبان؟ وكيف تنقلب ضرة إلى نفع لم يكن منتظراً؟ لقد كان من نتائج استهداف الإسلام في أصوله والإساءة إلى نبيه محمد ﷺ في نسبه وشرفه أن تم استثارة العقول والعواطف إلى البحث عن الإسلام، والإقبال عليه دراسة وتمسكا به مصداقاً لقوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»^(٣٤).

- الضابط الثاني: عدم إلحاق الأذى بالناس:

لا يقبل أحد أن يكون عرضة للأذى في نفسه أو عرضه أو ممتلكاته... ولا أن تكشف أسراره أو يستهزأ بها... وهذا شعور مشترك بين الناس جميعاً، أنهم لا يقبلون أن يؤذيه أحد بأي نوع من الأذى صغيراً كان أو كبيراً. ومن ثم كان واجباً على المرء أن يجتنب عند استخدام حقه في التعبير إيذاء غيره. وبناء على هذا يمكن وضع قاعدة مفادها أن ما لا نرضاه من القول أن يتوجه الناس به إلينا؛

٣٤ - صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. رقم الحديث ٧١٨٧.

فلا نقبل أن نتوجه به إليهم. وهذا هو الضابط الثاني لحرية التعبير في السنة النبوية، وهو يشمل الحذر من مجموعة آفات نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها نحو الغيبة والبهتان والسب والقذف والسخرية من الناس واحتقارهم... وكلها آفات لا يقبل أحد أن يكون عرضة لها، فكيف يقبل أن يتوجه بها إلى غيره؟ هذا ما سيتم تفصيل القول عنه فيما يأتي:

- لا لإيذاء الناس باغتيالهم:

لا نجد تعريفا للغيبة أدق مما عرفها به رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم. فقال: "ذكرك أخاك بما يكره". قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته^(٣٥)».

هذا ما عرف به رسول الله ﷺ الغيبة؛ أن يتكلم المرء في أخيه الإنسان من ورائه بما يكرهه لو سمعه؛ أي يذكره بما فيه من منقصة؛ فإن كان الذي يقوله فيه صدقا؛ بحيث يذكره بما فيه من الأوصاف التي يكره أن تسمع عنه، فهي غيبة؛ وإن كان كذبا ما يقوله فيه فهو البهت والبهتان.

وحكمها في الشرع التحريم لقوله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا، أيا أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾ (الحجرات: ١١). لقد شبهها سبحانه بأكل لحم الإنسان الميت، وهذا مما تستقذره النفس وتعافه. وكأنه عز وجل ينبه الإنسان إلى أنه كما يكره أن يأكل لحم أخيه ميتا؛ فينبغي أن يكره غيبته شرعا لما فيها من إيذاء، ولما تتسبب فيه من عداوة وفرقة بين الأصحاب إذا ما بلغهم ما يقال عن ذويهم.

وما أكثر الأحاديث النبوية التي وردت في ذمها، وهي معروفة متداولة، يمكن الاقتصار على واحد منها هو أبلغ من غيره في التنفير منها، وهو حديث أبي

٣٥ - صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم الحديث ٦٥٣٦. وسنن الترمذي: كتاب البر والصلة؛ باب ما جاء في الغيبة؛ رقم الحديث ١٩٣٤.

حذيفة عن عائشة قالت: " قلت للنبي ﷺ حسبك من صفة كذا وكذا - تعني قصيرة - فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته^(٣٧) ". أي لخالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لشدة نتنها وقبحها، فهي غيبة منتنة لا يحل الوقوع فيها. وفيه بيان خطورة الغيبة، وأنها لا تخص القول باللسان؛ بل تعم كل ما يكره المتحدث عنه أن يساء إليه به « سواء ذكرته بلفظك أو كتابك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك ونحو ذلك. وضابطه أن كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة. ومن ذلك المحاكاة بأن يمشي متعرجاً أو مطأطأً أو على غير ذلك من الهيئات، يريد حكاية هيئة من ينقصه بذلك^(٣٧) ». من أجل ذلك تخرج الغيبة من دائرة ما يملكه المرء من حق في التعبير؛ ووجب عليه أن يضع نفسه دائماً موضع من يتكلم فيه، ويسأل نفسه هل يقبل أن يكون محله؟ فإن لم يكن يرضى أن يكون محله فذلك حد ما يملك من حرية في التعبير يحرم أن يتعداه .

- لا لإيذاء الناس بالسخرية منهم:

السخرية من الناس سلوك يدفع إليه الشعور بالتفوق والعلو عليهم؛ إما لانتساب المرء إلى جنس أو بلد أو لون أو عرق، أو لامتياز به بخصلة من الخصال الفطرية أو المكتسبة ... وقد نهى الشارع عنها بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم...﴾، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن . ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴿ (الحجرات: ١١) . وأيضاً نهى عنها رسول الله ﷺ في مجموعة أحاديث منها قوله عليه الصلاة والسلام:

٣٦- سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم الحديث ٢٥٠٢. سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم ٤٨٧٥.

٣٧- صحيح مسلم بشرح النووي: عند شرح الحديث رقم ٦٥٣٦.

"بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"^(٣٨). وهو وإن لم ترد فيه الإشارة إلى السخرية باللفظ؛ فإنها متضمنة فيه لأن من يسخر من أحد لا يفعل ذلك إلا من أجل احتقاره.

وليست السخرية قاصرة على القول باللسان؛ ولكنها تكون بشتى أنواع التعبير؛ فتأتي باللسان وبالكتابة وبالصورة المرسومة... وإنما جاء النهي عنها لمخالفتها مقتضيات الأخوة الإسلامية وآدابها، وما ينتج عنها من حقد وضغينة بين الناس، ثم لأن منبعها الكبر وحب احتقار الناس وازدرائهم. وقد يصدر من المسخر منه من رد فعل، ربما يكون شديدا. وقد أراد رسول الله ﷺ بدمها لمبدئ حسن التعايش بين الناس أن يثبت، ولمبدئ احترام المخالف أن يصير خلقا عند الجميع، ولسائر المبادئ النبيلة أن تظهر فيهم لا أن تذبج وتلقى أشلاء باسم حرية التعبير...

- لا لإيذاء الناس بسبهم بغير حق:

يراد بالسب ما يخاطب به شخص غيره من ألفاظ يرميه بها تمس خلقته أو نسبه أو عرضه بهدف إيذائه وإهانته. وهو من خصال الجاهلية التي ذمها الشارع لما رواه الشيخان عن المعرور بن سويد قال: "لقيت أبا ذر بالربذة"^(٣٩) وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني سابت رجلا فغيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: "يا أبا ذر! أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية"^(٤٠). ففيه أن السب بغير حق خلق أهل الجاهلية، يهدف صاحبه منه إلى إيذاء غيره، وإن التمادي فيه يفتح الذريعة إلى المواجهة المباشرة بالقوة بين المتخاصمين، وتكون نتائجه سيئة. ولذلك

٣٨- صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم الحديث ٦٤٨٧. وسنن الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، رقم الحديث ١٩٢٧.

٣٩- قرية قرب المدينة وبها قبر أبي ذر الغفاري وجماعة من الصحابة. ينظر النهاية في غريب الحديث: باب الرء من الباء؛ ج ٢/ ١٨٣.

٤٠- صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، رقم الحديث ٣٠. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، رقم الحديث ٤٢٨٩.

كان سدها واجبا، وكان النهي عن السب نهيا عن العودة إلى أخلاق الجاهلية. ولقد أوضح رسول الله ﷺ أن من يسب أخاه المسلم يخرج عن طاعة الله ورسوله ويعصيهما فقال: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"^(٤١). فإن فيه تعظيم حق المسلم، والتحذير من إيذائه، وبيان أن سبه بغير حق ينافي الأخلاق الإسلامية. ومن ثم لم يستحسن عليه الصلاة والسلام أن يرد من وقع سبه بالمثل على من آذاه فيسقط في أخلاق الجاهلية مثله فقال: وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه"^(٤٢).

وليس النهي قاصرا على سب الأحياء بغير حق؛ بل يعمهم والأموات وهذا قمة الأخلاق في الإسلام أن تصان كرامة الإنسان في حياته وبعد مماته. روى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: "لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا"^(٤٣). ويبدو أن سب الميت هو أشد من سبه الحي، لأن الحي يمكن أن يتوقع في الدنيا استحلاله بخلاف الميت.

ويحسن التوقف هنا للتنبية على أنه ليس من باب كون رسول الله محمد ﷺ مات وفارق الحياة الدنيا يفرض المسلمون أن يساء إليه؛ فإن ذلك يعني الموافقة على سبه في حياته. إنه عليه الصلاة والسلام حي في قلب كل مسلم، وإن محبته ليست مطلوبة في حياته فقط. ومن ثم لم تكن الدعوة إلى الكف عن الإساءة إليه لأنه مات عليه الصلاة والسلام؛ ولكن لكونه نبيا مرسلا إلى الناس جميعا، قدوة للمسلمين بمقتضى كتاب الله.

- لا لإيذاء الناس بالقذف:

يراد بالقذف في الاصطلاح الشرعي رمي أحد المرأة بالزنى. وقد حصل هذا في زمن النبوة عندما قذف هلال بن أمية امرأته بشريك. وقد رتب عليه الشارع

٤١- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم الحديث ٦٠٤٤. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ "سباب المسلم فسوق"، رقم الحديث ٢١٨.
٤٢- سنن أبي داود: كتاب اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار، رقم الحديث ٤٠٨٤. والمسند: ١٦٠٢١
٤٣- صحيح البخاري: كتاب الجنائز: باب ما ينهى من سب الأموات، رقم الحديث ١٣٩٣.

العقوبة إذا كان كذبا بقوله عز وجل: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾ (النور: ٦). ثم يزيد على هذه العقوبة أن الله يلعن صاحبه في الدنيا والآخرة لقوله سبحانه: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ (النور: ٢٤). وورد في السنة النبوية أنه كبيرة من الكبائر، يجب اجتنابها، بذلك أمر رسول الله ﷺ بصريح قوله لما فيه من مس بالعرض، وطعن في الكرامة، وتلويث لسمعة الإنسان. وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: "اجتنبوا السبع الموبقات: قيل يارسول الله! وما هن؟ - فذكر منها - قذف المحصنات المؤمنات الغافلات"^(٤٤).

وبهذا يظهر أن الشارع لا يقبل أن تترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات بدون دليل قاطع؛ فإنه يترك المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة النكراء ثم يمضي آمنا! فتصبح الجماعة وتمسي، وإذا أعراضها مجرحة، وسمعتها ملوثة، وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام؛ وإذا كل زوج فيها شك في زوجه، وكل رجل فيها شك في أصله، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار.. وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق"^(٤٥). من أجل ذلك لم يكن من المعقول ترك الناس يتناولون بألسنتهم على بعضهم ويفسدون العلاقات الاجتماعية، ويحدثون الاضطراب في المجتمع.

هذه مجموعة آفات يحصل بها الإيذاء بمختلف أنواعه، تصيب من تتوجه إليه ظلما وعدوانا في عرضه وسائر ما يملك؛ من شأنها غرس الحقد في النفوس، ونشر

٤٤- صحيح البخاري: كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، رقم الحديث ٦٨٥٧. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم الحديث ٢٥٨.
٤٥- في ظلال القرآن: ج ٤ / ٢٤٩٠ عند تفسير قوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ من سورة النور.
٤٦- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، رقم الحديث ٦٠٩٤. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب، رقم الحديث ٦٥٨٠.

العداوة بين أفراد المجتمع ، وقطع آصرة الروابط الاجتماعية والدموية بينهم . وكل ذلك إذا أطلق العنان للسان أن يتكلم ، ولم يحد بضابط أو قيد .

- الضابط الثالث : المصدقية في التعبير :

المصدقية من الصدق ، وهو خلق بالنسبة للمسلم يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، ولذلك أمر الله تعالى به ورسوله . روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ^(٤٦) " .

وخلافه الكذب وهو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . وهو منهي عنه بقول رسول الله ﷺ : " وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ^(٤٧) " . وأوضح عليه الصلاة والسلام أنه خصلة من النفاق تأكيداً لدمه . وذلك فيما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : " أربع من كن فيه كان منافقاً ، أو من كانت فيه خصلة من أربعة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ^(٤٨) " .

ومن هنا كان من احترام الإنسان نفسه أن يتحرى الصدق في خبره من أجل أن يعيش مطمئناً موثقاً به إذ «الصدق طمأنينة» ^(٤٩) ؛ وهو سمة المسلم ، به يعرف حين يمارس حقه في التعبير ، عندما يناقش موضوعاً معيناً ، أو يطلب منه الإدلاء برأيه فيه ؛ فإنه إذا قال قال حقا ولو كان مرا ، وإذا أخبر بما هو الواقع في نفس الأمر ولا يتجاوز . وهذا هو المعنى السليم لحرية التعبير أن يتم إظهار الحق وإفادة

٤٧- صحيح البخاري : كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، رقم الحديث ٦٠٩٤ . وصحيح مسلم بشرح النووي : كتاب البر والصلة ، باب قبح الكذب ، رقم الحديث ٦٥٨٠ .

٤٨- صحيح البخاري : كتاب المظالم والغصب ، باب إذا خاصم فجر ، رقم الحديث ٢٤٥٩ . وصحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق ، رقم الحديث ٢٠٧ .

٤٩- سنن الترمذي : كتاب صفة القيامة ، رقم الحديث ٢٥١٨ . والمسند : ١٦٣٠ و ١٦٣٦ .

السامع به. وليس الغرض منها التمويه وإخفاء الحقيقة لتلميع صورة شخص أو هيئة ابتغاء حظوة يرجوها المرء، أو التلبيس على الناس وتضليلهم بالأساليب الماكرة لإبعادهم عما يهمهم؛ فإن ذلك من شهادة الزور، وهي من أكبر الكبائر التي نهى رسول الله ﷺ عنها بقوله: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور. قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (٥٠)".

وأيضاً ليس يعني الحق في التعبير إطلاق الاتهامات من دون أدلة، ولا إساءة تأويل المعلومات لتحريفها عن حقيقتها؛ فقد حذر رسول الله ﷺ من ذلك وبين أن زمن أفرى أفرى أن يري - يعني المرء - عينيه ما لم تر (٥١)". وذلك لأن المرء إذا أطلق اتهامات باطلة، أو أساء توظيف معلومة لجهة معينة؛ لن يجد نفسه محترماً إذا ظهرت الحقيقة، وتبين كذبه في ذلك.

ثم لا يعني الحق في التعبير اختلاق الأخبار الكاذبة وإشاعتها في الناس لإثارتهم بها، فذلك شأن صحافة الإثارة التي لا يهتمها البناء، ولا في نشر إعلانات كاذبة للإيقاع بهم بإغراءاتها؛ فقد أخبر رسول الله ﷺ أن من يقوم بذلك "يشر شر شدقه (٥٢) إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه" لما كان يفعل في الدنيا أنه كان «يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق» (٥٣).

وأخيراً لا يعني ذلك أن لا مسؤولية على المرء عما يقوله، فتجده يتفنن في اختلاق الحكايات ليضحك الناس وينال إعجابهم. وليس يخفى أن من يحرص على ذلك لا ينضبط لأي معيار أخلاقي؛ فيكذب ويتفحش في قوله ولا يبالي. ولقد تواعد رسول الله ﷺ من يفعل ذلك بقوله: "ويل للذي يحدث بالحديث

٥٠- صحيح البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم الحديث ٢٦٥٤. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم الحديث ٢٥٥.

٥١- صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب من كذب في حلمه، رقم الحديث ٧٠٤٢.

٥٢- يشرشر شدقه إلى قفاه أي يشققه ويقطعه. ينظر النهاية في غريب الحديث؛ باب الشين مع الراء؛ ج ٢ / ٤٥٩.

٥٣- صحيح البخاري: كتاب كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم الحديث ٧٠٤٧.

ليضحك به القوم فيكذب . ويل له ويل له (٥٤) .

هذا وإن للمصداقية في الخطاب سمات تعرف بها إحداها تحري الصدق، وقد سبق ذكره . والثانية عدم التحيز إلى جهة على حساب أخرى؛ إذ ليس من الإنصاف إلقاء الضوء اللامع على من تحب فتعلي شأنه، وتحمجه عن لا تحب . والثالثة عدم المبالغة في الخطاب بتضخيم صغير، وتصغير عظيم، نحو إظهار سيئات أشخاص مثلاً والغفلة عن حسناتهم لإثارة الناس عليهم أو إسقاطهم من منصبهم إذا كانوا من ذوي المسؤوليات في الحكم . والرابعة الإقرار بالخطأ عند حصوله، والاعتذار عنه عند ثبوته فإن خير الخطائين التوابون . والخامسة التحلي بأداب الاختلاف إيماناً بأن الحوار هو أفضل الطرق لتقريب وجهات النظر المتعارضة؛ فلا للتعصب للرأي، ولا لإساءة الأدب في التعقيب عليه، ولا للرد عليه بأسلوبه إذا أساء صاحبه الأدب؛ فإن ذلك من أخلاق أهل الجاهلية إذا تخاصموا أن يعتمدوا شعارهم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

وهذا لا يعني عدم الرد والدفاع عن النفس؛ فإن الإنسان ينبغي أن تكون له الغيرة على كرامته؛ ولكن المراد أن يأتي الرد على قدر الإساءة إذا وجب . هكذا علمنا رسول الله ﷺ، وهكذا كان سلوك رسول الله ﷺ مع المخالفين؛ كان يرد عليهم من غير خروج عن خلقه العظيم، ولا ينجر إلى سلوك مسلكهم . أخرج البخاري بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: "دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم . قالت عائشة ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله" فقلت يا رسول الله! أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت وعليكم (٥٥) . قال الإمام النووي في تعليقه على موقف رسول الله هنا: "هذا من

٥٤- سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ "لو تعلمون ما أعلم"، رقم الحديث ٢٣١٥ . وسنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم الحديث ٤٩٩٠ .

٥٥- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم الحديث ٦٠٢٤ . وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، رقم الحديث ٥٦٢١ .

عظيم خلقه ﷺ وكمال حلمه، وفيه حث على الرفق والصبر والحلم وملاطفة الناس ما لم تدع حاجة إلى المخاشنة^(٥٦) .

من هذا نأخذ أن الخلاف في الرأي - مهما كان حجمه - لا يسوغ بذاءة اللسان مع المخالف، والتحريض على الانتقام منه. وأيضا لا يعني أن المخالف خصم محارب ينبغي إقصاؤه ومعاداته ما لم يظهر منه ذلك؛ فقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المخاصمة من دون حق بقوله: "من خصم في باطل وهو يعلمه؛ لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه. ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال"^(٥٧) حتى يخرج مما قال^(٥٨) .

الضابط الرابع: خدمة المصلحة العامة:

يراد بتحقيق المصلحة العامة عبر وسائل التعبير نشر ما يحقق النفع العام للمجتمع وللإنسانية كلها، بالدعوة إلى ما ينتظم به أمر دين الناس ويصلح أمر دنياهم.

أما ما ينتظم به أمر دين الناس فيحصل من خلال وسائل الإعلام بتأييد أصول إيمانهم، والدود عنها بالحجة، ورد الشبهات عنها. بذلك يكون الإعلام أداة بناء وتثبيت لا أداة هدم يثير العداوة بين الناس. ويدخل ضمن مهامه هنا الوقوف في وجه من يشوش على تلك الأصول فيكون حاضرا بوسائله المختلفة لرد الأذى ودفع المضرة؛ فلربما كان وقعه ومفعوله أشد على العدو من السلاح المادي. وذلك مثل ما قام به رسول الله ﷺ حين ندب حسان بن ثابت لدفع أذى المشركين بشعره "فكان ينافح عن النبي ﷺ"^(٥٩) . روى الإمام مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال

٥٦- صحيح مسلم بشرح النووي: عند شرح الحديث رقم ٥٦٢١.

٥٧- ردغة الخبال: عصارة أهل النار. ينظر النهاية في غريب الحديث: باب الرأء مع الدال؛ ج ٢/ ٢١٣.

٥٨- سنن أبي داود: كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومه من غير أن يعلم أمرها، رقم الحديث ٣٥٩٧. والمسند: ٥١٢٩.

٥٩- صحيح البخاري: كتاب المغازي؛ باب حديث الإفك، رقم الحديث ٤١٤٥. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان؛ رقم الحديث ٦٣٣٩.

لحسان: «اهج قريشا فإنه أشد عليها من رشق بالنبل^(٦٠)». من أجل ذلك وجب أن تكون وسائل الإعلام في خدمة ما يدين به الناس بالحجة والبرهان تثبيتا لهم على ما هم عليه.

وأما ما ينتظم به أمر دنيا الناس فيحصل من خلال الإعلام بما يأتي:

- الدعوة إلى الوحدة واجتناب التفرقة:

لا يجادل عاقل في أن الوحدة عنصر قوة للمجتمع ، وخلافها الفرقة فإنها مدعاة الفشل، ومن ثم كان من الواجب على وسائل الإعلام أن تحرص على إشاعة معنى الوحدة وأهميتها، وتحذر من الفرقة وتنبه على خطورتها. وكان على الخطيب والكاتب والفنان أن لا يسأموا من تناول هذا الموضوع والتذكير به. وقد رسم رسول الله ﷺ معالم السبيل إلى ذلك في مجموعة أحاديث حض في بعضها على أمور، ونهى في بعضها الآخر عن أخرى.

أما ما حض عليه وشجع المسلم على أن يقوم به فدعوته إلى الإصلاح بين الناس بالكلمة إذا تخاصموا، ونهيه عن السكوت والتفرج عليهم عند العلم بأمرهم. وكل ذلك من أجل المحافظة على تماسك أفراد المجتمع ، واستمرار التواصل بينهم سواء كانوا أبناء الأسرة الواحدة أو أجنب. وقد أخرج رسول الله ﷺ من دائرة الكذب المحرم ما يقوله من يريد الإصلاح بين المتخاصمين على خلاف الواقع لتثبيت وحدة الصف، والحفاظ على تماسك البناء. وذلك فيما رواه البخاري بسنده إلى أم كلثوم بنت عقبة قالت: قال ﷺ: "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا^(٦١)".

وأما ما نهى عنه ﷺ مما لا يخدم المصلحة العامة فنهي عما يلي:

أ- نهيه ﷺ عن إقصاء الإنسان من المشاركة في مناقشة أمر هو حاضر فيه، وذلك

٦٠- صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان؛ رقم الحديث ٦٣٤٥.

٦١- صحيح البخاري: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم الحديث: ٢٦٩٢.

فيما أخرجه البخاري بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث"^(٦٢). وذلك حتى لا يبقى في نفس الفرد الثالث شيء أو يتوهم أن في كلامهما مسابه. ومن هنا لا يكون الإنسان حرا في التعبير عن رأيه بلغة لا يفهمها من يشاركه المجلس اللهم إلا أن يستأذنه في ذلك. ولا شك أن مراعاة هذا الجانب النفسي مهم لحماية كرامة الإنسان، وسد وساوس السوء بين أفراد المجتمع.

ب - نهيه ﷺ عن إثارة الفتنة في المجتمع، بنشر ما يثير النعرات القبلية مثلا بتقديم جنس على جنس، أو إفشاء أسرار الناس. كل ذلك وما يحقق نتائجه نهى عنه عليه الصلاة والسلام، وكان صارما في ذلك إذ عده من "دعوى الجاهلية". وقد تبرأ من صاحبها بقوله: "من ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم". فقال رجل يا رسول الله! وإن صلى وصام؟ قال: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله"^(٦٣).

ولقد حصل مرة حين رجع رسول الله ﷺ والصحابة من غزاة أن "كسع"^(٦٤) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة"^(٦٥). هكذا سماها رسول الله ﷺ دعوى أهل الجاهلية كراهة منه لذلك فإنه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالحمية والعصبية، فانتهى ذلك

٦٢- صحيح البخاري: كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم الحديث ٦٢٨٨. صحيح مسلم

بشرح النووي: كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنان دون الثالث، رقم الحديث ٥٦٥٨.

٦٣- سنن الترمذي: كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، رقم ٢٨٦٣.

٦٤- الكسع أن تضرب بيدك أو رجلك بصدر قدمك على دبر إنسان. ينظر بسان العرب: باب العين فصل الكاف.

٦٥- صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: "سواء عليهم أستمغرت لهم .." رقم الحديث ٤٩٠٥.

وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم الحديث

٦٥٢٦.

بمجيء الإسلام وأقر فصل القضايا بالأحكام الشرعية .
 ومما نهى رسول الله ﷺ عنه أيضا مما له أثر في زعزعة استقرار المجتمع وإثارة
 الخصومة بين أفرادها؛ خصلة النميمة . وحققتها إفشاء السر، وإظهار ما يكره
 المحكي عنه كشفه من أمره . وغايتها الإفساد بحيث إن الذي ينمي حديثا إنما
 ينميه على وجه الإفساد . ولذلك توعد رسول الله ﷺ من يفعل ذلك بأن النار
 مصيره فقال: "لا يدخل الجنة ثمام"^(٦٦) . وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضي
 الله عنهما قال: "مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان
 في كبير، أما هذا فكان لا يستتر من بوله . وأما هذا فكان يمشي بالنميمة"^(٦٧) .

ج - نهيه ﷺ عن نشر الفاحشة في المجتمع :

وإن نهى النبي ﷺ عن نشر الفاحشة في المجتمع امتداد لنهي الكتاب عنه؛ فقد
 حذر الله عز وجل، وتوعد بالعذاب الأليم عن مجرد محبة أن تشيع الفاحشة في
 الذين آمنوا فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُونَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩) . وهو ما
 فسره ابن تيمية بأنه «ذم لمن يحب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع
 ذلك باللسان والجوارح . وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبة لوقوعها
 في المؤمنين إما حسدا أو بغضا، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها . وكلاهما محبة
 للفاحشة وبغضا للذين آمنوا، فكل من أحب فعلها ذكرها»^(٦٨) .

وجاء التغليظ في هذا الأمر لما يترتب عن نشر الفاحشة بمختلف وسائل النشر
 المرئية والمسموعة والمقروءة من مفاصد كبرى تمس الأمة في أخلاقها؛ فينزل أفرادها
 من مقام الإنسانية إلى مقام الحيوانية، وتلحق بحياتهم الاجتماعية من المضار ما لا

٦٦ - صحيح مسلم بشرح النووي: كتب الإيمان، باب غلظ تحريم النميمة، رقم الحديث ٢٨٦ . المسند: ٢٢٢٣٦ .
 ٦٧ - صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الغيبة، رقم الحديث ٦٠٥٢ . وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب
 الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم الحديث ٦٧٥ .
 ٦٨ - مجموعة الفتاوى: ٨/م ج ١٥/١٩٤ .

يقدر خطورته المرء. ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الفحش والتفحش^(٦٩) في القول. ونهى عن مجموعة أمور تدعو إلى الانحلال الخلقي في المجتمع؛ ومن ذلك نهيه ﷺ عن أن يحكي المرء ما حصل بينه وبين زوجته، لأنه من الخصوصيات التي تتم في ستر فلا يليق الجهر بها فقال: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه"^(٧٠). وهذا عام في كل عمل يقوم به المرء في سر ثم يصبح يفضح نفسه.

ومنه أيضاً منعه ﷺ فتى مخنثاً من الدخول على النساء حين سمعه يصف امرأة في مشيتها، لما في ذلك من خروج عن الآداب، وهتك للمستور، وقتل للقيم الأخلاقية الحسنة في المجتمع، وبث للانحراف الخلقي. أخرج البخاري ومسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "دخل علي النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعتة يقول لعبدالله بن أبي أمية: يا عبدالله! رأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. وقال النبي ﷺ: لا يدخلن هؤلاء عليكن"^(٧١).

وإن من أمثلة ما يساعد على نشر الفاحشة اليوم ما تقوم به بعض الصحف من تخصيص ركن منها للإجابة عن أسئلة القراء فيما يخص مشاكلهم النفسية والجنسية. وهذا عمل مهم لا عيب فيه أن تساهم وسائل الإعلام في حل مشاكل الناس. ولكن العيب حين يدلهم الجواب المقدم إليهم على التمرد على الأخلاق وعلى قيم المجتمع... فالسائل(ة) مثلاً يعرض مسألته ليتخلص من مشكلته؛ ويأتي الجواب يصدمه بدعوته إلى الرذيلة، وتشجيعه على ربط علاقات غير

٦٩- صحيح البخاري: كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: "يستجاب لنا في اليهود"، رقم الحديث ٦٤٠١. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب السلام: باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، رقم الحديث ٥٦٢٤.

٧٠- صحيح البخاري: كتاب الأدب، ٥٦٠٨، وصحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق.

٧١- صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم الحديث ٤٣٢٤. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء، رقم الحديث الأجانب ٥٦٥٤.

شرعية، وعدم الاكتراث لقيم المجتمع ... وأيضا يكون العيب حين ينقلب
المجيب إلى فقيه يفتي فيبيح ممارسة العادة السرية مثلا، ويهون من قيمة البكارة عند
الفتاة ويجعلها خرافة وتقييدا موروثا فقط، لا علاقة لها بالعفة والطهر والصون!
إن التنبيه على هذا الأمر هنا لا يراد به أن أمور الجنس لا تقبل التداول
والمناقشة؛ وإنما المراد فقط الحرص على أن يكون كل كلام أو نقاش علميا، يسعى
صاحبه ليحقق به مصلحة عامة للناس سواء تعلق الأمر بالجنس أو غيره؛ فالإعلام
سلاح ذو حدين، وله خطورته في تمتين العلاقات أو تأزيمها ليس بين الأفراد داخل
البلد الواحد؛ ولكن أيضا بين الدول. وإنه وفق ما ورد من أحاديث ينبغي أن
يكون أداة بناء، وعنصر قوة في تماسك المجتمع، ومادة لاحمة بين ألوانه وجنسياته
بعدم إثارة ما يفرق بين مكوناته من عصبية وإثنية عرقية. وأيضا بالسعي إلى
الإصلاح ودرء تعميق هوة الخلاف عند حصول مخاصمة أو تنازع بينهم. ثم
بحماية قيمه وتحصينها، ذلك خير وصدقة يتصدق بها المرء عن نفسه؛ ومن لا
يقوى على هذا فالأفضل له أن يصمت؛ فإن الصمت نفعه عظيم أيضا في تحقيق
ذلك لقوله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"^(٧٢).

الضابط الخامس: لطف العبارة:

وهذا الضابط مكمل لما قبله، والمراد به مراعاة مشاعر المخاطب وقيمه، بالابتعاد
عن جرح عاطفته بالكلمات النابية، والألفاظ المبتذلة المنافية للذوق الإنساني
السليم. ويظهر في أمرين اثنين أحدهما عند مناقشة الرأي المخالف، والثاني عند
مناقشة الأمور ذات العلاقة بالجنس.

أما الأمر الأول فيتناول عند مناقشة الأفكار والسلوكات المخالفة، فينبغي أن تتم
بعيدا عن ذكر الأشخاص بسوء، لأن كل صاحب فكرة قد يتراجع عنها إذا ظهر له

٧٢- صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم الحديث ٦٤٧٥. صحيح مسلم بشرح النووي:
كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، رقم الحديث ١٧١.

خطؤها، وقد يصبر عليها إذا تم الإساءة إلى شخصه عند مناقشة أفكاره. ولهذا
 وجب على من يتصدى للرد على الآراء المخالفة أن يملك أدوات وآداب الحوار،
 ومنها التمكن مما عنده، والقدرة على الدفاع عن رأيه، والتوجه إلى مناقشة
 الأفكار، وبيان ضعفها بناء على الأدلة وعلى المعطيات العلمية... وهذا من آداب
 النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام حين لم يكن يعجبه سلوك يصدر من أحد
 الصحابة يقوم خطيبا فيقول عليه الصلاة والسلام "ما بال أقوام يقولون كذا
 وكذا؟"^(٧٣) ولم يكن يسمي أحدا. وهذا أدعى للاستجابة، وأضمن لتقريب
 البعيد.

وأما الأمر الثاني فيتناول عند معالجة القضايا المتعلقة بالجنس خاصة؛ فإن الشرع
 لا يمنع مناقشتها مناقشة علمية وسائر المواضيع التي تهم الإنسان في علاقته
 بزوجته؛ فقد كان رسول الله ﷺ يبين ما يشكل على الناس من تلك الأمور؛ فبين
 مثلا ما يحل للرجل حين تكون زوجته حائضا مثلا، وكان الذي يروي هذه
 الأحاديث في الغالب نساؤه عليه الصلاة والسلام نحو حديث ميمونة رضي الله
 عنها في موضوع مباشرة رسول الله نساءه عند الحيض^(٧٤)، وجوابه عن سؤال
 المرأة كيف تتطهر من الدم..^(٧٥) وقد روت عائشة رضي الله عنها أنه كان يغتسل
 والمرأة من نساءه من إناء واحد^(٧٦) وبينت أيضا أنه عليه الصلاة والسلام كان أملك
 الناس لإربه، وكان يقبلها وهو صائم^(٧٧)...

كل ذلك تناوله رسول الله في حديثه، ونقلته عنه نساؤه، وذلك في حسن أدب
 وألطف عبارة بعيدا عن أي إثارة منه، أو خضوع بالقول من جهة النساء. وإن
 أعذب ما يظهر فيه هذا الأمر جوابه عليه الصلاة والسلام الذي قدمه لامرأة رفاة

٧٣- هذا كثير في أدب رسول الله ﷺ ينظر مثلا كتاب الصلاة، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد،
 رقم الحديث ٤٥٦.

٧٤- صحيح البخاري: كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض، رقم الحديث ٣٠٣.

٧٥- سبق تخريجه في ص: ٧، الهامش رقم ٢.

٧٦- صحيح البخاري: كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض، رقم الحديث ٢٩٩.

٧٧- صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم
 تحرك شهوته، رقم الحديث ٢٥٦٨.

القرظي حين جاءته تريد الرجوع إلى زوجها الذي طلقها ثلاثا. أخرج الشيخان عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن امرأة رفاة القرظي جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله! إن رفاة طلقني فبت طلاقي، وإني نكحت بعده عبدالرحمن بن الزبير القرظي وإن ما معه مثل الهدبة^(٧٨)! قال رسول الله ﷺ: لعلك تريدان أن ترجعي إلى رفاة! لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته^(٧٩). إنه موقف حرج خرج منه رسول الله ﷺ بأخصر جملة، وأعذب عبارة؛ موقف حضره نفر من الصحابة واستغربوا مقالة المرأة، لكن لم يستغربها رسول الله ولم يتهرب من الجواب عنها. وقد ورد في رواية أخرى "وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جالس عند رسول الله ﷺ وخالد بن سعيد بن العاص جالس بباب الحجرة لم يؤذن له، فطلق خالد ينادي أبا بكر: ألا تزجر هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ؟! ^(٨٠)".

هذه هي حرية التعبير الحقيقية؛ فإنها لا تعني التسبب وخذش الأخلاق، والخروج عن الآداب والمساس بالقيم الحسنة؛ فإن ذلك كله لا يحقق الارتياح النفسي للمخاطب، ولكن يثيره ويهيج فيه جانبه الغريزي لينطلق مسعورا لإشباع رغباته. إن حرية التعبير بمعناها الإيجابي أداة بناء الإنسان عقله وعاطفته، ليبقى إنسانا لا يخرج عن دائرته إلى عالم الحيوانات البهيمية.

وإذا ثبت هذا الرقي الأخلاقي في السنة النبوية عند تناول المواضيع التي ترتبط بالحياة الجنسية؛ علمنا كيف يبقى الإسلام في مقامه العالي لا ينزل عنه إلى منزلة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع، متميزا عنهم في طريقة عرضه وأسلوبه، مما يتيح لكل واحد ذكر وأنثى أن يقرأ نصوصه في الملأ ويستشهد بها. وأيضا نعلم مدى الانحطاط الذي يتميز به أدب العربي، وما يهدف إليه أصحاب الغزل الفاحش من جعل المرأة شيئا مبتذلا لا إنسانا مكرما حيث يختزلها في جسدها فقط.

٧٨- أرادت بالهدبة متاعه، وأنه رخو مثل طرف الثوب لا يغني عنها شيئا. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر: باب الهاء مع الدال: ج ٢ / ٢٤٩.
٧٩- صحيح البخاري: كتاب الطلاق؛ باب إذا طلقها ثلاثا، رقم الحديث ٥٣١٧. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب النكاح، باب لا تحمل المطلقة ثلاثا، رقم الحديث ٣٥١٣.
٨٠- صحيح البخاري: كتاب الشهادات، باب شهادة المختبئ، رقم الحديث ٢٦٣٩. وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب النكاح، باب لا تحمل المطلقة.

خاتمة:

هذا ما يسر الله لي إنجازَه في هذا العرض المرتبط بحرية التعبير في السنة النبوية؛ حرصت فيه على أن يكون مؤصلا من السنة الصحيحة، فكانت الانطلاقة من تحديد مصطلحي "الحرية" و"التعبير"، ثم أتبعته بإثبات الحق في التعبير بناء على وقائع عملية حصلت على عهد النبوة، وعلى أحاديث تخص على ذلك. ثم جاء الحديث بعده عن ضوابط حرية التعبير في السنة النبوية وهي ضوابط لا يسع عاقلا مسلما وغير مسلم إلا أن يقرها لما تحققه من احترام متبادل بين الناس، وتضمنه عند التزامها من إقرار بالحق في الاختلاف، وإمكانية التعايش بينهم.

وأحسب بعد هذا الجهد أني خلصت إلى بعض النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:
أ- الحق في التعبير لم يثبت في السنة النبوية بنصوص تدعو إليه فقط؛ ولكن بالإضافة إلى ذلك تم ممارسته عمليا على عهد النبوة، وكان رسول الله ﷺ يحفظه لكل واحد على أساس أنه جزء من كرامة الإنسان.

ب- ورد الحق في التعبير بحرية في السنة النبوية، ومارسه الصحابة في صور متعددة؛ فكانوا يعبرون عن آرائهم فيما يهم الصالح العام، ويتوصلون بالمعلومات كاملة عن أغراضهم، ويراجعون رسول الله ﷺ فيما يدعوهم إليه، لا اختلاف في ذلك بين امرأة ورجل. وكل ذلك في جو من الاحترام والحب المتبادل. ولم يكن أحد منهم يحجم عن التعبير عن رأيه خشية ملاحقة أو متابعة زجرية تهدده..

ج- ثبت في السنة النبوية أن الحق في التعبير يتعدى في بعض الحالات كونه حقا اختياريا للفرد، إلى كونه واجبا ممارسته حسب الإمكانيات المتاحة لكل فرد. وذلك ما دلت عليه النصوص التي تدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة للمسلمين.

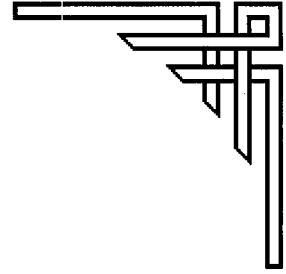
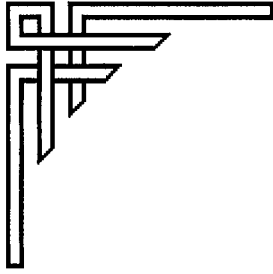
د- دلت الأحاديث النبوية على أن حرية التعبير ليست حقا مطلقا يمارسه كل واحد

كما يشاء؛ فإن ذلك يحصل معه تصادم الأفراد في ممارسته. من أجل ذلك كانت له ضوابط مقبولة عقلا تهذب وتضمن أن يستفيد منه كل فرد، وتجنب توظيفه في استفزاز المخالف، وإيذائه واستعداد الناس أو السلطة الحاكمة عليه. وإن اعتماد هذه الضوابط هو مقتضى الأخلاق الإنسانية الفاضلة.

هـ- ليست أصول الدين بالنسبة للمسلم منفصلة عن شخصه؛ ولكنها جزء منه. وإن من مقتضيات الإيمان أن يقدمها على نفسه وسائر تعلقاته؛ إذ الإيمان بالنسبة له لا يكمل إلا بتقديم محبة الله ورسوله على محبة نفسه وولده، ومن ثم كانت الإساءة إلى أي أصل من أصوله إساءة إلى نفسه. وهذه النظرة يتميز بها المسلم وينفرد بها؛ فهو وحده يقدس دينه، وغيره يخالفه في ذلك فيجعل الدين أفيونا للشعوب، وعامل تأخرها، وعدوا للعقل، ومن ثم يدعو إلى نبذه ومعاداته. و- إنه ما لم يحترم الحق في الاختلاف فإن الفوضى تعم، ويكون من نتائجها التناكر بدل التعارف، والاحتقار في المعاملة بدل الاحترام، والإقصاء بدل التكافؤ في الحقوق، والاضطراب في المجتمع ومكوناته بدل الاستقرار. وهذا ما يدعو إلى عقد ميثاق أممي يؤكد الحق في الاختلاف، ويدعو إلى احترام تنوع الأفكار وتعددتها.

لائحة المصادر

- تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مصطفى حجازي، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣.
- سنن أبي داود: أبو داود (ت ٢٧٥هـ)، ط ١، تصحيح الشيخ الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية.
- سنن الترمذي: أبو عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، ط ١، تصحيح الشيخ الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية.
- السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق الشيخ محمد علي القطب ومحمد الدالي بلطه، ط ١، ١٤١٨هـ، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- الصارم المسلول على من سب الرسول: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق خالد عبداللطيف السبع العلمي، ط ١، ١٤٢٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- صحيح مسلم بشرح النووي: الإمام مسلم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الفائق في غريب الحديث لجار الله الزمخشري؛ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١٩٩٣ - ١٤١٤هـ، دار الفكر، بيروت.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، ط ١، ١٤٢٤هـ، مطابع دار البيان الحديثة، مصر.
- في ظلال القرآن: لسيد قطب، ط ١٦، سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م، دار الشروق، بيروت.
- لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ)، مطابع كوستاتوماس، مصر.
- مجموعة الفتاوى: لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، ط ١، دار الوفاء، مصر ١٤١٨هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير؛ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي؛ المكتبة العلمية، بيروت.

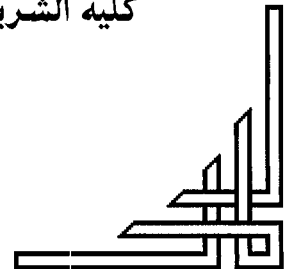
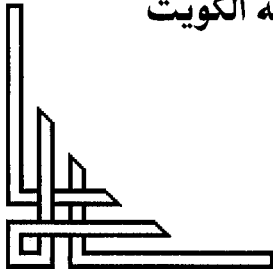


حرية التعبير في السُّنة النَّبَوِيَّة: (ضوابطها وصورها)

إعداد

د. مستورة رجا المطيري

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فقد اهتم الإسلام ببناء الشخصية المسلمة السوية، فشرع وقرر لها كثيراً من القوانين والمبادئ والمفاهيم، والتي إن سارت عليها والتزمت بها تحقق لها الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، ومن ضمن هذه المفاهيم التي تعين المرء المسلم على تحقيق آماله وطموحاته وتساعد على إتمام تكوينه النفسي والجسدي مفهوم ومبدأ حرية التعبير عن الرأي، فهو مبدأ عظيم وخطير يقوم على حرية التعبير عن الآراء والأفكار والمعتقدات التي يراها المرء مناسبة إما له أو لمجتمعه ومن هم حوله، فمصادرة الحريات وتكميم الأفواه تعمل على قتل المواهب والإبداع الفكري لدى الإنسان وتجعله إمعة ضعيف الشخصية عديم الفائدة سواء لنفسه أم لغيره.
ومن هذا المنطلق يمكن قياس تطور المجتمعات وتقدمها بمدى تحقق فاعلية هذا المفهوم وانتشاره بين أفرادها، إذ قلما نجد مجتمعاً متطوراً حضارياً ينعدم فيه وجود وتحقيق هذا المفهوم.

خطة البحث:

لقد يسر الله عز وجل لي اختيار بحث «حرية التعبير وضوابطها وصورها في السنة النبوية»، حيث قمت بالرجوع إلى العديد من المصادر والمراجع التي اهتمت واعنت بإخراج وإبراز هذا الموضوع كقيمة حضارية تساعد على رقي

المجتمعات وتطورها من منظور شرعي . وعليه تم تقسيم البحث كالاتي:

الفصل الأول: حرية التعبير وضوابطها .

المبحث الأول: مفهوم حرية التعبير .

المبحث الثاني: أدلة شرعية من الكتاب والسنة تحث على حرية التعبير .

المبحث الثالث: أهمية حرية التعبير .

المبحث الرابع : ضوابط حرية التعبير .

الفصل الثاني: صور مختلفة من حرية التعبير في العصر النبوي وعصر

الخلفاء الراشدين .

المبحث الأول: حرية التعبير في العصر النبوي:

١- حرية التعبير عند الصحابة .

٢- حرية التعبير عند المرأة .

٣- حرية التعبير عند غير المسلمين .

المبحث الثاني: حرية التعبير في عصر الخلفاء الراشدين .

صور مختلفة من حرية التعبير في عصر الخلفاء الراشدين .

خاتمة .

فهرس الأحاديث

المراجع والمصادر .

الفصل الأول: حرية التعبير وضوابطها

المبحث الأول: مفهوم حرية التعبير

إن حرية التعبير عن الرأي قائمة في الأساس على إعمال العقل وتفكره وتدبره فيما يحيط به من أمور وحوادث ومظاهر مختلفة سواء أكانت متعلقة به أم بغيره، لذا، أوجب الإسلام فريضة التفكير ودعا إليها منذ بدايات الدعوة الإسلامية حيث كان الرسول ﷺ يدعو قومه إلى التفكير والتأمل فيما يحيط بهم من كائنات ومخلوقات شتى، ويدعوهم إلى النظر فيها واكتشاف أسرارها لعلهم بذلك يهتدون إلى من أوجدها وخلقها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)

فحرية التعبير بالمفهوم الإسلامي: تعني أن يكون الإنسان ذا فكر أو رأي مستقل يستطيع أن يعلنه ويبيديه متى ما رأى ضرورة ذلك، أودعت الحاجة إليه في حدود الضوابط الشرعية، فشرع له التعبير عن رأيه سواء كان ذلك بالقول أم بالفعل، أو بشتى أنواع التعبير الأخرى المختلفة. ولقد شجع الرسول ﷺ على ضرورة أن يكون المسلم ذا رأي وفكر مستقل غير تابع لأحد.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يقول بحق إذا رآه»^(١).

١- أخرجه ابن حبان في الصحيح - كتاب البر والإحسان - باب ما يجب على المرء من القول بالحق... (٥٠٩ / ١) (ح ٢٧٥) (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم).

المبحث الثاني: أدلة من الكتاب والسنة

تحث على حرية التعبير

إن حرية التعبير من أهم القيم والمبادئ الراسخة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، تجلّى ذلك واضحاً في تشريع مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

كما روى مسلم في صحيحه عن طارق بن شهاب، قال: أول من بدأ بالخطبة - يوم العيد - قبل الصلاة (مروان) فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنالك. فقال أبو سعيد - أي الخدري - : أما هذا فقد قضى ما عليه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

إن دعوى تغيير المنكر في هذا الحديث باللسان إنما تدل على حرية التعبير في القول، وهذا ما فعله الرجل الذي اعترض على عامل معاوية في المدينة ويدعى مروان حين قدّم الخطبة على الصلاة فقال له: إن ذلك على خلاف السنة، بدليل أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه وافق هذا الرجل في رأيه وبين أنه قد أدى ما عليه حين قال: «أما هذا فقد قضى ما عليه» ثم روى الحديث السابق.

ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التناصح في الدين وهو أمر يساعد ويعمل على نشر حرية التعبير بقوة بين الناس.

عن تميم الداري، عن النبي ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة» (ثلاثاً) قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: «لله عز وجل ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣).

٢- أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان - (١ / ٦٩) (٧٨).

٣- أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب الإيمان - باب بيان أن الدين نصيحة (١ / ٧٤) (٩٥).

شرح أبو عمرو بن الصلاح معنى النصيحة في الحديث السابق، واقتصر على إيراد ما كان متعلقاً بأئمة المسلمين وعامتهم فقط حيث قال: «إن النصيحة لأئمة المسلمين معاونتهم على الحق، أو طاعتهم وتذكيرهم به وتنبههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم والدعاء لهم بالتوفيق، أما النصيحة لعامة المسلمين فتعني إرشادهم إلى مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم وستر عوراتهم وسد خللتهم أو نصرتهم على أعدائهم والذب عنهم... إلى أن قال: ورد من زاغ منهم عن الحق في قول أو عمل بالتلطف في ردهم للحق، والرفق بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن بيان ذلك ما صح من حديث النبي ﷺ: «ومن أعظم النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره»^(٤).

إن ما ورد من كلام ابن الصلاح في بيان معنى النصح سواء كان لأئمة المسلمين أو عامتهم إنما هو في حقيقته عبارة عن عوامل ودوافع تدفع الشخص المسلم إلى التعبير عن رأيه فيما يعرض له من حوادث ومواقف مختلفة تحت مظلة النصح في الدين.

كما شدد الرسول ﷺ على ضرورة أن يتمسك المسلم بحقه في حرية التعبير عن رأيه في المواقف التي تعرض له وأن عليه ألا يتردد أو يتراجع في قول يراه حقاً أو يراه باطلاً ما دام لا يلحقه من هذا القول أذى أو ضرر.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»^(٥).

٤- جامع العلوم والحكم (ص ١٨٩) بتصرف.

٥- أخرجه الترمذي في الجامع - كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - (٤ / ٤٠٦) (ح ٩٦٩)، (إسناده حسن فيه عبد العزيز بن محمد قال عنه ابن حجر في التقريب (١ / ٥١٢): صدوق يحدث من كتب غيره فيخطئ، وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي الأنصاري قال عنه ابن حجر في التقريب (١ / ٤٢٩): (مقبول) والحديث قال عنه أبو عيسى: حسن، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ١٨٠) (ح ٣٤٠٩) وأقر الترمذي على تحسينه.

المبحث الثالث

أهمية حرية التعبير

إن حرية التعبير من الأهمية بمكان وذلك لأنها تعتبر متنفساً طبيعياً لما يدور في عقل الإنسان من فكر ورأي مما ينسجم تماماً مع فطرة الإنسان السليمة التي فطره الله عز وجل عليها، كما أن لها أثراً قوياً في تحقيق التواصل والانسجام بين أفراد الأمة مما ينعكس على المجتمع فيحقق له السعادة والفلاح. فحرية التعبير أداة فعالة تعمل على تحقيق النتائج التالية:

أولاً: تساعد على تبادل الآراء والمعلومات، فتثري الحوار والنقاش بين الأفراد على كافة المستويات دل على ذلك فتح باب الاجتهاد وظهور المدارس الفقهية، وظهور علم الجرح والتعديل الذي كان له الدور الكبير في حفظ سنة الرسول ﷺ. هذا، وقد حث الرسول ﷺ ورغب في ضرورة أن يستشير المسلم أخاه المسلم ويعينه في الرأي والمسائل التي تعرض له فقال: «المستشار مؤتمن»^(٦).

ثانياً: تعزز وتدعم مبدأ الشورى بين المسلمين، فحرية التعبير تعمل على تمكين هذا المبدأ وتحقيقه من الناحية العملية دل على ذلك المواقف والأحداث التي كانت تعرض لرسول الله ﷺ حيث كان يرجع إلى أصحابه يستشيرهم ويأخذ آراءهم، وهو وإن كان مؤيداً بوحي من السماء يغنيه عن استشارة غيره إلا أنه أراد تربية أمته على تطبيق مبدأ الشورى، وذلك من خلال فتح باب المحاوراة والمناقشة والاستئناس بالآراء المختلفة فتحاً لباب الحرية في التعبير كي يقتدي به عليه الصلاة والسلام من يأتي بعده.

ثالثاً: تساعد أيضاً حرية التعبير على خلق وتكوين الشخصية المسلمة السوية

٦- أخرجه الترمذي في الجامع - كتاب الاستئذان، باب المستشار مؤتمن - (١١٥ / ٥) (ح، ٢٢٨٢)، (إسناده صحيح ورواته ثقات)، قال أبو عيسى: حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه في السنن كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن (١٢٣٣ / ٢) (ح ٣٧٤٦) عن أبي مسعود، قال عنه البوصيري في الزوائد (٢ / ٢٥٤): إسناده صحيح رجاله ثقات.

الواعية الناضجة القادرة على الإبداع والإنجاز وخدمة المجتمع وتكوين الرأي السليم.

لذا، حذر الرسول ﷺ من السلبية تجاه المجتمع وعدم المشاركة فيه بالرأي في قضاياها المختلفة.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ»، قالوا: يا رسول الله كيف يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قال: «يرى أمراً لله فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقولُ اللهُ عز وجل: ما منعك أن تقول في كذا وكذا، فيقول: خشية الناس، فيقول: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقُّ أَنْ تَحْسَى»^(٧).

رابعاً: تهدف إلى حفظ المقاصد الضرورية التي لا بد منها لقيام مصالح الدين: الدين، والنفس، والعقل، والمال، والعرض - حيث إن حفظ هذه المقاصد يشيع الأمن ويرفع الظلم ويحقق مفهوم العدالة بين الناس، لذا، ترك الرسول ﷺ الرجل الذي أغلظ في مقاله مع الرسول عليه الصلاة والسلام حين طلب إليه قضاء الدين الذي عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً تقاضى رسول الله ﷺ فأغلظ له، فهِمَّ به أصحابه، فقال: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً، واشتروا له بغيراً فأعطوه إياه...»^(٨).

المبحث الرابع

ضوابط حرية التعبير

لا يكون لحرية التعبير أية قيمة أو معنى ما لم يكن لها ضوابط وقيود تعمل على تحديد معالمها والهدف منها، والشريعة الإسلامية وإن كانت أقرت مفهوم حرية التعبير بوجه عام، حيث روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ

٧- أخرجه ابن ماجه في السنن - كتاب الفتن - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٣٢٨ / ٢) (ح ٤٠٠٨) (إسناده صحيح رجاله ثقات) وكذا قال البوصيري في الزوائد (٢٩٨ / ٢).

٨- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب الاستقراض - باب استقراض الإبل - (٥ / ٦٩) (ح ٢٣٩٠).

على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا وألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»^(٩).
إلا أن الشريعة قيدت هذا المفهوم بضابط عام، وهو أن تكون الحرية في التعبير عن الآراء مقيدة في مجال الطاعات والمباحات فقط، فإن تجاوزت حرية التعبير ذلك الضابط دخلت في نطاق الذنوب والمعاصي.

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشُرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].
قال السعدي في بيان وتفسير معنى هذه الآية ما يلي:

«فالْمُؤْمِنُ يُمَثِّلُ هَذَا الْأَمْرَ الْإِلَهِيَّ فَلَا تَجِدُهُ مُنَاجِيًّا وَمُتَحَدِّثًا إِلَّا بِمَا يَقْرِبُهُ مِنَ اللَّهِ أَوْ يَبَاعِدُهُ مِنْ سَخَطِهِ، وَالْفَاجِرُ يَتَهَاوَنُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَيُنَاجِي بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هَذَا دَابَّهُمْ وَحَالَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»^(١٠).

لذلك، ينبغي على المسلم أن لا يطلق لنفسه العنان في أن يقول ما يشاء أو يفعل ما يشاء كيف ما يشاء، بل عليه أن يلجم نفسه ويضبط قوله وفعله بهذا الضابط العام متحريراً بذلك رضا خالقه الذي أعطاه هذا الحق وكفله له.
ومن هذا الضابط العام وهو أن تكون حرية التعبير في مجال الطاعات والمباحات فقط تفرعت عدة ضوابط جزئية تعمل على ضبط هذه الحرية على حسب اختلاف الدواعي والأسباب المسببة لها، ومن هذه الضوابط:

أولاً: ألا تكون حرية التعبير داعية للفتن:

من أهم الضوابط الفرعية التي يجب أن تقيّد مفهوم حرية التعبير هو ألا تكون هذه الحرية مدعاة لحدوث الفتن وإثارة القلاقل والفوضى بين الناس، ومن الفتن التي قد تحدث تحت مظلة حرية التعبير:

٩- أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب الإمامة - باب وجوب طاعة الأمراء (٣/ ١٤٧٠) (٤١).
١٠- تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٨٤٥).

١- فتنة الردة عن الدين:

فذلك يتعارض مع حفظ المقاصد والضرورات الخمس التي تقوم عليها مصالح العباد والتي أمرت الشريعة الإسلامية بحفظها، لذلك، لا يجوز شرعاً تسمية الردة عن الدين تعبيراً عن حرية العقيدة كما يدعو لذلك ميثاق الأمم المتحدة، فالمرتد يحدث فتنة عظيمة حيث يؤدي ارتداده إلى فتنة المسلمين في دينهم، كما أنه يسعى إلى هدم شرائع الإسلام بكل ما أوتي من طاقة وقوة، لذا كانت عقوبة المرتد مناسبة له وهي القتل في حال ما إذا استتيب ولم يتب عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١١).

٢- الخروج على الحاكم:

قد يحدث الخروج على الحاكم فتنة بين صفوف الناس مما يؤدي إلى تمزيق الأمة وتشتيت طاقتها وذهاب هيبتها من أعين أعدائها لذلك تنهي الشريعة الإسلامية عن إحداث مثل هذه الفتنة تحت مسمى مظلة حرية التعبير، فمن أراد النصح للأمة عليه أن يذهب إلى الحاكم ويواجهه وينصحه ويخوفه بالله دون الحاجة إلى التمرد أو الخروج عليه ودون استغلال هذا الحق بصورة سيئة، ولقد حذر الرسول عليه الصلاة والسلام أمته من انتهاج هذا السلوك، عن عرفة الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»^(١٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من رأى من أمير شيئاً يكرهه، فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»^(١٣).

قال ابن حجر عن ابن بطلال: في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان

١١- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب الجهاد - باب لا يعذب بعذاب الله (١٧٣/٦) (٣٠١٧).

١٢- رواه مسلم في الصحيح كتاب الإمارة باب حكم من فرق أمر المسلمين (٣/١٤٨٠) (ح ٦٠٠).

ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح^(١٤).

٣- البدعة في الدين:

أيضاً الابتداع والإحداث في الدين تحت مظلة حرية التعبير أدى إلى ظهور وبروز فرق ومذاهب مختلفة تدعو الناس إلى اعتناق أفكارها والتزام آرائها، ولقد حذر الرسول ﷺ من تلك الفئات والفرق المبتدعة الضالة، فعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١٥).

وقد بين الشاطبي ضرورة الحذر في عرض المسائل والخوض فيها والتعبير عنها دون دراسة وتمحيص حيث بين سبب ظهور هذه الفرق المبتدعة فقال: «واستدلال كل من اخترع بدعة أو استحسّن محدثة لم تكن في السلف الصالح، بأن السلف الصالح اخترعوا أشياء لم تكن في زمان رسول الله ﷺ ككتب المصحف، وتصنيف الكتب، وتدوين الدواوين وتضمين الصناعات، وسائر ما ذكر الأصوليون في أصل المصالح المرسلة، فخلطوا وغلطوا، واتبعوا ما تشابه من الشريعة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وهو كله خطأ على الدين، واتباع لسبيل الملحددين، فإن هؤلاء الذين أدركوا هذه المدارك وعبروا على هذه المسالك، إما أن يكونوا قد أدركوا من فهم الشريعة ما لم يفهمه الأولون أو حادوا عن فهمها وهذا الأخير هو الصواب...»^(١٦).

فدل ما سبق على أنه لا ينبغي تحت مظلة حرية التعبير وفتح باب الاجتهاد الاندفاع أو الانزلاق وراء الأقيسة الفاسدة لئلا يؤدي ذلك إلى ابتداع البدع

١٣- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] كتاب الفتن باب قول النبي ﷺ سترون بعدي... (٧/١١) (ح. ٧٠٥٤)

١٤- فتح الباري لابن حجر (٩/١٣).

١٥- أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب الأفضية - باب تقض الأحكام الباطلة - (٣/١٣٤٣) (ح. ١٧).

١٦- الموافقات للشاطبي (٣/٧٣).

وظهور المنكرات التي لا تقرها الشريعة الإسلامية.

٤- نشر الإشاعات:

أيضاً من الفتن التي قد تحدث من جراء إساءة استخدام الحرية في التعبير على النحو السليم هو ترويح الإشاعات والأقوال الباطلة وإثارة البلبلة في صفوف الناس لما له من أثر خطير في زعزعة الأمن وعدم الاستقرار، ولقد حذر الرسول ﷺ من الخوض في مثل هذه الأمور الباطلة فقال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(١٧).

وقال ﷺ أيضاً: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١٨).

قال ابن رجب الحنبلي: «إن من حسن إسلامه تركه ما لا يعنيه من قول أو فعل، أو اقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال»^(١٩).

ثانياً: ألا تكون حرية التعبير داعية للفساد:

أيضاً ينبغي للمرء المسلم أن يحترز ويحتاط عندما يعبر عن رأيه في مسألة ما لئلا يؤدي ذلك إلى إشاعة الفساد سواء بين الناس أو في المجتمعات، ومن الإفساد: الوقوع في أعراض الناس، والدعوة إلى نشر الفاحشة والرذيلة. فلقد بينت الشريعة الإسلامية أن الوقوع في أعراض الناس وإطلاق الألسنة تخوض في مثل هذه الأمور يستوجب سخط الله ومقته.

قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

١٧- أخرجه مسلم في الصحيح - المقدمة - باب النهي عن الحديث بكل ما سمع - (١٠/١) (ح. ٥٠).
١٨- أخرجه الترمذي في الجامع - كتاب الزهد - باب ١١ - (٤/٤٨٣) (ح ٢٣١٧) عن أبي هريرة. (إسناده حسن فيه قرعة بن عبد الرحمن بن حيويل، قال عنه ابن حجر في التقریب (٢/١٥٢): صدوق له مناكير. وذكر المناوي: أن ابن عساكر أخرجه في التاريخ وأشار باستيعاب مخرجه إلى تقويته ورد زعم جمع ضعفه، وقد حسنه النووي بل وصححه ابن عبد البر) فيض القدير (٦/١٣).
١٩- جامع العلوم والحكم (١٢١).

وقال في موضع آخر ينهي فيه عن الغيبة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدًا كُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].
فالوقوع في الغيبة والنميمة وفتح المجال لمثل هذه الأمور تحت مظلة حرية التعبير إنما يوقع في الإثم ويعمل على تقطيع أواصر المحبة والمودة بين الناس، فقال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٢٠).

قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٢١) قال النووي: «معناه إذا أراد أن يتكلم، فإن كان ما يتكلم به خيراً محققاً يثاب عليه واجباً أو مندوباً فليتكلم وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح أو مستوى الطرفين»^(٢٢).

وقال ابن أبي الدنيا في فضل الصمت: «واعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات الأسرار، ولا يمكن استرجاع بواده، ولا يقدر على رد شوارده، فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالإمسك عنه أو بالإقلال منه»^(٢٣).

كما أن الدعوة إلى نشر الفاحشة والرذيلة بين الناس سواء بالقول أو بالفعل والتعرض للثواب المقدسة كالقرآن والأنبياء والرسل بالسخرية والاستهزاء تحت مسمى حرية التعبير لتعتبر من الأمور المحرمة في الشريعة الإسلامية لأنها تساعد على تدمير القيم والانحلال وفساد الأرض ومن فيها، قال ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فَعْمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلَ أَجْرٍ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سِنَّةً سَيِّئَةً، فَعْمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٢٤).

٢٠- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب الأيمان - باب المسلم من سلم - (١/ ٦٩) (ح ١٠)
٢١- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب الأدب - باب من كان يؤمن بالله - (١٠/ ٤٦٠) (ح ٦٠١٩).

٢٢- صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٩).

٢٣- أدب الدنيا والدين لابن أبي الدنيا (ص ٢٦٣).

٢٤- أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٤/ ٢٠٥٩) (ح ٥١)

ثالثاً: ألا تؤدي إلى جدال ومرء

ليس من حرية التعبير وقوع المسلم في الجدال والمرء وفضول الكلام لأنه لا يحقق مصلحة عامة ولا منفعة عاجلة، بل على العكس يؤدي إلى الحقد والغضب ومضيعة الوقت، وقد نهى الله عز وجل في محكم كتابه عن إثارة مثل هذه الأمور أو انتهاج مثل هذا السلوك تحت مظلة الحرية في التعبير عن الرأي:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَادِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١-٣] وقال أيضاً: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال الرسول ﷺ: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (٢٥).

وخلاصة القول: أن هذه الضوابط ما هي إلا ضوابط فرعية تضبط حرية التعبير بكافة مجالاتها المختلفة على حسب الظروف والدواعي المسببة لها، وإلا فالضابط لحرية التعبير بشكل عام هو أن تكون في مجال الطاعة وذلك حتى لا يقع المسلم في دائرة الإثم والعقاب وحتى يتحقق النفع المنشود من قيمة حرية التعبير فتكون إيجابيه وبناءه إذ أنه لو فتح المجال لكل شخص أن يعبر عن رأيه كما يشاء دون ضوابط وقيود تردعه لأفضى ذلك إلى كثير من النزاعات والخصومات التي تفسد العلاقات وتهلك الأم وتقضي على مقدراتها.

٢٥ - سبق تخريجه انظر (ص ١٣)

الفصل الثاني

صور مختلفة من حرية التعبير في العصر النبوي

وعصر الخلفاء الراشدين

جاء مفهوم حرية التعبير في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين من بعده على صور وأشكال عديدة، وفي ذلك دليل على أن حرية التعبير لا تقتصر على جانب واحد من حياة الإنسان وإنما تشمل جميع جوانب حياته المختلفة كما أنها لا تقتصر على فئة دون فئة بل هي مكفولة للجميع رجالاً ونساءً عرباً وعجماً ومسلمين وغير مسلمين.

فالحرية في التعبير عن الآراء والأفكار حاجة ورغبة توجد مع الناس كلهم، إذ إن الكل محتاج إلى أن يعبر عن رأيه سواء كان متعلقاً به أم غيره وهذا ينسجم تماماً مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، لهذا ظهرت في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين من بعده صور مختلفة للتعبير عن الرأي تختلف فيما بينها باختلاف الدواعي والأسباب والأشخاص والفئات.

المبحث الأول: حرية التعبير في العصر النبوي:

لقد قام الرسول ﷺ بتأصيل مفهوم حرية التعبير وجعله قاعدة عظيمة، حيث اجتهد لتحقيق ذلك عملياً بين أصحابه، ولقد كان لصفاته وأخلاقه ﷺ الأثر الكبير في تحقق هذا المفهوم، فلقد كان عليه الصلاة والسلام هيناً ليناً سهلاً لا يعنف أصحابه لا يسفه آراءهم ولا يوبخهم في حال الخطأ، وإنما كان يرشدهم لخير دينهم وديانهم بلطف ورفق ولين، فكان يجيب عن تساؤلاتهم واستفساراتهم دون ضجر أو ملل، كما كان يشاورهم في كثير من الأمور مما أكسبهم ثقة عظيمة بأنفسهم فصاروا يعبرون عن أفكارهم وآرائهم وملاحظاتهم وأسئلتهم بحرية تامة دون أن يؤدي ذلك إلى تجاوز حدود الأدب معه ﷺ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].
ومن هذا المنطلق تحققت حرية التعبير في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام على كافة المستويات، فالرجال والنساء، والمسلمون وغير المسلمين، والعرب والعجم كانوا على درجة واحدة من حرية التعبير عن الرأي، لذا جاءت حرية التعبير في العصر النبوي على صور مختلفة، وهي كالآتي:

- ١- حرية الصحابة في التعبير عن آرائهم.
- ٢- حرية المرأة في التعبير عن رأيها.
- ٣- حرية غير المسلمين في التعبير عن آرائهم.

أولاً: حرية الصحابة في التعبير عن آرائهم:

انتهج الرسول ﷺ منهجاً فريداً ومميزاً في تعليم أصحابه الحرية في إبداء الآراء والملاحظات حيث استخدم في ذلك وسائل، منها:

أولاً: تطبيق العمل بمبدأ الشورى:

يعتبر مبدأ الشورى من أهم وأول الوسائل التي ساعدت على ظهور حرية التعبير في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولقد تجلّى ذلك واضحاً في مواقف كثيرة حدثت في السنة النبوية منها:

١- موقفه ﷺ من حباب بن المنذر حين أشار عليه بتغيير المكان الذي اختاره لغزوة بدر، حيث إن رأى الحباب لم يزعج الرسول ﷺ ولم يضايقه بل لم يجد غضاضة في أن يتقبله.

يقول ابن هشام^(٣٦): عن الحباب بن المنذر أنه قال: «يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ فقال: «بل هو الحرب والرأي والمكيدة»، فقال يا رسول الله، فإن هذا

٢٦- سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٠).

ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء القوم فننزل، ثم نغور ما وراه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله: «لقد أشرت بالرأي».

ثانياً: مشاورته ﷺ لأصحابه في الخروج لملاقاة قريش في غزوة أحد مظهر آخر من مظاهر حرية التعبير، حيث احتد النقاش بين صحابة رسول الله ﷺ ما بين مؤيد للخروج ومعارض لذلك، فما كان منه ﷺ إلا أن لبس عدة الحرب وخرج لملاقاة قريش بناءً على رأي الأغلبية وهم الشباب حتى قالوا فيما بينهم: «لقد أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج» فالصحابه رضوان الله عليهم جميعاً لم يجدوا غضاضة أو حرج في التعبير عن رأيهم حتى ولو كان هذا الرأي مخالفاً لرأي الرسول ﷺ.

ثالثاً: لم تقتصر المشورة والتشجيع على الإدلاء بالأراء بين الرسول ﷺ وأصحابه على الشؤون السياسية والعسكرية فقط، وإنما تجاوز الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث طلب ﷺ إلى علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد أن يدلوا برأيهم في حادثة الإفك وعزمه على مفارقة أهله وهي الصديقة عائشة رضي الله عنها.

عن عائشة أنها قالت: «... دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي يستأمرهما في فراق أهله...» (٢٧).

ولقد قدم الرسول ﷺ أسامة واستشاره في هذا الأمر مع أن والده كان موجوداً وذلك لكون أسامة كان صغيراً آنذاك وأقدر على إبداء رأيه بحرية تامة دون أن يخشى عواقب كلامه بخلاف والده. قال ابن حجر: «وخصه دون أبيه وأمه لكونه كان شاباً كعلي، وإن كان علي أسن منه، وذلك أن للشباب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسن...» (٢٨).

كما أن في هذه الحادثة عدة فوائد استخرجها ابن حجر من الحديث السابق

٢٧- صحيح البخاري [الفتح] - كتاب التفسير - باب «لولا إذ سمعتموه...» - (٣٠٦/٨) (ح ٤٧٥٠).

٢٨- الفتح (٣٢٥/٨).

تدل على مشروعية حرية التعبير وأنه كان مطبقاً بصورة عملية وواضحة في زمنه ﷺ، يقول ابن حجر في الحديث فوائدها:

«البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع، وتعرف صحته وفساده بالتعقيب على من قيل فيه، هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه، وفيه أيضاً: استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ بقربته وغيرها، وتخصيص من جربت صحة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اتهم بشيء، وحكاية ذلك للكشف عن أمره، ولا بعد ذلك غيبة»^(٢٩).

إن تلك الفوائد ما هي إلا علامات ودلالات على انتشار وتطبيق مفهوم الحرية في التعبير في زمنه ﷺ.

ثانياً: المناقشة والمحاورة:

أيضاً من الوسائل المهمة والتي استخدمها الرسول ﷺ لنشر وإشاعة هذا المفهوم بين أصحابه استخدام أسلوب المناقشة والمحاورة إذ إنه أسلوب بفتح المجال أمام الغير للتعبير عن رأيه، فالمناقشة والحوار دائماً ما تفضي إلى التفكير في الموضوع والتدبر فيه وتعدد الآراء المختلفة حوله وشحذ الأذهان لإيجاد حلول مناسبة له.

ولا ينبغي حمل الحديث الذي نهى فيه النبي ﷺ عن كثرة السؤال على هذا المعنى وأنه لا يحق للمسلم أن يسأل أو يناقش الرسول ﷺ فإن ذلك يعتبر فهماً خاطئاً وإنما المراد بالنهي عن كثرة السؤال أي سؤال المال بغير حاجة، أو السؤال عن الأخبار والمسائل المبهمة، أو السؤال عن أخبار وشؤون الناس المختلفة التي لا تعود بالنفع والفائدة.

يقول الفاكهاني: «يتعجب من كره السؤال مطلقاً مع وجوده ﷺ في عصر النبي ﷺ وصاحبي السلف من غير نكير»^(٣٠).

٢٩- فتح الباري (٨ / ٣٣٧-٣٣٨).

٣٠- ينظر الصارم المسلول على من سب الرسول لابن تيمية: ٧٨.

والمناقشة والمحاورة التي كانت تدور بين الرسول ﷺ لم تكن على نسق واحد وإنما كانت متنوعة فتارة تكون على صورة طرح أسئلة واستفسار واستعلام، وتارة تكون على صورة شفاعة ومراجعة، وتارة تكون على صورة مراجعة ومجادلة، وفي السنة مواقف كثيرة تدل على ذلك منها:

- ١- قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي؟ قال: فوق الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: فوق في نفسي أنها النخلة، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة»^(٣١).
- ٢- ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كنفته فمرّ بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: «والله لذيئاً أهون على الله من هذا عليكم»^(٣٢).
- فهذا الحديث وإن كان فيه تعليم للصحابة بهوان الدنيا وحقارتها عند الله عز وجل إلا أن أسلوب الحوار والمناقشة الذي دار بينه وبين أصحابه فيه تعليم لهم لحرية التعبير حيث فتح لهم المجال ليدلوا برأيهم وساعدهم على ذلك.
- ٣- ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أحبهم إليّ فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمناً، فقال أو مسلماً، فسكت قليلاً، ثم غلبنني ما أعلم منه فعدت لمقاتلي فقلت مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمناً، فقال: أو مسلماً، ثم غلبنني ما أعلم منه، فعدت لمقاتلي أو عاد رسول الله، ثم قال يا سعد: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله في النار»^(٣٣).

٣١- الدلالة: تحريك الرجل رأسه وأعضاءه في المشي. ينظر بسان العرب: فصل الدال، باب اللام.

٣٢- أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب الزهد - (٤/ ٢٢٧٢ ح ٢)

٣٣- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب الإيمان - باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة - (٩٩/ ١) ح ٢٧.

فدل هذا الحديث على أن مراجعة سعد ومناقشته للنبي ﷺ بشأن الرجل الذي تركه ولم يعطه على الحرية في التعبير عن الرأي، فقد ذكر ابن حجر أن من فوائد الحديث: جواز الشفاعة عند الإمام فيما يعتقد الشافع جوازه^(٣٤).

والشفاعة عادة لا تأتي ولا تكون إلا بالجرأة على التعبير عن الرأي.

٤- مراجعة عمر ومجادلته للرسول ﷺ حين قبل بنود صلح الحديبية يعد مظهراً من مظاهر حرية التعبير يقول عمر: «والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله أأنت نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وغيرنا على الباطل؟ قال: بلى قلت: فعلام نعطي الدنية في ديننا إذاً، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرت أنك تأتيه العام؟ «قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به»^(٣٥).

٥- وفي جفاء الأعرابي وغلظته مع الرسول ﷺ حين سأله أن يعطيه من الخمس مظهر من مظاهر حرية التعبير، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك...»^(٣٦).

٦- وفي اعتراض الأنصار على الرسول ﷺ حين وزع غنائم هوازن على المهاجرين والمؤلفة قلوبهم ولم يعطهم شيئاً والنقاش الذي دار بينهم في هذا الموضوع حتى قال حسان بن ثابت في ذلك قصيدة عتاب للنبي عليه الصلاة والسلام لمظهر قوي ودليل ساطع على تمكن وسيطرة مفهوم حرية التعبير في

٣٤- فتح الباري (١/ ١٠٢).

٣٥- زاد المعاد (٢/ ١٨٩).

٣٦- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب فرض الخمس - باب ما كان النبي ﷺ يعطى ... -

(٦/ ٢٨٩) (ح ٣١٤٩).

المجتمع الإسلامي آنذاك.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما أفاء من أموال هوازن، فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يعطي رجالاً المائة من الإبل فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشاً وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس: فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقاتلتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم، ولم يدع معهم غيرهم. فلما اجتمعوا قام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما حديث بلغني عنكم؟....» (٣٧) الحديث.

ثانياً: حرية المرأة في التعبير عن رأيها في العصر النبوي:

لم يكن مفهوم حرية التعبير في العصر النبوي قاصراً فقط على الرجال، وإنما كان للنساء نصيب ومشاركة في هذا المفهوم.

فقد كن يملكن الحق والقدرة على التعبير عن آرائهن وأفكارهن ومشاعرهن دون أن يؤدي ذلك إلى التقليل من شأنهن أو انتقاص قدرهن، دل على ذلك حوادث كثيرة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منها:

حق المرأة في التعبير عن رأيها فيمن يتقدم للزواج منها، أو أنه لا يجوز إجبارها على الاقتران بمن لا تريد أو لا ترغب سواء كانت هذه المرأة ثيباً أو بكرأ ولا يتعارض ذلك مع حق الولي في إبرام عقد النكاح حيث إن المطلوب هو أن تعلن المرأة رغبتها وموافقتها على الزواج، لذلك أبطل ورد النبي صلى الله عليه وسلم زواج بعض النسوة ممن أكرهن على الزواج من دون رغبتهن في ذلك.

جاء في صحيح البخاري من أن خنساء بنت خدام زوجها أبوها وهي كارهة وكانت ثيباً فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحها؟! (٣٨)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن جارية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن

٣٧- صحيح البخاري [الفتح] كتاب المغازي - باب غزوة الطائف .. - (٦٤٩ / ٧) (ح ٤٣٣١)
٣٨- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب النكاح باب إذا زوج الرجل ابنته وهي كارهة - (ح ٨٣١٥ / ٩)

أبأها زوجها وهي كارهة فخيرها^(٣٩).

مما يدل على ضرورة أن تكون المرأة راضية وموافقة على من يريد الاقتران بها، وهذا الرضا لا يكون ولا يتم إلا بالتعبير عنه سواء بالصمت إن كانت بكرةً أو بالقول إن كانت ثيباً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن»، قالوا: يا رسول الله وكيف إذن؟ قال: «أن تسكت»^(٤٠).

وكذلك موقف بريرة من زوجها مغيث حين اختارت فراقه عندما نالت حريتها فقررت عدم البقاء عنده على الرغم من حب مغيث لها وشفاعة رسول الله ﷺ له عندها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث، كأني انظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ: «يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً، فقال النبي ﷺ: «لو راجعته» قالت: يا رسول الله أتأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه^(٤١).

وأيضاً موقف المرأة التي عبرت عن رأيها بصراحة تامة عندما أعلنت رغبتها في الزواج من النبي ﷺ فعرضت نفسها إليه في مجلسه وبين أصحابه، إنما هو مظهر من مظاهر حرية التعبير عند المرأة المسلمة في زمن الرسول ﷺ حيث لم تتردد ولم تشعر بالحرج من فعلها بل لقد امتدحها أنس راوي الحديث عندما عاتب ابنته حين لامتها على فعلها.

عن ثابت البناني قال: كنت عند أنس وعنده ابنة له قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها قالت: يا رسول الله ألك بي حاجة؟ فقالت بنت

٣٩- أخرجه أبو داود في السنن - كتاب النكاح - باب في البكر يزوجه... - (٥٧٦/٢) (ح ٦٩١٢) وقال الساعاتي (١٦/١٦٢): قال الحافظ ورجال إسناده ثقات.

٤٠- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب النكاح - باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها - (٩٨/٩) (ح ٥١٣٦)

٤١- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب الطلاق - باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة (ح ٣١٩/٩) (٥٢٨٣)

أنس، ما أقل حياءها واسوأها، قال: هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت نفسها عليه^(٤٢).

قال العيني: «وفي الحديث جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، وتعرّف رغبتها فيه لصلاحه وفضله أو لعلمه وشرفه أو لخصلة من خصال الدين، وأنه لا عار عليها، بل ذلك يدل على فضلها»^(٤٣).

سماعه ﷺ لشكوى المرأة التي ظاهرها زوجها والشكوى نوع من أنواع التعبير عن الرأي - ومجادلتها له والنقاش الذي دار بينهما فأنزل الله عز وجل سورة المجادلة والتي كانت سبباً في إبطال عادة الظهار القبيحة والتي كانت سائدة آنذاك.

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي على بعضه وهي تشتكي إلى رسول الله ﷺ زوجها وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت وانقطع له ولدي ظاهر مني، اللهم أشكو إليك، قالت عائشة رضي الله عنها: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات^(٤٤).

أيضاً في إجارة زينب بنت رسول الله ﷺ لزوجها أبو العاص بن الربيع - وكان مشركاً - حيث صاحت بأعلى صوتها من صفة النساء عند صلاة الفجر قائلة: «أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع» لدليل على حرية المرأة في التعبير عن رأيها وفي أن تجير من تشاء، فهي رضي الله عنها لم تخبر أباهاً بالموضوع، ولم تستأذنه في إجارة زوجها بدليل قوله ﷺ بعد انقضاء الصلاة «ما علمت بهذا وأنه

٤٢- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب النكاح - باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح (٨٠/٩)، (ح ٥١٢٠)

٤٣- عمدة القاري (١١٣/٢٠).

٤٤- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الظهار، باب الظهار، (٣٨٢/٧)، (وإسناده صحيح)، أخرجه البخاري معلقاً (٣٧٢/١٣)، والحاكم في المستدرک (٥٢٣/٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الساعاتي في الفتح الرباني (٢٢/٧) أن الحديث صحيح.

يجير على الناس أذناهم»^(٤٥).

وأيضاً ما دار بينه ﷺ وبين هند بنت عتبة في بيعة النساء عند فتح مكة ليعد مظهراً ودليلاً على حق النساء في التعبير عن آرائهن فلقد أخذت هند تجاذب الرسول ﷺ أطراف الحديث عند أخذه للبيعة من النساء وتعلق على بعض بنودها فلما وصل إلى قوله: ؟ ولا تقتلن أولادكن؟ قالت: قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك كباراً^(٤٦) لقد ترك رسول الله ﷺ لها الحرية الكاملة في التعبير عن رأيها حيث لم يزجرها ولم يعنفها على تعليقاتها.

ثالثاً: حرية التعبير عند غير المسلمين في العصر النبوي

لم تكن المدينة المنورة قاصرة في سكانها فقط على قبيلتي الأوس والخزرج، وإنما كان يجاورهم فيها اليهود، فلما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة مهاجراً وضع لها دستوراً شاملاً ينظم به العلاقات بين جميع الأطراف حفاظاً على استقرار الدولة وعدم زعزعة أمنها، ومن ضمن مبادئ هذا الدستور ترك الحرية التامة لليهود في ممارسة شعائرهم الدينية وغيرها على النحو المتعارف بينهم، ما لم يؤد ذلك إلى وقوع خطر على المسلمين تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لها وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إلا أن ذلك لم يعجب اليهود ولم يشف غيظهم، فكانوا كثيراً ما يتعرضون للنبي عليه الصلاة والسلام ويأتونه في مجلسه يطرحون عليه الأسئلة الاستفزازية رغبة منهم في إثارة الفتنة بين صفوف المسلمين.

عن عبد الله ﷺ قال: بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقالوا: ما رابكم إليه لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضهم فسأله

٤٥- السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٥٩).

٤٦- السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٦٠٣).

عن الروح...» (٤٧).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالت أحبار اليهود: يا محمد أرأيت قول: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إيانا تريد أم قومك؟ قال: كلا، قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنها في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه» (٤٨).

ومع ذلك لم يستطع اليهود أن يثيروا غضب الرسول عليه الصلاة والسلام، بل أبقى معهم باب الحوار والمناقشة وطرح الأسئلة مفتوحاً وتعامل معهم بحكمة وصبر وروية حفاظاً منه على مصلحة التأليف.

بل لقد بلغ من ضمانهم لحرية التعبير المكفولة لهم في الإسلام أن تجاوزوا حدود الأدب مع الرسول ﷺ، فكان بعضهم إذا قدم عليه يسبه عندما يسلم عليه ظناً منهم أن النبي ﷺ لا يفهم مقصدهم ومرادهم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك، فقلت: بل عليكم السام واللعنة، فقال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، قلت: أو لم تسمع ما قالوا: قال: قلت وعليكم» (٤٩).

وما حدث مع وفد نصارى نجران وعلماهم حين قدموا على رسول الله فاستقبلهم في مسجده وسمح لهم بالصلاة فيه، ثم بعد ذلك فتح باب الحوار معهم فناقشهم في المسائل التي كانوا يطرحونها بحرية تامة دون أن يصدر منه عليه الصلاة والسلام ضجر أو ملل من ذلك، حتى أنزل الله عز وجل آية المباهلة، فامتنع نصارى نجران من تطبيقها، والامتنال لها خوفاً من سوء عاقبتهم وانكشاف أمرهم، لمظهر آخر يدل على سماحة الإسلام وإعطائه الفرصة لغير المسلمين

٤٧- أخرجه مسلم في الصحيح - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح... (٤/٢١٥٢) (ح ٣٢)

٤٨- تفسير ابن كثير (٣/٥٩٦).

٤٩- أخرجه البخاري في الصحيح [الفتح] - كتاب استنابة المرتدين (١٢/١٨٠) (ح ٦٩٢٨)

بالتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم بحرية تامة حتى لو كانت شركية ودون خوف أو تردد.

المبحث الثاني: حرية التعبير في عصر الخلفاء الراشدين:

لقد واجه الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ اختباراً صعباً، حيث كان لابد من اجتماع كلمة المسلمين على رجل واحد يخلف الرسول ﷺ في إدارة شؤون المسلمين، وما جرى في سقيفة بني ساعدة من تبادل الآراء ووجهات النظر المختلفة في أحقية من يلي الخلافة لمشهد قوي ودليل ساطع على سيطرة مفهوم حرية التعبير في المجتمع الإسلامي، فالجميع كان لهم الحق في التعبير عن آرائهم دون مجاملة أو مواربة لأحد. فلما اتفقت كلمة المسلمين على اختيار أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ وآل الأمر إليه أراد أن يؤصل هذا المبدأ أكثر في نفوس المسلمين فوقف فيهم خطيباً ومعلنًا حقهم في إبداء آرائهم والتعبير عنها ما دام ذلك في مصلحة الإسلام والمسلمين.

يقول رضي الله عنه: «يا أيها الناس إنما أنا مثلكم... وإنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقمتم فتابعوني وإن زغت فقوموني...»^(٥٠).

من هذا المنطلق استمرت حرية التعبير عن الرأي في زمن الصحابة كما كانت عليه في زمن الرسول ﷺ، فهذا عمر بن الخطاب يناقش أبا بكر الصديق في زمن خلافته ويعترض عليه في مسألة التسوية بين الناس في العطاء الذي كان يعمل به أبو بكر حتى قال له عمر: كيف تجعل من ترك عياله ودياره وأمواله وهاجر إلى رسول الله ﷺ كمن دخل في الإسلام كرهاً؟ فقال أبو بكر: «إنهم أسلموا لله وأجورهم على الله وإنما الدنيا بلاغ»^(٥١).

وهذه امرأة تعترض على عمر بن الخطاب حين أراد تحديد المهور فتصيح بأعلى صوتها من بين جموع الناس قائلة: أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر فما كان منه إلا أن

٥٠- تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٢٤٥).

٥١- الأم (٤/ ٢٠٩).

قال أصابت امرأة وأخطأ عمر والملا كله يسمع .
وأيضاً في اعتراض الصحابي أبي ذر الغفاري رضي الله عنه على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه حين آثر بعض قرابته في أعطيات بيت المال مما أثار حفيظة أبي ذر رضي الله عنه فواجه عثمان رضي الله عنه بذلك وحذره من التساهل في مثل هذه الأمور^(٥٢) .
وكذلك فتح علي بن أبي طالب رضي الله عنه المجال أمام الخوارج للتعبير عن آرائهم - مع أنهم خرجوا عليه - لدليل على سيادة وتمكن مفهوم حرية التعبير بين الراعي والرعية ذكر الطبري أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه قال لهم: «لكم علينا ثلاثة: ألا تمنعكم المساجد، ولا من رزقكم الفيء، ولا نبدوكم بقتال، ما لم تحدثوا فساداً». إلا أن الخوارج لم يعجبهم ذلك فخرجوا حتى اجتمعوا بالمدائن وهناك أعلنوا كفر من لا يعتقد معتقدهم وأنه مباح دمه وماله وأهله..» مما اضطر علي لقتالهم^(٥٣) .

وغيرها من المواقف والحوادث التي لم يتيسر لي ذكرها والتي تدل على انتشار مفهوم حرية التعبير في زمن الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

٥٢- تاريخ الأمم والملوك (٣ / ٣٢٥).

٥٣- تاريخ الأمم والملوك (٣ / ١١٤).

وفي ختام بحث «حرية التعبير في السنة النبوية ضوابطها وصورها» تبين أن حرية التعبير تحقق الأهداف التالية:

- ١- الاعتزاز بأن الإسلام كان له السبق في تقدير مبدأ حرية التعبير.
 - ٢- الاستقرار النفسي للإنسان وذلك لكون حرية التعبير ملائمة لفطرته التي فطره الله عز وجل عليها، بخلاف الكبت والقهر الذي يحطم نفسية الإنسان ويعوقه عن الإبداع والتنمية.
 - ٣- تعمل وتساعد على توطيد أواصر المحبة والتعاون بين أفراد المجتمع .
 - ٤- تحقق المصلحة العامة للأمة وذلك من خلال فتح باب المحاورات والمناقشات المتعلقة بشؤون الأمة المختلفة.
 - ٥- سماحة الإسلام في إعطائه الفرصة لغير المسلمين في التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم حتى ولو كانت شركية دون خوف أو تردد.
- وبناء على ما سبق أتقدم بالتوصيات التالية:
- ١- نشر الوعي بأهمية حرية التعبير بين أفراد الأمة وبيان أنها قيمة حضارية تحقق معنى الاتصال الإيجابي بين أفراد الأمة.
 - ٢- مراعاة الضوابط المختلفة المتعلقة بحرية التعبير والالتزام بها وذلك حتى لا تستغل حرية التعبير بشكل سلبي يؤثر على القيم والمعتقدات الإسلامية.
 - ٣- عدم احتكار هذا المفهوم على المسلمين فقط ، بل يجب فتح المجال أمام غير المسلمين للتعبير عن آرائهم وأفكارهم سواء المتعلقة بشؤونهم الخاصة أم بغيرها ما دامت في حدود الضوابط الشرعية اقتداء بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.
- هذا والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الأخيار الطيبين .

قائمة المراجع والمصادر

- ١- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١٩٧٩م، الدار العربية للكتاب، الشركة التونسية للتوزيع.
- ٢- أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق سعيد محمد اللحام، ١٩٨٨م، دار مكتبة الهلال، بيروت.
- ٣- الترغيب والترهيب للمنزري، حققه محي الدين ديب مستو، سمير أحمد العطاء، ويوسف علي بديوي، ط ٣ ١٩٩٩م، دار ابن كثير، بيروت.
- ٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط ١ ١٩٩٩م، مؤسسة الريان بيروت.
- ٥- تقريب التهذيب، لابن حجر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت.
- ٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، قدّم له فضيلة الشيخ عبد الله بن عقيل، ومحمد بن صالح العثيمين، اعتنى به تحقيقاً عبد الرحمن ابن معلا اللويحق، ط ٣، ٢٠٠٥م، مكتبة الرشد الرياض.
- ٧- الجامع الصحيح للترمذي، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م.
- ٨- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، ط ١ ٢٠٠٣م، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.
- ٩- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لمحمد بن علان الصديقي الشافعي، طبعة مصححة اعتنى بها سمير خالد الرجب ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٠- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية، تحقيق عبد القادر عطاء، ١٩٩٩م، دار التقوى، القاهرة.
- ١١- السنن الكبرى للبيهقي، ١٣٥٣هـ، دار المعرفة، بيروت.
- ١٢- سنن ابن ماجه، رقم كتبه وأبوابه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ١٣- سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، ١٩٧٠م، دار الحديث، بيروت.
- ١٤- السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٥- السيرة النبوية، لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها مصطفى السقا وإبراهيم الأنباري وعبد الحفيظ شلبي، المكتبة العلمية، بيروت.
- ١٦- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٣ ١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٧- صحيح سنن الترمذي، للألباني، ١٩٨٠م، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ١٨- صحيح سنن أبي داود للألباني، علق عليه زهير الشاويش، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت.
- ١٩- صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٢٠- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ١٩٩١م، دار الحديث، القاهرة.
- ٢١- الطبقات الكبرى لابن سعد، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ط٢ ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٢- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، دار إحياء التراث، بيروت.
- ٢٣- الفتح الرباني للساعاتي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، راجعه قصي محب الدين الخطيب ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، وراجعه قصي محب الدين، ١٩٨٦م، دار الريان للتراث، القاهرة.
- ٢٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ط٢ ١٩٧٢م، دار المعرفة، بيروت.
- ٢٦- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري، دارسة وتقديم كمال يوسف الحوت، ١٩٨٦، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

٢٧-المستدرك على الصحيحين للحاكم، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط٢٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨-الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، عني بطبعة وترقيمه محمد عبد الله دراز ط١٩٧٥، دار المعرفة، بيروت.

الجلسة السادسة

■ القيم الإعلامية في السُّنَّة النبويَّة وأثرها على حرية التعبير:

أ. د. الحاج الدوش، جامعة أم درمان الإسلامية - السودان.

■ الاتصال الجماهيري والرأي العام في السُّنَّة النبويَّة المشرفة

بين المبادئ المهيمنة والقلوب المؤلفة:

د. أبشر عوض محمد إدريس، كلية الدراسات الإسلامية

والعربية - دبي.

■ البيان الختامي للندوة العلمية الدولية الثالثة «القيم الحضارية في السُّنَّة

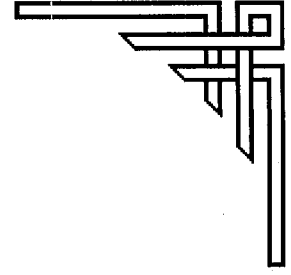
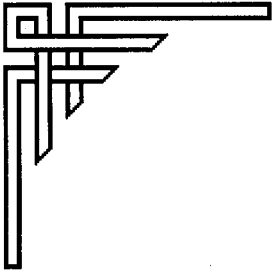
النبويَّة»:

■ كلمة الختام... نيابة عن الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف:

أ. د. أحمد معبد.

■ كلمة عميد الكلية:

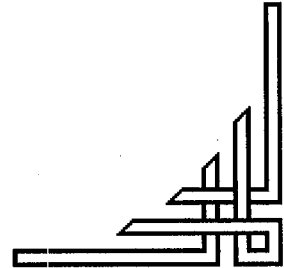
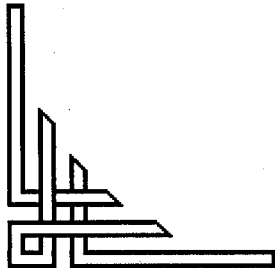
أ. د. سعيد الأيوبي.



القيم الإعلامية في السُّنَّة النَّبَوِيَّة وأثرها على حرية التعبير

أ. د. الحاج الدوش

جامعة أم درمان الإسلامية - السودان



الحمد لله الكبير المتعال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً صلّى الله عليه وسلم عبده ورسوله، اللهم صلّ عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة ما بقيت السموات والأرض وسلم.

وبعد.. فإن وظيفة علماء المسلمين لا تقف عند التفقه في الدين وتعليم المسلمين فحسب ولكنها تتجاوز ذلك لبيان هدي الرسالة الإسلامية إلى بني البشر كافة، وتكون الحاجة ماسة لذلك في هذا البيان الذي كثرت فيه أساليب الاتصال حتى صار العالم كله يوصف مجازاً بأنه (قرية واحدة).

انطلاقاً من حاجة واقع المسلمين اليوم إلى إعادة بعث القيم الإيمانية الراسخة في السنة النبوية والتي فيها علاج شاف لمشكلات الإنسانية، عموماً فإن هذا البحث يستهدف استعراض القيم الإعلامية في السنة النبوية من حيث وجودها وشمولها على موضوعات عديدة في مجالات الخطاب الإعلامي والخطاب الدعوي وتقرير حقوق ثابتة للفرد والدولة ترتبط بالحقوق الأساسية التي بدأت المجتمعات في عالم اليوم تنادي بها مثل حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الطفل وحرية التعبير وحرية الرأي وغيرها من المسميات المستحدثة، فإن القيم الإعلامية في السنة النبوية المطهرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم القيم عند المسلمين؛ ذلك أن غير المسلمين لم يتوصلوا بعد إلى مفهوم ثابت ودائم ومستقر حول هذه القيم.

ومن هنا يبرز هذا البحث ديمومة وعالمية وثبات القيم الإعلامية في السنة النبوية وترشيح مفاهيم الإعلام المستمدة منها وإبرازها لعالم اليوم في ظل الثقافات الإعلامية المختلفة التي تحاصر المجتمع المسلم اليوم.

ويهدف البحث إلى استخلاص الهدي النبوي في تأصيل الممارسة الإعلامية وردّها إلى الأصول الإسلامية باعتبار أن السنة النبوية مصدرٌ للأسس الفكرية

والقيم الإعلامية والاجتماعية والتشريعية والقانونية والاقتصادية بغية الوصول إلى توحيد للقيم الحضارية الإسلامية في المجتمع المسلم المعاصر.

حدود هذا البحث تقتصر على القيم الإعلامية في السنة النبوية وأثرها على حرية التعبير وضوابطها من منظور إسلامي مع الإشارة إلى القيم العالمية والدولية التي تحكم حرية التعبير في عالم اليوم وفقاً للنظريات والمفاهيم غير الإسلامية التي تستمد قيمها الإعلامية من قواعد الأخلاق السائدة في تلك المجتمعات وترتبط بفكر المصالح التي تختلف من بلد لآخر ومن مجتمع لآخر ومن زمان لزمان، ويبين البحث أثر هذا التباين والاختلاف في تلك القيم على حرية التعبير ووجودها وعدمه في الدساتير والقوانين لتلك الدول.

والجدير بالذكر أن الإسلام يوفر في إعلامه الحرية بشرط ألا تؤدي بسوء استخدامها إلى إيذاء الآخرين والاعتداء على الحريات الجماعية والفردية حتى لو كانوا أعداء للدين، قال تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

كما لا يجيز الإسلام الإساءة أو السب أو الشتم إلى الأديان الأخرى، لأن ذلك قد يؤدي إلى ضرر أكبر ويحرم الله الجهر بالسوء، قال تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(٢) ويعتبر من الجهر بالسوء ما في الإعلام اليوم من إشاعات وفضائح وعورات وكلام لا يجدي ولا ينفع.

غني عن البيان القول بأن الله سبحانه وتعالى قد بين طريقاً للدعوة والإعلان يعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن والإعراض عن الجاهلية في كل الأوقات والأزمان والظروف، بيد أن هذه الحرية ليست مطلقة إنما

١- سورة الأنعام، الآية (١٠٨).

٢- سورة النساء، الآية (١٤٨).

هي مقيدة بالأخلاق والآداب والقيم الإسلامية وهذه القيم والآداب والأخلاق هي عالمية الأهداف، وموجهة لكل البشر، وترتبط بحقوق الإنسان. وأول هذه الحقوق عدم الإكراه في الدين قال تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٣).

وفوق ذلك كله فإن الحريات الفردية في التعبير والرأي مقيدة بالحقوق العامة وكل هذه الحقوق مرتكزة على عقيدة التوحيد من صدق وأمانة وصبر وحسن خلق ومؤاخاة وما أكثر.. إلخ.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث.

المبحث الثاني: حرية التعبير من خلال السنة النبوية المطهرة.

المبحث الثالث: القيم الإعلامية من خلال السنة النبوية المطهرة.

المبحث الرابع: أثر القيم الإعلامية على حرية التعبير.

٣- سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

المبحث الأول

التعريف بمصطلحات البحث

تعريف القيم الإعلامية:

القيم في اللغة من قيم الشيء تقيماً أي قدر قيمته، قوم المعوج أي عدله فاعتدل^(٤).

والقيم من المصطلحات التي تستخدم استخداماً مجازياً في المعنويات في علم الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والتاريخ ويختلف مفهومها تبعاً لتلك العلوم. ولذا فإن المفهوم الاجتماعي لتلك العلوم هو القاسم المشترك، فعلم الاجتماع يعرف القيم بأنها هي مجموعة الأفكار أو التصورات المرغوبة وغير المرغوبة للأهداف والوسائل وأشكال الفعل وهي حقائق أساسية هامة في البناء الاجتماعي^(٥).

وفي كل مجتمع توجد مجموعة مشتقة من القيم تشكل خصائص ذلك المجتمع وتهدف إلى تماسكه، ولذا يقال أن القيم هي جزء من الثقافة وهي فكرة يعتنقها الناس سواء كانت هدفاً في حد ذاتها أو مجرد تعبير عن السلوك الذي يقوم به الفرد بحيث يجعل من تلك القيم سلوكاً موحداً تتفق وتلتف الجماعة حوله بحيث يكون الانحراف عن هذه القيم أمراً غير مرغوب فيه^(٦).

ومن هنا يمكن تحديد طبيعة القيم باعتبارها نسقاً معرفياً وخلقاً عاماً في إطار البناء الاجتماعي، تستمد دلالتها من الإطار الثقافي للمجتمع، وبأنها ليست ثابتة فهي تختلف باختلاف الأزمان والثقافات في المجتمع الواحد.

كما أن القيم يشترك فيها مجموعة كبيرة من الأفراد باعتبارها إطاراً مرجعياً

٤- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مطبعة شركة الإعلانات، ط١، ص٣٢١-٣٢٥.

٥- قاموس علم الاجتماع، محمّد عاطف عبث، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م، ص٥٠٣.

٦- دور الإعلام الديني في تغيير بعض قيم الأسر الريفية والحضرية، د. نوال محمّد عمر، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٤م، ص١٣٩.

مشتركاً يوحد بينهم؛ لذا فهي ظاهرة اجتماعية سواء أكانت في موضوع حسي ملموس أو في صفة معنوية يتوجب مراعاتها واحترامها.

والقيم الإعلامية هي مرآة عاكسة للأخلاق السائدة في المجتمع التي ترتبط بمصالحه، ولعله من المعلوم أن المصالح تختلف من مجتمع لآخر، وذلك نظراً لتعدد الأجناس والقوميات واللغات والديانات والعادات والتقاليد التي تنبثق منها القيم والأخلاق فمن الصعوبة أن تتوحد هذه القيم الإعلامية عالمياً، كما أنه لا يوجد مقياساً واحداً يمكن معه أو بمقتضاه قياس هذه الاختلافات أو ضروب التفاوت؛ القيمية والقيم الإعلامية تختلف داخل البلد الواحد الذي يعج بالعديد من القوميات والثقافات.

فالقيم الإعلامية هي مزيج من القيم الأخلاقية السائدة في المجتمعات وتشكل الأهداف النبيلة التي تسعى إليها البشرية أو تسعى إليها الحكومات والأنظمة إلى ربطها بالمصالح علماً بأن المصالح تختلف من بلد لآخر ومن مجتمع لآخر^(٧).

ولما كانت المصالح في العالم تختلف باختلاف الديانات والقوميات واللغات والعادات والتقاليد التي تنبثق منها القيم والأخلاق فمن الصعب أن تتوحد هذه القيم الإعلامية عالمياً كما أنه لا يوجد مقياساً واحداً يمكن معه أو بمقتضاه قياس هذه الاختلافات أو ضروب التفاوت بل نجد في الواقع أن القيم الإعلامية تختلف داخل البلد الذي ينعم بالعديد من القوميات.

لذا يمكن تعريف القيم الإعلامية بأنها مجموعة القيم الأخلاقية السائدة في المجتمع، وتشكل الأهداف النبيلة التي ترتبط بالمصالح العامة في المجتمع والتي اتخذت الإعلام وسيلة لذلك.

والإعلام من وجهة النظر الإسلامية لا يعدو أن يكون وظيفة دعوية يقوم المشتغل بها بدور الوكالة والنيابة عن المجتمع باعتباره وكيلاً مؤتمناً وخليفة من قبل الله ليكون مسئولاً عن مصلحة وكرامة المؤمنين الآخرين في المجتمع، وفي هذا

٧- القيم الأخبارية الصحفية، مجلة الدراسات الإعلامية، صادرة عن المركز العربي للدراسات الإعلامية، العدد ٣٨، ١٩٨٧ م، ص ٦٦.

المعنى فإن إيمان الإعلامي بربه يصبح العامل المسيطر الذي يحدد المدى الذي يمكن أن يصل إليه واجب الإنسان^(٨).

أما القيم الإعلامية في الفقه الإسلامي يمكن تعريفها بأنها هي مجموعة القيم والمفاهيم التي جاءت بها رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لتحقيق البعد الإعلامي والدعوي للإسلام سواء ارتبطت بمفاهيم وقيم اجتماعية سائدة في المجتمع أم لا.

وعلى ذلك فإن القيم الإعلامية في الإسلام هي على درجة من الثبات والاستقرار؛ لأن المصالح العامة للدولة الإسلامية معلومة وثابتة ولا تتغير تلك القيم الإعلامية في الإسلام إلا في حدود ضيقة ووفقاً لما يجيزه الشرع الحنيف ويقر به.

حرية التعبير في اللغة والاصطلاح:

الحرية في اللغة: لها معاني:

١- الحرية من حر يحر حرراً أي اعتق وصار حرراً^(٩)، بالضمّة نقيض العبد وتعني التحرر من كل قيد ومنها قوله تعالى ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١٠).

٢- الحرية من حر يحر حرراً وحررة وحرارة وحروراً أي بمعنى السخونة والمعاناة وهي ضد البرودة، ومن ذلك استحر القتل أي اشتد، ومن ذلك أن الحرية هي معاناة وشدة من الداخل من النفس الأمانة بالسوء ووساوس الشيطان وشهواته.

٨- أصول الإعلام الإسلامي، د. إبراهيم إمام، دار الفكر العربي ١٩٨٥م، ص ١٣.
٩- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٨م، ص ١٢٩-١٣٠، د. إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، دار النشر، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣م، ص ١٦٥، لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣ (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، ص ١١٨.
١٠- سورة آل عمران، الآية (٣٥).

٣- الحرية بمعنى الشرف، وأفضل الشيء، وكرم الأصل.
والمناسب لهذا البحث أن الحرية معناها تحرير النفس البشرية من أي قيد
معنوي أو حسي.

التعبير في اللغة معانيه كثيرة منها^(١١):

- ١- عبر عما في نفسه أعرب وبين، وعبر عنه غيره.
- ٢- عبر الرؤيا يعبرها عبراً وعبرة فسرهما وأخبر بما يؤول إليه أمرها، والمعبر ما عبر به النهر من فلكٍ أو قنطرة، والمعبر الشط المهيأ للعبور، ورجل عابر سبيل أي مار الطريق، والعبرة: العجب ومنه قوله تعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(١٢) والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض، وقيل العبرة هي الحزن، والمعنى المناسب لهذا البحث هو أن العبرة بمعنى، التعبير عما في النفس والإفصاح والبيان عندها وهو يماثل المعنى في الاصطلاح.

تعريف الحرية في اصطلاح القوانين الوضعية:

تأتي الحرية عبر تاريخ البشر كواحدة من أهم الحقوق التي يتمسك بها الإنسان لأنها من فطرة الله التي لا بد لها من أن تسود، لذا اختلفت أسبابها وموجباتها من حضارة إلى أخرى إلى أن جاء الإسلام كدين خاتم ينظم هذه الحريات، ولعل حرية التعبير محل خلاف في إدراك مكنونها وحقيقتها بعد أن كانت معدومة في الحضارات القديمة تماماً، وجاءت العصور الوسطى فجعلت الحرية شعاراً وذريعة للتحلل الخلقي وستاراً لرذائل الأعمال، وتأرجحت مفاهيم الحرية عند المفكرين على نحو متباين فيرى البعض أن الحرية هي أن يكون كل إنسان قادراً على فعل ما يريد لا مقيداً ولا مسجوناً^(١٣).

١١- لسان العرب، لابن منظور، مادة عبر، ج ٩، ص ١٦-١٩.

١٢- سورة الحشر، الآية (٢).

١٣- قضية الحرية وقضايا أخرى، د. عبدالغني عبود، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٧٩ م، ص ٦٢.

ويرى آخرون أن كل إنسان له الحرية في أن يفعل ما يشاء بشرط عدم الاعتداء على حرية الآخرين المساوية لحرية^(١٤).

وذهبت بعض المدارس إلى القول بأن الحرية معناها استقلال الفرد إزاء السلطة وقدرته على التصرف، ويرى آخرون أن الحرية معناها هي مساهمة الفرد في حكم الدولة وبمعنى أضيق هي مشاركته في السلطة السياسية والفرد حر في أن يفعل ما يشاء، وأن يفكر كيفما شاء، وأن يتصرف في ملكه كيفما شاء، فهو إذن حر إذا نجا من تدخل السلطة في نشاطه^(١٥).

وقد جاء في الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ١٧٨٩ م في مادته الرابعة تعريف الحرية: (إن الحرية هي القدرة على عمل كل ما لا يضر بالغير وأن الحدود المفروضة على هذه الحرية لا يجوز فرضها إلا بقانون)^(١٦).

ويرى بعض الفلاسفة أن الحرية هي: تلك الملكة الخاصة التي تميز الإنسان من حيث هو موجود عاقل يصدر أفعاله عن إرادته هو لا عن إرادة غريبة عنه^(١٧).

ويرى بعض الكُتَّاب أن الحرية هي مجموعة الحقوق المعترف بها والتي اعتبرت أساسية في مستوى حضاري معين، وبالتالي يجب أن تتمتع بحماية قانونية خاصة تكفلها الدولة بعدم التعرض لها وبيان وسائل حمايتها^(١٨).

وعليه مما سبق فإن البشرية ما فتئت تتخبط في ظل القوانين الوضعية، ولم تصل إلى تعريف محدد للحرية ومفهوم موحد، فهي مختلف فيها باختلاف الزوايا التي ينظر فيها إلى الحرية والغاية المراد تحقيقها من الوصول إلى تعريف لها، فبينما يعرفها أهل الفكر بتعاريف فلسفية بعيدة عن الواقع، فإن أهل الحكم والسياسة يختلفون في ذلك معهم وذلك بتحديد الحرية بأنها محكومة بالقانون

١٤- حقوق الإنسان وديانته الأساسية، د. جابر الرواي، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ١٧٨.

١٥- النظم السياسية والقانون الدستوري، د. عبدالغني بسيوني، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٩٢ م، ص ١١٦.

١٦- حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، د. إسماعيل أحمد الأسطل، ط ٤، ص ٥٥.

١٧- حق الحرية في الإسلام، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١ (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م)، ص ٣٩.

١٨- القانون الدستوري والأنظمة السياسية، أندريه هوريو، ترجمة علي مقلد وآخرين، ص ١٧٠.

وهي منحة يقرها الحاكم وفق قانون فهي تختلف ضيقاً واتساعاً في النظام الليبرالي إذا ما قورن بالنظم الاشتراكية، وهكذا لم يستقر المفكرون الوضعيون على رأي.

تعريف حرية التعبير في اصطلاح الفقه الإسلامي:

إن الفقهاء المسلمين قد ضبطوا مصطلح الحرية في تعريفات نوجز منها ما يلي:
إن الحرية هي ما يميز الإنسان عن غيره ويتمكن بها من ممارسة أفعاله وأقواله وتصرفاته بإرادة واختيار من غير قسر ولا إكراه ولكن ضمن حدود معينة^(١٩).

ويرى آخرون بأن حرية التعبير هي إرادة الإنسان وقدرته على ألا يكون عبداً لغير الله، فالحرية في الشريعة الإسلامية تكليف قبل كل شيء وهي الفعل والترك بنية الامتثال لله تعالى، وهي التخلص من الرهب إلا لله تعالى، وهي تتطلب ليس فقط عدم الإضرار بالآخرين، وإنما العمل على نفعهم أيضاً^(٢٠).

وقد أسند معظم الكُتّاب المسلمين الجدد في مؤلفاتهم الحرية إلى دائرة المباحات وذلك تقليداً للفقهاء القدامى حيث جعل الشاطبي كل الحريات العامة بما فيها حرية التعبير أن الأصل فيها الإباحة حيث يقول: (إن المباح إنما يوصف بكونه مباحاً إذا اعتبر فيه حظ المكلف فقط، فإن خرج عن ذلك القصد كان له حكم آخر، والدليل على ذلك أن المباح هو ما خُير فيه بين الفعل والترك بحيث لا يقصد فيه من جهة الشرع إقدام ولا إحجام)^(٢١).

فالحرية في الفقه الإسلامي لها معنى إيجابي باعتبار أنها تكليف قبل كل شيء، وهذا التكليف غايته العبادة لله سبحانه وتعالى، وبذا يكون الإسلام قد كفل مبدأ الحرية كأصل تعبدي عام يمتد إلى كل مجالات الحياة، فما من مجال تدعو إليه الحاجة إلى الحرية فيه إلا ويستطيع المسلم أن يمارس الحرية فيه، والحدود على

١٩- نظام الدولة في الإسلام، د. عبدالوهاب خلاف، مطبعة التقدم، القاهرة، ط ١، ١٩٧٧م، ص ٣٣.

٢٠- الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص ٩١.

٢١- الإسلام وحقوق الإنسان زدراسة مقارنة، د. القطب محمد القطب، دار الفكر العربي، ط ٢، ١٩٨٤م.

حريته هي ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا يعني أن الإسلام أطلق العنان لإرادة الفرد وأطلق قدراته لينطلق في الدنيا، وحرره من كل قيد عدا قيد الخضوع المعلق لله سبحانه وتعالى بالطاعة اللامحدودة فيما أمر ونهى، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢٢) الله عز وجل من خلق الإنسان وهذا يعني أن الإسلام وضع الإطار العام للحرريات دون الدخول في التفاصيل الدقيقة. ومن هنا تتكامل نظرة الشريعة الإسلامية لحرية التعبير، لأنه من الخطأ العلمي محاولة الفصل بين الحكم التشريعي لحرية التعبير وبين الأصول الحضارية والفكرية لها؛ ذلك لأن التشريع في جوهره هو مفاضلة بين القيم وتوفيق وترجيح بين المصالح المتعارضة، واختيار حل واحد من الحلول البديلة التي يطرحها، فالدافع لمعالجة مشاكل حرية التعبير هو في النهاية تقنين لهذا الاختيار ولا يتكامل التقنين إلا بإضفاء حماية الدولة عليه ووقوفها بسلطانها إلى جوار ذلك التقنين، وإذا كان من المسلم به أن لكل حضارة مجموعة من القيم الخاصة بها تهدف إلى تنظيم المصالح وترتيب أولوياتها، فإن الاختيار التشريعي لا بد أن يعكس نظام القيم والمصالح التي تتبناها تلك الحضارة في الفن المعين، وعلى ذلك فإن حرية التعبير في الإسلام لا تخرج عن هذه الفلسفة المذكورة آنفاً من أن حرية التعبير في الإسلام مقيدة بالأساس بحدود الشارع الحكيم سواء في منشأها أو في استخدامها، فللشخص وفقاً للنظرة الإسلامية في حرية التعبير الحق في أن يفعل ما يريد دون حجر أو جبر أو إكراه، وفقاً للضوابط الشرعية المتصلة بما يفعل وذلك وفقاً للكليات العامة للشريعة الإسلامية.

٢٢- سورة الذاريات، الآية (٥٦).

المبحث الثاني

حرية التعبير من خلال السنة النبوية المطهرة

لقد جاءت السنة النبوية المطهرة بأحكام عديدة تضبط حرية التعبير وتنظمها ويمكننا إبراز أهم هذه الأحاديث النبوية المطهرة لأغراض هذا البحث فيما يلي:

السنة النبوية تقوي جانب الاختيار وحرية في القول والعمل وإبداء الرأي؟! لقد جاءت السنة النبوية بأحاديث كثيرة تدل على أن الإنسان له حرية في التعبير عن مكونات نفسه، ويجب عليه أن يتصل بالمحيط الذي من حوله معبراً عن ذاته، وقد حرص النبي ﷺ على هذه الدافعية النفسية في أحاديث كثيرة نأخذ منها الآتي:

١- قوله عليه الصلاة والسلام «ما من خارج من بيته إلا ببابه رايتان راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحب الله عز وجل اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع»^(٢٣).

٢- قوله عليه الصلاة والسلام «لا يمينن رجلاً منكم مخافة الناس أن يتكلم بالحق إذا رآه وعلمه»^(٢٤)، وفي رواية أخرى «لا يمينن أحدكم هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه»^(٢٥).

٣- قوله عليه الصلاة والسلام «لا يكن أحدكم معه يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم»^(٢٦).

٤- قوله عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع

٢٣- رواه الطبراني في الأوسط ٩٩ / ٥، حديث رقم ٧٨٦٤ الحديث ضعيف.

٢٤- مسند الإمام أحمد ٤٤ / ٣، إسناده صحيح.

٢٥- مسند الإمام أحمد ١٩ / ٣، حديث رقم ١١١٥٩، إسناده ضعيف.

٢٦- سنن الترمذي ٤ / ٣٦٤، كتاب البر والصلة، باب الإحسان والعفو، حديث رقم ٢٠٧، حديث ضعيف، تحفة الأحوذى ٦ / ١٤٠.

فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان»^(٢٧).

٥- عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، وفي رواية أخرى «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢٨)، وجاء في لفظ آخر «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»، وفي رواية «سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»^(٢٩)، فقد جعل النبي ﷺ الجهاد واحداً من أساليب الإعلام الإسلامي التي لها وقعها، لذا جعل من أبوابه حرية التعبير وإبداء الرأي بالنصح والإرشاد للإمام الجائر وذلك بدعوته إلى الخير والانصياع للحق ولو كره ذلك وأدى إلى قتل صاحب الرأي.

٦- قوله عليه الصلاة والسلام «الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولكتابه لأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣٠)، وعن جرير قال: «بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة وأن أنصح لكل مسلم»^(٣١)، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية وإن أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة»^(٣٢).

٧- قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث «الطهور شرط الإيمان والحمد لله تملأ الميزان». إلخ، إلى قوله ﷺ: كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(٣٣)، وقوله ﷺ: «نَصَّرَ اللهُ امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلِّغ أوعى من

٢٧- صحيح مسلم ١ / ٦٩، كتاب الإيمان، باب النهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم ٤٩.

٢٨- رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٢ / ٥٢٧، حديث رقم ٤٣٤٤، حديث صحيح.

٢٩- رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين ٣ / ٢١٥، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر إسلام حمزة، حديث رقم ٤٨٨٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

٣٠- أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب النصيحة، حديث رقم ٤٩٤٤، ٤ / ٢٧٧-٢٧٨، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة، حديث رقم ٥٥.

٣١- أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الناس الإمام ١ / ٢٢، ومسلم في كتاب الإيمان، باب النصيحة، حديث رقم ٥٦.

٣٢- أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، حديث رقم ٢٩٥٥، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، حديث رقم ١٨٣٩.

٣٣- رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، حديث رقم ٣٢٨.

سامع» (٣٤).

وتؤكد هذه الأحاديث جانب الحث على إبداء الرأي وحرية التعبير كحق أصيل ومباح، لأن المسؤولية عن أعماله يوم القيامة تكون فردية، وفي الأحاديث تحذير واضح للاتباع غير الرشيد سواء في الجوانب الإعلامية كالانحراف نحو اللهو والمنكرات الإعلامية التي تحيط بنا في هذه الأيام من قنوات فضائية ووسائل إعلام مختلفة، فالأحاديث فيها حرية اختيار وتفكير وتحذير.

وقد صنفت هذه الأحاديث جميع أشكال حرية التعبير وأنواعها من حرية التعبير السياسي أمام الحاكم الجائر، أو حرية التعبير في الجهاد ودور الإنسان في تجاه مجتمعه، كما بينت الأحاديث أن حرية التعبير تستهدف أيضاً السلوك الشخصي والسلوك العام المرتبط بالدولة والجماعة وأيضاً ترتبط هذه الحرية بالجانب الروحي والتوحيد والإيمان والترغيب والتبشير والترهيب على السواء.

حرية التعبير في الإسلام مبنية على احترام رأى الآخر وتعبيره:

يمثل التعبير عن الرأي والحوار مع الآخر قاعدة أساسية في الدعوة الإسلامية، وله منهجيته التي يرجع تاريخها إلى اللحظات الأولى لانطلاق الرسالة، وقد جسد القرآن ذلك في قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٣٥).

ومن هنا أوضحت السنة النبوية نماذج للحوار واحترام رأي الآخرين ودياناتهم ومعتقداتهم، ولذا بنى الرسول الكريم دعوته وإعلامه وجعل للجميع حرية التعبير على نحو ما سلف وبوسيلة الإقناع والبينة والحجة بلا إكراه في الدين أو الدعوة إليه، وقد تأطرت مفاهيم النبي ﷺ وتجسدت في هذه الأمة وصارت اليوم في أمس الحاجة إلى إحياء ثقافة الحوار، ونشر مبادئ وثقافة الإسلام التي تمثل المبادئ والقيم والفكر الأصيل في مجال الإعلام وحرية التعبير حتى يكون ذلك الإحياء

٣٤- رواه الترمذي وحسنه، كتاب العلم، باب الحس على تبليغ السماع، حديث رقم ٢٥٨١، رواه البخاري،

كتاب الحج، حديث رقم ١٧٤١.

٣٥- سورة النحل، الآية (١٢٥).

في مواجهة ثقافة القوة المهيمنة على حضارة هذا الزمان، كما أن الواجب الحضاري للمسلمين يستلزم الالتزام بالنهج النبوي في ذلك الشأن حتى يكون الواجب الآتي للمسلمين اليوم على جادة الطريق المستقيم دون شطط أو احتقار لرأي الآخرين.

وفي ذلك نجد أن السنة حرمت تحقير رأي الآخر وذمته وبينت أن ذلك شر عظيم له عواقب غير محمودة وغير مرضي عنها، وفي ذلك يقول النبي ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(٣٧).

الحذر الشديد عند استعمال حرية التعبير:

تطالب السنة المطهرة من يستخدم حقه في التعبير عن رأيه أن يستخدم ذلك الحق بحذر شديد، وذلك بعد أن جعلت له قدراً من الحرية في التعبير وقد اتخذ هذا الحذر صورتين:

الصورة الأولى:

هي الحذر عند اختيار الألفاظ والتعابير، فقد أوجبت السنة المطهرة على الإنسان أن يتخير أحسن الكلام وأفضل العبارات وأدقها في المطلوب التعبير عنه حتى لا تؤدي إلى تحقير الآخرين وهضم حقوقهم، ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين منها يزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»^(٣٧).

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوي بها في نار جهنم»^(٣٨).

٣٦- رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره وذمه، حديث رقم ٤٦٥٠.

٣٧- صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب التكلم بالكلمة، حديث رقم ٤٩.

٣٨- رواه البخاري، كتاب الوقائع، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ، حديث رقم ٥٩٩٧.

الصورة الثانية:

هي التعبير بحكمة ورؤية صادقة حسيمة، لأن في ذلك مستوى عالٍ من القبول والإقناع لدى المتلقي السامع، فقد قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(٣٩)، ولعله من الحكمة أن يتم التعبير عن الرأي ونقل العلم بصورة مقبولة لدى المتعلمين أو المرسل إليهم كما هو الحال في لغة الإعلام.

حرية التعبير في السنة النبوية مرتبطة بجزءات:

من ذلك أن النبي ﷺ دعا إلى عدم كتمان العلم والحق والسكوت عن الحق، وأوجب عقاب ذلك قال عليه الصلاة والسلام: «من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٤٠).

وقد قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد العالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض»^(٤١).

وقد حذر النبي ﷺ من ضياع الجهاد كواحدة من وسائل التعبير وكأداة من أدوات قول الحق مما يعني أن إضاعة حرية التعبير هو ضياع للجهاد، قال ﷺ: «ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ثم يقدرن على أن يغيروا ثم لا يغيرون إلا يوشك الله أن يعمهم بعقاب»^(٤٢).

وقد حذر النبي ﷺ من الكذب عليه فقال ﷺ: «من كذب عليّ فليتبأ مقعده من النار»^(٤٣).

٣٩- رواه البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، حديث رقم ٧٣.
٤٠- رواه الترمذي وحسنه، كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، حديث رقم ٢٥٧٣، ورواه أبو داود، باب العلم كراهية منع العلم، ٢ / ٣٤٥، حديث رقم ٣٦٥٨، وقال: حديث صحيح.
٤١- سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٢ / ٥٢٤، حديث رقم ٤٣٣٦، حديث ضعيف.
٤٢- سنن أبي داود ٢ / ٥٢٥، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم ٤٣٣٨، إسناده صحيح.
٤٣- حديث متواتر، رواه مسلم، في كتاب المقدمة، باب تغليظ الكذب، حديث رقم ٢.

وعن العرياض بن سارية السلمي رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصانا قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد فإن من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»^(٤٤).

فهذه الأحاديث جعلت حرية التعبير مقيدة ومنضبطة بجزاءات تترتب عليها ويجب مراعاتها، ومن هنا يمكننا القول أن حرية التعبير ليست مطلقة في الإعلام الإسلامي بل هي مرتبطة بجزاء تشريعي ثابت ومستقر، لا تغيره الحوادث والظروف التي تفرضها طبيعة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما هو الحال عند غير المسلمين.

المبحث الثالث

القيم الإعلامية من خلال السنة النبوية المطهرة

إن من المعلوم أن القرآن الكريم أنزله الله على سيدنا محمد منجماً وعلى فترات زمانية محددة، وارتبطت عملية نزول القرآن بحوادث مرّ بها الرسول ﷺ وكانت الآيات تنبئ الرسول ﷺ بما سيحدث له ولأصحابه في المستقبل وترشدهم إلى الصواب.

ومن أهم القيم الإعلامية التي بني عليها المجتمع المسلم هي صرح الجهاد في سبيل الله وهو من أكبر صروح الإعلام والاتصال والدعوة، فقد قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾^(٤٥) وإن عبارة قوة تشمل

٤٣- حديث متواتر، رواه مسلم، في كتاب المقدمة، باب تغليظ الكذب، حديث رقم ٢.

٤٤- أخرجه الترمذي ٤٤/٥، كتاب العلم، باب الأخذ بالسنة، حديث رقم ٢٦٧٦، وقال حديث حسن صحيح.

٤٥- سورة الأنفال، الآية (٦٠).

الأسلحة كما تشمل كل وسائل الإعلام والاتصال التي يستمد الإسلام منها قوته. كما أن من مفاهيم الاتصال والإعلام التي بني عليها الإسلام مفهوم الشورى، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، ومفهوم التكافل الاجتماعي والمساواة وما أعده الله للمؤمنين الصادقين في الجنة وما أعده للكافرين من عذاب بالنار، وقد اتصلت هذه المفاهيم والقيم الواردة في القرآن بالأحاديث النبوية الشريفة التي فسر بها النبي ﷺ هذه الآيات القرآنية، ومن هنا كانت القيم الإعلامية في السنة النبوية هي صنو لتلك القيم الواردة في القرآن وردءاً تصدقها وتفسرها وأهم القيم التي جاءت في القرآن هي:

- ١- قيمة الأمانة: قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (٤٦).
- ٢- قيمة التواصل: قال تعالى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ (٤٧).
- ٣- قيمة الإخلاص: قال تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٤٨).
- ٤- قيمة التسامح: قال تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ (٤٩).
- ٥- قيمة العفة: قال تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ (٥٠).
- ٦- قيمة الإحسان: قال تعالى ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (٥١).
- ٧- قيمة درء السيئة بالحسنة: قال تعالى ﴿وَيَذَرُوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (٥٢).
- ٨- قيمة التعاون على البر والتقوى: قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (٥٣).

٤٦- سورة النساء، الآية (٥٩).

٤٧- سورة لقمان، الآية (١٨).

٤٨- سورة يونس، الآية (٢٦).

٤٩- سورة البقرة، الآية (٢٨).

٥٠- سورة النور، الآية (٣٠).

٥١- سورة القصص، الآية (٧٧).

٥٢- سورة القصص، الآية (٥٤).

٥٣- سورة المائدة، الآية (٢).

٩- قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٥٤).

١٠- قيمة الوفاء بالعهد: قال تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٥٥).

١١- قيمة الإخاء والتضامن: قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٥٦).

١٢- قيمة المساواة: قال تعالى ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٥٧).

١٣- قيمة الإنصاف: قال تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^(٥٨).

١٤- قيمة تهذيب السلوك: قال تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٥٩).

١٥- قيمة الجهر بالسوء: قال تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^(٦٠).

وغني عن البيان القول بأن هذه القيم الإعلامية التي جاءت في القرآن الكريم تؤثر بشكل فعال وجوهري على حرية التعبير؛ وذلك أن هذه الحرية تكون مقيدة بهذه القيم، ومتى ما تعارضت حرية التعبير مع هذه القيم كانت الحرية فوضى وما اغترفه المعبر عن حرите هو ذنب يوجب عقوبته والجزاء عليه، وليس في ذلك شطط، لأن القرآن يشكل المصدر التشريعي الأول، ومن هنا جاءت السنة النبوية لتتكامل مع هذه القيم وتفسرها وتضبط تفاصيلها ويمكن إيجاز القيم الإعلامية في السنة النبوية لأغراض هذا البحث فيما يلي:

٥٤- سورة آل عمران، الآية (١١٠).

٥٥- سورة الإسراء، الآية (٣٤).

٥٦- سورة الحجرات، الآية (١٠).

٥٧- سورة النساء، الآية (٢٥).

٥٨- سورة الأعراف، الآية (٨٥).

٥٩- سورة النساء، الآية (٨٦).

٦٠- سورة النساء، الآية (١٤٨).

القيم الإعلامية الأولى: القدوة الحسنة:

بني الإعلام الإسلامي على قيم عظيمة مستمدة من شخصية النبي الكريم، وهذه القيم مبنية على غريزة التقليد والمحاكاة والتأسي، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...﴾^(٦١) لذا يجب على كل من يتصدى للإعلام الإسلامي أن يتأسى بالنبي الكريم حتى لا تخالف أقواله أفعاله، قال تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ...﴾^(٦٢).

فقد تميز النبي ﷺ بأخلاق حميدة وصفات نبيلة تفيض بها كتب السيرة حيث اشتهر بين قومه بالصدق والأمانة، وهي قيم وصفات يجب توافرها في الإعلامي بجانب تميزه بالصبر والأناة ونصرة المظلوم والتقوى والبذل والعطاء والوضوح ومراعاة حقوق الجار وإغاثة الملهوف ونبذ الفتنة، فقد كان عليه الصلاة والسلام أعدل الناس وأصدقهم وأأمنهم وأعفهم اعترف له بذلك أعداؤه، فقد سئل هرقل عنه أبا سفيان فقال: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا»^(٦٣)، وقالت عائشة: «ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه»^(٦٤)، وكان عليه الصلاة والسلام أخوف الناس من ربه وأقربهم طاعة له، فقد قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً وبيكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، لو ددت أني شجرة تعضد»^(٦٥)، وفوق ذلك كان عليه الصلاة والسلام كثير الاستغفار، فقد قال: «إني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة»، وروي «سبعين

٦١- سورة الأحزاب، الآية (٢١).

٦٢- سورة البقرة وسورة التوبة، الآية (٤٤).

٦٣- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب دعاء النبي إلى الإسلام، حديث رقم ٢٩٤١، ومسلم، كتاب الجهاد، باب كتاب النبي إلى هرقل، حديث رقم ١٧٧٣.

٦٤- أخرجه البخاري، كتاب الملاحم، باب صفة النبي، حديث رقم ٣٥٦٠ و٦١٢٦، ومسلم ٤ / ١٨١٣، كتاب الفضائل، باب مباحثته عن الأثام، حديث رقم ٢٣٢٧.

٦٥- حديث حسن لشواهده، أخرجه أحمد ٦ / ١٦٤، حديث رقم ٢٥٣٥١، والترمذي، ٤ / ٥٥٥، كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم، حديث رقم ٢٣١٢.

مرة^(٦٦)، وقد كان جميل الأخلاق، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٦٧).

وقال أنس: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»^(٦٨).

ومن تواضعه ﷺ قوله: «لا تفضلوني على يونس بن متى، ولا تفضلوا بي الأنبياء، ولا تخيروني على موسى، ونحن أحق بالشك من إبراهيم ولو لبث ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي»^(٦٩).

وروى عنه أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله»^(٧٠).

وقد بلغت قمة الدعوة في الاقتداء به في الحديث المروي عنه أنه دخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة فقال له: «هون عليك فأني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»^(٧١). وقد جاء في رواية عنه أنه قال: «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»^(٧٢).

بل تمكن النبي ﷺ بصفاته الكريمة أن يدخل الكثيرين في دين الإسلام حتى يومنا هذا، فقد كانت لشخصية النبي ﷺ قوة تأثير على مواقف الصحابة والمسلمين فاق حد الإعجاب والحب الذي نشأ في قلوب المسلمين جيلاً بعد جيل، قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾^(٧٣) فهذه الآية دلت دلالة واضحة على ما كان عليه النبي صلى

٦٦- أخرجه البخاري ٥ / ٢٣٢٤، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٦٣٠٧.

٦٧- صححه ابن عبدالبر في التمهيد ٢٤ / ٣٣٤، وأخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين ٢ / ٦٧٠، كتاب آيات رسول الله التي هي دلائل النبوة، حديث رقم ٤٢٢١ بإسناد صحيح.

٦٨- صحيح أخرجه البخاري ٥ / ٢٢٩١، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي، حديث رقم ١٢٦٠٣.

٦٩- أخرجه البخاري بالأرقام ٢٤١٦، ٣٣٠٨، ٦٥١٧، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿إن يونس لمن المرسلين﴾، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل موسى، حديث رقم ٢٣٧٣.

٧٠- أخرجه البخاري ٣ / ٢١٧١، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿وأذكر في الكتاب مريم﴾، حديث رقم ٣٤٤٥.

٧١- أخرجه ابن ماجه ٢ / ٣٣، كتاب الأطعمة، باب القديد.

٧٢- المستدرک للحاكم ٣ / ٥٠، كتاب المغازي والسرايا، حديث رقم ٤٣٦٦.

٧٣- سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

الله عليه وسلم من دماثة الخلق، ولين الجانب، مما يجعل شخصيته مثلاً أعلى، وقيمة إعلامية تميز الإعلام العالمي عن الإسلامي، وتؤثر في حرية التعبير بصورة فاعلة على مرّ الدهور والأزمان.

والقدوة الحسنة طريق يجب أن يسلكه كل من يتصدى للإعلام الإسلامي في أي موقع حتى لا تتناقض أقواله مع أفعاله، قال ﷺ: «من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني»^(٧٤).

القيمة الإعلامية الثانية: الاتصال الشخصي والجمعي:

يعتبر الاتصال الشخصي أساساً لجميع العمليات الإعلامية، وقد اتجهت البحوث والدراسات الحديثة إلى التأكيد على أهمية الاتصال الشخصي لرجل الإعلام لما له من مقدرة عظيمة على التأثير أكثر من وسائل الإعلام الأخرى^(٧٥).

فقد اعتمد النبي ﷺ على الاتصال الشخصي اعتماداً كبيراً في معالجة جميع المواقف التي تمر به سيما الحرج منها، فكان يقابل أطراف المشكلة من يهود ومنافقين بصورة شخصية، وكانت طريقته في ذلك الصراحة والصدق والشجاعة، وكان حينها يمارس هذه الوسيلة لا يفرق بين أبيض وأسود، وقوي وضعيف، ولعل أبرز الشواهد على اهتمام الرسول بهذه الوسيلة واعتماده عليها ما يلي^(٧٦):

١- الاتصالات التي كان يجريها مع أصدقائه وخلصائه وأفراد أسرته في مراحل الدعوة الأولى.

٢- لقاءاته الشخصية مع أفراد القبائل التي تأتي إلى مكة وأشهرها لقاءه مع طائفة من الخزرج حيث تمت بيعه العقبة الأولى ثم الثالثة.

٣- رحلته الشهيرة إلى الطائف علّه يجد من يستجيب للدعوة من أهل ثقيف.

٧٤- أخرجه البخاري، حديث رقم ٥٠٦٣، ومسلم، حديث رقم ١٤٠١.

٧٥- الإعلام والاتصال بالجمهير، إبراهيم إمام، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م، ص ١٠.

٧٦- مفهوم الاتصال في المنظور الإسلامي، عبد الله إبراهيم يوسف حجازي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة أم درمان الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص ٨٠.

وفوق كل ذلك كان يجتمع عليه الصلاة والسلام بقومه وأهله من مكة وغيرها من بلدان الحجاز المختلفة، وذلك لأن رسالته لاقت بادئ الأمر نفوراً شديداً من العرب في مكة وإن كانت تربطه بهؤلاء وشائج القربى^(٧٧).

أما الاتصال الجمعي فقد كان عليه الصلاة والسلام خطيباً بارعاً حيث كان يجتمع مع المسلمين وغيرهم فيخطب فيهم أو لقاؤه مع الوفود التي كانت تأتي من خارج المدينة^(٧٨).

وكان رسول الله ﷺ في كل ما ذكر إذا ما جالس جلساءه فهو يؤلفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يقوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه ولا يحسب جلسه أن أحداً أكرم عليه منه، وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ أو غليظ أو سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه^(٧٩).

وقال جرير بن عبدالله: «ما حجبني رسول الله منذ أسلمت ولا رأني إلا تبسم»^(٨٠).

فهذه الأحاديث يستشف منها أن النبي ﷺ في إقراره لهذه القيمة الإعلامية قد هيا المناخ الملائم لنشر الرسالة وإعداد الأمة على جادة الطريق، وذلك بأن كان لهذه القيمة كبير الأثر في وضع نظم الدولة الإسلامية في علاقاتها مع المحكومين والرعايا المستأمنين والمسلمين وغيرهم وكان في ذلك الأنموذج الذي يحتذى في علاقة الأفراد فيما بينهم داخل الدولة وفق فلسفة اجتماعية إسلامية.

٧٧- الإعلام الإسلامي، عبداللطيف حمزة، ص ٧٥-٧٦.

٧٨- المرجع السابق، عبداللطيف حمزة، ص ٧٦.

٧٩- انظر الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، مكتبة الصفا (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ص ٨٣.

٨٠- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، بالأرقام ٦٠٣٦، ٦٠٩٠، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل جرير، ٢٤٧٥.

القيمة الثالثة: العلاقات الإنسانية والبعثات:

ظهر حديثاً في هذا العصر مادة جديدة بين مواد الاتصال بالناس وهي مادة العلاقات العامة غير أن هذه المادة تعتبر جزءاً من علم واسع هو علم العلاقات الإنسانية التي تنقسم إلى علاقات داخلية أو خاصة وعلاقات خارجية أو عامة، أما العلاقات العامة فهي علاقة المؤسسات بالجماهير من الخارج وأما العلاقات الخاصة فهي علاقات المؤسسة بالداخل^(٨١).

والنبي عليه الصلاة والسلام قد قام بهذه القيمة الإعلامية خير قيام حيث بدأ بالعلاقات الخاصة، فقد قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٨٢)، وفي تطبيق ذلك فقد بدأ عليه الصلاة والسلام بزوجه وغلماها ياسر وزوجه سمية بنت الخياط، وقد قام عليه الصلاة والسلام بتأسيس المؤاخاة بين أصحابه كقيمة إعلامية ذابت بها فوارق النسب واللون والوطن، وأسقط بها عصبيات الجاهلية، فلا حمية للإسلام، ولا يفضل أحد على أحد إلا بالتقوى والمروءة وجميل الخصال. وقد أسفر عن الإخاء قيم أخرى مثل الإيثار والمواساة والمحبة، فتحققت بهذا المؤاخاة ووحدة المسلمين على أساس واضح وجلي، وبتحالف قوي مما مكن لقبول الدعوة الإسلامية بعد أن تهيأت النفوس، ومن هنا ميزت حضارة الإسلام عن كثير من الحضارات الأخرى حيث ربط قيم الإخاء بالعدل المنضبط بمخافة الله سبحانه وتعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «المرء مع من أحب»^(٨٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»^(٨٤).

وفي عالم اليوم تقول النظريات الحديثة في الإعلام والعلاقات الإنسانية إن

٨١- المرجع السابق، عبداللطيف حمزة، ص ٩٣.

٨٢- سورة الشعراء، الآية (٢١٤).

٨٣- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة الحب، حديث رقم ٦١٦٨، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، حديث رقم ٢٦٤.

٨٤- أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب معاشره الناس، حديث رقم ٣٤٤٤، ورقم ١٩٧٩، وقال: حديث حسن، حسنه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٩٧.

هذه العلاقات يجب أن تبدأ من الداخل ثم تنتهي بالعلاقات العامة أو العلاقات الخارجية، فانظر كيف اهتدى النبي ﷺ لممارسة هذا النوع من الاتصال؟! والمعلوم أن العلاقات الإنسانية لا تنشأ إلا في جو ثقافي وحضاري يؤمن بقيمة الإنسان الذي له كرامة وحقوق على الآخرين، وقد توافرت هذه الحقوق ونشأت هذه العلاقات في صدر الإسلام بصورة واضحة وجلية.

أما في العلاقات العامة أو الخارجية فقد كانت للنبي ﷺ في سيرته وأفعاله ما يؤكد ارتباطه بالعالم الخارجي في شكل الوفود والبعثات إلى الملوك والأمراء، فقد أرسل النبي ﷺ إليهم في السنة السادسة من الهجرة^(٨٥)، كما أنه أرسل رسلاً فأرسل إلى قيصر الروم دحية بن خليفة الكلبي، وأرسل عبدالله بن حذافة إلى كسرى وعمر بن أمية الضمري إلى النجاشي وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر والعلاء بن الحضرمي إلى ملك البحرين^(٨٦).

ويستفاد من تلك البعثات أنها قامت بدور بالغ الأهمية في العلاقات الدولية من حيث أنها وسيلة اتصال بين الشعوب وأداة بالتفاهم بين الأمم وهذه الحركة الإعلامية هي التي نقلت الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العالمي بأن جعلت الرسالة الإسلامية محط اهتمام ونظر الأمم الأخرى في ذلك الزمان، وهذه القيم الإعلامية هي التي أثبت عليها فكرة الرأي العام العالمي في هذا الزمان، ولذا فهذه الرسائل كان ثمرتها الفتح المبين الذي حدثنا عنه الله سبحانه وتعالى للرسالة المحمدية.

والمعلوم أن هؤلاء الرسل وهذه البعثات إنما جاءت على إقرار منه عليه الصلاة والسلام وأدت دورها على هدى من نبوءته وسماحه ودماثة خلقه الكريم وتأسست به قولاً عملاً. ولعل عالم اليوم يتمسك بأهمية السلك الدبلوماسي والمنظمات

٨٥- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩م، ج ٢، ص ٢٨٨.

٨٦- إمتاع الأسماع، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ص ٣٠٧.

الإقليمية باعتبارها أهم المؤسسات التي تؤدي إلى رفاهية الإنسانية، وهذا الدور توصلت إليه الرسالة المحمدية بصورة واضحة لا مرأى فيها.

القيمة الإعلامية الرابعة: أحكام الحج والخطابة:

يعتبر الحج من أركان الدين الإسلامي ولكننا لا نتحدث عنه من هذه الزاوية، ولكن الذي يهمنا هنا أن في الحج قيم إعلامية أرساها النبي ﷺ باعتبار أن الحج وسيلة اتصال إعلامي هادفة ترتبط بها قيم إعلامية وموسم للدعوة إلى الله ترتبط به أحكاماً تؤثر على الإعلام الإسلامي فلا يجوز الرفث ولا الفسوق ولا الجدال، قال تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ... ﴾ (٨٧).

وقد أقرت السنة النبوية أحكاماً وسلوكاً خاصاً في الحج لا يرتبط بالإعلام والمشتغلين به بل يرتبط بكافة الحجاج، ومن هنا يعتبر الحج قيمة إعلامية كبيرة تتصل بنوعية الخطاب الإعلامي والدعوي الذي يأتي في شكل خطبة تنطلق في الحج أو تنطلق في منابر الخطابة المختلفة في ذلك الموسم نماذج أحاديث، فقد جاء في خطبة الوداع: «أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع وأول رباً أبداً به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد وكلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت اللهم فاشهد، قال السامعون: نعم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب» (٨٨).

٨٧- سورة البقرة، الآية (١٩٧).

٨٨- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، طبعة (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م)، ج ٢، ص ٨٨٩، حديث رقم ١٢١٨.

فقال عليه الصلاة والسلام عبارة «ألا هل بلغت» وتكرارها فيه قوة إعلامية وترتيب وتسجيل للشهادة، وإن النظريات الحديثة في العلاقات الإنسانية اهتمت إلى أن هذه العلاقات يجب أن تبدأ من الداخل وتنتهي بالعلاقات العامة، وقد اهتدى الرسول لهذا^(٨٩).

القيمة الإعلامية الخامسة: الهجرة والصبر على البلاء:

تعتبر هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة والحبشة وسيلة إعلامية قوية الدلالة على صدق النبوة في نفوس أهل مكة حيث جعلتهم يشعرون في أنفسهم بأنه ما لم يكن هؤلاء المهاجرون على حق لما تركوا أموالهم وأهلهم وموطنهم الذي نشأوا فيه^(٩٠).

ولذا انعكس مدلول الهجرة في نفوس المسلمين على أنه ثمرة للصبر الذي التزمته الدعوة الإسلامية في بداياتها، وقد جاء النبي ﷺ مفسراً لدلالة الهجرة بعد حدوثها حيث ربطها بالصبر، قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(٩١)، وقمة الهجرة بعد فتح مكة هي المجاهدة والمصابرة والنية الصادقة، ويقول النبي ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٩٢)، ومفاد ذلك هو قمة الجهاد النفسي الذي يجب مراعاته في الإعلام الإسلامي.

ويقول النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٩٣).

وجاء في مستدرک الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن للإسلام ضوء ومنازلات كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسليمك على ابن آدم إذا لقيتهم وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم، فمن انتقص

٨٩- انظر الإعلام في صدر الإسلام، عبداللطيف حمزة، ص ٨٩.

٩٠- المرجع السابق، عبداللطيف حمزة، ص ١٣٢.

٩١- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعه بعد فتح مكة، حديث رقم ٨٥.

٩٢- أخرجه البخاري ٥ / ٢٣٧٩، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، حديث رقم ٦١١٩.

٩٣- حديث صحيح، أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلم من لسانه ويده، حديث رقم ١٠.

منهن شيئاً فهو سهم من الإسلام تركه، ومن يتركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره»^(٩٤).

فهذه الأحاديث، دلت على قيم إعلامية كثيرة من تقبل لمخالطة للناس أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخلافه، فهي كلها تدل على مجاهدة النفس على فعل الطاعات والصبر عليها، ويدور محور ذلك في مخالطة الناس بالحسنى في شئونهم المختلفة، لأن ذلك يمثل مفاتيح الدعوة إلى الله، ذلك أن قيم الإسلام الحضارية لا يمكن تعريف الناس بها إلا إذا اختلط أهل الإسلام بغيرهم من الناس، وقد أثبت التاريخ أن الإسلام لم ينتشر في بلاد الدنيا إلا لما تميز به المسلمون من حسن معشر ومخالطة بالحسنى مع المدعوين وآسيا وأوروبا ومازالت هذه القيم الإعلامية هي السبيل الناجح لعكس صورة الإسلام الحقيقية والصحيحة.

٩٤- أخرجه الحاكم، حديث رقم ٥٢، وإسناده صحيح على شرط البخاري ١ / ٧٠، طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الثانية (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

المبحث الرابع

أثر القيم الإعلامية في السنة النبوية على حرية التعبير

إن من عموم البلوى في هذا الزمان دخول الإعلام إلى مضاجع الناس رضوا أم أبوا، فلا يخلو بيت أو مكان على الكرة الأرضية من وسيلة إعلامية سواء راديو أو تلفزيون.. إلخ ولما كانت وسائل الإعلام لها الأثر الكبير على حياة الناس فإن الإعلام الإسلامي يكون ضرورة شرعية في هذا الزمان، وسنحاول في هذا المبحث بيان أثر القيم الإعلامية المستمدة من السنة النبوية المطهرة على حرية التعبير في وسائط الإعلام المختلفة، ولذا سندرس المبحث من خلال المسائل الآتية:

أولاً: من حيث مشروعية التعبير.

ثانياً: من خلال المسؤولية الإعلامية.

ثالثاً: من خلال الغاية من الإعلام والهدف من التعبير.

رابعاً: من خلال رعاية المصلحة ودرء المفسدة.

خامساً: من خلال مراعاة الأعراف السائدة.

أولاً: من حيث مشروعية التعبير:

لقد تقدم بنا أن التعبير والإفصاح عما في ضمير الإنسان هو فطرة الله التي فطر عليها الناس، ولكن التعبير في الشريعة الإسلامية محكوم ومقيّد بقواعد كثيرة أهمها: عدم التعدي على حقوق الآخرين، وأهم هذه الحقوق حقوق الله سبحانه وتعالى، فيحرم التلفظ أو التعبير عن أشياء تتضمن حقاً لله تعالى إلا إذا كان هذا القول لإعلاء كلمة الله ونصرة المظلوم، يقول تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(٩٥)،

٩٥- سورة الإسراء، الآية (٥٣).

ويقول تعالى ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (٩٦).

فقد حدد الحق عزّ وجل ضابطاً هو أن يكون القول مشروعاً لا سوء فيه أو اتهاماً أو فاحشة، لأن ذلك سيؤدي إلى فوضى أخلاقية واجتماعية يضل بها الناس، وتنعدم الثقة بذلك في مؤسسات الإعلام المختلفة، وهذا ما نشاهده اليوم حيث إن ضوابط مشروعية القول تختلف تبعاً لقوانين الدول المختلفة فما يعتبر مباحاً ومسموحاً به في دولة لا يعتبر كذلك في الدولة الأخرى مع الأخذ في الاعتبار أن الإعلام لا يقف عند الحدود المكانية لتلك الدول بل يتجاوزها إلى الدول الأخرى، لذا فقدت الثقة بين مؤسسات الإعلام التي تبحث عن توحيد القواعد وقوانين النشر الإعلامي في العالم تحت ستار العولمة، ولكنهم لا يدرون أن الحلول قدمتها الشريعة الإسلامية التي جعلت إعلامها ثابتاً على نحو ما أسلفنا من قيم إسلامية راسخة على النقيض من الإعلام في الدول الغربية الذي تقوم أهم مبادئه وقيمه على تحرير الفرد من المعتقدات الدينية، ومن ثم حرية الفرد في التعبير في ظل قوانين متغيرة متنافرة تحكمها المصالح غير الثابتة وتوصف بأن تشريعاتها هشة تتخللها استثناءات شرعت لحماية القوى ولأخذ حق الضعيف بستار قانوني مشوه.

ومن هنا برزت القيم الإعلامية في تلك الدول على قيم التنافس الحر والصراع، الشيء الذي جعل مضمون الرسالة الإعلامية عبارة عن سلعة تعرض للبيع، فالأخبار في الدول الغربية ليست مجرد حقائق بل هي تنقل من خلال القيم ونظامها المتبع في الدولة المعنية مضافاً إليه القيم الإعلامية التي يتبناها المراسلون والمحرون وتؤثر عليهم بشكل محسوس لا سيما في حالة التعبير عن تلك الأخبار والقضايا، وفوق كل ذلك يتأثر الإعلام بالفلسفة السياسية للدولة التي ينتمي إليها بغض النظر عن القيم والقضايا التي تشغل الدول الأخرى.

٩٦-سورة النساء، الآية (١٤٨).

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن هناك انعداماً للعلاقة بين مضمون المواد الإعلامية التي تبثها وسائل الإعلام الغربية عن الدول النامية والواقع الحقيقي الذي تعيشه مما يدل على التشويه الإعلامي.

وبالرغم من أن الفطرة البشرية تكاد لا تختلف في إحساسها بنظام القيم الفاضلة والحميدة، وهي ما جاءت بها السنة النبوية المطهرة مثل الصدق والحرية والعدل والمساواة ولكن هذه القيم لا تكون لها جدوى إلا مع الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

ومن هنا تأثرت حرية التعبير بهذه القيم الإعلامية التي جاءت بها السنة النبوية المطهرة سيما تلك التي تقوم على قيمة الإخاء والتعاون والمساواة بخلاف الإعلام الغربي الذي جعل الصراع والتنافس إفراراً طبيعياً لحرية التعبير بصفة خاصة والإعلام بصفة عامة.

ثانياً: من خلال المسئولية الإعلامية:

إن مسئولية حرية التعبير في الإسلام محكومة بقيم ثابتة يؤطرها قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(٩٧).

وخلاصة هذا الضابط الذي يؤثر في حرية التعبير هو أن من يعبر عن رأيه فهو مسئول عنه، وكذا كل شخص يعبر عن رأيه فهو في موضع المسئولية، وهذا يؤكد أن حرية التعبير وفقاً للقيم الإعلامية في السنة النبوية محكومة بضابط المسئولية عما ينتج من استخدام هذه الحرية من تبعات حسنة أم سيئة، وفي ذلك إقرار ضمنى من المرء بأنه مسئول عن تلك التبعات ولو أدى ذلك التعبير إلى ضرر

٩٧- رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم ٨٤٤.

يجب عليه ضمانه وجبر ذلك الضرر، حيث يقول ﷺ في ذلك: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٩٨)، ويقول ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٩٩).

ثالثاً: الغاية من الإعلام والهدف من التعبير والإخلاص في ذلك:

إن الهدف والغاية من التعبير هما محل اعتبار السنة المطهرة استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى»^(١٠٠)، ولذا فإن حرية التعبير في الإسلام تتقيد بمحصلة النية، فإذا كانت النية حسنة فإن المسؤولية المترتبة عليها تكون حسنة، لذا يقال إن الغاية والهدف من ضوابط حرية التعبير هي الالتزام بأوامر الله والسعي نحو مرضاته وتجنب نواهيهِ، قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١٠١).

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه لعلمه فعرفها فقال: فما عملت بها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لكي يقال جري، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتى قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت قيل القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به إلى ربيع فعرفه نعمه فعرفها قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت لك، قال كذبت ولكن فعلت ليقال جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار»^(١٠٢) فالحديث يدل على أهمية خلوص

٩٨- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلوة، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم ٢٥٥٣.

٩٩- صححه الترمذي، حديث رقم ٢٥١٨.

١٠٠- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ١/٢، ٨/٧٥١.

١٠١- سورة المؤمنون، الآية (١١٥).

١٠٢- رواه مسلم، كتاب الإمامة، باب من قاتل للرياء، حديث رقم ١٥٢.

وضابط درء المفسد ورعاية المصالح أساسه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار»^(١٠٦)، والضرر منتف في الشرع، وإدخال الضرر بالغير منهي عنه لذلك. ولذا يقال: إن الضرر إن يدخل على غيره ضرراً بما ينتفع به هو والضرار أن يدخل على غيره ضرراً بما لا منفعة له به كمن منع ما لا يفيد ويتضرر به الممنوع، فالضرار أن يضر بمن قد أضر به على وجه غير مشروع، فالنبي ﷺ إنما نفى الضرر والضرار بغير الحق لكون أن الضرر والضرار فيهما تعدي على حدود الله.

ومن هنا فإن حرية التعبير تتأثر بهذا المفهوم من أنه يجب في ذلك مراعاة القيم الإعلامية التي تستهدف مراعاة درء المفسد ورعاية المصالح فلا يصح للمرء التعبير عن رأيه إذا ما أضر بالآخرين مطلقاً.

خامساً: من خلال مراعاة الأعراف السائدة:

جاء الإسلام بشرعه ومنهجه مراعيّاً لأعراف البشرية، فقد أخذ منها ما كان متوافقاً معه ومتماشياً مع تعاليمه وجعل المكلفين مناطاً بهم كل عرف حميد وكل فعل مجيد سواء كان في حرية القول والتقيد والعمل، ولذا جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً على المسلمين كافة وحسبهم على القيام به مما أثر في حرية التعبير.

وأصل العرف في اللغة ما يستحسن من الأفعال وكل ما تعرفه النفس من الخير والمعروف هو حسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس^(١٠٧).

والمنكر هو خلاف المعروف وهو كل ما قبّحه الشرع وكرهه ونهى عنه، ولذا فالأمر بالمعروف هو كل قول أو فعل أمر به الله أو رسوله أو فعله رسول الله ﷺ، والنهي عن المنكر ما ليس فيه رضى الله ورسوله^(١٠٨).

وقد انعكس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على القيم الإعلامية مما أثر على

١٠٦- رواه ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب من بنى في حق ما يضر، ومالك في كتاب الأقضية، باب القضاء

١٠٧- لسان العرب، ج٢، ص٢٨٩٩.

١٠٨- الشرح الصغير، لأبي البركات أحمد بن أحمد الدردير، ج٦، ص٥٠٦.

حرية التعبير في الفقه الإسلامي على ضوء ما جاء من أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقد قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١٠٩)، وقال تعالى في ذم بني إسرائيل ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١١٠)، فدللت الآيات على مراعاة واجب النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

وقد جاءت السنة النبوية مؤكدة لذلك، قال ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق إطراً ولتقصرنه على الحق قصراً»^(١١١).

وعنه ﷺ: «إياكم والجلوس في الطرقات، قالوا: يا رسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(١١٢).

فهذا الحديث قد حوى قيماً إعلامية كثيرة، ولكنها كلها محروسة بمراعاة العرف الحميد تؤثر فيه ويؤثر فيها. وقد قال النبي ﷺ: «مروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر قبل أن تدعو فلا يستجاب لكم»^(١١٣).

وجاء كذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتكم﴾

١٠٩- سورة الحج، الآية (٤١).

١١٠- سورة المائدة، الآية (٧٩).

١١١- سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث ضعيف، حديث رقم ٤٣٣٦.

١١٢- صحيح البخاري ١٧٣/٣، كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها، حديث رقم ٢٣٣٣.

١١٣- رواه الإمام أحمد في المسند ١٥٩/٦، حديث رقم ٢٥٢٩٤ بإسناد ضعيف.

وإننا سمعنا النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»^(١١٤).

ومن ذلك أن رسلاً قالوا: يا رسول الله أي الناس خير، فقال ﷺ: «أقرأهم وأتقاهم وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم»^(١١٥).

فدلت هذه الأحاديث على ارتباط القيم الإعلامية في السنة النبوية المطهرة بحرية التعبير وأثرها فيها من حيث أن حرية التعبير مقيدة بالأمر بالمعروف ومراعاة سائر أعمال الناس وأعرافهم بشرط ضبط تلك الأعمال والأعراف بالشرع الإسلامي الحنيف، وبالتالي لا مكان لقيم وأعراف الشعوب التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية في الفعل أو القول أو الاعتقاد.

١١٤- سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٤ / ١٢٠، حديث رقم ٤٣٣٨، ورواه الترمذي، كتاب الفتن، باب نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، حديث رقم ٢١٦٨ وقال: حديث صحيح.
١١٥- أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦ / ٤٣٢، حديث رقم ٢٧٤٧٤ بإسناد ضعيف.

- الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبعد فقد انتهى البحث على ما قيص لنا الله القيام به، وقد خلص إلى نتائج محددة نوجزها فيما يلي:
- ١- إن القيم الإعلامية عند غير المسلمين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الآداب والثقافة والمصلحة، وهي مفاهيم متأرجحة متذبذبة تختلف من زمان إلى مكان، وتختلف في الزمان الواحد وفي المكان الواحد، مما ينعكس على عدم استقرار القيم الإعلامية على نحو واضح بعكس القيم الإعلامية في الفقه الإسلامي التي جاءت مستقرة منذ بداية الرسالة المحمدية.
 - ٢- وجود الأثر الواضح للقيم الإعلامية في السنة النبوية على حرية التعبير، سيما في مجال التشريع والممارسة التطبيقية، فالمسلم مقيد في تعبيره عن رأيه بالأحكام التي أتت بها الشريعة الإسلامية بصورة متكاملة لا انفصام لها.
 - ٣- لا توجد حرية للتعبير بصورة مطلقة سواء في الإعلام الوضعي أو الإعلام الإسلامي، ولكن تضيق الحرية وتتسع وفقاً للقيم الإعلامية التي تحكمها وفقاً لفلسفة الإعلام الوضعي والإعلام الإسلامي.
 - ٤- القيم الإعلامية من خلال السنة المطهرة تخاطب المجتمع والفرد على السواء من خلال القيم الروحية والدينية بخلاف الإعلام الغربي الذي يخاطب الماديات ولا يعترف بالأديان مطلقاً.

التوصيات:

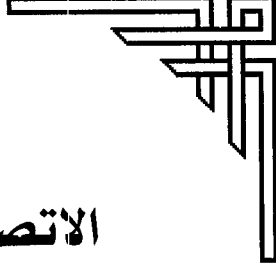
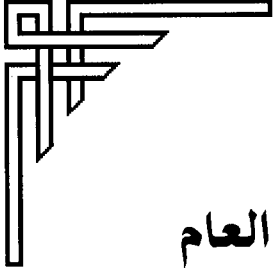
- عليه مما سبق فإننا نوصي بالآتي:
- ١- ضرورة التمسك بالقيم الإعلامية التي جاء بها الإسلام لمكافحة الغزو الفكري الإعلامي الذي يحاصر الأمة الإسلامية.
 - ٢- فسح المجال أمام أجهزة الإعلام الإسلامية باعتبارها وسيلة دعوية للحق عز وجل وتهيئة الفرص الكافية من أدوات ومعينات مادية ومعنوية وتدريبية حتى يتم التواصل بين حضارة المسلمين وغيرها من الحضارات بصورة قوية وفاعلة.

٣- ضرورة التقيد. فيما يخص حرية التعبير في كل شؤون الحياة لما في ذلك من صلاح للأمة في جوانب حياتها المختلفة وعدم الانجراف والانسياق وراء الرؤى والأفكار التي تنظم حرية الرأي وفقاً لفلسفات أخرى.

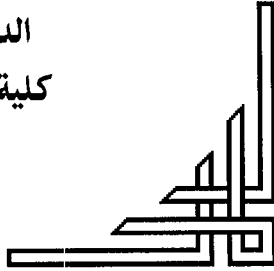
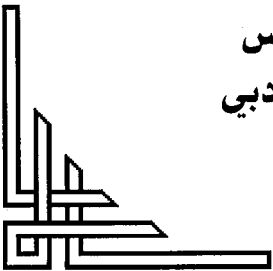
ثبت المصادر

- ١- أصول الإعلام الإسلامي، د. إبراهيم إمام، دار الفكر العربي ١٩٨٥ م.
- ٢- إمتاع الأسماع، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، القاهرة، لجنة التأليف والنشر.
- ٣- الإسلام وحقوق الإنسان "دراسة مقارنة"، د. القطب محمد القطب، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٨٤ م.
- ٤- الإعلام في صدر الإسلام، عبداللطيف حمزة.
- ٥- الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١ م.
- ٦- التمهيد، لابن عبدالبر.
- ٧- الشرح الصغير، لأبي البركات أحمد بن أحمد الدردير.
- ٨- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، مكتبة الصفا (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).
- ٩- القانون الدستوري والأنظمة السياسية، ترجمة علي مقلد وآخرين.
- ١٠- القيم الأخبارية الصحفية، مجلة الدراسات الإعلامية، صادرة عن المركز العربي للدراسات الإعلامية، العدد ٣٨، ١٩٨٧ م.
- ١١- المستدرك، للحاكم.
- ١٢- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مطبعة شركة الإعلانات، ط١.
- ١٣- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس، دار النشر، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣ م، ص ١٦٥.
- ١٤- الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن مرسى اللخمي الشاطبي، دار المعرفة، بيروت.
- ١٥- النظم السياسية والقانون الدستوري، د. عبدالغني بسيوني، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٩٢ م.

- ١٦- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩ م.
- ١٧- حق الحرية في الإسلام، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١ (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- ١٨- حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، د. إسماعيل أحمد الأسطل، ط٤.
- ١٩- حقوق الإنسان وديانته الأساسية، د. جابر الرواي، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ط١، ١٩٩٩ م.
- ٢٠- دور الإعلام الديني في تغيير بعض قيم الأسر الريفية والحضرية، د. نوال محمّد عمر، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٤ م.
- ٢١- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية، المكتبة العلمية، بيروت، ط٢٦.
- ٢٢- سنن أبوداود.
- ٢٣- سنن الترمذي.
- ٢٤- صحيح البخاري.
- ٢٥- صحيح مسلم.
- ٢٦- قاموس علم الاجتماع، محمّد عاطف عبث، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠ م.
- ٢٧- قضية الحرية وقضايا أخرى، د. عبدالغني عبود، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٩ م.
- ٢٨- لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).
- ٢٩- مختار الصحاح، محمّد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٨ م،
- ٣٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- ٣١- مفهوم الاتصال في المنظور الإسلامي، عبدالله إبراهيم يوسف حجازي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة أم درمان الإسلامية، ٢٠٠٤ م.
- ٣٢- نظام الدولة في الإسلام، د. عبدالوهاب خلاف، مطبعة التقدم، القاهرة، ط١، ١٩٧٧ م.



الاتصال الجماهيري والرأي العام
في السُّنَّة النَّبَوِيَّة المشرفة
بين المبادئ المهيمنة والقلوب المؤلفة



الدكتور: أبشر عوض محمد إدريس
كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

إن شمول رسالة الإسلام لكل جوانب الحياة الإنسانية، في أسسها المعرفية والفكرية، وقيمها الأخلاقية والاجتماعية، وتطبيقاتها العملية السلوكية، بحيث يشكل منظومة ثقافية وحضارية متميزة، حقيقة مقررة قد أثبتتها الدراسات المتخصصة في كل فن من الفنون، ولكن هذه الحقيقة غائبة أو مغيبة عن الجماهير بشتى توجهاتها في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك بفعل عاملين متضادين تكرسهما أجهزة الإعلام العالمية - بما تملكه من موارد هائلة وتقنيات متطورة - في تشويه صورة الإسلام وتحجيم دوره:

العامل الأول: التجاهل المتعمد لحقائق الإسلام الناصعة ودوره العظيم في النهضة الإنسانية الكبرى التي تثبتتها الدراسات التاريخية المنصفة حتى من غير المسلمين، ومعروف أن "أسوأ أنواع الحروب الإعلامية على القضايا والأولويات المهمة التي تتطلع إليها الأمم والمجتمعات هي تجاهلها بالصمت، وعدم النشر حولها، فذلك يقلل أهميتها ويبعدها عن الاهتمام ويحولها إلى قضية ثانوية أو مجهولة"^(١).

العامل الثاني: عامل التكرار : فإنهم يتصيدون بعض المعلومات المغلوطة عن الإسلام والمواقف الخاطئة من بعض الدعاة المسلمين، ويروجون لذلك ويقدمونها للعالم على أن هذا هو الإسلام، والتكرار في الإعلام يقصد به (الإلحاح المستمر والمتجدد في عرض الرسالة بإعادة تقديم المادة مع اختيار الطرف الملائم الذي يزيدها قوة على قوة، واستغلال المناسبات الدورية وربط الرسالة بالأحداث الجارية وتجديدها في أشكال عديدة مبتكرة)^(٢).

١- الإعلام والاستدراج (مقال على الإنترنت).

٢- التخطيط الإعلامي في ضوء الإسلام ص ١٤٤.

والمتابع للساحة الإعلامية العالمية في وقتنا الحالي تتجلى له هذه الحقيقة واضحة لا لبس فيها، إذ وصلت الحرب الإعلامية ذروتها حتى طالت مقام رسول الله ﷺ في الصحف وأجهزة التلفزيون، ثم يتذرعون بحجة (حرية الرأي)، إذن لقد دارت الآلة الإعلامية العالمية العملاقة على حساب الإسلام والمسلمين، ويجب مواجهة ذلك بما يكافئها إعلامياً، ولعل من المبشرات انطلاق برامج ومواقع على شبكة الإنترنت للتعريف بالإسلام ورسوله، صلى الله عليه وسلم. وفي سياق ما ذكرناه سابقاً تسعى بعض الأفلام لتجريد الإسلام من منهجيته الواقعية في معالجة قضايا الناس، وبناءً على ذلك ينكرون ابتداءً المبادئ الإسلامية في بعض الجوانب المعرفية ومن ذلك قضايا الاتصال والإعلام، ويرونها نتاجاً خالصاً للعقلية الأوروبية الغربية (فعلى عهد الرسول ﷺ لم يكن هناك صحافة ولا إذاعة ولا تلفزيون، وبالتالي لم يكن هناك تصور لمشاكلها أو حلولها، والقول بأن للإسلام نظرية أو مذهباً في الإعلام في رأيهم تجاوز للحقيقة، ولي لعنق التاريخ والنصوص، ولا شك أنهم ينطلقون في ذلك من مفهوم ضيق للإعلام. أولاً: فهم يتصورون أن تطور وسائل الاتصال هو بداية الإعلام ونهايته. ولا يدركون أن الإعلام عملية قائمة منذ خلق الله الوجود.

ثانياً: إن الدين الإسلامي جاء بمبادئ أساسية ومنطلقات محددة ثم ترك لعلماء المسلمين حق الاجتهاد في التفسير فيما لا يتعارض مع نص الكتاب والسنة^(٣).

و (إذا كانت النظريات الإعلامية لم تعرف في رأي بعض الباحثين إلا في أواخر عصر النهضة بعد اختراع الطباعة مباشرة، وإذا كان بعض آخر يرى أن علم الإعلام لم يصبح علماً له قواعده وأصوله ولم يقم على نظريات أو ممارس في حيزها إلا في أوائل القرن العشرين، فإنه من المؤكد أن الفلسفة التي استندت عليها تلك النظريات بل والتطبيق العملي لها بدأ مع خطوات الإنسان الأولى نحو

٣- مدخل إلى الإعلام والرأي العام ص ١٤٠.

تنظيم مجتمعه، ومنذ إحساسه بضرورة أن يكون هناك نظام يتولى إدارة شؤون مجتمعه ويلبي حاجاته^(٤).

وقد شهد العلماء والخبراء في الإعلام، بأن ميدان السنة النبوية المشرفة غنيٌ بمفاهيم وتطبيقات النظريات الاتصالية، يقول د. عبد الحلیم: (إن النبي ﷺ قد اكتشف أهمية الإعلام لنشر دعوته، ومارس العمل الإعلامي بفنونه المختلفة، وأعدَّ له الخطط العلمية الدقيقة بصورة أذهلت الخبراء والضارين في حقل الاتصال بالجماهير، ونهج في دعوته منهجًا إعلاميًا خاصًا، ووضع لهذه الدعوة أصولًا تحوي من الأفكار ما هي بمثابة كنوز لم يكشف عنها النقاب حتى الآن بشكل كافٍ)^(٥).

ويقول سليمان: (تحتاج دراسة السنة الشريفة باعتبارها وسيلة إعلامية جهودًا صادقة من علماء الإعلام الإسلاميين، حيث إنه ميدان لم يتطرق إليه الكتاب، ولم تتناوله البحوث التي اطلعت عليها)^(٦).

كلمة في المصطلح:

بنينا هذه الدراسة محاولين الإجابة عن إشكالية العلاقة التفاعلية بين الاتصال الجماهيري والرأي العام من جهة، وبين ما اصطلحنا عليه بالمبادئ المهيمنة والقلوب المؤلفة من جهة أخرى، فماذا تعني الدراسة بهذه المصطلحات؟

الاتصال الجماهيري :

يقول دكتور فلّاح: (يتضمن التعبير الواسع للإعلام أو الاتصال بالجماهير Mass communication كل العمليات التي يؤثر بمقتضاها الإنسان على أخيه الإنسان، أو نقل الأفكار والمعلومات والتجارب والخبرات والاتجاهات من فرد إلى آخر بهدف الدعاية أو الحرب النفسية أو الإقناع أو الإعلان أو التأثير أو

٤- الإعلام موقف ص ٢٦.

٥- الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية ص ١٤٨.

٦- التخطيط الإعلامي في ضوء الإسلام ص ١٢٨.

الإثارة أو التحريك أو التحريض أو المناورة أو التضليل أو التربية والتثقيف أو الترفيه^(٧).

الرأي العام :

اختلف العلماء والمفكرون وأهل السياسة حول تعريف محدد متفق عليه للرأي العام، وقد جاء في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية عام ١٩٦٨م (أنه لا يوجد تعريف عام متفق عليه للرأي العام)^(٨).

ومن التعريفات التي لاقت رضا الكثير من الباحثين تعريف ليونارد دوب، يقول: إن الرأي العام يشير إلى اتجاهات الناس حول موضوع ما، حينما يكونون أعضاء في نفس الجماعة .

ويرى حسين عبد القادر أن من أحسن التعريفات للرأي العام: أنه اصطلاح يستخدم للتعبير عن مجموعة الآراء التي يدين بها الناس إزاء المسائل التي تؤثر في صالح الجماعة، وهو الحكم الذي تصل إليه الجماعة في مسألة ذات اعتبار عام، بعد مناقشات علنية وافية^(٩).

المبدأ المهيمن :

أصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، نقول: هيمن فلان على فلان إذا صار رقيباً عليه، والمهيمن: الرقيب المبالغ في المراقبة والحفظ، من قولهم: هيمن الطائر إذا نشر جناحه على فرخه صيانة له^(١٠).

ونقصد به مبادئ الإسلام الاعتقادية، وشعائره وشرائعه الثابتة بقواطع الأدلة، وهو يشكل المحور والمركز لحياة المجتمع فيصبغه بالصبغة الإسلامية.

٧- علم الاتصال بالجماهير ص ١٧.

٨- الاتصال بالجماهير والرأي العام ص ٢٤.

٩- المرجع نفسه ص ٢٥ وانظر أيضًا: الرأي العام ص ١٤٣ وبعدها، الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية ص ١١-٥٢ والإعلام والدعاية ص ١٥ ومدخل إلى الاتصال والرأي العام ص ١٠٢ وبعدها.

١٠- النهاية في غريب الحديث ٥/ ٢٧٤، مختار الصحاح ٢٩١ وانظر فتح الباري ٨/ ٢٦٩، عمدة القاري ٨٧١٢٥.

إن تحديد المبادئ المهيمنة في زماننا هذا يشكل أهمية قصوى وذلك للآتي:
أولاً: رغم ما يبدو من وضوح هذه المبادئ عند الناس كافة، إلا أنه قد تختلط
أحياناً المعايير عند بعض الناس، فيقعون في الإفراط أو التفريط، فبعضهم يرقى
إلى المستحبات وبعض السنن إلى درجة المعلوم من الدين بالضرورة، يرمي من
أنكرها بالكفر والخروج من الملة، وطرف آخر لا يبالي بثوابت الدين بالقرآن
والسنة المتواترة ويرمي بها من وراء ظهره.

إن قضية (الشكل والمضمون) في الإعلام الإسلامي فيها من المسائل الدقيقة
والحساسة التي اختلطت على كثير من الناس فيها الأصول بالفروع . والثابت
بالتغيير، مما أقعد أصحاب الرسالة الخاتمة عن أداء مهمة (البلاغ المبين) كما ينبغي
أن تكون لكل عصر وفي كل مصر.

وإن من أكبر تحديات الأمة في المرحلة الراهنة - إن لم يكن هو التحدي الأكبر
- الإعلام والاتصال - لأمة سبق نبيها ﷺ إعلام، وصحبه إعلام، فهل نتبعه بإعلام
ينصره وينصر دعوته؟

ثانياً: تنظيم العمل الإعلامي الإسلامي :

إن عدم وضوح هذه المبادئ يؤدي إلى قصور في العمل الإعلامي الإسلامي،
خاصة في ثلاثة جوانب أساسية، في الوسيلة، الرسالة، المستقبل، فمثلاً هناك من
يرى ويفتي بحرمة اقتناء أو مشاهدة (التلفاز) وقس عليه باقي الوسائل التي من
أساسيات العمل فيها (التصوير) وذلك مبني عندهم على تحريم (التصوير)
بأشكاله كافة حتى المجلات أو الصحف ينبغي ألا تحتوي على صورة ذي روح !!
أما عن الرسالة والمستقبل، فالخلط فيهما أعظم، والخطب أجل، فعدم التمييز بين
أنواع الخطاب والمخاطب له مردود سالب على الرسالة الإعلامية نفسها ورحم الله
الإمام البخاري فقد بوب في صحيحه: (باب من خص بالعلم قومًا دون قوم
كراهية أن لا يفهموا^(١١)) أورد فيه أحاديث دلت على عدم الإبلاغ ببعض الأخبار

١١- في كتاب العلم ١ / ٥٩.

في بعض الأحوال، وقد شرح هذه النصوص وحللها الحافظ ابن حجر وأضاف إليها طائفة أخرى في ذات المقصد، ثم وضع الحافظ ضابطاً علمياً لذلك يقول: (وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمسك عنه، عند من يخشى عليه الأخذ بالظاهر مطلوب) (١١).

القلوب المؤلفة :

وهذه تضاف إلى سابقاتها وهي لا تنفك عنها أبداً، ولها تأثير كبير جداً في الرسالة الإعلامية الإسلامية، وبالذات في (الرأي العام) بأنواعه، فكم جرت رسالة إعلامية غير محسوبة العواقب مشاكل جمة كأن تقوم جهة إسلامية بإلغاء نشاط رياضي أو هدم آثار الخ، بحجة أن هذا مخالف لتعاليم الإسلام، ليس من هدف هذا البحث تقرير موافقة أو عدم موافقة ذلك للإسلام، ولكن يبحث عن توقيت وتنفيذ وإخراج ما ذكر، ونحن نعلم أن أجهزة الإعلام العالمية سرعان ما تتلقف هذه الأخبار والمشاهد وتبثها على أرجاء المعمورة وتصبغها بصبغتها الخاصة وتضيف إليها من المؤثرات ثم يقولون (هذا هو الإسلام) مما يؤلب القلوب والآراء ضد الإسلام والمسلمين عامة، ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عندما دخل عليه الخوارج وناظروه في مسائل عدة، وهو يرد عليهم رد الفقيه في دينه، الخبير بمقتضيات المرحلة والعصر، قالوا له: خرب الكنائس، قال: هي من صلاح رعيتي (١٢).

مَنْ هم المؤلفة قلوبهم؟

في الوقت الراهن، ومع الثورة الهائلة في وسائل الاتصال، ذابت الحواجز بين الدول والأمم والشعوب، ولكل منهم مبادئ وقيم، وقد تحتم المصالح أن يجد المرء نفسه مضطراً - أحياناً - إلى التعايش مع بيئة أو وضع، ليس هو الأمثل، ولكن على

١٢- فتح الباري ١/ ٢٢٥.

١٣- سيرة عمر بن عبد العزيز ١/ ١٤٧.

الأقل هو أفضل الخيارات المطروحة، التي يمكنه من خلالها تبليغ مبادئ دينه وأهدافه، وأحياناً يجد نفسه مضطراً أيضاً إلى استرضاء ذاك الفرد أو الجماعة أو الدولة، في وقت، وإن لم يفعل عاد عليه ذلك بعواقب وخيمة خاصة إذا كان مستضعفاً، هذا الاسترضاء هو في المصطلح الإسلامي (المؤلفة قلوبهم) فمن هم، وهل هم باقون أو زالوا بظهور الإسلام على باقي الملل والنحل، وهل نحتاج في أيامنا هذه إلى (تأليف القلوب ؟) .

قال أهل العلم: المؤلفة قلوبهم صنفان: مسلمون ومشركون، وكل صنف على صنفين، أما المسلمون فقوم كان إيمانهم ضعيفاً مثل عباس بن مرداس، كان رسول الله ﷺ يعطيهم ليتألفوا على الإيمان فيقوى إيمانهم، وصنف كان إيمانهم قوياً مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر، كان يعطيهم ليتألف عشيرتهم. وأما المشركون فصنفان: صنف كان يدفع لهم ليدفع أذاهم عن المسلمين مثل عامر بن الطفيل، وصنف كان يعطيهم ليؤمنوا ويميلوا إليه مثل صفوان بن أمية^(١٤).

بقاء المؤلفة قلوبهم :

قال ابن العربي: اختلف في بقاء المؤلفة قلوبهم، فمنهم من قال هم زائلون، قاله جماعة وأخذ به مالك، ومنهم من قال هم باقون لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام، والذي عندي أنه إن قوى الإسلام زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم^(١٥).

قال ابن عطية: إذا تأملت الثغور وجد فيها الحاجة إلى الاستئلاف^(١٦). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: يجوز بل يجب الإعطاء لتأليف من يحتاج إلى تأليف قلبه^(١٧).

١٤- تفسير السمعاني ٢ / ٣٢١. وانظر: تفسير ابن كثير ٢ / ٣٦٦. وانظر مزيداً من التفصيل وأسماء المؤلفة قلوبهم، ما ورد في صحيح البخاري أبواب الخمس باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم ٣ / ١١٤٥. ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ٢ / ٧٣٣.

١٥- أحكام القرآن ٢ / ٥٣٠.

١٦- المحرر الوجيز ٣ / ٤٩.

١٧- مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢٩٣.

استجابة لكل ما ذكر سابقاً وغيره جاءت هذه الورقة عساها تسهم ببيان يخدم
الإسلام وأهله: ﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١٨).

المبحث الأول

الاتصال في السنة المشرفة

إن مصطلح الاتصال الذي نقصده في هذا المبحث هو (المصطلح الرئيسي الذي يمثل النشاط الأساس الذي تندرج تحته كافة أوجه النشاط الإعلامي، والدعائي، والإعلاني، فهو العملية الرئيسية التي يمكن أن تنطوي بداخلها عمليات فرعية، أو أوجه نشاط متنوعة، قد تختلف من حيث أهدافها، ولكنها تتفق جميعاً فيما بينها في أنها عمليات اتصال بالجماهير)^(١٩).

وقد كان للنبي ﷺ سياسات اتصالية ممنهجة بصورة كاملة، استوعبت ظروف المكان والزمان والمجتمع في وقته آنذاك، ووضع الأسس العلمية لمن يأتي من بعده صلى الله عليه وسلم، حتى ينطلق وفق الرؤية الربانية للعملية الإعلامية بجميع تفاصيلها فالسياسة الاتصالية هي (مجموعة الممارسات الواعية، والسلوكيات الاتصالية في مجتمع ما، بهدف تلبية الاحتياجات الاتصالية الفعلية من خلال الاستخدام الأمثل للإمكانات وهي لا تستورد أو تنقل كنموذج عالمي يمكن تطبيقه كما هو في أي مكان من العالم، فهي تنبع من ظروف كل بلد، وتراعي تراثه التاريخي والثقافي، وتعمل على تلبية احتياجاته)^(٢٠).

ثم بعد وضع هذه السياسات وضح النبي ﷺ كيفية وعوامل نجاحها، سواء ما كان منها يتعلق بالمصدر، أو عوامل تتعلق بالرسالة أم المستقبل، وغير ذلك، فمما يتعلق بالمصدر: ينبغي أن تتوفر فيه شروط منها الموثوقية، وتوافر مهارات اتصالية معينة من ناحية الخطاب واللغة وكذلك معرفته باتجاهات المستقبل، وفي هذا الصدد لا يختلف اثنان في أن النبي ﷺ كان يمثل قمة الموثوقية في بيئته التي نشأ فيها، حتى عرف بينهم بالصادق الأمين، وقد تواتر عن أصحاب رسول الله ﷺ

١٩- مدخل إلى الاتصال والرأي العام ص ١١.

٢٠- السياسات الاتصالية والإعلامية في العالم الإسلامي ص ٦.

وصفهم إياه (بالصادق المصدق)^(٢١) ولذا كانوا يأخذون كلامه بمطلق التسليم، وعليه كلما كان القائم بالاتصال يحظى بالموثوقية وجدت رسالته القبول والانتشار،) وقد أثبتت التجارب العلمية أن المصدر الموثوق به، تستطيع الاقتناع بوجهة نظره إلى درجة تبلغ ثلاثة أضعاف ونصف تلك الدرجة التي يبلغها المصدر الأقل ثقة)^(٢٢).

أما فيما يتعلق بالرسالة فقد كانت مصممة عند النبي ﷺ تصميمًا دقيقًا سواء كانت من ناحية المحتوى، وتناسبها مع حاجات المستقبل الشاهدة والغائبة، أم من ناحية الصياغة وما تحويه من مثيرات تضمن استمرار انتباه المستقبل أو من ناحية ثالثة مراعاة الأوقات المناسبة لبث هذه الرسالة، وكل بندٍ من هذه البنود يحتاج كتابة رسالة خاصة به.

المطلب الأول: خطة النبي ﷺ الإعلامية :

إذا نظرنا في خطته الإعلامية ﷺ نجدها - والله أعلم - قد بُنيت على مبدئين:

أولاً: المبدأ التكويني الداخلي :

إن أجهزة الإعلام على اختلاف أنواعها، لا تنفك في رسائلها من محيطها الاجتماعي ومكوناته من عادات ونظم وأفكار، إذ هي عامل أساسي فاعل في تشكيله وتكوينه، كما هو عامل لا يقل فاعلية في توجيهها إلى تبني رسائل بعينها دون غيرها، وما نراه ونسمعه الآن في أجهزة الإعلام العالمية بما يسمونه (حرية فكرية أو حرية الرأي) وإن أدّى ذلك إلى المساس أو الطعن في مقدسات الغير وعقائدهم، دون المبالاة بردود الأفعال من هذا الغير، يوضح لنا جلياً أن قوة الإعلام ينبع أحياناً بل وفي غالب الأحيان من التفاف المجتمع حول المبادئ والقيم التي تتبناها المؤسسات الإعلامية في محيطه.

٢١- انظر مثلاً البخاري كتاب العلم باب قول المحدث أخبرنا ١ / ٣٤، ومسلم كتاب القدر ٤ / ٢٠٣٦.

٢٢- الاتصال بين النظرية والتطبيق ص ٤٢.

هذا المدخل يساعدنا في فهم وتحليل النصوص النبوية الشريفة التي سعت إلى تكوين المجتمع الفاضل الأول الذي حمل أعباء الرسالة والبلاغ بكل ما أوتيته من طاقات، إذ أن النبي ﷺ فيما سميناه المبدأ التكويني الداخلي قد نهض به على دعامتين:

الأولى: الهيمنة الفكرية:

وذلك من خلال النصوص القرآنية التي أعجزت العالمين ببيانها، وانقاد لها العرب قاطبة، بل وأعجزت حتى أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ (٢٣) وقد حرص النبي ﷺ في هذا الإطار، على توحيد مصدر التلقي حفاظًا على نقاء العقيدة ورابطة الولاء التام، فعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال: يا رسول الله، إنني أصبت كتابًا حسنًا من بعض أهل الكتاب، قال: فغضب وقال: أمتهوكون^(٢٤). فيها يا ابن الخطاب؟ فوالذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني^(٢٥).

الثانية: الهيمنة الروحية:

وهذه إضافة إلى الإيمان التام بالمبادئ، والتصديق الجازم بها ضرورة مشاهدة لتنزيل المبادئ إلى دنيا الواقع، فكم من مؤمن مصدق بمبدأ ما، ولكن لظرفٍ من الظروف يتنازل ويضعف عن التمسك به، وكلما سما صاحب الرسالة بأتباعه في هاتين الدعامتين، كان تبنيهن لهذه الرسالة والعمل على إبلاغها أسمى هدفٍ

٢٣- سورة المائدة، الآية (٤٨).

٢٤- التهوك، كالتهور هو الوقوع في الأمر بغير روية، والتهوك الذي يقع في كل أمر، وقيل هو التحير، النهاية ٢٨١ / ٥ وقال أبو عبيد، يقول: أمتحيرون أنتم في الإسلام لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى، غريب الحديث ٢٩ / ٣.

٢٥- أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف باب من كره النظر في كتب أهل الكتاب ٣١٢ / ٥.

يسعون إليه، وهيمنة النبي ﷺ الروحية كانت ولا زالت متجذرة في الأمة، وما نشهده من هبة في مشارق الأرض ومغاربها نصرته لرسول الله ﷺ والذود عن قدره العالي لهو دليل على أن المصطفى ﷺ في سويداء القلوب، حتى عند العصاة المذنبين فضلاً عن الأتقياء الورعين.

ثانياً: المبدأ الحوارى الخارجى:

لقد مدَّ النبي ﷺ في سبيل إعلام الناس برسالته - جسور الحوار مع العالم الخارجى أفراداً وجماعات، بدءاً من شيوخ القبائل ورؤساء العشائر، ونهاية بأكابر الزعماء وعظماء القوم، من قياصرة وأكاسرة - كما سيأتي بيانه لاحقاً - وقد أدار النبي ﷺ هذا الحوار على أعلى مستوى فكرى وعقلى مع أهل الكتاب، وقد كان يفاجئهم بحقائق عمّا يعتقدونه ويدينون به، فمنهم من يؤمن، ومنهم من يكابر ولكنه ألزم الحجة، فقد روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عياش قال: جاء مالك بن الصيف وجماعة من الأخبار فقالوا: يا محمد أأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم، وتؤمن بما فى التوراة، وتشهد أنها حق، قال: بلى، ولكنكم كتمتم منها ما أمرتم ببيانه، فإنا أبرأ مما أحدثتموه^(٢٦). وعن عدي بن حاتم قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال لي: يا عدي بن حاتم أسلم تسلم. ثلاثاً قال قلت: إني على دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، أأنت من الركوسية^(٢٧)، وأنت تأكل مربع^(٢٨) قومك؟ قلت: بلى، قال: فإن هذا لا يحل لك فى دينك، قال: فلم يعد أن قالها، فتواضعت لها^(٢٩). وأما المشركون فقد أبلغ النبي ﷺ فى بيان ما هم فيه من جهل العقول وانحراف السلوك، وأنهم يعبدون حجارة وأصناماً لا تضر ولا تنفع.

لقد وفق النبي ﷺ مع كل هذه الفئات، وما انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد

٢٦- أخرجه ابن أبى حاتم، وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح ٨ / ٢٦٩ إسناده حسن.

٢٧- الركوسية: دين بين النصارى والصابئين، انظر النهاية، ٢ / ٢٥٩.

٢٨- المربع: يقال: ربت القوم أربعهم: إذا أخذت ربع أموالهم، النهاية ٢ / ١٨٦.

٢٩- أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٤ / ٢٥٧. وإسناده صحيح.

استبان السبيل، وعمّ نور الإسلام المعمورة، يقول الدكتور حاتم: من العوامل التي أدت إلى نجاح الدعوة المحمدية، واكتساحها الدعوات الأخرى من الوثنية وغيرها عامل هام، يتمثل في أن هذه الدعوة كانت قريبة من نفوس العرب، جلية في أذهانهم، وتتمثل كذلك في بيان الداعية، وبلاغته، وقوة حجته، وسلامة منطقه، وتعرفه مشارب الإنسان، وتفهمه طبيعة الجماهير، وهي أمور لها خطرها في كل دعوة، بل هي وسيلة هامة من وسائل الإعلام^(٣٠).

المطلب الثاني : وسائل النبي ﷺ الإعلامية :

إن رسول الله ﷺ لم يأل جهدًا في سبيل إعلام الناس برسالته، وقد استخدم كل الوسائل المتاحة آنذاك الاستخدام الأمثل، مما كان له الأثر الجيد في إقناع أعداد كبيرة منهم فدخلوا في دين الله أفواجًا، ويمكن ذكر بعض هذه الوسائل وآثارها ونتائجها فمن ذلك:

١ - الاتصال الشخصي :

يعرف ميرتون الاتصال الشخصي بأنه: اتصال يتضمن مواجهة مباشرة بين القائم بالاتصال والمستقبل، تؤدي إلى تغيير في سلوك المستقبل واتجاهاته^(٣١) ويعتبر الاتصال الشخصي من أهم وأنجح وسائل الاتصال، ذلك لأنه يتيح للمرسل إدراك مدى فاعلية رسالته في المستقبل بصورة فورية أي قياس رجع الصدى أو التغذية الراجعة، كما أنها بالمقابل تتيح للمستقبل أن يناقش ويبدى وجهة نظره، وتأكيدًا لأهمية الاتصال للشخص يصفه د. حمزة (بأنه أخطر وسائل الإعلام قديمًا وحديثًا^(٣٢) ويقول د. محي الدين: تعتبر وسيلة الاتصال الشخصي من أنجح وسائل الاتصال التي استخدمت في كل العصور، وظلت حتى اليوم تلعب دورًا فعالاً في مقدمة وسائل الاتصال المختلفة^(٣٣).

٣٠- الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية ص ٢٣ (الكتاب الثاني).

٣١- مدخل إلى الاتصال والرأي العام ص ٤٧.

٣٢- الإعلام والدعاية ص ٨٣.

٣٣- الاتصال بالجماهير والرأي العام. الأصول والفنون ص ٦٨.

وللاتصال الشخصي ميزة لا تتوفر لغيره من الوسائل وهي (سهولة انصراف الناس عن المواد التي تذيعها وسائل الإعلام ولا تتفق مع آرائهم، بينما يصعب تجنب الحديث مع الزميل أو الصديق أو الجار، خاصة إن كان موضوع الحديث غير معلوم مقدمًا لديهم^(٣٤) .

وهذه الوسيلة هي الأهم في تاريخ الدعوة الإسلامية، بذل فيها رسول الله ﷺ جهودًا مضنية، وصبر عليها صبرًا عظيمًا، ولقاءاته ﷺ الفردية والجماعية لا تكاد تحصى، تذخر بها كتب السنن والسيرة فعن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز، وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب فإذا هو أبو جهل، وإذا هو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى^(٣٥) .

ومن هذا المنطلق يجب ألا تصرف وسائل الإعلام الحديثة، القائمين بالعملية الإعلامية التي تتبنى المنهج الإسلامي في أطروحاتها - رغم ما توفره هذه الوسائل من وقت وجهد - يجب ألا تصرفهم عن مسألة (الاتصال الشخصي)، يقول د. عبد الحليم: يتبوأ الاتصال المواجهي Face to Face Communication مكانة مميزة في خطط الدعوة الإسلامية، التي لا يجوز لها أن تقصر نشاطها على وسائل الاتصال الجماهيري، فلا يكفي أن يستمع غير المسلمين إلى حقائق الإسلام عبر الإذاعة أو يشاهدونها على الشاشة الصغيرة أو الكبيرة، أو يقرأون ما تنشره الصحف وغيرها من الوسائل المقروءة، لأن مرحلة التعرض لا بد أن تلحقها مرحلة الإقناع والتبني، وهذه المرحلة تتطلب مواجهة مباشرة مع الجمهور لمجادلتهم وعرض الحجج المنطقية والبراهين العقلية لإقناعهم^(٣٦) .

٣٤- مدخل إلى الاتصال والرأي العام ص ٤٩ .

٣٥- دلائل النبوة: للبيهقي ٢ / ١٨٦، وقال الذهبي: إسناده قوي، تاريخ الإسلام ١ / ١٥١ .

٣٦- الإعلام عن الإسلام ص ١٥ .

وبقى أن ننبه إلى قضيتين مهمتين تؤديان إلى الاستفادة القصوى من الاتصال الشخصي وهما:

١- يجب أن يكون القائم بالاتصال صبورًا، حليمًا، رابط الجأش، يرجو الخير للمستهدفين برسالته، فإن هذه الوسيلة يتعرض صاحبها - أحيانًا - إلى مواقف بالغة الحرج والخطورة، قد تترك آثارًا عميقة في حياة صاحبها لا تمحى أبدًا. فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّنتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا (٣٧).

فأنت تلاحظ أن النبي ﷺ لم ينس أبدًا ما لاقاه من صدود أهل الطائف وإغرائهم سفهاءهم وصبيانهم به ﷺ، وكيف أنه لم يستفق من الهم إلا بقرن الثعالب، بل جعل النبي ﷺ هذا الأذى أشدَّ وقعًا على نفسه من غزوة أحد، يحلل ذلك تحليلًا جيدًا الإمام ابن الدبيع الشيباني بقوله: جعل النبي ﷺ ما ناله من الاستهزاء، أو شماتة الأعداء أشدَّ مما لاقاه يوم أحد من قتل حمزة في سبعين من أصحابه، مع ما ناله في نفسه من الجراحة، وما ذاك إلا أن نفس الكريم تتأذى بالقول والسب، أشدَّ مما تتأذى به من الطعن والضرب (٣٨). ولكن مع ذلك عفى النبي ﷺ، ومن ثم تحقق رجاؤه وتحولت هذه المنطقة إلى بؤرة إيمانية أبد الدهر - إن شاء الله - وهكذا ينبغي أن يكون للقائم بالاتصال

٣٧- أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين ٣ / ١٨٠ ومسلم (واللفظ له) كتاب الجهاد والسير باب ما لقي رسول الله من أذى المشركين ٣ / ١٤٢٠ .

٣٨- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ١ / ٣٤٥ .

الشخصي بعد نظر، ودراسة عميقة لمجتمعه، ولا ييأس من النتائج الأولية السالبة.

٢- يجب أن يكون صاحب الرسالة الإعلامية في الاتصال الشخصي، قدوة حسنة فيما ينادي به، وإلا بآت رسالته بالفشل الذريع، وذهبت أدرج الرياح، وما نسميه القدوة الحسنة " سماه لازار سفيلد " التصرف النموذجي " يقول: يستطيع الداعية أن يحقق أهدافه من خلال الاتصال الشخصي بتصرفه النموذجي، دون الحاجة إلى استخدام أسلوب التحريض المباشر^(٣٩).

يقول كرم: القدوة الحسنة التي قدمها النبي ﷺ: من نفسه للمسلمين، والتي لا يزال أثرها يسري عبر العصور حتى الآن، وإذا كان صاحب الرسالة الإعلامية قدوة حسنة لما يقدمه للمستقبل، فإنه سيكون قادرًا على إقناعه والتأثير فيه، وقد أثبت علم الاتصال الحديث، أن الاتصال الشخصي لا ينجح إلا إذا كان المرسل قدوة لما ينادي به، وهذا ما قرره القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٤٠).

وفي هذا السياق، وتنبهًا لخطورة مخالفة التطبيق الفعلي للإطار النظري، نفهم حديث رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرَّحَى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية^(٤١) وفي حديث المسور بن مخرمة في الحديثية قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، قال: فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت

٣٩- نقلًا عن: مدخل إلى الاتصال والرأي العام ص ٤٩.

٤٠- التخطيط الإعلامي في ضوء الإسلام ص ١٣٢، والآية من سورة الصف (٢، ٣).

٤١- أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار ٣ / ١١٩١ ومسلم (واللفظ له) كتاب الفتن باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار ٤ / ٢٢٩٠.

أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك، اخرج، لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدُنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم، حتى فعل ذلك، نحر بُدُنَه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد يقتل بعضهم بعضًا غمًّا»^(٤٢) علق الحافظ ابن حجر: إن الفعل إذا انضم إلى القول، كان أبلغ من القول المجرد^(٤٣).

٢- الشعر في الإعلام الإسلامي :

يقول د. حمزة: (كانت القصيدة الشعرية أول ما عرفه العرب وغير العرب من وسائل الإعلام، وكانت الأداة الوحيدة للتعبير عن رأي القبيلة في العصر الجاهلي فلما جاء الإسلام لعبت قصائد الشاعر الإسلامي حسان بن ثابت دورها في مناصرة صاحب الدعوة^(٤٤)).

ويقول: (وفي سوق عكاظ كانت القبائل العربية ترسل أبلغ شعرائها إعلامًا عن فصاحتها وحصافتها وقوة بيانها، وكان الفخر كل الفخر للقبيلة التي يفوز شعراؤها وخطبائها بالقدح المعلى، لا سيما إذا نالت قصيدة أحدهم شرف التعليق على الكعبة في عداد المعلقات المشهورة الماثورة، فكل تلك الندوات لم تكن في الحقيقة إلا وجوهًا للنشاط الإعلامي التي سجلها التاريخ قبل أن يتبلور الإعلام بعدة قرون)^(٤٥).

وقد كان العرب يفرحون فرحًا عظيمًا بنبوغ شعرائهم، يقول ابن رشيقي: (كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن في الأعراس وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم، وذُبُّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكورهم)^(٤٦).

٤٢- أخرجه البخاري كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد ٢ / ٩٧٨.

٤٣- فتح الباري ٥ / ٣٤٧.

٤٤- الإعلام والدعاية ص ٧٨ وقد لخص الدكتور حمزة الدور الإعلامي للشعر تلخيصًا جيدًا بدءًا من العصر الجاهلي حتى حقبة شوقي وحافظ إبراهيم.

٤٥- الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية ص ٢١.

٤٦- العمدة ١ / ١٠٣.

والشعراء يعرفون لأنفسهم هذه المكانة السامية، وأن العرب تحسب لهم ألف حساب. قال المسيب بن علس:

فلا هدينَّ مع الرياح قصيدة
ترد المياه فما تزال غريبةً
مني مغلغلةً إلى القعقعاعِ
في القوم بين تمثّل وسماعِ^(٤٧)

ويصفون خلود أشعارهم ولزومها أصحابها قال محمد بن حازم الباهلي:

أبى لي أن أطيل الشعر قصدي
وإيجازي بمختصر قريب
إلى المعنى وعلمي بالصواب
حذفت به الفضول من الجواب
فأبعثن أربعة وخمسة
خوالد ما حدا ليلاً نهاراً
وما حسن الصبا بأخي الشباب
كأطواق الحمائم في الرقاب
وهنّ إذا وسمت بهن قوماً
وهنّ إذا أقيمت مسافرات
تهادتها الرواة مع الرّكاب^(٤٨)
وقال دعبل الخزاعي:

إني إذا قلت بيتاً مات قائله
ومن يقال له والبيت لم يمّت^(٤٩)

وللتدليل والإفاضة في أهمية الشعر وتأثيره عند العرب عقد ابن رشيق في كتابه العمدة^(٥٠) باين، أحدهما بعنوان: باب من رفعه الشعر ومن وضعه، والآخر بعنوان: باب من قضى له الشعر أو قضى عليه.

وقد كان النبي ﷺ يعرف هذه الأهمية للشعر ومدى تأثيره ولذا طلب نصره الشعراء فقال قاصداً الأنصار: ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم^(٥١) ولكن مع ذلك ما كان النبي ﷺ يسمح لشعرائه

٤٧- المفضليات ص ٦٢.

٤٨- ديوان محمد بن حازم الباهلي ص ٤.

٤٩- ديوان دعبل الخزاعي ص ١٠١.

٥٠- العمدة ١/ ١٠٩- ١٣٦.

٥١- أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٣٤٢ مرسلًا عن ابن سيرين.

أن يقولوا ما شاءوا وكيفما شاءوا، بل كانت رسالتهم الإعلامية محددة الأهداف وبوسائل مدروسة بدقة، فإن الإسلام كما يقول د. حمزة لم يكن بحاجة إلى (دعاية) بل كان بحاجة إلى (إعلام) والإعلام هو إذاعة الحقائق والوقائع كما حدث بصورتها الحقيقية، وأما الدعاية فهي فن اجتذاب الجماهير ولو كان ذلك عن طريق الباطل في بعض الأحيان، والإسلام حق، والرسول حق، والقرآن حق: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٥٢). من أجل ذلك لا يستطيع التاريخ أن يفسر حركة واحدة من كلماته على أنها دعائية، ولكن يستطيع أن يفسر كل هذه الحركات والخطب والأحاديث النبوية على أنها إعلام بأكمل ما تحمل هذه الكلمة من معنى^(٥٣).

(١) التنبيه إلى ربانية التوجه، وواقعية المعالجة :

إن رسول الله ﷺ دعا لحسان بن ثابت - وهو شاعره الأول - بالتأييد الرباني، وأعلمه بمعية الروح الجبرائلي فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله، هل سمعت النبي ﷺ يقول: يا حسان أجب عن رسول الله ﷺ اللهم أيده بروح القدس؟ قال أبو هريرة: نعم^(٥٤). وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال. قال النبي ﷺ لحسان: اهجهم أو هاجهم وجبريل معك^(٥٥) من هذا نجد إشارة واضحة إلى سمو رسالة الإعلامي، وأنها متى انفصلت عن التوجيه الرباني أورثت خبالاً ووبالاً على الأفراد والمجتمعات، وما هذا التفسخ والتحلل الأخلاقي والسلوكي إلا نتيجة حتمية عندما تحولت رسالة الإعلام من رسالة مقدسة هدفها الخير للبشرية ونشر الحق، إلى وسيلة لخدمة مبادئ فكرية تجرد الإنسان من العبودية لله، أو لاتباع نزوات طارئة تكرر لعبودية

٥٢- سورة فصلت، الآية (٤٢).

٥٣- الإعلام والدعاية ص ١٦٩.

٥٤- أخرجه البخاري أبواب المساجد باب يأخذ بالنصل إذ مرّ في المسجد ١/ ١٧٣ ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حسان بن ثابت ٤ / ١٩٣٢.

٥٥- أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٣ / ١١٧٦ ومسلم باب فضائل حسان بن ثابت ٤ / ١٩٣٣.

الشهوات في أحط صورها مما ينبو عنه الذوق السليم والروح الشفاف .
 إن حسّان بن ثابت رضي الله عنه يستحضر مشاهدته مع رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجيهاته النبوية الربانية في أشعاره ورسائله، فعندما قال له قائل: لأنّ شعرك أو هرم شعرك في الإسلام يا أبا الحسام، قال: يا ابن أخي، إن الإسلام يحجز عن الكذب أو يمنع من الكذب ، وإن الشعر يزيّنه الكذب (شرح الإمام ابن عبد البر ذلك فقال: يعني إن شأن التجويد في الشعر الإفراط في الوصف، والتزيين بغير الحق، وذلك كله كذب ^(٥٦) .

(٢) اختيار الكفاءة الإعلامية المناسبة :

إن الدول والمؤسسات الإعلامية الكبرى تسعى لاستقطاب أكفأ الإعلاميين، وتبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة، فالإعلام رأس الرمح في كل نشاط يمارسه الإنسان، وهذه الحقيقة لم يغفلها رسول الله صلى الله عليه وآله فمما يقال في الحديث أنّ قائلًا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: اهج القوم الذين يهجوننا. فقال: إن أذن رسول الله صلى الله عليه وآله فعلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ عليًا ليس عنده ما يراد من ذلك ^(٥٧) إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مكانته لا تخفى في الإسلام، شجاعة، وعلمًا، وحكمة، وبلاغة، ومع ذلك لم يره النبي صلى الله عليه وآله مناسبًا لمجاوبة الرسائل الإعلامية المضادة من المشركين، وانتدب النبي صلى الله عليه وآله لذلك ثلاثة من أصحابه لهذه المهمة، وهم حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ^(٥٨) .

(٣) تقييم الرسالة الإعلامية ونقدها :

إن الكلمة تفعل أحيانًا - خاصة إذا نالت حظها الكامل من الإعداد والإخراج - ما لا تفعله الآلة الحربية، بل هي سابقة للحروب بل هي من أهم أسبابها، وقدّمًا قال نصر بن سيار ^(٥٩) .

٥٦- الاستيعاب ١ / ٣٤٦ .

٥٧- تقدم في ص ١٤ حاشية ٤ .

٥٨- الاستيعاب ١ / ٣٤٤ .

٥٩- البداية والنهاية ٣ / ٣٢، الكامل في التاريخ ٥ / ٣٣، تاريخ الإسلام ٨ / ٣٣١ .

أرى خلل الرماد وميض نار
فإن النار بالعودين تذكى
ويوشك أن، يكون لها ضرام
وإنَّ الحرب أولها كلام
وبالمقابل قد تساعد على إطفاء جذوة الحروب قبل اشتعالها.

جاء الحارث إلى رسول الله ﷺ فقال: ناصفنا تمر المدينة، وإلا ملأتها عليك خيلاً ورجالاً، فقال: حتى استأمر السعود، سعد بن عبادة وسعد بن معاذ - يعني يشاورهما - فقالا: لا والله، ما أعطينا المدينة من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام؟ فرجع إلى الحارث فأخبره، فقال: غدرت يا محمد، قال: فقال حسن:

يا حار من يغدر بذمة جاره
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم
وأمانة النهديّ حين لقيتها
مثل الزجاجة، صدعها لا يجبر
منكم فإنَّ محمدًا لا يغدر
واللؤم ينبت في أصول السخبر
قال: فقال الحارث: كفَّ عَنَّا يا محمد لسان حسن، فلو مزج به ماء البحر
لمزج، وفي رواية (يا محمد أجرتني من شعر حسن)^(٦٠).

وقد كان النبي ﷺ يدرك ذاك جيداً فعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال « اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق النبل »^(٦١) فنهض بهذه المهمة عبد الله بن رواحة فهجاهم، فلم يرض رسول الله ﷺ عن أدائه، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسن بن ثابت، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم. فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يخلص لك نسبي، فأتاه حسن ثم رجع فقال: يا رسول الله قد خلص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلتكم منهم كما تسل الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله، وقالت: سمعت رسول

٦٠- أخرجه الطبراني في الكبير ٦ / ٢٨، حديث رقم ٥٤٠٩ وإسناده حسن.
٦١- أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة - رضي الله عنهم - باب فضائل حسن بن ثابت ٤ / ١٩٣٥.

الله ﷺ يقول: هجاهم حسن فشفى واشتفى^(٦٢).

وفي هذا الخبر وقفات: منها، أن النبي ﷺ يحذر حسن وينبهه إلى مسألة الأنساب وهي قضية لها خطورتها ولا زالت في التراث العربي والإسلامي، وأمره بأخذ المعلومة من أوثق مصادرها (من أبي بكر) ومعالجتها بحذر، وفي هذا التوجيه الحكيم ما فيه، فكم من أزمات كبيرة، وخلافات نراها ونسمع عنها، نتجت عن تصريح غير مسؤول وغير محسوب العواقب من شخصيات لها تأثير كبير في المجتمعات. وأمر آخر، يقول حسن:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

هكذا، لا يريد من متاع الدنيا وسقطها شيئاً، إنما هو في سبيل الله، وهذه رسالة موجهة إلى من يبيعون الذم والأقلام، ويضحون بثواب الدين والأخلاق، في سبيل كسب رخيص يسير، ونقول للإعلاميين المسلمين: أنتم على ثغرة من أخطر ثغور الإسلام، فاحفظوا دينكم وأمتكم، ولكم من الله الجزاء، وهذا ما ظل النبي ﷺ يذكر شعراءه به، ويبشرهم برضوان من الله سبحانه، يقول رسول الله ﷺ لكعب بن مالك:

أترى الله نسى قولك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب^(٦٣)

٣- الخطابة :

يقول د. عبد اللطيف: (إن الدور الذي لعبته الخطبة الدينية، والخطبة السياسية في مجال الإعلام، ومجال الدعاية في تاريخ العرب الديني والسياسي لا يقل في خطورته عن دور القصيدة الشعرية إن لم يكن أكبر منه، والخطبة منذ ظهور الإسلام، وهي الوسيلة الأولى من وسائل الإعلام التي اعتمد عليها صاحب

٦٢- أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة - رضي الله عنهم - باب فضائل حسن بن ثابت ٤ / ١٩٣٦ .

٦٣- طبقات ابن سعد ١ / ٢٢٢ .

الدعوة - صلوات الله وسلامه عليه - في نشر الدين الجديد، وفي شرح المبادئ التي نادى بها في الجزيرة العربية^(٦٤).

وما ذكرناه من منهجية النبي ﷺ في التعامل مع شعرائه، باعتبار الشعر وسيلة مهمة من وسائل الإعلام ومن ثوابته ومن انتقائه الدقيق للعناصر المناسبة، ونقد الرسالة نجده مطابقاً تماماً في وسيلة الخطابة، وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه أولاً من أن النبي ﷺ كان يتعامل مع الإعلام بصورة مدروسة ومنهجية، فمن ناحية الاختيار ورد خبر طويل في قدوم وفد بني تميم وقولهم للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال: نعم، فقد أذنت لخطيبكم فليقم، فقام عطار بن حاجب، وخطب، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس: قم فأجبه، فقام وخطب، ثم قالوا: أئذن يا محمد لشاعرنا فقال: نعم، فقام الزبرقان بن بدر وألقى قصيدته، وكان حسّان غائباً. فبعث إليه رسول الله ﷺ ليحجبه شاعر بن تميم، فلما فرغ حسّان، قال الأقرع ابن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى له، خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا^(٦٥).

أما نقده ﷺ لمحتوى الخطبة فقد روى مسلم بن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: لبئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله^(٦٦).

إن رسول الله ﷺ لم يرض من الخطيب الجمع بين المولى عز وجل ورسوله ﷺ في قوله: (ومن يعصهما) قال النووي شارحاً وموضحاً: إن سبب النهي أن الخطب شأنها البسط والإيضاح واجتناب الإشارات والرموز. وأيد النووي رأيه هذا بقوله: إن مثل هذا الضمير قد تكرر في الأحاديث الصحيحة من كلام رسول

٦٤ - الإعلام والدعاية ص ٨٠.

٦٥ - أوردته معلقاً ابن إسحاق في السيرة النبوية ٥ / ٢٥٢، وتابع العلماء في ذكره من طريقه انظر: تاريخ مدينة دمشق ١٠ / ٢٧٤، الدر المنثور ٧ / ٥٥٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٥ / ٣١٥.

٦٦ - أخرجه مسلم كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢ / ٥٩٤.

الله ﷺ كقوله ﷺ: « أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما »^(٦٧) وحديث خطبة الحاجة وفيه « ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصمهما فإنه لا يضر إلا نفسه »^(٦٨) قال: إنما ثنَّى الضمير هاهنا، لأنه ليس خطبة وعظ، وإنما هو تعليم حكم، فكلما قلَّ لفظه كان أقرب إلى حفظه، بخلاف خطبة الوعظ، فإنه ليس المراد حفظه، وإنما يراد الاعتاظ بها^(٦٩) وللشوكاني في هذا الحديث التفاتة عقدية قال: ويمكن أن يقال: إن النبي ﷺ إنما أنكر على ذلك الخطيب التشريك لأنه فهم منه اعتقاد التسوية فنَّبَّه على خلال معتقده وأمره بتقديم اسم الله تعالى على اسم رسوله ليعلم بذلك فساد ما اعتقده^(٧٠).

أما خطب النبي ﷺ نفسه فهي نموذج يحتذى، يقول عنها كرم: هي نوعٌ من الاتصال الجمعي، اعتمد عليها الرسول ﷺ اعتمادًا كبيرًا في نشر الدعوة وفي شرح تعاليم الإسلام، ودراسة هذه الخطب من الناحية الإعلامية من العناصر المهمة في نظرية الإعلام الإسلامي، ومن نماذج خطب النبي ﷺ خطبته الأولى التي اهتزت لها أرجاء مكة، خطبته عندما صعد على الصفا، ونادى على عشيرته من قريش داعيًا إياهم إلى نبذ الوثنية واجتناب الفواحش، والإيمان بالله الواحد، ومنذراً لهم بعذاب الله للكافرين، ومن نماذج الإعلام الشديد التأثير كذلك خطبة أيام الجمعة في المسجد النبوي وفي صلاة العيدين، وخطبته الشهيرة في حجة الوداع التي لا تزال حتى الآن نموذجًا للخطب الجامعة لشؤون الدنيا والآخرة^(٧١).

٤- بعوثة ﷺ إلى الملوك والأمراء :

روى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست

٦٧- أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١ / ١٤ ومسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ١ / ٦٦.
٦٨- أخرجه أبو داود كتاب النكاح باب في خطبة النكاح ٢ / ٢٣٨.
٦٩- شرح النووي على صحيح مسلم ٦ / ١٦٠.
٧٠- نيل الأوطار ٣ / ٣٢٦.
٧١- التخطيط الإعلامي في ضوء الإسلام ص ١٢٩.

أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتباً^(٧٢) بهذه الخطوة الكبيرة انتقل الرسول ﷺ بدعوته إلى إطار أوسع، إلى العالمية، بمخاطبة الملوك والزعماء وجاب رسله أصقاع الأرض، وقد أحصاهم ابن حديدة الأنصاري فبلغوا نحوًا من خمسين رسولاً^(٧٣) وأيضًا في هذا الإطار نجد المنهجية النبوية في التعامل مع المرحلة ونوجز ذلك في الآتي:

أ- اتخاذ الخاتم :

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا أن يكون مختومًا فاتخذ خاتمًا من فضة^(٧٤). فمشى النبي ﷺ بهذا مع الأعراف الدبلوماسية آنذاك في مخاطبة الزعماء والكبراء، وقد فرغ علماء الإسلام من هذه الواقعة وأمثالها تفريعات عديدة في موثوقية نقل الأخبار والمعلومات، قال الحافظ ابن حجر: شرط قيام الحجة بالمكاتبة، أن يكون الكتاب مختومًا، وحامله مؤتمنًا، والمكتوب إليه يعرف خط الشيخ^(٧٥).

ب- أمره بتعلم اللغات الأجنبية :

وهذه خطوة أيضًا متقدمة جدًا من رسول الله ﷺ، فمن يصور له الخيال، أن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب في ظرف أقل من عشرين عامًا ترتقي لا في تعلم لغتها فحسب بل يضع لها الرسول ﷺ الأسس لدراسة اللغات الأجنبية، والسعي إلى ترجمتها إلى العربية والعكس، فعن زيد بن ثابت قال: « أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود قال: إني والله ما آمن يهود على كتاب، قال: فلما تعلمته

٧٢- طبقات ابن سعد ١/ ٢٥٨.

٧٣- المصباح المضيء ٢/ ١٤٣ وبعدها.

٧٤- أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب دعوة اليهود والنصارى ٣/ ١٠٧٤ ومسلم كتاب اللباس والزينة باب في اتخاذ النبي ﷺ خاتمًا ٣/ ١٦٥٧.

٧٥- فتح الباري ١/ ١٥٥.

كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا اكتبوا إليه قرأت له كتابهم» (٧٦).

ج- الاختيار المناسب للبعوث :

وهذا قد أشرنا إليه أكثر من مرة، في أن النبي ﷺ يختار رجال المهمات بدقة، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنه قد اختار - مثلاً - عبد الله بن حذافة رسولاً إلى كسرى لإتقانه لغتهم، وأيضاً كما قال ابن حديدة، (لأنه يتردد إليهم كثيراً) (٧٧) وهذا أخرى به أن يكون عارفاً بتقاليد وعادات القوم مما يسهل مهمة الحوار والتواصل معهم بأكثر مما يفعل غيره .

د - العناية بالشكل زيادة على المضمون :

لم يغفل النبي ﷺ مظهر الإنسان العام، ومدى تأثيره في جمهوره إن كان خطيباً أو مبعوثاً أو غير ذلك، فعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: إنكم قادمون على إخوانكم فأحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس (٧٨). يقول المناوي: (كونوا في أصلح زي وأحسن هيئة حتى تظهروا في الناس فيرونكم بالتوقير والإكرام والاحترام، كما تستملحون الشامة لئلا تحتقروا في أعين العوام والكفار، فيزدريكم أهل الجهل والضلال) (٧٩).

ما ذكرناه سابقاً يدل على أن هذه البعث لها أهداف إعلامية كبيرة عند النبي ﷺ، وقد آتت ثمارها كما أراد لها ذلك، يقول دكتور حمزة: كانت هذه البعثات النبوية حركة إعلامية من أخطر ما عرفه التاريخ، وهي من أجل ذلك تستحق دراسة خاصة من جانب العارفين معرفة جيدة بالتاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية (٨٠).

٧٦- أخرجه أبو داود كتاب العلم باب رواية حديث أهل الكتاب ٣/ ٣١٨ وأخرجه الترمذي باب ما جاء في تعلم السريانية ٥/ ٦٧. وقال: حسن صحيح.

٧٧- المصباح المضيء ١/ ١٦٦.

٧٨- أخرجه أبو داود في السنن كتاب اللباس باب ما جاء في إسبال الإزار ٤/ ٥٨ وإسناده حسن.

٧٩- فيض القدير ١/ ١٩٢.

٨٠- الإعلام والدعاية ص ٨٥.

ويقول حجازي: (إن بعوث النبي ﷺ وسراياه إلى حدود الروم وغايتها الإعلامية كانت تأمينا للحدود الإسلامية، وتخويفا للأعداء من هيبة الإسلام، وإعلاما لهم بذلك، حتى لا يفكروا في الإغارة على حدوده، ومن أجل ذلك كان لا يشتبك مع العرب إلا دفاعا عن النفس وعن الدين، وفي الوقت نفسه كانت هذه البعث الحربية التي تصل إلى حدود شبه الجزيرة العربية من ناحية الدولة الرومانية تعتبر بعوثا استطلاعية) (٨١).

٥- نقل الصورة حيّة :

إن ظهور فن التصوير الفوتوغرافي شكل نقلة نوعية هائلة في العمل الإعلامي، مما شكل بدوره انقلابا هائلا في أنماط الحياة المختلفة، فرب صورة واحدة تغني عن مئات الخطب والمقالات، ورب صورة غيرت من سياسة دولة بل دول بأكملها، فلا غرو أن تحاصر كاميرات التلفزة وأخواتها ومنعها من دخول مواطن عديدة، خاصة في ميادين الحروب والتظاهرات والكوارث، بل أحيانا تصبح هدفا للإتلاف، هذا إن لم يستهدف صاحبها نفسه.

ولكن قد يستغرب البعض - أو الكل - وحق له أن يستغرب، كيف لنا أن نتحدث عن "نقل الصورة حيّة" في زمان النبي ﷺ، ثم نعتبرها وسيلة من وسائله الإعلامية، والمعلومة البديهية ألا تصوير يومذاك أصلا!! والحقيقة لم نجد من أشار إلى هذا الأمر البتة - في حدود اطلاعنا - لا عند الإعلاميين ولا غيرهم، ونبادر قائلين بأننا لا نقصد بالتصوير ما يعرف في الأسلوب الأدبي الراقى بالتصوير الفني "أو ما يسمى" بالرسم بالكلمات" ولكننا نقصد نقل الصورة مجسدة بأبطالها وشخصها، بأصواتها بحركاتها وأصواتها، وقد ورد في السنة الشريفة ما يدل على أن قوة تأثير الرؤية والمشاهدة أكبر في النفس الإنسانية من مجرد السماع، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ ليس الخبر

٨١- منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ص ٣٣٢ نقلًا عن المرجع السابع ص ٨٥.

كالمعينة، إنَّ الله - جلَّ ثناؤه - أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت^(٨٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « ليس المخبر كالمعين »^(٨٣).

وقال الإمام العيني عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾^(٨٤). ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً، منها: إن الإنسان يعلم الشيء ويتيقنه، ولكن يحب أن يراه عياناً، وعن قتادة أن النفوس متشوقة إلى المعينة، يصدقه الحديث: ليس الخبر كالمعينة^(٨٥).

والآن لنلقي نظرة على بعض "الصور" في سنة النبي ﷺ:

أ - صورة لاستعراض عسكري :

إن "العروض العسكرية" معروفة عند كل جيوش الدنيا، صغيرها وكبيرها، ولها أهداف كثيرة، البعد النفسي ظاهر فيها جميعاً، وتنقل لنا أحياناً شاشات التلفزة بعض هذه العروض وما فيها من طاقات بشرية وعتاد الحرب، فتنبعث في نفس المشاهد أحاسيس شتى، من الخوف والأمن والدهشة والإعجاب، والحذر والتربص، والغضب والرغبة في الانتقام إلى غير ذلك من المشاعر، وفي الوقت نفسه يقوم صاحب العرض برصد رجع الصدى لتحديد الخطوات اللاحقة.

وفي سنة رسول الله ﷺ "صور" لهذه العروض العسكرية ومن ذلك ما جاء في شأن أبي سفيان بن حرب عند فتح مكة فقد روى الطبراني أن النبي ﷺ قال للعبّاس: « يا عبّاس احبس بالوادي عند حطم الجبل، حتى تمرّ به جنود الله فيراها، قال: فخرجت به حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن

٨٢- أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ٢٧١، والضياء في المختارة ١٠ / ٨٢ وابن حبان في صحيحه باب ذكر السبب الذي من أجله ألقى موسى الألواح ٤ / ٩٦ والحاكم في المستدرک ٢ / ٣٥١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١ / ١٥٣ رجاله رجال الصحيح.

٨٣- أخرجه الضياء في المختارة ٥ / ٢٠٢ وقال إسناده صحيح.

٨٤- سورة البقرة، الآية (٢٦٠).

٨٥- عمدة القاري ١٥ / ٢٦٥.

أحبسه، قال: ومرت به القبائل على راياتها، فكلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء يا عباس؟ فيقول: بني سليم، فيقول: مالي ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء فأقول: مزينة فيقول: مالي ولمزينة، حتى نفذت القبائل، يعنى جاوزت، لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء، فأقول: بنو فلان فيقول: مالي ولبني فلان، حتى مرّ رسول الله ﷺ في الخضراء، قال: سبحان الله، من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أحيك الغداة عظيماً، قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذا قلت: التجئ إلى قومك، قال: فخرج حتى جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا قريش هذا محمّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به «^(٨٦)».

لقد كانت الصورة الحسينية في بصر أبي سفيان كاملة فهو عند مضيق الوادي، تمرّ عليه رايات القبائل، تثير النقع في السماء، ممزوجة بصوت الخطوات العسكرية القوية، وغمغمة الأبطال المتلهفة للقتال، وكل راية تمر تهز من أوتار قلبه (مالي ولبني فلان). وانظر إلى وصف كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء (لا يرى منهم سوى الحدق) فما ملك أبو سفيان إلا التسبيح إعظاماً لما يرى، هذه «الصورة» المحسوسة، لطبور العرض هذا، أثمرت النتيجة التي يريدتها أي قائد عسكري في مجابهة قادة الجيوش المقاتلة الأخرى، لقد قال أبو سفيان وهو قائدٌ - وأيُّ قائدٍ - هذا محمّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به.

ب- صورة المؤمن القوي الصحيح :

ما تفتأ وسائل الإعلام وخاصة المرئية، بين حين وآخر - تنقل لنا في نشرات الأخبار والتقارير المصورة والأفلام التسجيلية صوراً لجماعات من البشر، قد هزهم الثالث الخطير: الجهل والفقر والمرض، رؤوسهم أكبر من أجسادهم، قد اتسعت عيونهم لتغطي مساحات خدودهم، لا تدري وأنت تنظر، هل ترى

٨٦- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨ / ٩ وإسناده حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ / ١٦٧: رجاله رجال الصحيح.

أضلاعهم من فوق جلودهم أم جلودهم من فوق أضلاعهم، الأجساد هامة، والأنفاس مقطعة - وهذه الصورة غالبها إن لم نقل كلها - على الأقل فيما تابعته - هي في بلاد المسلمين، حيث الحروب الأهلية، والنزاعات القبلية، والكوارث الطبيعية، ثم تُسَوَّق هذه الصورة على نطاق واسع - على أن هذا هو واقع الإسلام والمسلمين - من منظمات شتى لخدمة ملفات خاصة، قطعاً ليس فيها خدمة الإسلام كدين، وأهله كشعوب إنسانية لها الحق في العيش بكرامة الإنسان، التي نص عليها كتابهم الكريم.

هذه الصورة السالبة ينبغي أن تُمَحَى وتزال بما هو أفضل وأجمل، كما فعل رسول الله ﷺ، فيما نسميه بحديث الرمل والاضطباع^(٨٧) فإنه يعلمنا ﷺ على أن نجعل "صورة" المسلم في عين الآخر جاذبة ومقنعة بأن هذا الدين لا يفصل بين قوة الروح وقوة الجسد كيف وهو القائل: « المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير »^(٨٨).

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قدم رسول الله ﷺ مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب، فقال المشركون، إنه يقدم عليكم قوم، قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شراً، فأطلع الله سبحانه، نبيه ﷺ على ما قالوه، فأمرهم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين، فلما رأوهم رملوا، قالوا: هؤلاء الذين ذكرتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلدٌ منا (وفي رواية) وكانوا إذا بلغوا الركن اليماني، وتغيبوا من قريش ثم يطلعون عليهم يرملون، تقول قريش: كأنهم الغزلان^(٨٩) وفي صحيح ابن حبان (أنهم أكلوا حتى تضلعوا شبعاً فلمّا دخل

٨٧- الرمل: يقال: رمل يرمل رملًا ورملانًا، إذا أسرع في المشي وهزَّ منكبيه (النهاية في غريب الحديث ٢ / ٢٦٥)، والاضطباع: هو أن يجعل وسط رداثة تحت منكبه الأيمن، وي طرح طرفيه على منكبه الأيسر، ويكشف الأيمن: المجموع شرح المذهب ٨ / ٢٠) .

٨٨- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب في الأمر بالقوة ٤ / ٢٠٥٢ .

٨٩- حديث الرمل، في صحيح البخاري كتاب الحج ٥٤ - باب كيف كان بدء الرمل ٢ / ٥٨١ وفي صحيح مسلم كتاب الحج باب استحباب الرمل في الطواف ٢ / ٩٢١ وأبو داود في السنن كتاب المناسك باب الاضطباع في الطواف ٢ / ١٧٧ (واللفظ له) .

رسول الله ﷺ على قريش، واجتمعت قريش نحو الحجر، اضطجع رسول الله ﷺ، ثم قال النبي ﷺ لأصحابه: (لا يرى القوم فيكم غميمة)^(٩٠) وفي الثقات لابن حبان (رحم الله امرأة أراهم من نفسه قوة)^(٩١).

إذن صورة المسلم عند مشركي مكة، صورة المرض والوهن فأراد النبي ﷺ تغيير هذه الصورة، بصورة المسلم القوي المتماسك، الصحيح المعافى، فأمرهم - بعد أن دعا لهم بالبركة في طعامهم - أن يتضلعوا استكمالاً للقوة البدنية، ودعا بالرحمة لكل من أظهر هذه القوة.

ثم ننتقل إلى مسرح الأحداث، فبحسب روايات الحديث استفدنا منها أن المشركين قد حصروا مكان جلوسهم لمشاهدة النبي ﷺ وأصحابه، في مواجهة الكعبة من ناحية الميزاب وحجر إسماعيل، ولم يتوزعوا في أنحاء الحرم، وقد استفاد النبي ﷺ من حصر المشركين أنفسهم في هذا المكان تحديداً، واستغله أكمل استغلال، وذلك بأنه يرمل ويأمر أصحابه بالرمل ما داموا في رمى أبصار المشركين أما إذا ما بلغوا الركن اليماني وتغيّبوا عنهم، فإنهم يمشون المشي العادي، وعليه يجب أن تكون " الصورة " عند الإعلامي المسلم صاحب الرسالة، ذات أهداف سامية ورفيعة ولا ينبغي أن تخرج إلى أي نوع من أنواع الاستهلاك، وإهدار الطاقات فيما لا فائدة فيه. جاء في بدائع الصنائع: قال سعيد بن جبير، وعطاء ومجاهد وطاووس رضي الله عنهم: (لا يرمل بين الركن اليماني وبين الحجر الأسود، وإنما يرمل من الجانب الآخر) قال الكاساني معلقاً: وجه قولهم: إن الرمل في الأصل، كان لإظهار الجلادة للمشركين، والمشركون إنما كانوا يطلعون على المسلمين من ذلك الجانب، فإذا صاروا إلى الركن اليماني لم يطلعوا عليهم بصيرورة البيت حائلاً بينهم وبين المسلمين)^(٩٢) وفي هذا السياق نفهم ما

٩٠- أخرجه ابن حبان كتاب الحج باب ذكر العلة التي من أجلها رمل ﷺ ٩ / ١١٩، والغميمة: العيب، يقال: ليس في فلان غميمة، ولا غمميز، ولا غمزم أي ما فيه ما يغمز فيعاب به، ولا مطعن، والمغامز: المعايب (لسان العرب ٥ / ٣٩٠).

٩١- الثقات لابن حبان ٢ / ٢٧.

٩٢- بدائع الصنائع ٢ / ١٤٧.

ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: فيم الرمضان اليوم، والكشف عن المناكب وقد أطأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله، مع ذلك، لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٩٣) ولهذا السبب أفتى مالك بعدم مشروعيتها، قال النووي: قال مالك: لا يشرع الاضطباع لزوال سببه ^(٩٤).

وأخيراً نقول قد أثمر جهد النبي صلى الله عليه وسلم في تغيير تلك الصورة السلبية للمسلم عند المشركين، وغيرها إلى الموجب حتى قال المشركون (هؤلاء أجلد منا) فليت أننا نسعى جميعاً والإعلاميون في المقدمة لتغيير الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين في أذهان وأعين باقي شعوب الأرض - وما التوفيق إلا من عند الله -

ج - صورة مأساة اجتماعية :

صورة لأسرة تصدع بيتها، بفعل كارثة طبيعية أو عدوان ظالم، ومن المشاهد فيهاربُ الأسرة يجلس ومن حوله أثاث بيته يتناثر هنا وهناك، ينكت الحصى ولا يدري ما هو فاعل، وأسرته أصبحت بلا مأوى، الناس تمرُّ به، يقاسمونه الأحزان والهموم، وكلُّ منهم يعينه على قدر طاقته، ولو بالدعاء. رأينا ورأى الناس هذه الصورة المأساوية عبر الشاشات الصغيرة والكبيرة، كثيراً وكثيراً جداً فتذرف الدموع وتنقطع نياط القلوب.

وقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس هذه الصورة ليس بالقول ولكن حية مشاهدة، فقد روى الإمام الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فشكا إليه جاره، فقال: يا رسول الله، إن جاري يؤذيني فقال: أخرج متاعك فضعه على الطريق، فأخرج متاعه فوضعه على الطريق، فجعل كلُّ من مرَّ عليه قال: ما شأنك؟ قال: إني شكوت جاري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرني أن أخرج متاعي فأضعه على الطريق، فجعلوا يقولون: اللهم العنه، اللهم أخزه، قال: فبلغ ذلك الرجل فأتاه، فقال: ارجع فوالله

٩٣- أخرجه أبو داود كتاب المناسك باب الاضطباع في الطواف ١٧٨ / ٢، وإسناده حسن فيه هشام بن سعد صدوق.

٩٤- المجموع شرح المهذب ٢٢ / ٨.

لا أؤذيك أبدًا^(٩٥). وفي رواية ابن حبان أن النبي ﷺ قال للرجل: (اصبر ثلاث مرات، ثم قال له في الرابعة أو الثالثة: أخرج متاعك).

إن رسول الله ﷺ في مثل هذه المواقف كان له معالجات شتى، فهو أحياناً ينادي الخصم ويكلمه هادياً ومرشداً، ومحذراً ومنذراً، وفي أحيان أخرى يجمع الناس ويخطب فيهم بموضوع قضية الساعة وحدثها، وفي أخرى يبعث مندوباً إلى أصحاب المشكلة محملاً إياه وصاياه وإرشاداته، ولكنه ﷺ في هذا الموقف - الرجل مع جاره - عاجله بصورة مختلفة تماماً، فإنه أمره بالصبر على جاره وسلوكه المعوج ثلاث مرات، فلما أثبت الرجل (المسيء لجاره) بهذا السلوك أنه لم يراع ما ورد من آيات وأحاديث تحث على حسن الجوار، وصدق الإخاء وتحذر من عقوبة المخالف لهذه التعاليم، لما كان ذلك كذلك، أمر النبي ﷺ الرجل المظلوم، بأن ينقل صورة الظلم والعدوان المعنوية إلى صورة حسية مجسمة تدرك بالبصر، وتنفذ كالسهم إلى البصيرة، وتصعق هذا الظالم وأمثاله فتوقظ فيهم ما نام من ضمير، وما توارى من حقوق الإخاء في الإسلام، فكانت ردة الفعل من المجتمع المؤمن الدعاء على الظالم ولعنه وكانت الاستجابة، ويقظة الضمير (ارجع والله لا أؤذيك أبدًا).

د - صورة للتأله^(٩٦):

حدثني صديق وهو مسؤول في بلده أنه - قبل عقد من الزمان - كان على متن طائرة، ولما أصبحوا على مشارف الوصول، نبأهم الطيار بتعذر الهبوط جراء سوء الأحوال الجوية، ونسبة لأنهم كانوا أقرب إلى الأجواء السعودية فقد أُذِن

٩٥- أخرجه الحاكم كتاب البر والصلة ٤ / ١٨٣ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شاهد آخر على شرط مسلم. وأخرجه ابن حبان باب ذكر ما يجب على المرء من التعبير عند أذى الجيران إياه (٢ / ٢٧٨) وأبو يعلى في المسند ١١ / ٥٠٦ قلت: والشاهد الذي أشار إليه الحاكم، أخرجه هو نفسه عن أبي جحيفة ٤ / ١٨٣ والطبراني في الكبير ٢٢ / ١٣٤.

٩٦- التأله: التنسك والتعبد، قال روبة:

لله درُّ الغايات المهدَّة

سبحن واسترجعن من تألهي

والتأليه: التعبيد - انظر: تاج العروس ٣٦ / ٣٢٤.

لهم بالتحليق ريثما تتحسن الأحوال في مطار الوصول، ويبدو أن القبطان انتهزها سانحة وأراد أن يقدم للمسافرين هدية ثمينة، فخاطبهم عبر مكبرات الصوت قائلاً: نحن الآن نحلق فوق مدينة رسول الله ﷺ، وسأقوم بالهبوط إلى أدنى مدى يمكنكم فيه مشاهدة ثاني الحرمين الشريفين، تجدون المسجد والقبة الخضراء ظاهرة على الجانب الأيسر من الطائرة، حدثني هذا الصديق قائلاً: والله لقد هرع الناس إلى نوافذ الطائرة، يمعنون النظر، ويمتعون العين من مسجد رسول الله ﷺ. وقد علا نحيبهم وبكاؤهم ونشيجهم. إنها الأشواق إلى رسول الله ﷺ وهذه العواطف الفياضة تضطرم في نفس المسلم، حتى - وإن كان عاصياً - وهو يرى عبر التلفزة حجاج بيت الله الحرام في إحرامهم الأبيض الناصع يزحفون بالملايين بين المشاعر المقدسة، وكم من الناس قد بكى سائلاً الله أن يكتبه في العام القابل منهم، وكذلك نقل صلاة التراويح والتهجد وإحياء ليلة القدر من هذه المشاعر. هذه الصور تنطق بذاتها وتلقي محاضرات وأي محاضرات، الإنسان يستمتع لها وينصت بـ (عينيه) لا بأذنيه.

هذه الصور الوجدانية، استثارها رسول الله ﷺ في ساعة حرجة من ساعات الدعوة الإسلامية، وذلك في مفاوضات الحديبية، حين أصبح رؤساء القوم يفدون على رسول الله ﷺ، جاء في السيرة (ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى. وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصدّ عن بيت الله من جاء معظمًا له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد) (٩٧).

٩٧- أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٣٨٧، حديث رقم ٣٦٨٥٥ مرسلًا عن عروة بن الزبير والحديث في السيرة لابن إسحاق ٤/ ٢٩٧ عن الزهري مرسلًا (واللفظ له) وفي الثقات لابن حبان ١/ ٢٩٨.

إن رسول الله ﷺ مع تسديد المولي - عز وجل - إياه بالوحي كان خبيراً بصيراً بخبايا النفس الإنسانية عند مستقبلي رسائله، فقد فاضه، مركز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهما، ولكنه ﷺ لم يلجأ إلى إثارة عاطفة التدين والعقيدة إلا عند الحليس، وكانت النتيجة الباهرة كما رأينا، أن أصبح الرجل في جانب المصطفى ﷺ، وإن لم يشهر الإسلام.

المبحث الثاني

الرأي العام في السنة المشرفة

المطلب الأول : بناء الرأي العام في السنة ووسائله :

إن كل العمليات الإعلامية والاتصالية تصب في نهاية أمرها في جانب تكوين الرأي العام، ولذا ذهب البعض إلى اعتباره « جوهر » الاتصال . يقول البروفيسر قويسى : (جوهر الوظيفة الاتصالية للدولة الحديثة هي عملية تكوين الرأي العام وتشكيله، وذلك بجوانبها المختلفة أو وظائفها الفرعية، ومحورها: تكوين الرأي العام في مجتمع معين، لكي يكون صالحاً للقيام بأدواره أو وظائفه التي تحددها الدولة سواء كان ذلك على الصعيد الداخلي أو الخارجي، والأصل أن تكون الدولة تعبيراً عن المجتمع وتنبع وظائفها من مفهوم ثابت، هو حماية القيم الحضارية، فالدولة أداة الاتصال بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهي تعبير عن الماضي بلغة القيم، وعن الحاضر بلغة المصالح، وعن المستقبل بلغة الاستمرارية)^(٩٨).

وفي النظرة الإسلامية للرأي العام، نجدها لا تقل أبداً عن نظيرتها في الدول الحديثة (فالرأي العام في الإسلام سلطة لها وزنها الكبير في التوجيه والإرشاد، ومقاومة الشر والفساد، والوقوف في مواجهة الظلم والطغيان، وفي حراسة القيم

٩٨- نظرية الرأي العام: عقل الجماهير بين التشويه السياسي وانتفاضة الوعي (مقال على الإنترنت).

الإسلامية وصيانتها، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي تضامن الأمة وتعاونها على البر والتقوى، وفي رفع الروح المعنوية، وإعلاء كلمة الله، وفي تأييد الحق ومقاومة الباطل»^(٩٩).

وسائل بناء الرأي العام في السنة :

إن تكوين الرأي العام في سنة المصطفى ﷺ تكوينًا إيجابيًا حتى خدّم الدعوة إلى الله فشرّقت وغرّبت كان نتيجة أمرين مهمين:
أولاً: إدراك الرسول ﷺ - وهو المؤيّد بالوحي - لأهمية العملية الإعلامية عامة، والرأي العام خاصة، ولذا سعى سعيًا حثيثًا في هذا الجانب، محجّمًا الأدوار السالبة ومحركًا للأدوار الإيجابية.

ثانيًا: والأمر الآخر التنظيم الدقيق المدروس، وقد أشرنا إلى خطط النبي صلى الله عليه وسلم، وسيأتي مزيد بيان لذلك. وفي هذا السبيل اتخذ رسول الله ﷺ وسائل وإجراءات عدة يمكن الإشارة إلى أصولها، وتدرج تحتها تفرّعات عديدة، هذه الوسائل أسهمت إسهامًا كبيرًا جدًّا في بناء رأي عام لا نقول إيجابيًا فحسب بل هو أقرب إلى أن يكون موحدًا أو كما تعبر العرب: (كأنما رمي عن قوس واحدة) فقد استطاع الرسول ﷺ أن يوحد الأمة فكأنها نفس واحدة، كيف وهو القائل: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائل الجسد بالسهر والحمى)^(١٠٠) وقوله ﷺ: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا»^(١٠١).

والآن نستعرض بعض هذه الوسائل، ضمن ذلك:

١ - توحيد مصدر التلقي :

وقد أشرنا في المبحث السابق إلى حرص رسول الله ﷺ على أخذ أصحابه من

٩٩- السياسات الاتصالية والإعلامية في العالم الإسلامي ص ٦.
١٠٠- أخرجه مسلم كتاب البر والصلوة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ٤ / ١٩٩٩.
١٠١- أخرجه البخاري كتاب المظالم باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢ / ٨٦٣ ومسلم باب تراحم المؤمنين ٤ / ١٩٩٩.

القرآن الكريم والسنة المشرفة، ومنعهم عن الأخذ من أهل الكتاب، وفي ذلك حصانة فكرية لجماعة هي النواة الأولى للدين الخاتم.

٢- الشورى أو توحيد القرارات :

إن مبدأ الشورى من أهم مبادئ الإسلام، وهو الحصن الثاني للأمة بعد حصنها الأول، وهو الاعتصام بالكتاب والسنة، فكما أسلفنا فإن المرجعية الأولى للفكر الإسلامي في هذين المصدرين، وفيهما من قواطع الأدلة، وثوابت الدين وأصوله ما لا يجوز الحياد عنه أو التنازل عنه بحال، وهذا ما اصطلحنا عليه بالمبادئ المهيمنة . وهذه وإن كان لا يجوز الاجتهاد معها، لكن يجوز الاجتهاد في منهجية تنزيلها على أرض الواقع كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حدّ السرقة عام الرمادة، وكما قبل الجزية من نصارى بني تغلب بشرط رآه لا يخل بثابت من ثوابت الدين، هذه القضية - كيفية التعامل مع قواطع الأدلة من المصدرين - وغيرها من قضايا الإسلام تحتاج إلى " الشورى " بين أهل الشأن وأهل الحل والعقد. فإذا التزمت الأمة بهذين المبدأين (مصدر التلقي، والشورى) فإن نتاج ذلك تضيق هوة الخلاف إلى أقل درجة ممكنة يقتضيها تفاوت مدركات الناس، أو ما يسمى في العلوم النفسية والتربوية بالفروق الفردية.

إن الذي ذكرناه من توحيد لمصدر التلقي وتوحيد القرارات هو ما نص عليه المولي - عز وجل - في كتابه العزيز وفي سورة واحدة، يقول تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ^(١٠٢) فهنا المصدرية ثم قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ^(١٠٣). وهاهنا الشورى.

١٠١- أخرجه البخاري كتاب المظالم باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ٢ / ٨٦٣ ومسلم باب تراحم المؤمنين ١٩٩٩ / ٤.

١٠٢- سورة الشورى، الآية (١٠).

١٠٣- سورة الشورى، الآية (٣٨).

بل أمر نبيه ﷺ - وهو المؤيد بالوحي - بمشاورة أصحابه. قال تعالى: ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾^(١٠٤) وطبق النبي ﷺ هذا التوجيه تطبيقًا تامًا فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (ما رأيت أحدًا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ)^(١٠٥). وقد شاورهم ﷺ في مواقف مشهودة مشهورة مثل بدر وأحد والحديبية وغيرها كثير.

وشجع النبي ﷺ الأمة على المشاركة بالرأي، بل سمى عدم إبداء وجهة النظر في قضايا الأمة " احتقارًا للنفس ". فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يحقر أحدكم نفسه، قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله - عز وجل - له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فيأي كنت أحق أن تخشى »^(١٠٦).

أما عن الخلفاء الراشدين والشورى فقد لخص ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري فليُنظر^(١٠٧).

٣- تملك الحقائق للجمهور:

إن انتشار المعلومات الكاذبة، أو المفاهيم الخاطئة والإشاعات المغرضة، يسهم إسهامًا فعالاً في تفتيت المجتمعات مهما كانت متماسكة، وبلبلة الأفكار وإن كانت راشدة، مما يؤثر بالتالي تأثيرًا مباشرًا على الرأي العام، والقرآن الكريم والسنة المشرفة ذاخران بنصوص وتوجيهات، في التثبت من الأنبياء قبل إذاعتها، ومحاربة الشائعات وكيفية التعامل معها، وللأسف في واقعنا المعاصر يجد

١٠٤- سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

١٠٥- أخرجه ابن حبان باب، ذكر ما يستحب للإمام استعمال المهادنة ١١/ ٢١٧ والبيهقي في كتاب النكاح باب: ما أمره الله تعالى في المشاورة ٧/ ٤٥. وهو مرسل، أرسله الزهري عن أبي هريرة.

١٠٦- أخرجه ابن ماجة كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢/ ١٣٢٨ وعبد بن حميد في المسند ١/ ٣٠٠. وإسناده صحيح.

١٠٧- فتح الباري ١٣/ ٣٤٣.

الراصد لوسائل الإعلام بمختلف أنواعها أن طائفة كبيرة جداً منها لا تتحرى الدقة في نقل الأخبار، هذا إن لم نقل رأساً أنها تلفق وتنشر الأكاذيب والأوهام لتضليل الرأي العام، وقد عرف علماء الاتصال الشائعة بأنها: الترويج لخبر مختلق لا أساس له من الواقع، أو تعمد المبالغة أو التشويه في سرد خبر فيه جانب ضئيل من الحقيقة أو إضافة معلومة كاذبة، أو مشوهة لخبر معظمه صحيح، أو تفسير خبر صحيح والتعليق عليه بأسلوب مغاير للواقع أو الحقيقة، وذلك بهدف التأثير النفسي في الرأي العام المحلي أو الإقليمي، أو العالمي، أو القومي تحقيقاً لأهداف سياسة أو اقتصادية أو عسكرية (١٠٨).

وانظر في حديث الرسول ﷺ يقول: إذا قال الرجل هلك الناس، فهو أهلكهم (١٠٩) إنه ﷺ يمنع من تهويل المعلومات وتحميلها أكثر مما تحمل، قال النووي: روى (أهلكهم) على وجهين مشهورين: رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر، ومعناها أشدهم هلاكاً، وأما رواية الفتح، فمعناها هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة (١١٠).

وفي دراسة السنة المشرفة نجد نوعاً مما ذكرناه سابقاً، ومن أخطرها إشاعات هزت المجتمع المسلم آنذاك هزّ الزلزلة أعصاب الأرض، كل منها يستحق دراسة متوسعة تبين المنهج الإسلامي في التعامل معها، ولكن نجتزئ منها حادثة واحدة وهي (إشاعة تطليقه نساءه ﷺ) فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه في حديث طويل قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهم من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ... الحديث وفيه (فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته، فرجع إلينا عشاءً، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أثم هو؟ ففزعت فخرجت إليه فقال: قد حدث اليوم أمرٌ عظيم. قلت: ما هو؟ أجاء غسان؟ قال:

١٠٨- الاتصال والرأي العام ص ١٢١.
١٠٩- أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب فضل الضعفاء والخاملين ٤ / ٢٠٢٤.
١١٠- شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ / ١٧٥.

لا بل أعظم من ذلك وأهول، طلق النبي ﷺ نساءه (١١١). وفي هذه وقفات:
أ- قال الحافظ ابن حجر: هو محمول على أنهم شاع بينهم ذلك، من شخص بناه
على التوهم الذي توهمه من اعتزال النبي ﷺ نساءه فظن لكونه لم تجر عاداته
بذلك أنه طلقهن، فشاع ذلك فتحدث الناس به، وأخلق لهذا الذي ابتداءً
بإشاعة ذلك أن يكون من المنافقين (١١٢).

ب- هذه الإشاعة سببت همًا عظيمًا، وحزنًا عميقًا في قلوب المؤمنين فرابط
بعضهم عند منبر رسول الله ﷺ ينكتون الحصى ويبيكون، وينتظرون الخبر
اليقين.

ج- إن تطلق النبي ﷺ نساءه عند الصحابة - رضوان الله عليهم - أعظم وأخطر من
طروق ملك الشام الغساني بجيوشه المدينة لغزو من بها وذلك كما قال الحافظ
ابن حجر: وكان ذلك بالنظر إلى أن الأنصاري كان يتحقق أن عدوهم لو
طرقهم مغلوب ومهزوم، واحتمال خلاف ذلك ضعيف، بخلاف الذي وقع بما
توهمه من التطلق الذي يتحقق معه حصول الغم، وكانوا في الطرف الأقصى
في رعاية خاطره ﷺ (١١٣).

د- حسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الإشاعة، فسأل النبي ﷺ وهو صاحب الشأن
الأول، والمصدر الأساس للتأكد من المعلومة: أطلقت نساءك؟ فقال: لا، قال
عمر: - كما جاء في رواية مسلم - فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى
صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه .

ه- بعد هذه الحادثة نزل قول الله تعالى ينعى على الناس إذاعة الأخبار وإشاعتها
من غير تثبت، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ
وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ

١١١- أخرجه البخاري كتاب النكاح باب موعظة الرجل ابنته ٥ / ١٩٩٢ ومسلم كتاب الطلاق باب في الإيلاء
١١٢/٢.

١١٢- فتح الباري ٩ / ٢٩٣.

١١٣- فتح الباري ٩ / ٢٩٣.

١١٤- سورة النساء، الآية (٨٣).

وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٤﴾

قال الزبيدي: إذاعة الخبر هو إظهاره وإفشاؤه، فيذهب كل مذهب، والمذيع من لا يكتم السر أو من لا يستطيع كتم خبره (١١٥).

يقول سيد قطب: الصورة التي يرسمها هذا النص هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة، وفلته لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدرك بعد وقوعه بحال، أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر، وهكذا لا يعينهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك وإذاعتها، حيث يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف، فكلتاها قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة، فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهب متيقظ متوقع لحركة من العدو، إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تحدث نوعاً من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة، لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية، كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة، قد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكاً وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف، وقد تكون كذلك القاضية (١١٦).

لقد ذكر علماء الاتصال طرق مكافحة الشائعات. نوجزها في الآتي:

أولاً: قتل الشائعة بشائعة أخرى أكبر منها حجماً.

ثانياً: القضاء على الشائعة بالمعلومات.

ثالثاً: تكذيب الشائعة بإثبات عكسها دون الإشارة إلى الشائعة أصلاً (١١٧).

١١٤ - سورة النساء، الآية (٨٣).

١١٥ - تاج العروس ٢١ / ٢١.

١١٦ - في ظلال القرآن ٢ / ٤٦٧.

١١٧ - انظر مدخل إلى الاتصال والرأي العام ص ١٢٢ وبعدها.

وفي السنة مكافحة الشائعة كما أسلفنا تكون بتمليك المعلومات للجمهور بعد الرجوع إلى أهل العلم. وقد فسر العلماء قوله تعالى: ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(١١٨) أي أولي الفقه في الدين والعقل، وبعضهم فسرهما بالأمر، وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾^(١١٩) يعني عن الأخبار، وهم الذين ينقرون عن الأخبار، وقال مجاهد: الذين يسألون عنه ويتحسسونه^(١٢٠).

إن المنهج الإعلامي الذي يرتضيه الإسلام في محاربة الإشاعة هو العمل على إشاعة الأخبار الحقة دحضًا ووادًا للأخبار الباطلة، وما يدل على ذلك أيضًا:

ما رواه ابن عبد البر في التمهيد بإسناده عن أنس قال: لما جاءت وفاة النجاشي إلى رسول الله ﷺ قال لأصحابه: صلوا عليه فقام رسول الله ﷺ وقمنا معه فصلى عليه فقالوا: صلى على علق مات: فنزلت: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(١٢١) وفي المعجمين الكبير والأوسط للطبراني عن أبي سعيد أن الذي طعن بذلك فيه كان منافقًا^(١٢٢) قال الحافظ ابن حجر الظاهر أنه خرج بالمسلمين إلى المصلى لقصد لكثير الجمع الذين يصلون عليه، ولإشاعة كونه مات على الإسلام، فقد كان بعض الناس لم يدركونه أسلم^(١٢٣).

أما معالجة الإشاعة بإشاعة أخرى باطلة فهذا يتنافى مع الخلق الكريم، وتعاليم الدين القويم فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أشاع على امرئ مسلم كلمة باطل يشينه بها في الدنيا، كان حقًا على الله أن يذيه بها من النار حتى يأتي بنفاذها»^(١٢٤).

١١٨- سورة النساء، الآية (٥٩).

١١٩- سورة النساء، الآية (٨٣).

١٢٠- الدر المنثور ٢ / ٦٠٠ وبعدها.

١٢١- سورة آل عمران، الآية (١٩٩) والحديث في التمهيد ٦ / ٣٣٠. وأسند ابن أبي حاتم في التفسير

٨٤٦ / ٣ واستشهد به الحافظ في الفتح ٣ / ١٨٨.

١٢٢- فتح الباري ٣ / ١٨٨.

١٢٣- المصدر نفسه ٣ / ١٨٨.

١٢٤- أخرجه ابن وهب في الجامع في الحديث ١ / ٣٩٠ وسنده حسن.

المطلب الثاني: الرأي العام في السنة والمبادئ المهيمنة:

إن الرأي العام عند النبي ﷺ له أهميته، وكان يسعى لصناعته وفق منهاج عام يتسق مع سائر المناهج الإسلامية، ولا يعتبره رأياً عابراً لتحقيق مكاسب زمانية ومكانية ضيقة، وقد وجدناه ﷺ يراعي الرأي العام في مواقف معينة غير أنه لم يلتفت ولم ينحرف معه في مواطن أخرى.

ومن هنا تبرز أسئلة بالغة الأهمية، ما هي حدود الممكن والمستحيل في التعامل الجماهيري، ومتى وكيف يكون التصرف الأمثل؟ هل يكون بالمجابهة والمواجهة في كل الأوقات، أو بالمهادنة واللين في وقت دون الآخر؟ ثم ما هي الضوابط والمعايير التي تضبط ذلك كله؟

هذه الأسئلة تشكل محاور لدراسات مشتركة، فقهية شرعية، ونفسية اجتماعية، واتصالية إعلامية، بتضافر الجهود وتلاقح الأفكار فيها نجعلها تصب في رصيد الإسلام كسباً إيجابياً في مجال الدعوة والإعلام، وفي هذا المبحث نضيء إضاءة سريعة على سنة الرسول ﷺ في مثل هذه المواقف تشكل نقطة انطلاق لبحوث أكبر وأشمل، ونشير في ذلك نقطتين:

أولاً: مواقف المفاصلة والحسم:

إن هناك مبادئ في الإسلام، تشكل لحمته وسداه، وعلامة فارقة بينه وبين المذاهب السائدة على ظهر الأرض، لا يجوز التنازل عنها أو المساومة فيها، ومن ذلك أفراد الله سبحانه بالوحدانية والدعوة إلى ذلك، وهي أول وأجل مسائل الاعتقاد في الإسلام، وقف فيها النبي ﷺ مواقف غاية في الصلابة والقوة، أخرج أصحاب السير محاورته ﷺ مع عمه أبي طالب في مكة فقال: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر ﷺ فبكى ثم قام^(١٢٥).

١٢٥- الحديث أخرجه ابن إسحاق في السيرة ٢/ ١٠١، وإسناده معضل فهو عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قرئوا الحديث ويعقوب من الطبقة السادسة (انظر تقريب التهذيب ١/ ٦٠٨) وعن ابن إسحاق أخذه سائر من صنف بعده راجع تاريخ ابن جرير الطبري ١/ ٥٤٥، وتاريخ ابن الوردي ١/ ١٠٠ وتاريخ الإسلام ١/ ١٤٩ والبدء والتاريخ ٤/ ١٤٨ والبداء والنهاية ٣/ ٤٩ وغيرها.

فهذا مبدأ لا يمكن التنازل عنه لا من قبل النبي ﷺ ولا عمن يأتي من بعده من أمته، من علماء ودعاة وغيرهم، وكانت المفاصلة أيضاً قاطعة في سورة الكافرون يقول ابن كثير: هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون وهي آمرة بالإخلاص فيه فقله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾^(١٢٦) يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ أن يتبرأ من دينهم بالكلية^(١٢٧).

وهذا المبدأ ماض كذلك في التعامل مع أهل الكتاب يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾^(١٢٨).

ومبدأ آخر هو مبدأ المساواة - هذا المبدأ الذي نتغنى وتنادى به الحضارات المعاصرة وتملاً أركان الدنيا به ضجيجاً وعجيجاً ثم يصدق فيها المثل السائر (أسمع جعجعة ولا أرى طحناً) بينما هو عند رسول الإسلام ﷺ من المبادئ المهمة التي لا حياد عنها أبداً فعن - عائشة رضي الله عنها - أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها^(١٢٩).

هذه هي المبادئ، وهكذا يكون التمسك بها، حين تمس العقيدة أي مساس،

١٢٦ - سورة الكافرون، الآية (١).

١٢٧ - تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦١.

١٢٨ - سورة البقرة، الآية (١٢٠).

١٢٩ - أخرجه البخاري كتاب الأنبياء باب حديث الغار ٣ / ١٢٨٢ ومسلم كتاب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره ٣ / ١٣١٥.

وحين يتعرض الشرع الحنيف لمحاولة التبديل والتحريف، فلا مراعاة لقول قائل مهما كان وزنه أو موقعه، ولا اعتبار لرأي عام أو خاص، وهذا المنهج - التمسك بالمبادئ وعدم المحاباة فيها - يكون له آثارٌ إيجابية في أحيان كثيرة عند الطرف الآخر، أقلها احترام الثابت على مبادئه وإجلاله على العكس ممن يبيعونها جراء عرض زائل، ولنا أسوة في جعفر بن أبي طالب وإخوانه ومواجهتهم النجاشي رغم كيد القرشيين وسعيهم في الوقيعة بينهم، عندما أرسل إليهم سائلاً عن الإسلام عامة، وعن قول المسلمين في المسيح عيسى عليه السلام خاصة، فتشاوروا فكان الموقف الحاسم: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائناً، في ذلك ما هو كائن وقال جعفر عن عيسى عليه السلام، نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، نقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول (١٣٠) وكان النتيجة إسلام النجاشي ونصرته الإسلام والمسلمين.

وينبغي هنا التنبيه إلى أمر مهم، وهو أن التمسك بالمبادئ والثبات عليها لا يعني بالضرورة عدم الاستماع إلى الآخر، أو إغلاق أبواب الحوار، والقصور في تبليغ الرسالة بكل سبيل ممكن، وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأمرين في موقف واحد، فهو في الحديدية يقول: (والذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي) ولكن في الوقت نفسه يقول وشافعاً قوله بالقسم أيضاً: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمت الله، إلا أعطيتها إياهم» (١٣١).

ثانياً: مواقف تأليف القلوب:

إن الذي يسمع حديث رسول الله ﷺ: «إن الله لم يعثني معنئاً ولا متعنئاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً» (١٣٢) يعلم أن منهج رسول الله ﷺ في تبليغ هذا الدين، التيسير، والتلطف، بل كان يحزنه ﷺ ويعز عليه أن تقع أمته في حرج. قال

١٣٠- أخرج الحديث بطوله ابن إسحاق في السيرة ١٧٧/٢، ومن طريقه إسحاق بن راهويه في المسند ٧٣/٤.

١٣١- أخرجه البخاري كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة ٢/٩٧٥.

١٣٢- أخرجه مسلم كتاب الطلاق باب بيان أن تخيير أمراته لا يكون طلاقاً ٢/١١٠٤.

تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٣٣) بل أن الله - عز وجل - رفع العنت عن هذه الأمة ابتداءً يقول تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ ﴾ (١٣٤) لهذا كله فلا غرو أن تجدد كلام النبي ﷺ يتسلل إلى القلوب العاصية، الشاردة عن مولاها كما يتسلل نور الفجر إلى ظلمات الليل البهيم، وكان يتلطف بالناس كما يتلطف النطاسي بمريضه، لا يفجأهم، ولا يصدمهم، ويتحسس آراءهم ويراعي مشاعرهم، وفي هذه الجزئية من بحثنا هذا سنركز على مراعاة النبي ﷺ للرأي العام في مجتمعه ما أمكنه ذلك، يقول د. حمزة: لم يستطع الرأي العام أن يلعب دوره كاملاً في البيئات القديمة، ولكن نستطيع أن نستثني من ذلك (أثينا) من جهة والمدينة على عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من جهة ثانية، وفي المدينة كان العرب إذ ذاك من القلة العددية بحيث يستطيعون بسهولة أن يتجمعوا في المساجد، والجوامع، والأماكن العامة، وأن يتشاوروا في أمور خطيرة (١٣٥).

ومن الأدلة على أهمية الرأي العام عند النبي ﷺ وعمله على كسب الناس إلى صف الدعوة الإسلامية الآتي:

١- الكف عن قتل المنافقين :

إن رسول الله ﷺ كان يعرف المنافقين بأسمائهم وأنسابهم بما علمه المولى عز وجل، وكان يغض الطرف عنهم ويعاملهم بما ظهر منهم من شعائر الإسلام، وقد حاول هؤلاء المنافقون أكثر من مرة الكيد لرسول الله ﷺ، وفي الساعة التي يفعل فيها المسلمون غضباً وتمتد أيديهم إلى السلاح، يهدئ النبي ﷺ من روعهم ويقول كلمته الماثورة: (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه).

فعن جابر بن عبد الله في غزوة بني المصطلق قال عبد الله بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل، فقال عمر: يا رسول الله دعني

١٣٣- سورة التوبة، الآية (١٢٨).

١٣٤- سورة البقرة، الآية (٢٢٠).

١٣٥- الإعلام والدعاية ص ٦.

أضرب عتق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه (١٣٦).

وعن جابر بن عبد الله قال: لما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن بين الناس، قام رجل من بني تميم: فقال: اعدل يا محمد، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل، قال: فقال عمر: يا رسول الله ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟ قال: معاذ الله، أن تتسامع الأمم، أن محمدًا يقتل أصحابه (١٣٧).

هذه النصوص وغيرها تدل دلالة واضحة لا لبس فيها أن رسول الله ﷺ يسعى لصناعة رأي عام إيجابي عنه وعن الإسلام، ويحسب مآلات الرأي العام السالب، وقد علل الإمام العيني إحجام النبي ﷺ عن قتل المنافقين - وإن استحقوا القتل - بأن هذا قد يؤدي إلى أن يتنفر الناس عن الدخول في الإسلام، ويقول بعضهم لبعض: ما يؤمنكم إذا دخلتم في دينه أن يدعي عليكم كفر الباطن، فيستبيح بذلك دماءكم وأموالكم، فلا تسلموا أنفسكم إليه للهلاك، فيكون ذلك سبيلًا لنفور الناس عن الدين (١٣٨).

وقال ابن تيمية: إن النبي ﷺ كان يكف عن قتل المنافقين، مع كونه مصلحة، لئلا يكون ذريعة إلى قول الناس، إن محمدًا يقتل أصحابه، لأن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه، وممن لم يدخل فيه، وهذا النفور حرام (١٣٩). إذن نلاحظ أن شيخ الإسلام رحمه الله، قد مشى شوطًا أبعد مما ذهب إليه العيني وذلك من ناحيتين:

أ- أن النفور من الدين، قد يشمل المسلم فضلًا عن غيره.

ب- ثم يفتي - عليه رحمة الله - بأن هذا التنفير حرام، وهذه الكلمة من هذا الإمام لم يُلقها هكذا في معرض الكلام من غير حساب، بل هي مذهب عنده ثابت

١٣٦- أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ ٤ / ١٨٦١ ومسلم كتاب البر والصلة باب نصر الأخر ظالمًا أو مظلومًا ٤ / ١٩٩٨.

١٣٧- أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ / ٣٥٤. وفيه أبو الزبير المكي رواه معنعنًا عن جابر بن عبد الله.

١٣٨- عمدة القاري ١٦ / ٨٩.

١٣٩- الفتاوى الكبرى ٣ / ٢٥٨.

كما سننقل عنه ذلك بعد قليل، إذن فهي رسالة واضحة إلى بعض المسلمين من العلماء وغيرهم، الذين تصدر منهم أقوال وأفعال تنصب على رؤوس الناس كأنها جلاميد صخر حطها السيل من عل، دون مراعاة أو حساب، ويرون أن هذا من باب "الصدع" بالدين، فيكون نتاج ذلك خصمًا من رصيد الدعوة.

٢- بناء الكعبة :

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: يا عائشة لولا أن قومك حديثوا عهدٍ بشركٍ لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، وجعلت لها باين، بابًا شرقياً، وبابًا غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشًا اقتصرتها حيث بنت الكعبة (١٤٠).

وهذا الحديث أيضًا فيه دلالات على أبواب واسعة في معالجة النفس الإنسانية التي جبلت على التمرد، وطبعت على الجدل، فإن رسول الله ﷺ يعلم يقينًا، ويعلم الناس أن هذه الكعبة الآن ليست على القواعد ولا على الهيئة التي بناها أبو الأنبياء عليه السلام، ولكنه لم يهدم ولم يغير الوضع الذي وجدها عليه، حسابًا لسلامة القلوب - والإسلام فيها لا زال غضًا طريًا - من أن تتبدل وتتغير ولعلها تتردد على أعقابها. وقد بنى العلماء على هذا الحديث قواعد عظيمة في فقه الأقوال والأفعال، يقول النووي: في هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام منها: إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة، وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم، لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبًا، وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيمًا، فتركها ﷺ، ومنها تألف قلوب الرعية، وحسن

١٤٠- أخرجه البخاري كتاب الحج باب فضل مكة وبنائها ٢/ ٥٧٣ ومسلم كتاب الحج باب نقض الكعبة وبنائها ٢/ ٩٦٩.

حياتهم وأن لا ينفروا، ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه، ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي (١٤١).

٣- صبره على بعض المسلمين:

إن رسول الله ﷺ وهو يجابه المشركين والمنافقين، بحلمه العظيم، وقلبه الرؤوف الرحيم، لا يخلو أحياناً من أن يصيبه بعض أذى من بعض المسلمين، فكان ﷺ كما قال الشاعر:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال (١٤٢)

ولكن هذه النصال لم تجعل النبي ﷺ يحيد قيد أمثلة عن منهجه في تأليف القلوب، وبذله من نفسه كل ما من شأنه أن يسفر به وجه الإسلام في ظلماء الجاهلية، ونكتفي هنا بإيراد الحديث المعروف في خصومة الزبير والأنصاري في حصة الماء لكل منهما عند سقيا الأرض، قال النبي ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري وقال: أن كان ابن عمك (١٤٣).

وأيضاً لم يأمر النبي ﷺ بعقوبة هذا القائل، الذي لو تأمل في توجيه النبي ﷺ للزبير لعلم أنه قد وجهه إلى سرعة إرسال الماء إلى جاره قبل أن يستوفي حقه كاملاً، قال الإمام علي القاري: لو صدر هذا الكلام من إنسان كان كافراً، وجرت على قائله أحكام المرتدين من القتل، وأجابوا بأنه إنما تركه النبي ﷺ، لأنه كان في أول الإسلام يتألف الناس، ويدفع بالتي هي أحسن، ويصبر على أذى المنافقين، ويقول: لا يتحدث الناس: إن محمداً يقتل أصحابه (١٤٤).

١٤١- شرح النووي على صحيح مسلم ٨٩ / ٩.

١٤٢- خزائن الأدب ١ / ١٩٤.

١٤٣- أخرجه البخاري كتاب المساقاة والشرب باب سكر الأنهار ٢ / ٨٣٢ ومسلم كتاب الفضائل باب

علمه ﷺ بالله تعالى ٤ / ١٨٢٩.

١٤٤- مرقاة المفاتيح ٦ / ١٦٩.

إن الطبيب له حالات مع مريضه، تصل إلى حدّ التناقض - في الظاهر - أحياناً، فهو يضع يده الحانية الرفيقة على جبين المريض يتحسس آلامه وشكواه ويهدئ من روعه بكلمات تقطر عذوبة ورقة، وهو نفسه - الطبيب - يحمل مبضعه ويعمل في جسد المريض تقطيعاً وتجريحاً بوجه صارم ويد لا ترتجف، ولكنه في كلا الموقفين الذي يبدو ظاهرهما التناقض، ينطلق من مبدأ كبير وهدف نبيل هو «الرحمة» بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، وكذلك كان رسول الله ﷺ الذي وصفه المولي - عز وجل - بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١٤٥). وكما أسلفنا فهو يستأصل المرض من الأمة مهما كانت الآلام مبرحة، فإن هذه الآلام تتبعها الراحة، والنجاة، ولكنه لا يمانع ﷺ من الترفق بحسهم الاجتماعي طالما أنه لا يمس ثوابت الدين، ومن ذلك ما رواه ابن سعد في الطبقات عن أم كبشة امرأة من قضاة أنها استأذنت النبي ﷺ تغزو معه فقال: لا، فقالت: يا رسول الله إني أداوي الجريح وأقوم على المريض، قالت: فقال رسول الله ﷺ: اجلسي، لا يتحدث الناس إن محمداً يغزو بامرأة^(١٤٦).

وحقيقة لقد وقفت عند هذا الحديث طويلاً، فما وجه مراعاة النبي ﷺ أحاديث الناس هاهنا، وقد ثبت عنه ﷺ أكثر من مرة سماحه للنساء بالغزو معه؟ وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه عدة أبواب في كتاب الجهاد من صحيحه لهذا المعنى منها (باب جهاد النساء) (باب غزو المرأة في البحر) (باب حمل الرجل امرأته في الغزو) (باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال) (باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو) (باب مداواة النساء الجرحى في الغزو) (باب رد النساء الجرحى والقتلى) وأيضاً بوب الإمام النووي في صحيح مسلم (باب غزو النساء

١٤٥ - سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

١٤٦ - طبقات ابن سعد ٣٠٨ / ٨ وإسناده صحيح.

مع الرجال) (باب النساء الغازيات يرضخ لهن) (١٤٧).

وقد حاول الحافظ ابن حجر في ترجمة أم كبشة في كتابه الإصابة الجمع بين حديثها وما أشرنا إليه من حديث غزو النساء بقوله: (يمكن الجمع بين هذا وبين ما تقدم في ترجمة أم سنان، أن هذا (يقصد حديث أم كبشة) ناسخ لذاك لأن ذلك كان بخير، وقد وقع قبله بأحد كما في الصحيح من حديث البراء بن عازب، وكان هذا بعد الفتح) (١٤٨).

رحم الله الحافظ ابن حجر لقد بحثنا في جميع مصادر النسخ والمنسوخ التي توافرت عندنا فلم نجد من أشار إلى هذا، ولا حتى الحافظ نفسه أشار إلى هذا النسخ في فتح الباري وهو يشرح ما ورد في الأبواب المشار إليها سابقاً، ولكن يظهر لنا في الجمع بينها - والله أعلم - أنه بتتبع أحاديث النساء والجهاد في كل مصدر أشار إليها وجدنا أن هناك جماعة من النساء خرجن مع الجيش يؤازر بعضهن بعضاً، بينما لم يرد أي ذكر لأخرى مع أم كبشة، فلعلها انتدبت نفسها وحدها، فلما رآها النبي ﷺ وليس معها من النساء أحدٌ منعها، ولذا عبر بقوله (يغزو بامرأة) ولم يقل (بالنساء) والله أعلم.

١٤٧- انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد ٣/١٠٥٦ وبعدها. وصحيح مسلم كتاب الجهاد (والسير ٣/١٤٤) وبعدها.

١٤٨- الإصابة في تمييز الصحابة ٨/٢٨٣.

خاتمة

- وأخيراً نقول في خاتمة هذا البحث الموجز:
- إن الإعلام وفنونه له مكانة سامية ورفيعة جداً في الإسلام، وذلك بمقتضى ما تثبته نصوص لا تكاد تحصى من القرآن والسنة.
 - وبما أن الإعلام حاجة من حاجات الإنسان الضرورية فقد تماشى النبي ﷺ معها وفق مقتضيات المرحلة والوسائل المتاحة (شعراً، نثراً، اتصالاً مباشراً وغير مباشر).
 - بل نقل النبي ﷺ وسائله ورسائله في مدة زمنية وجيزة من الإقليمي المحلي إلى العالمي الدولي آنذاك فخطب الملوك والزعماء، وجاراهم في أعرافهم الدبلوماسية في معاملة السفراء، وتوثيق المكاتبات وتأمينها (اتخاذ الخاتم) بل أمر ﷺ بتعلم اللغة الأجنبية، وهذه خطوة بعيدة المدى في أمة أمية.
 - مما أشارت إليه هذه الدراسة أن النبي ﷺ كان يراعي إلى مدى كبير جداً الرأي العام ويضع من الخطط والبرامج لكسبه إلى جانب الإسلام.
 - الشورى وتمليك الحقائق للجمهور، وتوحيد مصادر التلقي في الأصول يؤدي ذلك كله إلى صناعة رأي عام متقارب في مجتمع ما، مما يساعد على توحيد الأمة.
 - وأخيراً نقترح ونوصي بتضافر جهود علماء الأمة بشتى تخصصاتهم على إبراز الدراسات الإعلامية في السنة المشرفة.
 - وأيضاً نقترح أن تتضمن المناهج الدراسية في الجامعات والكليات المتخصصة في العلوم الإسلامية، مقررات في علوم الاتصال والإعلام بل نراها ضرورة من ضرورات العصر، سيما للذين يتولون مهام إرشاد وثقيف الناس.
 - وبالمقابل نقترح أن يقرر على طلبة الإعلام مناهج مختارة ومصممة بدقة في العلوم الإسلامية، تكون عاصماً - بعد توفيق الله - لإعلامي المستقبل من الزلزل والخطل.

قائمة المصادر والمراجع

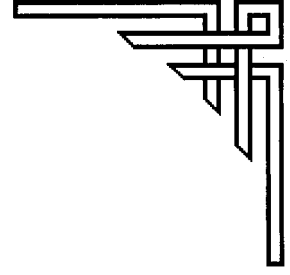
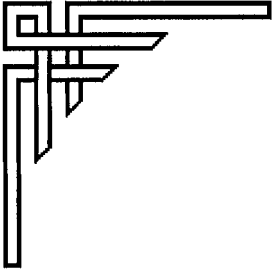
- ١- الإعلام والاتصال بالجماهير - إبراهيم إمام - مكتبة الإنجلو المصرية - القاهرة 1969 - م.
- ٢- الإعلام عن الإسلام في غير ديار الإسلام - د. محيي الدين عبد الحلیم، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1990 - م.
- ٣- الإعلام والدعاية -- د. عبد اللطيف حمزة، مطبعة المعارف - بغداد 1968 - م.
- ٤- الإعلام موقف - دكتور / محمود محمد سفر - سلسلة الكتاب العربي السعودي - الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٥- الإعلام والاستدراج - إبراهيم غرايبة - مقال منشور على موقع الجزيرة نت.
- ٦- الاتصال بالجماهير والرأي العام، الأصول والفنون - د. محيي الدين عبد الحلیم - مكتبة الإنجلو المصرية - القاهرة 1993 - م.
- ٧- الاتصال بين النظرية والتطبيق - د. هناء حافظ بدوي - المكتب الجامعي الحديث - الإسكندرية 2003 - م.
- ٨- أساليب الاتصال والتغيير الاجتماعي - محمود عودة - دار المعارف / القاهرة ١٩٧١م.
- ٩- الأمالي في آثار الصحابة - للإمام عبد الرزاق الصنعاني - تحقيق / مجدي السيد إبراهيم - مكتبة القرآن - القاهرة.
- ١٠- تاج العروس من جواهر القاموس - محمد مرتضى الزبيدي - دار الهداية.
- ١١- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - للإمام شمس الدين الذهبي - تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى 1407 هـ - ١٩٨٧م.
- ١٢- تقريب التهذيب - للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق / محمد عوامة - دار الرشيد - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١٣- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - تأليف الإمام ابن عبد البر تحقيق / مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية / المغرب ١٣٨٧هـ.

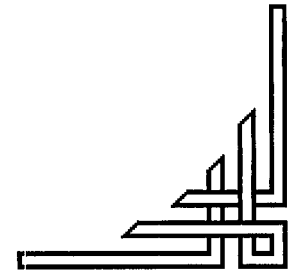
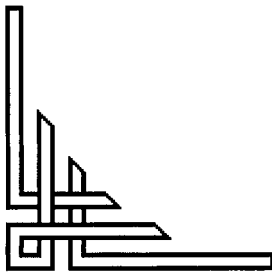
- ١٤- تفسير القرآن العظيم - للإمام ابن كثير - دار الفكر - بيروت 1401 هـ.
- ١٥- التخطيط الإعلامي في ضوء الإسلام - محمود كرم سليمان - دار الوفاء للنشر - القاهرة.
- ١٦- الجامع في الحديث - للإمام عبد الله بن وهب المصري - تحقيق / د. مصطفى أبو الخير - دار ابن الجوزي - السعودية ١٩٩٧ م.
- ١٧- خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب - عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق / محمد نبيل وأميل بديع - دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة أولى - 1998 م.
- ١٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - للإمام جلال الدين السيوطي - دار الفكر - بيروت ١٩٩٣ م.
- ١٩- الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية - د. محمد عبد القادر حاتم - بيروت - لبنان ١٩٧٣ م.
- ٢٠- الرأي العام - د. شاهيناز طلعت - مكتبة الإنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٦ م.
- ٢١- سنن البيهقي - للإمام أحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق / محمد عبد القادر عطا - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة 1414 هـ - ١٩٩٤ م.
- ٢٢- سنن ابن ماجه - للإمام / محمد بن يزيد القزويني - تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت.
- ٢٣- سيرة ابن هشام - للإمام: عبد الملك بن هشام - تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد - دار الجليل - بيروت ١٤١١ هـ - الطبعة الأولى.
- ٢٤- السياسات الاتصالية والإعلامية في العالم الإسلامي - د. محمود إبراهيم شلبية - منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٢٥- شرح النووي على صحيح مسلم - تأليف الإمام / يحيى بن شرف النووي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية 1392 هـ.

- ٢٦- صحيح الإمام البخاري - للإمام محمد بن إسماعيل البخاري - تحقيق / د. مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- ٢٧- صحيح الإمام مسلم - للإمام مسلم بن الحجاج - تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٨- صحيح ابن حبان - للإمام محمد بن حبان البستي - تحقيق / شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت / الطبعة الثانية ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ٢٩- علم الاتصال بالجماهير. الأفكار - النظريات - الأنماط - دكتور / فلاح كاظم المحنة - مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع عمان - الأردن - طبعة أولى ٢٠٠١م.
- ٣٠- عمدة القاري شرح صحيح البخاري - للإمام بدر الدين العيني - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٣١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه - لأبي علي الحسين بن رشيق القيرواني - تحقيق / محمد قرقران - دار المعرفة - بيروت 1988م.
- ٣٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري - للإمام ابن حجر العسقلاني - تحقيق / محب الدين الخطيب - دار المعرفة - بيروت.
- ٣٣- الفقيه والمتفقه - للإمام الخطيب البغدادي - تحقيق / عادل الغرازي - دار ابن الجوزي - السعودية - طبعة ثانية / ١٤٢١هـ.
- ٣٤- في ظلال القرآن - للشهيد / سيد قطب - دار الشروق - القاهرة.
- ٣٥- مدخل إلى الاتصال والرأي العام - د. عاطف عدلي العبد عبيد - دار الفكر العربي - القاهرة - الطبعة الثالثة 1419 هـ - ١٩٩٩م.
- ٣٦- مدخل إلى الإعلام والرأي العام - د. محمد عبد الملك المتوكل.
- ٣٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق / عبد الرحمن بن محمد النجدي - مكتبة ابن تيمية - الطبعة الثانية.
- ٣٨- مختصر الفتاوى المصرية - لابن تيمية / تأليف / محمد بن علي الحنبلي - تحقيق / محمد حامد الفقي - دار ابن القيم - السعودية - الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- ٣٩- المسند - للإمام أحمد بن حنبل - مؤسسة قرطبة - مصر.
- ٤٠- المصنف - للإمام ابن أبي شيبه - تحقيق: كمال يوسف الحوت - مكتبة الرشد - الرياض - طبعة أولى ١٤٠٩هـ.
- ٤١- المعجم الأوسط - للإمام سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق / طارق عوض الله الحسيني - دار الحرمين / القاهرة ١٤١٥هـ.
- ٤٢- المعجم الكبير - للإمام سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي - مكتبة الزهراء - الموصل - طبعة ثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ٤٣- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح / تأليف علي القاري - تحقيق / جمال عيتاني - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى 1422 هـ - ٢٠٠١م.
- ٤٤- نظرية الرأي العام - عقل الجماهير بين التشويه السياسي وانتفاضة الوعي - البروفسير / حامد عبد الماجد قويسني (مقال منشور على الإنترنت).
- ٤٥- نيل الأوطار - للإمام محمد بن علي الشوكاني ، دار الجيل - بيروت ١٩٧٣م.



البيان الختامي



البيان الختامي للندوة العلمية الدولية الثالثة « القيم الحضارية في السنة النبوية »

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وآله وأصحابه
الغر الميامين.
أما بعد:

فقد انعقدت - بحمد الله وتوفيقه - في رحاب كلية الدراسات الإسلامية
والعربية بدبي في تاريخ ٤-٧/ ربيع الثاني / ١٤٢٨هـ الموافق ٢٢-
٢٥ / أبريل / ٢٠٠٧م الندوة العلمية الدولية الثالثة حول: «القيم الحضارية في
السنة النبوية» شارك فيها جمع من العلماء وكوكبة من الباحثين بحضور طلاب
وظلمات الكلية وقُدِّمت فيها ورقات علمية قيِّمة كانت مجالاً رحباً للمناقشة
والتعقيبات بين المشاركين وضيوف الندوة وحاضريها.

ومن خلال الأبحاث المقدمة والمناقشات التي أعقبتها، واستناداً إلى استمارة
الاقتراحات والتوصيات المستلمة من المشاركين والحاضرين، وبعد اجتماع الأمانة
العامة تم الاتفاق على التوصيات الآتية:

١- ضرورة الارتقاء بمنهج التأليف في السنة النبوية وذلك بكتابة موسوعة عصرية
شاملة للقيم الحضارية في السنة النبوية الصحيحة تلبي حاجة المسلم من حيث
المحتوى والتبويب.

٢- إعادة صياغة مناهج التعليم المدرسي والجامعي والمسجدي وفق رؤية شاملة
للقيم الحضارية في السنة.

٣- توجيه طلبة الحديث في مرحلتي الماجستير والدكتوراه نحو موضوعات تمس
حاجة المسلمين الحضارية المعاصرة.

٤- الاستمرار في عقد ملتقيات وندوات تعنى بإبراز القيم الحضارية في السنة
ودراستها دراسة وافية.

٥- توجه عناية الباحثين بتأليف كتب، تبرز القيم الحضارية في السنة النبوية

بأسلوب ميسر للناشئة.

٦- نوصي بإنشاء (جائزة الندوة) لتأليف كتاب في قضية من قضايا السنة تحددها الندوة في كل دورة.

٧- نوصي الجامعات والمعاهد العلمية، إدخال مقرر (القيم الحضارية الواردة في السنة النبوية في مناهجها التعليمية).

٨- مخاطبة الهيئات والوزارات المعنية في العالم الإسلامي، بما ورد من توصيات وبحوث، ليتم الاستفادة منها في مجال خطب الجمعة ودروس المساجد ومحاضراتها ووسائل الإعلام والدعوة

٩- تحث الندوة على ترجمة أبحاثها وملخصاتها بمختلف اللغات العالمية ونشرها وتنزيلها على مواقع الإنترنت.

١٠- تؤكد الأمانة العامة للندوة على ضرورة استمرار التواصل بين المشاركين فيما بينهم من أجل النهوض بالسنة وخدمتها الخدمة اللاتقة بها.

وأخيراً فإن الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف أصالة عن نفسها ونيابة عن جميع اللجان التنظيمية تتقدم بثنائها العاطر وشكرها الوافر لمعالي جمعة الماجد رئيس مجلس أمناء الكلية راعي هذه الندوة المباركة على الجهود التي بذلها في سبيل خدمة الحديث الشريف والذب عنه.

كما تتقدم الأمانة العامة بالشكر الجزيل إلى سعادة مدير كلية الدراسات الإسلامية والعربية الأستاذ محمد عبد الرحمن الذي أشرف وسهر بكل اهتمام على متابعة سير أعمال الندوة وإلى أساتذة الكلية الفضلاء الذي أسهموا بجدية في إنجاح هذه الندوة تنظيمًا محكمًا ومشاركة متميزة.

ولا يفوت الأمانة العامة أن تُنوّه بحكومة دبي على التسهيلات المقدمة وكرم الضيافة، وكذلك تتوجه بشكرها إلى الجهات التي أسهمت في رعاية هذه الندوة وإنجاحها.

وصلى الله وسلم على النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

كلمة الختام... نيابة عن الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف

أ. د. أحمد معبد

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه. وبعد:

فإن ما ذُكر من توصيات هذه الندوة، ومقترحات ومدخلات الحاضرين والحاضرات، كل ذلك يجعل الحديث الختامي لا يخلو من التكرار، ولكن في التكرار ذكرى، لمن ألقى السمع وهو شهيد.

فنبداً بحمد الله - سبحانه وتعالى - على ما أنعم به من التوفيق والتسديد لكل من أسهم في هذه الندوة، سواء من أبناء ورجالات دبي والإمارات العربية عموماً، أو من الإخوة والأخوات من باقي دول العالم الذين لبوا الدعوة لحضور الندوة، وتحملوا مشاق الأسفار، تحذوهم الرغبة الصادقة في الالتفاف حول مائدة السنة النبوية والاحتفاء بقيمتها الحضارية.

وإن اجتماعنا جميعاً على هذا النحو في هذه الفترة - رغم قصرها - وإسهام كل منا في وقائع هذه الندوة ومحاورها وبحوثها بما استطاع ليبر تعبيراً عملياً عن أن الإسلام وأهله بخير دائماً، في سرائهم أو ضرائهم، ويؤكد كذلك أن في أصول الإسلام من القرآن الكريم والسنة النبوية من عوامل البقاء والفاعلية مما يجعلها تتحدى بذاتها كافة الثقافات المعارضة ولو عز النصير وتكاثر الأعداء والمعاندون، ويمكّنها من مقاومة كافة المواجهات والصراعات، متسلحة بالحكمة ومحتكمة إلى الدليل، وداعية إلى كل القيم البناءة لخيري الدنيا والآخرة. واثقة بوعد الله الذي لا يخلف وعده، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١).

(١) سورة التوبة، الآية (٣٣)، وسورة الصف، الآية (٩).

ولعلّ من يتابع من حضراتكم حركة انتشار الدين الإسلامي الآن يلاحظ أنه رغم تداعي الأمم والأعداء في كل مكان على الإسلام والمسلمين، فإن كثيراً من تلك الأمم يدخل في الإسلام طواعية، وبدون حملات تبشيرية ولا مغريات مادية. فمن يرى هذا أو يسمع به لا يخالجه شك في أن هذا الدين حق في ذاته ومبادئه وأن وعد الله عزّ وجلّ بإظهاره على كل ما عده من النحل والمذاهب وعد صادق لم يتخلف، وأنه سيظل كذلك إلى يوم الدين. ولم توجد حتى الآن نحلة ولا مذهب ولا نظرية تجمع الكمال في قيمها وأهدافها بما يشمل الدنيا والآخرة سوى الإسلام مع ضمانه في ذات الوقت لمن ثبت عليه أن يحظى بخيري الدنيا والآخرة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

ومن أروع الحقائق الناصعة في ذلك ما يقرره العلامة ابن خلدون بأن هذه الملة لا تنسلخ بانسلاخ الدول، ولا تتقوض مباني الدين بتقويض معالم الملك. وعدا من الله لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كله^(٣). ولا يمكن لمنصف أن ينكر أن حضارة الإسلام المستمدة من القرآن والسنة النبوية قد صنعت ركائز الحضارة الإنسانية وأفادت كل من وجّه شطره نحوها حتى من أعدائها.

لكننا لا نريد أن نعيش على الأماني وأمجاد الماضي وحدها ولكن نريد أن ندعو أنفسنا وغيرنا من كل من أنعم الله عليه بهذا الدين أن يأخذ من الماضي والحاضر عبرة المستقبل وزاد التقدم والازدهار.

وأن يسهم كل منا بما يستطيع من توضيح معالم السنة النبوية وتفعيل قيمها الحضارية في نفسه أولاً ثم في مختلف جوانب الحياة والأحياء من حوله علماً

(٢) سورة الأعراف، الآية (٩٦).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١٠/٧).

وتعليمًا فكريًا وسلوكيًا. دون أن يستقل كل منّا جهده، أو يحيل المسؤولية على غيره. وإن من قيم السنة الحضارية قوله ﷺ: «لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس»^(٤)، وليس يخفى على جمعكم الكريم من أفاضل الأساتذة والأستاذات من رواد الفكر والتربية والتعليم والفتوى أن الجهود الفردية لتجار المسلمين والدعاة والرحالة قد حقق الله على يديها انتشار الإسلام في ربوع كثيرة من الشرق والغرب دون حرب ولا قتال ولا إجبار ولكن القدوة الصالحة في أنفسهم والموعظة الحسنة في دعوتهم كانت هي أمضى الأسلحة التي فتحت القلوب وجذبت الأمم إلى الدخول في دين الله أفواجًا عن رغبة وإقناع.

وقد لاحظ جمعكم الكريم على مدى أيام المؤتمر الثلاثة من خلال اثنين وثلاثين بحثًا متخصصًا بعضها من أستاذ واحد أو أستاذة، وبعضها من أستاذ وأستاذة معًا كل منهما قد وظف اختصاصه مع الآخر في خدمة السنة النبوية وإبراز جوانبها الحضارية، وتقديم طرح متكامل من العلم والعمل.

وقد أثرى ذلك وضاعف فائدته ما أبداه الحاضرون والحاضرات من مداخلات تقويمية وحوار بناء فساعد ذلك في توضيح الرؤى، وتحديد الأبعاد والغايات النبيلة لمشتملات البحوث المقدمة لهذا المؤتمر.

أيها الحضور الأفاضل إن لكل منكم جزاءه الأوفى عند ربه بقدر ما بذل من جهد وإسهام مشكورًا ولا سيما من أسهموا في رعاية هذه الندوة ومن أشرفوا عليها وتابعوا بكل عناية واهتمام جميع وقائعها وضيوفها ليلاً ونهارًا تنظيمًا وتنفيذًا.

وإن من إحقاق الحق أن نرفع باسم هذا المؤتمر جزيل الشكر وعظيم التقدير لولاة الأمر في هذا البلد الكريم ولعالي جمعة الماجد - حفظه الله - منشئ هذا الصرح العلمي وراعيه، وندعوا الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٩٨/٣.

والشكر موصول إلى كل العاملين في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي التي انعقدت الندوة في رحابها، نشكر كلا منهم بشخصه على ما قدّم من جهد وتعاون في سبيل إنجاح هذه الندوة.

وباسم الأمانة العامة نشكر الجميع وندعوا الله لهم بالتوفيق وحسن الجزاء، كما لا يفوتنا شكر أبنائنا الطلاب وبناتنا الطالبات بهذه الكلية وغيرها على حضور وقائع هذه الندوة والإسهام في إثرائها بالمداخلات والحوار العلمي. ونرجو فيما توصلنا إليه من خلال ذلك من توصيات ومقترحات أن لا يعتبر أحد تفعيل هذه التوصيات والمقترحات واجب طرف بعينه أو جهة بعينها، بل الجميع ممن حضر أو سمع عبر وسائل النشر والإعلام، نحن في أمس الحاجة إلى تعاونهم بالقول والعمل، كل في موقعه وبقدر وسعه. ومسئوليته هي أمام ربه، وجزاؤه الأوفى منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَعَآثِرُهُمْ ۖ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (٥).

والكلمة الطيبة يصل صاحبها في الجنة ما لا يصل إليه بكثير من العمل، والعكس صحيح. ومن يملك الكلمة الطيبة يملك بها العقل وبالتالي يتبعه الجسد ويستطيع بإذن الله التغيير إلى الأفضل.

وهناك وعد إلهي لا يختلف حيث يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ ۚ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦). وليس هناك نظرية يتعهد صاحبها بتحقيق نتائجها في الدنيا والآخرة إلا ما وعد الله به، وليس هناك جزاء أعظم مما قرره السنة النبوية لمن سن سنة حسنة، بأن يكون له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. فنسأل الله تعالى أن يجعل لكل منا نصيباً موفوراً في تفعيل قيم ومبادئ هذه السنة النبوية وإحيائها قولاً وعملاً في جميع الأوساط ومواقع الحياة. إنه سميع مجيب.

(٥) سورة يس، الآية (١٢).

(٦) سورة الأنفال، الآية (٧٠).

كلمة عميد الكلية أ.د. سعيد الأيوبي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير الأنام،
محمد رسول الله النبي العدنان، وعلى آله وعترته الأطهار، وصحابته الأخيار،
ومن تبعهم واقتدى بهديهم إلى يوم القرار.

معالي جمعة الماجد الفاضل

سعادة مدير الكلية المحترم

ضيوفنا الأعزاء

زملائي الأساتذة - أخواتي الطالبات

أيها الحضور الكريم.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ها هي ندوتكم الغراء، قد أشرفت على الانتهاء، وليتها دامت لحظة اللقاء.
ولكن الأمور إلى مصائر، وقد نلنا منها، والحمد لله، ما نروم إليه من الأنوار
والبصائر.

إن ندوتكم أيها السادة كانت جولة موفقة مباركة، في روضة السنة المحمدية
العطرة، التي يضوع أريجها مما اشتملت عليه من أكاليل الزهور، وتيجان
السرور. وكنوز الدر المنثور.

فقد أفدتم وأجدتم - جزاكم الله خيراً - بعروضكم النافعة، وتعقيباتكم السديدة،
وتوجيهاتكم وتوصياتكم البناءة.

والمسلم مستلهم فكره وجنانه، وأسير لسانه، ولا ينفث من صدره إلا ما
يعتقده من القول ويؤمن به.

ولله در القائل:

وما من كاتب إلا سيفنى ويُبقى الدهر ما خطت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك يوم القيامة أن تراه

لقد جاءت ندوتكم الميمونة المظفرة في إبانها، لترد السهام المصمية إلى نحور قوم المؤتفكات الذين علت صيحاتهم، وارتفعت عقيرتهم بالإساءة إلى رسولنا الكريم، يريدون النيل منه، والتهوين من قدر رسالته، فمضوا يجتهدون في تأصيل باطلهم وتنميته، ويسترفدون له كل إفك من القول وزور، في فرية بلا مرية، فأعدت أبحاثكم الحق إلى نصابه والمياه إلى مجاريها لتترد إلى غايتها، وما حادت عنها قط قيد أثملة. وإنما توهم المرضى من الأعداء ذلك ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وتعجبني أبيات لمحمد فال ولد حرمة يرد فيها على زعم الفاتكان يقول:

ألا قولوا لبابا الفاتكان بأنال نعيش على هوان
وأن رسولنا أسمى مقاما وأعظم في القلوب وفي اللسان
وأن الفاتكان إذا تمادى أذاهم في الزمان وفي المكان
سيخرج من بني الإسلام يوما عليهم فاتك أو فاتكان

وفي هذا المنحى من الإشارة والإلماح، بيان لا يتأتى في أسلوب المباشرة والإفصاح.

لقد حازت الأمانة العامة لندوة الحديث حظاً غير ضئيل من التوفيق والإصابة في انتقاء موضوع الندوة (القيم الحضارية في السنة النبوية) وذلك لصلته بفقهِه الواقع، وحاجة الناس في الوقت الراهن إلى استلهاهم هذه القيم المثلى، والعمل بها في حياتهم اليومية، وقد استطاعت الأبحاث بكل صدق وأمانة، وإن جاءت طرائق قديداً، أن تبرز هذه القيم المحمدية النبوية الشريفة، الثاوية في نصوص السنة، وأن تزيل القناع عن محاسن التشريع فيها، لتكون نبزاً ونوراً يهتدى به

في السلوك، والمعاملات، والعبادات، انطلاقاً ومآلاً.
ولا أريد أن أطيل عليكم حتى لا أكون مملولاً ممجوجاً، فإنكم من الحديث خلال
أربعة أيام قد بشتمتم. ولكنني أريد أن أزجي خالص الشكر والتقدير لكل المعقبين
والمتابعين المهتمين ، كما أشكر معالي جمعة الماجد الذي ما فتى ينفق بسخاء في
سبيل العلم والمعرفة لا يرجو من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً إلا ابتغاء مرضاة الله
سبحانه وتعالى .

كما اشكر سعادة مدير الكلية الأستاذ محمد عبد الرحمن الذي يرتد إليه كل
الفضل في إقامة هذه الندوة تنظيماً، ومتابعة، وحرصاً على نجاحها.
والشكر موصول إلى الطاقم الإداري، وإلى اللجنة التنظيمية، واللجان
الأخرى المؤازرة.

كما أشكر رعاة الندوة وأهيب بهم إلى أن يعودوا لمثلها كما قالت بنت لبيد لابن
أروى الذي وهب أباه منحة فاستزادته بقولها:

فعد إن الكريم له معاد وظني بابن أروى أن يعودا
وفي ختام هذه الجلسة التي أمل أن تكون فاتحة سلسلة من الندوات تترى،
نلتاقم فيها بصحف جديدة متميزة، استودعكم الله، وأرجو أن تكونوا قد قضيتم
بين ظهرانينا ملاوة من الوقت هنية.
والسلام عليكم.

- ركائز التنمية المستدامة وحماية البيئة في السُّنة النَّبويَّة
 - د. محمد عبد القادر الفقي - رئيس تحرير مجلة البيئة البحرية - الكويت ٥
- القيم الحضارية في التوجيهات النبوية الشريفة المعنية بالبيئة
 - أ.د. ميمون باريش - المغرب ٦٥
- الجلسات العلمية، الجلسة الخامسة:
- الإيمان والعمران دراسة في علاقة الإيمان بالتنمية البشرية
 كما يصورها الحديث النبوي الشريف
 - د. حسام أحمد قاسم - جمهورية مصر ١١٩
- الاستثمار الزراعي من خلال السُّنة النَّبويَّة دراسة حديثة تأصيلية
 - د. نذير حمادو - الجزائر ١٨١
- (أخلاقيات العمل الاقتصادي) في ضوء السُّنة النَّبويَّة المطهرة
 - د. أحمد مصطفى عفيفي - المعهد العلمي الإسلامي، العين
 ود. عدنان بن عبد الرزاق الحموي العُلبّي - جامعة الإمارات ٢٥٣
- اهتمام السُّنة النَّبويَّة بترابط المجتمع
 - د. إكرام الله إمداد الحق عبد الرحمن - المملكة العربية السعودية ٣٠٥
- حرية التعبير وضوابطها في السُّنة النَّبويَّة
 - د. عبد الرحمن بن محمد العمراني - المغرب ٣٧١
- حرية التعبير في السُّنة النَّبويَّة: (ضوابطها وصورها)
 - د. مستورة رجا المطيري - الكويت ٤١٣

الجلسة السادسة:

- القيم الإعلامية في السُّنَّة النَّبَوِيَّة وأثرها على حرية التعبير
- أ. د. الحاج الدوش - السودان ٤٤٧
- الاتصال الجماهيري والرأي العام في السُّنَّة النَّبَوِيَّة المشرفة بين المبادئ
المهيمنة والقلوب المؤلفة
- د. أبشر عوض محمد إدريس - كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي ... ٤٨٩
- البيان الختامي ٥٤٩
- كلمة الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف في الختام
- أ. د. أحمد معبد ٥٥١
- كلمة عميد الكلية
- أ. د. سعيد الأيوبي ٥٥٥

الراعي الذهبي



الراعي الفضي



الراعي البرونزي



Government of Dubai
DEPARTMENT OF TOURISM
AND COMMERCE MARKETING

حكومة دبي
دائرة السياحة
والتسويق التجاري